

السيرة النبوية

للداعية الحكيمة، المفكر الإسلامي الكبير

العلامة السيد أبي الحسن علي الحسيني القدوري

تحقيق وتعليق

سيد عبد الماجد الغوري

دار ابن كثير

السيرة النبوية

للداعية الحكيمة، المفكر الإسلامي الكبير
للعلامة السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي

١٣٣٣ - ١٤٢٠ هـ

١٩١٤ - ١٩٩٩ م

تحقيق وتعليق
سيد عبد الماجد الغوري

دار ابن كثير

دمشق - بيروت



حُقوقُ الطَّبعِ وَالتَّصْوِيرِ مَحْفُوظَةٌ لَوَرَثَةِ الْمُؤَلِّفِ
الطَّبعةُ الثَّانِيَةُ عَشْرَةٌ
طَبْعَةٌ دَارُ ابْنِ كَثِيرٍ الثَّالِثَةُ
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

حقوق الطبع والتصوير محفوظة ، لا يُسَمَحُ بإعادة نشر هذا الكتاب ، أو أيّ جزءٍ منه بأيّ شكلٍ من الأشكال ، أو حفظه ونسخه في أيّ نظام ميكانيكيّ أو إلكترونيّ دون الحصول على إذنٍ خطيّ مسبقٍ من ورثة المؤلف .

الجمهورية العربية السورية - وزارة الإعلام
مديرية الرقابة :

السماح بالطباعة رقم ٤٣٤٠٤ تاريخ ١٢ / ٢ / ١٩٩٨

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجبالي
ص.ب : ٣١١ - تلفون : ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٤٢٥٠٢
بيروت - برج أبي حنيفة - خلف دبوس الأصلي
ص.ب ١١٣ / ٦٣١٨ - تلفون ٨١٧٨٥٧ - ٢ / ٢٠٤٤٥٩

Info@ibn-katheer.com - www.ibn-katheer.com



بَيْنَ يَدَيِّ الْكِتَابِ

الحمد لله ربّ العالمين ، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ على مُحَمَّدٍ خَيْرٍ مَنْ افْتُخِتْ
بذكره الدَّعَوَاتُ ، واسْتُنْجِحَتْ بالصَّلَاةِ عليه الطَّلِبَاتُ ، وعلى آلِهِ الذين
عَظَّمَهُمْ تَوْقِيرًا ، وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا .

وبعد : فإنَّنا نسعد بتقديم هذا الكتاب القيم النفيس إلى القراء الكرام ،
الذي نال قبولاً عظيماً ، وحفاوةً بالغةً عند كبار الدارسين والأساتذة الجامعيين
منذ أوَّل يوم لصدوره ، والذين اهتمُّوا به دراسةً وتدريساً ، فسرَّعان ما أصبح
الكتاب من أهمِّ المراجع في السيرة النبوية . ويقدرُ بمدى القبول له والإعجاب
به لدى الناس أنَّه قد نُقِلَ حتى الآن إلى أكثر من عشر لغاتٍ عالمية ، وأُدخل
كذلك في المقرَّرات الدراسية في مختلف البلاد العربية والإسلامية .

وكيف لا . . . فإنَّه قد صدر من قلم رجلٍ استقى عِرْقَه من منبع النُّبُوَّةِ ،
ورَضَعَتْ شَجَرَتُهُ من ثدي الرسالة ، وفَقَّسَتْ بِيضَتُهُ من سُلالة الطهارة ، ورَبَّيَ
منذ نُعومة أظفاره على التعلُّق بالسَّيرة ، وَحُبِّ صاحبها - عليه ألف ألف سلام -
والاهتداء بهديه في الأمور كُلِّها ، فعاش في السيرة ، وعاشت فيه السيرة^(١)
وشكَّلتُ عنصراً أساسياً في ثقافته وحياته . جمعَ في قراءتها بين ما كُتِبَ قديماً
وحديثاً بالعربية والفارسية والأردوية وبالإنكليزية كذلك ، بحيث أصبحت
(السَّيرة) فيما بعد مادَّةَ كتاباته ومحاضراته الأساسَ بصورة مباشرة أو غير
مباشرة^(٢) ، وأصبح تفكيرُه متعلِّقاً بها ، ومنطلقاً منها في توجُّهاته وتوجيهاته ،

(١) كما قال العلامة يوسف القرضاوي في تقديمه لهذا الكتاب (في طبعة دار القلم بدمشق) .

(٢) يجد القارئ أجزاءً كثيرة من السيرة النبوية تنتشر في ثنايا كثير من مؤلَّفات العلامة المؤلَّف =

وأصَبَحَتْ موضوعاً مَحْزُوراً في نتاجه الفكري ، تشيع في أرجائه ، وتُتِير مباحثه ، وما يُثِيره من أفكار وقضايا .

فلا غرابة إذاً بعد هذا . . . أن يكون لهذا الكتاب من القبول والتأثير ، والذيع والانتشار ما لا يكون إلا لكتب كبار المُخْلِصين ، والعُلماء العاملين ، والدُّعاة المجدِّدين إذا كان مؤلفه متَّصفاً بما ذكرناه .

قد صدرَ لهذا الكتاب عدَّة طبعات ، ولكن الطبعة الأخيرة التي صدرت من المجمع الإسلامي العلمي بلكهنؤ (عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م) ، تشتمل على إضافات قيمة للعلامة المؤلف ، فصدرت بعد هذه الطبعة طبعات لم يتناول فيها الناشرون تلك الإضافات^(١) ، فراجت وشاعت دونها بين يدي القراء .

لذا أردنا في هذه الطبعة أن نعني أولاً بالحقاق جميع تلك الإضافات بهذه الطبعة مع العناية بالأمور التالية :

١ - مراجعة الكتاب وتصحيحه بشكل دقيق ، وذلك بالرجوع إلى جميع تلك المصادر والمراجع التي استفاد منها العلامة المؤلف - رحمه الله - .

٢ - استكمال تخريج الأحاديث ، وتخريج ما لم يخرج منها قبل - وهي كثيرة - بين المعقوفتين ([]) .

٣ - شرح الألفاظ الغريبة في حواشي الكتاب بين المعقوفتين - والذي رأيناه لازماً ، خاصة بعدما أصبح الكتاب اليوم مقرَّراً في كثير من المعاهد

= - رحمه الله - ومحاضراته ومقالاته المكتوبة أو المذاعة ، كما استعرضنا ذلك في محاضراته ومقالاته التي جمعناها بعنوان « محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة » و « مقالات إسلامية في الفكر والدعوة » والتي قد صدرت من دار ابن كثير بدمشق .

(١) استثناء منها ، طبعة دار القلم بدمشق الصادرة عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م ، وهي مشتملة على جميع الإضافات الجديدة ، ومتميزة عن الطبقات السابقة علمياً وفنياً .

الثانوية الشرعية في البلاد العربية - ليسهل على القارئ فهم واستيعاب الموضوعات دون الرجوع إلى معجم ما .

٤ - إضافة (٤١) خريطة ملونة إلى الكتاب^(١) ، توضّح للقارئ الكريم أحداث السيرة النبوية ، وتعينه على تصوّر أحداثها أثناء القراءة .

٥ - ضبط الأسماء والأعلام قدر الضرورة ، والتعليق على ما دعت الحاجة إليه ، وهو كثير بين المعقوفتين .

٦ - إضافة مقدمة الباحث الإسلامي الكبير : الدكتور عماد الدين خليل إلى الكتاب ، التي كتبها للطبعة السابعة الخاصة بدار الشروق في جدّة (عام ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م) ، ولكنها لم تطبع فيها بسبب ظروف فنية حالت دون ذلك .

٧ - إضافة ترجمة مستوفاة للعلامة المؤلّف إلى الكتاب تعرّف بشخصيته العبقريّة ، ومكانته العلمية ومؤلفاته النفيسة .

٨ - إلحاق جداول للغزوات والسرايا والأحداث التاريخية المتعلقة بالسيرة ، بآخر الكتاب ، مأخوذة من كتاب « رحمة للعالمين » للقاضي محمد سليمان سلمان المنصور فوري لتكون تسهلاً لمن أراد حفظها .

٩ - إعداد الفهارس العامة في آخر الكتاب .

إنّ المتمعّن في تحقيقنا لهذا الكتاب - خاصة في تخريج أحاديثه - ، والناظر في مجمل التعليقات التي علّقناها عليه يدرك الجهد المضني المبذول ، والوقت الثمين المصروف في خدمته ، ولا نشك أنّ العلامة المؤلّف - رحمه الله تعالى - كان سيُسّر بهذا العمل ، والدقّة التي حقّق بها كتابه النفيس

(١) أعدّها الجغرافي البارغ الدكتور محمد صبحي النشّاي ببذل وقته الثمين وجهده الحثيث فيه ، جزاه الله عن هذه الخدمة خير الجزاء .

المبارك هذا ، كما سُرَّ - قبل أيام من وفاته - ببعض خدماتنا المتواضعة التي قُمنّا بها في إخراج كُتبه ومؤلفاته منقَّحةً ، ونشرها في طباعةٍ أنيقةٍ بين يدي القراء .

نسألُ الله تبارك وتعالى أن يتقبَّلَ جهدنا المتواضع في خدمة هذا الكتاب خالصاً لوجهه ، إنَّه سميعٌ مجيبٌ ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير .

كتبه

المعتزُّ بالله تعالى

عبدُ الماجد الغنوي

دمشق ١٨ / جمادى الأولى ١٤٢٤ هـ

١٧ / تموز (يوليو) ٢٠٠٣ م

الشيخ أبو الحسن الندوي و « السيرة النبوية »

بقلم الدكتور عماد الدين خليل

تشكل المقدمة التي كتبها الشيخ الندوي للطبعة الأولى من مؤلفه القيم عن (السيرة النبوية) مفتاحاً ، أو مدخلاً ، لا بدّ من التوقّف عنده قليلاً لفهم ما الذي أراد أن يقوله أو يفعله وهو يؤلف كتابه هذا ؟!

ومن أجل ذلك فإنّ من الضروري - كما يقول النقاد البنيويون - « تفكيك النصّ » في محاولة للتأشير على العناصر الأساسية للمقدمة باعتبارها مرتكزاً للعمل ، ومبرراً لإخراجه في الوقت نفسه .

إنّ هذه العناصر تمنح القارئ ، حتى قبل مطالعة فصول الكتاب ، القناعة بمبرر ظهور بحثٍ جديدٍ عن السيرة ، بل بضرورته ، فليس الأمر - كما قد يتوهم البعض - مجرد رغبة مخلصّة لإضافة كتابٍ جديدٍ إلى قائمة المؤلفات الحديثة في سيرة الرسول ﷺ ، وإن كانت هذه الرغبة في حدّ ذاتها تحمل على المستوى الديني ، مبرراتها ودوافعها المقنعة ، إنما بالنسبة لباحثٍ متمرسٍ كالأستاذ الندوي ، فإنّ خطوة كهذه ما كان لها أن تكون لو لم يعرف مسبقاً أنّها ستقدّم إضافةً جديدةً إلى مكتبة السيرة ، إنّ على مستوى المنهج أو الموضوع ، ويكفي أن يقع الاختيار على كتاب (الندوي) من بين عشرات وربما مئات من البحوث في السيرة ، لنقله إلى الإنكليزية ، وعدد من اللغات الحيّة ، ومخاطبة العقل الغربي ، وغير المسلم عموماً ، بمفردات هذه السيرة

ودلالاتها ، مهندسة وفق منهج الندوي وأسلوبه ، لكي يتبين أن هذا من بين عوامل عديدة متشابهة كالتى سنؤشر عليها ، ما يجعل الكتاب إضافة جادة وليس تقليداً أو تكراراً .

ومهما يكن من أمر فإننا لو قمنا بإعادة ترتيب العناصر الأساسية للمقدمة ، في سياقات رئيسية من أجل وضع اليد على قيمة الكتاب ؛ فإننا سنجد محاولة (الندوي) هذه تقوم على المحاور التالية :

أولاً : بيئة ثقافية ذات توجه إسلامي ، ينشأ فيها المؤلف ، فيجد نفسه ، منذ تفتح وعيه على الحياة ، قبالة رسول الله ﷺ قراءة ومعيشة وتعلماً . . وبمرور الوقت فإنه يسعى لتنمية خبراته عن السيرة بمزيد من القراءة والدراسة في المصادر (القديمة) والمراجع (الحديثة) بالعربية وغيرها من اللغات ، هذه المتابعة الفكرية التي لم تنفصل يوماً عن بطانتها الوجدانية ، بسبب من عقيدة الرجل وانتمائه البيئي ، وبالتالي فإنها بصيغتها الشمولية هذه والقائمة على ما يسمّى في العصر الحديث بـ (المعيشة التاريخية) ، كانت أقدر على تحقيق المقاربة بين الندوي وبين عالم السيرة الخصب المؤثر ، المتجذر في الغيب ، والذي لن يقدر باحث من الخارج ، أو من البعيد ، على فهمه وإدراكه .

ويجب أن نُشير هاهنا أن الندوي من أجل استكمال أبعاد تجربة المعيشة هذه ، ذهب أكثر من مرة إلى أرض النبوة واجتازها شبراً شبراً ، وكان - وهو يُعاین المعالم والمواقع ويدققها - يعيش في الوقت ذاته ، المناخ الذي تخلّقت فيه مفردات السيرة ، ونُسجت خيوطها ، ويكفي أن نرجع إلى كتاب (الطريق إلى المدينة)^(١) لكي نتلمّس طبيعة المعاناة الوجدانية التي حملها الرجل بين جنبيه وهو يتقلّب هناك .

إنَّ هذه الخطوات كافةً منحت الندويَّ ، كما منحت قَلَّةً محدودةً من الباحثين المعاصرين ، السلاح الذي مكَّنهم من دخول الساحة ، والقدرة على التعامل مع السيرة بأكبر قدر مُمكن من النفاذ والصدق .

ثانياً : لم يُقدِّم الندوي مباشرةً على الكتابة في السيرة ، كمشروعٍ شاملٍ ، قبل أن يُمارس البحث في جوانب منها ، كانت أشبه بخطوات على الطريق . . بتمرينات أولية ، إذا صحَّ التعبيرُ ، تمهيداً للعرض الجامع الأخير^(١) وكان فضلاً عن هذا يمارس التعامل مع السيرة باتجاهٍ موازٍ آخر : الاستمداد من مادتها الخصبة وتعاليمها الغنية في الكثير من كتاباته ومحاضراته .

ثالثاً : بمرور الوقت يتبلورُ لديه إحساسٌ متزايدٌ بضرورة كتابة مؤلَّف شامل عن السيرة ، وكانت تغريه بذلك ، فضلاً عن المؤثرات الذاتية والثقافية والمنهجية آنفة الذكر ، خصائص ومواصفات كان يرى ، محققاً ، أنَّ أيَّ دراسةٍ في السيرة لا تستكمل أسبابها بدُّون حضورها جميعاً ، فكيف إن غاب عامل أو أكثر عن رؤية الباحثين ؟ كما حدث ويحدث لدى العديد من الذين تناولوا الموضوع من المستشرقين ، والمنتمين لعالم الإسلام نفسه ؟ كيف إن غاب معظمها أحياناً ؟ ألا يتحتمُّ في مقابل هذا أن تتعرَّز المحاولات المنهجية التي تسعى جاهدة لاستكمال الأسباب ، وأن تزيد وتتكاثر ، على الأقلِّ لمجابهة هذا السَّيل من الأعمال الناقصة وموازنتها ؟

إذاً « فالسيرة » التي يُنادي الندويُّ بها ، ويسعى إلى تنفيذها في مؤلَّفه

(١) انظر بشكل خاص (الطريق إلى المدينة) والفصول الأولى من كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟) ورسالة (دراسة للسيرة النبوية من خلال الأدعية المأثورة المروية) وكذلك رسالة (النبي الخاتم) واللَّتان قد نُشرتا في مجموعة مقالات العلامة المؤلَّف في السيرة بعنوان « مقالات في السيرة النبوية » في سلسلة « تراث العلامة الندوي » وصدرت في دار ابن كثير بدمشق .

الذي بين أيدينا ، يتحتم قيامها على الخصائص وصيغ العمل التالية :

١ - أن تُبنى بأسلوب عصريٍّ علميٍّ ، فما من شك في أن مناهج البحث المعاصرة ومعطيات العلوم الحديثة تقدّم وسائلَ جيّدةً للمؤرّخ ما كان يملكها الباحثون القدماء ، وبالتالي فإنها تُساعد على الاقتراب أكثر من طبيعة الحدث التاريخي وتركيبه وعرضه بالصيغ الأكثر دقّةً ، ويبدو أن من فضول القول ، أن نُشير هاهنا إلى أن هذه المناهج ، وتلك المعطيات العلمية ؛ ترتد في أصولها - وبدرجة كبيرة - إلى معطيات الحضارة الإسلامية في هذه المجالات ، وهي مسألة أكّدها الباحثون الغربيون أنفسهم في العديد من مؤلّفاتهم .

وبمقدور المرء أن يُلقي نظرةً على السياق المنهجي للكتاب وعلى تهميشاته لكي ما يلبث أن يتبيّن له ما يميّز به مؤلّف الندوي من تركيز ، وتماسك ، ومتابعة للحدث التاريخي الأساسي ، دون خروج إلى تفاصيل جانبية ، وما يلتزم به من توثيق للمعلومات من خلال تثبيت المصادر والمراجع بأجزائها وصفحاتها ، وبشرح المفردات وتحديد الأعلام .

أمّا اللغة فهي سلسلة واضحة تسعى إلى التوصيل بأكبر قدر من الوضوح ، وتتجاوز التعقيد والإغماض حتى في تعاملها مع النصوص المستمدّة من المصادر القديمة .

وقد يختلف المرء مع المؤلّف في أمرٍ واحدٍ وهو أنّه لم يعتمد منهجَ التقسيم الموضوعي لأحداث السيرة ومفرداتها ، وإنّما التزم خطّ التسلسل الزمني للأحداث رغم تقاطعها النوعي من حين لآخر ، وهو منهجٌ اعتمده معظمُ الباحثين المعاصرين في السيرة .

٢ - أن تعتمد على خير ما كُتب في القديم والحديث ، ذلك أن البحث الجادّ هو - بشكل من الأشكال - عملٌ نقديٌّ انتقائيٌّ ، لا يستسلم بسهولة

لركام الروايات ، ولا يغريه أحياناً التضحُّمُ في المادة التاريخية ، ومعروف أنَّ السيرة قد عانت الكثير بمرور الزمن ، من الإضافات في الخبر التاريخي ، بموازاة ما كان يحدث في « الحديث » النبوي مما هو معروف ، ومن ثم فإنَّ أيَّ محاولةٍ لكتابة السيرة ، أو إعادة كتابتها بشكل أدقَّ ، يتحتمُّ أن تمارس اختياراً - مسؤولاً بطبيعة الحال ، وليس مجرد هوى عشوائي - لخير ما قدمته المصادر القديمة عن السيرة من روايات موثقة أصلية ، ولأحسن ما طرحتها الدراسات الحديثة من تحاليل ومواقف واستنتاجات ؛ قد تُعين على إضاءة أشدَّ تركيزاً لموضوعات السيرة الخصبة المتشابكة ، ولكن تبقى « المصادر الأولى الأصلية » الأساس الذي يقوم عليه البناء ؛ لأنَّ المادة الأولية التي يقام عليها الصرح موجودة هناك ، ويكفي أن نلقي نظرةً على قوائم المصادر التي اعتمدها المؤلف لكي يتبين لنا أنه لم يكد يترك مصدراً أساسياً إلا ورجع إليه ، وإن كان اعتماده المحوري كما هو واضح على « سيرة » ابن هشام و« زاد المعاد » لابن قيم الجوزية ، فضلاً عن كُتب « الصحاح »^(١) .

٣ - أنْ تحقَّق تطابقاً مدروساً بين مفرداتها كافة ، وبين ما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة الموثقة ، ذلك أنَّ المصدرين الأخيرين يحملان الصدق المطلق في تعاملهما مع الواقعة التاريخية ، سواء بالنسبة للمنظور الإسلامي ، أو حتى بالنسبة للمنظور المنهجي العام الذي أخذ يدرك ، أكثر فأكثر ، مصداقية المعطى التاريخي للقرآن والسنة ، وهذا يعني بالمقابل ، رفض

(١) وانظر على سبيل المثال حديثه عن ميلاد رسول الله ﷺ دون تحميله بالمعجزات التي تضحمت بمرور الوقت دونما توثيق تاريخي كافٍ . وكذلك نقده وتفنيدَه لرواية لقاء الرسول ﷺ أيام رحلته الأولى إلى الشام بالراهب النصراني بحيرى . لكن هذا لا يعني - بداهة - رفض المؤلف لكل الروايات التي تتجاوز المؤلف وتستمد مفرداتها من عالم الغيب (انظر مثلاً حادثة شق الصدر) .

واستبعاد كل ما يتعارض مع هذين المصدرين من مفردات أقحمت على السيرة عبر الزمن فيما أصابها بالتضخُّم ، وأضاف إليها الكثير مما لم يكن فيها ابتداء .

ولهذا السبب يدعو الندويُّ إلى تجاوز ما يسمِّيه « الأسلوب الموسوعي الحاشد للمعلومات في غير نقد وتمحيص » ، فإنَّ بعض مؤرِّخي القدماء ، أسوة ببعض أدبائنا القدماء ، كان مغرماً في سياق نزعة موسوعية جمّاعة ، إلى أن يُضيف ويحشد وينوّع ، مؤثراً الحصيلّة الكمية على حساب التركيز الواعي ، مفتقداً - أحياناً - المنهج النقدي ، الانتقائي ، المنحّص ، وهذا المنهج يقتضي أول ما يقتضي الإحالة المنضبطة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فضلاً عن اعتماد معطيات المناهج الحديثة لما يمكن اعتباره إعادة للأمر إلى نصابها الحق فيما يتعلّق بنسيج السيرة ، ويكفي أن يلقي المرء نظرة على هوامش الكتاب لكي تتبيّن له المساحات الواسعة التي اعتمد فيها المؤلّف على المعطيات التاريخية عن السيرة في كتاب الله وأحاديث رسوله عليه الصلاة والسلام .

ومن أجل ألاّ يتصوّر أحدٌ ، أو يخطر على باله ، بأنّ دعوة الندويّ هذه قد تقوّد العمل باتجاه الانسياق وراء الاتجاهات الغربية المعاصرة في دراسة السيرة ، فإنه يدعو إلى رفض تقليد هذه الاتجاهات أو « الخضوع لكتابات المستشرقين وأقوال المشكّكين » ، وهاهنا بصدد النقطة الأخيرة فإنّ منهج البحث الغربي ، في حقل السيرة بالذات ، قد يتعامل بصيغ نقدية حادة ومبالغ فيها ، تقود بالضرورة إلى التشكيك بالكثير من أهمّ وقائع السيرة ومرتكزاتها ، خاصة إذا تذكرنا المنظور المادي للرؤية الغربية ، أو العلماني على أحسن الأحوال ، هذا المنظور الذي يرفض البعد الغيبي في تعامله مع

التاريخ ، أو يدفعه إلى الظل ، الأمر الذي يلحق بالسيرة أذى كبيراً .

أما الموقف (الإسلامي) الأصيل من السيرة ، « الموقف المتوحد الذي تتغلغل في نسيجه مشاعرُ الاحترام والتقدير والإعجاب والمحبة واليقين ، والذي يجد في السيرة تعبيراً متكاملًا عن العقيدة التي ينتمي إليها ، فإنه يجد في الدراسات الاستشراقية (الخارجية) عن السيرة ، تغريباً عن مسلماته ، وخروجاً صريحاً على بداهاته ، وما يمكن اعتباره محاولات متعمدة لإصابة هذه المسلمات والبدايات بالجروح والكسور ، وهي - لحسن الحظ - لن تفعل فعلها في يقينه ، إلا في حالات معينة ، بينما نجدتها تدفعه في أغلب الحالات وأعمها إلى الاشتزاز والنفور .

هذا مع أن معالجة واقعة تمتد جذورها إلى عالم الغيب ، وترتبط أسبابها بالسما ، ويكون فيها (الوحي) همزة وصل مباشرة بين الله سبحانه ورسوله الكريم ، ويتربى في ظلالها المتممون على عين الله ورسوله ليكونوا تعبيراً حياً عن إيمانهم ، وقدوة حسنة للقادمين من بعدهم . . واقعة كهذه لا يمكن بحال أن تعامل كما تعامل الجزئيات والذرات والعناصر في مختبر للكيمياء ، أو كما تعامل الخطوط والزوايا والمنحنيات والمساحات والكتل على تصاميم المهندسين ، بل ولا حتى كما تعامل الوقائع التاريخية التي لا ترتبط بأي بُعد ديني أصيل ، إننا هنا بمواجهة تجربة من نوع خاص ، وشبكة من العوامل والمؤثرات تند عن حدود مملكة العقل الخالص ، وتستعصي على التحليل المنطقي الاعتيادي المألوف ، ومن ثم فإن محاولة قسرها على الخضوع لمقولات العقل الصرف ومعطيات المنطق المتوارثة لا يقود إلى نتائج خاطئة حيناً ، ولا تستعصي عليه بعض الظواهر حيناً آخر فحسب ، بل إنه قد يقوم بما يمكن اعتباره جريمة قتل بشكل من الأشكال ، أو محاولة لتفحص الجسد

البشريّ كما لو كان في حالة سكون مطلق بعيداً عن تأثيرات الروح وتعقيدات الحياة .

إنّ الدين ، والغيب ، والروح ، لهي عصب السيرة وسداها ولحمتها ، وليس بمقدور الحس أو العقل أن يدلي بكلمته فيها إلّا بمقدار ، وتبقى المساحات الأكثر عمقاً وامتداداً بعيدة عن حُدود عمل الحواس وتحليلات العقل والمنطق ، إننا - ونحن نتعامل مع هذا المستشرق أو ذاك في حقل السيرة النبوية - يجب أن ننتبه إلى هذه المسألة مهما كان المستشرق ملتزماً بقواعد البحث التاريخي وأصوله ، فإنّه من خلال رؤيته الخارجية ، وتغرّبه ، وعلمانيّته أو ماديته ، يمارس نوعاً من التكسير والتجريح في كيان السيرة ونسيجها ، فيصدم الحس الديني ويرتطم بالبدايات الثابتة ، وهو من خلال منظوريه العقلي والوضعي يسعى إلى فصل الروح عن جسد السيرة ، على الجدل ، وهو في كلتا الحالتين لا يمكن أن يخدم الموقف الإسلامي الجاد من سيرة رسول الله ﷺ أو يحتل موقفاً جاداً منها بوجه من الوجوه «^(١)» .

فلم يكن الندويّ مبالغاً إذاً باعتباره هؤلاء الباحثين « من المشكّكين » الذين يتحتمّ أن نحذرهم ، ونحن نسعى للإفادة من أعمالهم واستنتاجاتهم في هذا الموضوع أو ذاك من مواضيع السيرة ، ونحاول - بدلاً من ذلك - أن ننطلق من منهج إسلامي أصيل يضع النبوة والغيب موضعهما الحق .

(١) المستشرقون والسيرة النبوية : بحثٌ مقارنٌ في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتغمري وات ، لكاتب السطور ، جزء ١ ص ١١٦ - ١١٧ من مجلد (مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية) الذي أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج في إطار الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري (الرياض ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) .

٤ - أن يكون النصُّ أو الروايةُ التاريخيةُ ، هو الحكم ، هو مادة البناء الأساسية . . أن يحزّر من أيّة محاولة لتقييده بحكم مسبق ، أو إغراقه بالتعليل والتحليل على حساب الواقعة نفسها . . أن تترك له حرية التعبير عن ذاته لكي ينطق بما كان فعلاً لا بما يراد له أن يكون ، وبما أنّ النصوص التاريخية للسيرة على قدر كبير من الاستيعاب للدقائق والتفاصيل ، فيما لم يتهيأ بهذا الخصب والغنى لأيّ سيرة أخرى في تاريخ البشرية ، وذلك بفضل الروافد العديدة التي قدمت هذه التفاصيل ، وغذّتها ، وحمتها من الضياع في الوقت نفسه (وبخاصة القرآن الكريم ، ومجاميع الحديث ، وكُتب السير والشمائل ، فضلاً عن كتب المغازي والمدوّنات التاريخية) . . فإنّ النشاط المحوري في كتابة سيرة رسول الله ﷺ ، ومهمّته الأساسية تنصبُّ على العرض والترتيب والتركيز ، واعتماد منهج سليم في العمل ، ولغة مناسبة قديرة على التوصيل بشروطه المعاصرة .

وبالتّالي فإنّ التّأليف في السيرة لا يجابه بالضرورة - وكما يؤكّد الندويّ - صعوبةً وغموضاً ولا يقتضي افتراضاً ولا قياساً ، كما هو الحال في التراجم الأخرى حيث تشخّ المادة ، وتتضارب الروايات ، وتنتشر الفجوات الزمنية ، وتتناقض الشواهد التاريخية ، ولعلّ هذا هو الذي يفسّر ما يلحظه القارئ في سياق الكتاب من اعتماد متزايد على النصوص (الحرفية) ، ذلك أنّ هذه النصوص إذ تستكمل شرطها الأساسيين وهما الوضوح في العرض والغنى في التفاصيل ، لا تحتاج في كثير من الأحيان إلى بيانٍ أو إضافة أو تعليل .

ورغم ذلك كلّهُ فإنّ تقديم صورةٍ مطابقةٍ أمرٌ مستحيلٌ ، لا سيّما وأنّنا نتعامل ها هنا مع ظاهرة النبوة ذات الارتباطات الغيبية المتشابكة ، فكلُّ

ما كُتِبَ ، وما سيُكْتَبُ لا يعدو أن يكون محاولات للمقاربة في نهاية الأمر .

ولعلّ هذه المسألة الأساسية ، إلى جانب عوامل ثانوية أخرى ، هي التي جعلت المؤلفَ يتردّدُ حيناً من الزمن في الكتابة عن الموضوع ، لولا أنّ إلحاح المُخلصين ، وإلحاح الحاجة إلى مؤلّفٍ بالعربية يتعامل مع الأجيال الجديدة على مستوى المنهج واللغة دون وقوع في سلبيّات المحاولات المعاصرة ، فضلاً عن تمرّس الندوي في كتابة الترجمة التاريخية ، هي التي تغلبت في نهاية الأمر وجعلت الرجلَ يقدم على تنفيذ المشروع .

٥ - هنالك أيضاً محاولة لتحقيق توازنات بين ثنائيات شتى وبخاصة :

أ - الموضوعية والوجدان الدينيّ .

ب - العلمية والضرورات التربوية .

ج - التوجّه بالخطاب إلى المسلم وغير المسلم .

فلا يكفي ، بالنسبة للمسألة الأولى أن يكون الباحث في السيرة (موضوعياً) ، أي أن يتعامل معها من الخارج ، بل لا بدّ أن تكون هناك مساهمةٌ على مستوى الذات .. مشاركةٌ وجدانيةٌ تقرّب الباحث أكثر فأكثر من صميم حدثٍ تاريخيٍّ ليس كالأحداث ، وتجعله يفعل به ويقدر بالتالي طبيعته التكوينية .. نبضه وإيقاعه .. يلمس ، قدر ما يستطيع ، الخيوط التي نسجتها فيعرف مكوناتها .

وهذا بالنسبة للسيرة بالذات ، ليس نقيض الموضوعية ، بل هو مع الموضوعية ومن شروطها ، فإنّ النبوة ليست تجربة وضعية الاندماج والتأثر ، والمعاشية الوجدانية ، بل هي من ضرورات الإدراك والمقاربة ، ومن ثم كان المؤرّخ المسلم ، المتسلّح - طبعاً - بسلاح المنهج العلمي ؛ أقدر من غير

المسلم على خوض غمار التجربة وتقديم بحث أكثر أصالة وأعمق تعبيراً عن هذه الواقعة التاريخية المتفردة .

« لِنُحَاوِلَ أَنْ نَقْرُبَ الْمَسْأَلَةَ أَكْثَرَ ، إِنَّ الْعَمَلَ الْمَعْمَارِي الْكَبِيرَ إِذَا أُقِيمَ عَلَى أُسُسٍ خَاطِئَةٍ فَإِنَّهُ سَيَفْقِدُ شَرْطَيْنِ مِنْ شَرْطِهِ الْأَسَاسِيَةِ : التَّأْثِيرَ الْجَمَالِي الَّذِي يُمْكِنُهُ مِنْ أَدَاءِ وَظِيفَتِهِ الْوَجْدَانِيَّةِ ، وَالْمَقَوِّمَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي تُمْكِنُهُ مِنْ أَدَاءِ وَظِيفَتِهِ الْعَمَلِيَّةِ » .

« إِنَّ الْبَحْثَ فِي (السِّيرَةِ) بَوَجهٍ خَاصٍّ ، لَيْسْتَ لَزِمَ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ مَسْأَلَةٍ أُخْرَى فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ اللَّذَيْنِ يُمْكِنُ أَنْ يَوْفُرَهُمَا مِنْهَجٌ مَتَمَاسِكٌ سَلِيمٌ ، يَقُومُ عَلَى أُسُسٍ عِلْمِيَّةٍ مُوَضَّوعِيَّةٍ لَا تَخْضَعُ لِحَزْبٍ أَوْ مِيلٍ أَوْ هَوًى ، وَيَمْتَلِكُ عَنَاصِرَ جَمَالِيَّتِهِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تَلِيْقُ بِمَكَانَةِ الرَّسُولِ الْمُتَفَرِّدَةِ ﷺ وَدَوْرِهِ الْخَطِيرِ فِي إِعَادَةِ صِيَاغَةِ الْعَالَمِ بِمَا يَرِدُّ إِلَيْهِ الْوَفَاقُ الْمَفْقُودُ مَعَ نَوَامِيسِ الْكُونِ وَالْحَيَاةِ ، وَقَدْ كَانَتْ مَنَاهِجُ الْبَحْثِ الْغَرْبِيِّ (الْإِسْتِشْرَاقِيِّ) فِي السِّيرَةِ تَفْتَقِرُ إِلَى أَحَدِ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ أَوْ كِلَيْهِمَا ، وَكَانَتْ النَّتِيجَةُ أَبْحَاثًا تَحْمِلُ اسْمَ السِّيرَةِ وَتَتَحَدَّثُ عَنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَتَحْلُلُ حَقَائِقَ الرِّسَالَةِ ، وَلَكِنَّهَا - يَقِينًا - تَحْمِلُ وَجْهًا وَمَلَاحِجَ وَقِسَمَاتٍ مُسْتَمَدَّةٍ مِنْ عَجِينَةٍ أُخْرَى غَيْرِ مَادَّةِ السِّيرَةِ ، وَرُوحًا أُخْرَى غَيْرِ رُوحِ النُّبُوَّةِ ، وَمَوَاصِفَاتٍ أُخْرَى غَيْرِ مَوَاصِفَاتِ الرِّسَالَةِ .

« إِنَّ نَتَائِجَهَا تَنْحَرِفُ عَنِ الْعِلْمِ لِأَنَّهَا تَصْدُرُ عَنِ الْهَوَى ، وَتَفْقِدُ الْقُدْرَةَ عَلَى مُسَامَاةِ عَصْرِ الرِّسَالَةِ وَشَخْصِيَّةِ الرَّسُولِ ﷺ وَنَقْلَ تَأْثِيرَاتِهِمَا الْجَمَالِيَّةِ بِالْمَسْتَوَى الْعَالِي نَفْسَهُ مِنَ التَّحَقُّقِ التَّارِيخِيِّ ؛ لِأَنَّهَا تَسْعَى لِأَنْ تَخْضَعَ حَقَائِقَ السِّيرَةِ لِمَقَايِيسِ عَصْرِ تَنْسَخُ كُلَّ مَا هُوَ جَمِيلٌ ، وَتَزَيِّفُ كُلَّ مَا هُوَ أَصِيلٌ ، وَتَمِيلُ

بالقيَم المشعَّة إلى أن تفقد إشعاعها وترتمي في الكلمة ، وقد تؤول إلى البشاعة» (١) .

وتكاد المسألة الثانية التي يسعى الندوي إلى تنفيذها ، أن تكون امتداداً للأولى ، ولكنَّ المعنيَّ بالتوازن هذه المرَّة هو القارئ وليس الموضوع ، فإلى جانب ضرورة التزام الجانب العلمي بالبحث في السيرة ، فإنَّ هناك ضرورة لا تقلُّ أهمية هي الضرورة التربوية . . أن تقدم السيرة بصيغة عمل ذي رسالة تربوية تملك قدرتها على التأثير في القارئ وكهربته بتيّار الرسالة القادم من السماء ، وها هنا يمكن أن يكون اعتماد منهج حيوي مؤثِّر بجانب الجمود والجفاف ، ويتشكَّل بالمؤثرات التي مرَّت بنا عبر الفقرات السابقة ، مسألة ضرورية لتحقيق الهدف ، وها هنا أيضاً يرفض الندوي ما يسمِّيه « بالتجميل الخارجي أو التزيين الصناعي » لأنَّ هذا في نهاية الأمر نقيضٌ للجمال الباطني ولقوَّة التأثير وصدقه .

يبقى التوازن الثالث وهو التوجُّه بالخطاب إلى المسلم وغير المسلم ، وهي مسألة محسومة بمجرد أن نتذكَّر إلحاحَ الندوي على اعتماد مناهج البحث الحديث وأدوات التوصيل المعاصرة . . فإنَّ هذا بحثٌ ذاته يعقد جسراً بين مفردات السيرة وبين القارئ الحديث ، مسلماً كان أم غير مسلم ، ولعلَّ اختيار كتابه هذا لكي يُترجم إلى الإنكليزية ، وعدد آخر من اللغات الحية ، إنما كان اقتناعاً بقدرته على التواصل مع غير المسلمين (٢) .

(١) المستشرقون والسيرة النبوية : لكاتب المقدمة ، ج ١ ، ص ١١٧ .

(٢) وانظر بشكل خاص المحاضرة التي اختتم بها الكتاب بعنوان (فضل البعثة المحمدية على الإنسانية ومنحها العالمية الخالدة) والتي سبق وأن ألقاها في ربيع عام ١٩٧٥ بمدينة لكهنؤ بالهند ، وحضرها جمٌّ غفيرٌ من المسلمين وغير المسلمين ، للاطلاع على تنفيذ الندوي لهذه المسألة في كتابه .

٦ - يرى الندوي ضرورة تسليط الضوء على البيئة التي ظهر فيها الرسول ﷺ وتشكلت سيرته على أرضيتها . . البيئة ببُعديها التاريخي والجغرافي ، وبامتدادها المحلي والعام (ويمكن أن تكون الخرائط الدقيقة التي أرفقت بالكتاب امتداداً لهذه الضرورة) .

ويكاد يكون مؤلفُ الندوي ، من بين قلة من المؤلفات الحديثة ، التي تناولت السيرة ، مَنْ أولى اهتماماً ملحوظاً بهذه المسألة ، وخصَّص لها مساحات واسعة في كتابه^(١) .

ورغم أنَّ معطيات السيرة ، في المنظور الإسلامي ، تتجاوز في نهاية الأمر حدود الزمن المرحلي والمكان المحدود ، باتجاه كلِّ زمن وكلِّ مكان ، ورغم أنها - في هذا المنظور نفسه - تشكلت في جانبها الخاص بظاهرة النبوة ، بعلم الله اللدني الشامل الذي يعلو على نسيئات الجغرافية ومتغيرات الحركة التاريخية ، فإنَّها - أي السيرة - وفي المنظور الإسلامي كذلك ، ابنه بيئتها ، وليدة زمنها وجغرافيتها ، إذ لا يمكن بحال فصل نسيجها عن ارتباطه المتشابك بالبيئة . . بل إنَّنا لو تابعنا مفردات السيرة واحدةً واحدةً ، لرأيناها لا تكاد تتحوَّل إلى « العام » إلاَّ بعد اجتيازها (الخاص) وتعاملها معه ، وسنكون غير علميين بالمرَّة لو أنَّنا أغفلنا هذا الارتباط بحجَّة عالمية الرسالة وديمومتها ، وعدم تقييدها بالنسبيِّ أو المحدود ، وسنقع كذلك في المظنة

(١) انظر مثلاً واضحاً حيث يفرش المؤلف تحليله للبيئة الجاهلية لدى ظهور الإسلام عبر حلقاتها الثلاث : العالم ، الجزيرة العربية ، ثم مكة ، على هذا المدى الواسع من الكتاب ، وذلك للاطلاع على طبيعة تحليله للبيئة المدنية (في يثرب) . ولا ينسى المؤلف أن يعرف القارئ بالملوك والحكام الذين كتب إليهم رسول الله ﷺ رسائله المعروفة يدعوهم فيها إلى الإسلام .

التي أسرت الفكر الغربي ، وهذه النظرة أحادية الجانب تلك التي تتشجع على مساحة محدّدة من الظاهرة ، وتشبّثُ بها دُونَ أن تقلبها على وجوها لمتابعة الجوانب الأخرى ، وهاهنا بصدد السّيرة ، فإنّنا يجب أن نولي اهتماماً للوجهين معاً : العام والخاص ، المطلق والبيئي ، لأنّ إغفال الجانب الثاني سيجرّنا إلى المثالية بمفهومها التجريدي المنفصل عن الواقع والأرضية .

وإنّنا بمجرّد أن نلقي نظرةً ولو سريعة على أسباب النزول في القرآن الكريم ، فلسوف نرى بأنّ أعيننا كيف أنّ كثيراً من التعاليم والقيم القرآنية ، تخلّقت من تفاصيل بيئية صرفة . . من حدثٍ تاريخيٍّ عابرٍ أو تحدّد جغرافيٍّ محدودٍ . . من تجربة هذا الرجل أو ذاك ، ومن محنة هذه الجماعة أو تلك . . من سؤالٍ أو اقتراحٍ قد يتقدّم به هذا الصحابيُّ أو ذاك فيما يُعائشونه يوماً بيومٍ وخطوةً بخطوةٍ . . لكنّ هذه التعاليم والقيم لم تأسرّها مواصفات البيئة ونسبياتها ، ولا أريدُ لها أن تكون كذلك ، إذ أنّها سرعان ما تجاوزت ظروف تشكّلها ، الخاصة صوب العام . . صوب المطلق ، بعيداً عن متغيرات الجغرافية والتاريخ لكي نتعامل مع الإنسان في كلّ زمن ومكان .

ولقد شاءَ علم الله - الذي هو سبحانه أعلم بمن خلق - ألاّ يصوغ القيم والتعاليم في كتابه الكريم ، وسنة نبيّه عليه أفضل الصلاة والسلام ، في الفراغ أو من الفراغ ، إنما جعلها سبحانه تتشكل في البيئة ، في الجغرافية والتاريخ ، وبتبادلٍ واقعيٍّ منظورٍ بين الطرفين لكي تكون أشدّ حضوراً ، وأعمق تأثيراً ، وذلك مذهبٌ مهمٌّ من مذاهب التربية العقيدية عبر التاريخ .

ونحن نعرف ، على سبيل المثال فحسب ، لماذا لم تنزّل المقاطع

القرآنية الخاصة بمعركة أُحُد . . المقاطع المترعة بالقيَم والتعاليم ، إلا بعد هزيمة أحد مباشرة ، وليس بعيداً عنها أو بدونها . . وقل مثل ذلك عن حشود كثيفة أخرى من مفردات السيرة .

إذاً فإنَّ سعي الندويِّ لإضاءة البيئة التي تشكَّلت فيها هذه المفردات ، وتأكيدُه على تأثيراتها المتشابكة في الحدث النبويِّ ، أمرٌ بالغ الأهمية ، وهو يشكِّل في الواقع واحدةً من أهمِّ الإضافات التي تقدِّمها دراستُه إلى حقل السيرة ، بل واحدةً من أهمِّ مبرِّرات إخراجها إلى الوجود .

بِقَامِ الذِّكْرِ عِمَادِ الدِّينِ خَلِيلٍ

ترجمة

العلامة المؤلف

« رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى »

هو المربي العظيم ، والداعية الحكيم ، والمفكر المجدد ، والأديب البارع ، والكاتب القدير ، وعلامة الهند ، ورباني الأمة ، ونموذج السلف ، والعالم العامل ، والحبر الكامل ، والزاهد المجاهد : الشيخ السيّد أبو الحسن علي الحسيني الندوي ، صاحب الكتب الفائقة ، والرسائل الرائقة ، والمحاضرات النافعة ، « والذي أجمع عليه السلفيون والمتصوفون ، والمذهبيون واللامذهبيون ، والتقليديون والمعاصرون »^(١) ، و« الذي أخلص وجهه لله تعالى ، وسار في حياته سيرة المسلم المخلص لله تعالى ورسوله ﷺ ، فدعا إلى الإسلام بالقُدوة الحسنة ، ودعا إلى الإسلام بكتبه النقية ، ودعا إلى الإسلام بسياحته التي حاضر فيها ، ووجه وأرشد »^(٢) ، و« الذي [كان] ذخراً للإسلام ودعوته ، وكتبه ومؤلفاته تتميز بالدقة العلمية ، وبالغوص العميق في تفهّم أسرار الشريعة ، وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي ووسائل معالجتها »^(٣) ، و« الذي عرفته في

(١) قاله فقيه الدعاة ، وداعية الفقهاء : الدكتور يوسف القرضاوي .

(٢) قاله شيخ الأزهر الأسبق : الدكتور عبد الحليم محمود - رحمه الله - .

(٣) قاله الداعية الفقيه ، الصابر المجاهد : الدكتور مصطفى السباعي - رحمه الله - .

شخصيته وفي قلمه ، فعرفتُ فيه قلبَ المسلم ، والعقلَ المسلم ، وعرفتُ فيه الرجلَ الذي يعيشُ بالإسلام وللإسلام على فقهٍ جيّدٍ للإسلام . . . هذه شهادةُ الله أودعها»^(١) ، و«الذي [كان] مدرسة فكرية افتقدها العالمُ الإسلاميُّ برحيله»^(٢) .

اسمه ونسبه وأسرته :

هو عليُّ أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسيني ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتَر بن محمّد ذي النَّفس الزكية بن عبد الله المحض ، بن الحسن (المثنى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم .

أوّل من استوطَنَ الهندَ من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٧٧٦ هـ) .

والده مؤرّخ الهند الكبير العلامة الطبيب السيّد عبد الحي الحسيني ، الذي استحقَّ بجدارته لقب « ابن خُلُكان الهند » لمؤلّفه القيم « نزّه الخواطر وبهجة المسامع والنواظر » في ثمانى مجلّدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبِعَ أخيراً باسم « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام »^(٣) .

أمّا والدته - رحمها الله - فكانت من السيّدات الفاضلات ، المربيات النادرات ، المؤلّفات المعدادات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعرَ ، وقد نظمتُ مجموعةً من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ .

(١) قاله الأديب الكبير ، الداعية الشهيد : سيد قطب .

(٢) قاله الدكتور عبد الله المحسن التركي ، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .

(٣) في ثلاث مجلّدات ضخمة ، في دار ابن حزم ، بيروت .

ميلاده ونشأته :

أَبْصَرَ الْعَلَامَةُ أَبُو الْحَسَنِ النَّدَوِي النُّورَ فِي ٦ مُحْرَم ١٣٣٣ هـ (الموافق عام ١٩١٤ م) بِقَرِيَّةِ « تَكِيَّةَ كَلَّانَ » الْوَاقِعَةِ قُرْبَ مَدِيرِيَّةِ « رَائِي بَرِيلِي » فِي الْوَلَايَةِ الشَّمَالِيَّةِ « أُتْرَابَرْدِيَش » .

بَدَأَ دِرَاسَتَهُ الْإِبْتِدَائِيَّةَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي الْبَيْتِ ، ثُمَّ دَخَلَ فِي الْكُتَّابِ حَيْثُ تَعَلَّمَ مَبَادِيَّ اللَّغَتَيْنِ (الْأُرْدُوِيَّةِ وَالْفَارْسِيَّةِ) شَأْنَ أَبْنَاءِ الْبُيُوتَاتِ الشَّرِيفَةِ فِي الْهِنْدِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ ، وَكَانَ عَمْرُهُ يَتَرَاوَحُ بَيْنَ التَّاسِعَةِ وَالْعَاشِرَةِ إِذْ تُوفِّيَ وَالِدُهُ الْجَلِيلُ عَامَ ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) . فَتَوَلَّى تَرْبِيَّتَهُ أُمُّهُ الْفَاضِلَةُ ، وَأَخُوهُ الْأَكْبَرُ الدُّكْتُورُ عَبْدِ الْعَلِيِّ الْحَسَنِيِّ^(١) وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْفَضْلُ فِي تَوْجِيهِ وَتَرْبِيَةِ الْعَلَامَةِ النَّدَوِيِّ .

بَدَأَ دِرَاسَتَهُ الْعَرَبِيَّةَ عَلَى الشَّيْخِ خَلِيلِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيِّ الْيَمَانِيِّ^(٢) فِي أَوَاخِرِ عَامِ ١٩٢٤ م ، وَتَخَرَّجَ عَلَيْهِ مُسْتَفِيداً فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، ثُمَّ تَوَسَّعَ فِيهِ وَتَخَصَّصَ عَلَى الْأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ تَقِيِّ الدِّينِ الْهَلَالِيِّ الْمَرَاكَشِيِّ^(٣) عِنْدَ مَقْدَمِهِ إِلَى نَدْوَةِ الْعُلَمَاءِ عَامَ ١٩٣٠ م .

(١) انظر ما كتب عنه العلامة الندوي في كتابه « شخصيات وكتب » ص (٦٣) ، طبع دار القلم بدمشق .

(٢) انظر ترجمته في « من أعلام المسلمين ومشاهيرهم » ص (٢٨١) طبع دار ابن كثير ، بدمشق .

(٣) هو العلامة البحَّاثُ ، وأحد كبار علماء اللغة العربية في هذا العصر ، وُلِدَ بِسَجْلَمَاسَةِ فِي الْمَغْرِبِ ، وَنَشَأَ نَشْأَةً صُوفِيَّةً ، ثُمَّ تَرْكَهَا وَاتَّخَذَ السُّلُفِيَّةَ مَعْتَقِداً ، سَافَرَ إِلَى الْهِنْدِ وَقَرَأَ الْحَدِيثَ عَلَى كِبَارِ مُحَدِّثِيهَا يَوْمَنْدُ ، وَعَيَّنَ أَسْتَاذاً خِلَالَ إِقَامَتِهِ فِيهَا فِي كَلِيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي دَارِ الْعُلُومِ - نَدْوَةِ الْعُلَمَاءِ ، تُوْفِيَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِالْدارِ الْبَيْضَاءِ عَامَ ١٤٠٧ هـ .

دراسته الجامعية :

التحق بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً ، ونال منها شهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً تُعتبر في القمّة العربية والأردوية ، ممّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وتعلّم الإنجليزية مما مكّنته من قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر .

ثمّ التحق بدار العلوم - ندوة العلماء عام ١٩٢٩م وقرأ الحديث الشريف (صحيح البخاري ، ومسلم ، وسنن أبي داود ، وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلامة المحدث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي^(١) ، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم على العلامة المفسر المشهور أحمد علي اللاهوري في لاهور عام ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م ، وحضر دروس العلامة المجاهد حسين أحمد المدني^(٢) في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً .

في سلك التدريس :

انخرط في سلك التدريس عام ١٩٣٤م ، وعُيّن أستاذاً في دار العلوم - ندوة العلماء لمادتي التفسير والأدب .

(١) انظر ترجمته في « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » للعلامة عبد الحي الحسني ، ج : ٣ ، ص : ١٢١٨ ، طبع دار ابن حزم ، بيروت .

(٢) انظر ترجمته في كتاب « من أعلام المسلمين ومشاهيرهم » ص (٢٣٩) .

واستفاد خلال تدريسه في دار العلوم من الصحف والمجالات العربية الصادرة في البلاد العربية ، مما عرفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعلمائها وأدبائها ومفكراتها عن كتب ، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء الغرب والزعماء السياسيين .

نشاطاته الدعوية والإصلاحية :

قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩م ، تعرّف فيها على الشيخ المرّي العارف بالله عبد القادر الرّأي فوري^(١) ، والداعية إلى الله الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي^(٢) ، وكان هذا التعرف نقطة تحوّل في حياته ، وبقي على الصلة بهما حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتلقّى التربية الروحية من الشيخ الرّأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتأسّى بالشيخ الكاندهلوي في القيام بواجب الدعوة وإصلاح المجتمع ، وقضى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها .

أسّس مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنة النبوية عام ١٩٤٣م ، وأسّس حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١م ، والمجمع الإسلامي العلمي بدار العلوم - ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩م .

شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابديش) عام ١٩٦٠م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند

(١) انظر ترجمته في « من أعلام المسلمين ومشاهيرهم » ص (٢٥٩) .

(٢) انظر ترجمته في « من أعلام المسلمين ومشاهيرهم » ص (٢٣٣) .

عام ١٩٦٤م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢م .

رحلته مع الكتابة والتأليف :

كَتَبَ أَوَّلَ مقالٍ بالعربية في مجلَّة « المنار » للعلامة السيّد رشيد رضا المصري عام ١٩٣١م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد ، وكان عمره - آنذاك - أربعة عشر عاماً ، ثم نشره العلامة رشيد رضا ككتاب مستقل لَمَّا رأى إعجاب كبار كتّاب العرب به .

ظَهَرَ لَهُ أَوَّلُ كتابٍ بالأردوية عام ١٩٣٧م يحمل اسمه « سيرة أحمد شهيد » ونَالَ قبولاً عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان ، وصدر له طبعاتٌ عديدةٌ فيما بعد .

بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَرَ أَوَّلُ كتابٍ فيها بعنوان « مختارات من أدب العرب » عام ١٩٤٠م ، و« قصص النبيّين » للأطفال و« القراءة الراشدة » عام ١٩٤٤م ، وقرّر جميع هذه الكتب في مقرّرات المعاهد والجامعات الإسلامية في بلاد العرب وشبه القارة الهندية .

ألَفَ كتابَه المشهور « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » عام ١٩٤٤م ، الذي عُدَّ من أفضل الكتب التي صدرت في هذا القرن^(١) .

دُعِيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة بجامعة دمشق عام ١٩٥٦م ، وألقى محاضرات بعنوان « التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي » نُشِرَتْ بعد ذلك في شكل كتاب مستقلّ في أربع مجلّدات باسم « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » .

(١) كما قاله المرثي المفكّر ، الداعية الناقد البصير : الأستاذ محمد المبارك - رحمه الله - .

ألّف كتابه حول القَادِيَانِيَةِ بعنوان « القادياني والقاديانية » عام ١٩٥٨ م ، وكتابه « الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية » عام ١٩٦٥ م وكتابه « الأركان الأربعة » عام ١٩٦٧ م ، و« السيرة النبوية » عام ١٩٧٦ م ، و« العقيدة والعبادة والسلوك » عام ١٩٨٠ م و« المُرتَضَى » في سيرة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - عام ١٩٨٨ م .

رئاسته لتحرير المجلّات والجرائد الإسلامية والإشراف عليها :

شارك في تحرير مجلّة « الضياء » العربية الصادرة من دار العلوم - ندوة العلماء عام ١٩٣٢ م ومجلّة « الندوة » الأردوية الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠ م ، وأصدر مجلّة باسم « تَعْمِيرِ حَيَاتٍ » بالأردوية عام ١٩٤٨ م ، وكتب مقالات في الأدب والدعوة والفكر في أمّهات المجلّات العربية الصادرة من مصر ودمشق ك : « الرّسالة » للأستاذ أحمد حسن الزيّات و« الفتح » للأستاذ محب الدين الخطيب و« حضارة الإسلام » للدكتور مصطفى السّباعي و« المسلمون » للدكتور سعيد رمضان المصري .

أشرف على إصدار جريدة « نَدَايِ مِلّتْ » بالأردوية عام ١٩٦٢ م ، وأشرف كذلك على إصدار مجلّة « البعث الإسلامي » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٥ م ، وجريدة « الرائد » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩ م ، ومجلّة « تعمير حيات » الأردوية الصادرة منذ عام ١٩٦٣ م ، وكلّها تصدر من دار العلوم - ندوة العلماء في لكهنؤ ، (الهند) .

رحلاته :

سافر إلى الشرق والغرب داعيةً إلى الله بالحِكمَة والموعظة الحسنة ، عاملاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة ، وبالعَمَلِ

الإيجابيَّ البناء في كُلِّ مجال ، جواباً للآفاق في سبيل الله ، محاضراً ، ومحدثاً ، ومُحاوراً ، واعِظاً وهادياً ، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية ، والمجامع الجامعية والمؤسَّسات الإسلامية ، والمؤتمرات والندوات فيها^(١).

تقدير وتكريم :

انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتَّصف به من العِلْمِ الجَمِّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثَّفة المشكورة في الأدب العربي الإسلامي .

اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢ م .

اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١ م .

اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠ م ، لمؤلَّفه القيم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » .

مُنح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كَشْمِير عام ١٩٨١ م .

اختير رئيساً لمركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣ م .

اختير عضواً في المجمع المَلِكِيّ لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عَمَّان (الأردن) .

اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤ م .

(١) اقرأ للاطلاع على رحلاته الدعويَّة في الخافقين كتاب « رحلات العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي مشاهداته - محاضراته - انطباعاته - لقاءاته » إعداد المحقِّق ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

أُقيمت ندوةٌ أدبيةٌ كبيرةٌ حول حياته ، وجُهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب في إستانبول « تركيا » عام ١٩٩٩م ، حضرت فيها كبرى الشخصيات الدينية ، والأدبية من أنحاء العالم العربي والإسلامي .

اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقُدِّمَ إليه الجائزة وليُّ العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سُمُو الشيخ محمد بن راشد المكتوم .

منح له سلطان بروناي جائزة لخدماته الإسلامية ، عام ١٩٩٨م ، وذلك اعترافاً بمكانته العلمية والفكرية الإسلامية العظيمة ، وتقديراً لخدماته المتميزة التي أنجزها في مجال الدعوة الإسلامية العظيمة ، والفكر الإسلامي .

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع :

تولَّى العلامة الندوي الرئاسة والعضوية لعدَّة جامعات إسلامية ، ومجامع عربية ، ومنظَّمات دعوية ، ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه ، ومنها على سبيل المثال :

الأمين العام لدار العلوم - ندوة العلماء (التي أخذت صفة العالمية منذ ترأس أمانتها ، وتفوّقت على معظم جامعات العالم التي تهتمُّ بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية) .

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) .

رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ (الهند) .

رئيس مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا) .

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند .

- رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أُتْرَابَرْدِيش) .
- عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .
- عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة .
- عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .
- عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
- عضو مجمع اللغة العربية الأردني .
- عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسّسة آل البيت) بالأردن .
- عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط (المغرب) .
- عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
- عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان) .
- عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم دُيُوبَنْد الإسلامية (الهند) .
- وعدا ذلك تولّى العلامةُ الرئاسةَ والعضويةَ لكثير من الجامعات الإسلامية ، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ، ولجان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه .

وفاته :

توفي - رحمه الله - عَقِبَ نوبةٍ قلبيةٍ مفاجئةٍ عن السادسة والثمانين من عمره الحافل بالأعمال القيمة والمآثر العظيمة ، والخدمات الجليلة في مجال الفكر والدعوة والأدب يومَ الجمعة في ٢٣ من شهر رمضان المبارك عام ١٤٢٠هـ

(وكان آخر يوم من شهر ديسمبر عام ١٩٩٩م) في مسقط رأسه « رائي بريلي » .

صَلَّى عليه في أنحاء العالم الإسلامي صلاة الغائب ، وصَلَّى كذلك حوالي خمسة ملايين من المسلمين الوافدين من مختلف أصقاع العالم في الحرمين الشريفين في ٢٧ رمضان بعد صلاة العشاء ، رحمه الله رحمةً واسعة ، وتغمّده بها وأسكنه فسيح جنانه .

خَلَقَهُ وَخَلُقَهُ :

كان - رحمه الله - نحيفَ البدن ، ونحيل العود ، نقيّ اللون ، وقوراً مهيباً في غير عبوس أو فظاظة ، طَلَقَ الوجه دائم البشر ، نظراته عميقة نفاذة ، ونبراته دقيقة أخّاذة ، فيها بحة .

كان جَمَّ التواضع ، هادئاً ، محباً للخير ، ودوداً محبوباً من كافة الطبقات .

كان خيرَ مثلٍ للعالم ، الورع الخلق ، الذي يضمّر الخير للجميع ، كان مثلاً في النزاهة ، والتواضع والجرأة النادرة في الدعوة إلى الإصلاح ، وفي الاستقامة ، والحرص على الحق .

كان عدوّاً للمظاهر الكاذبة ، يتخفّف في ثيابه وطعامه وفراشه ، ويكره التكلّف والمجاملة الزائدة ، ولا يُقِيمُ للمال وزناً في حياته ، كانت ثقته بربه فوق كلّ شيء ، وكانت مثابرته على النضال في سبيل ما يؤمن به مضرب الأمثال ، وإخلاصه العميق كان سرّاً نجاحه ، بينما يفشل الآخرون .

كان دائمَ المطالعة ، حريصاً على صحبة الكتاب في خلواته وأوقات فراغه ، وكان شديد الاهتمام والعناية بكتب السيرة - على صاحبها ألف ألف سلام - وبكتب السلف والتاريخ والأدب .

كان فصيحَ اللسان ، بليغَ الكلام ، وكان يمتاز بتمكّنٍ عجيبٍ من اللغة العربية ، وتذوّقٍ رفيعٍ للأدب ، وكانت تراكيبه اللفظية تلفت السامع ، وتستهيوي القلب ، وكان يغلب على أسلوبه العنصر العاطفي الملهب ، ومع ذلك إذا طرق بابَ البحث أجاد وأفاد وأمتع .

كان شديدَ العبادة والاجتهاد في رمضان ، وكان يؤثّه مئآتٌ من الناس من أنحاء الهند يصومون معه ويقومون ، ويتحوّل المكان الذي يقضي فيه رمضان إلى زاويةٍ عامرةٍ بالذكر والتلاوة ، والسهر والعبادة .

كان من أعظم آماله - رحمه الله - أن يرى الإسلام سائداً على الأرض ، وأن يرى الدول الباغية مهضومة حتى يسلي نفسه ويستبشر ، ويرى انتقام الله من الذين حاربوا الإسلام وأذلّوا المسلمين .

مؤلفاته :

للعلامة الندوي - رحمه الله - مؤلفاتٌ قيمة ، ورسائلٌ ممتعةٌ في السيرة ، والفكر ، والدعوة ، والأدب ، والتراجم ، نذكر هنا ما هو الأشهر منها بالعربية :

- ١ - السيرة النبوية .
- ٢ - الطريق إلى المدينة .
- ٣ - سيرة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم (للمبتدئين) .
- ٤ - المُرْتَضَى (في سيرة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه) .
- ٥ - رجال الفكر والدعوة في الإسلام (أربع مجلدات) .
- ٦ - الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته إلى الله .

- ٧ - شخصياتٌ وُكِّتْ .
- ٨ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟!
- ٩ - الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية .
- ١٠ - الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية .
- ١١ - إلى الإسلام من جديد .
- ١٢ - المسلمون وقضية فلسطين .
- ١٣ - روائعٌ من أدب الدعوة في القرآن والسيرة .
- ١٤ - الأركان الأربعة في ضوء القرآن والسنة .
- ١٥ - العقيدة والعبادة والسلوك .
- ١٦ - التربية الإسلامية الحُرَّة .
- ١٧ - المدخل إلى الدراسات القرآنية .
- ١٨ - المدخل إلى دراسات الحديث .
- ١٩ - ربَّانِيَّةٌ لا رهبانِيَّة .
- ٢٠ - القاديانية والقادياني دراسةٌ وتحليلٌ .
- ٢١ - في مسيرة الحياة (ثلاثة أجزاء في سيرته الذاتية) .
- ٢٢ - مختاراتٌ من أدب العرب (مجلَّدان) .
- ٢٣ - روائع إقبال .
- ٢٤ - إذا هبَّت ريحُ الإيمان .
- ٢٥ - المسلمون في الهند .
- ٢٦ - مذكَّرات سائح في الشرق العربي .

٢٧ - قصص النبيين (للأطفال) .

٢٨ - قصص من التاريخ الإسلامي (للأطفال) .

وللعلامة غير هذه المؤلفات والكُتب - مئات المقالات والمحاضرات والبحوث في السيرة النبوية ، والفكر ، والدعوة ، والأدب ، والتراجم وفي موضوعات مختلفة ، وقد جمعناها ونشرناها مصححةً ومنقحةً في سلسلة « تراث العلامة الندوي » فقد صدر منها حتى الآن :

١ - محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة (ثلاث مجلدات) .

٢ - مقالات إسلامية في الفكر والدعوة (مجلدان) .

٣ - دراسات قرآنية .

٤ - مقالات في السيرة النبوية .

٥ - من أعلام المسلمين ومشاهيرهم .

٦ - أبحاث في التعليم والتربية الإسلامية .

٧ - أبحاث في الحضارة الإسلامية والتربية .

٨ - بحوث في الاستشراق والمستشرقين .

٩ - رحلات العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي .

١٠ - مكانة المرأة في الإسلام .

١١ - خطابات صريحة إلى الأمراء والرؤساء .

١٢ - اسمعيات^(١) .

(١) من يريد الاستزادة من الاطلاع على حياته وشخصيته داعية ، ومفكراً ، ومربيّاً وأديباً يرجع إلى كتابنا « أبو الحسن علي الحسيني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب » (الطبعة الثالثة) طبع في دار ابن كثير بدمشق .

السيرة النبوية

للدَّاعِيَةِ الْحَكِيمِ ، الْمُفَكِّرِ الْإِسْلَامِيِّ الْكَبِيرِ
لِلْعَلَّامَةِ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ الْحُسَيْنِيِّ النَّدَوِيِّ

(١٣٣٣ - ١٤٢٠ هـ)

(١٩١٤ - ١٩٩٩ م)

تَحْقِيقٌ وَتَعْلِيلٌ
سَيِّدُ عَبْدِ الْمَاجِدِ الْغُورِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الحادية عشرة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين وخاتم النبيين ، محمد وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد ! فإنّ أكبر مجموع من كلمات الشكر ، وإبداء السرور ، لا يكفي للتعبير عما يجده مؤلّف الكتاب - الذي يَعْرِف قدره - من السرور ، والشكر والامتنان ، على صدور الطبعة الحادية عشرة لكتابه المفضّل المحبوب « السيرة النبوية » في سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ، ولا يجد إلى ذلك سبيلاً إلاّ أن يستعين بالقول المأثور في الشكر والامتنان ، والاعتراف بالفضل والإحسان ، « الحمد لله الذي بعزّته وجلاله تتمّ الصالحات » .

وينتهز المؤلّف - ككلّ مؤلّف فاحصٍ يُواصِلُ سيره في طلب المزيد الجديد ، والمنير المُفِيد ، في رحلته العلمية التأليفية - هذه الفرصة لضمّ زيادات ، ليست كبيرة القامة ، ولكنها كبيرة القيمة ، وتعديلاتٍ يسيرة ، إلى هذه الطبعة الحادية عشرة ، وآثر - في ضوء تجاربه كمؤلّف - أن يكون ذلك تحت إشرافه وعلى كُتب منه .

وإلى القراء الكرام ، والمؤسّسات العلمية ، والمراكز التعليمية والتربوية ؛ التي عُنِيَتْ بهذا الكتاب وأثرته دراسةً وتدرّيساً ، وفحصاً وتدقيقاً ، هذه الطبعة الجديدة المزيّدة ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً .

المؤلّف

أبو الحسن عليّ الحسيني النّذوي

دار العلوم لندوة العلماء - لكهنؤ

سلخ رجب ١٤١٦هـ

١٩٩٥/١٢/٢١م

تقديم الطبعة السابعة

الحمد لله ربّ العالمين ، والسلام على سيّد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ؛ فقلّب المؤلف وقلمه يسجدان لله شكراً ويلهجان بحمده نطقاً وكتابة ، على تقديم الطبعة السابعة « للسيرة النبوية » فقد صدرت الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) والطبعة السادسة في ١٤٠٥هـ (١٩٨٤م) ، من دار الشروق بجدة ، ولقي الكتاب من القراء والمُعَينين بالموضوع ، ورجال التربية والمؤسسات العلمية ، عناية يحمد الله عليها المؤلف ، ونُقِلَتْ إلى عدّة لغات غير العربية مثل الأردوية والهندية (اللغة الرسمية في الهند القريبة إلى السنسكريتية) والإنجليزية والتركية والأندونيسية ، وعُني بها الدارسون في إطار هذه اللغات المنتشرة في نطاقٍ واسع .

وقد سَنَحَتْ للمؤلف فرصة الاطلاع على ما كُتِبَ في السيرة النبوية وما يتصل بها تاريخياً ، وجغرافياً ، وحضارياً ، واجتماعياً ، ودراسات مقارنة ، خصوصاً في اللغات الثلاث : العربية ، والأردوية ، والإنجليزية ، في هذه الفترة ، فالتقطَ منها بعضَ ما يزيد في المواد الموضوعية ، وشرح خلفيات الحوادث والدراسة المقارنة ، ويلفت نظر المؤلف إلى إيضاح بعض الجوانب التاريخية والعلمية ، والدعوية في السيرة النبوية فاستفادَ من ذلك ، وقام بضمّ زيادات ذات قيمة يبلغ عددها إلى عشرين زيادة ، بين موجزة ومستفيضة ، يجدها القارئ في مكانها .

ولم يقتصر المؤلف - من أوّل عهده بتأليف هذا الكتاب ، إلى استئناف

النظر فيه والزيادة والتنقيح - على عرض الوقائع والأخبار ومجرّد التاريخ والتوقيت كقائمة معلومات رتبة خشبية ، بل عُنِيَ كذلك باستنتاج نتائج عميقة المعنى بعيدة المدى ، ذات قيمة في دراسة سِير الأنبياء ودعواتهم ، لا سيّما سيرة سيّدهم وخاتمهم صلّى الله عليه وآله وسلّم ودعوته ، وفي النفسانيات البشرية ، وعلم الاجتماع والأخلاق ، وهي من وحي السيرة ومن حقوقها وواجباتها على الدارس المؤمن والمعنيّ بتربية الأجيال المسلمة ، وتوجيه المُربيّين والدعاة ، والمؤلّفين والباحثين في موضوع السيرة .

وقد جَاءَتْ هذه الطبعة - بتوفيقِ الله تعالى ويُسرّه - جامعةً بين مواد السيرة الأصلية الموثوق بها ، وبين أحدث ما كُتِبَ وتوصّل إليه الباحثون في هذا الموضوع ، وبين الأمانة التاريخية والتحقيق العلمي ، وبين تغذية الإيمان والعاطفة بما لا سبيل إليه إلّا في السيرة ، وهي غاية أكبر عدد من قرائها ، وحاجة الجميع من أفراد البشر ، وذلك من غير تفخيم أو تلوين ، فالسيرة غنيّة عن كلّ هذا ، فائقة في روعتها وجمالها ، قائمة بذاتها في التأثير على النفوس والعقول .

وأخيراً المؤلّف يحمد الله على أنه فسح في أجله ، وهياً له الأسباب ، حتّى يتمكّن من النظر في كتابه وتناوله بالتنقيح والزيادة ، ويشكر « دار الشروق » العزيزة وصاحبها الحبيب الفاضل سعادة الأستاذ محسن أحمد بارؤوم على عنايتها بنشر هذا الكتاب وإصداره طبعة بعد طبعة ، والعناية بحسن إخراجهِ ، ويسأل الله لهما التوفيق الدائم وحُسن القبول .

أَبُو الْحَسَنِ عَلِيِّ الْحَسَنِ النَّدَوِيِّ

بومباي الهند ١٧ / من ربيع الثاني ١٤٠٧ هـ

أمين عام ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

١٩٨٦ / ١٢ / ٢٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة الكتاب في طبعة الأولى^(١)

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين وخاتم النبيين ، محمّد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أمّا بعد ؛ فقد كانت السيرة النبويّة - على صاحبها الصلاة والسّلام - المدرسة الأولى التي تعلّم فيها مؤلّف هذا الكتاب ، وقد دخلها في سنّ مبكّرة ، لا يدخل فيها الأطفال في عامة الأحوال ، والفضل في ذلك يرجع إلى الجوّ الذي كان يسود بيته وأسرته ، فقد كانت السيرة تُكوّن عنصراً أساسياً في الثقافة التي يتلقّاها أبناء الأسرة وأطفال البيت ، وإلى المكتبة الصغيرة البسيطة المؤلّفة من منظوم ومثثور ، التي كانت تنتقل من يد إلى يد ، ثم إلى تربية أخيه الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسني ، وتوجيهه الحكيم ، فقرأ في صباه أفضل ما كُتب في السيرة النبوية في « أردو » - لغة مسلمي الهند - ، وهي أغنى لغات العالم الإسلامي بعد اللغة العربية في موضوع السيرة ، وهي تحتوي على أقوى وأجمل ما كُتب فيها في العصر الأخير^(١) .

ثم لما صار يشدّو باللغة العربية عكّف على كُتب السيرة ، التي ألّف

(١) اقرأ قصة صلة المؤلّف بكتب السيرة ، وتأثيرها في ثقافته وعقليته وسيرته في كتاب « الطريق إلى المدينة » المقال الأول بعنوان « الكتاب الذي لا أنسى فضله » ص (١٥) من طبعة دار ابن كثير بدمشق .

فيها ، وكانت في مقدّماتها « السيرة النبوية » لابن هشام ، و « زاد المعاد في هدي خير العباد » لابن قيم الجوزية ، ولم يدرسهما دراسة علمية فحسب ، بل عاش فيهما زمناً طويلاً ، يذوق بهما حلاوة الإيمان ، ويُغذّي بما جاء فيهما من القصص والأخبار عاطفة الحبّ والحنان ، ومن المقرّر أن السيرة أقوى العناصر التربوية وأكثرها تأثيراً في النفس والعقل بعد القرآن ، ثم قرأ ما وصلت إليه يده من كتب السيرة المؤلفة قديماً وحديثاً ، وفي لغات مختلفة .

وكانت السيرة هي المادة الأولى التي يعتمد عليها في كتاباته ومحاضراته ، يستمد منها القوة في البيان ، والتأثير في العقول والقلوب ، والدلائل القوية ، والأمثلة البليغة ، لإثبات ما يريد إثباته ، وهي التي كانت ولا تزال تُفتّق قريحته ، وتُسْعِلُ مواهبه ، وما من كتابة ذات قيمة من كتاباته إلا وعليها مسحة من جمال السيرة ، وفضل لدراستها والتأمل فيها .

وقد جمع ما كتب في جوانب السيرة المختلفة ، وعظّمة البعثة المحمّدية وما ألقاه من محاضرات وأحاديث ، في كتاب أسماه « الطريق إلى المدينة »^(١) .

وقد عاش المؤلف هذه المدة الطويلة ، وقد أُلّف عشرات من الكتب لا يفكر في أفراد كتاب في السيرة النبوية ، رغم أنه كان يشعر بمسيس الحاجة إلى كتاب كُتِبَ في أسلوب عصريّ علميٍّ ، استُفيدَ فيه من خير ما كُتِبَ في القديم والحديث ، مؤسساً على مصادر السيرة الأولى الأصيلة ، مطابقاً لما جاء في القرآن والسنة الصحيحة ، لم يُكْتَبَ في الأسلوب الموسوعي (Encyclopaedic) الحاشد للمعلومات في غير نقد وتمحيص ، الأسلوب الذي

(١) ظهرت لهذا الكتاب ثلاث طبعات في المدينة المنورة ، ولكهنؤ ، وآخرها طبعة دار ابن كثير ودار القلم بدمشق .

اعتاده أكثر المؤلفين المتوسّطين والمتأخّرين وقليل من المؤلفين المتقدّمين ، والذي كان مثارَ كثير من التساؤلات التي برأ الله السيرة الكريمة منها ، وأغنى المسلمين عنها ، قد نالته يد التنقيح والتحقيق من غير تقليد للاتجاهات العصرية ، وخضوع لكتابات المستشرقين وأقوال المشكّكين ، متمشياً مع المقرّرات الدينية التي تفهم في ضوئها الكتب السماوية وسير الأنبياء ، والمعجزات ، والأخبار الغيبية ، قائماً على مبدأ أنه سيرة نبيٍّ من الأنبياء ، مبعوث من الله ، مؤيّد منه ، لا سيرة عظيم من العظماء ، أو زعيم من الزعماء ، يسوغ أن يقدّم إلى كل مثقف منصف من المسلمين وغير المسلمين من غير تحفّظ أو استثناء ، أو حاجة إلى تأويل ، يعتمد فيه المؤلّف على الحوادث والوقائع ، ومادة السيرة ، ويدعها تنطق بلسانها ، وتشقّ الطريق بنفسها إلى القلوب والعقول ، أكثر مما يعتمد على فلسفته للحوادث وتعليله للأخبار ، ومقدماته الطويلة العريضة ، فالسيرة النبوية غنيّة بجمالها وروعيتها وسحرها على النفوس والعقول ، ووقعها منها موقع القبول ، من شفاعة شافع وتدليل حكيم ، وبراعة أديب ، وجُلّ ما يحتاج إليه المؤلّف ، هو جمال العرض ، وحُسن الترتيب ، وجوّد التلخيص .

ثم يتجلّى فيه العقلُ والعاطفةُ جواراً بجوار ، فلا يكون فيه البحث العلمي والنقد التحليلي على حساب العاطفة والحب والإيمان ، اللذان لا بُدّ منهما في تذوّق السيرة والاستفادة منها وفهم قضاياها وأحكامها وحوادثها ، فإنه إذا تجرّد الكتابُ من العاطفة والحب والإيمان ، كان خشبياً مصنوعاً لا حياة فيه ، وكذلك يجب ألا يكون العنصر العاطفي العقيدي على حساب المتطلبات العقلية السليمة التي نَمّاها هذا العصرُ بصورة خاصة ، وعلى حساب المنطق السليم الذي لم يتجرد منه عصر من العصور ، فيكون كتابَ عقيدة وتقليد فحسب ، لا يُطيقُ قراءته ولا يسيعُ ما جاء فيه إلا الأقوياء في الإيمان ،

والراسخون في الإسلام ، من الذين نشؤوا في بيئة دينية خالصة لا شأن لها بالعالم الخارجي ، وبالثقافة العصرية ، وذلك وإن كانت موهبة من الله ، فإن سيرة نبيٍّ أُرْسِلَ إلى الناس كافةً ، وأُرْسِلَ رحمةً للعالمين ، لا يجوز أن تُجعل مقصورةً على هذه الطبقة السعيدة المؤمنة ، محجورةً على مَنْ لم تسمح ظروفهم بالنشوء في هذه البيئة المسلمة المؤمنة ، وأرادت حكمة الله أن يولدوا في بيئات غير إسلامية ، ثم يُدْرِكهم اللطفُ الإلهي ، وتهبّ عليهم نفحةٌ من نفحات هذه السيرة العطرة ، فينتقلون بقوتها وجاذبيتها إلى حظيرة الإيمان ومعسكر الإسلام ، وليس حق غير المسلمين على هذه السيرة وحظهم فيها أقلُّ من حق المسلمين الذين نشؤوا في ظلال الإيمان والإسلام ، والدواء حاجة المريض أكثر من حاجة السليم ، والقنطرة يحتاج إليها من يعيش وراء النهر أكثر مما يحتاج إليها من يعيش دونه .

ثم لا يسعُ المؤلِّف في السيرة صَرْفَ النظر عن البيئة التي كان فيها وجودها وقيامها ، وعن العصر الذي كان فيه طلوعها وبزوغها ، فلا بد من وصف الجاهلية العالمية الضاربة أطنابها على الأرض كلها في القرن السادس المسيحي ، ومدى ما وصل إليه هذا العصر من الفساد والانحطاط ، والقلق والاضطراب ، ووصف حالته الخلقية والاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية وما تضافر عليه من عوامل الإفساد والإضلال والتدمير والإبادة ، من حكومات جائرة ، وأديان محرّفة ، وفلسفات متطرفة ، وحركات هدامة .

وحين أرادَ المؤلِّف أن يكتب فصلاً في تفصيلٍ وتوسُّعٍ على العصر الجاهلي يقدم به كتابه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » وجد في ذلك صعوبةً لا ينساها حتى اليوم ، واضطراً إلى أن يجمع المعلومات من المراجع الأجنبية والكتب التي ألُفَت في تاريخ البلاد والأمم ، والدُّول المعاصرة لنشوء الإسلام ، في اللغات الأوروبية ، فالتقطَها من ثنايا هذه الكتب كما تُلْتَقَط حَبَّات

الشُّكْر الدقيقة من أفواه النَّمَل (حسب المثل الأُرْدِي) ، فجاء هذا الفصل الموسَّع^(١) ، الذي يُنِير الطريقَ لمن يقرأ كُتُب السيرة ، ويُحَاوِل أن يدرك عَظْمَة البعثة المحمدية وضخامة المهمة التي اضْطَلَعَتْ بها والتتائج العظيمة الجسيمة التي أسفرت عنها .

وكان كُلُّ كتاب يؤلَّف في السيرة النبوية في العصر الحديث جديراً بهذا النوع من البحث والنمط في التحقيق ، وإلقاء الأضواء القوية العلمية على العصر الجاهلي والتصوير الدقيق الأمين لما كان يجيش به من فساد واضطراب ، وانهيار وانتحار .

وذلك شأنُ البيئة التي كانت فيها البعثة ، وظهور الإسلام ، والبلد الذي ظَهَرَتْ فيه هذه الدعوة ، ووُلِدَ فيه صاحبُ الرسالة - عليه الصلاة والسلام - وقَضَى فيه ثلاثاً وخمسين سنة من عُمره ، وعاشت فيه الدعوة ثلاث عشرة سنة ، فلا بُدَّ أن يعرف الدارس للسيرة مدى ما وصل إليه العقلُ فيه والوعي والمدنيَّةُ ، ومكانة هذا البلد الاجتماعية والسياسية وحالته الدينية والعقائدية ووضعَه الاقتصادي والسياسي ، وقُوَّتَه الحربية والعسكرية حتى يعرف طبيعة هذا البلد وعقلية سكانه والعقبات التي كانت تعترض في سبيل انتشار الإسلام وشقه الطريق إلى الأمام .

وقُلْ مثل ذلك وأكثر عن مدينة (يثرب) التي انتقل إليها الإسلام ، وهاجر إليها الرسولُ وأصحابه ، وأراد الله أن تكون مركزَ الإسلام الأول ، فلا يقدَّر مدى قيمة النجاح الذي حقَّقه الإسلامُ وقدرته على التربية والبعث الجديد ، وحل المعضلات ، والجمع بين العناصر المتناقضة وعظمة المأثرة النبوية ،

(١) جاء هذا الفصل في الباب الأول ، في كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » بعنوان : « الإنسانية في احتضار » طبع دار ابن كثير بدمشق .

وإعجازها في تأليف القلوب وتربية النفوس ، إلا إذا عرف الإنسان وَضْعَهُ هذه البيئة الغريبة المعقّدة التي واجهها الرسولُ والمسلمون .

ولا تُفهم كثيرٌ من الحوادث والأحكام التي يمرُّ بها القارئُ في كتب السيرة والحديث إلا إذا عرف حالة المدينة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وطبيعة أرضها وجغرافية هذا البلد وما حوله ، وما كان يتركب به من عناصر إنسانية وإقليمية ، وصلات أجزاء عمرانه بعضها ببعض ، والأعراف والمعاملات الشائعة قبل الهجرة وانتشار الإسلام فيه .

فإذا جهَلَ القارئُ كلَّ هذا ، وبدأ رحلته في كتب السيرة شعر بأنه يمشي في نفق لا يُبصرُ فيه ما حوله ، وكان على غير بيئة من الأمر .

وكذلك القول عن الحكومات المعاصرة والبلاد المجاورة ، فلا يتبيّن القارئُ خطورة الإقدام الذي قامت به الدعوة الإسلامية ، وقوة مغامرتها ، إلا إذا عرف حجمَ هذه الحكومات التي كانت تقوم حوله ، والتي خاطبها الإسلام ودعاها الرسولُ - عليه الصلاة والسلام - إلى الإيمان برسائله ، وقبول حكم الإسلام ، وما وَصَلَتْ إليه من المدنية والثقافة ، والقوة الحربية والرفاهية والعمران ، وما كان يتمتع به ملوكها من حَوْلٍ وطَوْلِ ، وَصَوْلَةٍ وَشَوْكَةٍ .

وقد ألقى العلمُ الحديثُ ضوءاً على تاريخ هذه الحكومات والبلاد والمجتمعات التي كانت تعيش فيها ، ورفع الستارَ عن كثير مما كان مجهولاً أو غامضاً أو ملتوياً في العصر القديم ، فكان من الواجب أن يستعين بكل ذلك المؤلفُ العصريُّ في السيرة النبوية ، ويستعين بالحديث الأحدث ممَّا كُتِبَ ونُشِرَ من كتب التاريخ والجغرافية ، والدراسة المقارنة .

كان المؤلفُ يشعر بكلِّ هذا مع اعتراف بجهود المؤلفين في هذا الموضوع ، وبقيمة ما صدر عن أعلامهم في فترات مختلفة ولغات مختلفة ،

وفَضِّلِه في الدعوة الإسلامية ، وتحبيب السيرة إلى نفوس القراء ، وتقريبها إلى أذهان الناشئة .

وكان يرى السعادة في تأليف كتابٍ جديدٍ في السَّيِّرة النبوية لينخرطَ في سِلْكِ المؤلِّفين النورانيِّ في هذا الموضوع الحبيب الجليل .

ولكنَّه كان يتهَيَّب الكتابة في هذا الموضوع في توسُّع وتفصيل ، لضيق وقته ، وضعف بصره ، ولأنَّه جَرَّب أن كتاب سيرة لعظيم من العظماء فضلاً عن نبيٍّ من الأنبياء ، فضلاً عن سيِّد الأولين والآخرين ، وأشرف المرسلين ، من أَضْعَب الموضوعات التي يُعالِجها المؤلِّفون وأدقُّها ، وقد مارس موضوعَ تأليف السَّيِّر والتراجم للشخصيات المشهورة وأعلام المسلمين من القدماء والمحدثين والمعاصرين عملياً ، فقد اشتغل بكتابة السَّيِّر وحياة العظماء أئمة المسلمين وقادَّتهم ، والمُصلِّحين والعلماء الربَّانيِّين ، بعدما شَبَّ عن الطوق ، وأمسك القلم ، وعرف الكتابة ، وقد كتب بقلمه آلافاً من الصفحات في سيرة هؤلاء العظماء ، وعاش بين التراجم والسَّيِّر منذ الصغر ، فقرأ منها الكثيرَ وكتب منها الكثير^(١) .

وَمِنْ هُنَا عَرَفَ دِقَّةَ هذا الموضوع ، وضخامة هذه المسؤولية ، فمن المؤلِّفين من تتغلَّب عليه نزعةٌ أو اتجاہٌ خاصٌّ ، فيخضع له من يترجمه من حيث يشعر ومن حيث لا يشعر ، فتأتي كتابته صورة لعقليته وعاطفته ،

(١) [ومن تلکم الکُتُب - فضلاً عن السيرة النبوية هذه - « المرتضى » في سيرة أمير المؤمنين سيدنا أبي الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرَّم وجهه ، طبع في دار القلم بدمشق و« رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام » في أربعة أجزاء ؛ طبع أخيراً في دار ابن كثير بدمشق ، وعشرات من المقالات في سيرة الأئمة المصلِّحين والعلماء الربَّانيِّين من القدماء والمعاصرين ، فقد جمعناها في كتابٍ مستقلٍّ ، ونشرناها بعنوان « من أعلام المسلمين ومشاهيرهم » في سلسلة « تراث العلامة الندوي » صدر في دار ابن كثير بدمشق] .

ممثلة لاتجاه خاص كان يسيطر على مؤلف الكتاب .

ومنهم من يريد أن يَصوِّرَ أحدَ العظماء فيصوِّرَ نفسه ، ويريد أن ينظر إليه نظرة مجردة ، فيبدأ ينظر إليه من خلال ميوله وتجاربه ووجهة نظره ، ويسلِّط عليه مقاييسه الخاصة .

إنَّ مَنْ درَسَ علمَ النفس والأخلاق ، وعُنِيَ بدراسة الشخصيات المعاصرة ، وعاش معها طويلاً عرف أنَّ النزول في أعماق نفس إنسان والإحاطة بأفائها ، وتصويرها تصويراً دقيقاً شاملاً من أصعب أنواع المعرفة وأساليب البيان وأدقها ، وأنه لا يُحسِّن ذلك بعض الإحسان ، ولا يَقْدِر عليه بعض القُدرة إلا من عرف شيئاً كثيراً من خوالج النفس وخواطرها ، وآمالها وآلامها ، وأحزانها وأشواقها والتهاب الروح ، ولوعة القلب ، وقد رأى كيف يبيتُ هذا الإنسان ليله ويقضي نهاره ، وكيف يُعاشر أهله ويُعامل أصحابه ، قد رآه في السُّلم والحَرْب ، والرِّضا والغضب ، وفي العُسر واليُسْر ، والضعف والقوَّة ، ومن أحوال النفس الإنسانية ومشاعرها وأحاسيسها ، ومن مظاهر الجمال والكمال ما لم توضع له ألفاظ بعد ، ولا تفي به ثروة لغوية مهما اتَّسَعَتْ ودَّقَتْ .

والسَّيرة النبويَّة المحمَّدية تميِّزُ من بين سير أفراد البشر - وفيهم الأنبياء وغير الأنبياء - بدقَّتْها وشمولها ، واستيعابها لدقائق الحياة وتفصيلها وملاححها وقسماتها، وذلك بفضل علم الحديث ، الذي لا يوجد له نظيرٌ ، لا في تاريخ الأنبياء ولا في تاريخ العظماء ، وكُتِبَ السَّير والشَّمال ، وما جمع وحفظ من الأدعية^(١) والأذكار النبوية ، ومناجاته ﷺ لربِّه آناء الليل

(١) ليراجع مقال المؤلف في صلة الأدعية النبوية بالسيرة ؛ وقيمتها وأهميتها في دراستها ، وأنّها مرآة تجلّت فيها خصائص النبوة وأسرارها وصلتها بالله وبالخلق ، والمعرفة الدقيقة لحقائق =

والنهار وما حفظ ونقل من جَوَامِعِ الْكَلِمِ ، وما أثر عن الوصافين الحاذقين من أصحابه وأهل بيته في صفته التي لم تحفظ كتب الآداب والتاريخ والأنساب ، صفة أكثر منها دقة ، وأعظم منها استيعاباً للملامح البشرية والدقائق الخلقية^(١) .

ولذلك لم يكن الأمر في تأليف السيرة النبوية من الصعوبة والغموض ، والافتراض والقياس ، كما هو في سِيرِ العظماء الأبطال ، وأن سِيرته ﷺ أَكْمَلُ السَّيْرِ كما كانت أجملها ، وهي مؤسَّسة على نصوص قرآنية ووثائق تاريخية ودقائق في الخَلْقِ والخُلُقِ ، وتفاصيل في العادات والعبادات ، والأخلاق والمعاملات ، لا يَتَصَوَّرُ فوق ذلك ، وهي أقرب إلى الحقيقة والواقع ، قُرْباً لا يَتَصَوَّرُ فوقه ، ولا يُطَمَعُ في أكثر منه ، بعد أن مضى على هذه الحياة الطيبة الكريمة مدة طويلة .

ولكن رَغَمَ وجود هذا الفارق الكبير بين سيرته ﷺ وبين سِيرِ العظماء بل وبين سِيرِ الأنبياء ، ورغم دِقَّتْها التي لا دِقَّةَ فوقها ، وشمولها الذي لا شمولَ فوقه ، لا بُدَّ من الاعتراف بأن تصوير حياته وأخلاقه ، واستيعاب المعجزات التي اشتملت عليها سيرته ودعوته وحياته الانفرادية والاجتماعية ، ومعاملته

= الحياة الإنسانية ، وعلم النفس والأخلاق ودقائقها ؛ وقد نشر هذا المقال في رسالة مفردة في الأردنية ، ونقلها إلى العربية الأستاذ نور عالم الأميني الندوي ، ونشرتها « المختار الإسلامي » في القاهرة بعنوان « دراسة للسيرة النبوية من خلال الأدعية الماثورة المروية » [ونُشرت أخيراً بعنايتنا في دار البشائر الإسلامية ببغروت ، مع مقالٍ للعلامة المؤلف بعنوان « نظرات في الأدب النبوي ، ودراسة للسيرة النبوية من خلال الأدعية الماثورة المروية »] .

(١) [اقرأ للتفصيل مقال العلامة المؤلف « النبي الخاتم ، والدين الكامل ، ومالها من أهمية في تاريخ الأديان والمِلَل » ضمن مقالاته في السيرة النبوية التي جمعناها في كتابٍ مستقلٍّ بعنوان « مقالات حول السيرة النبوية » صفحة (١١٥) ، صدر في سلسلة « تراث العلامة الندوي » عن دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م] .

مع الله ومع الخلق ، وآيات الحُسْن والإحسان في تكوين خَلْقِهِ وخُلُقِهِ ، وفي حُبِّهِ ورأفته ، وفي دعائه وإبتهاله ، وفي تألُّمه للإنسانية ومصيرها ، وفي منطقهِ وحكمته ، وفي جامعِيته وكمالهِ ، يكاد يكون مستحيلاً ، وأنَّ ما جاء في كُتُب السِّيَر والشمائل - على جماله وروعته - هو بعضٌ ما خَصَّه اللهُ به من جمال السيرة وكمال الخلق والخلق لا كلَّهُ ، وإنَّ جُلَّ ما هنالك أنها محاولات وجهودٌ يشكر عليها هؤلاء المؤلِّفون ويؤجِّرون عليها ، وهي ثروة عامة خالدة ، يجد فيها كل إنسان وكل جيل من البشر ، وكل طبقة من طبقات الناس حظها من الهداية والنور والتقليد والافتداء ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

لكلِّ ذلك كنتُ أُنهيُّ الكتابةَ في السيرة النبوية والتأليف فيها ، وأستعظمها وأستصغر نفسي .

وقد حَثَّنِي عددٌ من الفضلاء وكرام الأصدقاء^(١) على أن أوْلَفَ كتاباً في السيرة النبوية في اللغة العربية أراعي فيه عقلية الجيل الجديد وذوقه ومستوى فهمه ونفسيته ، وما جد من طلبات وحاجات وأسلوب كتابي ومنهج علمي ، فلكل عصر أسلوبه ولغته ، ومقادير وترتيبات في الأدوية والأغذية ، وذلك كما قدمنا ، من غير إخضاع السيرة النبوية للأهواء والأغراض وللنظريات العلمية التي تتغير صباح مساء ، والشبه والاعتراضات التي يَدْفَعُ إليها التعصُّبُ الدينيُّ أو الجهلُ العلميُّ أو الغرضُ السياسيُّ .

وشرحَ اللهُ صدرِي أخيراً لهذا التأليف ، فعكفتُ على هذا الموضوع

(١) في مقدمتهم صديق المؤلف فضيلة الشيخ محمد محمود الصواف عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة [توفي - رحمه الله - بتركية عام ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م] .

وعِشْتُ فيه ، أقرأ كُتِبَ السيرة والحديث ، وكل ما أستعين به في هذا الموضوع من القديم والحديث ، وبدأتُ أكتب معتمداً على أصح ما كُتِبَ وألَّفَ في هذا الموضوع ، واستعنتُ بما كُتِبَ في هذا الموضوع في العصر القديم والعصر الحديث ، وبالمراجع الأجنبية التي توضح الكثير من السيرة ، والتاريخ المعاصر ، وتلقي ضوءاً على الحكومات والمجتمعات المعاصرة^(١) .

وحاولتُ أن يجمع الكتابُ بين الجانب العلمي وبين الجانب التربوي البلاغي ، لا يَطْغَى أحدهما على الآخر ، وأن يشتمل على أكبر مقدار من القطع النابضة الدافقة بالحيوية والتأثير ، الأسرة للقلوب والنفوس التي لا يُوجَد نظيرُها في سيرة إنسان ولا في تاريخ فرد أو جيل ، أو دعوة أو دين ، وذلك كله من غير تنميق أو تلوين ، أو تحبير أو تحسين ، فجمال الطبيعة والحقيقة لا يحتاج إلى تجميلات خارجية ، أو تزيينات صناعية .

وكان هذا الكتابُ شُغلي الشاغلَ ما بين شوال ١٣٩٥ هـ وشوال ١٣٩٦ هـ (أكتوبر ١٩٧٥ م - أكتوبر ١٩٧٦ م) لم أشتغل بغير هذا الموضوع إلا اضطراراً ، تتخلَّل ذلك فترات قليلة من المرض ورحلات طويلة في الشَّرق والغَرْب ، حتى يَسَّرَ الله إتمامه في غرة شوال سنة ١٣٩٦ هـ ، وها هو الآن بين يدي القراء .

وأرى لزاماً عليَّ أن أشكرَ صَدِيقَيْنِ فاضلين لَقِيتُ منهما مساعدةً كبيرةً في تأليف هذا الكتاب ، وهما فضيلة الشيخ برهان الدين السَّنْبَهلي - أستاذ الحديث والتفسير في دار العلوم ندوة العلماء - وقد أعانني في تخريج الأحاديث والبحث عنها ، والتحقيق في بعض ما جاء في كتب السيرة ، جزاه

(١) وفي آخر الكتاب قائمة للمراجع العربية والأجنبية .

الله خيرَ الجزاء ، والأستاذ محيي الدين أحمد^(١) فقد ساعدني مساعدةً غاليةً في دراسة المراجع الأجنبية ، والتقاط المعلومات المفيدة من كُتب تاريخ الأمم والبلاد ، والموسوعات الأجنبية ، والمؤلف شاكِرٌ لفضله معترفٌ لجهوده وإخلاصه .

ولما كان هذا الكتاب كله إملاء لعجز المؤلف عن الكتابة مباشرة استعان ببعض الإخوان في كتابته ، وكان في مقدّمتهم العزيزان : محمد معاذ الإندوري الندوي ، وعلي أحمد الكُجراتي الندوي ، وساهم في ذلك الأستاذ نور عالم الأميني الندوي .

وقد كان للأستاذ محمد حسن الأنصاري فضلٌ في وضع الخرائط التاريخية الجغرافية التي زَيّن بها الكتاب ، وزاد في قيمته العلمية ، كما كان للأستاذ الكبير الدكتور محمد شفيع رئيس قسم الجغرافيا في جامعة « عَلِي كَرَه » الإسلامية ومساعد نائب رئيس الجامعة ، وللقسم الجغرافي في الجامعة فضلٌ في تحسينها وإكمالها ، والمؤلف شاكِرٌ للإخوان جميعاً .

والله أسأل أن ينفَع بهذا الكتاب وأن يتقبَّله تقبُّلاً حسناً ، وأن يجعله ذُخْراً للآخرة ، ووسيلةً لدراسة هذه السيرة الطاهرة والاستزادة منها والانتفاع بها ، وكفى للمؤلف شكراً ، وللكتاب قيمة إذا أثارَ كامنَ الحبِّ والإيمان في نفس مؤمنٍ ، وانجذاباً في قلب أحدٍ من غير المسلمين إلى هذه السيرة الطاهرة العطرة ، وحملته على دراسة الإسلام وتفهمه ، إنَّه وليُّ التوفيق .

أَبُو الْحَسَنِ عَلِيّ الْحَسَنِي النَّدَوِي

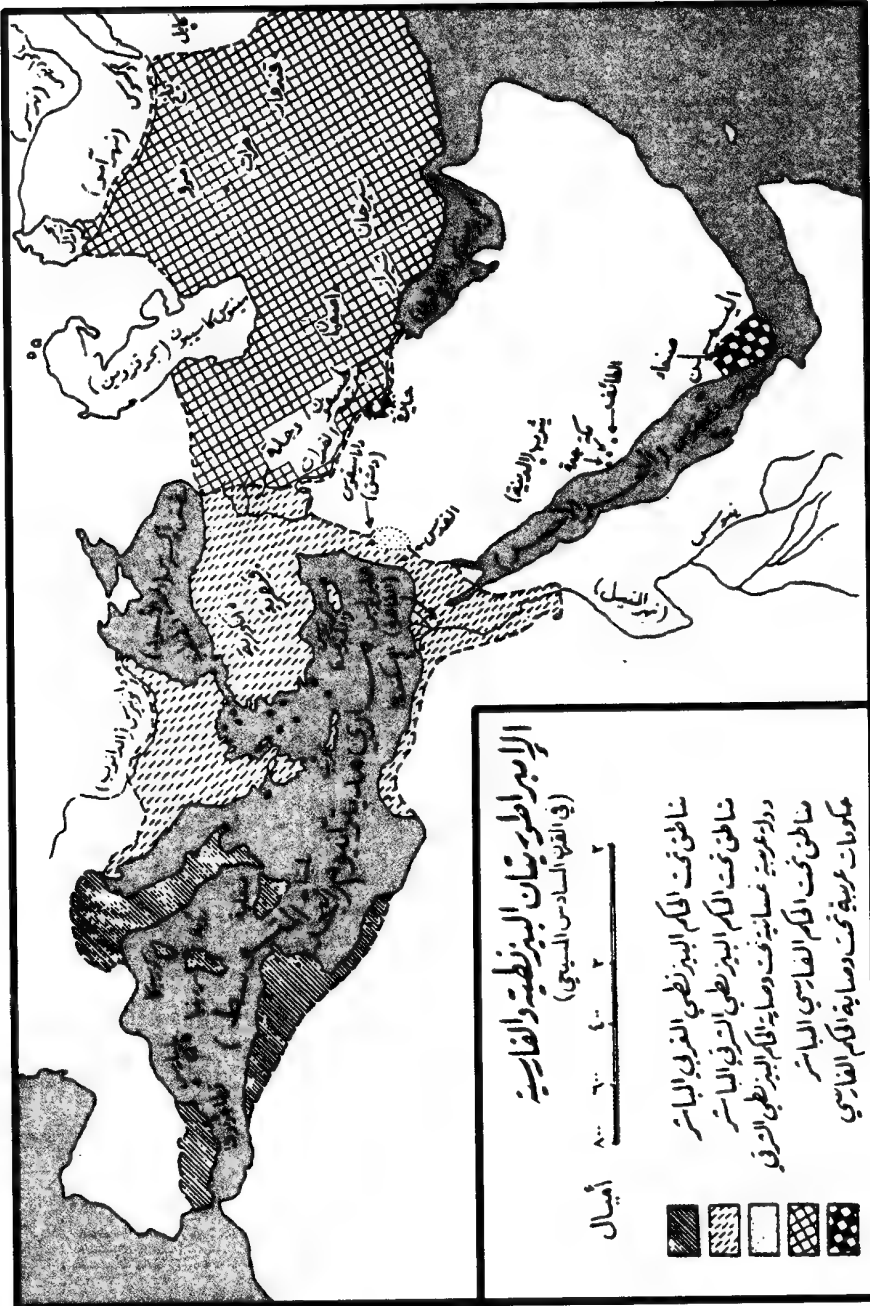
رائي بريلي - الهند

الجمعة ١٣٩٦/١١/٥ هـ

١٩٧٦/١٠/٢٩ م

(١) وهو الذي وُقِّع أخيراً لنقل هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية ، وقد صدرت له طبعتان .

خريطة الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية



رسمنا أسماء الأماكن والبحار والبحيرات والأنهار كما كانت تسمى في القرن السادس المسيحي حسب نطقها اللاتيني

الفصل الأول

مَدْخَلٌ إِلَى السَّيْرِ النَّبَوِيِّ

• العصرُ الجاهليُّ :

أ - نظرةٌ إجماليةٌ على الوضعِ الدِّينيِّ في القرنِ السادسِ المسيحيِّ .

ب - إطلالةٌ على البلادِ والأُمَمِ في القرنِ السادسِ المسيحيِّ :

١ - الإمبراطورية الرومانية الشرقية .

٢ - الإمبراطورية الإيرانية السَّاسانية .

٣ - الهند .

٤ - أوربَّة .

٥ - الجزيرة العربية .

• لماذا بُعثَ النبيُّ ﷺ في جزيرة العرب ؟

• جزيرة العرب قبل البعثة .

• مكَّة في زمن البعثة وعند ظهور الإسلام .

العصر الجاهليُّ نظرة إجمالية على الوضع الديني في القرن السادس المسيحي

أصبحت الديانات العظمى ، وصُحفها العتيقة ، وشرائعها القديمة - التي مثَّلت في أزمانٍ مختلفةٍ دورها الخاصَّ في مجالِ الديانة والأخلاق والعلم - فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المُحرِّفين والمنافقين ، وعُرِضَت الحوادث الدَّامية والخُطوب الجسيمة حتَّى فقدت روحها وشكلها ، فلو بُعث أصحابها الأولون ، وأنبيأوها المرسلون ، أنكروها وتجاهلوها^(١) .

١ - اليهودية :

أصبحت اليهودية مجموعة من طقوس وتقاليد لا روح فيها ولا حياة ، وهي - بصرف النظر عن ذلك - ديانة سلائية ، لا تحمِلُ للعالم رسالةً ، ولا للأمم دعوةً ، ولا للإنسانية رحمةً .

(١) اقرأ قصة ما تعرضت له صحف الأمم السابقة - صاحبة الديانات الشهيرة - من تحريف وتبديل وضياح وإبادة أحياناً ؛ في ضوء الوثائق التاريخية ، وشهادات علماء هذه الديانات من أسفار العهد العتيق والعهد الجديد إلى « أوستا » الإيرانية ، و « ويدا » صحف الهند العتيقة في كتاب المؤلف « النبوة والأنبياء في ضوء القرآن » المحاضرة السابعة عنوان « الصحف السماوية السابقة ؛ والقرآن ، في ميزان العلم والتاريخ » ص ١٩٨ - ٢٠٦ (طبعة دار القلم ، دمشق ، بيروت) [وفي « محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة » للعلامة الندوي ، ج : ٣ ، ص : ١١٩ ، طبع دار ابن كثير دمشق] .

وقد أُصِيبَتْ هذه الدِّيانَةُ في عقيدةٍ كانت لها شعاراً من بين الدِّياناتِ والأُممِ وكانَ فيها سرٌّ شَرَفَها ، وتفضيلٌ لبني إسرائيلَ على الأُممِ المعاصرةِ في الزَّمنِ القديمِ وهيَ عقيدةُ التَّوْحِيدِ الَّتِي وَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ، فَقَدْ اقْتَبَسَ الْيَهُودُ كَثِيراً مِنْ عَقَائِدِ الأُمَمِ الَّتِي جَاوَزُوهَا أَوْ وَقَعُوا تَحْتَ سِيطَرَتِهَا ، وكثيراً مِنْ عاداتِها وتقاليدها الوثنيَّةِ الجاهليَّةِ ، وقد اعترفَ بذلكَ مؤرِّخو اليهودِ المُنْصِفُونَ ، فقد جاءَ في « دائرة المعارفِ اليهودية » ما معناه :

« إِنَّ سُخْطَ الأنبياءِ وغضبَهُم على عبادةِ الأوثانِ تدلُّ على أَنَّ عبادةَ الأوثانِ والآلهةِ ، كانتْ قد تسرَّبتْ إلى نُفُوسِ الإسرائيليينَ ولم تُستأصَلْ شَأْفَتُهَا إلى أيامِ رجوعِهِمْ مِنَ الجلاءِ والنَّفيِ في بَابِلَ ، وقد قَبِلُوا مَعْتَقَدَاتٍ خرافيةً ومشرَكةً ، إِنَّ التَّلْمُودَ أَيْضاً يَشْهَدُ بِأَنَّ الوثنيَّةَ كانتْ فيها جاذبيَّةً خاصَّةً لليهودِ »^(١).

ويدلُّ تَلْمُودُ^(٢) بابلَ الَّذِي يُبَالِغُ الْيَهُودُ فِي تَقْدِيسِهِ ، وقد يَفْضَلُونَهُ على التَّوراةِ وكانَ مُتداولاً بينَ الْيَهُودِ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ الْمَسِيحِيِّ ، وما زَخَرَ بِهِ مِنْ نماذجٍ غريبةٍ مِنْ خَفَةِ الْعَقْلِ وَسُخْفِ الْقَوْلِ ، والاجتراءِ على اللَّهِ ، والعبثِ بالحقائقِ ، والتلاعبِ بالدِّينِ والعقلِ ، على مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْمُجْتَمَعُ الْيَهُودِيُّ فِي هَذَا الْقَرْنِ مِنَ الانحطاطِ الْعَقْلِيِّ وفسادِ الذوقِ الدينيِّ^(٣).

٢ - المسيحية :

أَمَّا الْمَسِيحِيَّةُ فَقَدْ امْتَحِنَتْ بِتَحْرِيفِ الْغَالِبِينَ ، وتَأْوِيلِ الْجَاهِلِينَ ، ووثنيَّةِ

(١) Jewish Encyclopedia, VOL-XII, p. 568-69.

(٢) كلمة تلمود معناها كتاب تعليم ديانة اليهود وآدابهم ؛ وهي مجموعة حواشٍ وشروحٍ لكتاب « المشنا » : « الشريعة » لعلماء اليهود في عصورٍ مختلفة .

(٣) أقرأ للتفصيل « اليهودي على حسب التلمود » للدكتور روهنج « وترجمته العربية في « الكنز المرصود في قواعد التلمود » للدكتور يوسف حنا نصر الله (من الفرنسية) .

الرُّومانِ الْمُتَنَصِّرِينَ^(١) ، منذ عصرها الأول ، وأصبح كل ذلك ركاماً ، دُفِنَتْ تَحْتَهُ تعاليمُ المسيح البسيطة ، واختفى نورُ التَّوْحِيدِ وإخلاصُ العبادةِ لله وراءَ هذه السُّحُبِ الكثيفة .

يتحدَّثُ كاتبُ مسيحيٍّ فاضِلٌ عَنْ مدى تغلغل عقيدة التثليث في المجتمع المسيحي ، منذ أواخر القرن الرابع الميلادي ، فيقول :

« تغلغل الاعتقاد بأنَّ الإله الواحد مركَّبٌ من ثلاثة أقانيم في أحشاء حياة العالم المسيحي وفكره ، منذ رُبْع القرن الرابع الأخير ، ودامت كعقيدة رسمية مسلمة ، عليها الاعتمادُ في جميع أنحاء العالم المسيحي ، ولم يرفع الستارُ عن تطوُّر عقيدة التثليث وسرّها إلا في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي »^(٢) .

ويتحدَّثُ مؤرِّخٌ مسيحيٌّ معاصرٌ عَنْ ظهور الوثنية في المجتمع المسيحي في مظاهرَ مختلفةٍ وألوانٍ شتى ، وتفنَّنَ المسيحيونَ في اقتباسِ الشعائرِ والعاداتِ والأعيادِ والأبطالِ الوثنية من أممٍ ودياناتٍ عريقة في الشرك بحكم التقليدِ أو الإعجابِ أو الجهلِ ، جاء في « تاريخ المسيحية في ضوء العلم المعاصر » :

« لقد انتهت الوثنية ، ولكنها لم تلقَ إبادةً كاملةً ، بل إنها تغلغلت في النفوسِ واستكنَّ كلُّ شيءٍ فيها باسمِ المسيحية وفي ستارها ، فالذين تجردوا عن آلهتهم وأبطالهم وتخلوا عنهم أخذوا شهيداً من شهدائهم ، ولقبوه

(١) راجع كتاب « الصراع بين الدين والعلم » للمؤلف الأوربي الشهير « دراير Draper » ص ٤٠ - ٤١ .

(٢) ملخص ما جاء في دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة ، مقال التثليث المقدس ، ج ١٤ ؛ ص ٢٩٥ .

بأوصافِ الآلهة ، ثمَّ صنعوا له تماثلاً ، وهكذا انتقل هذا الشركُ وعبادةُ الأصنامِ إلى هؤلاء الشُّهداءِ المحليين .

ولم ينتهِ هذا القرنُ حتى عمَّت فيهم عبادةُ الشهداءِ والأولياءِ ، وتكونت عقيدةٌ جديدةٌ ، وهي أنَّ الأولياءَ يحملونَ صفاتِ الألوهية ، وصارَ هؤلاء الأولياءُ والقديسونَ خلقاً وسطاً بينَ الله والإنسانِ يحملُ صفةَ الألوهية على أساسِ عقائدِ الأريسيين ، وأصبحوا رمزاً لقداسةِ القرونِ الوسطى وورعها وطُهرها ، وغيَّرت أسماءُ الأعيادِ الوثنية بأسماءٍ جديدةٍ ، حتى تحوَّلَ في عامِ ٤٠٠ ميلادي عيدُ الشمسِ القديمِ إلى عيدِ ميلادِ المسيح^(١) .

وجاءَ القرنُ السادسُ المسيحيُّ ، والحربُ قائمةٌ على قدمٍ وساقٍ ، بينَ نصارى الشامِ والعراقِ وبين نصارى مصرَ ، حولَ حقيقةِ المسيح وطبيعته ، تحولتْ بها المدارسُ والكنائسُ والبيوتُ إلى معسكراتٍ متنافسةٍ يُكفِّرُ بعضها بعضاً ، ويقتُلُ بعضها بعضاً ، كأنها حربٌ بينَ دينينِ متنافسينِ ، أو أمتينِ متحاربتين^(٢) ، فأصبحَ العالمُ المسيحيُّ في شغلٍ بنفسه عن محاربةِ الفسادِ ، وإصلاحِ الحالِ ، ودعوةِ الأممِ إلى ما فيه صلاحٌ للإنسانية .

٣ - المجوس :

أمَّا المجوسُ فقد عُرِفوا من قديمِ الزَّمانِ بعبادةِ العناصرِ الطبيعيةِ وأعظمها النارُ ، وقد عكفُوا على عبادتها أخيراً ، يبنونَ لها هياكلَ ومعابدَ ، وانتشرتْ بيوتُ النارِ هذه في طولِ البلادِ وعرضِها ، وكانتْ لها آدابٌ وشرائعٌ دقيقةٌ ،

(١) راجع Rev. James Houston Bzxtar The History of Christianity In The Light of Modern Knowledge, (Glasgow, 1959) p. 407.

(٢) راجع « فتح العرب لمصر » لـ « ألفرد بتلر » تعريب محمد فريد أبو حديد ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٧ .

وانقرضت كلُّ عقيدةٍ وديانةٍ غيرِ عبادةِ النارِ وتقديسِ الشمسِ ، وأصبحتِ الديانةُ عندهم عبارةً عن طقوسٍ وتقاليدٍ يؤدونها في أمكنةٍ خاصّةٍ ، أمّا خارجَ المعابدِ فكانوا أحراراً ، يسرون على هواهم ، وما تُملي عليهم نفوسُهُم ، وأصبحَ المجوسُ لا فرقَ بينهم وبينَ من لا دينَ لهم ولا خلاقَ ، في الأعمالِ والأخلاقِ^(١) .

يَصِفُ مؤلّفُ « إيران في عهدِ السَّاسانيّين » الدَّانماركيُّ الأستاذُ « آرتهر كرسّتين سين » طبقةَ رؤساءِ الدِّينِ ووظائفهم فيقولُ :

« كانَ واجباً على هؤلاءِ الموظَّفينَ أن يعبدُوا الشمسَ أربعَ مراتٍ في اليومِ ، ويُضَافُ إلى ذلكَ عبادةُ القمرِ والنارِ والماءِ ، وكانوا مكلفينَ بأدعيةٍ خاصّةٍ ، عندَ النومِ والانتباهِ والاعتسَالِ ولبسِ الزنَّارِ والأكلِ والعطسِ وحلقِ الشعرِ وقلمِ الأظفارِ ، وقضاءِ الحاجةِ وإيقادِ السَّراجِ ، وكانوا مأمورينَ بالألّا يدعُوا النارَ تنطفئُ ، وألّا تمسَّ النارُ والماءُ بعضهما بعضاً ، وألّا يدعُوا المعدنَ يصدأ ، لأنَّ المعادنَ عندهم مقدَّسةٌ »^(٢) .

وكانَ أهلُ إيرانَ يستقبلونَ في صلاتهم النارَ ، وقد حلفَ « يزْدَجَرْدُ » - آخرُ الملوكِ السَّاسانيين - بالشمسِ مرةً ، وقالَ : « أحلفُ بالشمسِ التي هي الإلهُ الأكبرُ » وقد كُلفَ التائبونَ عن المسيحيّةِ عبادةَ الشمسِ إظهاراً لصِدقهم^(٣) .

(١) اقرأ كتاب « إيران في عهد الساسانيين » للبروفيسور « آرتهر كرسن سين » أستاذ الألسنة الشرقية في جامعة « كوبنهاجن » بالدانمارك ، المتخصص في تاريخ إيران ، و « تاريخ إيران » تأليف « شاهين مكاربوس » المجوسي .

(٢) إيران في عهد الساسانيين : ص ١٥٥ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٨٦ - ١٨٧ .

وَقَدْ دَانُوا بِالثَّنَوِيَّةِ فِي كُلِّ عَصْرِ وَأَصْبَحَ ذَلِكَ شَعَاراً لَهُمْ ، وَآمَنُوا بِالْهَيْئِ
اِثْنَيْنِ أَحَدُهُمَا النُّورُ أَوْ إِلَهُ الْخَيْرِ ، وَيُسَمُّونَهُ « آهُورُ مَزْدَا » أَوْ « يَزْدَان » وَالثَّانِي
الظُّلَامُ أَوْ إِلَهُ الشَّرِّ ، وَهُوَ « أَهْرَمَنْ » وَلَا يَزَالُ الصَّرَاغُ بَيْنَهُمَا قَائِماً وَالْحَرْبُ
دَائِمَةً^(١) .

يَذْكُرُ الْمُؤَرِّخُونَ لِلدِّيَانَةِ الْإِيرَانِيَّةِ مَجْمُوعَةَ أُسَاطِيرَ مُتَّصِلَةٍ بِالْآلِهَةِ
(Mythology) لَا تَقُلُّ فِي غَرَابِئِهَا وَتَفَاصِيلِهَا الدَّقِيقَةِ عَنِ الْمِثُولُوجِيَا الْإِغْرِيقِيَّةِ أَوْ
الْهِنْدِيَّةِ^(٢) .

٤ - الْبُودِيَّة :

أَمَّا الْبُودِيَّةُ - الدِّيَانَةُ الْمُنْتَشِرَةُ فِي الْهِنْدِ وَآسِيَا الْوُسْطَى - فَقَدْ تَحَوَّلَتْ وَثْنِيَّةٌ
تَحْمِلُ مَعَهَا الْأَصْنَامَ حَيْثُ سَارَتْ ، وَتَبْنِي الْهَيْكَلَ ، وَتَنْصَبُ تَمَاثِيلَ « بُودَا »
حَيْثُ حَلَّتْ وَنَزَلَتْ^(٣) ، وَلَمْ يَزَلِ الْعُلَمَاءُ يَشْكُونُ فِي إِيمَانِ هَذِهِ الدِّيَانَةِ
وَمُؤَسَّسِهَا بِالْإِلَهِ الْخَالِقِ لِلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْإِنْسَانِ وَلَا يَجِدُونَ مَا يَثْبُتُ
ذَلِكَ ، وَيَحَارُونَ فِي قِيَامِ هَذِهِ الدِّيَانَةِ الْعَظِيمَةِ بِغَيْرِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ^(٤) فِيهَا .

٥ - الْبَرْهَمِيَّة :

أَمَّا الْبَرْهَمِيَّةُ - دِينُ الْهِنْدِ الْأَصِيلِ - فَقَدْ امْتَاَزَتْ بِكَثْرَةِ الْمَعْبُودَاتِ وَالْآلِهَةِ
وَالْإِلَهَاتِ ، وَقَدْ بَلَغَتْ الْوُثْنِيَّةُ أَوْجَهَا فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ فَبَلَغَ عَدْدُ الْآلِهَةِ فِي هَذَا

(١) نفس المصدر باب الدين الزردشتي ديانة الحكومة : ص ١٨٣-٢٣٣ .

(٢) إيران في عهد الساسانيين : ص ٢٠٤-٢٠٩ .

(٣) راجع كتاب « الهند القديمة » للأستاذ « إيشورا توبا » أستاذ تاريخ الحضارة الهندية في
جامعة « حيدر آباد » الهند ، وكتاب « اكتشاف الهند » (The Discovery of India) لمؤلفه

« جواهر لال نهرو » رئيس وزراء الهند الأسبق ، ص ٢٠١-٢٠٢ .

(٤) اقرأ مقالة « بودا » في دائرة المعارف البريطانية .

القرن إلى ٣٣٠ مليون^(١) وقد أصبح كل شيء رائع ، وكل شيء هائل ، وكل شيء نافع ، إلهاً يُعبد ، وارتقت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد ، وتأنق فيها المتأنقون .

يقول الأستاذ الهندوكي الفاضل « سي ، وي ، ويد » في كتابه (تاريخ الهند الوسطى) وهو يتحدث عن عهد الملك هرش (٦٠٦ - ٦٤٨ م) وهو العهد الذي يلي ظهور الإسلام في الجزيرة العربية :

« كانت الديانة الهندوكية والديانة البوذية وثنيتين سواء بسواء ، بل ربّما كانت الديانة البوذية قد فاقت الديانة الهندوكية في الإغراق في الوثنية ، كان ابتداء هذه الديانة - البوذية - بنفي الإله ، ولكنها بالتدريج جعلت « بودا » الإله الأكبر ، ثم أضافت إليه آلهة أخرى مثل Bodhistavas على مر الزمن ، لا سيّما أرسخت الوثنية قديمها في المدرسة البوذية الفكرية التي تسمى « مهايانا » بالتأكيد ، وقد بلغت أوجها في الهند ، حتى أصبحت كلمة « بودا » (Buddha) مرادفة لكلمة « الوثن » أو « الصنم » في بعض اللغات الشرقية^(٢) .

ممّا لا شك فيه أنّ الوثنية كانت منتشرة في العالم المعاصر كلّ ، لقد كانت الدنيا كلّها من البحر الأطلسي إلى المحيط الهادي غارقة في الوثنية ، وكأنّما كانت المسيحية والديانات السامية والديانة البوذية تتسابق في تعظيم

(١) راجع « الهند القديمة » لمؤلفه « آر ، سي ، دت » ج ٣ ؛ ص ٢٧٦ ، و « الهندوكية السائدة » لمؤلفه L.S.S. O'Malley ص ٦ - ٧ .

(٢) مثل الفارسية واللغات المنشقة عنها كالأردية ، فهي تعبر عن الوثن أو الصنم بكلمة « بُدْ » وهذا التعبير منتشر في الشعر والأدب وكلام الناس في إيران والهند ، والناس في الهند يطلقون على « بودا » كلمة « بدها » فيقولون : « جوتم بدها » ، وكلمة (بُدْ) و (بدها) متقاربتان نطقاً (المؤلف) .

الأوثان وتقديسها ، وكانت كخيل رهان تجري في حلبة^(١) واحدة^(٢) .

ويقول أستاذ هندوكي فاضل آخر في كتابه الذي سمّاه : « الهندوكية السائدة » :

إنَّ عملية « خلق الآلهة » لم تنته على هذا ، فلم تزل تنضمُّ آلهة صغيرة في فترات تاريخية مختلفة إلى هذا « المجمع الإلهي » في عدد كبير ، حتَّى أصبح منهم حشدٌ يفوق الحدَّ والإحصاء ، كان كثيرٌ منهم آلهة سكَّان الهند القدماى ، ألحقوا بآلهة الديانة الهندوكية ، يُذكرُ أنَّ عددَ هؤلاء قد بلغ ٣٣٠ مليوناً^(٣) .

٦ - الجاهلية العربية :

أمَّا العربُ الذين آمنوا في الزمن القديم بدين إبراهيم ، وقام في أرضهم بيتُ الله الحرامُ ، فقد ابتُلوا في العصر الأخير لبُعْد عهدهم من النبوة والأنبياء ، والانحصار في شبه جزيرتهم بوثنية سخيفة لا يوجد لها نظيرٌ إلا في الهند البرهمية الوثنية ، وترقَّوا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة ، واعتقدوا أنَّ لهم مشاركة في تدبير الكون ، وقدرة ذاتية على النفع والضرر ، والإيجاد والإفناء ، وانغمست الأمة في الوثنية وعبادة الأصنام بأشع أشكالها ، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص ، بل لكل بيت صنمٌ خصوصي^(٤) .

وكان في جوف الكعبة - البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام لعبادة الله

(١) [الحلبة : ميدان سباق الخيل] .

(٢) C.V. Vaidya: History of Mediaeval Hindu India, Vol, I (Poona, 1921) p. 101.

(٣) L.S.S. O'Malley, C.I.E.I. I.C.S.: Popular Hinduism, the Religion of the Masses (Cambridge, 1935) pp. 6-7.

(٤) اقرأ كتاب « الأصنام » للكليبي ؛ ص ٣٣ .

وحده - وفي فنائها ، ثلاثمائة وستون صنماً^(١) ، وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة الحجر ، من أي جنس كان ، وكانت لهم آلهة من الملائكة والجن والكواكب ، وكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ، وأن الجن شركاء الله ، فأمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم^(٢) .

-
- (١) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب : أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح برقم (٤٢٨٧) ، ومسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة ، برقم (١٧٨١) ، والترمذي في أبواب تفسير القرآن ، برقم (٣١٣٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ وأخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ برقم (٣٣٥٢) ، وأبو داود في كتاب المناسك ، باب الصلاة في الكعبة برقم (٢٠٢٧) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما] .
- (٢) كتاب الأصنام : ص ٤٤ .

العصر الجاهلي إطلالة على البلاد والأمم في القرن السادس المسيحي

هذا شأن الديانات التي ظهرت في زمانها الدعوة إلى الله ، أمّا البلاد المتمدنة التي قامت فيها حكومات عظيمة ، وشاعت فيها علوم كثيرة ، وكانت مهد الحضارة والصناعات والآداب ، فقد كانت بلاداً مسخّت فيها الديانات ، وفقدت أصالتها وقوتها ، وفقد المصلحون ، وغاب المعلمون .

١ - الإمبراطورية الرومانية الشرقية :

فالدولة الرومانية الشرقية^(١) ، ازدادت فيها الآتاوات ، وتضاعفت الضرائب ، حتى أصبح أهل البلاد يفضلون على حكومتهم كل حكومة أجنبية ، وحدثت اضطرابات إثر اضطرابات ، وثورات إثر ثورات ، وقد هلك عام ٥٣٢م في اضطراب واحد في عهد جيستن الأول (Justin, I) ثلاثون ألف شخص في القسطنطينية^(٢) - عاصمة المملكة - وأصبح الهم الوحيد اكتساب

(١) الإمبراطورية الرومانية الشرقية هي المعروفة بالإمبراطورية البيزنطية ويعرفها العرب بالروم ، وكانت تحكم في العصر الذي نتحدث عنه ، دول يونا وبلقان ، وآسيا الصغرى ؛ وسورية وفلسطين ، وحوض البحر الأبيض المتوسط بأسره ؛ ومصر ، وكل إفريقيا الشمالية ، وكانت عاصمتها القسطنطينية ، وكان ابتداء الإمبراطورية المذكورة سنة ٣٩٥ ؛ وانتهائها بغلبة العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م .

(٢) تاريخ العالم للمؤرخين (Historian's History of The World Vol. VII p. 73) .

المال من أي وجه ، ثم إنفاقه في الترف ، وقد أمعنوا في طرق التسلية ، حتى وصلوا فيها إلى الوحشية^(١) .

جاء في كتاب « الحضارة ماضيها وحاضرها » تصوير لما كان عليه المجتمع البيزنطي من التناقض والاضطراب والهيام بالتمتع والتسلية ، وإن وصلت إلى حد القسوة والهمجية ، فيقول المؤلفان الفاضلان :

« كان هناك تناقض هائل في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين ، فقد رسخت النزعة الدينية في أذهانهم ، وعمت الرهبانية ، وشاعت في طول البلاد وعرضها ، وأصبح الرجل العادي في البلاد يتدخل في الأبحاث الدينية العميقة ، والجدل البيزنطي ، ويتشغل بها .

كما طبعت الحياة العادية العامة بطابع المذهب الباطني ، ولكن نرى هؤلاء - في جانب آخر - حريصين أشد الحرص على كل نوع من أنواع اللهو واللعب ، والطرب والترف ، فقد كانت هناك ميادين رياضية واسعة تتسع لجلوس ثمانين ألف شخص ، يتفرجون فيها على مصارعات بين الرجال والرجال أحياناً ، وبين الرجال والسباع أحياناً أخرى .

وكانوا يقسمون الجماهير في لونين : لون أزرق ولون أخضر ، لقد كانوا يحبون الجمال ، ويعشقون العنف والهمجية ، وكانت ألعابهم دموية ضارية أكثر الأحيان ، وكانت عقوباتهم فظيعة تقشعر منها الجلود .

وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارة عن المجون والترف ، والمؤامرات والمجاملات الزائدة ، والقبائح والعادات السيئة^(٢) .

(١) اقرأ كتاب « سقوط دولة روما وانحطاطها » لإدوارد جيون : ٣ - ٥ .

(٢) T.Walter Wallbank and Alastair M. Taylor: Civilisation, Past and Present,

=(1954) pp. 261-62.

أمّا مصرُ - إحدى ولايات الدولة البيزنطية الغنيّة - فكانت عرضةً لاضطهادٍ دينيّ فظيع ، واستبدادٍ سياسيٍّ شنيع ، وكان البؤسُ والشقاءُ ممّا كانت تُعانيه مصرُ ، التي كانت مصدراً كبيراً لرخاء الدولة وغناها ، وقد اتخذها الرومُ شاةً حلوباً يُحسنون حلبها ، ويُسيئون علفها^(١) .

أما سورية - ولاية الإمبراطورية البيزنطية الأخرى - فكانت مطيّة المطامع الرومانيّة ، وكان الحكمُ حكم الغرباء الذي لا يعتمدُ إلاً على القوّة ، ولا يشعرُ بشيءٍ من العطفِ على الشعبِ المحكوم ، وكثيراً ما كان السُوريّون يبيعون أبناءهم ليقفوا ما كانت عليهم من ديونٍ ، وقد كثرت المظالمُ والسخراتُ والرقيقُ^(٢) .

٢ - الإمبراطورية الإيرانية السّاسانية^(٣) :

كانت الزّردشتيّة - وهي التي خلّفت المزدائيّة - ديانة إيران القديمة ، ومن

(١) فتح العرب لمصر : لمؤلفه « الفرد بتلر » ، و « تاريخ العالم للمؤرخين » : ج ٧ .

(٢) أقرأ للتفصيل « خطط الشام » للأستاذ كرد علي : ج ١ ، ص ١٠١ .

(٣) كانت أعظم من الإمبراطورية الرومانية الشرقية - بعد انشقاقها عن الإمبراطورية الرومانية الكبرى - مساحةً وأبهةً وثروة ؛ وقد تأسست على يد « أردشير » في سنة ٢٢٤م ، وكانت تحكم حين بلغت أوجها : أسبرته ، وخوزستان ، وميديه ، وفارس ، وأذربيجان ، وطبرستان ، وسرخس ، وجرجان ، وكرمان ، ومرو ؛ وبلخ ، وصغد ، وسيستان ، وهراة ، وخراسان ، وخوارزم ، والعراق ، واليمن من الجزيرة العربية ، وقد دخلت بعض ولايات الهند مثل كجه ، وكاتيهوار ، ومالوه ، في حكمها في بعض الفترات ، وقد اتسعت هذه الإمبراطورية اتساعاً كبيراً منذ القرن الرابع المسيحي ، وقد أوغلت في الشمال والشرق وبلغت أقصى حدودهما .

وقد كانت طيسيفون (المدائن) عاصمة الإمبراطورية ، ومقر الإمبراطور الإيراني ، وكانت مجموع مدائن كما يبدو من اسمها العربي ، وقد بلغت أوجها في الرقي والمدنية والبذخ ؛ في القرن الخامس إلى ما بعد (راجع للتفصيل « إيران في عهد الساسانيين » للبروفيسور آرتهر كرستن سين) .

المرجَّح أنَّ « زَرْدَتشت » صاحبَ هذه الديانة ظهرَ في القرنِ السابعِ قبلَ الميلادِ ، وكانتْ مؤسسةً منذُ أولِ يومِها على الحربِ القائمةِ بينَ النورِ والظلامِ ، وبينَ روحِ الخيرِ وروحِ الشرِّ ، أو بينَ إلهِ الخيرِ وبينَ إلهِ الشرِّ .

وجاءَ « مَاني » في أوائلِ القرنِ الثالثِ المسيحيِّ مجدداً لهذه الديانةِ ، مضيفاً إليها^(١) ، وتبعه « شاه بُور » - الذي خلفَ أردشيرَ (٢٤١ م) مؤسسَ الدولةِ الساسانيةِ ، واحتضنَ دعوته ، ثمَّ أصبحَ معارضاً له ، فقد كانَ « ماني » يدعو إلى حياةِ العزوبةِ لحسمِ مادةِ الفسادِ والشرِّ من العالمِ ، ويُعلنُ أن امتزاجَ النورِ بالظلمةِ شرٌّ يجبُ الخلاصُ منه ، فحرَّمَ النكاحَ استعجالاً للفناءِ ، وانتصاراً للنورِ على الظلمةِ ، بقطعِ النسلِ .

وقضى أعواماً في النفي ، ثمَّ عادَ إلى إيرانَ ، وقُتلَ في عهدِ بهرامِ الأولِ ، ولكنَّ تعاليمه لم تمتْ بموته ، بل بقيتْ تؤثرُ في التفكيرِ الإيرانيِّ ، والمجتمعِ الإيرانيِّ مدةً طويلةً .

وظهرَ مَزْدَكُ في أوائلِ القرنِ الخامسِ المسيحيِّ ، فدعا إلى إباحتِ الأموالِ والنساءِ ، وجعلَ الناسَ شركاءَ فيها ، وقويتْ دعوته ، وكانَ الناسُ يدخلونَ على الرَّجُلِ في داره ، فيغلبونه على منزله وأمواله ، لا يستطيعُ الامتناعُ منهم ، وقد جاءَ في وثيقةٍ إيرانيةٍ تاريخيةٍ تُعرفُ بـ « نامةِ تنسر » تصويرٌ لذلكِ العصرِ الذي انتشرتْ فيه الدعوةُ المزدكيةُ ، وكانتْ لها السيطرةُ والنفوذُ :

« وانتهكتِ الأعراضُ ، وعمَّ خلعُ العذارِ ، لقد نشأ جيلٌ لا كرامةَ فيه ولا عملَ ، ولم يكنْ له رصيْدٌ ولا ماضٍ مجيدٌ ، وليسَ له اهتمامٌ بمصيرِ الشعبِ ، ولا إشفاقٌ عليه ، ولا يتصفُ بكمالٍ ومهارةٍ ، كانتْ تسيطرُ عليهم اللامبالاةُ

(١) اقرأ لمعرفةَ تعليماتِ ماني ودعوته وفلسفته ، الباب الرابع من كتاب « إيران في عهد الساسانيين » (النبي ماني وديانته) ص ٢٣٣ - ٢٦٩ .

والبطالة ، وكانوا بارعين في النميمة ، والخبث ، والافتراء ، والبهتان ، وقد اتخذوا ذلك وسيلة لكسب القوت والوصول إلى الثروة والجاه ^(١) .

ويقول « آرتھر كرستن سين » :

« كانت النتيجة أن انتشرت ثورات الفلاحين ، وكان النهابون يدخلون في قصور الأغنياء وينهبون ما يجدون فيها من أموال وأثاث ، ويلقون القبض على النساء ، ويستولون على الأملاك والعقارات ، فأصبحت الأراضي والمزارع مقفرة خربة ، لأن هؤلاء الملاك الجدد لم يكن لهم عهد ، ولا معرفة بالفلاحة » ^(٢) .

ظهر من ذلك أنه كان في إيران القديمة استعداد عجيب دائماً لقبول الدعوات المتطرفة المغالية ، وكانت دائماً تحت تأثير ردود فعل عنيفة ، وكانت تتأرجح بين « أبيقورية » ^(٣) جامحة وتنسك مغال حينا ، وبين احتكار سلالتي ، أو طبقتي ، أو ديني ، وشيوعية متطرفة وفوضوية مطلقة حينا آخر ، أفقدها هذا التأرجح الاتزان والاقتصاد والهدوء .

وكانت الأحوال سيئة جداً في هذه الإمبراطورية - الإيرانية الساسانية - في القرن السادس المسيحي ، فكانت تحت رحمة الملوك الذين كانوا يحكمون بالوراثية ، ويرؤن أنفسهم فوق الناس وفوق بني آدم ، وكانوا يخاطبون بكلمة « الإله » وتضاف إليهم كلمة الألوهية بطريق مكشوف ، وكان الإمبراطور

(١) نامه تنسر : طبع مينيوي ، ص ١٣ .

(٢) إيران في عهد الساسانيين : ص ٤٧٧ .

(٣) مذهب « أبيقور » الفيلسوف الإغريقي الذي قال بأن المنة هي الخير الأسمى .

« الإنسان الأول » وكان لا يُسمَّى باسمه عند الخطاب ، وكان يعتبر من نسل الآلهة^(١) .

وكانت موارد البلاد كلها ملكاً لهؤلاء الملوك ، وقد تظرفوا في اكتناز الأموال ، وادّخار الطرف ، والأشياء الغالية ، والتأنق في المعيشة ، والتمتع بالحياة ، وقد وصل الولوع بالتلذذ ، وترفيه الحياة ، والمسابقة في مظاهر الغنى والعظمة ، إلى حدّ الخيال والشعر لا يتصوره إلا من توسّع في دراسة تاريخ إيران القديمة ، وشعرها وأدبها^(٢) ، وأطلع على تفاصيل مدينة « طيسيفون » وإيوان كسرى ، وبهار كسرى^(٣) ، (بساط الربيع) ، وتاج كسرى ، وما كان يختص بملوكهم من خدام وحشم ، وزوجات وجوار ، وغلمان وطهارة ، ومربّين للطيور والسباع ، وأوان وقنص ، التفاصيل الأسطورية التي يدهش لها الإنسان^(٤) ، وقد بلغ ذلك إلى حدّ أن يزددجرد آخر ملوك إيران لما خرج من عاصمته - المدائن - هارباً ينجو بنفسه في الفتح الإسلامي العربي أخذ معه - وهو في حالة الفرار - ألف طاه ، وألف مغلّ ، وألف قيم للثمنور ، وألف قيم للبراة ، وحاشية أخرى ، وكان يستقل هذا العدد ، ويعتبر نفسه لاجئاً حقيراً ، ويتصور أنّه في حالة يرثى لها من قلّة الحاشية ، وفقدان أسباب الترفيه والتسلية^(٥) .

هذا بجانب ما كان يُعانيه الشعب من بؤس وشقاء ، وتعبد وعناء ، وتذمّر وبكاء ، فكان أفراد هذا الشعب في جهد من العيش للحصول على ما يسدّ

(١) إيران في عهد الساسانيين : ص ٣٣٩ .

(٢) اقرأ على سبيل المثال « إيران في عهد الساسانيين » ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٣) راجع تاريخ الطبري : ج ٤ ؛ ص ١٧٨ .

(٤) راجع « تاريخ إيران » شاهين مكاريوس ، طبع ١٨٩٨ م ، ص ٩٠ .

(٥) راجع للتفصيل « إيران في عهد الساسانيين » ص ٦٨١ .

رمقهم ، ويستتر عورتهم ، يرزحون تحت أثقال الضرائب والإتاوات ، ويرسفون في القيود والأغلال ، ويعيشون عيش البهائم ، حتى ترك كثير من المزارعين أعمالهم ، أو دخلوا الأديرة فراراً من الضرائب والخدمة العسكرية^(١) وكانوا وقوداً حقيراً في حروب طاحنة مدمرة ، قامت في فترات من التاريخ ، ودامت سنين طوالاً بين المملكة الشرقية الساسانية والمملكة الغربية البيزنطية ، لا مصلحة للشعب فيها ولا رغبة^(٢) .

٣ - الهند :

أمّا الهند التي برزت في العصر القديم في العلوم الرياضية وعلم الفلك والطب والتعمق في الفلسفة ، فقد اتفقت كلمة المؤرخين لها على أن أحط أدوارها ديانةً ، وخلقاً ، واجتماعاً ، ذلك العهد الذي يتبدى من مستهل القرن السادس الميلادي^(٣) ، فانتشرت الخلاعة حتى في المعابد وأصبحت لا عيب فيها ، لأن الدين قد أضفى عليها لوناً من القدس والتعبد^(٤) .

وكانت المرأة لا قيمة لها ولا عصمة ، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار^(٥) ، وإذا مات زوجها صارت كالموءودة لا تتزوج ولا تستحق احتراماً ، وانتشرت عادة إحراق الأياشي نفوسهن على وفاة أزواجهن ، خاصة في الطبقات الشريفة والأرستقراطية إظهاراً للوفاء ، وفراراً من الشقاء ، وتسمى

(١) إيران في عهد الساسانيين : ص ٦٨١ .

(٢) راجع الباب الخامس من كتاب « إيران في عهد الساسانيين » (مملكة الشرق ومملكة الغرب) ص ٢٦٩ - ٣٣٣ .

(٣) راجع « الهند القديمة » ج ٣ ، لمؤلفه آرسي ، دت (R.C.Dutt)

(٤) ستيارته برকাশ لديانند سرسوتي : ص ٣٤٤ .

(٥) اقرأ استهلال قصة مهابهارت (الملحمة الهندية الكبرى) .

هذه العادة بـ « سَتِي » ولم تزل زوالاً كلياً إلا بعد الاحتلال الإنجليزي^(١).

وامتازت الهند من بين جاراتها وأقطار العالم بالتفاوت الفاحش بين طبقات الشعب ، والامتياز بين الإنسان والإنسان ، وكان نظاماً قاسياً لا هوادة فيه ولا مرونة ، مُدْعِماً بالدين والعقيدة ، خاضعاً لمصلحة الأريين المحتلين ، والبراهمة المحتكرين للديانة والقداسة ، قائماً على أساس الحرف والصنائع وتوارثها ، والعنصرية والسلالية ، وكان ذلك تابعاً لقانون مدني سياسي ديني ، وضعه المُشرِّعون الهنديون الذين كانت لهم صفة دينية ، أصبح القانون العام للمجتمع ودستور الحياة ، وهو يقسم سكان الهند في أربع طبقات :

(١) طبقة الكهنة ورجال الدين ، وهم « البراهمة » .

(٢) ورجال الحرب والجندية وهم « شَتْرِي » .

(٣) ورجال الفلاحة والتجارة وهم « وِيش » .

(٤) ورجال الخدمة وهم « شُودَر » وهم أخط الطبقات ، فقد خلقهم خالق الكون من أرجله ، وليس لهم إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث وإراحتها .

وقد منح هذا القانون البراهمة مركزاً ومكانة لا يُشارِكهم فيها أحد ، والبرهمي رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله ، ولا يجوز فرض جباية عليه ، ولا يُعاقب بالقتل في حال من الأحوال .

أمّا « شُودَر » فليس لهم أن يكتنوا مالا ، أو يدخروا كنزاً ، أو يجالسوا برهمياً ، أو يمشوه بيدهم ، أو يتعلموا الكتب المقدسة^(٢) .

(١) اقرأ رحلة الرحالة الفرنسي برنير وتاريخ الراجوات والأمراء في القرون الوسطى .

(٢) راجع للتفصيل القانون المدني الاجتماعي الهندي المسمى بـ « مَنُو شَاسْتَر » الأبواب : ١ -

وكانت الهند في حالة فوضى وتمزق تحكمها إمارات وحكومات تُعدُّ بالميئات ، تضعفها حروب ومنافسات ، ويسود الاضطراب وسوء الإدارة واختلال الأمن وإهمال شؤون الرعيَّة والاستبداد .

وكانت تعيش في عزلة عن العالم ، يُسيطر عليها الجمود ، والتزمت ، والتطرف ، في العادات والتقاليد ، والتفاوت الطبقي ، والتعصب الدموي والسُلالي .

يتحدّث مؤرِّخ هندوكيُّ أستاذ التاريخ في إحدى جامعات الهند ، عن عصر سابق لدخول الإسلام في الهند ، فيقول :

« كان أهل الهند منقطعين عن الدنيا ، منطوين على أنفسهم ، لا خبرة عندهم بالأوضاع العالميَّة ، وهذا الجهل أضعف موقفهم ، فنشأ فيهم الجمود ، وعمَّت فيهم أمارات الانحطاط والتدهور ، كان الأدب في هذه الفترة بلا رُوح ، وهكذا كان الشأن في الفن المعماري ، والتصوير ، والفنون الجميلة الأخرى » .

« كان المجتمعُ الهنديُّ راكداً جامداً ، كان هناك تفاوتٌ عظيمٌ بين الطبقات ، وتمييزٌ معيبٌ بين أسرةٍ وأُسرةٍ ، وكانوا لا يسمحون بزواج الأيامي ويشددون على أنفسهم في أمور الطعام والشراب .

أمَّا المنبوذون فكانوا يعيشون - مضطرين - خارج بلدهم ومدينتهم »^(١) .

٤ - أوربَّة :

أمَّا الأممُ الأوربيَّةُ - المتوغَّلة في الشمال والغرب - فكانت تعيش في ظلام

الجهل والامية ، والحروب الدامية ، وكانت بعيدة عن جادة قافلة الحضارة الإنسانية ، والعلوم والآداب ، لا شأن للعالم بها ولا شأن لها بالعالم .

كانت أجسامهم قذرة ، ورؤوسهم مملوءة بالأوهام^(١) ، وكانوا يزهّدون في النظافة واستعمال الماء ، ويغالي الرهبان منهم في تعذيب الأجسام ، والفرار من الإنسان^(٢) ، وكانوا يبحثون في أن المرأة حيوان أم إنسان ، ولها روح خالدة أم ليست لها روح خالدة ، وأن لها حق الملكية ، والبيع ، والشراء ، أم ليس لها شيء في ذلك ؟

يقول روبرت بريفولت (Robert Briffault) :

« لقد أطبق على أوربة ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر ، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً ، وقد كانت همجية ذلك العهد أشدّ هولاً ، وأفظع من همجية العهد القديم ، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفّنت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة ، وقُضيَ عليها بالزوال ، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها في الماضي ، كإيطاليا ، وفرنسا ، فريسة الدمار والفوضى والخراب »^(٣) .

٥ - الجزيرة العربية في العصر الجاهلي :

أمّا العربُ فساءت أخلاقهم ، فأولعوا بالخمّر والقمار ، وبلغت بهم القساوة والحمية المزعومة إلى وأد البنات ، وشاعت فيهم الغارات ، وقطع الطرق على القوافل ، وسقطت منزلة المرأة ، فكانت تُورث كما يُورث المتاع

(١) تاريخ الفلسفة : للبروفيسور ثيلي (Thilly) .

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب « تاريخ الأخلاق الأوربية » لمؤلفه الشهير (Lecky) ج ٢ ، باب « من قسطنطين إلى شارلمان » .

(٣) The Making of Humanity, p. 164.

أو الدابة ، ومن المأكولات ما هو خاصٌ بالذكور ، محرّمٌ على الإناث ، وكان يسوغُ للرجل أن يتزوَّجَ ما يشاء من النساء من غير تحديد .

وكانت العصبيةُ القبليّةُ والدمويّةُ شديدةً جامحةً ، وأغرِمُوا بالحرب ، حتى صارت مسلاةً لهم وملهى وهوايةً ، ينتهزون للتسلية وقضاء هوى النفس نُشوبَ حربٍ لها مسوِّغٌ ، أو لا مسوِّغَ لها ، يدلُّ على ذلك ما قاله الشاعرُ الجاهليُّ (الرقاد بن المنذر بن ضرار الضبي) :

إذا المهرَةُ الشَّقْرَاءُ أَذْرَكَ ظَهْرُهَا فشبَّ الإلهُ الحربَ بينَ القبائلِ
وأوقَدَ ناراً بينَهُمْ بِضْرَامِهَا لها وَهَجٌ لِلْمُضْطَلِي غيرُ طائلٍ^(١)
ويقول (عُمير التَّغْلِبِي) المعروف بالقَطامي ، وهو يُعَبِّرُ عن رغبةِ أهلِ الجاهلية في القتال ، وتحثُّنِ الفرص له :

وأحياناً على بَكْرِ أخينا إذا مالمَ نَجِدْ إلّا أخانا^(٢)
وهانت عليهم إراقةُ الدِّماء ، فتثيرها حادثةٌ تافهةٌ ، وتدوم الحربُ أربعين سنةً ، يُقتلُ فيها ألوفٌ من الناس^(٣) .

أمّا من جهةِ الأخلاق ، فكانت فيهم أدواءٌ وأمراضٌ متأصلةٌ ، وأسبابها فاشيةٌ .

فكان شُرْبُ الخمر واسعَ الشُّيوع ، شديدَ الرُّسوخ فيهم ، تحدّث عن معاقرتهم والاجتماع على شُرْبِها الشعراءُ ، وشغلّت جانباً كبيراً من شُغْرهم وتاريخهم وأدبهم ، وكثُرَت أسماؤها وصفاتها في لغتهم ، وكثر فيها التدقيقُ

(١) ديوان الحماسة : بشرح الأعلام : ص ٢٧١ .

(٢) المصدر السابق : ص ٣٧٧ .

(٣) راجع الشعر الجاهلي والكتب التي ألّفت في أيام العرب وأخبارهم .

والتفصيل كثرة تدعو إلى العَجَب^(١) ، وكانت حوائثُ الخَمَّارين مفتوحة دائماً يُرْفَرُفُ عليها عَلَمٌ يسمَّى (غاية) .

قال لبيد بن ربيعة العامري^(٢) :

قد بَثَّ سامرها وغاية تاجرٍ وافيتُ إذ رُفِعَتْ وَعَزَّ مُدَامُهَا
وكان من شُبُوعِ تجارةِ الخمرِ أنْ أصبحتُ كلمةَ التَّجَّارةِ مرادفةً لبيع
الخمر ، كما قال لبيد : و (غاية تاجر) .
وقال عمرو بن قُمَيْئَةَ^(٣) :

إذ أَسْحَبُ الرِّيطَ^(٤) والمُرُوطَ^(٥) إلى أذنى تَجَارِي وأنْفَضُ اللَّمَمَ^(٦)
وكان القمار من مفاخر الحياة الجاهليَّة ، قال الشاعرُ الجاهليُّ^(٧) :
أَعْيَرْتَنَا أَلْبَانَهَا وَلُحُومَهَا وذلك عَارٌّ يا بنَ رَيْطَةَ ظَاهِرُ
نُحَابِي بِهَا أَكْفَاءَنَا وَنُهَيْنُهَا ونشربُ في أَثْمَانِهَا وَنُقَامِرُ
وكان عدمُ المشاركة في مجالس القمار عاراً . يقول الشاعرُ :

وَإِذَا هَلَكْتُ فَلَا تَرِيدِي عَاجِزاً غَسّاً وَلَا بَرِمّاً وَلَا مِعْزَلاً
قال قتادة : كان الرَّجُلُ في الجاهلية يُقَامِرُ على أهله وماله ، فيقعده حزناً

(١) اقرأ كتاب المخصص : لابن سيده : ٨٢/١ - ١٠١ .

(٢) ديوانه : ص ٣١٤ .

(٣) ديوان الحماسة : ص ٦٨٢ .

(٤) [الرِّيط ، جمع الرِّيطَة : وهو كلُّ ثوبٍ لم يَلْفَقْ (بآخر) كالرِّداء] .

(٥) [المُرُوط ، جمع المُرْط : وهو كساءٌ خَزٌّ مُعَلَّم الطَّرْفَيْنِ ، أو ملحفةٌ يُؤْتَرز بها] .

(٦) [اللَّمَم ، جمع اللَّمَّة : وهي الشعرة التي تُلْمُ بالمنكب] .

(٧) ديوان الحماسة : ص ٢٥٤ ، وهو لسيرة بن عمرو .

سليبا ، ينظرُ إلى ماله في يد غيره ، فكانت تُورث بينهم عداوة وبغضا^(١) .

وكان أهل الحجاز : العرب واليهود ، يتعاطون الرِّبا ، وكان فاشيا فيهم ، وكانوا يُجْحِفُونَ فيه ، ويبلغون إلى حدِّ الغلوِّ والقسوة ، قال الطَّبْرِيُّ :

« كان الرِّبا في الجاهلية في التضعيف وفي السنين ، يكونُ للرجل فضلُ دينٍ ، فيأتيه إذا حلَّ الأجلُ ، فيقول له : تقضيني أو تزيدني ؟ فإن كان عنده شيءٌ يقضيه قَصَى ، وإلاَّ حوَّله إلى السنِّ التي فوق ذلك ، إن كانت ابنة مَخَاضٍ^(٢) يجعلها ابنة لَبُونٍ^(٣) في السنة الثانية ، ثم حِقَّةً^(٤) ، ثم جَذَعَةً^(٥) ، ثم رباعياً^(٦) هكذا إلى فوق .

وفي العَيْنِ^(٧) يأتيه ، فإن لم يكن عنده أضعفه في العام القابل ، وإن لم يكن عنده أضعفه أيضاً ، فتكونُ مئةً ، فيجعلها إلى القابل مئتين ، فإن لم يكن عنده جعلها أربعمئة يُضْعِفُهَا له كلَّ سنةٍ أو يقضيه^(٨) .

(١) تفسير الطبري ، تفسير آية : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾ [المائدة : ٩١] .

(٢) [ابنة مَخَاضٍ أو ابنُ مَخَاضٍ : ولد الناقة الذي دخلَ في السنة الثانية ، والأنثى بنت مَخَاضٍ] .

(٣) [ابنة لَبُونٍ أو ابن لَبُونٍ : ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة ، سُمِّيَ بذلك لأنَّ أُمَّهُ وَلَدَتْ غيره فصار لها لَبُونٌ] .

(٤) [الْحَقُّ مِنَ الْإِبِلِ : ما دخل في السنة الرابعة ، وأمكن رُكُوبُهُ والحملُ عليه ، وسُمِّيَ بذلك لأنَّه استحقَّ الرُكُوبَ والتحميلُ] .

(٥) [الْجَذَعُ : هو من الإبل ما دخل في السنة الخامسة ، ومن البقر والمَعَز ما دخل في السنة الثانية ، وقيل : البقر في الثالثة أو من الضأن ما تَمَّتْ له سنةٌ] .

(٦) [رباعياً : هو الذي يُلْغِي رِبَاعِيَّتَهُ ، (والرِّبَاعِيَّةُ : السنُّ بين الثنية والثَّاب) : الإبل يُرْبِع في السنة السابعة ، والبقر والخيل في الخامسة ، والغنم في السنة الرابعة] .

(٧) [العين : الذهب] .

(٨) تفسير الطبري : ٥٩/٤ .

وقد رَسَخَ الرُّبَا فيهم ، وجرى منهم مجرى الأمور الطبيعية التي صاروا لا يفرّقون بينه وبين التُّجَارَةِ الطبيعية ، وقالوا : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

وقال الطُّبري : « إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا يَأْكُلُونَ الرُّبَا مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ، كَانَ إِذَا حُلَّ مَالٌ أَحَدِهِمْ عَلَى غَرِيمِهِ ، يَقُولُ الْغَرِيمُ لَغَرِيمِ الْحَقِّ : زِدْنِي فِي الْأَجَلِ وَأَزِيدْكَ فِي مَالِكَ ، فَكَانَ يُقَالُ لِهَمَا إِذَا فَعَلَا ذَلِكَ : هَذَا رِبَا لَا يَحِلُّ ، فَإِذَا قِيلَ لِهَمَا ذَلِكَ ، قَالَا : سَوَاءٌ عَلَيْنَا زِدْنَا فِي أَوَّلِ الْبَيْعِ أَوْ عِنْدَ مَحَلِّ الْمَالِ » (١) .

ولم يكن الزُّنَى نادراً ، وكان غيرَ مُستنكَرٍ استنكاراً شديداً ، فكان من العادات أن يَتَّخِذَ الرَّجُلُ خَلِيلَاتٍ ، وَتَتَّخِذُ النِّسَاءُ أَخِلَاءَ بَدُونِ عَقْدٍ ، وَقَدْ كَانُوا يُكْرَهُونَ بَعْضَ النِّسَاءِ عَلَى الزُّنَى .

قال ابن عَبَّاسٍ : كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُكْرَهُونَ إِمَاءَهُمْ عَلَى الزُّنَى يَأْخُذُونَ أَجُورَهُمْ (٢) .

وكانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضةً غبنٍ وَحَيْفٍ ، تَوْكَلُ حَقُوقَهَا ، وَتَبْتَزُّ أَمْوَالَهَا ، وَتُحَرِّمُ إِرْثَهَا ، وَتُعْضَلُ بَعْدَ الطَّلَاقِ ، أَوْ وَفَاةِ الزَّوْجِ مِنْ أَنْ تَنْكِحَ زَوْجاً تَرْضَاهُ (٣) ، وَتُورَثُ كَمَا يُورَثُ الْمَتَاعُ أَوْ الدَّابَّةُ (٤) .

وقد بَلَغَتْ كَرَاهَةُ الْبَنَاتِ إِلَى حَدِّ الْوَادِ ، ذَكَرَ الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ - عَلَى مَا حَكَاهُ عَنْهُ الْمَيْدَانِيُّ - أَنَّ الْوَادَ كَانَ مُسْتَعْمَلاً فِي قِبَائِلِ الْعَرَبِ قَاطِبَةً ، فَكَانَ

(١) تفسير الطبري : ٦٩/٤ .

(٢) المصدر السابق : ٤٠١/١٨ .

(٣) قال تعالى : ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَائَصَوا بَيْنَهُنَّ بِالْعُرْفِ ﴾ [البقرة : ٢٣٢] .

(٤) قال تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾

[النساء : ١٩] .

يستعمله واحدٌ ويتركه عشرة ، فجاءَ الإسلامُ ، وكانت مذاهبُ العرب مختلفةً في وأد الأولاد ، منهم من كان يئدُ البناتِ لمزيدِ الغيرةِ ، ومخافةِ لحوقِ العارِ بهم من أجلهنَّ ، ومنهم من كان يئدُ مِنَ البناتِ من كانت زَرْقاءَ أو شيماءَ (سوداء) أو برّشاءَ (برصاء) أو كسحاءَ (عرجاء) تشاؤماً منهم بهذه الصفات .

وكانوا يقتلون البناتِ ، ويئدونهنَّ بقسوةٍ نادرةٍ في بعض الأحيان ، فقد يتأخَّرُ وأدُ الموءودةِ لسفرِ الوالدِ أو شغله ، فلا يئدُها إلّا وقد كَبُرَتْ ، وصارت تعقِلُ ، وقد حكوا في ذلك عن أنفسهم مُبكيات ، وقد كان بعضهم يلقي الأنثى من شاهقٍ^(١) .

ومنهم مَن كان يقتل أولاده خشيةَ الإنفاقِ وخوفَ الفقرِ ، وهُم الفقراءُ مِنْ بعض قبائل العرب ، فكان يشتريهم بعضُ سراة العرب وأشرافهم^(٢) فصَعَصَعَةً ابنِ نَاجيةٍ يقول : « جاء الإسلامُ وقد فديتُ ثلاثمئةَ موءودةٍ »^(٣) .

ومنهم من كان ينذر - إذا بلغ بنوه عشرة - نحر واحدٍ منهم ، كما فعل عبد المطلب .

ومنهم من يقول : الملائكةُ بناتُ الله - سبحانه عمّا يقولون - فألحقوا البناتَ به تعالى^(٤) .

ظلامٌ مطبقٌ ويأسٌ قاتلٌ :

وقصارى القولِ : إنّ القرنَ السادسَ المسيحيَّ - الذي كانت فيه البعثةُ

(١) بلوغ الأرب في أحوال العرب : للآلوسي .

(٢) اقرأ « بلوغ الأرب في أحوال العرب » للآلوسي .

(٣) كتاب الأغاني .

(٤) بلوغ الأرب [وانظر « المرأة العربية في العصر الجاهلي » للدكتورة ليلي صباغ] .

المحمّدية - وما يليه من فترة زمنيّة ، كان من أخطأ أدوار التاريخ ، ومن أشدّها ظلاماً ويأساً من مستقبل الإنسانية وصلاحيّتها للبقاء والازدهار .

نظرة عامّة على العصر الجاهلي :

قد أحسنَ المؤلّف الإنجليزي المعروف هـ - ج - ولز (H.G. Wells) تصويرَ هذا العصر ، فقالَ - وهو يبحثُ الظروفَ السّائدةَ في عهدِ الحكومتينِ ؛ السّاسانية والبيزنطية في القرنِ السادسِ للميلاد - :

« كانتِ العلومُ والفلسفةُ والسياسةُ في حالةِ احتضارٍ في عهدِ هذينِ النظامينِ المُتَحَارِبِينَ والمُتَجَهِّمِينَ إلى الانحطاطِ ، فقد كانَ الجيلُ الأخيرُ منِ فلاسفةِ (أثينا)^(١) عاصراً على المؤلّفاتِ الأدبيةِ العتيقةِ بالنواجزِ ، بكلِّ احترامٍ وحبٍّ ، ولو بدونِ فهمٍ لها .

فلَمَّا انقَرَضَ هذا الجيلُ ، لم تبقَ طبقةٌ ولا أفرادٌ أحرارٌ شجعانٌ ، يتزعمونَ حريةَ الفكرِ وحريةَ التعبيرِ ، ولا الذين يحتفظون - على الأقلّ - بتراثِ فكرٍ حرٍّ ، وبحثٍ نزيهٍ جدّيٍّ ، على دأبِ القدماءِ والسابقينَ لهم .

وبجانبِ ما كانَ للفوضى السياسية والاجتماعية من دورٍ كبيرٍ في القضاءِ على مثلِ هذهِ الطبقةِ ، كانَ من العواملِ التي ساعدتْ على شلِّ الفكرِ الإنسانيِّ ، وتجمُّدِ القرائحِ البشريةِ .

إنَّ هذا العصرَ كانَ عصرَ العصبيةِ وعدمِ التسامحِ في ظلالِ الحكومتينِ الإيرانيةِ والبيزنطيةِ ، فقد كانتْ هاتانِ الحكومتانِ دينيتين نوعاً ما ، وقد كانتا فرضتا قيوداً على العقلِ البشريِّ » .

(١) أثينا (Athiniai) عاصمة اليونان اليوم ، كانت عاصمة العالم الحضارية والديموقراطية في العصور القديمة .

وبعدما قَصَّ الكاتبُ قصةَ زحفِ الإمبراطوريةِ الإيرانيةِ على الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ ، ثم انتصارُ البيزنطيينَ على الإيرانيينَ في شيءٍ من التوسُّعِ ، عادَ إلى وصفِ التَّدَهُورِ الاجتماعيِّ والخلقيِّ السائدِ في أواخرِ القرنِ السادسِ المسيحيِّ ، فقالَ :

« كان يسوغُ لمتتبِّعٍ - غيرِ محنَّكٍ ناضجِ الفكرِ - للأوضاعِ السائدةِ في أوائلِ القرنِ السابعِ المسيحيِّ ، أن يتنبَّأَ بسهولةٍ وبثقةٍ بأنَّ أوربةَ ، وآسياَ ، ستقعانِ تحتَ رحمةِ المَغُولِ الوحوشِ في غضونِ بضعةِ قرونٍ قادمةٍ ، فلم تكنْ في أوربةِ الغربيةِ أماراتٌ للأمنِ والنظامِ وحكمِ القانونِ ، وقد كانتِ المملكتانِ : البيزنطيةُ والإيرانيةُ مشغولتينِ في حربِ إبادةٍ وتدميرٍ ، بينما كانتِ الهندُ في حالةٍ تورُّعٍ وبؤسٍ »^(١) .

ظهرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ

وبالجُملةِ فقدَ كانتِ الإنسانيةُ في عصرِ البعثةِ في طريقِ الانتحارِ ، وكانَ الإنسانُ في هذا القرنِ قد نَسِيَ خالقهَ ، فنسيَ نفسهُ ومصيرهَ ، وفقدَ رُشدَهُ ، وقوةَ التمييزِ بينَ الخيرِ والشرِّ ، والحسنِ والقيحِ ، وكانَ الناسُ في شغلٍ شاغلٍ وفكرٍ ذاهلٍ ، لا يرفعونَ إلى الدِّينِ والآخرةِ رأساً ، ولا يفكِّرونَ في الروحِ والقلبِ ، والسعادةِ الأخرويةِ وخدمةِ الإنسانيةِ ، وإصلاحِ الحالِ لحظةً ، وربَّما كانَ إقليمٌ واسعٌ ليسَ فيه أحدٌ يهتمُّ دينهَ ويعبدُ ربَّهُ ، لا يُشركُ بهِ شيئاً ، ويتألمُ للإنسانيةِ ومصيرها البائسِ ، وصدقَ اللهُ العظيمُ :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

لِمَا ذُاعِبِثَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ

قَدْ افْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ أَنْ تَطْلُعَ هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي تَبْدُو الظَّلَامَ ، وَتَمْلَأُ الدُّنْيَا نُورًا وَهَدَايَةً ، مِنْ أَفْقِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ الَّتِي كَانَ أَشَدَّ ظِلَامًا ، وَكَانَ أَشَدَّ حَاجَةً إِلَى هَذَا النُّورِ السَّاطِعِ .

وَقَدْ اخْتَارَ اللَّهُ الْعَرَبَ ، لِيَتَلَقَّوا هَذِهِ الدَّعْوَةَ أَوَّلًا ، ثُمَّ يَبْلُغُوهَا إِلَى أَبْعَدِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ ، لِأَنَّ أَلْوَا حَ قُلُوبِهِمْ كَانَتْ صَافِيَةً ، لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهَا كِتَابَاتٌ دَقِيقَةٌ عَمِيقَةٌ يَصْعَبُ مَحْوُهَا وَإِزَالَتُهَا ، شَأْنُ الرُّومِ ، وَالْفُرسِ ، وَأَهْلِ الْهِنْدِ ، الَّذِينَ كَانُوا يَتَّبِعُونَ وَيَزْهَوْنَ بَعْلُومِهِمْ وَأَدَابِهِمْ الرَّاقِيَّةَ ، وَمَدَنِيَّاتِهِمْ الزَّاهِيَّةَ ، وَفِلَسَفَاتِهِمْ الْوَاسِعَةَ ، فَكَانَتْ عَنْدهُمْ عُقْدٌ نَفْسِيَّةٌ وَفِكْرِيَّةٌ ، لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّهْلِ حَلُّهَا .

أَمَّا الْعَرَبُ فَلَمْ تَكُنْ عَلَى أَلْوَا حَ قُلُوبِهِمْ إِلَّا كِتَابَاتٌ بَسِيطَةٌ خَطَّتْهَا يَدُ الْجَهْلِ وَالْبِدَاوَةِ ، وَمِنْ السَّهْلِ الْمَيَسُورِ مَحْوُهَا وَغَسْلُهَا ، وَرَسْمُ نَقُوشٍ جَدِيدَةٍ مَكَانَهَا ، وَبِالتَّعْبِيرِ الْعِلْمِيِّ الْمَتَأَخَّرِ : كَانُوا أَصْحَابَ « الْجَهْلِ الْبَسِيطِ »^(١) الَّذِي تَسَهَّلَ مَدَاوَاتُهُ ، بَيْنَمَا كَانَتْ الْأُمَمُ الْمُتَمَدِّنَةُ الرَّاقِيَّةُ فِي هَذَا الْعَصْرِ مُصَابَةً بِـ « الْجَهْلِ الْمُرْكَبِ »^(٢) الَّذِي تَصْعَبُ مَدَاوَاتُهُ وَإِزَالَتُهُ .

وَكَانُوا عَلَى الْفَطْرَةِ ، وَأَصْحَابَ إِرَادَةٍ قَوِيَّةٍ ، إِذَا تَوَيَّ عَلَيْهِمْ فَهَمُّ الْحَقِّ

(١) [الجهل البسيط : هو عَدَمُ الْعِلْمِ كَمَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا] .

(٢) [الجهل المركَّب : هو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع] .

حاربوه ، وإذا انكشفَ الغطاءُ عن عُيُونِهِمْ ، أَحْبُوهُ واحتضنوه ، واستماتوا في سبيله .

يعبرُ عن هذه النفسية العربية خيرَ تعبيرٍ ، ما قاله سُهيلُ بْنُ عَمْرٍو ، حينَ سمعَ ما جاءَ في كتابِ الصُّلحِ في الحُدُويَّةِ « هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسولُ الله ﷺ : والله لو كنَّا نعلمُ أنَّكَ رسولُ الله ، ما صدَدْنَاكَ عن البيتِ ولا قاتَلْنَاكَ »^(١) ، وما قاله عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ حينَ حمى الوطيسُ في معركةِ اليرموك ، واشتدَّ عليه الضَّغْطُ : « قاتَلْتُ رسولَ الله ﷺ في كلِّ موطنٍ وأفرُّ منكم اليوم ؟ ! » ثمَّ نادى : من يبايعُ على الموتِ ، فبايعه من بايعه ، ثمَّ لم يزل يقاتلُ حتى أثبت جراحاً وقتل شهيداً^(٢) .

وكانوا واقعيَّين جادِّين ، أصحابَ صراحةٍ وصرامةٍ ، لا يخدعونَ غيرهم ولا أنفسهم ، اعتادوا القولَ السديدَ ، والعزمَ الأكيدَ ، يدلُّ على ذلك دلالَةٌ واضحةٌ ما رُوِيَ عن قصةِ بيعَةِ العقبةِ الثانيةِ ، التي تلتها الهجرةُ إلى المدينةِ ، قال ابنُ إسحاقَ :

« لما اجتمعتِ الأوسُ والخزرجُ في العقبةِ ليبايعوا رسولَ الله ﷺ قالَ العباسُ بْنُ عبادةِ الخزرجيُّ : « يا معشرَ الخزرجِ ! هلْ تَدْرُونَ علامَ تبايعُونَ هذا الرجلَ ؟

قالوا : نَعَمْ .

قالَ : إِنَّكُمْ تُبايعونه على حربِ الأحمرِ والأسودِ من الناسِ ، فإنْ كنتم

(١) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية ، برقم (٤١٧٨) و (٤١٧٩) ، وأبو داود في كتاب الجهاد ، باب في صلح العدو برقم (٢٧٦٥) ، والبيهقي في السنن (٢١٥ / ٥) والدلائل (٩٩ / ٤ - ١٠٠)] .

(٢) راجع « تاريخ الطبري » ج ٤ ، ص ٣٦ .

تَرَوْنَ أَنْكُمْ إِذَا نَهَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ مَصِيئَةً ، وَأَشْرَافَكُمْ قَتْلًا ، أَسَلِمْتُمُوهُ ، فَمَنْ الْآنَ ، فَهُوَ وَاللَّهِ إِنْ فَعَلْتُمْ خَزْيَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنْكُمْ وَأَفْوَ نَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ عَلَى نَهْكَ^(١) الْأَمْوَالِ وَقَتْلِ الْأَشْرَافِ فَخُذُوهُ ، فَهُوَ وَاللَّهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

قَالُوا : فَإِنَّا نَأْخُذُهُ عَلَى مَصِيئَةِ الْأَمْوَالِ ، وَقَتْلِ الْأَشْرَافِ ، فَمَا لَنَا بِذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ نَحْنُ وَفَيْنَا ؟
قَالَ : الْجَنَّةُ .

قَالُوا : ابْسُطْ يَدَكَ ، فَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعُوهُ^(٢) .
وَقَدْ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ وَبَايَعُوا رَسُولَهُ ، وَقَدْ قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ^(٣)
عَلَى لِسَانِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ :
« فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخَيِّضَهَا الْبَحْرَ لِأَخْضَانِهَا ، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ
نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغَمَادِ^(٤) لَفَعَلْنَا »^(٥) .

وَقَدْ تَجَلَّى هَذَا الصِّدْقُ فِي الْعَزْمِ ، وَالْجِدِّ فِي الْعَمَلِ ، وَرُوحِ الْإِمْتِنَانِ
لِلْحَقِّ ، فِي الْجُمْلَةِ الَّتِي تَوَثَّرُ عَنْ عُقْبَةِ بْنِ نَافِعٍ الْقَائِدِ الْعَرَبِيِّ الْمُسْلِمِ ، فَقَدْ
خَاضَ الْبَحْرَ الْأَطْلَسِيَّ بِجَيْشِهِ وَخَيْلِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « يَا رَبِّ لَوْلَا هَذَا الْبَحْرُ

(١) نهكة الأموال : أي نقصها .

(٢) سيرة ابن هشام ؛ القسم الأول ، ص ٤٤٦ ، (طبع مصطفى البابي الحلبي الطبعة الثانية) .

(٣) كذا في الأصل ، وفي صحيح مسلم (سعد بن عباد) .

(٤) [برك الغماد : قال ياقوت : هو أقصى حَجَرِ الْيَمَنِ . والبرك : حجارة مثل حجارة الحرة

خشنة ، يصعب المسلك عليها] .

(٥) زاد المعاد ج : ١ ، ص : ٣٤٢ - ٣٤٣ . سيرة ابن هشام ج : ١ ، ص : ٦١٥ ،

والقصة في الصحيحين [أخرجه مسلم في كتاب الجهاد ، باب غزوة بدر ، برقم (١٧٧٩)] .

لمضيتُ في البلادِ مُجاهداً في سبيلِكَ»^(١) .

أمّا اليونانَ والرُّومانَ ، وأهلُ إيرانَ ، فقد اعتادوا مجارةَ الأوضاعِ ، ومسايرةَ الزمانِ ، لا يُهينُهم ظلمٌ ، ولا يستهويهم حقٌّ ، ولا تملكُهم فكرةٌ ودعوةٌ ، ولا تستحوذُ عليهم استحواذاً يتناسونَ فيه أنفسهم ، ويُجازفونَ فيه بحياتهم ولذاتهم .

وكانَ العربُ بمعزلٍ عنْ أدواءِ المدنيةِ والترفِ ، التي يصعبُ علاجُها ، والتي تحولُ دونَ التحمسِ للعقيدةِ والتَّفاني في سبيلِها .

وكانُوا أصحابَ صدقٍ وأمانةٍ وشجاعةٍ ، ليسَ النِّفاقُ والمؤامرةُ منْ طبيعتِهِم ، وكانُوا معَاوِرَ حربٍ^(٢) ، وأحلاسَ خيلٍ^(٣) ، وأصحابَ جلادةٍ وتقشُّفٍ في الحياةِ ، وكانتِ الفروسيَّةُ هي الخلقُ البارزُ الذي لا بدَّ أنْ تتصفَ بهِ أمةٌ تضطلعُ بعملٍ جليلٍ ، لأنَّ العصرَ كانَ عصرَ الحُرُوبِ والمُغامراتِ ، والفتوةِ والبطولةِ .

وكانَتْ قواهم العملية والفكريةُ ، ومواهبُهم الفطريةُ ، مذخورةً فيهم ، لم تُستهلكْ في فلسفاتٍ خياليةٍ ، وجدالٍ عقيمٍ « بيزنطيٍّ » ومذاهبٍ كلاميةٍ دقيقةٍ ، وحُرُوبٍ إقليميةٍ سياسيةٍ ، فكانَتْ أمةٌ بَكراً ، دافقةً بالحياةِ والنشاطِ ، والعزمِ والحماسِ .

وكانُوا أمةً نشأتْ على الهيامِ بالحريةِ والمساواةِ ، وحبِّ الطبيعةِ ، والسَّذاجةِ ، لم تخضعْ لحكومةٍ أجنبيةٍ ، ولم تألَفِ الرقَّ والعبوديةَ ، واستعبادَ الإنسانِ للإنسانِ ، ولم تتمرَّسِ الغطرسةُ الملوكيةُ الإيرانيةُ أو الرُّومانيةُ ،

(١) الكامل : لابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٤٦ .

(٢) [أي المقاتلون الكثيرون الغارات على الأعداء] .

(٣) [أحلاس الخيل ، أي : ملازمون لظهورها أو رياضتها] .

واحتقارها للإنسان والإنسانية ، فكانَ الملوکُ في إيران - المملكةُ المجاورةُ للجزيرة - فوقَ مُستوى الإنسان والإنسانية ، فكانَ المَلِكُ إذا احتجمَ ، أو فُصِدَ له ، أو تناولَ دواءً ، كانَ يُنادى في النَّاسِ ألا يمارسُ إنسانٌ من رجالِ البلاطِ ، أو سَكَّانِ العاصمةِ عملاً ، وَيَكْفُوا عن كُلِّ صناعةٍ أو ممارسةٍ لنشاطٍ^(١) ، وإذا عطسَ فلا يسوغُ لأحدٍ من رعاياه أن يدعُو له ، وإذا دعا أن يؤمنَ عليه ، لأنَّه فوقَ مستوى البشرِ ، وإذا زارَ أحداً من وُزرائِه أو أمرائِه في بيته كانَ يوماً مشهوداً خالداً يورِّخُ به في رسائلِه ويصبحُ تقويماً جديداً ، ويُعفى من الضريبةِ إلى مدةٍ معينةٍ ، ويتمتعُ باستثناءاتٍ أو مسامحاتٍ وتكريماتٍ ، لأنَّ الملكَ شرفَه بالزيارة^(٢) .

هذا فضلاً عن الآدابِ الكثيرةِ التي يتقيَّدُ بها رجالُ البلاطِ ، وأركانُ الدولة ، وأفرادُ الشعبِ ، ويحافظُون عليها محافظةً دقيقةً ، من الوقوفِ بحضرتهِ ، والتكفيرِ له^(٣) ، وقيامِ كقيامِ العبادِ أمامَ الرَّبِّ في الصَّلواتِ ، وهو تصويرٌ حالٍ كانتَ عليه إيرانُ السَّاسانيةُ في عهدِ أفضلِ مُلوکِها بالإطلاقِ ، وهو كِسْرَى الأولُ المعروفُ بأنوشِروانِ العادلِ (٥٣١ - ٥٧٩ م) فكيفَ في عهدِ الملوکِ الذين اشتهروا في التاريخِ بالظلمِ والعسفِ والجبروتِ ؟

وقد كانتَ حُرِّيَّةُ إبداءِ الرَّأيِ والملاحظةِ - فضلاً عن النقدِ - مفقودةً تقريباً

(١) إيران في عهد الساسانيين : ص ٥٣٥ - ٥٣٦ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٥٤٣ .

(٣) كفر له : خضع بأن يضع يده على صدره ويطأطئ رأسه ويتطامن تعظيماً ، وكانت عادةً متبعةً في إيران . ومن هنا شاع هذا التعبير ؛ ودخل في لغة العرب ؛ جاء في « لسان العرب » والكفر تعظيم الفارسي لملكه والتكفير لأهل الكتاب أن يطأطئ أحدهم رأسه لصاحبه كالتسليم عندنا ، وقال في شرح شطر بيت لجبرير : فضعوا السلاح وكفروا التكفيرا ؛ كما يكفر العلاج للدهقان يضع يده على صدره ويتطامن له (« لسان » ج ٧ ، ص ٤٦٦ مادة كفر) .

في المملكة الإيرانية الواسعة ، وقد حكى الطَّبْرِيُّ حكايةً طريفةً عن عهدِ أفضلِ ملوكها وأعدلهم « كِسْرَى أنوشيروان العادل » تدلُّ كلَّ الدلالةِ على مدى ما وصلَ إليه الحكمُ الإيرانيُّ من الاستبدادِ والحظرِ على إبداءِ الرأيِ الجريءِ والتعليقِ الجريءِ في البلاطِ الإيرانيِّ ، فيقولُ :

« أَمَرَ الْمَلِكُ قُبَادُ بْنُ فَيْرُوزَ فِي آخِرِ مُلْكِهِ بِمَسْحِ الْأَرْضِ سَهْلِهَا وَجَبَلِهَا ، لِيَضَعَ الْخَرَجَ عَلَيْهَا ، فَمُسِحَتْ ، غَيْرَ أَنَّ قِبَادَ هَلَكَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَحْكَمَ لَهُ أَمْرُ تِلْكَ الْمَسَاحَةِ ، حَتَّى إِذَا مَلَكَ ابْنُهُ كِسْرَى أَمَرَ بِاسْتِمَامِهَا وَإِحْصَاءِ النَّخْلِ وَالزَّيْتُونِ وَالْجَمَاجِمِ ^(١) ، ثُمَّ أَمَرَ كُتَّابَهُ فَاسْتَخْرَجُوا جُعْلَ ذَلِكَ ، وَأَذِنَ لِلنَّاسِ إِذْنًا عَامًّا ، وَأَمَرَ كَاتِبَ خَرَجِهِ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِ الْجَمْلَ الَّتِي اسْتُخْرِجَتْ مِنْ أَصْنَافِ غُلَاتِ الْأَرْضِ وَعَدَدِ النَّخِيلِ وَالزَّيْتُونِ وَالْجَمَاجِمِ ، فَقَرَأَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ كِسْرَى : إِنَّا قَدْ رَأَيْنَا أَنْ نَضَعَ عَلَى مَا أُحْصِيَ مِنْ جِرْيَانِ هَذِهِ الْمَسَاحَةِ مِنَ النَّخْلِ وَالزَّيْتُونِ وَالْجَمَاجِمِ وَضَائِعِ ، وَنَأْمُرَ بِإِنْجَامِهَا ^(٢) فِي السَّنَةِ فِي ثَلَاثَةِ أَنْجَمٍ ، وَنَجْمِعَ فِي بَيْوتِ أَمْوَالِنَا مِنَ الْأَمْوَالِ مَا لَوْ أَتَانَا مِنْ ثَغْرِ مِنْ ثُغُورِنَا أَوْ طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِنَا فَتَقُّ أَوْ شَيْءٌ نَكْرَهُهُ وَاحْتَجْنَا إِلَى تَدَارِكِهِ أَوْ حَسْمِهِ ، بِيَدِلْنَا فِيهِ مَا لَا كَانَتْ الْأَمْوَالُ عِنْدَنَا مَعْدَةً مَوْجُودَةً ، وَلَمْ نَرُدْ اسْتِنَافَ اجْتِبَائِهَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، فَمَا تَرَوْنَ فِيمَا رَأَيْنَا مِنْ ذَلِكَ ، وَأَجْمَعْنَا عَلَيْهِ ؟

فلم يُشِرْ عليه أحدٌ منهم فيه بمشورةٍ ولم ينبسْ بكلمةٍ ، فكَرَّرَ كِسْرَى هَذَا الْقَوْلَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثَ مَرَاتٍ .

فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ عَرَضِهِمْ وَقَالَ لِكِسْرَى : أَتَضَعُ أَيُّهَا الْمَلِكُ - عَمْرَكَ اللَّهُ - الْخَالِدَ مِنْ هَذَا الْخَرَجِ عَلَى الْفَانِي مِنْ كَرَمٍ يَمُوتُ ، وَزَرْعٍ يَهِيْجُ ، وَنَهْرٍ

(١) [الجماجيم ، مفردا جُنْجُم : الآبار ، أو الفلأحون] .

(٢) [نَجْمٌ عَلَيْهِ دِينُهُ : أَي ؛ قَسْطُهُ أَقْصَاطًا] .

يغور ، وعين أو قناة ينقطع ماؤها ؟

فقال له كسرى : يا ذا الكلفة المشؤوم ! من أي طبقات الناس أنت ؟

قال : أنا رجل من الكتاب .

فقال كسرى : اضربوه بالدويي^(١) حتى يموت ، فضربه بها الكتاب خاصة تبرؤاً منهم إلى كسرى من رأيه وما جاء منه ، حتى قتلوه ، وقال الناس : نحن راضون أيها الملك بما أنت ملزمنا من خراج^(٢) .

ولم يكن الرومان يختلفون عن الإيرانيين كثيراً ، وإن لم يبلغوا شأوهم في الوقاحة وامتهان الإنسانية وإهدار كرامتها ، فقد روى المؤرخ الأوربي (Victor Chopard) في كتابه « العالم الروماني » ما ترجمته :

« كانت القياصرة آلهة ، ولم يكن ذلك عن طريق الوراثة ، بل كان كل من تملك زمام البلاد كان إلهاً ، وإن لم تكن هناك أمانة تدل على وصوله إلى هذه الدرجة ، ولم يكن لقب « أغسطس » Augustus الملوكي المفخم ينتقل من إمبراطور إلى إمبراطور بموجب دستور أو قانون ، ولكن لم يكن من شغل مجلس الشيوخ الروماني إلا أن يؤكد صحة كل حكم يصدر بحد السيف ، ولم تكن هذه الإمبراطورية إلا صورة لدكتاتورية عسكرية^(٣) .

ولم يكن السجود للملوك نادراً ، فقد حكى أبو سفيان بن حرب في القصة التي رواها عن هرقل قيصر الروم حين بلغه كتاب رسول الله ﷺ يدعوه فيه إلى الإسلام ، وقد جاء في آخر هذه القصة :

(١) الدواة ، جمعها : دوى ودوي ودوي (اللسان : دوا) .

(٢) تاريخ الطبري : ج ٢ ، ص ١٢١ - ١٢٢ ، وروى القصة بطولها مؤلف كتاب « إيران في عهد الساسانيين » نقلاً عن الطبري .

(٣) The Roman World (London, 1928) p. 418 .

« فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفَرَتَهُمْ ، وَأَيَسَ مِنَ الْإِيمَانِ ، قَالَ : رُدُّوهُمْ عَلَيَّ ، وَقَالَ : إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أُخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلٍ »^(١) .

أَمَّا الْهِنْدُ فَقَدْ بَلَغَ فِيهَا إِهْدَارُ كَرَامَةِ الْإِنْسَانِ ، وَازْدِرَاءُ الطَّبَقَاتِ الَّتِي اعْتَبَرَهَا الشَّعْبُ الْأَرِيُّ الْمَحْتَلُّ لِلْبِلَادِ ، وَالْقَانُونُ الْمَدْنِيُّ الَّذِي وَضَعَهُ مَشْرَعُوهُ ، مَخْلُوقًا خَسِيسًا لَا يَتَمَيَّزُ عَنِ الْحَيَوَانِ الدَّاجِنِ إِلَّا بِأَنَّهُ يَمْشِي عَلَى اثْنَيْنِ ، وَيَحْمِلُ صُورَةَ الْآدَمِيِّ ، وَإِنَّ كَانُوا سُكَّانَ الْبِلَادِ الْأَصْلِيِّينَ ، مَبْلَغًا يَصْعَبُ تَصَوُّرُهُ ، فَقَدْ نَصَّ هَذَا الْقَانُونُ عَلَى أَنَّهُ : « إِذَا مَدَّ أَحَدٌ مِنَ الْمَنْبُودِينَ إِلَى بَرَهْمِيِّ يَدًا أَوْ عَصًا ، لِيَبْطِشَ بِهِ ، قُطِعَتْ يَدُهُ ، وَإِذَا رَفَسَهُ فِي غَضَبٍ فَدَعَتْ رِجْلُهُ »^(٢) وَإِذَا ادَّعَى أَنَّهُ يَعْلَمُهُ سُقَيٌّ زَيْتًا فَائِرًا^(٣) ، وَكَفَّارَةً قَتْلِ الْكَلْبِ ، وَالْقِطَّةِ ، وَالضَّفْدَعِ ، وَالْوَزَغِ ، وَالْغُرَابِ ، وَالْبُؤْمَةِ ، وَرَجُلٍ مِنَ الطَّبَقَةِ الْمَنْبُودَةِ سِوَاءً »^(٤) .

إِذَا قُورِنَ ذَلِكَ بِمَا اعْتَادَهُ الْعَرَبُ مِنَ الْحَرِيَّةِ ، وَعِزَّةِ النَّفْسِ ، وَالْاِقْتِصَادِ فِي التَّعْظِيمِ وَالْأَدَبِ قَبْلَ ظَهْوَرِ الْإِسْلَامِ ، ظَهَرَ فَرْقٌ هَائِلٌ بَيْنَ طَبِيعَةِ الْأُمَّتَيْنِ ، وَوَضَعَ الْمَجْتَمَعَيْنِ : الْعَجَمِيِّ وَالْعَرَبِيِّ ، فَكَانُوا يُخَاطَبُونَ مَلُوكَهُمْ بِقَوْلِهِمْ :

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب كيف كان بدء الوحي ... برقم (٧) ، ومسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب كتاب النبي ﷺ إلى هِرَقْل ... برقم (١٧٧٣) ، والترمذي في أبواب الاستئذان ، برقم (٢٧١٧) ، وأبو داود في كتاب الأدب ، باب كيف يكتب إلى الذمي ، برقم (٥١٣٦) ، وأحمد : (٢٦٣/١) ، والبيهقي في السنن : (١٧٧/٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما] .

(٢) منو شاستر : الباب العاشر .

(٣) المصدر السابق .

(٤) R.C.Dutt, Ancient India, p. 324-343.

« أَيْتَ اللَّعْنِ » و« عَمَّ صَبَاحاً » وَقَدْ بَلَغَتْ هَذِهِ الْحَرِيَّةُ وَالتَّمَاثُكُ وَالِاحْتِفَاطُ بِالْكَرَامَةِ بِالْعَرَبِ إِلَى حَدِّ كَانُوا يَمْتَنِعُونَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَنِ الْخُضُوعِ لِمَطَالِبِ بَعْضِ مُلُوكِ الْعَرَبِ وَأَمْرَائِهِمْ ، وَمِمَّا يَسْتَطَرُّ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ مُلُوكِ الْعَرَبِ طَلَبَ مِنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِرْسًا لَهُ ، يُقَالُ لَهُ « سِكَابٌ » فَمَنَعَهُ إِيَّاهَا ، وَقَالَ أَبْيَاتًا أَوَّلُهَا : [مِنَ الْوَافِرِ]

أَيْتَ اللَّعْنِ إِنَّ سِكَابَ^(١) عِلْقُ^(٢) نَفِيسٌ لَا تُعَارُ وَلَا تُبَاعُ
مُفْدَاةٌ مَكْرَمَةٌ عَلَيْنَا يُجَاعُ لَهَا الْعِيَالُ وَلَا تُجَاعُ
سَلِيلَةُ سَابِقِينَ تَنَاجَلَاهَا إِذْ نُسَبَا يَضُمُّهُمَا الْكَرَاعُ^(٣)
فَلَا تَطْمَعُ - أَيْتَ اللَّعْنِ - فِيهَا فَمَنَعَهَا بِشَيْءٍ يُسْتَطَاعُ^(٤)

وَقَدْ سَرَتْ هَذِهِ الْحَرِيَّةُ ، وَالْإِعْتِدَادُ بِالنَفْسِ ، وَالْأَنْفَةُ مِنَ التَّذَلُّلِ ، إِلَى جَمِيعِ طَبَقَاتِ الشَّعْبِ ، وَعَمَّتِ الذُّكُورَ وَالْإِنَاثَ ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ الْمُؤَرِّخُونَ الْعَرَبُ عَنْ سَبَبِ قَتْلِ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومِ الْفَارِسِيِّ الْمَشْهُورِ وَالشَّاعِرِ الْفَحْلِ ، لِعَمْرِو بْنِ هِنْدٍ مَلِكِ الْحِيرَةِ ، فَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ عَمْرُو بْنَ هِنْدٍ مَلِكَ الْحِيرَةِ أَرْسَلَ إِلَى عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ يَسْتَزِيرُهُ وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَزِيرَ أُمَّهُ ، فَأَقْبَلَ عَمْرُو مِنَ الْجَزِيرَةِ إِلَى الْحِيرَةِ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي تَغْلِبٍ ، وَأَقْبَلَتْ لَيْلَى بِنْتُ مُهْلَهْلٍ فِي ظَعْنٍ مِنْ بَنِي تَغْلِبٍ ، وَأَمَرَ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ بِرَوَاقِهِ فَضَرَبَ فِيمَا بَيْنَ الْحِيرَةِ وَالْفُرَاتِ ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ فِي رَوَاقِهِ ، وَدَخَلَتْ لَيْلَى وَهِنْدُ فِي قَبَةِ مَنْ جَانِبِ الرُّوَاقِ ، وَقَدْ كَانَ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ أَمَرَ أُمَّهُ أَنْ تَنْحِيَ الْخَدَمَ إِذَا دَعَا

(١) [سِكَابٌ : اسْمُ فَرَسٍ ، مَأْخُوذٌ مِنْ سَكَبَتِ الْمَاءَ إِذَا صَبَّيْتَهُ ، كَأَنَّهَا تَسْكَبُ الْجَرِيَّ ، فَسَمَّاهُ مِنْ فَعْلِهَا] .

(٢) [الْعِلْقَى : هُوَ نَفِيسُ الْمَالِ الَّذِي إِذَا عَلِقَتْهُ الْكَفُّ صَنَّتْ بِهِ لِنَفَاسَتِهِ] .

(٣) [الْكَرَاعُ : اسْمٌ يَجْمَعُ الْخَيْلَ وَالسَّلَاحَ] .

(٤) [دِيْوَانُ الْحِمَاسَةِ (بَابُ الْحِمَاسَةِ) : ص ٦٧ - ٦٨] .

بالظرف ، وتستخدم ليلي ، فدعا عمرو بمائدة ، ثم دعا بالظرف فقالت هند : « ناوليني يا ليلي ذلك الطبق ! » فقالت ليلي : « لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها » فأعادت عليها وألححت ، فصاحت ليلي : « واذلّاه يا لتغلب » فسمعها عمرو بن كلثوم ، فثار الدم في وجهه ، ووثب إلى سيف عمرو بن هند معلق بالرواق ، فضرب به رأس عمرو بن هند ، وانتهب بنو تغلب ما في الرواق وساروا نحو الجزيرة^(١) ، وقال في ذلك عمرو بن كلثوم قصيدته المشهورة التي عُدَّت من المعلقات السبع^(٢) .

ولمّا دخل المغيرة بن شعبة رسول المسلمين على رُسُثم ، وهو في أبهته وسلطانه ، جلس معه - على عادة العرب - على سريرهِ ووسادته ، فوثبوا عليه ، وأنزلوه ومعّوه^(٣) ، فقال : كانت تبُلُغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوماً أسفه منكم ، إنّنا معشر العرب سواء لا يستعبدُ بعضنا بعضاً ، إلا أن يكون محارباً لصاحبه ، فظننتُ أنكم تُواسُونَ قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تُخبروني أن بعضكم أربابُ بعض ، وأنّ هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ، ولكن دعوتموني^(٤) .

وفي جزيرة العرب ، وفي مكة كانت الكعبة ، التي بناها إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - ليعبد الله فيها وحده ، ولتكون مصدر الدعوة للتوحيد إلى آخر الأبد .

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِمَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾^(٥) [آل عمران : ٩٦] .

(١) الجزيرة : تسمى جزيرة آقور ، وهي تقع بين دجلة والفرات ، وفيها ديار بكر وتغلب .

(٢) مقتبس من كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ، ص ٣٦ .

(٣) المغت : الضرب الخفيف (القاموس واللسان : مغت) .

(٤) الطبري ج ٤ ، ص ١٠٨ .

(٥) « بكة » : علم للبلد الحرام ، ومكة وبكة لغتان فيه ، وكثيراً ما يقع التبادل بين الميم والباء =

وقد بقيت كلمة وادي « بكّة » في التوراة على ما دخل فيها من التحريف والتغيير ، إلا أنّ المترجمين حوّلوها إلى « وادي البكاء » وجعلوها اسم نكرة بدل علم ، وقد جاء في مزامير داود ما نصّه :

« طوبى لأناس عزّهم بك ، طرق بيتك في قلوبهم ، عابرين في وادي البكاء يصيرونه ينبوعاً » (مزامير ^(١) ٨٤ - ٥ - ٦ - ٧) .

وقد انتبه علماء اليهود بعد قرون إلى أنّ هذه الترجمة كانت خاطئة ، فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية اعتراف بأنّه وادٍ مخصوص لا ماء فيه ، وأنّ في ذهن من صدرت عنه هذه العبارات صورة لوادٍ له أوضاعٌ طبيعية عبّر عنها بهذه الكلمة ^(٢) .

وقد كان نأقلو هذه الصّحف إلى الإنجليزيّة أكثر أمانة ودقة في الترجمة من الذين قاموا بالترجمة العربيّة ، فقد تركوا كلمة « بكّة » كما كانت في الأصل ، وكتبوها بالحرف الاستهلاكي ، كما تكتب الأعلام ، ففي الترجمة الإنجليزيّة كما يلي ^(٣) :

Blessed is the man whose strength is in the Thee; In Whose heart are the ways of them who passing thorough the Valley of (Baca) make it well. (Psalms 89-5-6).

وكانت بعثته ﷺ استجابة لدعاء إبراهيم وإسماعيل عند رفعهما لقواعد الكعبة ، وكان دعاؤهما كما نقله القرآن :

= في اللغة العربية ، كلازم ولازب ؛ ونميط ونبيط .

(١) الكتاب المقدس في مطبعها في ساحة استور من مدينة نيويورك ؛ لندن ١٨٠٤ م .

(٢) Jewish Encyclopedia, Y. 11 p. 415.

(٣) مستفاد من « التفسير الماجدي » [بالأردوية] للأستاذ الكبير عبد الماجد الدريبادي ، وكتاب « رحمة للعالمين » ج ١ ، للقاضي سليمان المنصور فوري .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

وقد جرت سنة الله باستجابة أدعية المخلصين المبتلهين - فضلاً عن الأنبياء والمرسلين - والصحف السماوية والأخبار الصادقة مشحونة بأمثلتها ، وقد جاء في التوراة نصٌ يدل على استجابة هذا الدعاء الذي دعا به إبراهيم ، فقد جاء في سفر التكوين ما لفظه :

« وعلى إسماعيل استجبت لك هو ذا أباركه وأكبره وأكثره جداً ، فسيلد اثني عشر رئيساً وأجعله لشعب كبير » .

ولذلك صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول عن نفسه : « أنا دعوة إبراهيم وبُشْرَى عيسى »^(١) .

وفي التوراة - على ما أصابها من التحريف - شواهد على أن هذا الدعاء قد استجيب ، فقد جاء في كتاب التثنية (١٨ - ١٥) على لسان نبي الله موسى ، ما نصُّه :

« يُقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ مِثْلِي ، لَهُ تَسْمَعُونَ » .
وقد دلَّت كلمة « إِخْوَتِكَ » على أن المراد بها هم بنو إسماعيل ، الذين هم أبناء عمومة بني إسرائيل ، وقد جاء ما يؤيد هذا بعد آيتين (١٨ - ١٧) من نفس الصحيفة ، وهو كما يلي :

« قَالَ لِي الرَّبُّ : قَدْ أَحْسَنُوا فِيمَا تَكَلَّمُوا ، أَقِيمْ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ ، وَأَجْعَلْ كَلَامِي فِي فَمِهِ ، فَيَكْلُمُهُمْ بِكُلِّ مَا أَوْصِيَهُ بِهِ » ، (سفر التثنية ١٧ - ١٨) .

(١) [أخرجه أحمد (٢٦٢/٥) ، والطبراني في الكبير برقم (٧٧٢٩) ، والبيهقي في « الدلائل » (٨٤/١) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٢/٨) : وإسناد أحمد حسن] .

وكلمة « أجعلُ كلامي في فمه » يعني محمّداً ﷺ فهو النبي الوحيد الذي بكلام الله نصّاً وفصّاً ، وأعلن الله عن ذلك بقوله : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ - ٤] ، وبقوله : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفَةٍ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] .

أمّا صُحُفُ أنبياء بني إسرائيل ، فهي لا تدّعي أنّها من كلام الله لفظاً ومعنى ، ولا يتحرّجُ علماء هذه الطوائف من إضافة تأليفها إلى الأنبياء ، فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية ما يلي :

« إِنَّ الْكُتُبَ الْخَمْسَةَ الْأُولَى مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ (العهد القديم) كما تقول الأخبار اليهوديّة القديمة ، من تأليف النبي موسى ، باستثناء ثمانين آياتٍ أخيرة جاء فيها الحديث عن موت موسى ، وما زال الرّبيون يُعَنَوْنَ بتناقضات واختلافاتٍ وردت في هذه الصُّحُفِ ، وما زالوا يصلحونها بحكمتهم ولباقتهم »^(١).

وأما الأناجيل الأربعة التي تسمّى « العهد الجديد » فهي أبعدُ من أن تكون كلاماً إلهياً لفظاً ومعنى ، يقتنعُ بذلك كلُّ من أجالَ النظرَ فيها وتصفّحها ، وفي الحقيقة هي بكتب السيرة والأخبار أشبهُ منها بالكتب المنزلة من الله ، المبنية على الوحي والإلهام^(٢).

ثم إنّ موقع الجزيرة العربيّة الجغرافي ، يجعلها جديرةً بأن تكون مركزاً لدعوة تعمُّ العالم ، وتُخاطبُ الأمم^(٣) ، فهي مع كونها جزءاً من قارّة آسيا تقع

(١) Jewish Encyclopedia Vol., 9 p. 589.

(٢) راجع للتفصيل كتاب المؤلف « النبوة والأنبياء في ضوء القرآن » فصل « الصحف السماوية السابقة والقرآن في ميزان العلم والتاريخ » ؛ ص ١٩٨ - ٢١٣ الطبعة الرابعة ، و « محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة » ج : ٣ ، ص : ١١٩ .

(٣) أعلن الدكتور حسين كمال الدين رئيس قم الهندسة المدنية بكلية الهندسة بجامعة الرياض ، =

بمقرية من قارة إفريقية ، ثم قارة أوربة ، وكلٌّ منها مركز الحضارات ، والثقافات ، والديانات ، والحكومات القويّة الواسعة ، وتمرُّ بها القوافل التجارية ، التي تصلُ بين بلادٍ مختلفة ، وقد تصلُ بين قاراتٍ تحملُ من بلد ما يُستطَرَفُ وينتجُ فيه إلى بلدٍ يفتقرُ إليه .

وتقعُ هذه الجزيرة بين قوتين متنافستين : قوة المسيحيّة وقوة المجوسية ، وقوة الغرب وقوة الشرق ، وقد ظلّت رغم ذلك كلّهُ محتفظةً بحريّتها وشخصيّتها ، ولم تخضع لإحدى الدولتين إلا في بعض أطرافها ، وفي قليل من قبائلها ، وكانت في خيرٍ موقفٍ لتكونَ مركزاً لدعوة إنسانيّة عالمية ، تقومُ على الصعيد العالميّ وتحدّثُ من مستوى عالٍ ، بعيدةً عن كلّ نفوذٍ سياسيٍّ ، وتأثيرٍ أجنبيٍّ .

لذلك كلّهُ اختارَ اللهُ الجزيرةَ العربيّة ، ومكةَ المكرّمة ، لتكونَ مبعثَ الرسولِ ومهبطَ الوحي ، ونقطةَ انطلاقٍ للإسلامِ في العالم .

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤]

فترةٌ حالكةٌ مؤسفةٌ :

وبالرّغم من هذه المواهب التي أكرمَ اللهُ بها العربَ ، والمزايا التي امتازتْ

= في حديث صحفي نشر في القاهرة ؛ أنه توصل إلى ما يشبه النظرية الجغرافية التي تؤكد أن مكة المكرمة هي مركز اليابسة في الكرة الأرضية ، أي مركز الأرض ، وقد بدأ بحثه برسم خريطة تحسب أبعاد كل الأماكن على الأرض عن مدينة مكة المكرمة - وذلك لتصميم جهاز عملي رخيص يساعد على تحديد القبلة - وفجأة اكتشف على الخريطة أن مكة المكرمة تقع في وسط العالم .

ومن خلال بحثه هذا توصّل إلى معرفة الحكمة الإلهية في اختيار مكة المكرمة لتكون مقراً لبيت الله الحرام ، ومنطلقاً للرسالة السماوية . (« الأهرام » ١٥ / ١ / ١٣٩٧ هـ الموافق ١٥ / ١ / ١٩٧٧ م العدد ٣٢٨٩٨ السنة ١٠٣) .

بِهَا الجزيرةُ العربيَّةُ ، التي تجلَّتْ بها حكمَةُ اللهِ في اختيارِها مهْداً للبعْثَةِ المحمديَّةِ وظهورِ الإسلامِ لم تكنْ في الجزيرةِ العربيَّةِ أماراتٌ يقْظَةُ ، أو آثارٌ قلَّتْ ظاهِرٌ ، وما كانَ « الحنفاءُ »^(١) والباحثونُ عن الحقِّ ، الذين لا يجاوزُ عددهم رؤوسَ الأصابعِ ، إلَّا كعددِ ضئيلٍ مِنَ الرِّاعِ ، يطيرُ في ليلةٍ شاتيَّةٍ ، مطيرةٍ ، شديدةِ الظلامِ ، فلا يَهْدِي تائهاً ، ولا يدْفِيءُ مقروراً .

وكانتْ هذه الفترةُ - التي بُعثَ فيها محمدٌ ﷺ من أشدِّ الفتراتِ التي مرَّتْ بِهَا الجزيرةُ العربيَّةُ ظلماً وانحطاطاً ، وأبعدَ من كلِّ أملٍ في الإصلاحِ ، وأصعبَ مرحلةٍ واجَّهَهَا نبيٌّ من الأنبياءِ ، وأدقَّها .

وقد أحسنَ أحدُ الكُتَّابِ الإنجليزِ في السيرةِ النبويَّةِ وليم ميور (Sir William Muir) - وهو معروفٌ بتحامُّله على الإسلامِ وصاحبُ رسالتهِ عليه الصلاةُ والسلامُ - تصويرَ هذه الفترةِ ، والإنكارَ على ما قاله بعضُ الكُتَّابِ الأوربيينَ ، أنَّ البركانَ كانَ متهيئاً للانفجارِ ، فجاءَ محمدٌ ﷺ في أوَّلهِ ومكانِهِ ، فناوَلَهُ شرارةُ مِنَ النَّارِ ، فانفجَرَ ، يقولُ :

« لم تكنِ الأوضاعُ الاجتماعيَّةُ في الجزيرةِ العربيَّةِ صالحةً لقبولِ أيِّ تغييرٍ ، أو نهضةٍ عندما كانَ النبيُّ ﷺ شاباً ، ولعلَّ اليأسَ عن إصلاحِ القومِ لم يصلْ ذُرْوَتَهُ مثلَ ما وصلَ في عصرِهِ ، ولكنَّ حينما تضعُفُ الثَّقةُ بسببِ واحدٍ لنتيجةٍ خاصَّةٍ ، فتفعلُ لَهُ أسبابٌ أخرى ، وتعتبرُ أسباباً لحدوثِ هذه النتيجةِ .

مِنْ ذَلِكَ ما يقوله النَّاسُ : إِنَّ محمداً ﷺ حينَ نهَضَ ، نهَضَ معه العربُ كلُّهم لإيمانٍ جديدٍ ، ووقفتْ الجزيرةُ العربيَّةُ وقفةَ رجلٍ واحدٍ ، ثم يستنتجون

(١) الذين نبذوا الوثنية ، وتمسكوا بعقيدة التوحيد التي دعا إليها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

من ذلك أَنَّ الجزيرة العربية كُلُّها كانتَ متهَيَّئةً متحمَّسةً إذْ ذاكَ لتحوُّلٍ مفاجيءٍ عظيمٍ .

ولكنَّ التاريخَ عندما يُكذِّبُ هذه النتيجةَ ، إذا تأملنا في تاريخ العربِ قبلَ ظهورِ الإسلامِ بقلبِ هادئٍ ، فلمَ تنجحْ جهودُ المَسيحيِّينَ المُتواصلةُ ، ودعوَتُهُم وموعظَتُهُم المستمرةُ خلالَ خمسةِ قرونٍ إلا في كسبِ عددٍ قليلٍ جدًّا من بعضِ القبائلِ ، فتمرُّ موجةٌ صغيرةٌ على سطحِ بحرِ الحياةِ العربيةِ الهادئةِ ، نتيجةً لتلكَ الجهودِ الحثيرةِ الضعيفةِ ، التي قامَ بها دعاةُ المسيحيةِ ، تتخلَّلُها حيناً بعدَ حينٍ موجاتٌ أكثرُ قوَّةً وعمقاً ، يتجلَّى فيها تأثيرُ الدعوةِ اليهوديةِ ، ولكنَّ موجاتِ الوثنيةِ العربيةِ والأوهامِ الإسماعيليةِ كانتَ أعنفُ وأطغى ، كانَ هذا التيّارُ الجاهليُّ الوثنيُّ يضربُ جدرانَ الكعبةِ .

وقالَ في مكانٍ آخرٍ من هذا الكتابِ :

« وكانت أوضاعُ العربِ قبلَ البعثةِ المحمَّديةِ بعيدةً عن كلِّ تغييرٍ دينيٍّ ، كما كانتَ بعيدةً كلَّ البُعدِ عن وحدةِ الصفوفِ واجتماعِ الشَّمْلِ ، وكانَ دينُهُم يقومُ على أساسِ وثنيَّةٍ سخيِّفةٍ تعمَّقتْ جذورها ، واصطدَّمتْ بصخرتها محاولاتُ نصارى مصرَ والشَّامِ للإصلاحِ ، فباءتْ بالفشلِ »^(١) :

وبهذه الحقيقةِ التاريخيَّةِ التي تُشبهُ لغزاً علمياً يشيِّدُ العالمُ الغربيُّ الشهيرُ (Bosworth Smith) بوسروت إسمِث في إيجازٍ ولكنَّ في قوَّةٍ ووضوحٍ :

« إنَّ مؤرِّخاً يمتازُ منْ بينِ زُملائهِ بالاتِّجاهِ الفلسفيِّ يقرُّ بأنَّه لمَ تكنْ من بينِ الثوراتِ التي تركتْ ارتساماتٍ خالدةً على تاريخِ البشريَّةِ العمرانيِّ ؛ ثورةٌ

(١) « حياة محمد » لسير وليم ميور Sir William Muir: Life Of Mohammad Vol. I, . (London, 1885) p. CCXXXV-VI.

أبعدُ من القياس والأمل عند العقل البشري من ظهور الإسلام في العرب ، فقد كان حادثاً لم يكن يُتَوَقَّعُ حدوثه .

إننا مضطرون إلى أن نسلّم أن علم التاريخ - إذا كان هنالك شيء يستحق أن يسمّى علم التاريخ - يبقى حائراً مرتبكاً في العثور على حلقات الأسباب والعِلَل التي يجب عليه البحث عنها (بحكم منصبه ووظيفته) لحدوث هذا الانقلاب ^(١) .

الحاجة إلى نبيٍّ مُرْسَلٍ :

كانت الأوضاع الفاسدة ، والدرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن المسيحي ، أكبر من أن يقوم لإصلاحها مُصلِحون ومُعلّمون من أفراد الناس ، فلم تكن القضية قضية إصلاح عقيدة من العقائد ، أو إزالة عادة من العادات ، أو قبول عبادة من العبادات ، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات ، فقد كان يكفي له المُصلِحون والمُعلّمون الذين لم يخل منهم عصر ولا مضر .

ولكنّ القضية كانت قضية إزالة أنقاض جاهلية ، ووثنية تخريبية ، تراكمت عبر القرون والأجيال ، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين ، وجهود المُصلِحين والمُعلِّمين ، وإقامة بناءٍ شامخٍ مشيدٍ البنيان ، واسع الأرجاء ، يسعُ العالم كلّهُ ، ويؤوي الأمم كلّها .

قضية إنشاء إنسانٍ جديدٍ ، يختلف عن الإنسان القديم في كلّ شيء ، كأنّه وُلد من جديد ، أو عاش من جديد ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

قضية اقتلاع جرثومة الفساد ، واستئصال شأفة الوثنية ، واجتثاثها من

جذورها ، بحيث لا يبقى لها عينٌ ولا أثرٌ ، وترسيخ عقيدة التوحيد في أعماق النفس الإنسانية ترسيخاً ، لا يتصورُ فوقه ، وغرسِ ميلٍ إلى إرضاء الله وعبادته ، وخدمة الإنسانية ، والانتصارِ للحق ، يتغلبُ على كلِّ رغبةٍ ، ويقهرُ كلَّ شهوةٍ ، ويجرفُ بكلِّ مقاومةٍ .

وبالجملة الأخذ بحُجُزِ الإنسانية المنتحرة التي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدنيا والآخرة ، والسلوك بها على طريق أولها سعادةً يحظى بها العارفون المؤمنون ، وآخرها جنةُ الخلد التي وعدَ المتقون ، ولا تصويرُ أبلغ وأصدق من قولِ الله تعالى في معرضِ المنِّ ببعثة محمد ﷺ .

﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

إنَّه لم يُعرف في تاريخ البشرية كله عملٌ أدقُّ وأعقدُّ ، ومسؤوليةٌ أعظمُّ وأضخمُّ ، من مسؤولية محمد ﷺ كنبِيِّ مُرْسَلٍ .

كما أنَّه لم يُعرف غرسٌ أثمرَ مثلَ غرسِهِ ، وسعيٌّ تكَلَّلَ بالنجاحِ مثلَ سعيِهِ ، إنَّها أعجوبةُ العجائب ، ومعجزةُ المعجزاتِ .

وقد شهدَ بذلك أديبٌ وشاعرٌ فرنسيٌّ في قوَّةِ وبلاغةٍ ، ووضوحٍ وصراحةٍ ، يقولُ « لامارتين » ^(١) : (Lamartine) :

« إنَّ إنساناً لم ينهضُ أبداً - متطوعاً أو غيرَ متطوعٍ - لمثلِ هذا الهدفِ الأسمى ، لأنَّ هذا الهدفَ كانَ فوقَ طاقةِ البشرِ ، لقدَ كانَ تحطيمُ تلكَ الحواجزِ من الأوهامِ والأحلامِ ، التي حَالَتْ بينَ الإنسانِ وخالقه ، والأخذِ بيدِ الإنسانِ إلى عتبةِ ربِّهِ ، وتحقيقِ عقيدةِ التوحيدِ النقيةِ العقليةِ المعقولةِ

(١) لامارتين (Lamartine) ١٧٩٠ - ١٨٦٩ م .

الساطعة ، في ضباب هذه الوثنية السائدة والآلهة المادية ، هو ذلك الهدف الأسمى والأعلى ، إنه لم يحمل إنسان مثل هذه المسؤولية الضخمة ، والمهمة العظيمة الجليلة ، التي تخرج عن طوق البشر ، بمثل هذه الوسائل الحقيرة الضئيلة .

إلى أن قال :

« وأروغ من ذلك أنه هز تلك الأصنام والآلهة ، والأديان ، والتصورات ، والعقائد والنفوس الإنسانية هزة عنيفة ، إنه بنى على أساس ذلك الكتاب الذي يُعتبر كل كلمة منه مصدر التشريع ، قومية ربانية ، ألقت بين أفراد كل جيل ، وسلالة ، ولغة .

إن الميزة الخالدة لهذه الأمة ، التي كونها لنا محمد ﷺ أنها شديدة المقت والتقرُّز من الآلهة الباطلة ، شديدة الحب لله الواحد الذي يتنزّه عن المادة وشوائبها ، وهذا هو الحب الذي يدفعه إلى الثأر والانتصاف من كل إهانة توجه إلى الذات الإلهية ، وهذا الحب يعتبر أساس سائر الفضائل عند هذه الأمة .

لقد كان إخضاع ثلث العالم لهذه العقيدة الجديدة من أثرته بلا ريب ، لكن الأصح أنه كان معجزة العقل لا معجزة فرد واحد ، إن الإعلان بعقيدة التوحيد في زمن كانت تثن فيه الدنيا تحت وطأة أصنام لا حصر لها ، كان معجزة مستقلة بذاتها .

وما لبث محمد ﷺ أن أعلن هذه العقيدة أمام الملأ ، حتى أقفرت المعابد القديمة من عبادها فلا داعي فيها ولا مُجيب ، وتكهرّب ثلث العالم بحرارة الإيمان^(١) .

(١) لامارتين (Lamartine) في كتابه (Historire de la Turquie) ج ٢ ؛ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ =

إنَّما كانَ يَحتاجُ هذا الانقِلابُ الشَّامِلُ ، وهذا البعثُ الجَديدُ لِلإنسانِيةِ إلى رسالةٍ جَديدةٍ ، من أعظَمِ الرِّسالاتِ ، وإلى رسولٍ يُرسلُهُ اللهُ بِالهُدَى ودينِ الحقِّ لِيظهَرَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ ، وَصَدَقَ اللهُ العَظيمُ :

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿١﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٢﴾ [البينة : ١ - ٣] .

جَزِيرَةُ الْعَرَبِ قَبْلَ الْبُعْثَةِ^(١)

تحديد جزيرة العرب :

لَيْسَ بَيْنَ أَشْبَاهِ الْجُزُرِ شِبْهُ جَزِيرَةٍ ، تَنِيْفُ عَلَى شِبْهِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي الْمَسَاحَةِ ، فَهِيَ أَكْبَرُ شِبْهِ جَزِيرَةٍ فِي الْعَالَمِ ، وَيُطْلَقُ عُلَمَاءُ الْعَرَبِ عَلَيْهَا تَجَوُّزاً اسْمَ (جَزِيرَةِ الْعَرَبِ) ، تُحِيطُ بِهَا الْمِيَاهُ مِنْ أَطْرَافِهَا الثَّلَاثَةِ ، وَهِيَ إِقْلِيمٌ فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ آسِيَا ، يَحْدُهُ مِنَ الشَّرْقِ الْخَلِيجُ الْعَرَبِيُّ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ الْيُونَانِ بِاسْمِ « الْخَلِيجِ الْفَارِسِيِّ » ، وَمِنَ الْجَنُوبِ الْمُحِيطُ الْهِنْدِيُّ ، أَمَّا حَدُّهُ الْغَرْبِيُّ فَهُوَ الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ ، كَمَا يُسَمَّى فِي الْخَارِطَاتِ الْحَدِيثَةِ ، الْمَعْرُوفُ بِاسْمِ « الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ » (Sinus Præbicus) فِي الْخَارِطَاتِ الْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ ، وَبِـ « بَحْرِ الْقَلْزَمِ » فِي الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ ، وَحَدُّهُ الشَّمَالِيُّ خَطٌّ وَهَمِيٌّ يَمْتَدُّ (فِي اصْطِلَاحِ الْعُلَمَاءِ الْعَرَبِ) مِنْ خَلِيجِ الْعَقَبَةِ

(١) اقتصرنا في هذا الفصل على ما يهم القارئ للسيرة النبوية معرفته من طبيعة هذه البلاد ، ووضعها الجغرافي ، ومكانتها في تاريخ الديانات والأمم ، وطبائع أهلها ، فلا يشق طريقه - في دراسة السيرة - منعزلاً عن البيئة التي أدت فيها رسالتها ، جاهلاً لها كل الجهل ، وهو مقتبس مما كتب عن الجزيرة قديماً وحديثاً ؛ وقد استفدنا من كتاب « المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام » للدكتور جواد علي (١ - ٩) كثيراً .

وموضع تفصيل أكثر في هذا الموضوع ؛ هي الكتب التي ألفت في جغرافية جزيرة العرب ، وصفتها وخططها ، وتاريخ الحضارة العربية والأدب العربي ، وهي كثيرة .

حَتَّى مَصَبِّ شَطِّ الْعَرَبِ فِي الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ .

وَقَدْ قَسَمَ الْإِسْلَامِيُّونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ عَلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ :

١ - الْحِجَازُ ، وَالْحِجَازُ يَمْتَدُّ مِنْ أَيْلَةَ (الْعَقْبَةِ) إِلَى الْيَمَنِ ، وَسُمِّيَ حِجَازاً - فِيمَا يَقُولُونَ - لِأَنَّهُ سِلْسِلَةُ جِبَالٍ تَفْصِلُ تِهَامَةَ - وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُنْخَفِضَةُ عَلَى طُولِ شَاطِئِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ - عَنْ نَجْدٍ .

٢ - وَتِهَامَةُ ، وَقَدْ وَصَفْنَاهَا .

٣ - وَالْيَمَنُ .

٤ - وَنَجْدٌ . وَهُوَ الْجَزْءُ الْمَرْتَفِعُ الَّذِي يَمْتَدُّ مِنْ جِبَالِ الْحِجَازِ ، وَيَسِيرُ شَرْقاً إِلَى صَحْرَاءِ الْبَحْرَيْنِ ، وَهُوَ مَرْتَفِعٌ فَسِيحٌ ، فِيهِ صَحْرَاوَاتٌ وَجِبَالٌ .

٥ - وَالْعُرُوضُ ، وَهِيَ تَتَّصِلُ بِالْبَحْرَيْنِ شَرْقاً ، وَبِالْحِجَازِ غَرْباً ، وَسُمِّيَتْ بِالْعُرُوضِ لِأَعْتِرَاضِهَا بَيْنَ الْيَمَنِ وَنَجْدٍ ، وَتُسَمَّى بِالْيَمَامَةِ أَيْضاً^(١) .

طَبِيعَةُ الْجَزِيرَةِ ، وَأَهْلُهَا :

وَقَدْ تَغَلَّبَتِ الصَّحْرَاوِيُّ عَلَى شِبْهِ الْجَزِيرَةِ ، وَظَهَرَ الْجَفَافُ عَلَيْهِ لِعَوَامِلِ طَبِيعِيَّةٍ وَحَوَادِثِ جَيُولُوجِيَّةٍ ، وَبَسَبَبِ الْمَوْقِعِ الْجُغْرَافِيِّ ، فَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ سَبَباً فِي قَلَّةِ نَفُوسِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي الْمَاضِي وَفِي الْحَاضِرِ ، وَفِي سَبَبِ عَدَمِ نَشْوءِ مَجْتَمَعَاتٍ حَضَرِيَّةٍ ، وَحُكُومَاتٍ مَرْكَزِيَّةٍ كَبِيرَةٍ فِيهَا ، وَفِي سَبَبِ تَفَشِّيِ الْبَدَاوَةِ ، وَغَلْبَةِ الطَّبِيعَةِ الْأَعْرَابِيَّةِ عَلَى أَهْلِهَا ، وَبِرُوزِ رُوحِ الْفَرْدِيَّةِ عِنْدَ أَهْلِهَا ، وَتَقَاتِلِ الْقَبَائِلِ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ ، لِذَلِكَ انْحَصَرَتِ الْحَضَارَةُ فِي الْأَمَاكِنِ

(١) يَرُدُّ الرُّوَاةُ أَقْدَمَ رَوَايَاتِهِمْ فِي هَذَا التَّقْسِيمِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

الْمَمْطُورَةِ ، والأماكن التي خَرَجَتْ فيها المياه الجَوْفِيَّةُ عُيُونًا وَينابيعَ ، أو قاربتِ المياهُ فيها سطحَ الأرضِ فأمكنَ حفرَ الآبارِ فيها .

فالحياةُ في جزيرةِ العربِ ، هي هبةُ الماءِ ، فكانتِ القوافلُ تَوُثُّهُ ، وإليه كانتِ الطبيعةُ تَقْدِفُ بالأعرابِ من كلِّ مكانٍ ، وكانوا لا يرتبطون بالأرضِ ارتباطَ المزارعِ بأرضه ، فلا يَسْتَقِرُّونَ في مكانٍ إلا إذا وَجَدُوا فيه الكَلَاءَ والماءَ ، فإذا جَفَّ الكَلَاءُ ، وَقَلَّ الماءُ ارتحلوا إلى مواضعٍ جديدةٍ .

ولذلك صارت حياتهم حياةً قاسيةً ، يتمثلُ مجتمعهم في القبيلةِ ، فالقبيلةُ هي الحكومةُ والقوميةُ في نظرِ البدويِّ ، وكانت هذه الحياةُ لا تعرفُ الرَّاحةَ والاستقرارَ ، ولا تعترفُ إلا بمنطقِ القوةِ ، حياةً جلبتِ المشقةَ لأصحابها ، والمشقةَ لمن يقيمُ على مقربةٍ منهم من الحضرِ ، فهم في نزاعٍ دائمٍ فيما بينهم ، ثم هم في نزاعٍ مع الحضرِ .

ولكنَّ العربيَّ من ناحيةٍ أخرى مخلصٌ ، مطيعٌ لتقاليدِ قبيلتهِ ، كريمٌ يؤدِّي واجباتِ الضيافةِ ، والمخالفةِ في الحروبِ ، كما يؤدِّي واجباتِ الصداقةِ ، مخلصاً في أدائها ، بحسبِ ما رسمهُ العُرفُ ، وقد نطقَ به شِعْرُهُمْ ، وزخَرَ به أدبُهُمْ ، من حُكمٍ وأمثالٍ ، ومثَلٍ ، وقِيمٍ .

والعربيُّ يحبُّ المساواةَ ، ويعشقُ الحريةَ ، وهو رجلٌ جادٌ ، صارمٌ ، قلٌّ في مجتمعه الإسفافُ ، محافظٌ ، متمسكٌ بحياتهِ ، معترِضٌ بما كُتِبَ لَهُ ، وإن كانت حياةٌ خشونةً وصعوبةً .

والمُمنَعُنُ في البداوةِ منهم ضعيفُ الإيمانِ بدينٍ ، قلٌّ أن يؤمنَ إلا بتقاليدِ قبيلتهِ ، وما ورثهُ عن آبائه ، مثله الأعلى في الأخلاقِ تركُزُ فيما سَمَّاهُ المروءةَ ، وتغنَّى بها في شِعْرِهِ وأدبهِ .

مراكز عمران وحضارة :

وفي تلك المواضع التي توفرت فيها المياه ، من مطر ، وعيون ، وآبار ، ظهرت الحضارة على شكل قرى ومستوطنات ، وأسواق موسميّة ، كان لها أثرٌ خطيرٌ في حياة العرب عموماً ، ونشأت مجتمعات ، لها طبيعة خاصّة ، وشخصيّة مستقلّة ، متأثرةً بطبيعة الأرض ، وطبيعة الجو ، وطبيعة الحرف والصناعات ، وطرق العيش التي يمارسها هذا المجتمع ، فكان في مكّة مجتمع خاص ، له طابع متميز ، وكذلك لأهل الحيرة ولأهل يثرب ، وكان مجتمع اليمن من أغنى المجتمعات العربيّة وأرقاها ، لأوضاعه الخاصّة ، وتاريخه الحضاريّ القديم ، والسّياسي الحديث ، فتفوّق في إنتاج الغلّة ، وتربية الحيوان ، واستخراج المعادن ، وأقام له قصوراً وحُصوناً ، واستورد آلات تُساعدُه في ممارسة الصناعات ، وتيسير الحياة ، من العراق وبلاد الشّام ، ومن إفريقية .

طبقات العرب :

اتَّفَقَ الرّواةُ وأهلُ الأخبارِ ، أو كادوا يتَّفَقونَ على تقسيمِ العربِ من حيثُ القِدَمِ إلى طبقاتٍ :

١ - عربٌ بائدةٌ .

٢ - وعربٌ عاربةٌ .

٣ - وعربٌ مستعربةٌ .

واتَّفَقوا أو كادوا يتَّفَقونَ على تقسيمِ العربِ ، من حيثُ النسبِ إلى قسمينِ :

قحطانيّة ، منازلُهُمُ الأولى في اليمنِ ، وعدنانيّة ، منازلُهُمُ الأولى في

الحجازِ .

كذلك يُقسَّمُ النَّسَابُ عَدَنَانٌ إِلَى فِرْعَيْنِ كَبِيرَيْنِ ، رِبِيعَةٌ وَمُضَرٌّ .
وكانَ بَيْنَ القَحْطَانِيَّةِ والعَدْنَانِيَّةِ منافسةٌ قديمةٌ ، كما كانَ بَيْنَ رِبِيعَةٍ ومُضَرٍّ
عداءٌ شديدٌ ، ظلَّ قُرُوناً طويلاً .

وانفقوا على أَنَّ القَحْطَانِيَّةَ هُمُ الأَصْلُ ، والعَدْنَانِيَّةُ الفرعُ^(١) مِنْهُمْ أخذوا
العربيَّةَ ، وبلسانِهِمْ تكلَّمُ أبناءُ إِسماعيلَ بعدَ هجرتِهِمْ إلى الحجازِ ، وإسماعيلُ
هو الجَدُّ الأكبرُ للعربِ المستعربةِ ، أي العربِ العدنانيين .

وللنسبِ عندَ العربِ شأنٌ كبيرٌ ، وقد أَقرَّ به أَهلُ الخبرةِ مِنَ العَجَمِ ، فقد
قالَ رستمُ قائِدُ قَوَادِ الفُرسِ لأهلِ مجلسِهِ حينَ استخَفُّوا بالمغيرةِ بنِ شعبةٍ
رسولَ المسلمينَ ، واحتقروهُ لثرائَةِ ثيابهِ ، وتبذُّلِهِ : « وَيَلَكُمْ . . إِنَّ العربَ
يستخفُّونَ بالثيابِ والمأكَلِ ، ويصنونونَ الأحسابَ »^(٢) .

وحدة اللغة :

وكانَ خَلِيقاً بهذا القطرِ الواسعِ ، الَّذي يَكادُ يَكُونُ شِبْهَ قَارَةٍ ، أَنَّ تتعدَّدَ فيه
اللغاتُ وتتنوَّعَ ، لِبُعْدِ المسافةِ بَيْنَ مواطنِ القبائلِ ، وبَيْنَ جُنُوبِ الجزيرةِ
وشمالِهَا ، وقَلَّةِ اتصالِ أَهلِ الجنوبِ بأهلِ الشَّمالِ ، وأهلِ الشَّرْقِ بأهلِ
الغربِ ، وبحكمِ العصبِيَّةِ القبليَّةِ والشَّلاليَّةِ السائدةِ عليهمَ ، وتأثُّرِ القبائلِ
المتاخمةِ للرومِ والفُرسِ بلغاتِهِمْ .

وقد كَثُرَ عددُ اللُّغاتِ في أُرْبَةِ الوسطى ، وفي شِبْهِ القارةِ الهنديَّةِ ، كثرةٌ

(١) يرى بعض المحققين في هذا العصر أن العدنانيين هم أصل العرب ، ولها ، والعرب العاربة الأولى ، عكس ما يراه ويزعمه أكثر أهل الأخبار : ويقولون : إن كل ما روي من هذا التقسيم لم يرو من النصوص الجاهلية ؛ وإنما ورد متواتراً من الكتب المدونة في الإسلام ، وأكثرها مبني على أقوال الرواة المنتمين إلى الأصول القحطانية اليمنية ، والله أعلم .

(٢) البداية والنهاية : لابن كثير ، ج ٧ ، ص ٤٠ .

هائلة ، ولا يزال عدد اللغات المُعْتَرَفِ بها في دستور الهند يبلغ ١٥ لغةً إقليميةً ، تختلف فيما بينها اختلاف لغاتٍ مستقلةً ، قائمة بذاتها ، حتّى يحتاجُ أبناؤها للتفاهم إلى ترْجُمانٍ ، أو لغةٍ أجنبية كالإنجليزية .

ولكن امتازت الجزيرة العربية على سَعَتِها ، وترامي أطرافها ، وتَشَتَّتِ قبائلها ، بوحدة اللغة ، كانت ولا تزال أداة تفاهمٍ والتقاءٍ لجميع أبناء هذه الجزيرة ، حَضَرهم وبدوهم ، والقَحْطَانِيّ منهم والعدنانيّ ، وهي اللغة العربية على اختلاف لهجاتها ، وفروقاتها الإقليمية التي تقتضيها طبيعة اللغات وفلسفتها ، وطبيعة الأقاليم والأجواء ، وطبيعة الانعزال والانطواء .

فاللغات تختلف في لهجاتها بمسافات ، قد تطول وقد تقصرُ ، وكانت هذه الوحدة اللغوية التي امتازت بها هذه الجزيرة من أهم أسباب تيسير مهمة الدعوة الإسلامية ، وسرعة انتشار الإسلام فيها ، ومخاطبة الوحدات العربية المنتشرة ، في لغة واحدة ، هي اللغة العربية الفصحى ، وبكتاب واحد هو القرآن العربيّ المُبين .

جزيرة العرب في تاريخ الأمم والديانات :

قد تبين من الآثار العتيقة أنّ بلاد العرب كانت مأهولة بالناس ، منذ العصور « الباليوليتية » (Paleolithic) أي العهود الحجرية المتقدمة ، ومن أقدم الآثار التي عُثِرَ عليها آثارٌ من أيام العصور المعروفة بـ (Chellian) أي الأدوار الأولى من أدوار حضارة العصر الحجريّ .

وقد جاء ذكر العرب في مواضع من أسفار التّوراة ، تشرح علاقات العبرانيين بالعرب ، وما ذكّر في التوراة عن العرب يرجع تاريخه إلى ما بين ٧٥٠ ، والقرن الثاني قبل المسيح ، وقد وردت في التلمود إشارات إلى العرب كذلك .

وفي كُتُب « يوسفوس فلافيوس » الذي عاشَ بينَ سنة ٣٧ و ١٠٠ للمسيح تقريباً معلوماتٌ ثمينةٌ عن العرب ، وأخبارٌ مفصلةٌ عن العرب والأنباط ، ووردت في الكُتُب اليونانية واللاتينية المؤلفة قبل الإسلام - على ما فيها من خطأ - أخبارٌ تاريخيةٌ جغرافيةٌ كبيرةٌ الخطورة ، ووردت فيها أسماءُ قبائلٍ عربيةٍ كثيرةٍ ، لولاها لم نعرف عنها شيئاً ، وتعدُّ الإسكندرية من أهمِّ المراكز التي كانت تُعنى عنايةً خاصةً بجمع الأخبار عن بلاد العرب ، وعادات سكَّانها ، وما ينتجُ فيها لتقديمها إلى مَنْ يرغبُ فيها من تُجَّار البحر المتوسط .

ومن أقدم مَنْ ذكر العرب من اليونانيين « خيلوس » (٥٢٥ - ٤٥٦ قبل المسيح) و « هيرودوتس » (٤٨٠ - ٤٢٥ ق . م) .

وهناك طائفةٌ من الكُتَّاب الذين تركوا لنا آثاراً وردت فيها إشاراتٌ إلى العرب ، والبلاد العربية ، منهم (بطليموس) الذي عاش في الإسكندرية في القرن الثاني للمسيح ، وهو صاحبُ مؤلفاتٍ في الرياضيات منها « كتاب المِجسطي » المعروف في اللغة العربية .

وفي الموارد النصرانية مادةٌ غزيرةٌ عن تاريخ العرب في الجاهلية والإسلام ، وإن كانت خاصةً بما له صلةٌ بالنصرانية وانتشارها ، ومراكز نشاطها .

والعرب في التوراة ، هم الأعراب ، أي سكان البوادي ، لذلك فإنَّ النُّعوت الواردة فيها عنهم ، هي نعوتٌ لعرب البادية .

وكذلك في كُتُب اليونان ، والرومان ، والأنجيل ، نعوتٌ قُصِّدت بها الأعراب ، وقد كانوا يُغيرون على حدود إمبراطوريتي الرومان واليونان ، ويسلبون القوافل ، يأخذون الإتاوات من التُّجَّار والمسافرين .

وقد وُصفَ دَيْدَوْرُوسُ الصَّقْلِيُّ العرب بأنهم يَعشقون الحرية ، فيلتحفون

السماء ، ويعتقدون بالإرادة الحرة ، والحرية المطلقة .

وبذلك يصفهم (هَيْرُودُوتُس) ، فيقول : إنهم يُقاومون أي قوة تحاول استرقاقهم ، واستدلالهم ، فالحرية عند العرب هي أكبر شعار ، وميزة يمتاز بها العرب في نظر الكتبة اليونان ، واللاتين .

وكذلك الصلات بين العرب والهند ، ومعرفة إحداهما بالأخرى ، والتبادل التجاري والثقافي بين البلدين قديمٌ ووثيقٌ ، وسابقٌ على الإسلام والفتح الإسلامي بكثير ، وكانت الهند من أعرف الأقطار الآسيوية بالعرب ، وأقرب إليها ، لعوامل جغرافية ، واقتصادية ، كما تدل على ذلك المصادر الهندية والعربية ، والاكتشافات الحديثة^(١) .

صلة الجزيرة بالنبوءات ، والأديان السماوية :

والجزيرة العربية مهد نبوءات كثيرة ، ومبعث عدد من الأنبياء ، وقد جاء في القرآن : ﴿ وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٢١] .

والمراد به نبي الله هود الذي أرسل إلى عاد ، وعاد من العرب البائدة على قول المؤرخين ، وكان موطنها « الأحقاف » و(الحقف) كثيب مرتفع من الرمال .

وكانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة في جنوب الجزيرة ، وهي الآن تقع في الجنوب الغربي من الربع الخالي ، قريباً من « حضرموت » ، لا عمران فيها ولا حياة ، وكانت جنات ومنتزهات معمورة بأقوام جابرة

(١) اقرأ للتفصيل كتاب « الصلات بين العرب والهند » للعلامة السيد سليمان الندوي ، وهو أحسن وأوسع ما كتب في هذا الموضوع .

يُسَمُّونَ قَوْمَ عادٍ ، فأهلكهم الله بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ جَلَبَتْ عَلَيْهِمْ طوفاناً مِنَ الرمالِ^(١) .

وقد دَلَّتِ الآيةُ على أَنَّ هوداً لم يكنْ هُوَ الأولُ أو الآخرَ مِنَ الأنبياءِ الذين بُعِثُوا فِي هَذِهِ البلادِ ، بلْ سَبَقَهُ أنبياءٌ ولحقُّوا به ، فَقَدْ قالَ : ﴿ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ [الأحقاف : ٢١] .

وكذلكَ صالحُ نبيُّ ثمودِ ، كان مبعثُهُ فِي جزيرةِ العربِ ، فَإِنَّ ثموداً كانتْ تَسْكُنُ « الحِجَرَ » ، الذي بَيْنَ الحِجازِ وتَبُوكَ .

وقد نشأ إسماعيلُ فِي مَكَّةَ ، وعاشَ فِيها وماتَ .

وَإِذَا صَحَّ أَنَّ مَدْيَنَ تدخلَ فِي جزيرةِ العربِ فِي إطارِها الواسعِ ، فَقَدْ كانَ شُعَيْبُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْها مِنَ العربِ . فَقَدْ كانتْ « مَدْيَنُ » فِي أطرافِ أرضِ العربِ مِنْ ناحِيَةِ الشَّامِ ، قالَ أبو الفِداءِ : « كانَ أَهْلُ مَدْيَنَ قَوْمًا عَرَبًا ، يَسْكُنُونَ مَدْيَنَتَهُمْ « مَدْيَنَ » ، الَّتِي هِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ أرضِ مَعَانَ ، مِنْ أطرافِ الشَّامِ ، مِمَّا يَلِي مِنْ ناحِيَةِ الحِجازِ ، قَرِيبًا مِنْ بحيرةِ قَوْمِ لُوطٍ ، وكانوا بَعْدَهُمْ بِمَدَّةٍ قَرِيبَةٍ »^(٢) .

وكانتْ أرضُ العربِ مأوًى لكَثيرٍ مِنْ أصحابِ الرِّسالاتِ والدَّعواتِ ، الذين ضاقتْ عَلَيْهِمُ الأرضُ بِما رَحُبَتْ ، وَتَنَكَّرَتْ لَهُمْ أوطانُهُمْ ، فلم يجدُوا مأوًى إِلَّا فِي هَذِهِ الأرضِ البعيدَةِ عَنْ نفوذِ الملوكِ الجَبَّارينَ ، والرُّؤساءِ الظالمينَ ، كما كانَ الشَّأنُ معَ إِبْرَاهِيمَ فِي مَكَّةَ ، وَمُوسَى فِي مَدْيَنَ ، هَذَا عدا الدياناتِ الَّتِي لَقِيتْ اضْطهاداً فِي مَهْدِها ، فَأَوَتْ إِلَى موطنِ فِي الجزيرةِ ،

(١) قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ سَافَرْنَا عَلَيْهِنَّ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا مَضًى عَنْ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ فَخُلِ خَاوِيَةً ﴾ [الحاقة : ٦-٧] .

(٢) قصص الأنبياء : للشيخ عبد الوهاب النجار ، ص ٢٧٥ ؛ ج ١ .

فهاجر عددٌ كبيرٌ من اليهود ، حينَ لقوا اضطهاداً من الرومانِ إلى أرضِ اليمنِ ، ومدينةِ يثربَ .

ولجأتِ النصرانيَّةُ إلى أرضِ نَجْرانَ فراراً من حكمِ القياصرةِ الذين اضطهدوها^(١) .

إسماعيلُ عليه السَّلام في مكة :

قصَدَ سيدنا إبراهيمُ مَكَّةَ ، وهي في وادٍ محصورٍ بينَ جبالٍ جَرْدَاءَ ، ليسَ فيه ما يعيشُ عليه الناسُ ، من ماءٍ ، وزرعٍ ، ومِيرةٍ ، ومعه زوجته هاجر ، وولدهُ إسماعيلُ ، فراراً من الوثنيَّةِ المنتشرةِ في العالمِ ، ورغبةً في تأسيسِ مركزٍ يُعَبِّدُ فيه اللهُ ، ويدعوُ الناسَ إليه ، ويكونُ مناراً للهدى ، ومثابةً للناسِ ، ونقطةَ انطلاقٍ لدعوةِ التوحيدِ ، والحنيفيَّةِ السمحةِ والدينِ الخالصِ^(٢) .

تقبَّلَ اللهُ هذا العملَ الخالصَ ، وباركَ في هذا المكانِ ، وأَجْرَى اللهُ الماءَ لهذهِ الأسرةِ المباركةِ الصغيرةِ ، المؤلَّفةِ من أمِّ وابنٍ - وقد تركهما إبراهيمُ في هذا المكانِ القاحلِ المنعزلِ عن العالمِ - وكان بئرُ زمزمَ ، وباركَ اللهُ في هذا الماءِ .

وكان إبراهيمُ لا يزالُ في جهادٍ ، ودعوةٍ ، وانتقالٍ من مكانٍ إلى مكانٍ ، يدعوُ الناسَ إلى اللهِ ، ويعودُ إلى مَكَّةَ ، فيقضي فيها أياماً ، ثمَّ يُغادرُها^(٣) .

(١) استفدنا في هذا البحث الأخير من كتاب « خاتم النبيين ﷺ » للعلامة محمد أبو زهرة ؛ ج ١ ، فصل « أرض النبوة الأولى هي أرض العرب » .

(٢) القرآن الكريم سورة البقرة [الآية : ١٢٦] ، وسورة إبراهيم [الآية : ٣٧] .

(٣) تؤيِّد ذلك الروايات اليهودية وتقول : إنَّ إبراهيمَ كان يتردَّدُ إلى إسماعيلَ بين آونة وأخرى ويزوره سرّاً في الصحراء (تعني الجزيرة العربية) راجع : D.Sidersky - des origines .

des legends Musalmans (Paris. 1933) pp. 51-53.

ونشأ إسماعيلُ ، وأراد إبراهيمُ ذبحَ ابنه إسماعيلَ ، وهو غلامٌ يسعَى ،
إيثاراً لحبِّ الله تعالى على حبه ، وتحقيقاً لما رآه في المنام .

واستسلمَ إسماعيلُ لهذا الأمرِ ورضيَ به ، وفداه الله بذبحٍ عظيمٍ^(١) ،
وسلمه ليكونَ عونَ أبيه في الدعوةِ إلى الله ، وليكونَ جدَّ آخرِ نبيٍّ وأفضلِ
الرسلِ ، وجدَّ أمةٍ تظلمُ بأعباءِ الدعوةِ إلى الله والجهادِ في سبيلها .

وعادَ إبراهيمُ إلى مكَّةَ ، واشتركَ الأبُّ والابنُ في بناءِ بيتِ الله ، وكانَ
دعائهما أن يتقبَّلَ الله هذا البيتَ ، ويباركَ فيه ، وأن يعيشا على الإسلامِ ،
ويموتا عليه ، ولا ينقطعُ بموتهما بل ترثه ذريَّتهُ ، فتحضنه ، وتغارُ عليه ،
وتدعُو إليه ، وتؤثره على كلِّ عزيزٍ ، فتنشرُ هذه الدعوةُ في العالمِ ، وأن
يبعثَ الله فيها نبياً من ذريَّتهِ ، يجددُ دعوةَ جدِّه إبراهيمَ ، ويتمُّ ما بدأه .

﴿ وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ
أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧ - ١٢٩] .

ودعا إبراهيمُ أن يظلَّ هذا البيتُ آمناً دائماً ، وأن يسلمَ الله أولاده من عبادةِ
الأصنام ، التي لم يكنْ هو أشدَّ كراهةً لشيءٍ ، ولا أكثرَ تقزُّراً ، ولا أخوفَ
لشيءٍ على ذريَّتهِ منها .

فقد رأى مصيرَ الأممِ ومصيرَ الأسرِ ، بعدَ الأنبياءِ الذين بُعثوا فيها ، وبعدَ
الجهودِ الجبَّارةِ والدَّعواتِ القويَّةِ التي قاموا بها ، وكيف أصبحت بعدَ

(١) [قال تعالى : ﴿ وَقَدْ بَيَّنَّاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾] ، سورة الصافات [الآية : ١٠٧] .

مفارقتهم للدنيا فريسة الشياطين المفسدين ، والدجالين المضللين من عبّاد الأوثان ودعاة الجاهلية .

وتمنى أن يكون أولاده وأولاد أولاده على اتصال دائم بدعوته وجهاده ، يذكرون قصة محاربته للوثنية ، وخلعه للأوثان ، وتحطيمه لها ، ومصارمته للوالد السّادن لببت الأصنام ، وفراقه للأهل والوطن ، وأن يذكروا سرّاً اختيار هذا المكان الفاحل ، الذي لا يصلح للزّرع ، وازدهار المدينة ، ويعرفوا سرّاً إثاره على المُدن الكبيرة ، والأمكنة الصالحة للفلاحة والتجارة ، وأسباب العيش ، وأن يُعوّض عن ذلك بأن يعطفَ عليهم القلوب ، ويهوي إليهم الأفتدة ، ويسوق إليهم الرزق الكريم ، ويجبي إليهم ثمرات كل شيء :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُمْ أَصْلَحْنَا كَثِيرًا ۖ فَمَنْ يُبْعَثْ فَأَنفِئْ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣٦ رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۖ ﴾

[إبراهيم : ٣٥ - ٣٧]

قبيلة قريش :

وتحقّق كل ذلك ، فبارك الله في ذريتهما ، وتوسّعت الأسرة الإبراهيمية العربية ، فقد صاهر إسماعيل جُرهم^(١) - وكانوا من العرب العاربة - وبارك الله في ذرية إسماعيل ، حتى كان منه عدنان ، وتناقلت العرب العدنانية أنسابها ، وهي أكثر الأنساب العربية صحة وحفظاً وتداولاً .

(١) قيل : إن جُرهم كانت أولى القبائل العربية التي أقامت بمكة ، وقد استهواها المقام هناك لوجود ماء لا ينقطع ، وجاء في بعض الروايات أنّها كانت هناك قبل أن يترك إبراهيم زوجه هاجر وابنه إسماعيل في هذا الوادي .

وَكَثُرَ أَوْلَادُ عَدْنَانَ ، اِشْتَهَرَ مِنْهُمْ مَعْدُ بْنُ عَدْنَانَ ، وَنَبَغَ فِي أَوْلَادِهِ مُضَرُّ ، وَنَبَغَ مِنْ أَوْلَادِهِ فَهْرُ بْنُ مَالِكٍ .

وَسُمِّيَ أَوْلَادُ فَهْرِ بْنِ مَالِكٍ بْنِ النَّضْرِ « قَرِيشًا » وَغَلَبَ هَذَا الْاسْمُ عَلَى جَمِيعِ الْأَسْمَاءِ ، فَاشْتَهَرَتْ هَذِهِ الْقَبِيلَةُ بِـ « قَرِيش » وَأَقْرَأُ أَهْلُ الْعَرَبِ كُلُّهُمْ لِقَرِيشَ بَعْلُو النَّسَبِ ، وَالسِّيَادَةِ ، وَفَصَاحَةِ اللُّغَةِ ، وَنِصَاعَةِ الْبَيَانِ ، وَكِرَمِ الْأَخْلَاقِ ، وَالشَّجَاعَةِ ، وَالْفَتَوَةِ ، وَذَهَبَ ذَلِكَ مِثْلًا لَا يَقْبَلُ نِقَاشًا وَلَا جَدَلًا^(١) .

قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ وَأَوْلَادِهِ :

وَمِنْ أَوْلَادِ فَهْرِ قُصَيُّ بْنُ كِلَابٍ .

وَزَلَّ أَمْرُ مَكَّةَ لِجُرْهُمَ ، حَتَّى غَلَبَهُمْ عَلَى ذَلِكَ خُزَاعَةُ ، وَكَانَتْ سَدَانَةُ الْبَيْتِ فِيهِمْ ، إِلَى أَنْ عَظُمَ شَأْنُ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ ، وَظَهَرَ فَضْلُهُ فَانْتَقَلَتْ إِلَيْهِ ، وَانْضَمَّتْ لَهُ قَرِيشٌ ، وَأَجْلَوْا خُزَاعَةَ عَنْ مَكَّةَ ، وَتَمَّ لَهُ أَمْرُ مَكَّةَ ، وَكَانَ سَيِّدًا مُطَاعًا ، كَانَتْ إِلَيْهِ حِجَابَةُ الْبَيْتِ ، وَعِنْدَهُ مِفَاتِيحُهُ ، فَلَا يَدْخُلُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَسِقَايَةُ زَمْزَمَ ، وَالرَّفَادَةِ^(٢) ، وَالنَّدْوَةُ الَّتِي يَجْتَمِعُونَ فِيهَا لِلْمَشُورَةِ ، وَالرَّأْيِ ، وَاللَّوَاءِ فِي الْحَرْبِ ، فَحَازَ شَرَفَ مَكَّةَ كُلَّهَا .

وَتَنَبَّلَ فِي أَوْلَادِهِ عَبْدُ مَنْفٍ ، وَكَانَ هَاشِمُ أَكْبَرَ أَبْنَاءِ وَالِدِهِ عَبْدِ مَنْفٍ ، وَكَانَ كَبِيرَ قَوْمِهِ ، وَكَانَتْ عِنْدَهُ السَّقَايَةُ وَالرَّفَادَةُ ، وَهُوَ وَالِدُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ : جَدُّ الرَّسُولِ ﷺ ، وَقَدْ وَلِيَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ السَّقَايَةَ وَالرَّفَادَةَ بَعْدَ عَمِّهِ الْمَطْلَبِ بْنِ

(١) اقرأ للتفصيل « سيرة ابن هشام » ج ١ ، وكتب السيرة والأنساب .

(٢) الرَّفَادَةُ : طعام كانت قريش تجمعهُ كلَّ عام لأهل الموسم ؛ ويقولون : هم أضياف

الله تعالى .

عبد مناف ، وشرف في قومهِ شرفاً لم يبلغهُ أحدٌ من آبائهِ ، وأحبَّهُ قومُهُ ، وعظُمَ خطرُهُ فيهِم^(١) .

بنو هاشم :

وكانَ بنو هاشم واسطةَ العقدِ في قريش ، وإذا قرأنا ما حفظهُ التاريخُ وكتبُ السيرةِ من أخبارِهِم وأقوالِهِم - وهو قليلٌ من كثيرٍ جداً - استدللنا به على ما كانَ يمتازُ به هؤلاءُ من مشاعرِ الإنسانيةِ الكريمةِ ، والاعتدالِ في كلِّ شيءٍ ، ورجاحةِ العقلِ ، وقوَّةِ الإيمانِ بما للبيتِ من مكانةٍ عندَ الله ، والبعدِ عن الظلم ، ومكابرةِ الحقِّ ، وعلوِّ الهمةِ ، والعطفِ على الضعيفِ والمظلومِ ، والسخاءِ ، والشجاعةِ .

وما تشتملُ عليه كلمةُ « الفُروسية » عند العرب ، من معانٍ كريمةٍ ، وخلالِ حميدةٍ ، تمثلُ السيرةَ التي تليقُ بأجدادِ الرسولِ الكريمِ ﷺ وتتفقُ مع ما كانَ يفضلهُ ويدعوُ إليه ، من مكارمِ الأخلاقِ ، غيرَ أنهم عاشوا في زمنِ الفترةِ ، وسأيروا أبناءَ قومِهِم ، في عقائدِ الجاهليَّةِ وعباداتِها .

الوثنية في مكة : تاريخها ومصادرها :

وبقيت قريش متمسكةً بدينِ إبراهيمَ الخليلِ وبدينِ جدِّها إسماعيلَ ، متمسكةً بالتوحيدِ ، وعبادةِ الله وحده ، حتى كانَ عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي ، فكان أوَّل من غيَّرَ دينَ إسماعيلَ ، فنصبَ الأوثانَ ، وأحدث في الحيواناتِ من التعظيمِ والتسيبِ والتحریم ما لم يأذنُ به الله ، ولم تعرفهُ شريعةُ إبراهيمَ ، وكان قد خرجَ من مكَّة إلى الشام ، فرأى أهلها يعبدون

(١) أقرأ للتفصيل « السيرة النبوية » لابن هشام ، ج ١ (أولاد عدنان) .

الأصنام ، ففتنَ بها ، وجَلَبَ بعضها إلى مكَّة ، فنصبها ، وأمرَ الناسَ بعبادتها وتعظيمها^(١) .

ولا غرابة في أنه مرَّ في طريقه إلى الشام من « البتراء » التي ضبطها المؤرِّخون والجغرافيون القدامى بـ « بطراء » و « بطرة » ، وهي تقع الآن في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية ، وكانت القصبة العربية الصخرية المشهورة عند اليونان والرومان ، قيل : إنه أنشأها الأنباط ، وهم من أصل عربي ، قبل آلاف من السنين ، وقد بلغوا في المدنية والصناعة شأواً بعيداً ، وكان بينهم شعراء وأطباء وتجار كبار ، وكانوا يرحلون إلى مصر والشام وبلاد الفرات وروما ، ويجوز أنهم كانوا يمرُّون بالحجاز في طريقهم إلى وادي الفرات ، وكانوا مع ذلك مُنغمسين في الوثنية السافرة ، ينحتون الأصنام ويعبدونها ،

(١) سيرة ابن هشام ق ١ ، ص ٧٦ - ٧٧ ، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار ، كان أول من سيَّب السوابب » ؛ [أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، برقم (٤٦٢٣) ، ومسلم في كتاب الكسوف ، باب صلاة الكسوف ، برقم (٩٠١) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٧٥)] .

وفي حديث رواه محمد بن إسحاق ؛ أنه كان أول من غير دين إسماعيل ؛ فنصب الأوثان ، وبحر البحيرة ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمل الحامي ، (راجع « السيرة النبوية » لابن كثير ؛ ج ١ ص ٦٤ - ٦٥) .

ومما تحقَّق من متابعة كتب التاريخ أن جدَّ عمرو بن لحي لأمه كان آخر ولاية مكة ، وقد آلت هذه التولية إلى عمرو بن لحي ، وقد أبدى الأزرقى ما كان يتمتع به من شأن وفخامة (ص ٤٩ - ١٣٣) ، وقد بلغ من المجد شأواً لم يبلغه أحد قبله في الجاهلية ، وهو أول من غير دين إسماعيل ودعا إلى الوثنية السافرة (جمهرة أنساب العرب ، ص ٢٣٥) ، وهو أول من أحدث تغييراً في مناسك الحج .

ويبدو من متابعة المصادر التاريخية أنه سبق ظهور الإسلام بأربعة قرون ونصف . (ملخص البحث الذي جاء في دائرة المعارف الإسلامية ، الصادرة من « دانش كاه بنجاب » لاهور ، مجلد ١٤/٣ ص ٢٦٣ - ٢٦٥) .

قِيلَ : إِنَّ « اللّاتَ » التي هي في مقدّمة الأصنام التي كانَ يعبدُها أهلُ شماليّ الحجازِ ، استوردُوها من « البتراء » وجعلوها في أصنامهم الرئيسيّة^(١) .

ويؤيّد ذلك ما جاء في كتاب « تاريخ سورية » لمؤلّفه فيليب حتّي (P.K. Hitti) حول المناطق النبطية أي شرقيّ الأردن حالياً ، يقول :

« وكانَ زعيمُ هؤلاء الآلهة « ذي الشرا » ، وكانَ يشبهُ عموداً مستطيلاً أو حجراً أسودَ مربّعاً ... وكانت « اللّاتُ » الآلهةُ الخاصّةُ للعربِ متصلةً بـ « ذي الشرا » ومن الآلهة النبطية الأخرى التي وردَ ذكرُها في كتابيّة من الكتابات الأثرية ، هي « مناة » و « العزى » وقد وردَ ذكرُ « هبل » أيضاً في تلك الكتابات^(٢) .

ولا يَعرُبَنَّ عن البالِ أنَّ هذا العصرَ كانَ عصرَ انتشارِ الوثنياتِ حولَ الجزيرة العربية ، ومنها حوضُ البحرِ الأبيض المتوسطِ ، فلمَ تظهرَ دعوةُ المسيحِ وحواريه بعدُ ، التي عارضتِ الوثنيّة ، وقلّلت من حدّتها ونشاطها .

أمّا اليهوديّة فقد كانت ديانةً سُلاليّةً محصورةً في بني إسرائيل ، لم تؤدّنْ لدعوةٍ غيرِ بني إسرائيلِ إلى التوحيد .

ويؤيّد ذلك ما جاء في كتاب « العرب قبل محمد » لمؤلّفه De Lacy O'Leary . قال :

« ولا يبعدُ عن الصحة أن يقالَ : إنّ عبادة التماثيل إنّما كانت من منح

(١) وقد زارها المؤلّف ، ولاحظ كثرة المعابد الوثنية المحفورة في الجبل في ١٩/٨/١٩٧٣م ، أثناء جولته في غرب آسيا ؛ عضواً في وفد لرابطة العالم الإسلامي في مكة [اقرأ عن هذه الرحلة في كتاب « رحلات العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي مشاهداته - محاضراته - لقاءاته - انطباعاته » إعداد المحقّق ص (٢١٥) ، طبع دار ابن كثير بدمشق] .

P.K. Hitti: History of Syria. (London, 1951) p. 382-83.

(٢)

سورية وفدّت إلى الجزيرة عن طريق التقاليد الشاميّة اليونانيّة المنتشرة في سورية ، ولعلّها لم تكن سائدة في سائر أنحاء العرب^(١) .

وكذلك كانت الوثنيّة منتشرة في وادي الفرات وشرقيّ الجزيرة العربيّة ، وكان بين الجزيرة وهذه المنطقة اتصالات تجارية وعلاقات ودّيّة ، فلا يُستبعد أن يكون لهذه المنطقة نصيب في انتشار الوثنيّة في الجزيرة .

وقد صرّح (Georges Roux) في كتابه « العراق القديم » بأنّ الكتابات الأثرية في العراق تدلّ على أنّ الوثنيّة كانت منتشرة فيها في القرن الثالث المسيحيّ فيما بعد ، وهي كانت مسكناً للآلهة ، منها أجنبيّة ومنها محليّة^(٢) .

وقيل : إنّ عبادة الأصنام نشأت في قريش تدريجيّاً ، فقد توصّلوا من تعظيم حجارة الحرم ، التي كانوا يحملونها معهم إذا ظعنوا من مكّة ، تعظيماً للحرم ، ومحافظةً على ذكره ، إلى أن صاروا يعبدون ما استحسّسوا من الحجارة وأعجبهم حتى خلّفوا خلفاً نسوا ما كانوا عليه ، وعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات ، وفيهم - على ذلك - بقايا من عهد إبراهيم يتمسّكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحجّ والعمرة^(٣) .

وتاريخ الأمم والديانات في الانتقال من مرحلة إلى مرحلة ، ومن الوسائل إلى الغايات ، ومن المقدمات إلى النتائج ، يؤيد ما ذهب إليه هؤلاء من تعليل

(١) (Arabia Before Mohammad), (London, 1927) p. 196-97.

(٢) راجع للتفصيل Ancient Iraq, (1972) p. 283-84.

(٣) راجع للتفصيل في أسماء الأصنام وأخبارها ومواطنها وأسباب اتخاذها كتاب « الأصنام »

للكليبي ، و « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » تأليف العلامة السيد محمود شكري

الآلوسي ، الجزء الثاني ؛ (ذكر شيء من أخبار الأصنام وسبب اتخاذ العرب لها) ص ٢٠٠

بدء الوثنية في العرب بصفة عامة وفي قريش بصفة خاصة ، وتاريخ بعض الشعوب الإسلامية وطوائفها في التدرج إلى عبادة الصُور والضرائح ومُغالاتيها في التعظيم والتقدّيس يؤيّد ذلك .

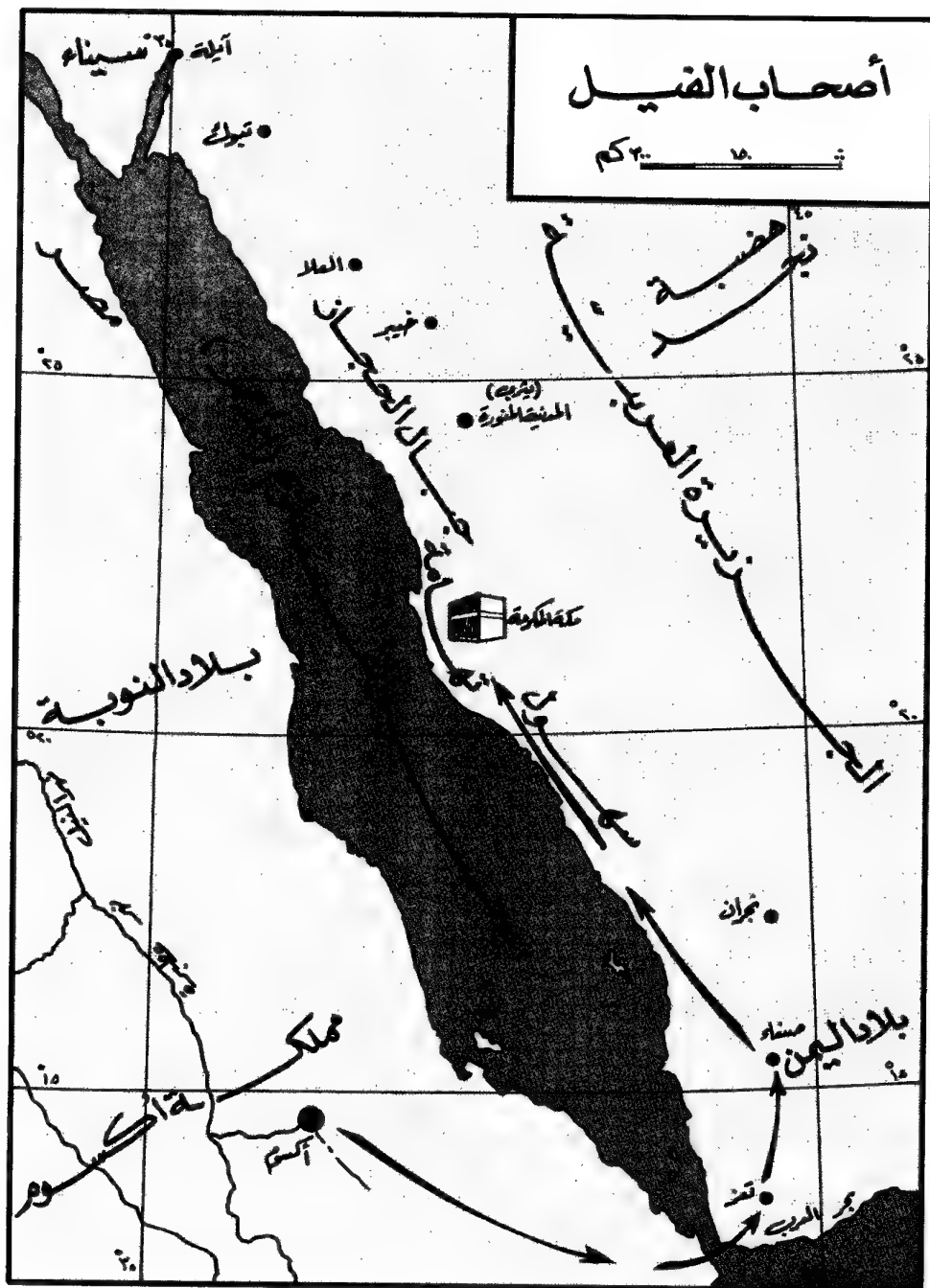
لذلك ألحّت الشريعة الإسلامية على سدّ الذرائع المؤدّية إلى الشُّرك ، والغلوّ في الأشخاص والآثار^(١) .

حادثة الفيل :

ووقعَ حادثٌ عظيمٌ لم يحدث مثله في تاريخ العرب ، وكانَ دليلاً على ظهورِ حادثٍ أكبر ، وعلى أن الله يريدُ بالعربِ خيراً ، وأن للكعبة شأنًا ليسَ لغيرها من بيوت الدنيا ومراكز العبادة ، وقد نيّطت بها رسالة ودورٌ في تاريخ الديانات ومصير الإنسانية ، لا بُدَّ أن تؤدّيهِ وأن تقومَ به .

(١) ودلائله في الشريعة والأحاديث الصحيحة أكثر من أن تحصى ؛ منها الحديث المشهور « لا تتخذوا قبري عيداً » [أخرجه أبو داود عن أبي هريرة ، في كتاب المناسك ، باب في زيارة القبور ، برقم (٤٠٤٢) ، وأحمد في مسنده (٣٦٧/٢)] وحديث « لا تشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » [أخرجه البخاري عن أبي هريرة ، في كتاب التطوُّع ، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، برقم (١١٨٩) ، ومسلم في كتاب الحج ، باب فضل المساجد الثلاثة ، برقم (١٣٩٧)] . وحديث « لا تُطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم » [أخرجه البخاري عن ابن عباس ، في كتاب أحاديث الأنبياء ، برقم (٣٤٤٥) ، وأحمد في مسنده (١٦/١)] وغيرها ، وهي حكمة النهي عن تصوير ذي روح في الإسلام والتشديد فيه .

وقد تدرّجت أمم في القديم من الحب والتعظيم إلى التصوير ونحت التماثيل ، ومنها إلى العبادة السافرة ، قال ابن كثير في تفسير آية : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح : ٢٣] عن محمد بن قيس قال : كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين يقتدون بهم : « لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم » فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس ؛ فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر ؛ فعبدوهم .



إيمانُ قريش بمكانة البيت عند الله :

ويتجلى هذا الإيمان بأن لهذا البيت مكانة عند الله ، وأنه حاميه ومأنعه ، في حديث دار بين عبد المطلب - جد الرسول وسيد قريش - و « أبرهة » - ملك الحبشة - وقد أصاب له الملك مئتي بعير ، فاستأذن له عليه ، وقد أعظمه أبرهة ، ونزل له عن سريرته ، فأجلسه معه ، وسأله عن حاجته ، فقال : حاجتي أن يرد عليّ الملك مئتي بعير أصابها لي .

فلما قال له ذلك ، زهد فيه الملك ، وتفادته عينه ، وقال : أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك ، وترك بيتاً هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه ، لا تكلمني فيه !؟ .

قال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه .

قال : ما كان ليمتنع مني .

قال : أنت وذاك^(١) .

إذا فلا سلطان عليها لزاحف ، ولا سبيل إليها لمهاجم ، وإن الله بالغ أمره في بيته ودينه .

وكان من خبره أن أبرهة الأشرم عامل النجاشي (ملك الحبشة) على اليمن بنى بـ « صنعاء » كنيسة عظيمة ، سماها « القليس » وأراد أن يصرف إليها حج العرب ، وغار من الكعبة أن تكون مثابة للناس ، يشدون إليها الرحال ، ويأتون من كل فج عميق ، وأراد أن يكون هذا المكان لكنيسته .

وعز ذلك على العرب الذين رضعوا لبان حب الكعبة وتعظيمها ، لا يعدلون بها بيتاً ، ولا يرون عنها بديلاً ، وشغلهم ذلك ، وتحدثوا به ،

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

فخرج كناني ، ودخل الكنيسة ، وأحدث فيها ، فغضب عند ذلك أبرهة ، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه^(١) .

ثم سار وخرج معه بالفيل ، وتسامعت به العرب ، فنزل عليهم كالصاعقة ، وأعظموه ، وفزعوا له ، وأرادوا كفه عن ذلك ومحاربتة ، فرأوا أن لا طاقة لهم بأبرهة وجنوده ، فوكلوا الأمر إلى الله تعالى ، وكانوا على ثقة بأن للبيت رباً سيحميه .

وانحازت قريش إلى شَعَف^(٢) الجبال والشعاب ، تخوفاً عليهم من معرة الجيش ، ينظرون ماذا سيصنع الله بمن اعتدى على حرمة ، وقام عبد المطلب ، ومعه نفر من قريش ، فأخذوا بحلقة باب الكعبة ، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده .

وأصبح أبرهة مُتهيناً لدخول مكة ، وهو مُجمعٌ لهدم البيت ، وهياً فيله ، وكان اسم الفيل « محموداً » وبرك الفيل في طريق مكة ، وضربوا الفيل ليقوم ، فأبى ، ووجهوه راجعاً إلى اليمن ، فقام يُهرول .

وهناك أرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر ، مع كل طائر منها أحجارٌ

(١) يمكن أن يكون السبب في حملة أبرهة أهم وأوسع من حادث أريد به تنجيس معبد ، وأن يكون قصد أبرهة فتح مكة لربط اليمن ببلاد الشام ، وتوسيع حكم النصرانية ، ونفوذها في الجزيرة العربية ، وكان ذلك في صالح الروم والحش ؛ وهم نصارى على السواء ، وكانت هذه الخطة - مهما كانت الدوافع إليها - تؤدي إلى خراب البيت الذي قُدِّر له أن يكون هدى ومثابة للناس ، ورمز النبوة الأخيرة ؛ وتجريد مكة من سيادتها الروحية ، وذلك ما لا يرضاه الله .

ويجوز أن يكون الروم هم المحرضين لأبرهة على فتح مكة ، لمآربهم السياسية ، ومنها إضعاف نفوذ الفرس المنافس الوحيد للنفوذ الرومي على بلاد العرب .

(٢) [الشَعَفُ : جمع الشَعْفَة ، وهي من كل شيء : أعلاه] .

يحملها ، لا تصيبُ منهم أحداً إلا هلك ، وخرجَ أهلُ الحبشةِ هاربين يبتدرون الطريقَ الذي منه جاؤوا ، وخرجُوا يتساقطون بكلِّ طريقٍ ، وأُصيبَ أبرهةُ في جسده ، وخرجُوا به معهم ، تسقطُ أناملُه ، أنملةٌ أنملةً ، حتَّى قدموا به « صنعاء » فماتَ شراً ميتةً^(١) .

وذلك ما حكاه القرآن ، يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : ١ - ٥] .

وقعُ حادثةُ الفيلِ ودلالاتها :

فلَمَّا رَدَّ اللهُ الحبشةَ من مكَّة ، وأصابهم ما أصاب ، أعظمتِ العربُ قريشاً ، وقالوا : هم أهلُ اللهِ ، قاتلَ اللهُ عنهم وكفاهم العدو ، وازدادوا تعظيماً للبيتِ ، وإيماناً مكانته عند الله^(٤) .

وكانَ ذلك آيةً منَ اللهِ ، ومقدِّمةً لبعثةِ نبيِّ يُبعثُ في مكَّة ، ويظهرُ الكعبةَ من الأوثانِ ، ويعيدُ إليها ما كانَ لها من رفعةٍ وشأنٍ ، وتكونُ لدينه صلةً عميقةً دائمةً بهذا البيتِ ، ودلَّ هذا الحادثُ على قربِ ظهورِ هذا النبيِّ وبعثته .

واستعظَمَ العربُ هذا الحادثَ ، وكانَ جديراً بذلك ، فأرْخُوا به ، وقالوا وقعَ هذا في عامِ الفيلِ ، وولدَ فلانٌ في عامِ الفيلِ ، ووقعَ هذا بعدَ عامِ الفيلِ

(١) اقرأ التفصيل حادثة الفيل ، « سيرة ابن هشام » ج ١ ص ٤٣ - ٥٧ .

(٢) الأبابيل : الجماعات .

(٣) السجيل : الشديد الصلب .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٥٧ .

بكذا من السنين ، وعام الفيل يصادف سنة ٥٧٠م^(١) .

وما مضى على وقعة الفيل خمس سنوات حتى انتقم الله من الأحباش ،
فما لبث أن أزال حكمهم من بلاد اليمن ، فخلت الجزيرة العربية من آثار النفوذ
المسيحي واستعمار الأحباش في وقت واحد .

جاء في « قيام الدولة العربية » ما خلاصته : « قد قامت حركة وطنية في
دولة حمير لتخليص اليمن من حكم الأحباش ، وقد استنجد سيف بن ذي يزن
بكسرى فارس فأمدّه بحملة سنة ٥٧٥م بقيادة وهز ، وقد تغلب هذا القائد
على الأحباش في اليمن »^(٢) .



(١) الرأي الغالب بين الناس أن حملة أبرهة على مكة كانت قبل المبعث بزهاء أربعين سنة ،
وميلاد الرسول ﷺ كان في عام هذه الحملة ، وهو العام الذي عُرف بـ (عام الفيل) وهو
يوافق سنة (٥٧٠م) أو (٥٧١م) . وقد ذهب بعض الرواة إلى غير ذلك ، يرجع للتفصيل إلى
المجلد الثالث من كتاب « المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام » للدكتور جواد علي ،
ص : ٥٠٧-٥٠٨ .

(٢) قيام الدولة العربية : ص : ٢٨ ، لمؤلفه محمد جمال سرور .

مَكَّةُ زَمَنِ الْبَغْثَةِ وَعِنْدَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ

مَكَّةُ مَدِينَةٌ لَا قَرْيَةَ :

يَتَخَيَّلُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مَمَّنْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِأَحْوَالِ الْعَصْرِ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ الْبَغْثَةُ ، وَلَيْسَ لَهُمْ إِطْلَاعٌ وَاسِعٌ عَلَى أَيَّامِ الْعَرَبِ وَأَخْبَارِهِمْ وَشَعْرِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ ، أَنَّ مَكَّةَ كَانَتْ قَرْيَةً صَغِيرَةً ، وَكَانَتْ الْحَيَاةُ فِيهَا فِي طَوْرِ الطَّفُولَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ ، وَكَانَتْ أَشْبَهَ بِمَسْكَنِ لِلْقَبَائِلِ ، فِيهِ مُضَارِبُ مِنَ الشَّعْرِ ، تَسْوَدُ فِيهَا حَيَاةُ الْخِيَامِ ، وَبَيْنَ مَعَاظِنِ الْإِبِلِ^(١) ، وَمَرَابِضِ الْغَنَمِ وَمَرَابِطِ الْخَيْلِ ، مُتَنَازِرَةٌ فِي حَوَاشِي الْوَادِي وَشِعَابِ الْجِبَالِ ، يَتَبَلَّغُ أَهْلُهَا بِلُغَةٍ مِنَ الْعَيْشِ ، وَيَتَعَيَّشُونَ عَلَى الْخُبْزِ الْقَفَّارِ^(٢) أَوْ لَحْمِ الْإِبِلِ الَّذِي لَمْ يَحْسُنْ شَوَائِهُ وَلَمْ يَكْمُلْ اسْتَوَائُهُ ، وَيَلْبَسُونَ اللَّبَاسَ الْخَشِنَ الَّذِي يَتَخَذُونَهُ مِنْ أَصَوَافِ الْإِبِلِ وَأَوْبَارِهَا ، لَا شَأْنَ لَهُمْ بِتَوْسِعِ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ ، أَوْ تَأْتِي فِي اللَّبَاسِ ، أَوْ لِينِ مِنَ الْعَيْشِ ، وَرَقَّةٌ فِي الشُّعُورِ ، وَتَوْشُّعٌ فِي الْخِيَالِ .

إِنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ الْقَاتِمَةَ لِمَكَّةَ ، لَا تَتَّفَقُ مَعَ الْوَاقِعِ التَّارِيخِيِّ وَمَعَ مَا تَنَازَرَتْ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ وَدَوَاوِينِ الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ ، مِنْ وَصْفِ مَكَّةَ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَبْنَاؤُهَا ، فِي مُتَنَصِّفِ الْقَرْنِ السَّادِسِ الْمَسِيحِيِّ مِنْ آدَابٍ وَأَعْرَافٍ وَعَادَاتٍ

(١) [معاظن الإبل : أي : مَبْرَكِ الْإِبِلِ عِنْدَ الْمَاءِ] .

(٢) [الْخُبْزِ الْقَفَّرُ وَالْقَفَّارُ : أَيِ غَيْرِ الْمَادُومِ (الْقَامُوسُ الْمَحِيط)] .

ومظاهر كثيرة في الحياة ، قد انتقلت من طور بدائي بدوي إلى طور بدائي مدني ، ولا تتفق مع ما وصفها القرآن بنعوت وأسماء لا تليق بقرية صغيرة ، وحياء بدوي ، فقد سماها « أم القرى » في قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى : ٧] . وقوله : ﴿ وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ وَطُورِ سَيْنِينَ ﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ [التين : ١ - ٣] . وقوله : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ ^(١) [البلد : ١ - ٢] .

والحق أن مكة قد انتقلت في منتصف القرن الخامس الميلادي ، من طور البداوة إلى طور الحضارة ، وإن كانت حضارة بالمعنى المحدود ، وخضعت لنظام يقوم على اتفاق تطوعي وتفاهم جماعي وتوزع للمسؤوليات والمهام ، وكان ذلك على يد قصي بن كلاب الجد الخامس للرسول .

وكان عمران مكة بطبيعة الحال محصوراً في نطاق ضيق ، وكانت مكة بين الأخشيين ، وهو جبل « أبي قبيس » المشرف على الصفا ، والآخر الجبل الذي يُقال له « الأحمر » ، وكان يسمّى في الجاهلية بـ « الأعرف » ، وهو الجبل المشرف وجهه على قُعَيْقَعَان .

إلا أن وجود البيت في هذا الوادي ، وما كان يتمتع به جيرانه وسدنته بصفة خاصة ، وسكان الوادي بصفة عامة ، من شرف ومكانة وأمن ، كان مغرياً لكثير من القبائل العربية ، وخصوصاً المجاورة ، للانتقال إلى جوار

(١) ولا ينافي ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] ؛ فكثيراً ما يطلق لفظ القرية على البلد ؛ قال ابن كثير في تفسيره هذه الآية : « والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدين كان » ، تفسير ابن كثير : ج ٦ ، ص ٢٢٥ ، طبع دار الأندلس .

البيت ، فازدادَ العمرانُ ، وتوسَّعَ النطاقُ على مرِّ الزمانِ ، وحلَّت البيوتُ المرصوفةُ بالحجر ، أو المبنيةُ بالطينِ والحجرِ محلَّ الخيام والأخبية ، وانطلقت الحركة العمرانية ممَّا يلي المسجد الحرام إلى بطحاء مكة في أعلاها وأسفلها ، وكانوا يبنونها أوَّل الأمر بحيث لا تستوي على سقفٍ مربَّعة احتراماً للبيت ، ثمَّ هانَ عليهم ذلك بالتدريج ، فلم يروا بذلك بأساً ، وتوسَّعوا فيه ، إلا أنَّهم كانوا لا يرفعون بيوتهم عن الكعبة .

وزعمَ بعضُ أهل الأخبار أنَّ أهل مكة كانوا يبنون بيوتهم مدوَّرة تعظيماً للكعبة ، وأوَّل من بنى بيتاً مربَّعاً « حميدُ بنُ زهير » ، فاستكرته قريشُ .

وكانت بيوت أثريائها وساداتها مقامةً بالحجر ، وبها عددٌ من الغرفِ ، ولها بابانٍ متقابلان ، ليتمكنَ النساءُ من الخروجِ من البابِ الآخرِ ، عندَ وجودِ ضيوفٍ في الدَّارِ .

ومن أعلى جبلِ أبي قُبَيْسٍ الذي يُشرفُ على مكة من الشرق ، يبدو شكلها المستطيلُ من الشمالِ إلى الجنوبِ في بطنٍ وادٍ ضيقٍ ، وعندما ينظرُ إليها المرءُ لأوَّل وهلةٍ فإنَّه لا يكادُ يميَّزُها عن الأديم الذي تقومُ عليه ، إنَّ الجبالَ الجرداءَ الصخريةَ التي تحيطُ بها لا تفصلُها عنها أيةُ واحةٍ ، فليسَ بينها وبينَ مكة أيُّ بقعةٍ خضراءَ ، وإنَّ سطوحَ منازلها لتختلطُ بمنهارِ الصخورِ التي تحدَّرت على سفوح تلك الجبالِ .

أمَّا بعدُ أن تراضَ العينُ شيئاً فشيئاً ، فإنَّها تميَّزُ البيوتَ والدُّورَ ، وتكشفُ المداخلَ الخفيةَ ، ويتنبَّه الإنسانُ بغتةً لمنظرٍ مفاجيءٍ لمدينةٍ كبيرةٍ ، لم يكنْ يظنُّ وجودَها في هذا المكانِ ، إنَّ العينَ تراها تكبرُ دونَ حدٍّ ؛ حتَّى ليكادُ الإنسانُ يعزو اتساعها المفاجيءَ إلى سحرٍ ساحرٍ ، وتبدو الصُّخورُ بدورها

وكأنَّها تحوَّلت إلى منازل ، وتبدو الآكامُ أشبه بضواحٍ واسعةٍ لا يدركُ الطرفُ لها نهاية^(١) .

نشأة مكة الجديدة وصاحبها :

كانت نشأة مكة الجديدة على يد قُصَيِّ بنِ كلاب ، فهو الذي جمع قريشاً ، وأسكنهم مكة ، وخطَّ لهم الرِّباع^(٢) ، فأُنزلَ كلُّ قومٍ من قريشٍ منازلهم ، واختطَّ بنوه من بعده مكة رباعاً ، فكانوا يقطنونها ، ويبيعونها ، وأقامت على ذلك قريشٌ ، ليس بينهم اختلافٌ ولا تنازعٌ .

تنظيم حياة وتوزيع مناصب ومسؤوليات :

تملَّك قُصَيِّ على قومه وأهل مكة ، وكانت إليه الحِجَابَةُ ، والسَّقَايَةُ^(٣) ، والرِّفَادَةُ^(٤) ، والندوة ، واللواء .

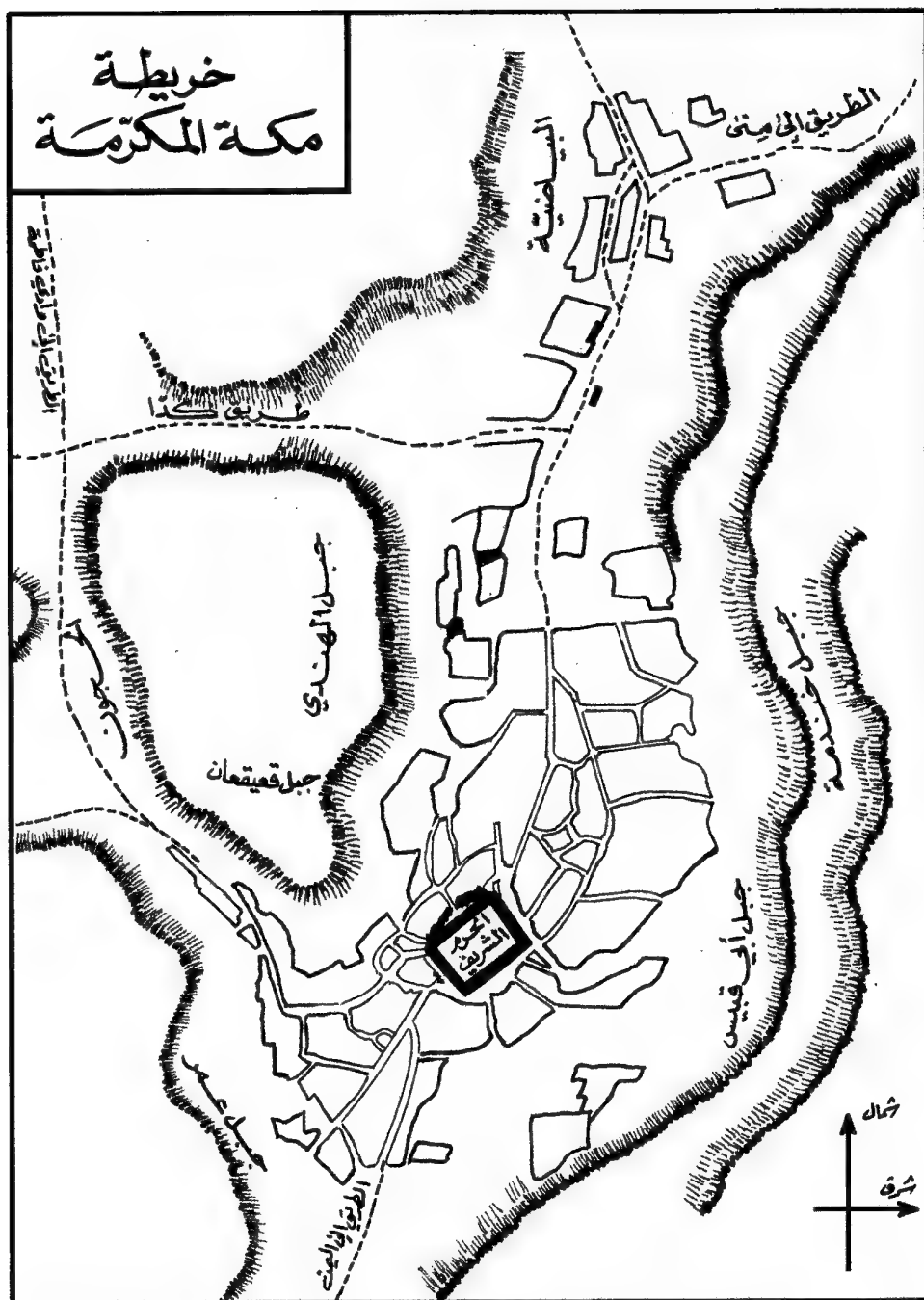
وهو الذي أسَّسَ دارَ الندوةِ لاصقةً بالمسجدِ الحرام ، وجعلَ بابها إلى مسجدِ الكعبة ، وهي دارُ قُصَيِّ بنِ كلاب ، وهي دارُ الشُّورى لقريشٍ ودارُ الحكم والمجتمع في مكة ، فما تُنكحُ امرأةٌ ، ويتزوَّجُ رجلٌ من قريشٍ ، وما يتشاورون في أمرٍ نزلَ بهم ، ولا يعقدون لواءً لحربٍ قومٍ من غيرهم إلَّا في

(١) آتين دينه ، « محمد رسول الله » ، ص ٥٦ (مقتبساً من « أم القرى » لفؤاد علي رضا ، ص ١٩٧-١٩٨) .

(٢) الرِّباع : المنازل وما حولها ، واحد رُبْع بالفتح ، ذكرها أبو الوليد الأزرقى (ت ٢٢٣هـ) في كتابه « أخبار مكة » بتفصيل [وافي] .

(٣) معنى سقاية الحاج : أنهم كانوا يملؤون للحجاج حياضاً من الماء يحلون بها شئ من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة .

(٤) الرِّفَادَةُ : طعام كان يصنع للحجاج على طريق الضيافة ؛ وكانت قريشٌ تساعد قصيًّا على ذلك بما تقدَّمه له من الخُرْج الذي تخرجه كل سنة (الخضري : ص ٣٦) .



هذه الدار ، وما تدرَّعُ جاريةٌ إذا بلغتْ إلّا في هذه الدارِ ، يشقُّ عليها فيها درعُها (خمارها) ثم تدرَّعُه ، ثمَّ يُنْطَلَقُ بها إلى أهلِها .

وكان أمرُه في قومِه في حياتِه ومن بعد موتِه كالدينِ المُتَّبِعِ لا يُعْمَلُ بغيرِه ، ولم يكنْ يدخلُ دارَ الندوةِ من غيرِ بني قصيٍّ إلا ابنُ أربعينِ سنةٍ ، ويدخلُها بنو قُصَيٍّ جميعاً ، وحلفاؤُهم كبيرُهم وصغيرُهم . وكانت دارُ الندوةِ خاصَّةً بهاشمٍ ، وأميةَ ، ومخزومٍ ، وجُمحٍ ، وسَهْمٍ ، وتيمٍ ، وعديٍّ ، وأسدٍ ، ونوفلٍ ، وزُهرةٍ ، وهؤلاء عشرةٌ رهطٍ من عشرةِ أبطنٍ .

وانقَسَمَتِ المناصبُ بعدَ موتِه ، فكانَ في « بني هاشمٍ » السَّقَايَةُ ، وفي « بني أميةَ » العُقَابُ رايةُ قريشٍ ، وفي « بني نوفلٍ » الرِفَادَةُ ، وكان في « بني عبد الدارِ » اللوَاءُ والسَّدَانَةُ مع الحِجَابَةِ ، وكان في « بني أسدٍ » المشورَةُ .

فلم يكنْ رؤساءُ قريشٍ يَتَّفِقُونَ على أمرٍ حتّى يعرضوه عليه ، فإن وافقه ولأهم عليه ، وإلا تخيَّرَ وكانوا له أعواناً .

وكانتِ المسؤولياتُ موزَّعةً بينَ رجالٍ من قريشٍ ، أقرَّتْ لهم بالفضلِ وحصافةِ الرأي .

فكانتْ إلى أبي بكرٍ الصديقِ - وهو من بني تيمٍ - الأُشْنَانُ وهي الديَّاتُ والمغرُمُ ، فكانَ إذا احتملَ شيئاً ، فسألَ فيه قريشاً صدَّقُوهُ وأمضوا حمالةً من نهضَ معه ، وإن احتملَ غيرهَ ، خذَلُوهُ .

وكانَ إلى خالدِ بنِ الوليدِ - وهو من بني مخزومٍ - القَبَّةُ والأَعَنَّةُ - أما القَبَّةُ فإنَّهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهَّزون به الجيشَ ، وأمَّا الأَعَنَّةُ فإنه كانَ على خيلِ قريشٍ في الحربِ .

وكانَ إلى عمرَ بنِ الخطَّابِ - وهو من بني عدي - السفارةُ ، وذلك أنَّهم

كانُوا إِذَا وَقَعَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ حَرْبٌ بَعَثُوهُ سَفِيرًا ، وَإِنْ نَافَرَهُمْ حَيٌّ بِمَفَاخِرَةٍ جَعَلُوهُ نَافِرًا وَرَضُوا بِهِ .

وكان إلى صفوان بن أمية - وهو من بني جمح - الأيسار ، وهي الأزلام فكان لا يسبقُ بأمرٍ هامٍّ حتَّى يكون هو الذي يُسيِّره على يديه .

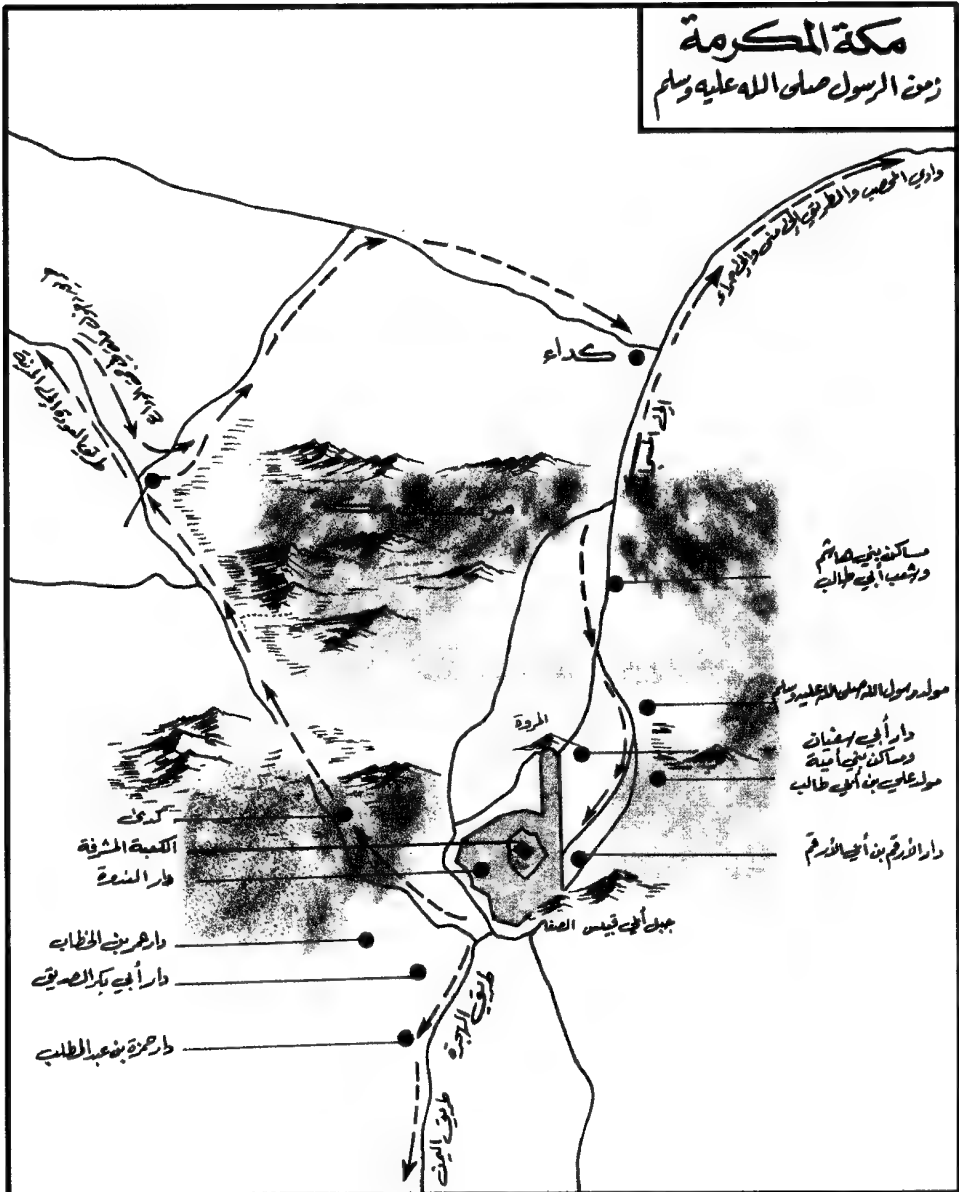
وكان إلى الحارث بن قيس الحكومة والأموال المحجَّرة التي سمَّوها لآلهتهم ، وكانوا يتوارثون هذه المكارم كابراً عن كابرٍ .

النشاط التجاري وحركة التصدير والاستيراد :

وكانت لقريش رحلتان تجاريتان ، إحداهما إلى الشَّام في زمنِ الصيفِ ، والأخرى إلى اليمنِ في زمنِ الشَّتاءِ ، وكانت أشهرُ الحجِّ عندهم أشهراً حرماً ، يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب البيت وداخل حدود الحرم ، والنَّاسُ يهرعون إلى هذه الأسواق ويؤثِّونها من جهات الجزيرة البعيدة ، ليقضوا منها حاجتهم ، ويتزوَّدوا لقومهم ، وقد ذكَّرت أسواق كانت في مكة يُستدلُّ بها على ما وصلوا إليه من مدنيَّة وتطوُّر ، منها سوقُ العطارين ، ومنها سوقُ الفاكهة ، وسوقُ الرطب ، وكان مكاناً للحجَّامين والحلاقين ، وكانت رحبة واسعة كانت تُباع فيها الحنطة ، والسمنُ ، والعسلُ ، والحبوبُ ، يحملها العيرُ من الخارج ، وكانت اليمامة ريفَ مكة^(١) ، وكان زقاقٌ للحذَّائين ، وسوقٌ للبزازين .

(١) لذلك لما منع ثمامة بن أثال - سيد بني حنيفة - حمل الحنطة إلى مكة بعدما أسلم ، جهدت قريش وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام ، ففعل رسول الله ﷺ (زاد المعاد : ج ١ ؛ ص ٣٧٧) [وأخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، في كتاب الجهاد ، باب ربط الأسير . . . برقم (١٧٦٤)] .

مكة المكرمة في زمن الرسول ﷺ



وكانت لأهل مَكَّةَ متنزهاتٌ ينتجعُها المكيُّون في الأصائل ، من شهور القيظ ، وكان المتنعمون فيهم يشنون بمكة ويصطافون بالطائف ، وكان كثير من فتيانهم اشتهروا بالأناقة في الحياة والتجمل في اللباس ، وكانت كسوة بعضهم تُقوَّم بمئات من الدراهم .

وقد نشطت الحركة التجارية في مَكَّةَ ، فكان تجارُها يتجولون في بلاد كثيرة من إفريقية وآسيا ، ويحملون من كلِّ بلدٍ ما يُستطَرَف ويُستطَرَفُ فيها ، وما تشدُّ إليه الحاجة في بلادهم .

فكانوا ينقلون من إفريقية الصمغ ، والعاج ، والتبر ، وخشب البنوس ، ومن اليمن الجلود ، والبخور ، والياب ، ومن العراق التوابل ، ومن حاصلات الهند الذهب ، والقصدير ، والحجارة الكريمة ، والعاج ، وخشب الصندل ، والتوابل ، والزعفران ، ومن مصر الشام الزيت والغلال والأسلحة والحريز والخمور .

وكانوا يُرسلون إلى بعض الملوك والأمراء ما يُستطَرَف من بضائع مَكَّةَ ، وكان من أعجب ما يختار منها الأدم ، وهي الجلود ، كما فعلت قريش حين بعثت إلى النجاشي - ملك الحبشة - عبد الله بن ربيعة وعمر بن العاص بن وائل ، ليستردا من هاجر من المسلمين إلى الحبشة ، فأرسلوا معها من الهدايا ممَّا يُستطَرَف من متاع مَكَّةَ وكان الأدم .

وكانت من النساء تاجرات ، لهنَّ نشاط في إرسال القوافل التجارية إلى الشام وغيرها ، اشتهرت منهن خديجة بنت خويلد ، والحظلية أم أبي جهل ، يُشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ [النساء : ٣٢] .

الحالة الاقتصادية والعملية والمكايل :

وهكذا فاقت مكة في التجارة ، وأثرى كثير من أبنائها ، وتضخمت رؤوس أموالهم ، يدل على ذلك أن عير قريش التجارية التي كانت عائدة من الشام عند غزوة بدر بلغت ألف بعير ، وبلغ المنقول على أبقالهم خمسين ألف دينار .

وكانوا يتعاملون بالعملة الرومانية البيزنطية والعملية الإيرانية الساسانية^(١)

(١) يبدو من الاستقراء الكثير ، وتتبع ما كُتب في الموضوع ، أن العملة في العصر الجاهلي ، وفي صدر الإسلام كانت على نوعين : (١) دراهم ؛ (٢) دنانير . أمّا الدراهم فكانت على نوعين كذلك ، نوع عليه نقش فارس ؛ وتسمى بغلية ؛ وهي سود وافية ، والآخر عليه نقش الروم ، وتسمى غالباً طبرية وبيزنطية : وكانت كلها من الفضة ؛ وكانت مختلفة الأوزان ؛ ولهذا كان أهل مكة في الجاهلية يتعاملون بها وزناً لا عدداً . ويتلخص من أقوال العلماء ، أن الدرهم - وهو الذي اعتبره الشرع خمساً وخمسين حبة من الشعير الوسط في الوزن ، وتزن العشرة من الدراهم سبعة مثاقيل من الذهب ، ووزن المثقال من الذهب الخالص اثنتان وسبعون حبة ، وعلى ذلك حكى ابن خلدون الإجماع . وكانت النقود الفضية هي الشائعة والكثيرة الاستعمال عند العرب في عصر النبوة ، ولهذا قال عطاء : « إنما كان إذ ذاك الورق ، ولم يكن الذهب » (مصنف ابن أبي شيبة : ج ٣ ، ص ٢٢٢) .

أمّا الدنانير فكانت من الذهب ، وكانت في الجاهلية وأول الإسلام - بالشام ، وعند عرب الحجاز - كلها رومية تُضرب ببلاد الروم عليها صورة الملك ، واسم الذي ضربت في أيامه مكتوبة بالرومية ، كما قال ابن عبد البر في التمهيد : وكلمة « الدينار » عربية من Denarius وكانت عملة رومية قديمة ، ولا يزال لها رواج في بعض البلاد الأوربية وقد جاء ذكرها في الإنجيل مراراً ، وكان الدينار يزن مثقالاً ، ووزن المثقال من الذهب الخالص كما قدمنا اثنتان وسبعون حبة من الشعير الوسط ، والمشهور أنه لم يتغير في جاهلية ولا إسلام . وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن الدينار البيزنطي يزن ٤,٥٥ من الغرامات ، وأثبت المستشرق - زمبور - في هذا الكتاب أن المثقال المكي (كذلك) يبلغ وزنه ٤,٥٥ من الجرامات (راجع مادة « دينار » ؛ ج ٩ ص ٣٧٠) .

وكانوا يَسْتَعْمِلُونَ الموازينَ في أسواقِهِم والمَكَايِلَ ، منها الصَّاعُ ، والمُدُّ ، والرَّطْلُ ، والأَوْقِيَّةُ ، والمِنْقَالُ ، وَيَعْرِفُونَ من مفرداتِ أثقالِها أنواعاً كثيرةً ، وعندهم علمٌ بالحسابِ اعتمدَ عليه القرآنُ في ذكرِ السَّهَامِ والفرائضِ .

أثرياء قريش ومُترَفوها :

وكانتْ بيوتٌ وأسَرٌ اشتهرتْ بالثراءِ وسعةٍ في المالِ ، ورقَّةٌ في العيشِ ، يمتازُ فيها بنو أُمَيَّةَ وبنو مخزومٍ .

وكانَ ممَّن اشتهرَ في الثراءِ وجمع الأموالِ واقتنائِها وتنميتها : الوليدُ بنُ المُغيرةِ وعبدُ العزَّى (أبو لهب) ، وأبو أُحَيَّةَ ابنُ سعيدِ بنِ العاصِ بنِ أُمَيَّةَ ،

= والنسبة بين الدرهم والدينار ، هي نسبة ٧ : ١٠ فالدرهم ١٠/٧ من المثقال . وقد نَزَلَه الخليفة عبد الملك ابن مروان في عهده بعد الإصلاحات التي نفَّذها إلى ٤,٢٥ من الغرامات .

أمَّا المعادلة في الثمن ؛ فقد ثبت من كتب السنة ، ومذاهب الفقهاء ، وتقرر تاريخياً ، أن الدينار يصرف في ذلك العصر بعشرة دراهم .

وقد جاء في سنن أبي داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ؛ قال : كانت قيمة الدية على عهد الرسول ﷺ ٨٠٠ دينار أو ٨٠٠٠ درهم ، وبذلك عملت الأمة من الصحابة فمن بعدهم حتى استقر الإجماع على ذلك .

ويدلُّ على ذلك دلالة صريحة ما جاء في الأحاديث المشهورة من التصريح بنصاب الدراهم ، أو بمقدار الواجب فيها ، وما ذهب إليه الجمهور الأكبر من الفقهاء ؛ أن نصاب الذهب عشرون ديناراً ، فثبت من ذلك أن الدينار الواحد في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام كان يساوي في الثمن عشرة دراهم ويعادلها ؛ وقد قال الإمام مالك في الموطأ : « السنة التي لا اختلاف فيها عندنا ، أنَّ الزكاة تجب في عشرين ديناراً عيناً ، كما تجب في مئتي درهم » (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) للآلوسي ، (التراتيب الإدارية) لعبد الحي الكتاني ، (فقه الزكاة) للدكتور يوسف القرضاوي ، (التفسير الماجدي) [للشيخ عبد الدرايبادي ، بالأردوية والإنكليزية] ، وأكثره من (فقه الزكاة) .

وهو الذي أسهم بثلاثين ألف دينار في القافلة التي كان يقودها أبو سفيان ،
وعبد بن أبي ربيعة المخزومي .

واشتهر منهم عبد الله بن جُدعان التيمي الذي كان يشرب في كأس من
الذهب ، وكان يُطعم عدداً كبيراً من المساكين والجياع .

وكان العباس بن عبد المطلب من أثرياء قريش ، ينفق أمواله في الناس ،
ويتعامل بالربا ، حتّى جاء الإسلام ، وأعلن رسول الله ﷺ إلغاء الأموال
الربويّة ، وبدأ ذلك بعمّه العباس بن عبد المطلب ، وأعلن في حجّة الوداع
« وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب » .

وكان منهم مثرفون لهم مجالس سمر ، ولهم أرائك منصوبة وموائد
ممدودة ، ونوادٍ للشراب يلهون فيها ويسكرون .

وكانت عامّة مجالس أشرافهم أمام البيت ، ينشدون فيها الشعر ،
ويحضرها بعض كبار شعراء الجاهلية ، مثل لبيد بن ربيعة صاحب المعلّقة
المشهورة .

وقد ذكّر أن عبد المطلب بن هاشم كان يُوضع له فراش في ظل الكعبة ،
وكان بنوه يجلسون حول فراشه ، حتّى يخرج إليهم ، لا يجلس عليه أحد من
بنيه إجلالاً له .

الصناعات والثقافة والآداب في مكّة :

ولم تكن للصناعات مكانة كبيرة عند أهل مكّة ، بل كان عندهم نوع احتقار
لها ، وتغيّر منها ، ولم يُباشرها في عامّة الأحوال إلّا الموالى وأبناء العجم ،
إلا أنّه قد وجدت بعض صناعات كانوا مضطرين إليها ، ومارسها بعض أبناء
مكّة العرب ، فقد روي أنّ خباب بن الأرت كان قيناً يعمل السيف .

وكانوا يلجؤون في صناعة البناء - وكان لا بد منه - إلى عمال من الرُّوم أو الفرس .

وكان منهم كُتَّابٌ يعرفون الكتابة والقراءة ، وإن كانت الأمية غالبية عليهم ، ولذلك سمَّاهم القرآن بـ « الأُمِّيِّينَ » فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ [الجمعة : ٢] .

وكانت مكة وأهلها مثلاً في الجزيرة العربية في سلامة الذوق والطَّرَفِ والأناقة ، شأن العواصم والمدن الرئيسية في كلِّ قطرٍ ، عريقة في الآداب .

أمَّا لغتهم فكانت هي الميزان ، وهي المرجع ، وعليها الاعتماد في سائر أطراف الجزيرة ، وكانوا أبلغ العرب وأفصحهم وأصحهم تعبيراً ونطقاً ، وأبعدهم عن الهجنة أو الرطانة وتأثير الاختلاط بالعجم .

وكان حظُّهم من تناسُبِ الأعضاء واعتدالِ الخلق ، والخلق ، والهندام وحسن الشارة ، أكثر من أهل النواحي الأخرى ، حتَّى كانوا شامة بين الناس ، يجمعون بين الصفات التي يُسمَّى مجموعها بـ « الفتوة » و « المروءة » ، وتغنى بهما شعراء العرب وخطبائهم ، لذلك كانوا أئمة الناس في الشرِّ والخير .

وكان أكثر عنايتهم بالأنساب وأخبارها ، ثمَّ بالشعر ، ثم بالنجوم ، والأنواء ، والعيافة ، وشيءٌ يسيرٌ من الطبِّ يقوم على التجربة ، والتناقل ، وشيءٌ كثير من حلية الخيل والمعرفة الدقيقة بأعضائها وصفاتها ، والتفرُّس بالرجال والخيل ، وشاعت فيهم طرقٌ للعلاج ، كالكيِّ ، والبتر ، والفصد ، والحجامة ، وتناول الأدوية .

القوة الحربية :

أمَّا قوَّة مكة الحربية ، فكانت قريش تُؤثِّرُ السِّلْمَ والهدوء في عامَّة

الأحوال ، إذا تركت وشأنها ، شأن الشعوب والمجتمعات التي أكبر اعتمادها في الكسب والمعاش على التجارة ، ومسير القوافل ، وتنظيم الأسواق ، وتوجه الرواد من كل صوب إلى بلدها ، والتقاءهم التقاء يفيد إجلالاً دينياً ، وفائدة اقتصادية ، ويدر عليها الأرزاق الكريمة ، وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله : ﴿ فليَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ٣-٤] .

لذلك كانت قريش - ما لم تتحد عقيدتها ولم تثر غيرتها الدينية أو القبلية - تؤمن بمبدأ « التعايش السلمي » ، ولكنها رغم كل ذلك كانت قوة حربية يحسب لها الحساب ، وكانت شجاعتها مضرب المثل ، وكانت مشهورة بالفروسيّة العربيّة ، و « الغضب المضرية » معروفة في جزيرة العرب وآدابها وأمثالها .

ولم تكتف قريش بقوتها الذاتية في الحروب ، ولكنها كانت تستخدم قوة الأحابيش ، وهم بطون من القبائل العربيّة الضاربة حول مكة ، من كنانة وخزيمة بن مدركة ، وخزاعة تحالفوا مع قريش ، وكان لقريش عدد كبير من العبيد والموالي ، الذين كانوا يقاتلون في صفوفها ، فكانت تستطيع أن توجه إلى القتال بضعة آلاف مقاتل ، وقد استطاعت أن تجمع عشرة آلاف مقاتل في غزوة الأحزاب . وهي أكبر قوة حربية عرفها تاريخ الجزيرة العربيّة في العصر الجاهلي .

كبرى مدن الجزيرة وعاصمتها الروحية والاجتماعية :

وبهذا المركز الديني ، والمكانة الاقتصادية ، وقيادة النشاط التجاري ، والتقدم في المدنيّة والآداب ، أصبحت مكة كبرى مدن الجزيرة العربيّة ، وبدأت تنافس صنعاء اليمن في زعامة الجزيرة ، بل إنها تفوقت عليها ، بعدما

حَدَّثَ بِالْيَمَنِ مِنْ اسْتِيلَاءِ الْحَبْشَةِ عَلَيْهَا ، وَتَمَلُّكِ الْفُرسِ لَهَا ، فِي مُتَنَصِفِ الْقَرْنِ السَّادِسِ الْمَسِيحِيِّ ، وَفَقَدَتْ مَمْلَكَةَ الْحِيرَةِ وَمَمْلَكَةَ غَسَّانَ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ مِنَ الْعِظَمَةِ وَالْأَبْهَةِ ، فَأَصْبَحَتْ مَكَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ هِيَ عَاصِمَةُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ الرُّوحِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ مِنْ غَيْرِ مُنَافِسٍ وَلَا مُشَارِكٍ .

الناحية الخَلْقِيَّةُ :

وَكَانَتِ النَّاخِيَةُ الْخَلْقِيَّةُ ضَعِيفَةً - غَيْرَ الْأَعْرَافِ وَالْآدَابِ وَالْقِيَمِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَيَعْضُونَ عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ - فَقَدْ فَشَا فِيهِمُ الْقَمَارُ ، وَالْمَيْسِرُ ، وَافْتَخَرُوا بِهِ ، وَفَشَتْ فِيهِمُ الْخَمْرُ وَانْتَشَرَتِ الْقِيَانُ ، وَمَجَالَسُ اللَّهْوِ ، وَحَفَلَاتُ الْعِزْفِ ، يُقَدَّمُ فِيهَا الشَّرَابُ ، وَفَشَا فِيهِمُ بَعْضُ الْفَوَاحِشِ ، وَقَدْ وَجَدَ الظُّلْمُ وَالْقَسْوَةُ ، وَغَمَطَ النَّاسُ ، وَبَطَرُ الْحَقِّ ، وَأَكْلُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ .

وَلَا تَصَوِيرَ لِلْحَالَةِ الْخَلْقِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَعِيشُهَا أَهْلُ الْجَزِيرَةِ بِصِفَةِ عَامَةٍ وَأَهْلُ مَكَّةَ بِصِفَةِ خَاصَةٍ ، أُبْلَغَ وَأُصْدِقَ مِنْ تَصَوِيرِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الْهَاشِمِيِّ الْقُرَشِيِّ - وَهُوَ ابْنُ مَكَّةَ الْأَصِيلُ - لِلْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ أَمَامَ النَّجَاشِيِّ ، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ :

« أَيُّهَا الْمَلِكُ ! كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنَسِيءُ الْجَوَارَ ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مَنَّا الضَّعِيفَ »^(١) .

(١) راجع « سيرة ابن هشام » : ج ١ ، ص ٣٣٦ ، يُرجع في معرفة المجتمع الجاهلي إلى فصل « المجتمع العربي » من كتاب (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) للدكتور جواد علي : ٢٧١/٤ - ٤١٤ [أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٢/١) و(٢٩٠/٥ - ٢٩٢) ؛ وأبو نعيم في « الحلية » (١١٥/١) ؛ وابن هشام في السيرة : (٣٤٤/١) ؛ والبيهقي في =

الناحية الدينية :

وكانت الناحية الدينية أضعف - بحكم بُعد العهد بالنبوات ، وفشو الجهل ، وانتشار الوثنية ، التي اقتبسوها من الأمم المجاورة فغلوا فيها - من الناحية الأدبية والحضارية ، فأغرقوا في الوثنية ، وأولعوا بالأصنام ، فكان في جوف الكعبة وفنائها ثلاثمائة وستون صنماً .

وكان كبيرها عندهم « هُبْلُ » وكان على بئر في جوف الكعبة ، وهي التي يُجمع فيها ما يُهدى للكعبة ، وكان بالعقيق الأحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك ، فجعلوا له يداً من ذهب .

وكان أمام البيت صنمان « أساف » و « نائلة » ، وموضعهما عند الكعبة ، أحدهما يلصق بالكعبة ، والآخر بموضع زمزم ، فنقلت قريش الذي يلصق بالكعبة إلى الآخر ، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما ، وكان على الصفا صنم ، يُقال له « نهيك مجاود الريح » وعلى المروة صنم ، يقال له « مُطعم الطير » .

وكان في كل دار من مكة صنم يعبدونه .

وكانت « العزى » قريباً من عرفات ، وكان عليها بيت ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يستقسمون عند أصنامهم بالأزلام .

وكانت « ذو الخلصة » بأسفل مكة ، وكانوا يلبسونها القلائد ، ويهدون إليها الشعير والحنطة ، ويصبون عليها اللبن ، ويذبحون لها ، ويعلقون بيض

= « الدلائل » (٢ / ٣٠١ - ٣٠٤) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٢٤ - ٢٧) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، غير ابن إسحاق ، وقد صرح بالسماع .

النعام بها ، وكانت الأصنام يُطافُ بها في مكة ، فيشتريها أهلُ البادية ويخرجون بها إلى بيوتهم .

وكذا وصلوا - رغم ما طبعوا عليه من الفتوة وخلال المروءة وكثير من الأخلاق العربية الكريمة - إلى درجة سخيّة راعنة من الوثنية وعبادة الأصنام والتمسك بالخرافات والأوهام ، وجهل المفاهيم الدينية الصحيحة ، والبعد عن الإبراهيمية الحنيفيّة السّمحة ، درجة لم يصل إليها إلا النادر من الشعوب والأمم^(١) .

هذه مكة في منتصف القرن السادس المسيحيّ عند بعثة الرسول الأعظم ﷺ وطلوع شمس الإسلام من أفقها المظلم ، وصدق الله العظيم :

﴿ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَذَرَاءَ أَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾^(٢) [يس : ٦]

(١) يُزَجَّع في معرفة أديان العرب وعقائدهم إلى فصل « أديان العرب » من كتاب (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) : ٥ / ٦ - ٤٤٩ .

(٢) اعتمدنا في كتابة هذا الفصل على إشاراتٍ عابرة في كُتب التفسير والحديث ، ومعلومات مبثّرة جاءت في كتاب « الأصنام » للكلبي (ت ١٤٦هـ) و« السيرة النبوية » لابن هشام (ت ٢١٣هـ) ؛ و« أخبار مكة » للإمام أبي الوليد محمد الأزرقى (ت ٢٢٣هـ) ، و« بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » للسيد محمود شكري الألوسي (ت ١٣٤٢هـ) واستفدنا من كتاب « تاريخ مكة » للأستاذ أحمد السباعي ، وكتاب « مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول » للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف .

الفصل الثاني

مِنَ الْوِلَادَةِ الْكَرِيمَةِ إِلَى الْبُعْثِ الْعَظِيمَةِ

- شجرة النبي ﷺ
- ولادته ونسبه الشريف
- رضاعته ، وحادثة شق الصدر
- وفاة أمّه وجدّه ، وكفالة عمّه
- قصة الراهب بحيرى وتفنيدها
- زواجه من خديجة بنت خويلد
- قصة بناء الكعبة ودرء الفتنة
- حلف الفضول

شجرة النسب^(١)

آباؤه الكرام	أُمّهاته العظام	عمومة الأمّهات	خؤولة الأمّهات
١ - عبد الله	آمنة	وَهَب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب (انظر مسلسل ٦ آباء النبي ﷺ)	برة بنت عبد العزى بن عبد الدار ابن قصي (انظر مسلسل ٥ آباء النبي ﷺ).
٢ - عبد المطلّب	فاطمة	عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرّة (انظر مسلسل ٧ آباء النبي ﷺ)	صخرة ^(٢) بنت عبد بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرّة (انظر مسلسل ٧ آباء النبي ﷺ).
٣ - هاشم	سلمى	عمرو بن زيد بن ليث بن خدا بخش بن عامر بن غنم بن عدي ابن النجار (تيم الله) بن ثعلبة الخزرجي.	عميرة ^(٣) بنت صخر بن خبيب ابن الحارث بن ثعلبة بن مازن ابن النجار ساكن المدينة .
٤ - عبد مناف	عاتكة	مرّة بن هلال بن فالح بن زكوّان ابن ثعلبة بن بهنة بن سليم بن مضر (انظر رقم ١٨ من آباء النبي ﷺ)	ماوية ^(٤) (صفية) بنت حوزة بن عمرو بن صعصعة بن معاوية ابن بكر بن هوازن. (رقم ١٧ من آباء النبي ﷺ).
٥ - قُصَيّ	حُبَيّ	خليل بن جثية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة (وهو الخزاعي).	هند ^(٥) بنت عامر بن النضر بن عمرو بن عامر (الخزاعي).

(١) من إضافات المحقّق إلى الكتاب .

(٢) أمّ صخرة هي تخمر بنت عبد بن قُصَيّ ، وجدّتها هي سلمى بنت عامرة بنت عميرة بنت
وديعة بنت الحارث بن فهر ، وجدّة جدّتها هي عاتكة بنت عبد الله بن وامكة بن ظُرب .

(٣) أمّ عميرة هي سلمى بنت عبد الأشهل والجدّة هي أثيلة بنت رعوّرا .

(٤) أمّ ماوية هي رتاش بنت الأسحم وجدّتها هي كبشة بنت الرافقي .

(٥) أمّ هند هي ليلي بنت مازن (من خزامة) .

آباؤه الكرام	أُمّهاته العظام	عمومة الأمّهات	خُزُولَةُ الأمّهات
٦ - كِلَاب	فاطمة	سعد بن سيل (حير) بن نوف بن عامر الحاق، وكان أول من بنى جدار الكعبة فقبل أربع عماماً، أزدشنوءة.	ظريفية ^(١) بنت قيس بن أمية ذي الرأسين بن جيثم بن كنانة بن عمرو بن القين بن فهم بن عمرو ابن قيس بن عيلان بن إلياس (انظر مسلسل ١٧ آباء النبي ﷺ).
٧ - مُرّة	هند	سرير بن ثعلبة بن الحارث بن مالك (مسلسل رقم ١٢ آباء النبي ﷺ)	أمامة ^(٢) بنت عبد مناة بن كنانة (انظر مسلسل ١٤ من آباء النبي ﷺ)
٨ - كعب	محشية	شيبان بن محارب بن فهر (انظر مسلسل ١١ آباء النبي ﷺ)	وحشية ^(٣) بنت وائل بن قاسط ابن هنسب بن أقصى بن صعمي ابن جديلة.
٩ - لُؤَيّ	ماوية	كعب بن القين (هو النعمان) ابن حير بن شيع الله بن أسد ابن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة.	عاتكة بنت كاهل بن عذرة
١٠ - غالب	عاتكة	يخلد بن النضر بن كنانة (انظر مسلسل ١٤ آباء النبي ﷺ)	أنيسة ^(٤) بنت شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر ابن وائل.
١١ - فهر الملقّب بقُرَيْش	ليلي	حارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة (انظر مسلسل ١٦ آباء النبي ﷺ).	سلمى ^(٥) بنت طانجة بن إلياس (انظر مسلسل ١٧ آباء النبي ﷺ)
١٢ - مَالِك	جدلة	عامر بن الحارث بن مضاض بن زيد بن مالك الجرهمي	هند بنت الطليم بن مالك بن الحارث الجرهمي.

- (١) أمّ ظريفية هي صحرة بنت عامر .
(٢) أمّ أمامة هي هند بنت دودان بن الأسد خزيمة .
(٣) أمّ وحشية هي ماوية بنت صبيعة بن ربيعة بن نزار .
(٤) أمّ أنيسة هي تماضر بنت الحارث وجدّتها هي رهم بنت كامل .
(٥) أمّ سلمى هي عاتكة بنت الأسد وجدّتها هي زينب بنت ربيعة .

أبائهم الكرام	أُمّهاتهم العظام	عمومة الأُمّهات	خُزولة الأُمّهات
١٣ - نَضْر	عِكرشة	عدنان (الحارث) بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر (انظر مسلسل ١٨ آباء النبي ﷺ).	—
١٤ - كنانة	برّة	مُر بن أد بن طانجة (أخت تميم ابن مر) [وطانجة أخو مدركة] .	
١٥ - خُزَيْمَة	عوانة - هند	سعد بن قيس بن عيلان بن إلياس (مسلسل ١٧ آباء النبي ﷺ)	وعد بنت إلياس (انظر مسلسل ١٧ آباء النبي ﷺ)
١٦ - مدركة	سلمى	الحاف بن قضاة	—
١٧ - إلياس	ليلى (خندف)	حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة	ضرية بنت ربيعة بن نزار (مسلسل ١٩ آباء النبي ﷺ).
١٨ - مُضَر	رباب	حيدة بن مُعد (مسلسل ٢٠ آباء النبي ﷺ)	
١٩ - نزار	سودة	عك بن الريث بن عدنان	مسلسل ٢١ آباء النبي ﷺ
٢٠ - مُعد	معانة	جوشم بن جلهمة بن عمر بن برة بن جُزهم	سلمى بنت الحارث بن مالك بن غنم (من جُزهم)
٢١ - عدنان	مهدد	لهم بن جلعب بن جديس بن جاثم بن أثرم (إرم).	

مِنَ الْوِلَادَةِ الْكَرِيمَةِ إِلَى الْبَعْثِ الْعَظِيمَةِ

عبد الله وآمنة :

كَانَ لِعَبْدِ الْمُطَّلَبِ - سَيِّدِ قُرَيْشٍ - عَشْرَةُ أَبْنَاءٍ ، كَانُوا شَامَةً بَيْنَ النَّاسِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ وَاسْطَةُ الْعَقْدِ^(١) ، وَزَوْجَهُ أَبُوهُ « آمنة » بِنْتُ وَهَبٍ - سَيِّدِ بَنِي زُهْرَةَ - وَهِيَ يَوْمُئِذٍ أَفْضَلُ امْرَأَةٍ فِي قُرَيْشٍ نَسَباً وَمَوْضِعاً^(٢) .

وَلَمْ يَلْبَثْ عَبْدُ اللَّهِ أَنْ مَاتَ ، وَأُمُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَامِلٌ بِهِ ، وَقَدْ رَأَتْ مِنْ الْآثَارِ وَالْآيَاتِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَابْنَهَا شَأناً^(٣) .

ولادته الكريمة ونسبه الزكي :

وَوُلِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ الْيَوْمَ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ ، عَامَ الْفِيلِ (٥٧٠ الْمَسِيحِي)^(٤) فَكَانَ أَسْعَدَ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ .

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ١٠٨ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ١١٠ .

(٣) المصدر السابق : ج ١ ، ص ١٥٨ .

(٤) هذه هي الرواية المشهورة :

وقد حقق العالم الفلكي الكبير محمود باشا المصري أن ولادته ﷺ كانت يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل ، ٢٠ أبريل « نيسان » سنة ٥٧١ م . وجاء في بعض الروايات أنها كانت في ٥٦٩ هـ .

وذكر القاضي محمد سليمان المنصور فوري في كتابه : « رحمة للعالمين » أن الولادة الكريمة كانت في التاسع من ربيع الأول . عام الفيل . الموافق للثاني والعشرين (٢٢) من =

وهو مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ قُصَيٍّ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ بْنِ فَهْرٍ بْنِ مَالِكٍ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِيَّاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نَزَارٍ بْنِ مَعَدٍّ بْنِ عَدْنَانَ .

وينتهي نسبُ عدنانَ إلى سَيِّدِنَا إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ^(١) .

فَلَمَّا وَضَعَتْهُ أُمُّهُ ﷺ أَرْسَلَتْ إِلَى جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ قَدْ وُلِدَ لَكَ غُلَامٌ فَأَتَاهُ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ ، وَحَمَلَهُ ، وَدَخَلَ بِهِ الْكَعْبَةَ ، قَامَ يَدْعُو اللَّهَ^(٢) ، وَيَحْمَدُهُ وَسَمَّاهُ « مُحَمَّدًا » وَكَانَ هَذَا الْاسْمُ غَرِيبًا ، فَتَعَجَّبَ مِنْهُ الْعَرَبُ^(٣) .

إِمَارَاتُ خَارِقَةٍ لِلْعَادَةِ لَوْلَادَةِ عَالَمٍ جَدِيدٍ ، وَبَعَثٌ لِلْإِنْسَانِيَةِ جَدِيدٍ :

وَقَدْ رَوَى عَدَدٌ مِنْ كِبَارِ الْمُؤَلِّفِينَ فِي السِّيَرَةِ وَأَصْحَابِ الْإِخْتِصَاصِ فِي الْحَدِيثِ . مَا ظَهَرَ عَلَى الْوَلَادَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ أِمَارَاتٍ خَارِقَةٍ لِلْعَادَةِ ، خَارِجَةٍ مِنَ التَّأَثِيرِ الْبَشَرِيِّ ، لَافِتَةٍ إِلَى اسْتِنْفَافِ الْعَالَمِ وَالْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ دَوْرًا جَدِيدًا فِي الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ ، وَمَسِيرَةِ الرِّكْبِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَمَصِيرِهِ ، وَهِيَ

= أبريل سنة ٥٧١ م .

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ١-٢ ، وجميعُ كُتُبِ السِّيَرَةِ وَالتَّارِيخِ وَالأَنْسَابِ ، وَاقْتَصَرْنَا عَلَى سِيَاقِ نَسَبِهِ ﷺ إِلَى عَدْنَانَ فَإِنَّهُ لَا خِلَافَ فِي ذَلِكَ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٣) سيرة ابن كثير : ج ١ ، ص ٢١٠ ، وابن هشام : ج ١ ، ص ١٥٨ .

يَسْتَفَادُ مِنْ « الرُّوْضِ الْأَنْفِ » لِلشُّهْلِيِّ وَ « الْفُصُولِ » لِابْنِ فُورْكَ ، أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ فِي الْعَرَبِ مِنْ تَسْمَى بِهَذَا الْاسْمِ الشَّرِيفِ قَبْلَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - إِلَّا ثَلَاثَةً ، طَمَعَ آبَاؤُهُمْ حِينَ سَمِعُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ذِكْرَ نَبِيِّ يَبِيعُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ يُسَمَّى بِمُحَمَّدٍ ؛ وَعَرَفُوا قَرِبَ زَمَانِهِ ؛ وَكَانَتْ أَزْوَاجُهُمْ حَامِلَاتٍ ؛ فَتَذَرُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ إِذَا وَلَدَتْ لَهُ ذَكَرًا أَنْ يُسَمِّيَهُ « مُحَمَّدًا » فَفَعَلُوا ذَلِكَ ، وَقَدْ ذَكَرَ عَدَدٌ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا ، وَعِنْدِي أَنَّ الْقَضِيَّةَ تَحْتَاجُ إِلَى تَحْقِيقٍ أَكْثَرَ ، فَقَدْ اسْتَغْرَبَ هَذِهِ التَّسْمِيَةَ كُلُّ مَنْ سَمِعَهَا مِنْ قُرَيْشٍ ؛ وَالرِّوَايَةُ تَحْتَاجُ إِلَى نَقْدٍ عِلْمِيِّ .

حوادثُ خارقةٌ للعادة، مسترعيةٌ للانتباه - ممن رُزقَ قوةُ الاستنتاج والاعتبار - .
 منها ارتجاسُ إيوانِ كسرى ، وسقوطُ أربعِ عشرةَ شرفةً من شرفاته ،
 وغاضتُ بحيرةُ ساوا ، وخمدتُ نيرانُ فارسٍ ، التي كانوا يعبدونها ولم تخمدُ
 منذُ ألفِ عامٍ^(١) .

رضاعته ﷺ :

أَرْضَعَتْهُ ثَوِيَّةٌ جَارِيَةٌ عَمَّهُ أَبِي لَهَبٍ بَضْعَةَ أَيَّامٍ^(٢) ، ثُمَّ التَّمَسَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ

(١) رواه البيهقي « في دلائل النبوة » (ج/١ ، ص/١٢٦ - ١٢٠) وابن جرير ، وابن عساكر
 كلهم من حديث مخزوم بن هاني عن أبيه . وذكره أكثر أصحاب السير ، ورواه الحافظ
 المؤرخ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، وذكره الحافظ ابن حجر في فتح
 الباري بتوسّع في الرواية ، وما كان له من ردّ فعل على كسرى إمبراطور إيران ، وما دار
 حوله من حديث انطباعات في مجلسه ، وأورده الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت
 ٧٤٧هـ) في كتابه : « السيرة النبوية » (ج/١ ، ص ٢١٥ ، والعلامة علي بن برهان الدين
 الحلبي (ت ١٠٤٤هـ) في كتابه : « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » الشهير
 بالسيرة الحلبيّة ، (الجزء الأول) .

وقد قرّر ذلك وحكم بصحة الروايات العلامة محمد أبو زهرة في كتابه : « خاتم النبیین ﷺ »
 (ج ١ ، ص ١٥٠) .

وقد ذكر هذه الروايات المؤرخ الإنجليزي (T.P.Hughes) في كتاب (Dictionary of
 Islam) : نقلاً من المصادر الإسلامية ، من غير تعليق عليها أو تشكيك فيها (طبع لندن :
 ص/٢٦٨) .

وفي الحقيقة أنّ ما ذكر من بدء أمارات تنبئ باستئناف العالم لدور جديد ، وخضوع مظاهر
 العظمة والشوكة المصطنعة ، لفجر من الهداية والسعادة والحق ، قد بدت طلائعُه على
 العالم المتمدّن المعمور ، إشارة لطيفة للمتبصرين ، وإلا فقد كانت الولادة الكريمة - التي
 تليها البعثة المحمدية - أعظم وأضخم ، وأوسع وأعمق ، من أن تدلّ عليه هذه الإشارات
 الحسية وتنبيء باستئناف العالم والبشرية لدور جديد من البعثة الإنسانية ، عقائدياً وعملياً ،
 وأخلاقاً ، وجهوداً ، وهداية وتوجيهاً ، لا تسعها ولا تؤدّي حقها هذه الأمارات المشاهدة
 الإقليمية المحدودة : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الفتح ، الآية ٧] .

(٢) [أخرج البخاري حديث إرضاع ثويبة للنبي ﷺ في كتاب النكاح ، باب ﴿ وَأَمْتُهُنَّكُمْ =

لحفيدته اليتيم ، الذي كان أحبَّ أولاده إليه ، مرضعاً من البادية ، على عادة العرب ، وكان العرب يُؤثرون البادية لرعاية الأطفال ونشأتهم الأولى ، لما في هواء البادية من الصفاء ، وفي أخلاق البادية من السلامة والاعتدال ، والبُعد عن مفاسد المدنية ، ولأنَّ لغة البادية سليمة أصيلة .

وجاءت المراضع من قبيلة بني سَعْدٍ ، وكانت لها شهرة في المراضع وفي الفصاحة ، وأدركت حليمة السعدية^(١) هذه السعادة ، وكانت خرجت من بلدها تلتمس الرضعاء ، وكان العامَ عامَ جذبٍ ، وهم في ضيقٍ وشدةٍ ، وعرضَ رسولُ الله ﷺ على جميع المراضع فزهدنَ فيه ، وذلك لأنهنَّ كنَّ يرجون المعروفَ من أبي الصبي ، فقلنَّ : يتيمٌ ! وما عسى أن تصنعَ أمُّهُ وجَدُّهُ !؟

وهكذا فعلت حليمة ، فانصرفت عنه أوَّلَ مرةٍ ، ثمَّ انعطفت قلبها عليه ، وألهمها الله حُبَّهُ ، وأخذهُ ، ولم تكنْ وجدتْ غيره ، فرجعتْ إليه ، فأخذته ، وذهبتْ به إلى رحلها ، ولمست البركةَ بيدها ، فكانَ لكلِّ شيءٍ في رحلها شأنٌ غيرُ الشأنِ ، ورأت البركةَ في اللبانِ والألبانِ ، والشارفِ والأتانِ ، وكلُّ يقولُ : لقد أخذتِ يا حليمةُ! نسمةً مباركةً ، وحسدتُها صواحبُها^(٢) .

= أَلَنِّي أَرْضَعَنَكُمُ ﴿ [الفتح : ٢٣] برقم (٥١٠١) ، ومسلم في كتاب النكاح ، باب تحريم الربيبة وأخت المرأة ، برقم (١٤٤٩) ، وأبو داود في كتاب النكاح ، باب : يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب ، برقم (٢٠٥٦) كلُّهم من حديث أم حبيبة رضي الله عنها .
(١) السعدية : نسبة إلى سعد بن بكر بن هوازن ، وهي بنت أبي ذؤيب ، وزوجها الحارث بن عبد العزى .

(٢) [أخرج الطبراني في الكبير قصة إرضاع حليمة السعدية للنبي ﷺ (٢٤/٢١٢ - ٢١٥) ، والبيهقي في « الدلائل » (١/١٣٣ - ١٣٦) ، وقال الهيثمي في المجمع (٨/٢٢١) : رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه إلا أنه قال : حليمة بنت أبي ذؤيب ، ورجالها ثقات] .

ولم تزل تتعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتان في بني سعد ، وفصلته ، وكان يشبُّ شاباً لا يشبه الغلمان ، وقدمت به ﷺ على أمه ، وطلبت أن تتركه عندها بعض الوقت ، فردته إليها^(١) .

وجاء ملكان وهو في بني سعد ، فشقا بطنه ، واستخرجا من قلبه علقة سوداء ، فطرحاها ثم غسلا قلبه ، حتى أنقياه ورداه كما كان^(٢) .

ورعى رسول الله ﷺ الغنم مع إخوته من الرضاعة ، ونشأ على البساطة والفطرة ، وحياة البادية السامية ، واللغة الفصيحة التي اشتهر بها بنو سعد بن بكر ، وكان يقول لأصحابه فيما بعد : « أنا أعربكم ، أنا قرشي ، واسترضعت في بني سعد بن بكر »^(٣) .

وفاة عبد الله وآمنة وعبد المطلب وكفالة أبي طالب :

وقد تحقق أن أبا رسول الله ﷺ عبد الله بن عبد المطلب توفي قبل ولادته ﷺ ، وكان قافلاً من الشام ، فمرض في الطريق ، ووصل إلى يثرب - مدينة أخواله بني عدي بن النجار - ومات هناك في شبابه .

(١) اقرأ حكاية حليلة للرضاعة الطويلة البليغة الحبيبة في سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ١٦٢ - ١٦٦ ، وقد روي اختلاف في إسلام مُرضعة الرسول ﷺ حليلة السعدية ، وقد رجح السيوطي والحافظ مغلطائي بن قليج إسلامها .

(٢) راجع القصة في كتب السيرة وقد رواها مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك في كتاب الإيمان ، باب «الإسراء برسول الله ﷺ» [برقم (٢٦١) ، وأحمد في المسند : ١٢١/٣] . قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي (م ١١٧٦هـ) في كتابه الفريد « حجة الله البالغة » : « وظهرت الملائكة ، فشقت عن قلبه ؛ فملائته إيماناً وحكمة ، وذلك بين عالم المثال والشهادة فلذلك لم يكن الشق عن القلب إهلاكاً ، وقد بقي منه أثر المخيط ؛ وكذلك كل ما اختلط فيه عالم المثال والشهادة » (حجة الله البالغة : ج ٢ ص ٢٠٥) .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ١٦٧ .

واختُلفَ في عُمرِهِ حينذاك ، وقد روى الواقديُّ أَنَّهُ كَانَ فِي الْخَامِسَةِ وَالْعَشْرِينَ (٢٥) مِنْ عُمرِهِ^(١) وقد رُوِيَ أَقْلُ مِنْ ذَلِكَ^(٢) .

وَلَمَّا بَلَغَ ﷺ سِتَّ سِنِينَ ، خَرَجَتْ بِهِ أُمُّهُ إِلَى مَدِينَةِ يَثْرِبَ ، تُزِيرُهُ خَوْوَلَةَ جَدِّهِ فِيهَا ، وَتَزُورُ قَبْرَ بَعْطِلِهَا الْحَبِيبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ^(٣) ، وَفِي عَوْدَتِهَا إِلَى مَكَّةَ أَدْرَكَهَا الْمَوْتُ بِمَكَانٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، اسْمُهُ « الْأَبْوَاءُ » ، وَاجْتَمَعَتْ لَهُ وَحْشَةُ فِرَاقِ الْأُمِّ الْحَنُونِ وَوَحْشَةُ الْغُرْبَةِ ، وَذَلِكَ الشَّأْنُ مَعَهُ مِنْ يَوْمٍ وُلِدَ ، وَفِيهَا مِنْ أَسْرَارِ التَّربِيَةِ الْإِلَهِيَّةِ مَا لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ .

وَعَادَتْ بِهِ أُمُّ أَيْمَنَ بَرَكَةُ الْحَبْشِيَّةُ إِلَى مَكَّةَ ، وَسَلَّمَتْهُ إِلَى جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَكَانَ مَعَ جَدِّهِ ، وَكَانَ بِهِ حَفِيًّا ، يُجْلِسُهُ عَلَى فِرَاشِهِ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَيَلَاظِفُهُ .

فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَمَانِي سِنِينَ ، مَاتَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ^(٤) ، فَذَاقَ مَرَارَةَ الْيَتَمِ مَرَّةً ثَانِيَةً كَانَتْ أَشَدَّ مِنَ الْأُولَى ، فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَرَ أَبَاهُ ، وَلَمْ يَنْعَمْ بِعَظْفِهِ وَحَنَوِّهِ ، فَكَانَ الشُّعُورُ بِفَقْدِهِ شُعُورًا عَقْلِيًّا تَقْلِيدِيًّا ، وَكَانَ الشُّعُورُ بِفَقْدِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ شُعُورًا حَسِيًّا تَجْرِبِيًّا ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَاضِحٌ .

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ، وَهُوَ أَخُو عَبْدِ اللَّهِ مِنْ أَبِي وَأُمِّ ، وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ يَوْصِيهِ بِهِ فَكَانَ إِلَيْهِ وَمَعَهُ ، وَكَانَ أَرْفَقَ

(١) طبقات ابن سعد ؛ « والوفاء » لابن الجوزي .

(٢) وقد رجح ابن سعد في الطبقات بعد ذكر روايات مختلفة وفاة عبد الله قبل ولادة الرسول ﷺ . وفي بعض كتب السيرة أن وفاته كانت بعد ولادة الرسول ﷺ على اختلاف في المدة . (البلاذري . وأنساب الأشراف للطبري) .

(٣) وكان النبي ﷺ يذكر أموراً في زيارته تلك ، نظر إلى دار بني النجار بعد الهجرة ، فقال : هنا نزلت بي أُمِّي ؛ وأحسنْتُ العومَ في بئر بني عدي بن النجار (شرح المواهب اللدنية ج ١ ، ص ١٦٧ - ١٦٨) .

(٤) سيرة ابن هشام : ق ١ ؛ ص ١٦٨ - ١٦٩ .

به وأكثرَ حذباً عليه من أبنائه : عليّ ، وجعفر ، وعقيل^(١) .

قصة الراهب بحيرى :

يقال : إنّ أبا طالب خرج في ركبٍ تاجراً إلى الشام ، وكان رسولُ الله ﷺ إذ ذاك ابن تسع سنين^(٢) فتعلّق بعمّه ، فرقّ له ، واستصحبهُ في هذه الرحلة ، فلمّا نزل الركبُ « بَصْرَى » من أرضِ الشام وبها راهبٌ يُقالُ له « بحيرى » في صومعةٍ له ، اهتمّ بهم ، وصنعَ لَهُم طعاماً ، ولم يكنْ هذا من شأنِهِ ، لمّا رأى صنعَ الله بِهِ والخوارقَ من العاداتِ ، فلمّا رأى رسولَ الله ﷺ احتفى بِهِ وتأكّدَ من آثارِ النبوةِ فِيهِ ، ونبّهَ أبا طالبٍ على علوّ مكانتهِ ، وقالَ : ارجعْ بابنِ أخيكَ إلى بلدِهِ ، واحذرْ عليه اليهودَ ، فإنّه كائنٌ لابنِ أخيكَ هذا شأنٌ عظيمٌ ، فرجعَ بِهِ أبو طالبٍ إلى مكّةَ سالماً .

وقد جاءتْ هذه القصةُ مطوّلةً في سيرةِ ابنِ هشامٍ وغيرِها^(٣) وتكلّمَ في صحتها كثيرٌ من النقادِ والمحدّثين روايةً ودرايةً ، قد جاءَ في « سيرةِ النبي » للعلامةِ شبلي النُّعمانيّ أنّ جميعَ رواياتِ هذه القصةِ مُرسّلةٌ^(٤) ، فإنّ كلّ من

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ١٧٩ .

(٢) على الأصح .

(٣) [أخرجه الترمذي في أبواب المناقب ، باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ برقم (٣٦٢٠) وقال : حسن غريب ، وابنُ أبي شيبة في مصنّفه برقم (١٨٣٩٠) ، وأبو نُعيم في « الدلائل » (٥١ - ٥٤) ، والطبري في تاريخه : (٢٧٧/٢ - ٢٧٩) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٣٠٧/١ - ٣١٢) ، والحاكم في « المستدرک » (٦١٥/٢) وقال : صحيحٌ على شرط الشيخين ، ولم يخّرجه ، وقال الذهبي : أظنّه موضوعاً بعضُهُ باطلٌ ، ونقد ابنُ كثير لهذا الحديث في « السيرة النبوية » له (٢٤٣/١) وقد تكلّم عليه الذهبيّ في « السيرة النبوية » له (ص : ٢٨) وقال : حديثٌ منكرٌ جداً .

(٤) لا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّ مراسيل الصحابة - رضي الله عنهم - حجةٌ عند أكثر المحدّثين والفقهاء [والمرسلُ في اصطلاح المحدّثين : هو ما سقط من آخر إسناده من بُعدِ التابعي ، =

رَوَى هَذِهِ الْقِصَّةَ مِنَ الصَّحَابَةِ ، إِنَّمَا سَمِعَهَا مِنْ غَيْرِهِ وَلَمْ يَسْمَعْهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَقَدْ قَالَ التِّرْمِذِيُّ بَعْدَمَا رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ : « حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ » وَمِنْ رَوَاتِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَزْوَانَ ، وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ أَكْثَرُ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ ، فَقَالَ الْعَلَامَةُ الذَّهَبِيُّ : كَانَ يَرَوِي الْأَحَادِيثَ الْمُنْكَرَةَ ، وَأَشَدُّهَا نَكَارَةً الرَّوَايَةُ الَّتِي جَاءَ فِيهَا قِصَّةُ « بَحِيرَى » .

وَمِمَّا يُقَدِّحُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِيهِ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ أَرْسَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ بِلَالٍ ، قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيْمِ فِي « زَادِ الْمَعَادِ » (١/١٨) : « وَوَقَعَ فِي كِتَابِ التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُ بِلَالًا ، وَأَنَّهُ مِنَ الْغُلَطِ الْوَاضِحِ ، فَإِنَّ بِلَالَ إِنْ ذَاكَ لَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ مُوجُودًا ، وَإِنْ كَانَ فَلَمْ يَكُنْ مَعَ عَمِّهِ وَلَا مَعَ أَبِي بَكْرٍ » (انتهى كلام العلامة النعماني) (١) .

وَنَخْتِمُ هَذَا النِّقْدَ بِمَا قَالَهُ الذَّهَبِيُّ فِي قِصَّةِ « بَحِيرَى » :

« وَهُوَ حَدِيثٌ مُنْكَرٌ جَدًّا ، وَأَيْنَ كَانَ أَبُو بَكْرٍ ، كَانَ ابْنُ عَشْرٍ سَنِينَ ، فَإِنَّه أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسِتِّينَ وَنِصْفٍ ، وَأَيْنَ كَانَ بِلَالٌ فِي هَذَا الْوَقْتِ ؟ فَإِنْ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَشْتَرِهِ إِلَّا بَعْدَ الْمُبْعَثِ وَلَمْ يَكُنْ وُلْدَ بَعْدُ ، وَأَيْضًا فَإِذَا كَانَ عَلَيْهِ

= وصورته أن يقول التابعي - سواء كان صغيراً أو كبيراً - : قال رسول الله ﷺ كذا ، أو فعل كذا ، أو فعل بحضرته كذا ، وهذه صورة المرسل عند المحذّثين ، وقد اختلف العلماء في الاحتجاج به اختلافاً كثيراً ، من أراد التوسّع فيه فليرجع إلى كتاب « منهج النقد في علوم الحديث » لأستاذنا الدكتور نور الدين عتر ، ص : ٣٧١ - ٣٧٢ ، طبع دار الفكر بدمشق [.

(١) قال ابن سيد الناس المؤلف المشهور في السيرة ، بعدما عدّل رواية هذا الحديث « ومع ذلك ففي متنه نكارة وهي إرسال أبي بكر مع النبي ﷺ ببلاّ ، كيف وأبو بكر حينئذ لم يبلغ العشر سنين ، فإن النبي ﷺ أسنّ من أبي بكر ما يزيد من عامين ، وكانت للنبي ﷺ تسعة أعوام على ما قاله أبو جعفر محمد بن جرير الطبري وغيره وأيضاً فإن ببلاّ لم يتقل لأبي بكر إلا بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاماً إلخ (عيون الأثر : ج ١ ، ص ٤٣) » .

غمامةٌ تظللُّه كيف يُتصوَّرُ أن يميلَ فيءُ الشجرةِ ؟ لأنَّ ظِلَّ الغمامةِ يَعدِمُ فيءَ الشجرةِ التي نزلَ تحتَها ، ولم نَرَ النبيَّ ﷺ ذَكَرَ أبا طالبٍ قطَّ بقولِ الراهبِ ، ولا تذاكرته قريشٌ ، ولا حَكَتْهُ أولئك الأشياخُ مع توفُّرِ هَمَمِهِم ودواعيهم على حكايةٍ مثل ذلك^(١) .

مثال غريبٌ من التعصُّبِ الدينيِّ

والإمعانِ في الافتراضِ والتخمينِ :

وانتهزَ المُستشرقونَ والمغرضونَ هذه الفرصةَ - وهي لقاءُ رسولِ الله ﷺ بحبرٍ من أحبارِ النصرانيِّ ، شخصيتهُ ومكانتهُ في العالمِ مجهولتان - فصنعوا من الحَبَّةِ قَبَّةً ، وأسسُوا عليها بناءً شامخاً ، من تلقى رسولَ الله ﷺ لتعاليمِ التوحيدِ النقيةِ من عالمِ نصرانيٍّ .

وأغربُ من هذا أنَّ (Carra De vauz) الفرنسيَ أَلَفَ كتاباً مستقلاً في هذا الموضوعِ ، أسماه « مؤلفُ القرآن » حاولَ أن يُثبِتَ فيه أنَّ « بحيرى » لَقَنَّ محمداً ﷺ القرآنَ كُلَّهُ ، في هذا اللقاءِ القصيرِ .

هذا - إن صَحَّتِ الروايةُ - لا يقوله عاقلٌ رَزَقَ من سلامةِ العقلِ والإنصافِ ذرَّةً ، فكيف يُعَقِّلُ أنَّ غلاماً لا يجاوزُ عمرُهُ تسعَ سنواتٍ - على الأصحِّ - واثني عشرَ عاماً - على الأكثرِ - تلقَّى من شيخٍ لا يعرفُ لغتَهُ ، ولم يجلسْ إليه إلا ما يستغرقُهُ وقتُ الجلوسِ على مائدةٍ ، المسائلُ الدقيقةُ والتفاصيلُ العميقةُ في نقدِ عقيدةِ الشركِ والمسيحيةِ الممسوخةِ في القرنِ السادسِ المسيحيِّ ، التي لم يَهْتَدِ إليها كبارُ النقادِ ، والمُصلِحينَ في المذهبِ البروتستانتيِّ وكبارُ

(١) السيرة النبوية : للذهبي (طبع دار الكتب العلمية ص ٢٨ - ٢٩) . وهي مستقاة من كتاب « تاريخ الإسلام » للحافظ الذهبي .

المُصلِحين في العالم المسيحيّ ، والتميّز الدقيق بين عقائد الفرق المسيحية وأقوالها ، وتعرض القرآن لحوادث لم تحدث إلا بعد ثلاثين وأربعين سنة ، حين أصبحت عظام (بحيرى) نخرة^(١) ، كاندحار الرُّوم أمام الفُرس في الأعوام الأولى من القرن السابع المسيحيّ (٦٠٣ - ٦١٦) إلى آخر نقطة من تراجع الجيوش وتقلُّص الحكومات ، حتى كادت الإمبراطورية البيزنطية تلفظ نفسها الأخير ، وتصبح مستعمرة ساسانية حقيرة ، وانقطع كل أمل في نهوض الدولة البيزنطية وعودتها إلى أوجها الأول ، ثم انتصار الروم البيزنطيين الرائع ، النافي لكل تقدير وتخمين ، على الفُرس الظافرين المنتصرين ، حتى أوغلت الجيوش الرومية في قيادة هرقل في إيران ، وغرزت أعلام الفتح في قلب البلاد ، وأثخنت الشعب الإيراني قتلاً وجراحاً ، وأهانت المعابد والمقدسات الدينية ، وعادت من أسوار العاصمة ظافرة مرفوعة الرأس ، وذلك كله في ظرف تسع سنين^(٢) ، وهو ما أعلنه القرآن بقوله :

﴿ الْم ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۝ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ ۝ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴾ [الروم :

١ - ٧] .

وهي نبوة لا يقدر عليها إلا العليم القدير الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ولم يكن

(١) [نخرة : أي : بالية] .

(٢) اقرأ مقال المؤلف المشهب « نبوة تتحدّى ومعجزة تتحقّق » في كتاب المؤلف « المدخل إلى الدراسات القرآنية » ص ٥٦ طبع دار ابن كثير ، دمشق سنة ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .

شيءٌ أغربَ خيالاً ، وأبعدَ منالاً من هذه النبوة التي أعلنها القرآن عند فرح قريش والمشرّكين بانتصار المجوس المشرّكين على أهل الكتاب المسيحيين ، وشماتتهم بهزيمة الروم المنكرة ، فقال : ﴿ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِيهِمْ سَكِيبُوتٌ ۚ فِي يَضْعَ سِنِينَ ﴾ [الروم : ٣ - ٤] (والبضعُ ما دونَ العشرِ) واستبعدته قريشُ كلَّ الاستبعادِ ، حتى قامروا على ذلك استبعاداً له .

يقول المؤرّخ الإنجليزي جبون (Edward Gibbon) :

« إِنَّ مُحَمَّدًا تَنَبَّأَ حِينَ بَلَغَتْ فَتُوحُ الْإِيرَانِيِّينَ أَوْجَهَا وَقَمَتَهَا ، أَنَّ الرَايَاتِ الرُومِيَّةَ سَتَرْتَعُ بِالْفَتْحِ وَالْإِنْتِصَارِ فِي بَضْعِ سِنِينَ ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْعَدَ عَنِ الْقِيَاسِ مِنْ هَذِهِ النُّبُوءَةِ الَّتِي أَعْلَنَهَا مُحَمَّدٌ ، لِأَنَّ السِّنِينَ الْإِثْنَتَيْنِ عَشْرَةَ الْأُولَى مِنْ حَكْمِ هِرْقَلٍ كَانَتْ تَعْلُنُ بِتَمَزُّقِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الرُّومِيَّةِ ، وَنَهَايَتِهَا الْقَرِيبَةِ »^(١).

ولكنْ تَحَقَّقَتْ هَذِهِ النُّبُوءَةُ بِشَكْلِ غَرِيبٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ٦٢٥م (العام الثاني من الهجرة النبوية عند غزوة بدر) يقول « جيون » في أسلوبه الأدبي القوي المعروف :

« كَمَا أَنَّ ضَبَابَ الصَّبْحِ وَالْأَصِيلِ يَنْقَشَعُ وَيَتَبَدَّدُ بِنُورِ الشَّمْسِ الْبَازِغَةِ الْوَهَاجِ ، كَذَلِكَ تَحَوَّلَ الْأَمِيرُ الرَّقِيقُ الْمَتَرَفُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ إِلَّا الشَّبَابَ وَالْهَوَى ، وَالَّذِي كَانَ عَلَى قَدَمِ أَرْكَادِيُوسَ فِي عَصْرِهِ^(٢) ، فَارِسًا مُنْتَصِرًا يَقُودُ الْجِيُوشَ وَيَفْتَحُ الْبِلَادَ كَسِيزَر^(٣) ، لَقَدْ أُنْقَذَتْ كِرَامَةُ هِرْقَلٍ وَرُومًا بِطَرِيقَةٍ غَرِيبَةٍ رَائِعَةٍ ، وَعَادَ إِلَيْهِمَا اعْتِبَارُهُمَا وَقِيَمَتُهُمَا »^(٤).

(١) تاريخ انحطاط روما وسقوطها : ج ٣ ، ص ٣٠٢-٣٠٣ ، طبع ١٨٩٠م .

(٢) الملك الرومي الخليفة المستهتر الذي أصبح مثلاً في تأريخ أوربة للتمتع المسرف والترف الفاحش .

(٣) الإمبراطور الرومي الذي اشتهر بفتوحه العظيمة وامتداد ملكه .

(٤) انحطاط روما وسقوطها : ج ٤ ، ص ٣٠٤ ، طبع ١٨٩٠م .

هذا إلى نبوءاتٍ أُخرى وإعلاناتٍ بعيدةٍ عن القياسِ والقرائنِ ، كالفتحِ المبينِ (صُلحِ الحُدَيْبِيَّةِ) المهينِ في نظرٍ كثيرٍ من المسلمين وغيرِ المسلمين^(١) ، ودخولِ الناسِ في الإسلامِ أفواجا^(٢) ، وظهوره على الدينِ كله بعدما كَانَ المسلمون مستضعفينَ في الأرضِ يخافونَ أن يتخطفَهم الناسُ ، وقيامِ دولتهم وشوكتهم^(٣) ، وبقاءِ القرآنِ محفوظاً متلوّاً ، مبيناً مفسراً ، يتلوه ويحفظُهُ أكبرُ عددٍ من البشرِ^(٤) إلى غيرِ ذلك من النبوءاتِ الغريبةِ ، والإعلاناتِ المتحديةِ للعقلِ والقياسِ ، والأخبارِ الغيبيةِ التي زخرَ بها القرآنُ^(٥) .

ولا يصنعُ من هذه الحَبَّةِ قَبَّةً إلا من أعماهُ التعصُّبُ الدينيُّ ، والاسترسالُ في الخيالِ ، والإمعانُ في الافتراضِ والتخمينِ ، والإتيانُ بالبعيدِ المضحِكِ للعقلاءِ ، والتطرُّفُ ، وإبعادُ النجعةِ في العداءِ ، ولولا ورودُ هذه القصَّةِ في عامَّةِ كتبِ السيرةِ لما أوردناها في هذا الكتابِ ، ولما تعرَّضنا لبحثها ونقدِها^(٦) .

(١) انظر سورة الفتح .

(٢) انظر سورة النصر .

(٣) انظر سورة النور .

(٤) انظر سورة القيامة وسورة الحجر .

(٥) اقرأ للتفصيل عنوان « الأخبار الغيبية والنبوءات » في المجلد الثالث من « سيرة النبي » [بالأردنية] للعلامة السيد سليمان الندوي .

(٦) يقول كارليل في كتابه المشهور « الأبطال » (Heroes) معلقاً على ما قيل إن النبي ﷺ تلقى

من الراهب « بحيرى » أساس الدين الإسلامي ومادته ، يقول :

« إنني لست أدري ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس (بحيرى) الذي يزعم أن أبا طالب ومحمداً سكنا معه في الدار ، ولا ماذا عساه أن يتعلّمه غلام في هذه السن الصغيرة من أي راهب ما ، فإن محمداً لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة ولم يكن يعرف إلا لغته ، ولا شك أن كثيراً من أحوال الشام ومشاهدها لم يكن في نظره إلا خليطاً مشوشاً من أشياء ينكرها ولا يفهمها (توماس كارليل : الأبطال ص/ ٦٨) .

التربية الإلهية :

وَسَبَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُحْفُوظاً مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ، بَعِيداً عَنْ أَقْذَارِ الْجَاهِلِيَّةِ وَعَادَاتِهَا ، فَكَانَ أَفْضَلَ قَوْمِهِ مَرُوءَةً ، وَأَحْسَنَهُمْ خَلْقاً ، وَأَشَدَّهُمْ حَيَاءً ، وَأَصْدَقَهُمْ حَدِيثاً ، وَأَعْظَمَهُمْ أَمَانَةً ، وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ الْفَحْشِ وَالْبَذَاءِ ، حَتَّى مَا أَسَمَوْهُ فِي قَوْمِهِ إِلَّا « الْأَمِين » ^(١) .

يَعِصْمُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَنْ يَتَوَرَّطَ فِيْمَا لَا يَلِيقُ بِشَأْنِهِ ، مِنْ عَادَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَمَا لَا يَرُونَ بِهِ بَأْساً ، وَلَا يَرْفَعُونَ لَهُ رَأْساً ، وَكَانَ وَاصِلاً لِلرَّحِمِ ، حَامِلاً لِمَا يُثْقِلُ كَوَاهِلَ النَّاسِ ، مُكْرِماً لِلضُّيُوفِ ، عَوْناً عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ^(٢) ، وَكَانَ يَأْكُلُ مِنْ نَتِيجَةِ عَمَلِهِ ، وَيَقْنَعُ بِالْقُوتِ .

وَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَ أَوْ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، هَاجَتْ حَرْبُ الْفِجَارِ بَيْنَ قَرِيشٍ وَبَيْنَ قَيْسٍ ، وَشَهِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيَّامَهَا ، وَكَانَ يَنْبُلُ ^(٣) عَلَى أَعْمَامِهِ وَبِذَلِكَ عَرَفَ الْحَرْبَ ، وَعَرَفَ الْفُرُوسِيَّةَ وَالْفَتَوَةَ ^(٤) .

وَلَمَّا شَبَّ عَنْ الطُّوقِ اتَّجَهَ إِلَى الْعَمَلِ ، فَرَعَى الْأَغْنَامَ ، وَفِيهِ كَسَبُ

= وقد انتهى الباحثون الغربيون أخيراً - وهم مسيحيون عقيدة ، وأحرار متنوّرون بحثاً وتحقيقاً - إلى أن كلَّ ما قيل عن تلقّي محمد ﷺ ما جاء في القرآن ، وما عرضه على الناس بصفته أنه وحي من الله ، إنما كان تلقيناً من القسوس والرهبان - قد تحقّق وثبت بطلانه ، وأنه افتراضٌ ومحاولةٌ تشكيك فقط ، ليس مبنياً على بينة وثبوت تاريخي . ليرجع إلى (Palmer, The Quran Intro Px\VIII) وكذلك (De Bunsen, Islam or True Christianity P.131) .

- (١) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ١٨٣ .
- (٢) اقرأ شهادة خديجة - رضي الله عنها - لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - حين رجع من « حراء » وخشي على نفسه ، في الجامع الصحيح للبخاري في باب « كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ » .
- (٣) ينبل : يعني كان يرد عليهم نبل عدوهم إذا ما رماهم .
- (٤) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ١٨٦ .

شريفٌ ، وتربيةٌ نفسيةٌ ، وترويضٌ على العطفِ على الضعفاءِ ، وسياسةٌ للأوابدِ ، واستنشاقٌ للهواءِ النقيِّ الصَّافي ، وتقويةٌ للجسمِ ، وفوقَ ذلك كله إِنَّهُ اتَّبَعَ لِسُنَّةِ الأنبياءِ ، فقد رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ : « ما من نبيٍّ إِلَّا وَقَدْ رَعَى الْغَنَمَ » قِيلَ : وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ ! ، قَالَ : « وَأَنَا » .

وقد رَعَى الْغَنَمَ في بني سَعْدٍ مع إخوته من الرضاعةِ ، فلم يَكُنْ بعيداً عنه ولا جاهلاً له ، وقد ثَبَتَ في (الصَّحاحِ ^(١)) أَنَّهُ كَانَ يَرعى الْغَنَمَ في مَكَّةَ على قراريط ^(٢) يأخذُها من أهلِها .

زواجه - ﷺ - من خديجة :

ولَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَمْساً وَعَشْرِينَ سَنَةً ، تزوجَ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ ، وهي من سَيِّدَاتِ قُرَيْشٍ ، وَفُضِّلَاتِ النِّسَاءِ ، رَجَاحَةٌ عَقْلٍ ، وَكَرَمٌ أَخْلَاقٍ ، وَسَعَةٌ مَالٍ ، وَكَانَتْ أَرْمَلَةً ، تُوفِّيَ زَوْجُهَا أَبُو هَالَةَ ، وَكَانَتْ إِذْ ذَاكَ في الأَرْبَعِينَ من سَنِّهَا ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ في الْخَامِسَةِ والعشرينَ من عَمْرِهِ ^(٣) .

وَكَانَتْ خَدِيجَةُ امْرَأَةً تَاجِرَةً ، تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ في مَالِهَا ، وَتَضَارِبُهُمْ بِشَيْءٍ

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الإجارة ، باب رَعَى الْغَنَمَ على قراريط ، برقم (٢٢٦٢) ، وابن ماجه في أبواب التجارات ، باب الصناعات برقم (٢١٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] .

(٢) قد جاء في (سيرة النبي) - الجزء الأول - للعلامة شبلي التُّعماني : « قد اختلف العلماء في معنى كلمة (قراريط) ، فذهب شيخ ابن ماجه سُويد بن سعيد إلى أنها جمع قيراط وهو جزء من الدرهم أو الدينار ؛ وعلى ذلك فمعنى الحديث عنده أن النبي ﷺ كان يَرعى الْغَنَمَ على الأَجَرَةِ ، ومن هنالك ساقه البخاري في باب الإجارة .
وذهب إبراهيم الحربي إلى أنه اسم مكان بعينه قُرْبَ أجياد ؛ وقد رجحه ابن الجوزي ، وأكد صحة رأيه العلامة العيني بدلائل قوية راجحة ، وإليه مال صاحب (نور النبراس) بعد بحث مطول مفصل » .

(٣) راجع «سيرة ابن هشام» : ج ١ ، ص ١٨٧ - ١٩٠ ، و«سيرة ابن كثير» ، ج ١ ص ٢٦٢ - ٢٦٥ .

تجعلهُ لَهُمْ ، وَكَانَتْ قَرِيشٌ قَوْماً تُجَاراً ، وَقَدْ كَانَتْ اخْتَبَرَتْ صَدَقَ حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَرَمَ أَخْلَاقِهِ ، وَنَصِيحَتَهُ ، حِينَ خَرَجَ فِي مَالٍ لَهَا إِلَى الشَّامِ تَاجِراً ، وَبَلَغَهَا مِنْ كِبَرِ شَأْنِهِ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهَا ، وَكَانَتْ قَدْ رَفَضَتْ طَلَبَ كَثِيرٍ مِنْ أَشْرَافِ قَرِيشٍ ، وَخَطَبَهَا إِلَيْهِ عُمَةُ حَمْزَةُ ، وَخَطَبَ أَبُو طَالِبٍ الْخُطْبَةَ ، فَكَانَ الزَّوْاجُ^(١) .

وَكَانَتْ أَوَّلَ امْرَأَةٍ تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٢) وَوَلَدَتْ لَهُ وَلَدَهُ كُلَّهُمْ إِلَّا إِبْرَاهِيمَ^(٣) .

قصة بنيان الكعبة ودرء فتنة عظيمة :

وَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَمْساً وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، اجْتَمَعَتْ قَرِيشٌ لِبُنْيَانِ الْكَعْبَةِ ، وَقَدْ أَرَادُوا ذَلِكَ لِيَسْقُفُوهَا ، وَكَانَتْ حِجَارَةً بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، مِنْ غَيْرِ طِينٍ يَرْكُبُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، وَكَانَتْ فَوْقَ الْقَامَةِ ، وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ هَدْمِ وَبْنَاءٍ جَدِيدٍ^(٤) .

فَلَمَّا بَلَغَ الْبُنْيَانُ مَوْضِعَ الرِّكْنِ ، اخْتَصَمُوا فِي الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ ، كُلُّ قَبِيلَةٍ تَرِيدُ أَنْ تَرْفَعَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ دُونَ الْأُخْرَى ، وَكُلُّ قَبِيلَةٍ تَرِيدُ أَنْ يَكُونَ لَهَا هَذَا

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٢) [أخرج أحمد قصة زواجه ﷺ من خديجة رضي الله عنها في المسند : (٣١٢/١) ؛ والطبراني في المعجم الكبير ، برقم (١٢٨٣٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال الهيثمي في المجمع (٢٢٠/٩) : رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد والطبراني رجال الصحيح ، وقال أحمد شاكر : إسناده فيه نظر .]

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ١٩٠ ، وكتب السير الأخرى .

(٤) قال موسى بن عقبة : وإنما حمل قريشاً على بنائها أن السيل كان أتى من فوق الردم الذي صنعوه فأخربه فخافوا أن يدخلها الماء ، وكان رجل يقال له مليح سرق طيب الكعبة فأرادوا أن يشيدوا بنيانها وأن يرفعوا بابها حتى لا يدخل إلا من شأوا . (أقرأ التفصيل في « عيون الأثر » لابن سيد الناس ، ج ١ ، ص ٥٢) .

الشرف، حتَّى آل الأمر إلى الحرب، وكانت تنشب في أهون من هذا بكثير في الجاهلية.

واستعدوا للقتال، وقرَّبَتْ بنو عبد الدَّارِ جفنةً مملوءةً دمًا، وتعاقدوا، هم وبنو عديٍّ، على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدَّمِ في تلك الجفنة. وكانت آية الموت والشرِّ.

ومكثت قريشٌ على ذلك أياماً، ثمَّ اتَّفَقُوا على أنَّ أولَ مَنْ يدخلُ من بابِ المسجدِ يقضي بينهم، فكانَ أولَ داخلٍ عليهم رسولُ الله ﷺ فلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هذا الأمينُ رضينا، هذا محمدٌ.

ودعا رسولُ الله ﷺ بثوبٍ وأخذَ الحجرَ، ووضعهُ فيه بيده، ثمَّ قالَ: «لتأخذَ كُلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثوبِ ثمَّ ارفعُوهُ جميعاً» ففعلوا، حتَّى إذا بلغوا به موضعهُ وضعهُ هو بيده، ثم بنى عليه^(١).

وهكذا دَرَأَ^(٢) رسولُ الله ﷺ الحربَ عن قريشٍ، بحكمةٍ ليست فوقها حكمةً، وكانت مقدِّمةً درته للحروبِ والشُّرُورِ عَنِ الشعوبِ والأممِ بعدَ النبوةِ، بحكمته، وتعاليمه، ورفقه، وتلطُّفه في الأمورِ، والإصلاحِ بينَ الناسِ، فيكونَ رحمةً للعالمينَ كما كان رحمةً للمتخاصمينَ والمتحاربينَ في قومٍ بُسطاءً أميينَ.

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٩٢ - ١٩٧. [انظر هذه القصة في «المعجم الأوسط» برقم (٢٤٤٢) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المعجم (٢٢٩/٨): رجاله رجال الصحيح، غير عُمر بن حفص الضرير، وخالد بن عرعة، وكلاهما ثقة، وروى القصة أيضاً عبد الرزاق في مصنفه (١٠٠/٥ - ١٠١) والحاكم (٤٥٨/١) والبيهقي في دلائل النبوة (٥٦/٢ - ٥٧).]

(٢) [دَرَأَ: أي دَفَعَ].

حَلْفُ الْفُضُولِ :

وشَهِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَلْفَ الْفُضُولِ^(١) ، وَكَانَ أَكْرَمَ حَلْفٍ سَمِعَ بِهِ وَأَشْرَفُهُ فِي الْعَرَبِ ، وَكَانَ سَبَبُهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْ زَبِيدٍ قَدِمَ مَكَّةَ بَيْضَاعَةً ، فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ أَحَدُ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ ، فَحَبَسَ عَنْهُ حَقَّهُ ، فَاسْتَعْدَى عَلَيْهِ الزَّبِيدِيُّ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ ، فَأَبَوْا أَنْ يَعِينُوا عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ لِمَكَانَتِهِ ، وَانْتَهَرُوهُ ، وَاسْتَغَاثَ الزَّبِيدِيُّ أَهْلَ مَكَّةَ ، وَاسْتَعَانَ بِكُلِّ ذِي مَرَوْءَةٍ .

وَهَاجَتِ الْغَيْرَةُ فِي رَجَالٍ مِنْ ذَوِي الْمَرَوْءَةِ وَالْفِتْوَةِ ، فَاجْتَمَعُوا فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا ، وَتَعَاقَدُوا ، وَتَعَاهَدُوا بِاللَّهِ ، لِيَكُونَنَّ يَدًا وَاحِدَةً مَعَ الْمَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ ، حَتَّى يُوَدِّيَ إِلَيْهِ حَقَّهُ ، فَسَمَّتْ قُرَيْشٌ ذَلِكَ الْحَلْفَ « حَلْفَ الْفُضُولِ » وَقَالُوا : لَقَدْ دَخَلَ هَؤُلَاءِ فِي فَضْلِ مِنَ الْأَمْرِ ، ثُمَّ مَشَوْا إِلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ ، فَانْتَزَعُوا مِنْهُ سُلْعَةَ الزَّبِيدِيِّ ، فَدَفَعُوهَا إِلَيْهِ^(٢) .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَغْتَبِطًا بِهَذَا الْحَلْفِ ، مَتَمَسِّكًا بِهِ حَتَّى بَعْدَ الْبُعْثَةِ يَقُولُ :

« لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا ، مَا أَحْبَبْتُ أَنْ لِي بِهِ حُمْرُ النِّعَمِ ، وَلَوْ أَدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لِأَجَبْتُ » .

تَحَالَفُوا عَلَى أَنْ يَرُدُّوا الْفُضُولَ عَلَى أَهْلِهَا ، وَالْأَيُّعُزَّ^(٣) ظَالِمٌ مَظْلُومًا^(٤) .

(١) انظر سبب التسمية في الحاشية رقم (٤) .

(٢) سيرة ابن كثير : ج ١ ص ٢٥٧ ، - ٢٥٩ .

(٣) يعز : يغلب .

(٤) سيرة ابن كثير : ج ١ ، ص ٢٥٨ .

سَمَّتْ قُرَيْشٌ هَذَا الْحَلْفَ « حَلْفَ الْفُضُولِ » ، قَالَ بَعْضُهُمْ ، سَمَّوْهُ بِحَلْفِ الْفُضُولِ ؛ لِأَنَّهُ =

وَيَرَى الْمُتَتَبِعُ لَأَوْضَاعِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بِصِفَةٍ عَامَةٍ ، وَوَضَعَ مَكَّةَ الْمَكْرَمَةَ مَرْكَزَ الْجَزِيرَةِ الدِّينِيِّ وَالثَّقَافِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ وَوَاقِعَهَا ، أَنَّ الْبَاعِثَ لِأَهْلِ الضَّمَائِرِ الْحَيَّةِ عَلَى إِنْشَاءِ هَذَا الْحَلْفِ لَمْ يَكُنْ حَادِثَةً تَتَعَلَّقُ بِفَرْدٍ وَاحِدٍ أَوْ لِبَعْضِ حَقُوقِ مَهْضُومَةٍ لِأَفْرَادٍ مَعْدُودِينَ ، بَلْ كَانَ الْبَاعِثُ الْقَوِيُّ هُوَ الْقَلْقُ مِنْ حَالَةِ الْفَوْضَى وَعَدَمِ الثِّقَةِ الَّتِي كَانَتْ تَسُودُ مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا ، وَالشُّعُورَ بِالْحَاجَةِ إِلَى الْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ - خُصُوصاً بَعْدَ حَرْبِ الْفِجَارِ - وَاحْتِرَامَ الْحَقُوقِ وَالْكَرَامَاتِ ، وَحِمَايَةَ الْغُرَبَاءِ وَالْوَافِدِينَ إِلَى مَكَّةَ مِنَ التِّجَارِ وَالصَّنَاعِ .

قَلِقُ غَامِضٌ وَعَدَمُ تَرْقُبٍ لِنَبْوَةٍ أَوْ رِسَالَةٍ :

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ قَلْقاً غَامِضاً ، لَا يَعْرِفُ مَصْدَرَهُ وَلَا

= دَعَا إِلَيْهِ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ ، اسْمُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ « فَضْلٌ » وَهُمْ : الْفَضْلُ بْنُ الْفَضَالَةِ ، وَالْفَضْلُ بْنُ وَدَاعَةَ ، وَالْفَضْلُ بْنُ الْحَارِثِ ، فِيمَا قَالَهُ ابْنُ قَتِيْبَةَ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : الْفَضْلُ بْنُ شِرَاعَةَ ، وَالْفَضْلُ بْنُ بَضَاعَةَ ، وَالْفَضْلُ بْنُ قَضَاعَةَ ، وَلِذَلِكَ سَمَوْهُ بِحَلْفِ الْفَضُولِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّمَا سَمَّيْتَهُ قَرِيْشَ - حَلْفَ الْفَضُولِ - لِأَنَّهُمْ قَالُوا : لَقَدْ دَخَلَ هَؤُلَاءِ فِي فَضْلِ مِنْ الْأَمْرِ .

[وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ : « حَلْفُ الْفَضُولِ » سَمِّيَ بِهِ تَشْبِيْهًا بِحَلْفِ كَانَ قَدِيْمًا بِمَكَّةَ ، أَيَّامَ (جُرْهُم) عَلَى التَّنَاصُفِ ، وَالْأَخْذِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ ، وَلِلْغَرِيبِ مِنَ الْقَاطِنِ ، قَامَ بِهِ رَجَالٌ مِنْ (جُرْهُم) كُلُّهُمْ يَسْمَى (الْفَضْلُ) مِنْهُمْ : الْفَضْلُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَالْفَضْلُ بْنُ وَدَاعَةَ ، وَالْفَضْلُ بْنُ قَضَالَةَ (« النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ » ج : ٣ ، ص ٤٥٦)] . وَأَمَّا مَا رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا شَهِدْتُ حَلْفًا لِقَرِيْشٍ إِلَّا حَلْفَ الْمُطَيِّبِينَ » فَلَا يَصِحُّ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَدْرِكْ حَلْفَ الْمُطَيِّبِينَ ، قَالَ الْبِيْهَقِيُّ : رَوَى هَذَا التَّفْسِيرَ مُدْرِجًا فِي الْحَدِيثِ وَلَا أُدْرِئُ قَائِلَهُ .

قَالَ ابْنُ سَيِّدِ النَّاسِ فِي كِتَابِهِ « عَيُونُ الْأَثَرِ فِي فَنُونِ الْمَغَازِي وَالشَّمَائِلِ وَالسِّيَرِ » : « شَهِدَ النَّبِيُّ ﷺ حَلْفَ الْفَضُولِ ، وَعَمَرَهُ إِذْ ذَاكَ عَشْرُونَ سَنَةً ، وَهَذَا الْحَلْفُ وَقَعَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ بَعْدَ حَرْبِ الْفِجَارِ » (ج / ١ ، ص / ٤٦) . [انْظُرْ قِصَّةَ الْفَضُولِ فِي « مُسْنَدِ أَحْمَد » (١٩٠ / ١) ، وَفِي « مُسْنَدِ أَبِي يَعْلَى » بِرَقْمِ (٨٤٤) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] .

مصيره ، ولا يخطرُ بباله لحظةً ما اللهُ مُكْرِمُهُ به من الوحي والرسالة ، ولا يحلمُ بذلك في يومٍ من الأيام ، يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] .

وقال : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [القصص : ٨٦] .

وكان من حكمةِ اللهِ تعالى وتربيته ، أن نشأ رسولُ الله ﷺ أميًا ، لا يقرأ ولا يكتب ، فكان أبعدَ عن تهمةِ الأعداء ، وظنةِ المفتريين ، وإلى ذلك أشار القرآنُ بقوله :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ يَمِينُكَ إِذَا لَا تَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

وقد لقَّبه القرآنُ بالأمِّيِّ فقال :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

الفصل الثالث

العمرُ المكيُّ

مِنَ الْبُعْثَةِ إِلَى الْهِجْرَةِ

- مبعثه ﷺ
- تحنُّه في غار حراء
- إسلام خديجة وعليٍّ وزيد رضي الله عنهم
- تعذيب قريش للمسلمين
- إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه
- الهجرة إلى الحبشة
- إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه
- مقاطعة قريش لبني هاشم
- الهجرة إلى الطائف
- الإسراء والمعراج

العهد المسكّي من البعثة إلى الهجرة

تباشيرُ الصبح وطلائعُ السعادة :

أتمَّ رسولُ الله ﷺ أربعين سنةً من عُمره ، والدُّنيا واقفةٌ على شفا حفرةٍ من النَّارِ ، والإنسانيةُ تخطو بخطى سريعةٍ إلى الانتحارِ ، هنالك ظهرت تباشيرُ الصبح وطلائعُ السعادة ، وآن أوانُ البعثة ، وتلك سنةُ الله إذا اشتدَّ الظلامُ وطالتِ الشُّقوةُ .

وبلَّغَ قلقُ رسولِ الله ﷺ مما كان يراه من جهلٍ وجاهليةٍ ، وخُرافةٍ ووثنيةٍ ، وتطلَّعه إلى الإرشادِ والهدايةِ ، من فاطرِ الكونِ وخالقِ السمواتِ والأرضِ - ذروته ، كأنَّ حادياً يحدثوه ، فحُبَّبَ إليه الخلاءُ ، فلم يكن شيئاً أحبَّ إليه من أن يخلو وحده ، وكان يخرجُ من مكَّةَ ويبعدُ ، حتى تحسَّرَ عنه البيوتُ ، ويُفْضِي إلى شعابِ مكَّةَ وبطونِها وأوديتها ، فلا يمرُّ بحجرٍ ولا شجرٍ إلا قالَ : السلامُ عليك يا رسولَ الله ! ويلتفتُ رسولُ الله ﷺ حوله وعن يمينه وشماله وخلفه ، فلا يرى إلا الشجرَ والحجارةَ^(١) .

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ . وقد جاء في صحيح مسلم قوله ﷺ : « إني لأعرفُ حجراً بمكة ، كان يسلمُ عليَّ قبل أن أُبعث ، إني لأعرفه الآن » (كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي ﷺ) [برقم (٢٢٧٧) من حديث جابر بن سَمُرَةَ رضي الله عنه] .

وكانَ أَوَّلَ ما بُدِيَءَ به ، الرؤيا الصادقةُ في النومِ ، وكانَ لا يرى رؤيا إلا جاءتْ مثلَ فلقِ الصُّبحِ^(١) .

في غار حراء :

وكانَ يَخْلُو - غالباً - بغارِ « حِراء » ، فيمكثُ فيه لياليَ متوالياتٍ ، وكانَ يتزوَّدُ لذلك ، وكانَ يتعبَّدُ ويدعو على الطريقةِ الإبراهيميةِ الحنيفيةِ والفطرةِ السليمةِ المُنبيّةِ إلى الله^(٢) .

مبعثه - ﷺ - :

وكانَ في إحدى المرّاتِ إذ جاءَهُ اليومُ الموعودُ لبعثتهِ ، وكانَ ذلكَ في رمضان (١٧ من رمضان^(٣)) ، في السنةِ الحاديةِ والأربعينَ من ميلادهِ ، الموافق ٦ أغسطس ٦١٠ م) في يقظةٍ ووعيٍ ، فجاءَهُ الملكُ وهو بحِراءَ ، فقالَ : اقرأُ ، قالَ : ما أنا بقارىءٍ ، قالَ رسولُ الله ﷺ : « فأخذني فغطني ، حتى بلغَ مني الجهدَ ، ثم أرسلني ، فقالَ : اقرأُ ، فقلْتُ : ما أنا بقارىءٍ ، فأخذني فغطني الثانيةَ ، حتى بلغَ مني الجهدَ ، ثم أرسلني ، فقالَ : اقرأُ ، فقلْتُ : ما أنا بقارىءٍ ، فأخذني فغطني الثالثةَ ، ثم أرسلني ، فقالَ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾^(٤) [العلق : ١ - ٥] .

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي ... برقم (٣) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ برقم (١٦٠) ، وأحمد في مسنده : (٣٣٣/٦) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) اقرأ حديث عائشة - رضي الله عنها - باب (كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ) .

(٣) سيرة ابن كثير : ج ١ ص ٣٩٢ ؛ رواية عن أبي جعفر محمد الباقر .

(٤) المصدر السابق ص ٣٩٢ .

وكان ذلك أوّل يوم من أيام النبوة ، وأول وحي من القرآن^(١) .

في بيت خديجة - رضي الله عنها - :

وفزع منه رسول الله ﷺ فإنه لم يعهده ولم يسمع به ، وقد طالبت الفترة ، وعهد العرب بالنبوة والأنبياء بعيداً ، وخاف على نفسه ، ورجع إلى بيته ترتعد فرائضه وقال : زمّلوني ، زمّلوني ، لقد خشيت على نفسي .

وسألت خديجة - رضي الله عنها - عن السبب ، فقصر عليها القصة ، وكانت عاقلة فاضلة ، سمعت بالنبوة والأنبياء والملائكة ، وكانت تزور ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان قد تنصّر ، وقرأ الكتب ، وسمع من أهل (التوراة) و (الإنجيل) ، وكانت تنكر من أهل مكة ما ينكره أهل الفطرة السليمة والأذهان المستقيمة .

وكانت من أعراف الناس بأخلاق رسول الله ﷺ لمكانها منه ، وعشرتها له ، وأطلعها على السر والعلانية ، وقد رأت من أخلاق رسول الله ﷺ وشمائله ما يؤكّد أنه الرجل الموفق والمؤيد من الله ، المصطفى من خلقه ، المرضي في سيرته وسلوكه ، وأن من كانت هذه أخلاقه وسيرته ، لا يخاف

(١) الغريب الذي يسترعي انتباه الفلاسفة والمفكرين في العالم ، والمؤرخين للديانات والحياة العلمية ، هو ذكر « القلم » في هذا الوحي الأول ، الذي ينزل على أمي يُنعت في أمة أمية في بلد تعذر فيه وجود القلم ، ولم يجاوز عدد « الكتاب » (وهم المتعلمون) عدد الأنامل ، فدلّ ذلك على ربط هذه الديانة والأمة التي تدين بها وتحملها ، بالقراءة والكتابة والاستعانة بالقلم ، ربطاً دائماً وثيقاً ، بخلاف ديانات كثيرة سابقة ، وكان ذلك سرّ انبثاق حركة علمية تأليفية عالمية ، لا يوجد لها نظير في تاريخ الديانات والأمم .
وكذلك كان ورود آية ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٥] في هذا الوحي ، حافزاً على التوسع في آفاق العلم ، والاكتشاف للمجهول ، والترقب للمزيد الجديد ، وعدم إنكار حقائق علمية ثابتة لم تكتشف في العصور الماضية .

عليه لَمَّةٌ من الشيطان ، أو أن يكونَ بهِ مسٌّ من الجنِّ ، وأنَّ ذلكَ يتنافى مع ما عرفته من حكمةِ الله ورأفته في خلقه ، فقالت في ثقة وإيمان وفي قوَّةٍ وتأكيِّد : « كلاً ! والله ما يُخزِيكَ اللهُ أبداً ، إنَّكَ لتصلُ الرَّحْمَ ، وتحملُ الكَلَّ ، وتكسِبُ المعدومَ ، وتُقْرِى الضيفَ ، وتُعِينُ على نوائِبِ الحَقِّ »^(١) .

بين يدي ورقة بن نوفل :

وقد قالت ذلك خديجةُ ، اعتماداً على العقلِ السليم ، والفطرةِ الصحيحة ، وعلى تجاربها في الحياة ، ومعرفتها للنَّاسِ .

ولكنَّ الأمرَ كانَ أعظمَ من هذا ، وكانَ يحتاجُ إلى رجلٍ له خبرةٌ بالدياناتِ وتاريخها ، والنبؤاتِ وسُنَنِها ، ومعرفةٌ بأهلِ الكتابِ الذينَ عندهم أخبارُ الأنبياءِ وعلمهم .

فَرَأَتْ أَنْ تستعينَ في ذلكَ بابنِ عمِّها العالمِ « ورقة بن نوفل » فانطلقت برسولِ الله ﷺ إليه .

وأخبرَ رسولُ الله ﷺ ورقةَ خبرَ ما رأى ، فقالَ ورقةُ : « واللَّذي نفسي بيده إنَّكَ لنبيُّ هذه الأمةِ ، ولقد جاءَكَ الناموسُ الأكبرُ الذي جاءَ موسى ، وإنَّ قومَكَ سيكذبُونَكَ ، ويؤذونَكَ ، ويُخرجُونَكَ ، ويُقاتلونَكَ » .

وتعجَّبَ رسولُ الله ﷺ حينَ قالَ ورقةُ : إنَّهُم سيُخرجُونَكَ ، لأنَّهُ كانَ يعرفُ منزلته عندَ قريشٍ ، فلا ينادونه ولا يُخاطِبونه إلا بـ « الصَّادِق » وبـ « الأمين » فقالَ متعجباً : « أو مُخرجيَّ هم ؟ ! » .

قالَ ورقةُ : « نعم ، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثلِ ما جئتَ به إلا عاداه النَّاسُ »

(١) [قد مرَّ تخريج هذا الحديث على صفحة (١٨٠) الحاشية (١)] .

وَحَارَبُوهُ ، وَإِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، وَطَالَتْ بِي الْحَيَاةُ ، نَصَرْتُكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا»^(١) .

وفتَرَ الوحيَ زماناً ، ثم تتابع ، وبدأ القرآن ينزل .

إسلامُ خديجة رضي الله عنها وأخلاقها :

وَأَمَنْتُ بِهِ خَدِيجَةُ ، فَكَانَتْ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ، وَكَانَتْ بِجَوَارِهِ تَوَازَرَهُ ، وَتَثَبَّتُهُ ، وَتَخَفَّفُ عَنْهُ ، وَتَهَوَّنَ عَلَيْهِ أَمْرَ النَّاسِ .

إسلام علي بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة رضي الله عنهما :

ثُمَّ أَسْلَمَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ يَوْمُئِذٍ ابْنُ عَشْرِ سَنِينَ ، وَكَانَ فِي حِجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، أَخَذَهُ مِنْ أَبِي طَالِبٍ فِي أَيَّامِ الضَّائِقَةِ ، وَضَعَهُ إِلَيْهِ^(٢) .

وَأَسْلَمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ قَدْ تَبَنَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٣) .

فَكَانَ إِسْلَامُ هَؤُلَاءِ شَهَادَةَ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ ، وَأَعْرَفَهُمْ بِهِ ، وَبَصِيقَهُ ، وَإِخْلَاصِهِ ، وَحَسَنِ سِيرَتِهِ ، وَأَهْلِ الْبَيْتِ أَدْرَى بِمَا فِيهِ .

إسلام أبي بكر بن أبي قحافة وفضلُهُ في الدعوة إلى الإسلام :

وَأَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ ، وَكَانَتْ لَهُ مَنْزِلَةٌ فِي قَرِيشٍ ، لِعَقْلِهِ وَمَرْوَعَتِهِ وَاعْتِدَالِهِ ، وَأَظْهَرَ إِسْلَامَهُ ، وَقَدْ كَانَ رَجُلًا مُحِبًّا سَهْلًا ، عَالِمًا بِأَنْسَابِ قَرِيشٍ

(١) مقتبسٌ من حديث عائشة ، الجامع الصحيح للبخاري ، باب « كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ » [برقم (٣)] ، وسيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٢٣٨ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٢٤٥ .

(٣) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٢٤٧ .

وبأخبارِها ، وكان تاجراً ، ذا خُلُقٍ ومعروفٍ ، فجعلَ يدْعُو إلى الله وإلى الإسلام ، من وثقَ به من قومِه ، ممَّن يغشاهُ ويجلسُ إليه^(١) .

إسلامُ أشرافٍ من قريشٍ :

وأسلمَ بدعوتهُ أشرافُ من قريشٍ ، لهم مكانةٌ وسؤددٌ ، منهم عثمانُ بنُ عفَّانَ ، والزبيرُ بنُ العوامِ ، وعبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ ، وسعدُ بنُ أبي وقاصٍ ، وطلحةُ بنُ عبيدِ الله ، فجاءَ بهم إلى رسولِ الله ﷺ فأسلمُوا^(٢) .

وتلاهم رجالٌ من قريشٍ ، لهم شرفٌ ومكانةٌ ، منهم أبو عبيدةُ بنُ الجراحِ ، والأرقمُ بنُ أبي الأرقمِ ، وعثمانُ بنُ مظعونٍ ، وعبيدةُ بنُ الحارثِ بنِ المطلبِ بنِ عبدِ منافٍ ، وسعيدُ بنُ زيدٍ ، وخَبَّابُ بنُ الأَرثِ ، وعبدُ الله بنُ مسعودٍ ، وعمارُ بنُ ياسرٍ ، وصُهَيْبُ ، وغيرُهم - رضيَ الله عنهم -^(٣) .

ودخلَ الناسُ في الإسلامِ أرسالاً من الرجالِ والنساءِ ، حتى فشا ذِكْرُ الإسلامِ بمكةَ ، وتُحَدَّثُ به^(٤) .

الدَّعوةُ جهاراً على جبل « الصِّفا » :

وكان رسولُ الله ﷺ يُخْفِي أمرَهُ ، ومضى على ذلك ثلاثَ سنواتٍ ، ثمَّ أمرَهُ اللهُ تعالى بإظهارِ دينِهِ ، وقال :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤] . وقال : ﴿ وَأَنْذِرْ

(١) سيرة ابن هشام ج ١ : ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٣) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٢٥٢ - ٢٥٥ .

(٤) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٢٦٢ .

عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَلَخُفِضَ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمِيمُنْ ﴿٢١٥﴾ [الحجر : ٨٩] .

فخرج رسول الله ﷺ وصعد على جبل « الصفا » ونادى بأعلى صوته : « يا صباحاه » ، وكانت صيحة معروفة مألوفة ، كلما أحسَّ إنسانُ بخطر عدوٍّ ، يُغيِّرُ على بلدٍ ، أو على قبيلةٍ ، على غفلةٍ منهما ، نادى : « يا صباحاه » فلم تتأخَّرْ قريشٌ في تلبية هذا النداء ، واجتمعوا إليه بين رجلٍ يجيءُ إليه وبين رجلٍ يبعثُ إليه رسوله .

فقال رسول الله ﷺ : « يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني كعب ! أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تُغيِّرَ عليكم ، صدقتموني ؟ ! » .

كان العربُ واقعيين عمليين ، إنهم رأوا رجلاً جربوا عليه الصدق والأمانة والنصيحة ، قد وقفَ على جبلٍ يرى ما أمامه ، وينظرُ إلى ما وراءه ، وهم لا يرون إلا ما هو أمامهم ، فهداهم ذكاؤهم وإنصافهم إلى تصديق هذا المخبر الأمين الصادق ، فقالوا : نعم .

ولما تمت هذه المرحلة الطبيعية البدائية ، وتحققت شهادة المستمعين ، قال رسول الله ﷺ : « فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد » ^(١) .

الحكمة البليغة في الدعوة والتعليم :

وكان ذلك تعريفاً بمقام النبوة ، وما ينفرد به من علمٍ بالحقائق الغيبية

(١) [أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب « وأنذر عشيرتك الأقربين » برقم (٤٧٧٠) و (٤٧٧١) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب في قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ برقم (٢٠٨) ، وأحمد (٢٨١/١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما] .

والعلوم الوهية ، وموعظة وإنذاراً ، في حكمة وبلاغة لا نظير لهما في تاريخ الديانات والنبؤات ، فلم تكن طريق أقصر من هذا الطريق ، ولا أسلوب أوضح من هذا الأسلوب .

فسكت القوم ، ولكن أبا لهب قال : « تَبَا لَكَ سائر اليوم ، أما دَعَوَتَنَا إِلَّا لهذا !؟ » (١) .

وقد نبّه بذلك رسول الله ﷺ بحكمة لا حكمة فوقها على أَنَّ العدوَّ اللدودَ كامنٌ في نفوسهم ، مترصّدٌ في بيوتهم ، وهو أولى بأن يخافوه ويأخذوا له عدته ، فالجهل عن خالق هذا الكون ورب العالمين ، وصفاته وأسمائه الحسنى ، والوقوع في حبال الشرك الوثنية ، وعبادة النفس والشهوات ، والاسترسال إلى الأوهام والخرافات ، وتعدي الحدود ، وانتهاك الحرمات ، أكثرُ نفوراً وأعظمُ خطراً من جيش مترصّدٍ ، وكتيبة كمينية (٢) يحسبون لها كلَّ حسابٍ ، ويفزعون لها كلَّ فرع .

إظهار قومه العداوة وحذب أبي طالب عليه :

ولمّا أظهر رسول الله ﷺ الدعوة للإسلام ، وصدع بالحق كما أمره الله تعالى ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردّوا عليه حتى ذكر آلهم ، وعابها ، فلمّا فعل ذلك ، أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته .

وحذب على (٣) رسول الله ﷺ عمّه أبو طالب ، ومنعه وقام دونه ،

(١) [قد سبق تخريجه في ص (١٨٥)] أصل الحكاية في ابن كثير : ج ١ ؛ ص ٤٥٥-٤٥٦ ، رواية عن الإمام أحمد بن حنبل عن ابن عباس ، قال وأخرجاه من حديث الأعمش به نحوه .

(٢) الكمين : القوم يستخفون في مكن ، ثم يتهمون غرة العدو فينهضون عليه .

(٣) [حذب عليه : أي عطف] .

ومضى رسول الله ﷺ في دعوته وصدعه بالحق ، لا يردّه عنه شيء ، ومضى أبو طالب يحدّب عليه ويدودّ عنه .

فلَمَّا طَالَ ذلك ، مشى رجالٌ من قريش إلى أبي طالب ، فقالوا : يا أبا طالب ، إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلّل آبائنا ، فإمّا أن تكفّه عنّا وإمّا أن تُخلي بيننا وبينه ، فإنّك على مثل ما نحن عليه ، من دين وعقيدة .

فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً ، وردّهم ردّاً جميلاً ، فانصرفوا عنه^(١) .

بين رسول الله - ﷺ - وأبي طالب :

وأكثرَ قريش ذكرَ رسول الله ﷺ وحضّ بعضهم بعضاً عليه ، ومشوا إلى أبي طالب مرةً أخرى ، فقالوا : يا أبا طالب ! إنّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلةً فينا ، وقد رجوناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل ، فإنّا والله لا نصبرُ أكثرَ مما صبرنا على شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، فإمّا أن تكفّه عنّا وإمّا أن تُنازله وإيّاك في ذلك ، حتى يهلك أحدُ الفريقين .

وعظّم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له :

« يا بن أخي ! إنّ قومك قد جاؤوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبقِ عليّ وعلى نفسك ، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق » .

لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري :

وظنّ رسول الله ﷺ أنّ أبا طالب قد اضطرب في أمره ، وضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال :

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ : ص ٢٦٤ - ٢٦٥ باختصار .

« يا عَمَّ ! والله لو وضَعُوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يساري ، على أن أتُركَ هذا الأمرَ حتى يُظهِرَهُ اللهُ أو أهلكَ دونه ، ما تركته » .

واستعبرَ رسولُ اللهِ ﷺ فبكى ، ثم قام ، فلمَّا ولى ناداهُ أبو طالبٍ فقال :
أقبلُ يابنَ أخي ! فأقبلَ عليه رسولُ اللهِ ﷺ فقال : اذهب يابنَ أخي فقل ما
أحببتَ ، فوالله لا أسلمُكَ لشيءٍ أبداً^(١) .

تعذيب قريش للمسلمين :

ومضى رسولُ اللهِ ﷺ يدعو إلى الله ، ويَسْتُ قريشَ منه ومن أبي طالبٍ ،
ونزلَ غضبُهُم على من كان أسلمَ من أبناءِ قبايلهم ، وليسَ لهم من يمنعُهم .

فوثبتَ كلُّ قبيلةٍ على من فيهم من المسلمين ، فجعلوا يحبسُونهم
ويعذبُونهم بالضربِ ، والجوعِ ، والعطشِ ، وبرمضاءِ مكة إذا اشتدَّ الحرُّ .

وكانَ بلالُ الحبشيُّ - وقد أسلمَ - يخرجُهُ مولاة أميةَ بنِ خلفٍ ، إذا حميتِ
الظهيرةُ ، فيطرُحُهُ على ظهره في بطحاءِ مكة ، ثم يأمرُ بالصخرةِ العظيمةِ ، فتوضعُ
على صدره ، ثم يقولُ له : لا والله لا تزالُ هكذا حتى تموتَ أو تكفرَ بمحمدٍ ،
وتعبدَ اللاتَ والعزى ، فيقولُ - وهو في ذلك البلاءِ - : أحدٌ ، أحدٌ^(٢) .

فمرَّ به أبو بكرٍ الصديقُ - رضيَ اللهُ عنه - فأعطى أميةَ غلاماً أسوداً أجلدَ
منه ، وأقوى ، وأخذَ منه بلالاً وأعتقه^(٣) .

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦] وأخرج هذه القصةَ البيهقي في دلائل النبوة
(١٨٧/٢) وأبو يعلى في مسنده (١٧٦/١٢) ، والحاكم في المستدرک (٥٧٧/٣) بسياق
آخر عن عقيل بن أبي طالب ، وقال الهيثمي في المجمع (١٥/٦) : « رواه أبو يعلى
باختصار يسير من أوله ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح » [.

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(٣) [وقد أخرج هذه القصةَ أبو نُعيم في « الحلية » (١٤٩/١) ، وابن سعد في « الطبقات » =

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمّار بن ياسر وبأبيه وأمه - وكانوا أهل بيت إسلام - إذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء^(١) مكة ، فيمض بهم رسول الله ﷺ ويقول : « صبراً آل ياسر ! موعدكم الجنة » فأما أمه فقتلوها ، وهي تآبى إلا الإسلام^(٢) .

وكان مضعب بن عمير فتى مكة ، شاباً وجمالاً وتياً ، وكان أبواه يحبانّه ، وكانت أمه غنية كثيرة المال ، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه ، وكان أعطر أهل مكة ، يلبس الحضرمي من النعال ، وكان رسول الله ﷺ يذكره ويقول : « ما رأيت بمكة أحسن لمة^(٣) ولا أرق حلة ، ولا أنعم نعمة ، من مضعب بن عمير » .

وبلغ مضعب بن عمير أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام في دار أرقم بن أبي الأرقم ، فدخل عليه ، فأسلم ، وصدق به ، فخرج ، فكتّم إسلامه خوفاً من أمه وقومه ، فكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سراً ، فبصر به عثمان بن طلحة يصلي فأخبر أمه وقومه ، فأخذوه وحبسوه ، فلم يزل محبوساً حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى ، ثم رجع مع المسلمين ، حين رجعوا ، فرجع متغير الحال - قد حرج - يعني غلظ - فكفّت أمه عنه من العذل^(٤) .

= (٣/١٦٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما [.

(١) [الرّمضاء : شدة الحرّ ، ويقال أيضاً للحجارة التي حميت من شدة وقع الشمس] .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص : ٣١٩ - ٣٢٠ [وأخرج هذه القصة الطبراني في الأوسط من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في المجمع (٢٩٣/٩) : رواه الطبراني في الأوسط ، ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن عبد العزيز المقوم ، وهو ثقة] .

(٣) [اللمة : شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن ، سميت بذلك لأنها ألّمت بالمنكبين ، فإذا زادت فهي الجمّة (النهاية في غريب الحديث » ج : ٣ ، ص : ٢٧٣)] .

(٤) طبقات ابن سعد : ج ٣ ، ص ٨٢ ، والاستيعاب : ج ١ ، ص ٢٨٨ .

وكان بعضُ المسلمين قد دخلَ في جوارِ بعضِ المشركين ، من أشرافِ قريش ورؤسائهم ، وكانوا يمنعونهم ويحمونهم .

وكان عثمانُ بن مظعونٍ قد دخلَ في جوارِ الوليدِ بن المغيرة ، ثمَّ أبَتْ غيرتهُ ذلك ، فردَّ عليه جواره ، وكانَ وفيّاً كريمَ الجوارِ ، وقال : قد أحببتُ ألا أستجيرَ بغيرِ الله ، ودارَ بينه وبينَ أحدِ المشركين حديثُ أغضبَ المشركَ ، فقامَ إليه ولطمَ عينه ، فحضرها الوليدُ بنُ المغيرة قريبٌ يرى ذلك ، فقال : أما والله يا بنَ أخي ! إن كانتَ عينُكَ عمّا أصابها لغنيةٌ ، لقد كنتَ في ذمَّةٍ منيعَةٍ ، قال عثمانُ : بل والله إن عيني الصحيحةَ لفقيرةٌ إلى مثل ما أصابَ أختها في الله ، وإنِّي لفي جوارٍ من هوَ أعزُّ منك وأقدرُ ، يا أبا عبدِ شمس^(١) .

ولمَّا أسلمَ عثمانُ بن عفانَ - رضيَ اللهُ عنه - أخذَه عُمهُ الحكمُ بن أبي العاصِ بن أمية ، فأوثقهُ رباطاً وقال : أترغبُ عن مِلَّةِ آبائِكَ إلى دينٍ مُحدثٍ ؟ والله ! لا أحلكَ أبداً حتى تدعَ ما أنتَ عليه من هذا الدين ، فقالَ عثمانُ : والله لا أدعُه أبداً ولا أفارقُه ، فلمَّا رأى الحكمُ صلابتهُ في دينه تركهُ^(٢) .

ويقولُ خَبَّابُ بنُ الأُرْت : لقد رأيتني يوماً أخذوني فأوقدُوا لي ناراً ثم سلقُوني فيها ، ثم وضعَ رجلٌ رجلَه على صدري ، فما اتقيتُ الأرضَ - أو قال بردَ الأرض - إلا بظهري ، ثم كشفَ عن ظهره ، فإذا هوَ قد برصَ^(٣) .

(١) سيرة ابن هشام ، ج ١ ؛ ص ٣٧٠ - ٣٧١ [وقد أخرج هذه القصةَ أبو نعيم في « الحلية » (١٠٣/١ - ١٠٤) والبيهقي في « الدلائل » (٢٩٢/٢) والطبراني في « المعجم الكبير » (٢١/٩ - ٢٤) برقم (٨٣١٦) .

(٢) طبقات ابن سعد : ج ٣ ، ص ٣٧ .

(٣) المصدر السابق : ج ٣ ، ص ١١٧ .

محاربة قريش لرسول الله - ﷺ - وتفنتهم في الإيذاء :

فلَمَّا لَمْ تَلَقَ قَرِيشٌ نَجَاحاً فِي صَرْفِ هَؤُلَاءِ الْفَتَيَانِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ، عَنْ دِينِهِمْ ، وَلَمْ يَلْنِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَحَابِهِمْ ، اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، فَأَغْرَوْا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ سُفْهَاءَهُمْ ، فَكَذَّبُوهُ وَأَذَوْهُ ، وَرَمَوْهُ بِالسَّحَرِ وَالشَّعْرِ ، وَالْكَهَانَةِ وَالْجَنُونِ ، وَتَفَنَّنُوا فِي إِيْذَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَهَبُوا فِيهِ كُلَّ مَذْهَبٍ .

وَكَانَ أَشْرَافُهُمْ مُجْتَمِعِينَ يَوْمًا فِي الْحَجْرِ^(١) ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَرَّ بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ ، فَغَمَزُوهُ بِبَعْضِ الْقَوْلِ ، وَعَادُوا بِذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَوَقَفَ ثُمَّ قَالَ : أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ ؟ ، أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ ، فَأَسَكَّتَ الْقَوْمُ ، فَلَا حِرَاكَ بِهِمْ ، وَصَارُوا يُلَاطِفُونَهُ بِالْقَوْلِ .

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ ، وَهُمْ فِي مَقَامِهِمْ ، طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثْبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَأَحَاطُوا بِهِ ، وَأَخَذَ رَجُلٌ مِنْهُمْ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - دُونَهُ ، وَهُوَ يَبْكِي وَيَقُولُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ : رَبِّيَ اللَّهُ ؟! فَانصَرَفُوا عَنْهُ ، وَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ يَوْمئِذٍ وَقَدْ صَدَعُوا فَرْقَ رَأْسِهِ ، وَقَدْ جَرَّوهُ بِلَحِيَّتِهِ^(٢) .

وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَلَمْ يَلْقَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ ، إِلَّا كَذَّبَهُ وَأَذَاهُ ،

(١) الحجر : بكسر الحاء وسكون الجيم ؛ هو الفضاء الواقع بين الحَطِيمِ وحائط البيت ، ويسمونه بـ « حجر إسماعيل » أيضاً ، والحطيم قوس من البناء طرفاه إلى زاوية البيت الشمالية والغربية ، وكان « الْحِجْرُ » أولاً داخلاً في الكعبة ؛ فلما هدم السيلُ الكعبةَ بَنَتْهَا قَرِيشٌ مِنْ جَدِيدٍ ، وَذَلِكَ قَبْلَ مَبْعَثِهِ ﷺ بِنَحْوِ خَمْسِ سِنِينَ ، فَقَصُرَتْ بِهِمُ النِّفَقَةُ ؛ فَبَنَوْا الْكَعْبَةَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ الْآنَ .

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب قول النبي ﷺ : « لَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا خَلِيلًا » بِرَقْم (٣٦٧٨) ، وَأَحْمَد (٢١٨/٢) ، وَابَيْهَقِي فِي « الدَّلَائِلِ » (٢٧٤/١٢) مِنْ حَدِيثِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ] .

لا حرّاً ولا عبداً ، فرجع رسول الله ﷺ إلى منزله ، فتدثّر من شدّة ما أصابه ،
فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمَدَنِيُّ ﴾ ^(١) [المدثر : ١] .

ما فعل كفّار قريش بأبي بكر :

وقام أبو بكر يوماً في الناس ، يدعو إلى الله وإلى رسوله ، وثار المشركون
على أبي بكر فوطّئوه ، وضربوا ضرباً شديداً ، وجعل عتبة بن ربيعة يضربه
بنعلين مخصوفتين يحرفهما بوجهه حتى ما يُعرف وجهه من أنفه .

وحملت بنو تيمم أبا بكر ، وهم لا يشكّون في موته ، وتكلّم آخر النهار ،
فقال : ما فعل رسول الله ﷺ فمَشُوا منه بالسنّتهم وعذّلوه ، ثم قاموا وقالوا
لأمه أم الخير : انظري أن تطعميه شيئاً ، أو تسقيه إياه ، فلمّا خلت به ألحّت
عليه ، وجعل يقول : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت : والله مالي علمٌ بصاحبك .
فقال : اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب ، فخرجت حتى أتت أم جميل ،
فمضت معها ، ودنت منه أم جميل وهي ممّن أسلم فسألها عن رسول الله ﷺ
قالت : هذه أمك تسمع ، قال : فلا شيء عليك منها ، قالت : سالمٌ
صالحٌ ، قال : فإنّ لله عليّ ألا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله
ﷺ ، فأمهلنا ، حتى إذا هدأت الرّجل ، وسكن الناس ، خرجتا به يتكىء
عليهما ، حتى أدخلتا ، ورقّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة فقال أبو بكر : بأبي
وأمي يا رسول الله ليس بي بأسٌ إلا ما نال مني الفاسق من وجهي ، وهذه أمي
برة بولدها ، وأنت مبارك فادعها إلى الله ، وادع لها عسى أن يستقذها بك من
النار ، فدعا رسول الله ﷺ لأمّه ، ودعاها إلى الله ، فأسلمت ^(٢) .

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٢٨٩ - ٢٩١ ، ورواه البخاري مختصراً في باب « ما لقي
رسول الله ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة » .

(٢) سيرة ابن كثير : ج ١ ، ص : ٤٣٩ - ٤٤١ [أخرج الحميدي هذه القصة في مسنده ، برقم (٣٢٤)] .

حيرة قريش في وَصَفِ رسول الله ﷺ - :

وَحَارَتْ قريشٌ في أمرِ رسولِ الله ﷺ بماذا يَصِفُونَهُ ، وكيفَ يَحُولُونَ بَيْنَهُ ، وبينَ من يقصدهُ ، أو يستمعُ إليه ، من الوافدين من بعيدٍ ، واجتمعوا إلى الوليدِ ابنِ المُغيرة - وكان ذا سِنَّ فيهم وقد حضرَ الموسمَ - فقالَ لهم : يا معشرَ قريشٍ ! إنَّه قد حضرَ هذا الموسمُ ، وإنَّ وفودَ العربِ ستقدُّمُ عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمرِ صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذبَ بعضكم بعضاً ، ويردَّ قولكم بعضه بعضاً ، ودارَ بينهم حديثٌ طويلٌ وأخذُ وردُّ .

ولم يَرْضَ الوليدُ بما عرضوه ، ونقضه ، فرجعوا إليه وقالوا : فما تقولُ يا أبا عبدِ شمسٍ ؟ ! قال : إن أقربَ القولِ فيه لأن تقولوا : ساحرٌ جاء بسحرٍ ، يفرِّقُ به بينَ المرءِ وأبيه ، وبينَ المرءِ وأخيه ، وبينَ المرءِ وزوجته ، وبينَ المرءِ وعشيرته .

فتفرَّقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسونَ يسُبِّلُ الناسَ ، حينَ قدِموا الموسمَ ، لا يُمِرُّ أحدٌ إلا وحذَّروه إياه ، وذكرُوا له أمره ^(١) .

قسوة قريشٍ في إيذاءِ رسولِ الله ﷺ ومبالغتهم في ذلك :

وتفنَّنت قريشٌ ، وقسوا في إيذاءِ رسولِ الله ﷺ فلم يرعوا فيه قرابةً ، وتخطَّوا حدودَ الإنسانية .

فبينما النبي ﷺ ساجدٌ - ذاتَ يومٍ - في المسجدِ ، وحوله ناسٌ من قريشٍ ، إذ جاء عقبهُ بنُ أبي مُعيطٍ بسلاً جزوراً ^(٢) ، فقفزه على ظهرِ النبي ﷺ فلم يرفعْ

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٢٧٠ - ٢٧١ - باختصار .

(٢) سلا : هو اللَّفافة يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان ؛ وهي من الآدمية المشيمة .

رأسه ، فجاءت ابنته « فاطمة » - عليها السلام - فأخذته من ظهره ، ودعت على من صنع هذا ، ودعا عليهم النبي ﷺ^(١) .

إسلام حمزة بن عبد المطلب :

ومرَّ أبو جهل برسول الله ﷺ ذات يوم عند « الصفا » فأذاه وشتمه ، فلم يكلمه رسول الله ﷺ فانصرف عنه .

ولم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً^(٢) قوسه ، راجعاً من قنص له ، وكان أعزَّ فتى في قريش ، وأشدَّ شكيمة ، وأخبرته مولاه عبد الله بن جُدعان بما جرى لرسول الله ﷺ فاحتمل حمزة الغضب ، ودخل المسجد ، ورأى أبا جهل جالساً في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه ، رفع القوس ، فضربه بها ، فشجّه شجّة منكراً ، ثم قال : أتشتّمه وأنا على دينه ، أقول ما يقول ؟ فسكت أبو جهل ، وأسلم حمزة ، وعزّ ذلك على قريش لمكانته وشجاعته^(٣) .

ما دار بين عتبة وبين رسول الله ﷺ :

ولمّا رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ يزدون ويكثرون استأذن عتبة ابن ربيعة قريشاً ، أن يأتي رسول الله ﷺ فيكلمه ، ويعرض عليه أموراً ، لعلّه يقبل بعضها ، فيعطونها ، ويكفّ عنهم ، وأذنت له قريش ، واستخلفته .

(١) رواه البخاري [في كتاب مناقب الأنصار] باب « ذكر ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة » [برقم (٣٨٥٤) ، ومسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين ... برقم (١٧٩٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه] .

(٢) متوشحاً : متقلداً .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٢٩١-٢٩٢ .

وجاء عتبة إلى رسول الله ﷺ فجلس إليه ، وقال : يابن أخي ! إنَّكَ مِنَّا حيثُ قد علمتَ ، وإنَّكَ قد أثبتَ قومَكَ بأمرٍ عظيمٍ ، فرقتَ بهِ جماعتَهُمْ ، وسفَهتَ بهِ أحلامَهُمْ ، وعبتَ بهِ آلهَتَهُمْ ودينَهُمْ ، وكفرتَ بهِ مَنْ مَضَى من آبائِهِمْ ، فاسمَعْ مِنِّي أعرضَ عليكَ أموراً تنظرُ فيها ، لعلَّكَ تقبلُ منها بعضَها . فقال رسولُ الله ﷺ : « قلْ يا أبا الوليدِ ! أسمعُ » .

قالَ : يابنَ أخي ! إن كنتَ إنما تريدُ بما جئتَ بهِ من هذا الأمرِ مالاً ، جمعنا لكَ من أموالنا حتَّى تكونَ أكثرنا مالاً ، وإن كنتَ تريدُ شرفاً ، سوِّدناكَ علينا ، حتَّى لا نقطعَ أمراً دونكَ ، وإن كنتَ تريدُ ملكاً ملَّكناكَ علينا ، وإن كان الذي يأتِيكَ رثياً^(١) تراه ، لا تستطيعُ ردُّهُ عن نفسِكَ ، طلبنا لكَ أطباءً ، وبذلنا فيه أموالنا حتَّى نبرئكَ منه .

فلَمَّا فرغَ عتبةُ ، قالَ رسولُ الله ﷺ : « أفدُ فرغتَ يا أبا الوليدِ ؟ » . قالَ : نَعَمْ .

قالَ : فاسمَعْ مِنِّي .

قالَ : أفعلُ .

فقرأ رسولُ الله ﷺ آياتٍ من سورة ﴿ فصَّلْتَ ﴾ إلى السجدة ، فلَمَّا سمعَ منه عتبةُ ، أنصَتَ لها ، وألقى يديه خلفَ ظهره ، معتمداً عليهما ، يسمعُ منه ، فلَمَّا انتهى رسولُ الله ﷺ إلى السجدة منها ، سجدَ ، ثمَّ قالَ : قد سمعتَ يا أبا الوليدِ ما سمعتَ فأنتَ وذاك .

فقامَ عتبةُ إلى أصحابه ، فقالَ بعضهم لبعضٍ : نحلفُ باللهِ لقد جاءكم أبو الوليدِ بغيرِ الوجهِ الذي ذهبَ بهِ ، فلَمَّا جَلَسَ إليهم ، قالوا : ما وراءَكَ

(١) رثياً : ما يترأى للإنسان من الجن .

يا أبا الوليد؟! قال : ورائي أني قد سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله قطُ ،
والله ما هو بالشعرِ ، ولا بالسحرِ ، ولا بالكهانةِ ، يا معشر قريشٍ ! أطيعُوني ،
وخلّوا بينَ هذا الرجلِ وبينَ ما هوَ فيه ، فاعتزلوه ، قالوا : سحرَكَ واللهِ
يا أبا الوليدِ بلسانهِ ، قالَ : هذا رأيي فيه ، فاصنعُوا ما بدا لكم^(١) .

هجرة المسلمين إلى الحبشة :

ولمّا رأى رسولُ الله ﷺ ما يُصيبُ أصحابه من البلاءِ ، وأنّه لا يقدرُ على
أن يمنعهم ، قالَ لهم : لو خرجتُم إلى أرضِ الحبشةِ ، فإنَّ بها ملكاً ، لا يظلمُ
عنده أحدٌ ، وهي أرضُ صدقٍ ، حتّى يجعلَ اللهُ لكم فرجاً مما أنتم فيه .

فخرجت عندَ ذلك جماعةٌ من المسلمين إلى أرضِ الحبشةِ ، فكانت أوّل
هجرةٍ في الإسلام ، وكانوا عشرةَ رجالٍ وأربعَ نسوةٍ فيهم عثمانُ بنُ عفّانَ
وزوجهُ رقيةُ بنتُ رسولِ الله ﷺ ، أمّروا عليهم عثمانُ بنُ مظعونٍ .

ثم خرجَ جعفرُ بنُ أبي طالبٍ ، وتتابَعَ المسلمون ، حتّى اجتمعوا بأرضِ
الحبشةِ ، منهم من خرجَ بأهلهِ ، ومنهم من خرجَ بنفسِهِ ، وكانَ جميعُ منْ
هاجرَ إلى أرضِ الحبشةِ ثلاثةَ وثمانين رجلاً^(٢) .

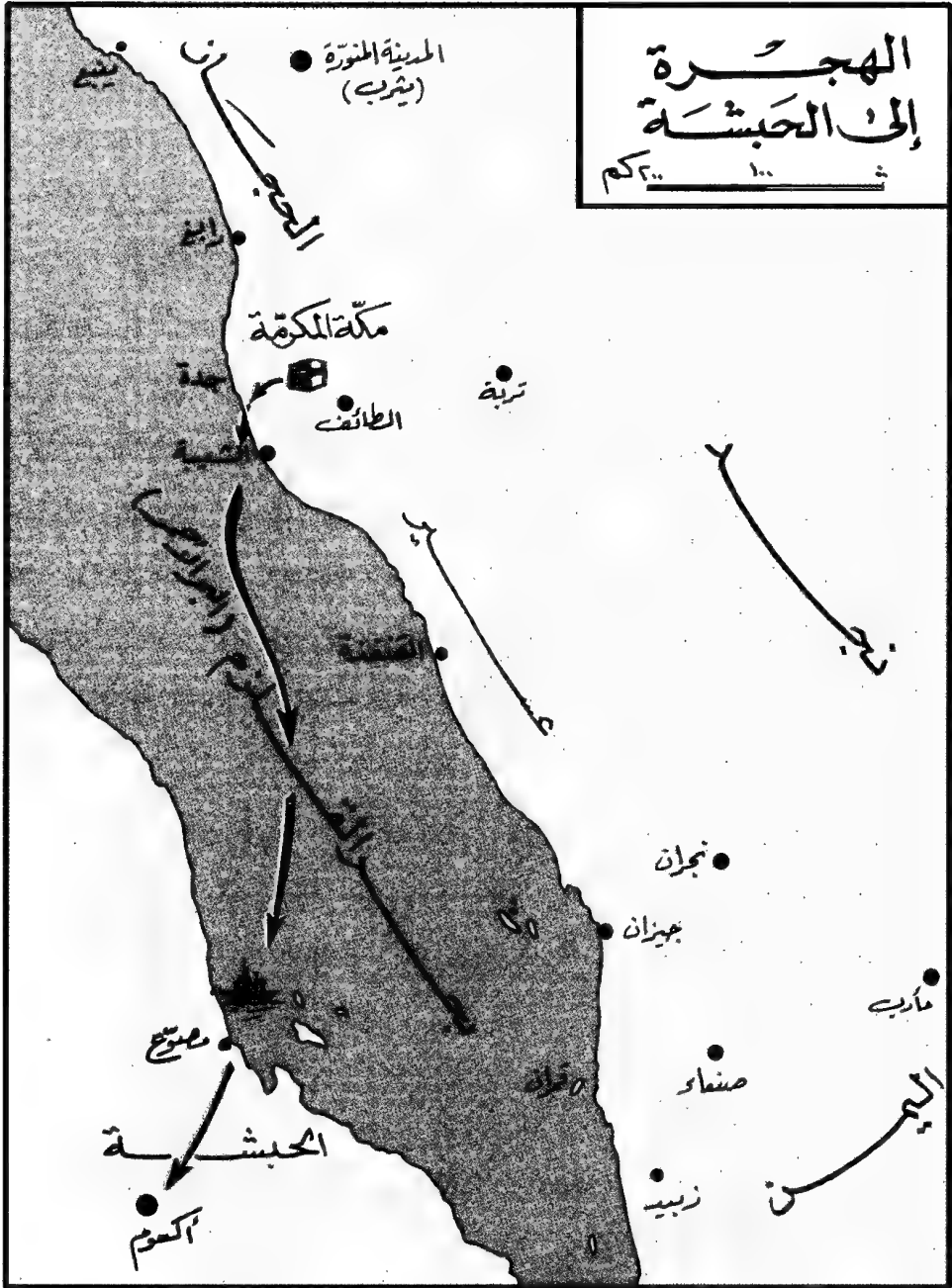
ولم تكنِ الغايةُ الوحيدةُ من الهجرةِ إلى الحبشةِ الخلاصَ من أذى قريشٍ ،
بل كانتْ مقترنةً بالدعوةِ إلى الإسلامِ والتخفيفِ من همومِ النبي ﷺ .

واستعراضُ قائمةِ المهاجرين يدُلُّ على سعةِ الدائرةِ البشريةِ وتنوّعِها

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ [وجاء من حديث جابر بن عبد الله رضي الله
عنهما ، قال الهيثمي في المجمع (١٩/٦ - ٢٠) : رواه أبو يعلى ، وفيه الأجلح الكندي ،
وثقّه ابن معين وغيره ، وضعفه النسائي وغيره ، وبقيّة رجاله ثقات] .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٣٢١ - ٣٣٠ .

خريطة الهجرة إلى الحبشة



وشمولها للطبقات والمستويات في المجتمع المكي ، ففيها الغني والفقير ، والكهل والشاب ، والرجال والنساء ، وينتمي أغلبهم إلى أسرٍ مكيّة عريقة ، فدلّ على شدّة تأثير الدعوة وقوتها وشمولها .

تعقّب قريش للمسلمين :

ولَمَّا رَأَتْ قَرِيشٌ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ أَمِنُوا وَاطْمَأَنَّنُوا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ، بَعَثُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَمْرُو بْنَ الْعَاصِ بْنَ وَاثِلٍ ، وَجَمَعُوا لَهُمَا هَدَايَا لِلنَّجَاشِيِّ وَلِبَطَارِقَتِهِ^(١) ، مِمَّا يَسْتَطِرْفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ ، وَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ ، وَقَدْ اسْتَمَالَا الْبَطَارِقَةَ ، وَأَرْضِيَاهُمْ بِهَدَايَاهُمْ ، وَتَكَلَّمَا فِي مَجْلِسِ الْمَلِكِ ، فَقَالَا : إِنَّهُ لَجَأٌ إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مَنَّا غُلَمَانُ سُفَهَاءُ ، فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ ، وَجَاؤُوا بِدِينٍ مُبْتَدِعٍ ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لَتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ ، فَهَمْ أَبْصَرُوا بِهِمْ وَأَقْرَبُوا إِلَيْهِمْ ، وَقَالَتِ الْبَطَارِقَةُ حَوْلَهُ : صَدَقَا أَيُّهَا الْمَلِكُ ، فَأَسْلَمَهُمْ إِلَيْهِمَا .

فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ ، وَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ كَلَامَهُمْ ، وَيَسْلَمَ مِنْ لَجَأٍ إِلَيْهِ وَإِلَى بِلَادِهِ ، وَحَلَفَ بِاللَّهِ ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَدَعَاهُمْ ، وَدَعَا أَسَاقِفَتَهُ^(٢) ، وَقَالَ لِلْمُسْلِمِينَ : مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي قَدْ فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ ؟ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَدِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْمِلَلِ ؟ .

تصويرُ جعفر بن أبي طالب للجاهلية وتعريفه بالإسلام :

وَقَامَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - وَهُوَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَقَالَ لَهُ :

(١) البطارقة : جمع بطريق ، وهو القائد الحاذق بالحرب .

(٢) الأساقفة : علماء النصارى ؛ والواحد : الأسقف .

« أَيُّهَا الْمَلِكُ ! كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنَسِيءُ الْجَوَارِ ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِمَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا ، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعِفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ ، وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ .

وَأَمَرَنَا بِصَدَقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُخَصَّنَاتِ .

وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ - فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ - فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا ، وَأَحَلَّلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا ، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا ، فَعَذَّبُونَا ، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا ، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْ الْخَبَائِثِ .

فَلَمَّا قَهَرُونَا ، وَظَلَمُونَا ، وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا ، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا ، خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ ، وَرَغَبْنَا فِي جَوَارِكَ ، وَرَجَوْنَا أَلَّا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ! » .

وَسَمِعَ النَّجَاشِيُّ كُلَّ ذَلِكَ فِي هُدُوءٍ وَوَقَارٍ ، ثُمَّ قَالَ : هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ صَاحِبُكُمْ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ .

قال جعفرُ : نعم .

قال النجاشيُ : فاقرأه عليَّ .

فقرأ جعفرُ صدرًا من سورة مريمَ ، فبكى النجاشيُّ ، حتى اخضلتُ^(١) لحيتهُ ، وبكى أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم^(٢) .

إنَّ كلامَ جعفرِ بنِ أبي طالبٍ أَمَامَ ملكِ الحبشةِ ، وتصويره للإسلام ، كلامٌ حكيمٌ قد جاءَ في أوانِهِ ومكانِهِ ، وقد دلَّ على بلاغةِ صاحبه العقليةِ ، قبلَ أن يدلَّ على بلاغتهِ العربيةِ البيانيةِ ، ولا يعللُ ذلك إلاَّ بإلهامِ مَنْ اللهُ وتأييدِ هذا الدينِ الذي أرادَ اللهُ أن يتمَّ نورهُ ، وأن يظهروه على كلِّ دينٍ ، ويدلُّ كذلك على سلامةِ الفطرةِ ، ورجاحةِ العقلِ ، اللتين فاقَ فيهما بنو هاشمٍ قريشاً ، وفاقتَ فيهما قريشُ العربِ كلَّهم ، فقد فضَّلَ جعفرُ أن يكونَ جوابُهُ حكايةَ حالٍ لما كانَ عليه أهلُ الجاهليةِ في الجزيرةِ العربيةِ ، ولما آلَ إليه أمرُهم بعدما أرسلَ اللهُ رسولهَ فيهم ، ودعا إلى اللهِ وإلى الدينِ الحنيفيِ السمحِ ، ومكارمِ الأخلاقِ ، وآمنوا به واتبَعوه ، وحكايةُ الحالِ - خصوصاً إذا لم يجانبَ فيه صاحبُها الصوابَ - أبعدُ شيءٍ عن المناقشةِ والمناظرةِ ، وأقدرُ شيءٍ على غرسِ المعاني المقصودةِ ، وتحقيقِ الأهدافِ المنشودةِ ، والتهيؤِ للتأثُّلِ والإنصافِ وحُسنِ الاستماعِ^(٣) .

خيبةٌ وفدٍ قريشٍ :

ثمَّ قالَ النجاشيُّ : إنَّ هذا والذي جاءَ به عيسىُ ، يخرجُ مِنْ مشكاةٍ واحدةٍ ، ثمَّ أقبلَ على رسولِي قريشٍ ، فقال : انطلقا فلا واللهِ لا أسلمُهم إليكم ، ولا يُكادون .

(١) اخضلت : ابتلت .

(٢) [أخرجه أحمد في المسند (٢٠٢/١) و(٢٩٠/٥ - ٢٩٢) والبخاري (١٧٤٠) وانظر في مجمع الزوائد (٢٤/٦ - ٢٧)] .

(٣) نقلاً من « روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة » للمؤلف ، [انظر المحاضرة الثامنة بعنوان « تمثيل جعفر بن أبي طالب للإسلام ... »] ص ١٠٧ - ١٠٨ [وانظر « محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة » للعلامة المؤلف ، إعداد المحقق ، ج : ١ ، ص : ٤٩٣ ، طبع دار ابن كثير] .

وأطلقَ عمرو بنُ العاصِ آخرَ سهمٍ من سهامِ جَعْبَتِهِ ، وهو سهمٌ مسمومٌ ، فغدا على النجاشيِّ من الغدِ ، وقالَ له : أيها الملكُ ! إنَّهم يقولون في عيسى ابنِ مريمَ قولاً عظيماً ، فأقبلَ الملكُ على المسلمينَ ، فقالَ : ماذا تقولون في عيسى ابنِ مريمَ ؟ .

قال جعفرُ بنُ أبي طالبٍ : نقولُ فيه ما جاء به نبيُّنا ﷺ هو عبدُ الله ، ورسولُهُ ، ورؤُوحُهُ ، وكلمتُهُ ، ألقاها إلى مريمَ العذراءِ البتولِ ، فضرَبَ النجاشيُّ بيده إلى الأرضِ فأخذَ منها عوداً ، ثمَّ قالَ : والله ما زادَ عيسى ابنُ مريمَ على ما قلتَ مقدارَ هذا العودِ .

ورَدَّ المسلمينَ ردّاً كريماً ، وأمَّنَهم ، وأمرَ برَدِّ هدايا رسولِي قُريشَ ، وخرجًا من عنده مقبوحين^(١) ، فأقامَ المسلمونَ بخيرِ دارٍ معَ خيرِ جارٍ .

وقد هاجَمَ النجاشيُّ عدوُّ له ، فانتصرَ المهاجرون المسلمونَ للنجاشيِّ اعترافاً بحُسنِ موقفِهِ من المهاجرين المضطَّهدين ومكافأته على حسنِ صنيعِهِ^(٢) ، وكانَ ذلكَ مطابقاً لتعاليمِ الإسلامِ الخلقِيَّةِ ولائقاً بأخلاقِ المسلمين .

وكانتْ هذه الهجرةُ إلى الحبشةِ سنةَ خمسٍ بعدَ النبوةِ ، وقد بقيَ جعفرُ بنُ أبي طالبٍ معَ عددٍ من أصحابِهِ إلى سنة ٧ من الهجرةِ ، فقد قدَّمَ جعفرُ بنُ أبي طالبٍ على رسولِ الله ﷺ في غزوةِ خيبرَ فكانَ بقاءُهُ في الحبشةِ خمسَ عشرةَ سنةً ، وهي مدَّةٌ طويلةٌ ، لا بدَّ أنَّ جعفرًا قد انتفعَ بها في الدعوةِ إلى الإسلامِ ، والتعريفِ به في بلدٍ امتازَ عن كثيرٍ من البلادِ النصرانيةِ بالتسامحِ وإيواءِ

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٣٣٤ - ٣٣٨ باختصار .

(٢) راجع «مسند الإمام أحمد بن حنبل» (١/٢٠٣) و(٥/٢٩٠ - ٢٩٢) .

المضطهدين ، وعُرفَ حاكمه بالعدل والإنسانية ، ولكنَّ العهدَ لم يكنْ عهدَ تسجيلِ الحوادثِ ، وليستْ أماننا وثائقُ تاريخيةٌ تُثبتُ ذلكَ ، ولكنَّ القياسَ يقتضيه .

إسلامُ عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه :

وأيدَ اللهُ الإسلامَ والمسلمينَ بإسلامِ عمرَ بنِ الخطَّابِ العدويِّ القرشيِّ ، وكانَ رجلاً مهيباً ، ذا قوَّةٍ وشكيمةٍ ، وكانَ رسولُ الله ﷺ حريصاً على إسلامِهِ ، يدعو اللهَ لذلكِ .

وكانَ منْ خبرِ إسلامِهِ أنَّ أخته « فاطمة » بنتَ الخطَّابِ أسلمتْ وأسلمَ بعُلمها سعيدُ بنُ زيدٍ ، وكانا يخفيانِ إسلامَهُما منْ عمرَ ، لهيبتهِ وشِدَّتِهِ على الإسلامِ والمسلمينَ ، وكانَ خَبَّابُ بنُ الأرتِّ يختلفُ إلى فاطمةَ يقرئُها القرآنَ .

فخرجَ عمرُ يوماً متوشحاً سيفه ، يريدُ رسولَ الله ﷺ ورهطاً منْ أصحابِهِ ، قدْ ذَكَرَ لَهُ أَنَّهُمْ اجتمعُوا في بيتِ عندَ « الصِّفا » فلقِيه نعيمُ بنُ عبدِ الله - وهو منْ قومه بني عديٍّ ، وكانَ قدْ أسلمَ - فقالَ له : أينَ تريدُ يا عمرُ ؟

قالَ : أريدُ محمداً هذا الصَّابِيَّ ، الذي فرقَ أمرَ قريشٍ ، وسفَّهَ أحلامَهَا ، وعابَ دينَهَا ، وسبَّ آلَهَا ، فأقتله .

فقالَ له نعيمٌ : لقدْ غَرَّتْكَ نفسك يا عمرُ ! أفلا ترجعُ إلى أهلِ بيتِكَ ، فتقيمَ أمرَهُم ؟

قالَ عمرُ : وأيُّ أهلِ بيتي ؟!

قالَ : خَتَنُكَ وابنُ عمِّكَ سعيدُ بنُ زيدٍ ، وأختُكَ فاطمةُ بنتُ الخطَّابِ ، فقدْ واللهِ أسلما ، وتابعا محمداً على دينِهِ ، فعليك بهما .

ورجعَ عمرُ عامداً إلى أختهِ وختنهِ ، وعندَهما خَبَّابُ بْنُ الْأَرْتِ ، ومعهُ صحيفةٌ ، فيها سورةٌ ﴿ طه ﴾ يُقرئُها إياها ، فلمَّا سمعُوا حسَّ عمرُ ، تغيبَ خَبَّابُ في مخدَعٍ لهم^(١) ، وأخذتُ فاطمةُ الصحيفةَ وجعلتها تحتَ فخذِها ، وقد سمعَ عمرُ حينَ دنا إلى البيتِ قراءةَ خَبَّابٍ ، فلمَّا دخلَ ، قالَ : ما هذه الهَيْمَمةُ^(٢) ؟ .

قالا له : ما سمعتُ شيئاً .

قال : بلى ، واللهِ لقد أُخبرتُ أنكما تابعتُما محمّداً على دينه .

وبطشَ عمرُ بختنهِ سعيدِ بنِ زيدٍ ، فقامتْ إليه أختهُ فاطمةُ ، لتكفّه عن زوجها ، فضربها فشجّها .

فلمَّا فعلَ ذلكَ ، قالتْ له أختهُ وختنهُ : نعم ، قد أسلمنا وآمنا باللهِ ورسوله ، فاصنعْ ما بدا لك !

ولمَّا رأى عمرُ ما بأختهِ من الدم ، ندمَ على ما صنعَ ، وتوقّفَ وقالَ لأختهِ : أعطيني هذه الصحيفةَ التي سمعتُكم تقرأونها آنفاً ، أنظرُ ما هذا الذي جاءَ به محمّدٌ ، وكان عمرُ قارئاً ، فلمَّا قالَ ذلكَ ، قالتْ له أختهُ : إنّنا نخشاكُ عليها .

قالَ : لا تخافي ، وحلفَ لها باللهِ ، فلمَّا قالَ ذلكَ ، طمعتْ في إسلامه ، فقالتْ له : يا أخي ! إنك نجسٌ على شركك وإنّه لا يمسّها إلا الطاهرُ .

فقامَ عمرُ ، فاغتسلَ ، فأعطتهُ الصحيفةَ ، وفيها ﴿ طه ﴾ ، فلما قرأ منها صدراً ، قال : ما أحسنَ هذا الكلامَ ، وأكرمه ! .

(١) المخدع : البيت الصغير الذي يكون في البيت الكبير .

(٢) الهيممة : صوت كلام لا يفهم .

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ خَبَّابٌ ، خَرَجَ إِلَيْهِ ، وَقَالَ لَهُ : يَا عُمَرُ ! وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ خَصَّكَ بِدَعْوَةِ نَبِيِّهِ ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ أَمْسَ ، وَهُوَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ أَتَيْدُ الْإِسْلَامَ بِأَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ (يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ) أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ » فَاللَّهُ اللَّهُ يَا عُمَرُ^(١) .

عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُ عُمَرُ : فَدَلَّنِي يَا خَبَّابُ عَلَى مُحَمَّدٍ ، حَتَّى آتِيَهُ فَأَسْلَمَ ، قَالَ خَبَّابٌ : هُوَ فِي بَيْتِ عَبْدِ الصَّفَا ، مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَأَخَذَ عُمَرُ سَيْفَهُ ، فَتَوَشَّحَهُ ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ، فَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الْبَابَ ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ، قَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَظَرَ مِنْ خَلَلِ الْبَابِ ، فَرَأَاهُ مَتَوَشِّحًا بِالسَّيْفِ .

فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فَزِعٌ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! هَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، مَتَوَشِّحًا بِالسَّيْفِ .

فَقَالَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : فَائِذْنِ لَهُ ، فَإِنْ كَانَ جَاءَ يَرِيدُ خَيْرًا بَدَلْنَاهُ لَهُ ، وَإِنْ جَاءَ يَرِيدُ شَرًّا قَتَلْنَاهُ بِسَيْفِهِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَتِذْنُ لَهُ » ، فَأِذْنِ لَهُ الرَّجُلُ .

وَنَهَضَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى لَقِيَهُ فِي الْحَجَرَةِ فَأَخَذَ بِحِجْزَتِهِ^(٢) ، أَوْ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ ، ثُمَّ جَبَذَهُ بِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً ، وَقَالَ : « مَا جَاءَ بِكَ يَا بَنَ الْخَطَّابِ ؟ » فَوَاللَّهِ مَا أَرَى أَنْ تَنْتَهِيَ حَتَّى يُنْزَلَ اللَّهُ بِكَ قَارِعَةً » .

فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! جِئْتُكَ لِأُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

(١) [أخرج هذه القصة ابنُ سعد في الطبقات (٣/ ٢٦٧ - ٢٦٩) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢/ ٢١٩)] .

(٢) الحِجْزَةُ : موضع شد الإزار .

قال : فكَبَّرَ رسولُ الله ﷺ تكبيرةَ عرفَ منها أهلُ البيتِ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ أنَّ عمرَ قد أسلمَ^(١) .

وعَزَّ المسلمونَ في أنفُسِهِم ، حينما أسلمَ عمرُ ، وقد أسلمَ حمزةُ من قبلُ ، وعرفُوا وقعَ ذلكَ في نفوسِ الكُفَّارِ من قريشٍ ، وأثرَه في حياةِ مكةَ ، ولم يكونُوا على خطأ ، فلم يستثقلُ المُشْرِكُونَ إسلامَ أحدٍ ولم يحسبُوا له حساباً ، مثلَ ما فعلُوا عندَ إسلامِ عمرَ - رضيَ الله عنه - .

وأعلنَ عمرُ إسلامَهُ ، وشاعَ ذلكَ في قريشٍ ، وقتلوه وقتلَهُم^(٢) ، حتى يَشُؤا منه^(٣) .

مقاطعةُ قريشٍ لبني هاشمٍ والإضرابُ عنهم :

وجعلَ الإسلامُ يَفْشُو في القبائلِ ، فاجتمعتْ قريشٌ ، واثمروا بينهم أن يكتبُوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشمٍ وبني المطلبِ ، على ألاَّ ينكحُوا إليهم ولا ينكحُوهم ، ولا يبيعونَهُم شيئاً ، ولا يبتاعُوا منهم ، فلمَّا اجتمعُوا لذلكَ ، كتبُوهُ في صحيفةٍ ، ثم تعاهدُوا ، وتواثقُوا على ذلكَ ، وعلَّقُوا الصحيفةَ في جوفِ الكعبةِ ، توكيداً على أنفسهم .

في شعبِ أبي طالب :

فلَمَّا فعلَتْ ذلكَ قريشٌ ، انحازَتْ بنو هاشمٍ وبنو المطلبِ إلى أبي

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٣٤٢-٣٤٦ .

(٢) [أخرج ابنُ حبان قصةَ مقاتلةِ عمرَ لقريشٍ ، في الإحسان ، برقم (٦٨٤٠) ، وقال الهيثمي في المجمع (٦٥/٩) : « رواه البزار والطبراني باختصار ، ورجاله ثقات ، إلا أنَّ ابنَ إسحاق مدلسٌ » لكنَّهُ صرَّحَ بالتحديث ، فإذاً إسناده صحيحٌ] .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٣٤٩ .

طالب ، فدخلوا معه في شعبه^(١) ، وذلك في محرّم سنة سبع من النبوة .

وخرج من بني هاشم أبو لهب بن عبد المطلب ، وكان مع قريش .

وأقام بنو هاشم على ذلك حتّى جهدوا من ضيق الحصار ، وأكلوا ورق السمّر^(٢) ، وأطفالهم يتضاغون من الجوع ، حتّى يُسمع بكائهم من بعيد ، وقريش تحول بينهم وبين التجار ، فيزيدون عليهم في السلعة أضعافاً ، حتّى لا يشتروها .

ومكثوا على ذلك نحو ثلاث سنوات^(٣) ، لا يصل إليهم شيء إلا سرّاً ، ممن أراد صلتهم من قريش ، ورسول الله ﷺ على ذلك يدعوا قومه ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، وبنو هاشم صابرون محتسبون .

نقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة :

وقام نفر من قريش ، من أهل المروعة والضمائر ، في مقدّمهم هشام بن عمرو بن ربيعة ، فكرهوا هذا التعاقد الظالم ، وعافته نفوسهم ، وكان هشام رجلاً واصلاً ، وكان ذا شرف في قومه ، فمشى إلى رجال من قريش ، أنس فيهم الرقة والرجولة ، فاستثار حميتهم وإنسانيتهم لنقض الصحيفة والخروج من هذا التعاقد الظالم ، ولما كانوا خمسة اجتمعوا وتعاهدوا على نقض الصحيفة .

فلما كانت قريش في أنديتها من غد ، قام زهير بن أبي أمية ، وكانت أمّه « عاتكة » بنت عبد المطلب ، وأقبل على الناس ، قال : يا أهل مكة ! أناكلُ

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٣٥٠-٣٥١ .

(٢) [السمّر : ضرب من شجر الطلح] .

(٣) فتح الباري : ٣٧٣-٣٧٧ .

الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى ، لا يباع لهم ولا يُبتاع منهم؟! والله لا أقعدُ حتى تشقَّ هذه الصحيفةُ الظالمةُ .

وتدخَّلَ أبو جهلٍ في الحديثِ ، فلم يَفدْ ، وقامَ المطعمُ بن عدي إلى الصحيفةِ ليشقَّها ، فوجدَ الأرضةَ قد أكلتها إلا « باسمِكَ اللَّهُمَّ » وكان النبي ﷺ قد أخبرَ بذلك أبا طالب ، ومُرِّتِ الصحيفةُ وبطلَ ما فيها^(١) .

وفاءُ أبي طالبٍ وخديجةَ رضي الله عنهما :

وماتَ أبو طالبٍ وخديجةُ في عامٍ واحدٍ - العام العاشر من النبوة - وهما من عرفنا من حُسْنِ الصحبةِ والوفاءِ والنصرِ والتأييدِ ، ولم يُسلمِ أبو طالبٍ ، وتتابعتْ على رسولِ الله ﷺ المصائبُ^(٢) .

وقعُ القرآن في القلوب السليمة :

وقَدِمَ الطُّفَيْلُ بْنُ عمرو الدَّوسِيُّ مَكَةَ ، وكان رجلاً شريفاً ، وشاعراً لبيباً ، فحالتْ قريشٌ بينه وبين رسولِ الله ، وخَوْفُهُ من الدُّنُوِّ إليه ، وسماعِ كلامِهِ ، وقالوا : إِنَّا نخشى عليك وعلى قومِكَ ما قد دخلَ علينا ، فلا تكلمَنَّ ولا تسمعنَّ منه شيئاً .

يقولُ الطُّفَيْلُ : والله ما زالوا بي حتى أجمعتُ ألا أسمعَ منه شيئاً ، ولا أكلمه ، حتى حشوتُ في أذني قُطْناً ، وغدوتُ إلى المسجدِ ، فإذا رسولُ الله ﷺ قائمٌ يصلي عندَ الكعبةِ ، فقمْتُ منه قريباً ، فأبى الله إلا أن يسمعني بعضَ قوله ، قال : فسمعتُ كلاماً حسناً ، فقلْتُ في نفسي : واثكلَ أُمي ! والله إنِّي

(١) على ذلك يكون حصار الشعب قد بدأ في آخر العام السابع من البعثة ، وتوفي أبو طالب في آخر السنة العاشرة من المبعث ، (فتح الباري ٧/ ١٩٤) .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٤١٥ - ٤١٦ .

لرجلٍ لبيبٍ شاعرٌ ، ما يخفى عليَّ الحسنُ مِنَ القبيحِ ، فما يمنعني أن أسمعَ من هذا الرجلِ ما يقولُ ، فإنَّ كانَ الذي يأتي بهِ حسناً ، قبلتهُ ، وإنَّ كانَ قبيحاً تركتهُ .

ودخلَ الطفيلُ على رسولِ الله ﷺ في بيته ، وحكى له القصَّةَ ، فعرضَ عليه رسولُ الله ﷺ الإسلامَ ، وتلا عليه القرآنَ ، فأسلمَ ، ورجعَ إلى قومِهِ داعياً إلى الإسلامِ ، وأبى أن يُساكنَ أهلَهُ حتَّى يُسلمُوا ، فدخلُوا في الإسلامِ جميعاً ، ودعا دوساً إلى الإسلامِ ، وفشا الإسلامُ فيهم^(١) .

وكانَ أبو بكرٍ - رضي الله عنه - يعبدُ ربَّهُ في دارِهِ ، ولا يستعلنُ بصلاته ، ثمَّ بدا له فابتنى مسجداً بفاءِ دارِهِ ، وكانَ يصلِّي فيه ويقرأُ القرآنَ ، فيتقذِفُ^(٢) عليه نساءُ المشركينَ وأبناءؤُهُم ، وهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكانَ أبو بكرٍ رجلاً بكاءً ، لا يملكُ عينيه إذا قرأَ القرآنَ .

وأفرغَ ذلكَ أشرافَ قريشٍ من المشركينَ ، فأرسلوا إلى ابنِ الدُّغنةِ الذي أجاره ، فقدمَ عليهم ، فقالوا : إنَّا كنَّا أجَرنا أبا بكرٍ بجوارِك ، على أن يعبدَ ربَّهُ في دارِهِ ، فقدَ جاوزَ ذلكَ ، فابتنى مسجداً بفاءِ دارِهِ ، فأعلنَ بالصلاةِ والقراءةِ فيه ، وإنَّا قد خَشِينا أن يَفْتِنَ أبناءَنَا ونساءَنَا ، فأنهه فإنَّ أحبَّ أن يقتصرَ على أن يعبدَ ربَّهُ في دارِهِ ، فعلَ ، وإنَّ أبى إلَّا أن يُعلنَ بذلكَ ، فسله أن يردَّ إليك ذمَّتكَ ، فإنَّا كرهنا أن نخفركَ^(٣) ، ولسنا مقرِّين لأبي بكرٍ الاستعلانَ .

فلما أخبره ابنُ الدُّغنةِ بما قالتْ قريشُ ، قالَ أبو بكرٍ : فإنِّي أردُّ إليك جوارِكَ وأرضي بجوارِ الله^(٤) .

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٣٨٢ - ٣٨٤ . ملخصاً .

(٢) أي : يزدحمون حتَّى يسقط بعضهم على بعض .

(٣) الإخفار : هو نقض العهد .

(٤) رواه البخاري في الصحيح عن عائشة [في كتاب الكفالة ، باب جوار أبي بكر في عهد =

الخروج إلى الطائف وما لقي فيها من الأذى :

ولَمَّا ماتَ أبو طالبٍ نالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ من قريشٍ من الأذى ما لَمْ تكنْ تطمَعُ فيه قريشٌ ، في حياةِ أبي طالبٍ ، حتى اعترضهُ سفيهٌ من سفهاءِ قريشٍ ، فنثرَ على رأسِهِ تراباً .

ولَمَّا اشتدَّ أذى قريشٍ ، وانصرفَهم عن الإسلامِ ، وزهدَهم فيه ، خرجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى الطائفِ ، يلتمِسُ النصرةَ من ثقيفٍ وأنَّ يدخلُوا في الإسلامِ ، وكانَ لَهُ أملٌ في أهلِ الطائفِ^(١) ، ولا غربةَ في ذلكَ فَإِنَّهُ رضعَ في بني سعدٍ وهم بمقربةٍ من الطائفِ وفيهم مراضِعُهُ وحواضِنُهُ .

أضواءٌ على الطائفِ :

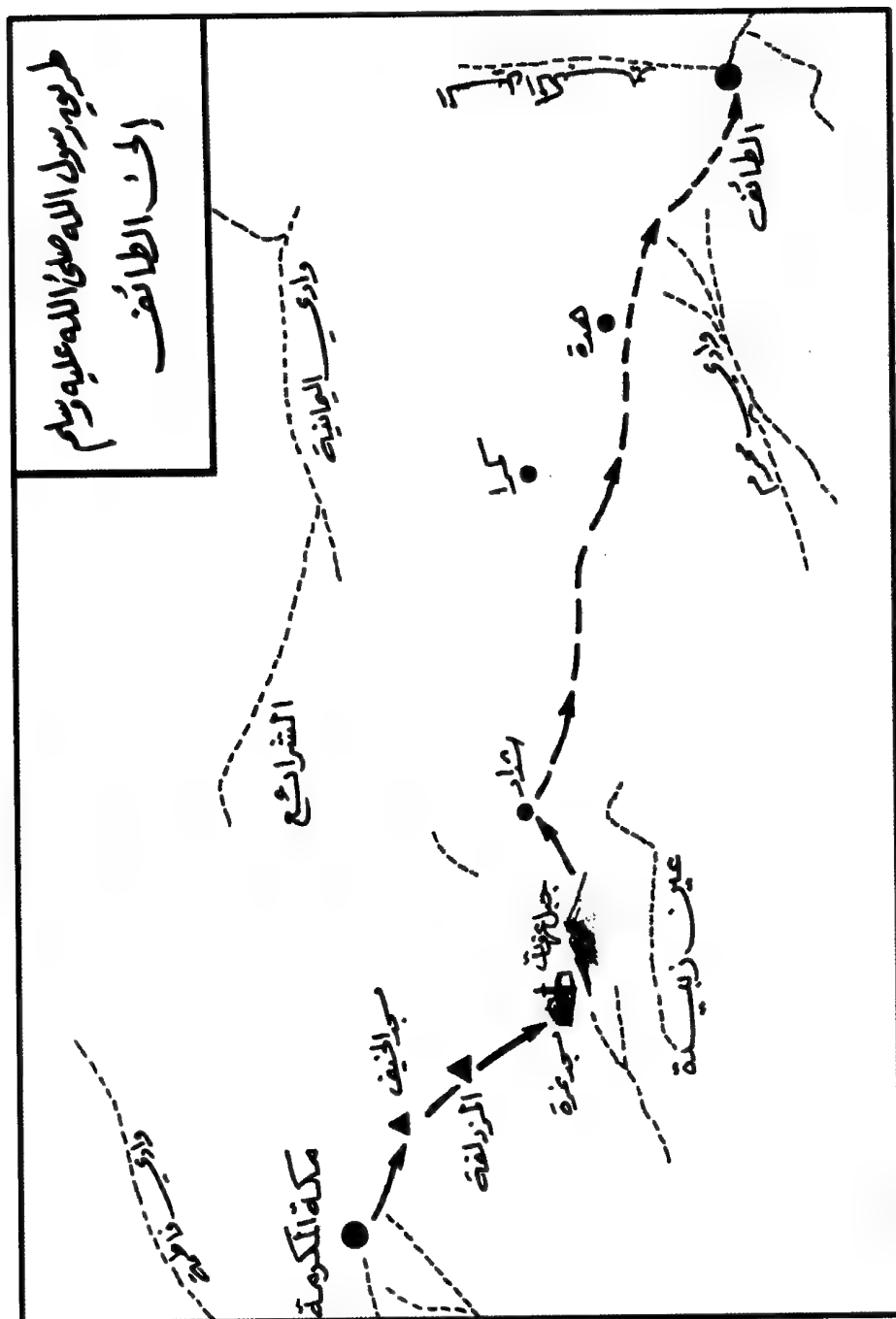
ولَمَّا كَانَتْ مَدِينَةُ الطَّائِفِ هِيَ الْمَدِينَةُ الثَّلَاثَةُ الْكَبِيرَةُ (بعدَ مكةَ ويثربَ) التي سَعِدَتْ بِقُدُومِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهَا ، وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الرَّحْلَةُ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ حَدَثًا كَبِيرًا ، لَيْسَ فِي السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَحْدَهَا بَلْ فِي تَارِيخِ النَّبَوَاتِ وَالِدَّعَوَاتِ - وَقَدْ قَصَدَهَا مَرَّتَيْنِ ، الْأُولَى فِي شَوَّالٍ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ بَعْدَ الْبُعْثَةِ ، وَالثَّانِيَّةُ فِي شَوَّالٍ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ - اسْتَحَقَّتْ - أَكْثَرَ مِنْ مَدِينَةٍ أُخْرَى فِي الْجَزِيرَةِ - أَنْ تُلْقَى عَلَيْهَا بَعْضُ الْأَضْوَاءِ لَتُعَرَفَ مَكَانَتُهَا التَّارِيخِيَّةُ وَالْجُغْرَافِيَّةُ وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ ، وَإِلَى الْقَارِئِ بَعْضُ الْمَعْلُومَاتِ عَنْهَا :

تَقَعُ مَدِينَةُ الطَّائِفِ عَلَى مَسَافَةِ خَمْسَةِ وَسَبْعِينَ مِيلًا تَقْرِبًا إِلَى الْجَنُوبِ

= رسول الله ﷺ وعقده ، برقم (٢٢٩٧) ، وعبد الرزاق في المصنف برقم (٩٧٤٣) ، وأحمد في المسند (٣٤٦ / ٦) .

(١) من المرجح أن رسول الله ﷺ توجه إلى الطائف في أخريات شوال من السنة العاشرة (خاتم النبیین ٥٨٠ / ١) للعلامة محمد أبي زهرة رحمه الله .

خريطة طريق رسول الله ﷺ إلى الطائف



الشرقي من مكة^(١) ، وهي واقعة على ظهر جبل غزوان ، ويبلغ ارتفاع هذا الجبل نحو ستة آلاف قدم^(٢) .

واسم الطائف مأخوذ من الشور أو الحائط الذي كان يحيط ويحيط بالمدينة ، وكان الاسم القديم لهذه المدينة هو « وَجْ »^(٣) .

وكان أثرياء قريش وجوهها قد ابتنوا قصوراً في الطائف ، وكانوا يقضون فيها شهور الصيف القاطنة .

وكان للعبّاس بن عبد المطلب عقارات بالطائف ، يقول البلاذري^(٤) :
« كَانَتْ لِعَامَّةِ قُرَيْشٍ أَمْوَالٌ بِالطَّائِفِ يَأْتُونَهَا مِنْ مَكَّةَ فَيَصْلَحُونَهَا » .

وأدى الثراء الواسع إلى فساد اجتماعي ، فاشتهر أثرياء الطائف بأنهم أصحاب ربا وزنى وخمر ، وانتشرت فيها صناعة الخمر وصناعة الزبيب ، وديع الجلود ، وصناعة العطور ، وتوافرت فيها موارد المياه ، وخصوبة الأرض ، فكثرت البساتين ، وطابت الثمار ، وتنوعت الفواكه ، وانتشرت الزراعة وغرس الأشجار ، وهو الشأن إلى الآن .

وكانت مصيفاً للمتنعمين ، وظلت كذلك إلى العهد الإسلامي فما بعده ، يقول الشاعر الأموي عمر بن أبي ربيعة : [من مجزوء الكامل]

تَشْتَو بِمَكَّةَ نِعْمَةً وَمَصِيفُهَا بِالطَّائِفِ

(١) جواد علي (المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام) : ج ٤ ص ١٤٢ ، وذلك بالنسبة إلى الطريق القديم بين مكة والطائف ، أما بعد أن فتح الطريق الجديد المعبد بين مكة والطائف فلا تزيد المسافة على ثمانين كيلومتراً .

(٢) الإصطخري (المسالك والممالك ، ص ٢٤) أمّا ارتفاع مدينة الطائف فلا يزيد على خمسة آلاف قدم .

(٣) [وَجْ : مَوْضِعٌ بِنَاحِيَةِ الطَّائِفِ (« النهاية في غريب الحديث » (١٥٤ / ٥)] .

(٤) فتوح البلدان : ص ٦٨ .

ولَمَّا كَانَ أَهْلُ الطَّائِفِ أَصْحَابُ أَمْلَاكِ وَبَسَاتِينَ ، وَثَرَاءٍ وَرِخَاءٍ ، أَوْرَثَهُمْ كُلُّ ذَلِكَ الْكِبَرِ وَالْبَطَرِ ، وَجَعَلَهُمْ مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبا : ٣٤-٣٥] .

وانفردت ثقيف بالسيادة في الطائف ، وأصبحت من أعظم القبائل العربية ، التي يضربُ بقوتها و ثروتها المثل ، وكانت من قبائل العرب المستعربة أي العرب العدنانية .

وكانت بين ثقيف وقريش منافسة في مجال الدين ، ورئاسة الأوثان وشعبيتهما ، وكانت تنظر إلى وثنها (اللات) كمنافسٍ لهبل ، بل للكعبة ، فأقامت حوله حرماً ، وأحاطته بنفس مظاهر التقديس وشعائر الدين ، التي كانت مختصة بالكعبة .

وحين زحف أبرهة بجيشه إلى مكة انفردت ثقيف بموقف التأييد له ، وبعثت معه أبا رغال دليلاً للجيش على الطريق إلى مكة ، وقد مات هذا الدليل في الطريق ، وأبغضه العرب ورجموا قبره^(١) .

وكان الثَّقَفِيُّونَ أرغد العرب عيشاً كما قال (ياقوت) ، وكان هواهم مع بني أمية ، وقد التقوا على حبِّ الثراء والجاه ، والتوسع في التجارة ، وقد قال رسول الله ﷺ : « قريش والأنصار حليفان ، وبني أمية وثقيف حليفان »^(٢) .

وكان عروة بن مسعود - وهو سيّد ثقيف - زوج أمنة بنت أبي سفيان ،

(١) الكامل : لابن الأثير ، ج ١ ، ص ٢٦٠ .

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : تأليف السيد محمود شكري الألوسي ، ج ٣ ، ص ٣٣٥ (الطبعة الثالثة) .

وكان له منها داود بن عروة^(١) ، وذهب كثير من المفسرين أنه المعني في قوله تعالى حكاية عن أهل مكة : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾^(٢) [الزخرف : ٣١] .

وقد نبغ في ثقيف الحارث بن كلدة ، وقد رحل إلى فارس ، وتعلم الطب ، واشتهر طبه بين العرب ، واشتهر بعده ابنه النضر وهو ابن خالة الرسول ﷺ^(٣) ، وقد تجول في عدة أقطار وصحب الأخبار والكهنة ، وكان له إلمام بعلوم الفلسفة والحكمة ، وأخذ الطب من أبيه ، وكان النضر كثير العداء والحسد للنبي ﷺ^(٤) .

واشتهر فيهم أمية بن أبي الصلت ، وكان من الشعراء المخضرمين الذين عاصروا الجاهلية والإسلام ، اطلع على كتب القدماء وخاصة التوراة ، وكان في مقدمة الحنفاء ، فلما بعث رسول الله ﷺ سقط في يده ، وكفر به حسداً ، وأخذ يحرض على الرسول ، ويرثي قتلى أعدائه في وقعة بدر ، له في التوحيد والحكمة شعر كثير ، وفيه يقول النبي ﷺ : « آمن شعره وكفر قلبه »^(٥) .

ومما يذكر لثقيف من المآثر أنه ارتد غالب العرب بعد وفاة النبي ﷺ إلا قريشاً وثقيفاً ، يقول الحافظ ابن كثير : « وقد كانت ثقيف بالطائف ثبتوا على

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٤٨٣ .

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة : للعلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني ، ج ٢ ، ص ٤٧٧ .

(٣) بلوغ الأرب : ج ٣ ، ص ٣٣٥ .

(٤) المصدر السابق : ص ٣٣٥ .

(٥) بلوغ الأرب : ج ٣ ، ص ١٢١ [وقال النبي ﷺ : « وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم »

أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب أيام الجاهلية برقم (٣٨٤١) ، ومسلم في

كتاب الشعر ، باب في إنشاد الأشعار ... برقم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله

عنه .]

الإسلام لم يَفِرُّوا ، ولا ارتدُّوا»^(١) ، وكانَ لهم أثرٌ وبلاءٌ في الحروبِ الإسلاميةِ ومواقفُ بطوليةٍ محمودةٌ .

وقد قصَدَ رسولُ الله ﷺ الطائفَ ، إمَّا لأنَّه المركزُ الثاني للقوَّةِ والسيادةِ في الحجازِ بعدَ مكةَ ، أو لأنَّ أخواله من بني ثقيفٍ ، فرأى أن يخرجَ إلى الطائفِ ، « يلتبسُ من ثقيفِ النصرِ والمنعةِ له من قومه »^(٢) .

وما كانَ النبيُّ ﷺ - وهو ابنُ مَكَّةَ الواعي - يجهلُ الصَّلَاتِ الوطيدةَ بينَ مَكَّةَ والطائفِ وتزاوَرَ أبنائهما ، وإنَّ أخبارَ تكذيبِ قريشٍ لَهُ وتصديهمِ بالأذى قد بلغتِ الطائفَ ، ولكنَّهُ تجشَّمَ هذه الرحلةَ حرصاً على تبليغِ الرسالةِ وانتشارِ الدعوةِ ، وذلكَ يدلُّ على علوِّ همَّتِهِ النبويَّةِ وشدةِ توكُّلهِ على الله ، وأملهِ في الفطرةِ البشريَّةِ السليمةِ .

وقد خرَجَ الرسولُ ﷺ إلى الطائفِ في شهرِ شوالٍ في السنةِ العاشرةِ بعدَ البعثةِ النبويَّةِ^(٣) ، ويذكرُ ابنُ سعدٍ^(٤) وابنُ الأثيرِ^(٥) ، والمَقْرِيْزِيُّ^(٦) ، أنَّ الرسولَ ﷺ قد استصحبَ في رحلتهِ إلى الطائفِ مولاةَ زيدَ بنِ حارثةَ^(٧) .

(١) البداية والنهاية : ج ٦ ، ص ٣٠٤ .

(٢) الطبري : ج ٢ ، ص ٨٠ .

(٣) إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع : ج ١ ، ص ٢٧ .

(٤) طبقات ابن سعد : ج ١ ، ص ٩٥ .

(٥) الكامل : ج ٢ ، ص ٦٣ .

(٦) إمتاع الأسماع : ج ١ ، ص ٢٧ .

(٧) استفاد المؤلف في هذه الأضواء على الطائف من رسالة الدكتوراه للدكتورة نادية حسني

صقر ، (الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام طبع دار الشروق في جدة الطبعة الأولى

١٩٨١م) .

في الطائف :

وكانت الطائف تلو مكة في الأهمية ، واتساع العمران ، ورفاهية السكان ، ونقل القرآن مقالة الخصوم من قريش فقال :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْبَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] .

وكانت مستقرَّ عبادة (اللات) وكان صنماً يُعبدُ ويُحجُّ إليه ، وكانت تضارعُ في ذلك مكة التي كانت مستقرَّ عبادة « هُبَل » صنم قريش الأكبر .

فلما قدم رسول الله ﷺ الطائف ، عمدَ إلى نفرٍ من سادة ثقيف وأشرافهم ، فجلسَ إليهم ، ودعاهم إلى الله ، فكان ردُّهم شرَّ ردٍّ ، واستهزؤوا به ﷺ وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبُّونه ويصيحون به ، ويرجمونه بالحجارة ، فعمدَ إلى ظلِّ نخلة ، وهو مكروِبٌ ، فجلسَ فيه ، وكان ما لقيَ في الطائف أشدَّ ما لقيهُ من المشركين ، وقعدَ له أهلُ الطائف صفين على طريقه ، فلما مرَّ جعلوا لا يرفعُ رجله إلا رموها بالحجارة ، حتى أدموه ، وهما تسيلُ منهما الدماءُ ، وفاضَ قلبه ولسانه بدعاءٍ شكَا فيه إلى الله ضعفَ قوته ، وقلةَ حيلته ، وهوانه على الناس ، واستعاذَ بالله تعالى وبنصره وتأييده ، فقال :

« اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ! أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ ، وَأَنْتَ رَبِّي ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي ؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي ^(١) ؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي ؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بَكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي ، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي .

أعوذُ بنورِ وجهك الذي أشرقت له الظلماتُ ، وصلحَ عليه أمرُ الدنيا

(١) [يتجهَّمُنِي : أي يستقبلني بوجهٍ كريهٍ] .

والآخرة ، مِنْ أَنْ تُنْزَلَ بِي غَضَبِكَ ، أَوْ يَحْلَلَ عَلَيَّ سَخَطُكَ ، لَكَ الْعُتْبَى^(١) حتى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ »^(٢) .

فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكَ الْجِبَالِ ، يَسْتَأْذِنُهُ فِي أَنْ يَطْبِقَ الْأَخْشَبَيْنِ^(٣) ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « بَلْ أَرْجُو أَنْ يَخْرُجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً »^(٤) .

وَلَمَّا رَأَاهُ عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَمَا لَقِيَ ، تَحَرَّكَتَ لِهَمَا الْمُرُوءَةُ ، فَدَعَا غُلَاماً لِهَمَا نَصْرَانِياً يُقَالُ لَهُ « عَدَّاسُ » فَقَالَا لَهُ : خُذْ قِطْعاً مِنَ الْعَنْبِ ، فَضَعَهُ فِي هَذَا الطَّبَقِ ، ثُمَّ أَذْهَبَ بِهِ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ ، فَقُلْ لَهُ يَأْكُلُ مِنْهُ ، فَفَعَلَ « عَدَّاسُ » ، وَأَسْلَمَ بِمَا سَمِعَهُ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَأَى مِنْ أَخْلَاقِهِ^(٥) .

وَانصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الطَّائِفِ إِلَى مَكَّةَ ، وَقَوْمُهُ أَشَدُّ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خِلَافٍ وَعَدَاءٍ ، وَسُخْرِيَةٍ وَاسْتَهْزَاءٍ .

(١) [الْعُتْبَى : الرِّضَا . يُقَالُ : يُعَاتَبُ مَنْ تُرْجَى عَنْهُ الْعُتْبَى ، أَيْ : يُرْجَى عِنْدَ الرُّجُوعِ عَنِ الذَّنْبِ وَالْإِسَاءَةِ] .

(٢) [أَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ قِصَّةَ ذَهَابِهِ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ وَدَعَائِهِ ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، كَمَا فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ (٣٥ / ٦)] .

(٣) [الْأَخْشَبَانِ : الْجِبْلَانِ الْمُطِيفَانِ بِمَكَّةَ ، وَهُمَا أَبُو قَبَيْسٍ وَالْأَحْمَرُ ، وَهُوَ جَبَلٌ مُشْرِفٌ وَجْهَهُ عَلَى قُعَيْقِعَانَ ، وَالْأَخْشَبُ : كُلُّ جَبَلٍ خَشِنٍ غَلِيظِ الْحَجَارَةِ (النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ : ٣٢ / ٢)] .

(٤) [أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ بَدْءِ الْخَلْقِ ، بَابُ : إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ آمِينَ وَالْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ ... بِرَقْم (٣٢٣١)] ، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ، كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيرِ ، بَابُ مَا لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ أَدَى الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ [بِرَقْم (١٧٩٥)] مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا] .

(٥) سِيرَةُ ابْنِ هِشَامٍ : ج ١ ؛ ص ٤١٩ - ٤٢٢ ، وَسِيرَةُ ابْنِ كَثِيرٍ : ج ٢ ، ص ١٤٩ - ١٥٣ ، وَزَادَ الْمَعَادُ : ج ١ ، ص ٣٠٢ (مَجْمُوعاً مُلَخَّصاً) .

الإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ

ثُمَّ أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى^(١) ،
وَمِنْهُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْقَرَبِ وَالْدَنُوِّ ، وَالسَّيْرِ فِي السَّمَوَاتِ ، وَمَشَاهِدَةِ
الْآيَاتِ ، وَالاجْتِمَاعِ بِالْأَنْبيَاءِ :

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى^(٢) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ [النجم : ١٧ - ١٨] .

فكَانَتْ ضِيَافَةً كَرِيمَةً مِنَ اللَّهِ ، وَتَسْلِيَةً وَجِبَرًا لِلخَاطِرِ ، وَتَعْوِضًا عَمَّا لَقِيَهِ
فِي الطَّائِفِ مِنَ الذَّلَّةِ وَالْهَوَانِ ، وَالْجَفَاءِ وَالنِّكَرَانِ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى قَرِيشٍ ، فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ ، فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ ، وَاسْتَعْظَمُوهُ
وَكَذَّبُوهُ ، وَاسْتَهْزَؤُوا بِهِ ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ قَالَهُ لَقَدْ صَدَقَ ،
فَمَا يُعْجِبُكُمْ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لِيُخْبِرُنِي أَنَّ الْخَبَرَ يَأْتِيهِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ
فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، فَأُصَدِّقُهُ ، فَهَذَا أَبْعَدُ مِمَّا تَعْجَبُونَ مِنْهُ^(٣) .

(١) رَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنْ ابْنِ شَهَابٍ الزَّهْرِيِّ أَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ فِي السَّنَةِ الَّتِي قَبْلَ الْهَجْرَةِ ، وَرَوَى
الْحَاكِمُ أَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ لِسِتَّةِ عَشَرَ شَهْرًا ، وَاخْتَلَفَتْ الْأَقْوَالُ فِي الشَّهْرِ الَّذِي
أُسْرِيَ بِهِ ﷺ فِيهِ ، فَقِيلَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ ، وَقِيلَ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّ
الْإِسْرَاءَ كَانَ فِي اللَّيْلَةِ السَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ ، وَقَدْ اخْتَارَهُ الْحَافِظُ ابْنُ سُرُورٍ
الْمَقْدِسِيُّ ، وَقَدْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ بَعْدَ ذَهَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ ، (مُلَخَّصًا مِنْ كِتَابِ
« خَاتَمُ النَّبِيِّينَ » لِلْعَلَامَةِ مُحَمَّدِ ابْنِ زُهْرَةَ ، ج ١ ، ص ٥٩٦ ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى ١٩٧٢ م) .
وَرَوَى عَنْ ابْنِ سَعْدٍ فِي الْمِعْرَاجِ أَنَّهُ وَقَعَ لَيْلَةُ السَّبْتِ لِسَبْعِ عَشْرَةِ خَلَّتْ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ قَبْلَ
الْهَجْرَةِ بِثَمَانِيَةِ عَشَرَ شَهْرًا . عِيُونَ الْأَثَرِ ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

(٢) انْظُرْ كُتُبَ الْحَدِيثِ وَالسِّيَرَةِ .

(٣) سِيرَةُ ابْنِ كَثِيرٍ : ج ٢ ؛ ص ٩٦ ، وَسِيرَةُ ابْنِ هِشَامٍ : ج ١ ؛ ص ٣٩٩ .

معاني الإسراء والمعراج العميقة ومراميها البعيدة :

ولم يكن الإسراء مجردَ حادثٍ فَرَدِيٍّ بسيطٍ رأى فيه رسولُ الله ﷺ الآياتِ الكبرى ، وتجلَّتْ لَهُ ملكوتُ السمواتِ والأرضِ مشاهدةً وعياناً ، بل زيادةً إلى ذلك اشتمَلَتْ هذه الرحلةُ النبويَّةُ الغيبيةُ على معانٍ عميقةٍ دقيقةٍ كثيرةٍ ، وإشاراتٍ حكيمةٍ بعيدةِ المدى .

فقد ضَمَّتْ قصَّةُ الإسراءِ وأعلَنَتِ الشُّورتانِ الكريمَتانِ اللَّتانِ نزلتا في شأنِهِ وتُسَمَّى سورة ﴿ الإسراء ﴾ وسورة ﴿ النجم ﴾ أَنَّ محمداً ﷺ هو نبيُّ القبلتَيْنِ ، وإمامُ المشرقَيْنِ والمغربَيْنِ ، ووارثُ الأنبياءِ قبلَهُ ، وإمامُ الأجيالِ بعده ، فقد التَقَّتْ في شخصِهِ وفي إِسراءِهِ مَكَّةُ بالقدسِ ، والبيتُ الحرامُ بالمسجدِ الأقصى ، وصَلَّى الأنبياءُ خلفَهُ ، فكانَ هذا إيذاناً بعمومِ رسالَتِهِ

= ذهب جمهورُ أهل السنة إلى أن الإسراء كان بالجسد والروح ، وأن أقوى القرائن والدلائل على ذلك أَنَّ النبي ﷺ عندما أعلن ذلك بين قريش فتن بعض الذين أسلموا - وارتدَّ من ارتد - كما رواه ابن كثير ؛ ولو كان بالروح أو رؤيا رآها النبي ﷺ ، لما كان في ذلك غرابة ، فالإنسان العادي يرى في المنام ما لا يصدقهُ الواقع ولا يخطر بخلد أحد ، ولقد ألف الناس في كل زمان ومكان الرؤى الغريبة والأحلام العجيبة ، ولا يسارعون إلى تكذيبها ؛ وقد روي منها كل غريب وشحن به كتب الديانات وأخبار العظماء والنسك ، ولو كان ذلك مجرد عروج روحي ؛ أو قصة منام ؛ لبادر النبي ﷺ إلى إخبارهم بأن ذلك وحي أوحى به إليه ، أو رؤيا رآها في المنام ، فضمَّوه إلى ما كانوا يسمعون منه صباح مساء ، من وحي يوحى إليه وملك يأتيه فيكلمه ، فما أثار تلك الدهشة التي أثارها والتساؤلات الكثيرة التي بعثها ، فما هو بشيء جديد بالنسبة إليه .

ومن شاء التوسَّع في هذا الموضوع وتحقيق ما اشتمل عليه من أسرار وحقائق وحكم إلهية ، وإشاراتٍ لطيفة ؛ وفوائدٍ تشريعية ؛ في ضوء الكتاب والسنة والعقل السليم ، فعليه بفصل « الإسراء إلى المسجد الأقصى ومنه إلى سدرَةِ المنتهى » في كتاب « حجة الله البالغة » لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦هـ ، ج : ٢ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

وخلود إمامته وإنسانيّة تعاليمه ، وصلاحيّتها لاختلاف المكان والزمان ، وأفادت هذه السورة الكريمة تعيين شخصيّة النبي ﷺ ووصف إمامته وقيادته وتحديد مكانة الأمة التي بُعث فيها وآمنت به ، وبيان رسالتها ودورها الذي ستمثله في العالم ، ومن بين الشعوب والأمم .

وجاء الإسراء خطأ فاصلاً بين الناحية الضيقة المحليّة المؤقتة وبين الشخصية النبويّة الخالدة العالميّة ، فإن كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - زعيم أمة ، أو قائد إقليم ، أو منقذ عنصر ، أو مؤسس مجد ، لم يكن في حاجة إلى الإسراء والمعراج ، ولم يكن في حاجة إلى سياحة في عالم الملكوت ، ولم يكن في حاجة إلى أن تتصل بسببه الأرض والسماء اتصالاً جديداً ، لقد كان له في أرضه التي يعيش فيها وفي محيطه الذي يُكافح فيه ، وفي مجتمعه الذي يسعى لإسعاده ، غنى وسعة ، لا يفكر في غيره ، ولا يتجاوز إلى رقعة أخرى من الأرض فضلاً عن السموات العلا ، وسدرة المنتهى ، وفضلاً عن المسجد الأقصى الذي يبعد عن بلده بعداً كبيراً ، والذي كان في ولاية الديانة المسيحيّة وحكومة الأمة الروميّة القوية .

وجاء الإسراء ، وأعلن أن محمداً ﷺ ليس من طراز القادة والزعماء الذين لا تتجاوز مواهبهم ، وجهودهم ، ودوائر كفاحهم حدود الشعوب والبلاد ، ولا تسعد بهم إلا الشعوب التي يولدون فيها ، والبيئات التي ينبعون منها ، إنّما هو من جماعة الأنبياء والرسل الذين يحملون رسالات السماء إلى الأرض ، ويحملون رسالات الخالق إلى الخلق ، وتسعد بهم الإنسانيّة على اختلاف شعوبها وطبقاتها وعهودها وأجيالها .

فرض الصلوات :

وفرض الله عليه وعلى أمته خمسين صلاة في كلّ يوم ، وما زال رسول الله

ﷺ يسأله التخفيف ، حتى جعلها الله خمسَ صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ ، من أداهنَّ إيماناً واحتساباً كان له أجرُ خمسينَ صلاةٍ^(١) .

عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل :

وبدأ رسولُ الله ﷺ يعرضُ نفسه في المواسمِ على قبائلِ العربِ ، يدعوهم إلى الإسلامِ ، وإلى أن يمنعوه من الأعداءِ ، ويقولُ : يا بني فلانِ ! إنِّي رسولُ الله إليكم ، يأمرُكم أن تعبدُوا اللهَ ولا تشركُوا به شيئاً ، وأن تخلعُوا ما تعبدونَ من دونه من هذه الأننادِ ، وأن تؤمنُوا به ، وتصدّقُوا به ، وتمنعوني حتّى أبينَ عن الله ما بعثني به .

فإذا فرغَ رسولُ الله ﷺ من قوله ، قامَ أبو لهبٍ ، فقالَ : يا بني فلانِ ! إنَّ هذا إنما يدعوكم أن تسلخُوا اللَّاتَ والعُزَّى من أعناقِكُم ، وحلفائِكُم من الجنِّ ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالةِ ، فلا تُطيعوه ولا تسمعُوا منه^(٢) .

الطريق إلى الإسلام :

وكانَ الطريقُ إلى رسولِ الله ﷺ وإلى الإسلامِ مفروشاً بالأشواكِ ، محفوفاً بالمخاوفِ والأخطارِ ، لا يهتدي إليه الباحثُ عن الحقِّ إلا إذا خاطَرَ بنفسه ، وجازفَ بحياته ، يدلُّ على ذلكَ ما حكاهُ ابنُ عباسٍ - رضي الله

(١) حديثٌ طويلٌ أخرجه البخاري في صحيحه ؛ كتاب الصلاة ؛ باب « كيف فرضت الصلاة » [برقم (٣٨٨٧) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ . برقم (١٦٤) ، وأحمد في المسند (٢٠٨/٤ - ٢١٠) من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه] .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٤٢٢ - ٤٢٣ [أخرجه أحمد مزيداً من التفصيل في مسنده (٤٩١/٣ - ٤٩٢) ، والحاكم في المستدرک (١٥/١) ، والطبراني في المعجم الكبير (٥٥/٥) من حديث ربيعة بن عباد الديلي] .

عنهما - من قصّة قدوم أبي ذرّ الغفاريّ إلى مكّة ولقائه للرسول ﷺ ودخوله في الإسلام :

« عن ابن عبّاس - رضي الله عنهما - لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادي ، فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنّه نبيّ يأتيه الخبر من السماء ، واسمع من قوله ثمّ اتني ، فانطلق الأخ ، حتى قدمه وسمع من قوله ، ثمّ رجع إلى أبي ذرّ - رضي الله عنهما - فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلاماً ما هو بالشعر ، فقال : ما شفيتني مما أردت .

فتزوّد وحمل سنة^(١) له ، فيها ماء ، حتى قدم مكّة فأتى المسجد ، فالتمس النبي ﷺ ولا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه بعض الليل ، فرأه عليّ فعرف أنّه غريب ، فلمّا رآه تبعه ، فلم يسأل واحداً منهما صاحبه عن شيء ، حتى أصبح ، ثمّ احتمل قريته وزاده إلى المسجد ، وظلّ ذلك اليوم ، ولا يراه النبي ﷺ حتّى أمسى ، فعاد إلى مضجعه فمرّ به عليّ - رضي الله عنه - فقال : أما أنّ للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه ، فذهب به معه ، لا يسأل واحداً منهما صاحبه عن شيء .

حتّى إذا كان اليوم الثالث ، فعاد عليّ على مثل ذلك ، فأقام معه ، ثمّ قال : ألا تحدّثني ما الذي أقدمك ؟ قال : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدنني ، فعلت ، ففعل ، فانطلق يقفوه ، حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه ، وسمع من قوله ، وأسلم مكانه ، فقال له النبي ﷺ : ارجع إلى قومك ، فأخبرهم حتّى يأتيك أمري ، قال : والذي نفسي بيده لأصرخنّ بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتّى أتى المسجد ، فنادى بأعلى صوته : أشهد أنّ لا إله

(١) الشّنة : الأسقيّة الخلفة ، وهي أشدّ تبريداً للماء من الجُدّد .

إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله ، ثُمَّ قامَ القومُ ، فضرَبُوهُ حتَّى أضجَعُوهُ ، وأتى العباسُ ، فأكبَّ عليه ، قالَ : ويلَكم ألسنُ تعلمُون أنَّه من « غفارٍ » وأنَّ طريقَ تجارِكم إلى الشامِ عليهم ، فأنقذَهُ منهم ، ثُمَّ عادَ من الغدِ لمثلِها فضرَبُوهُ ، وثارُوا إليه فأكبَّ العباسُ عليه «^(١)» .

(١) أخرجه البخاريُّ [في كتاب مناقب الأنصار] ، باب إسلام أبي ذر رضي الله عنه ، [برقم (٣٨٦١) ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه ، برقم (٢٤٧٤)] .

الفصل الرابع

الهجرة إلى المدينة

- إسلام الأنصار
- بيعة العقبة الأولى
- خصائص المدينة المنورة (يثرب)
- بيعة العقبة الثانية
- الإذن بالهجرة إلى المدينة
- تأمر قريش على رسول الله ﷺ
- هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة

الهجرة إلى المدينة

بدء إسلام الأنصار :

خرج رسول الله ﷺ في الموسم ، فبينما هو عند العقبة ، إذ لقي رهطاً من الخزرج من الأنصار ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

وكانوا جيران اليهود في المدينة ، وكانوا يسمعونهم يخبرون بنبي قد أظلم زمانه^(١) ، فقال بعضهم لبعض : يا قوم ! تعلمون والله أنه النبي الذي توعدكم به اليهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه ، وصدقوه ، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك^(٢) .

وانصرفوا راجعين إلى بلادهم ، وآمنوا ، وصدقوا ، فلما قدموا المدينة ذكروا لإخوانهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ^(٣)

(١) [أظلم زمانه : أي أقبل عليهم ودنا منهم ، كأنه ألقى عليهم ظلمة] .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٤٢٨ - ٤٢٩ [وأخرجه البيهقي في « الدلائل » (٢/ ٤٣٣ - ٤٣٥) ، وأبو نعيم في « الدلائل » برقم (٣٢٣)] .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٤٢٩ .

بيعة العقبة الأولى :

حَتَّى إِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ ، وَافَى الْمَوْسِمَ مِنَ الْأَنْصَارِ ، اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا (عَشْرَةٌ مِنَ الْخَزْرَجِ وَاثْنَانِ مِنَ الْأَوْسِ) ، فَلَقَوْهُ بِالْعَقْبَةِ الْأُولَى ، فَبَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى التَّوْحِيدِ ، وَالتَّعَفُّفِ مِنَ السَّرْقَةِ وَالزَّوْنِ وَقَتْلِ الْأَوْلَادِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَعْرُوفِ^(١) .

فَلَمَّا هَمَّ الْقَوْمُ بِالْأَنْصَارِ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُمْ مُضْعَبَ بْنَ عَمِيرٍ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُقَرِّئَهُمُ الْقُرْآنَ ، وَيُعَلِّمَهُمُ الْإِسْلَامَ ، وَيَفْقَهُهُمْ فِي الدِّينِ ، فَكَانَ يُسَمَّى « الْمُفْرِيء » بِالْمَدِينَةِ وَنَزَلَ عَلَى أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ ، وَكَانَ يَصَلِّي بِهِمْ^(٢) .

سبب تهيو الأنصار للإسلام :

وَكَانَ مِنْ صُنْعِ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ وَلِلْإِسْلَامِ ، أَنْ هِيَ اللَّهُ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ^(٣) - وَهُمَا قَبِيلَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ عَظِيمَتَانِ فِي مَدِينَةِ يَثْرَبَ - لَتَقْدِرَا هَذِهِ النِّعْمَةَ الَّتِي لَا نِعْمَةَ أَعْظَمَ مِنْهَا ، وَتَسْبِقَا أَهْلَ عَصْرِهِمَا ، وَأَبْنَاءَ الْجَزِيرَةِ ، إِلَى التَّرْحِيبِ بِالْإِسْلَامِ وَالِدُخُولِ فِيهِ ، حِينَ تَنْكَرَتْ لَهُ قِبَائِلُ الْعَرَبِ وَفِي مَقَدِّمَتِهَا وَعَلَى رَأْسِهَا قَرِيشٌ ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

وَقَدْ سَاعَدَتْ عَلَى ذَلِكَ عِدَّةُ عَوَامِلَ ، هِيَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَسْيِيرِهِ

(١) [انظر حديثَ عبادة بن الصامت عن « بيعة العقبة الأولى » أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ ... برقم (٣٨٩٣) ، ومسلم في كتاب الحدود ، باب الحدود كفارات لأهلها ، برقم (١٧٠٩) ، وأحمد في المسند (٣٢٣/٥)] .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٤٣١ - ٤٣٤ ملخصاً .

(٣) الأوس والخزرج من الأزد ، الذين ينتمون إلى شُعْبِ قحطان ، وقد عطف ثعلبة بن عمرو جدُّهم نحو الحجاز بعد خراب سد مأرب سنة ١٢٠ق ، م ، ثم سار نحو المدينة ، كما سيأتي .

وصنعه ، كانت فارقة بين قريش وأهل مكة ، وقبائل يثرب العربية ، منها ما طبعها الله عليه من الرقة واللين وعدم المغالاة في الكبرياء وجُحود الحق ، وذلك يرجع إلى الخصائص الدموية والشلالية التي أشار إليها رسول الله ﷺ حين وفد وفد من اليمن ، بقوله : « أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ أَرْقٌ أَفْنَدَةٌ وَأَلْيَنُ قُلُوبًا »^(١) وهما ترجعان في أصلهما إلى اليمن ، نزح أجدادهم منها في الزمن القديم ، يقول القرآن مادحاً لهم :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

ومنها أنهما قد أنهكتهما الحروب الداخلية ، وما يوم بُعثت ببعيد^(٢) ، وقد اكتووا بنارها ، وذاقوا مرارتها ، وعافوها ، ونشأت فيهم رغبة في اجتماع الكلمة ، وانتظام الشمل ، والتفادي من الحروب ، وذلك ما عبروا عنه بقولهم : « إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا ، وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ ،

(١) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب قدوم الأشعرين وأهل اليمن ، برقم (٤٣٨٨) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب تفاضل أهل الإيمان فيه . . . برقم (٥٢) ، والترمذي في أبواب المناقب ، باب في فضل اليمن ، برقم (٣٩٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] .

(٢) « يوم بُعثت » : آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ، وبعث موضع في نواحي المدينة ، وكانت هذه الحرب من إيعاز اليهود في المدينة ؛ ودخل مع القبيلتين قبائل من اليهود والعرب ؛ ومكثوا أربعين يوماً يتجهزون للحرب والتقوا في بعث ؛ واقتتلوا قتالاً شديداً ، وصبروا جميعاً ، وانهمزت الأوس في أول النهار ثم دارت الدائرة على الخزرج ؛ ووضعت الأوس فيهم السلاح ، ثم انتهوا عنهم ، وأحرقت الأوس دور الخزرج ؛ وأكثر الأنصار الأشعار في « يوم بعث » (عن ابن الأثير ملخصاً) وذلك قبل الهجرة ، بخمس سنين في أصح الروايات (فتح الباري : ج ٧ ، ص ٨٥) .

فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللَّهُ بِكَ ، فَإِنْ يَجْمَعُهُمُ اللَّهُ بِكَ ، فَلَا رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ » ،
قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « كَانَ يَوْمٌ بُعِثَ يَوْمًا قَدَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ » .

ومنها أَنَّ قُرَيْشًا ، وسائرَ العربِ قد طالَ عهدُهم بالنبوَاتِ والأنبياءِ ،
وأصبحوا يجهلون معانيها بطولِ العهدِ ، وبحكمِ الأُمِّيَّةِ والإمعانِ في الوثنيَّةِ ،
والبُعْدِ عن الأُممِ التي تنتسبُ إلى الأنبياءِ وتحملُ الكتبَ السماويَّةَ - على
مادخلٍ فيها من التحريفِ والعبثِ - وذلك ما يُشِيرُ إليه القرآنُ بقوله :
﴿ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَيْنَاهُمُ أَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : ٦] .

أَمَّا الأَوْسُ والخَزْرَجُ فكانوا يسمعون اليهودَ يتحدثون عن النبوةِ والأنبياءِ ،
ويتلون صحفَ التوراةِ ويفسرونها ، بل كانوا يتوعَّدونهم به ، ويقولون : إِنَّهُ
سَيُبْعَثُ نَبِيٌّ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، نقتلكم معه قتلَ عادٍ وإِرمَ^(١) ، في ذلك يقولُ اللهُ
تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ
عَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلََمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾
[البقرة : ٨٩] .

وبذلك لم تكنْ بينَ أبناءِ الأوسِ والخزرجِ وسكانِ المدينةِ من العربِ
المشركينَ تلكَ الفجوةُ العميقةُ الواسعةُ مِنَ الجهلِ والثُّقُورِ مِنَ المفاهيمِ الدينيَّةِ
والسُّنَنِ الإلهيَّةِ التي كانتْ بينها وبينَ أهلِ مكةَ وجيرانهم من العربِ ، بل قد
عرفوها وألفوها عن طريقِ اليهودِ ، وأهلِ الكتابِ الذين كانوا يختلطون بهم
بحكمِ البلدِ والجوارِ والصلحِ والحربِ والمحالِفاتِ ، فلَمَّا تعرَّفُوا برسولِ اللهِ
ﷺ وقد حضرُوا الموسمَ ، ودعاهم إلى الإسلامِ ، ارتفعتِ الغشاوةُ عن

عيونهم ، وكأنَّهم كانوا من هذه الدَّعوة على مِيعادٍ .

خصائص المدينة المنورة (يثرب) :

وكانَ منَ حكمةِ الله تعالى في اختيارِ المدينةِ داراً للهجرةِ ، ومركزاً للدَّعوةِ ، عدا ما أرادَهُ اللهُ منَ إكرامِ أهلِها ، وأسرارٍ لا يعلمُها إلا اللهُ ، أنَّها امتازتْ بتحصُّنٍ طبيعيٍّ حربيٍّ ، لا تَزاحمُها في ذلكَ مدينةٌ قريبةٌ في الجزيرةِ ، فكانتْ حرَّةٌ^(١) الوبرة مطبقةً على المدينة من الناحية الغربية ، وحرَّةٌ واقم مطبقةً على المدينة من الناحية الشرقية ، وكانت المنطقة الشمالية من المدينة ، هي الناحية الوحيدة المكشوفة (وهي التي حصَّنها رسولُ الله ﷺ بالخندقِ سنة خمسٍ في غزوة الأحزاب) وكانت الجهات الأخرى من أطراف المدينة محاطةً بأشجار النخيل والزروع الكثيفة ، لا يمرُّ منها الجيشُ إلا في طُرُق ضيقة لا يتفقُ فيها النظامُ العسكريُّ ، وترتيبُ الصُّفوفِ .

وكانتْ خفاراتٌ عسكريةٌ صغيرةٌ ، كافيةٌ بإفسادِ النظامِ العسكريِّ ومنعِهِ منَ التقدُّمِ ، يقولُ ابنُ إسحاقَ : « كانَ أحدُ جانبي المدينةِ عورةً ، وسائرُ جوانبِها مشككةً بالبنيانِ والنخيلِ ، لا يتمكَّنُ العدوُّ منها » .

ولعلَّ النبيَّ ﷺ قد أشارَ إلى هذه الحكمةِ الإلهيةِ في اختيارِ المدينةِ بقوله لأصحابِهِ قبلَ الهجرةِ : « إِنِّي رَأَيْتُ دارَ هِجْرَتِكُمْ ، ذاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ »^(٢)

(١) و « الحرَّة » أو « اللابة » منطقة سوداء من الحجارة النخرة المحترقة أو المؤلفه من السائل البركاني يتمتع فيها المشي بالأقدام ، ومشى الإبل والخيول - فضلاً عن مرور الجيش - وقد ذكر العلامة مجد الدين الفيروز آبادي (ت ٨٢٣هـ) في كتابه « المغانم المطابة في معالم طابة » في حرف الحاء : حرات كثيرة تحيط بالمدينة من عدة جوانب يدنو بعضها ، ويبعد بعضها ؛ وتحميها من الغزو من الخارج أو تحدث صعوبات وعراقيل في تحرك الجيوش (راجع الكتاب ، ص ١٠٨ - ١١٤) .

(٢) أخرجه البخاري [في كتاب مناقب الأنصار] باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ... [برقم =

وهما الحرثان ، فهاجرَ من هاجرَ قبل المدينة .

وكان أهل المدينة من الأوس والخزرج أصحاب نخوة وإباء وفروسية وقوة شكيمة ، أَلْفُوا الحرية ، ولم يَخْضَعُوا لأحدٍ ، ولم يدفعوا إلى قبيلة أو حكومة ، إتاوة أو جباية ، وقد جاء ذلك صريحاً في الكلمة التي قالها سعد بن معاذ - سيّد الأوس - لرسول الله ﷺ : « قد كنّا نحنُ وهؤلاء القومُ على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبُدُ اللهَ ولا نعرفُهُ ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلا قرى أو بيعاً » (١) .

يقول ابنُ خلدون : « ولم يزلْ هذان الحَيَّانِ قد غلبوا اليهودَ على يثرب ، وكان الاعتزازُ والمنعةُ تُعرفُ لهم في ذلك ، ويدخلُ في ملتِهم مَنْ جاورَهم مِنْ قبائلٍ مُضَرٍّ » (٢) .

وجاءَ في « العقدِ الفريدِ » : « ومنَ الأزْدِ الأنصارُ ، وهم الأوسُ والخزرجُ وهما ابنا حارثة بن عمرو بن عامرٍ ، وهم أعزُّ الناسِ أنفُساً ، وأشرفُهم همماً ، ولم يؤدُّوا إتاوةً قطُّ إلى أحدِ الملوكِ » (٣) .

وكان بنو عديّ بن النّجار أخواله دنيا (٤) ، فأُمّ عبدِ المطلبِ بنِ هاشمٍ إحدى نسائِهم ، فقد تزوّجَ هاشمٌ بسلمى بنتِ عمرو أحدِ بني عديّ بنِ النّجار ، وولدتْ لهاشمُ عبدَ المطلبِ ، وتركهُ هاشمٌ عندها ، حتّى صارَ غلاماً دونَ

= (٣٩٠٥) ، وفي كتاب الكفالة ، باب جوار أبي بكر في عهد رسول الله ﷺ وعقده ، برقم (٢٢٩٧) ، وأحمد : (١٩٨/٦) ، والحاكم : (٤ - ٣/٢) ووافقه الذهبي ، والحديث إسناده صحيح [.

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٢٢٣ .

(٢) تاريخ ابن خلدون : ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٣) العقد الفريد : ج ٣ ، ص ٣٣٤ (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة) .

(٤) هو ابن عمي دينة ودنيا ودنيا ، أي لَحاً (القاموس : دنا) .

المراهقة ، فذهبَ إليه عُمَةُ المطلبُ ، فجاءَ بهِ إلى مكةَ ، وكانتِ الأرحامُ يُحسبُ لها حسابٌ كبيرٌ في حياةِ العربِ الاجتماعيَّةِ ، ومنهم أبو أيوبِ الأنصاريُّ الذي نَزَلَ رسولُ اللهِ ﷺ في دارِهِ في المدينةِ .

وكانَ الأوسُ والخزرجُ من قَحْطَانَ ، والمُهَاجِرُونَ ، وَمَنْ سَبَقَ إلى الإسلامِ في مكةَ وما حولَها من عَدَنَانَ ، وَلَمَّا هَاجَرَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى المدينةِ ، وقامَ الأنصارُ بنصرِهِ ، اجتمعَتَ بذلكِ عَدَنَانُ وقحطانُ تحتَ لواءِ الإسلامِ ، وكانُوا كجسدٍ واحدٍ ، وكانتِ بينهما مفاضلةٌ ومسابقةٌ في الجاهليَّةِ ، وبذلكِ لم يجدِ الشيطانُ سبيلاً إلى قلوبِهِم ، لإثارةِ الفتنةِ والتعزِّي بعزاءِ الجاهليةِ باسمِ الحميَّةِ القحطانيَّةِ أو العدنانيَّةِ .

فكانتِ مدينةُ (يثرب) - لكلِّ ذلكِ - أصلحَ مكانٍ لهجرةِ الرسولِ ﷺ وأصحابِهِ واتخاذِهِم لها داراً وقراراً ، حتى يقوى الإسلامُ ، ويشقَّ طريقُهُ إلى الأمامِ ، ويفتحَ الجزيرةَ ثمَّ يفتحَ العالمَ المتمدَّنَ .

انتشار الإسلام في المدينة :

وجعلَ الإسلامُ يفشو في منازلِ الأنصارِ - الأوسِ والخزرجِ - وأسلمَ سعدُ بنُ معاذٍ ، وأسيدُ بنُ حضيرٍ ، وهما سيِّدا قومِهِما ، من بني عبدِ الأشهلِ من الأوسِ ، بحكمةٍ من أسلمَ قبلَهُما ، وتلطَّفِهِم ، وبحسَنِ دعوةِ مُضْعَبِ بنِ عُميرٍ - رضي اللهُ عَنْهُ - وأسلمَ بنو عبدِ الأشهلِ عن آخِرِهِم ، ولم تبقَ دارٌ من دورِ الأنصارِ إلَّا وفيها رجالٌ ونساءٌ مسلمون^(١) .

بيعةُ العقبةِ الثانيةِ :

ورجعَ مُضْعَبُ بنُ عُميرٍ إلى مكةَ في العامِ القابلِ ، وخرجَ عددٌ من

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٤٣٦ - ٤٣٨ مختصراً .

المسلمين من الأنصار مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، حتى قدموا مكة ، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة ، فلما فرغوا من الحج ، ومضى ثلث الليل ، اجتمعوا في الشعب عند العقبة ، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً ، وامرأتان من النساء ، وجاء رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه .

وتكلم رسول الله ﷺ وتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ثم قال : أبأبيكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم ، فبايعوه ، واستوثقوا منه ألا يدعهم ، ويرجع إلى قومه ، فوعد بذلك رسول الله ﷺ فقال : « أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسلم من سالمتم » .

واختار رسول الله ﷺ منهم اثني عشر نقيباً : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس^(١) .

إذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة :

ولما بايع رسول الله ﷺ هذا الحي من الأنصار على الإسلام ، والنصرة له ، ولمن اتبعه ، فأوى إليهم عدد من المسلمين ، أمر رسول الله ﷺ أصحابه ، ومن معه بمكة من المسلمين ، بالخروج إلى المدينة ، والهجرة إليها والحقوق بإخوانهم من الأنصار وقال : « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها » فخرجوا أرسالاً .

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٤٤١ - ٤٤٣ [انظر تفصيلات بيعة العقبة الثانية في « مسند أحمد » (٣/٣٢٢) ، وفي « الشئ الكبري » لليهقي (٩/٩) وفي « المستدرک » للحاكم (٢/٩٢٤ - ٩٢٥) وغيرهم أخرجوها من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه] .

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظرُ الإذنَ من الله في الخروجِ من مكة والهجرة إلى المدينة .

ولم تكن هجرة المسلمين من مكة هيئة سهلة تسمعُ بها قريشٌ ، وتطيبُ بها نفساً ، بل كانوا يضعون العراقيلَ في سبيلِ الانتقالِ مِنْ مكة إلى المدينة ، ويمتنحون المهاجرين بأنواعِ مِنَ المَحَنَ ، وكان المهاجرون لا يعدلون عن هذه الفكرة ، ولا يُؤثرونَ البقاءَ في مَكَّةَ ، مهما دفعوا مِنْ قِيَمَةٍ ، فمنهم مَنْ كان يضطرُّ إلى أن يترك امرأته وابنه في مَكَّةَ ، ويسافرَ وحده ، كما فعل أبو سلمة ، ومنهم مَنْ كان يضطرُّ إلى أن يتنازلَ عن كلِّ ما كسبه في حياته وجمعه من ماله ، كما فعل صُهَيْبٌ رضي الله عنه .

قالت أم سلمة - رضي الله عنها - : لما أزمع أبو سلمة - رضي الله عنه - الخروجَ إلى المدينة ، رحلَ لي بغيره ، ثم حملني عليه وجعلَ معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري ، ثم خرجَ يقودُ بي بغيره ، فلما رأته رجالُ بني المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرايتِ صاحبتنا هذه علامَ نتركك تسيرُ بها في البلادِ ؟ قالت : فترعوا خطامَ البعيرِ من يديه ، وأخذوني منه .

قالت : وغضبَ عندَ ذلكَ بنو عبدِ الأسدِ رهطُ أبي سلمة وقالوا : والله لا نتركُ ابناً عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلقَ به بنو عبدِ الأسدِ ، وحبسني بنو المغيرة عندهم .

وانطلقَ زوجي أبو سلمة إلى المدينة ، ففرَّقَ بيني وبينَ ابني وبينَ زوجي ، فكنتُ أخرجُ كلَّ غداة ، فأجلسُ في الأبطحِ ، فما أزالُ أبكي حتى أمسي ، سنةً أو قريباً منها ، حتى مرَّ بي رجلٌ من بني عمِّي أحد بني المغيرة ، فرأى ما بي ، فرحمني ، فقالَ لبني المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة ،

فَرَّقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا؟ فَقَالُوا : الْحَقِّي بِزَوْجِكَ إِنَّ شِئْتَ ، فَرَدَّ
 بَنُو الْأَسَدِ إِلَيَّ عِنْدَ ذَلِكَ ابْنِي ، فَارْتَحَلْتُ بِعِيرِي ، ثُمَّ أَخَذْتُ ابْنِي فَوَضَعْتُهُ فِي
 حِجْرِي ، ثُمَّ خَرَجْتُ أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ ، وَمَا مَعِيَ أَحَدٌ مِّنْ خَلْقِ اللَّهِ ، حَتَّى
 إِذَا كُنْتُ بِـ « التَّنْعِيمِ » لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ ،
 فَقَالَ : إِلَى أَيْنَ يَا ابْنَةَ أَبِي أُمَيَّةَ ؟

قُلْتُ : أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ .

قَالَ : أَوْ مَا مَعَكَ أَحَدٌ ؟

قُلْتُ : مَا مَعِيَ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ وَابْنِي هَذَا .

فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا لَكَ مِنْ مَّتْرِكٍ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ الْبَعِيرِ ، فَانْطَلَقَ مَعِيَ يَهْوِي
 بِي ، فَوَاللَّهِ مَا صَحَبْتُ رَجُلًا مِّنَ الْعَرَبِ قَطُّ أَرَى أَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ ، كَانَ إِذَا بَلَغَ
 الْمَنْزَلَ أَنَاخَ بِي ، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي ، حَتَّى إِذَا نَزَلْتُ اسْتَأْخَرَ بِبَعِيرِي ، فَحَطَّ
 عَنْهُ ، ثُمَّ قَيْدَهُ فِي الشَّجَرِ ، ثُمَّ تَنَحَّى إِلَى شَجَرَةٍ ، فَاضْطَجَعَ تَحْتَهَا ، فَإِذَا دَنَا
 الرُّوْحُ ، قَامَ إِلَى بَعِيرِي فَقَدَّمَهُ ، فَرَحَلَهُ ، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي وَقَالَ : ارْكَبِي ،
 فَإِذَا رَكَبْتُ فَاسْتَوَيْتُ عَلَى بَعِيرِي ، أَتَى فَأَخَذَ بِخِطَامِهِ ، فَقَادَنِي حَتَّى يَنْزِلَ بِي ،
 فَلَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِي حَتَّى أَقْدَمَنِي الْمَدِينَةَ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى قَرْيَةِ بَنِي عَمْرِو بْنِ
 عَوْفٍ بـ « قُبَاء » قَالَ : زَوْجُكَ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ - وَكَانَ أَبُو سَلَمَةَ بِهَا نَازِلًا -
 فَادْخُلِيهَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ .

فَكَانَتْ تَقُولُ : مَا أَعْلَمُ أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْإِسْلَامِ ، أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَ آلَ
 أَبِي سَلَمَةَ ، وَمَا رَأَيْتُ صَاحِبًا قَطُّ كَانَ أَكْرَمَ مِنْ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ ^(١) .

(١) وَأَسْلَمَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ هَذَا بَعْدَ الْحَدِيثِ ، وَهَاجَرَ ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ
 مِفَاتِيحَ الْكَعْبَةِ (ابن كثير ؛ ج ٢ ، ص ٢١٥ - ٢١٧) .

ولمّا أرادَ صُهَيْبُ الهَجْرَةَ ، قَالَ لَهُ كَفَّارُ قَرِيشٍ : أَتَيْتُنَا صَعْلُوكَا حَقِيرَا ، فَكَثُرَ مَالُكَ عِنْدَنَا ، وَبَلَغْتَ الَّذِي بَلَغْتَ ، ثُمَّ تَرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ بِمَالِكَ وَنَفْسِكَ ؟ وَاللَّهِ لَا يَكُونُ ذَلِكَ !

فَقَالَ لَهُمْ صُهَيْبٌ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلْتُ لَكُمْ مَالِي ، أَتَخْلُونَنِي سَبِيلِي ؟ .
قَالُوا : نَعَمْ .

قَالَ : إِنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَكُمْ مَالِي .

وَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « رِبْحَ صُهَيْبٍ ، رِبْحَ صُهَيْبٍ » (١) .

وَهَاجَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَطَلْحَةُ ، وَحَمْزَةُ ، وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ ، وَأَبُو حَذِيفَةَ ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، وَآخَرُونَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - وَتَتَابَعَتِ الْهَجْرَةُ وَلَمْ يَتَخَلَّفْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ غَيْرُ مَنْ حُبَسَ وَفُتِنَ ، إِلَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - (٢) .

تَأَمَّرَ قَرِيشٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التَّامَّرَ الْآخِرَ ، وَخِيبتَهُمْ فِيمَا أَرَادُوا :

وَلَمَّا رَأَتْ قَرِيشٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ صَارَ لَهُ أَصْحَابٌ وَأَنْصَارٌ فِي الْمَدِينَةِ وَلَا سُلْطَانَ لَهُمْ عَلَيْهَا ، تَخَوَّفُوا مِنْ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ ، فَلَا حِيلَةَ لَهُمْ فِيهِ ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ عَلَيْهِ ، فَاجْتَمَعُوا فِي « دَارِ النَّدْوَةِ » وَهِيَ دَارُ قُصَيِّ بْنِ كَلَابٍ ، وَكَانَتْ قَرِيشٌ لَا تَقْضِي أَمْرًا إِلَّا فِيهَا ، يَتَشَاوَرُونَ فِيهَا مَا يَصْنَعُونَ فِي أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاجْتَمَعَ فِيهَا أَشْرَافُ قَرِيشٍ .

(١) ابن كثير نقلاً عن ابن هشام : ج : ٢ ، ص ٢٢٣ [وأخرجه البيهقي في « الدلائل » (٢/٥٢٢-٥٢٣) ، والحاكم في « المستدرک » (٣/٤٠٠) وصحّحه ووافقه الذهبي] .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٤٧٠-٤٧٩ .

واجتمع رأيهم أخيراً على أن يؤخذ من كل قبيلة فتى شاب صاحب جلادة ونسب ، فيهاجموا رسول الله ﷺ ويضربوه ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدّر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، وتفرق القوم على ذلك ، وهم مجمعون له .

وأخبر الله رسوله بهذه المؤامرة ، فأمر علي بن أبي طالب أن ينأى عن فراشه ، متسجياً ببردته ، وقال : لن يخلص إليك شيء تكرهه .

واجتمع القوم على بابهِ ، وهم متهيئون للوثوب ، وخرج رسول الله ﷺ وأخذ حفنة من تراب في يده ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو آيات من سورة يس من أولها إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : ٩] .

وأناهم آت ، فقال : ما تنتظرون هاهنا ؟

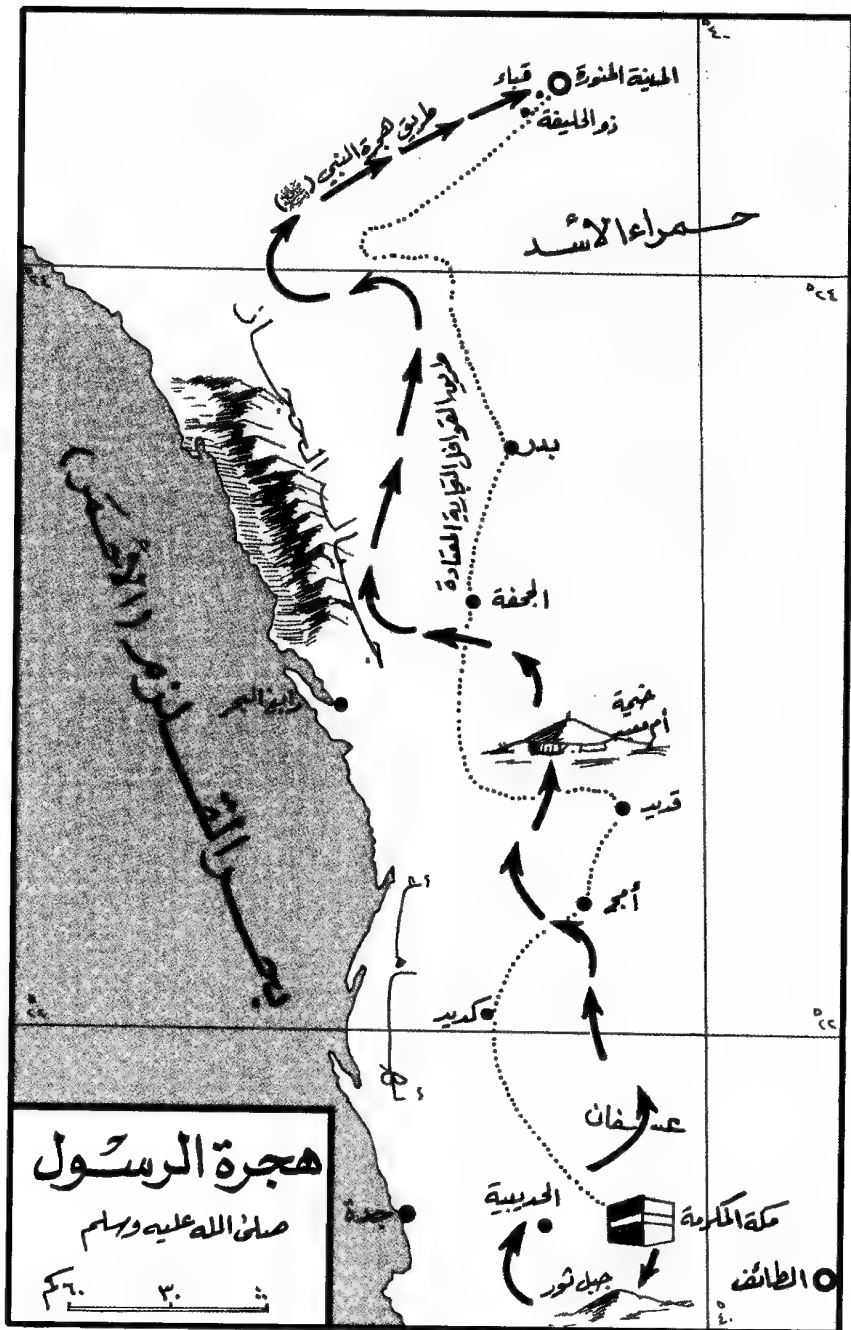
قالوا : محمداً .

قال : خيبتكم الله ، قد والله خرج وانطلق لحاجته .

وتطلّعوا ، فرأوا علياً نائماً على الفراش ، فلم يشكوا في أنه رسول الله ﷺ فلما أصبحوا قام علي - رضي الله عنه - عن الفراش ، فحجلوا ، وانقلبوا خائبين (١) .

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٤٨٠ - ٤٨٣ [وأخرجه أبو نعيم في « الدلائل » ص : (٦٤) ، والطبري في تاريخه : (٣٧٣/٢)] .

خريطة هجرة الرسول ﷺ



هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة

وجاء رسول الله ﷺ إلى أبي بكر ، فقال له : إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْهَجْرَةِ ، فقال أبو بكر : الصُّحْبَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : « الصُّحْبَةُ » وبكى أبو بكر - رضي الله عنه - مِنَ الْفَرَحِ ، وَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ رَاحِلَتَيْنِ ، كَانَ قَدْ أَعَدَّهُمَا لِهَذَا السَّفَرِ ، وَاسْتَأْجَرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُرَيْقَطٍ ، لِيُدْلِيَهُمَا عَلَى الطَّرِيقِ ^(١) .

تناقض غريب :

وكانت قريش - رغم عدايتها لرسول الله ﷺ ورميه عن قوسٍ واحدةٍ - عظيمةَ الثقةِ بأمانتهِ ، وصدقه ، وفتوتهِ ، فليس بمكةَ أحدٌ عندهُ شيءٌ يخشى عليه إلا وضعه عند رسول الله ﷺ لثقتِهِ بِهِ ، فكانَ عندَ رسولِ الله ﷺ الشيءُ الكثيرُ من هذهِ الودائعِ ، فأمرَ علياً - رضي الله عنه - بأن يتخلفَ بمكةَ حتَّى يؤدِّيها عنه ^(٢) ، وصدقَ اللهُ العظيمُ : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

درسٌ من الهجرة :

وقد أثبتتِ الهجرة النبويةُ أَنَّ الدعوةَ والعقيدةَ يُتنازلُ لهما عن كلِّ حبيبٍ

(١) [أخرجه البخاريُّ في كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة برقم (٣٩٠٥) ، وعبد الرزاق في مصنفه برقم (٩٧٤٣) ، وأحمد في مسنده (٣٤٦/٦) من حديث عائشة رضي الله عنها] .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٤٨٤ - ٤٨٥ .

وعزیز وألیف وأنیس وعن كل ما جُبِلَتِ الطبائعُ السليمةُ على حبِّه وإيثاره ،
والتمسُّكِ به والتزامه ، ولا يتنازلُ عنهما لشيءٍ . وقد اقترنَ تاريخُ الدعواتِ
العظيمةِ والدياناتِ القديمةِ بالحركةِ ، حركةِ الأفرادِ أحياناً وحركةِ الجماعاتِ
أحياناً كثيرةً .

وقد كانت مكة - فضلاً عن كونها مولداً ومنشأً للرسولِ وأصحابه - مهوى
الأفئدةِ ومغناطيسَ القلوبِ ، ففيها الكعبةُ البيتُ الحرامُ الذي جرى حبُّه منهم
مجرى الروحِ والدمِ ، ولكنَّ شيئاً من ذلك لم يمنعهُ وأصحابه من مغادرةِ
الوطنِ ، ومفارقةِ الأهلِ والسكنِ ، حينَ ضاقتِ الأرضُ على هذه الدعوةِ
والعقيدةِ ، وتنگرَّ أهلُها لهما .

وقد تجلَّتْ هذهِ العاطفةُ المُزدوَجةُ - عاطفةُ الحنينِ الإنسانيِّ وعاطفةُ
الحبِّ الإيمانيِّ - في كلمتهِ التي قالها مخاطباً لمكةَ : « ما أطيبك من بلدٍ
وأحبَّك إليَّ ، ولولا أنَّ قومي أخرجوني منك ما سكنتُ غيرك » (١) .

وذلك عملاً بقولِ الله تعالى :

﴿ يَنْعَبِدُونَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ أَرْضِي وَسِعَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٦] .

إلى غار ثور :

وخرجَ رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ من مكةَ مُستَخْفَيْنِ ، وأمرَ أبو بكرٍ ابنه
عبدَ الله بنَ أبي بكرٍ أن يسمعَ لهما ما يقولُ الناسُ فيهما بمكةَ ، وأمرَ عامرَ بنَ
فُهيرةَ مولاةَ أن يرعى غنمهَ نهاراً ويريحها عليهما ليلاً ، وكانت أسماءُ بنتُ أبي
بكرٍ تأتيهما بالطعامِ .

(١) أخرجه الترمذي [في أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ ، باب : في فضل مكة ، برقم
(٣٩٢٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما] .

من روائع الحب :

ولم يزل الحب منذ فطر الله الإنسان ملهماً للدقائق العجيبة ، باعثاً على الإشفاق على من تعلق به القلب وأحبته النفس ، وهذا كان شأن أبي بكرٍ مع رسول الله ﷺ في هذه الرحلة .

وقد روي أنه لما انطلق رسول الله ﷺ إلى الغارٍ معه أبو بكرٍ ، كان يمشي ساعةً بين يديه وساعةً خلفه ، حتى فطن رسول الله ﷺ فقال : « يا أبا بكرٍ ! ما لك تمشي ساعةً خلفي وساعةً بين يدي ؟ » فقال : يا رسول الله ! أذكرُ الطلبَ فأمشي خلفك ، ثم أذكرُ الرصدَ فأمشي بين يديك^(١) .

فلما انتهيا إلى الغارِ قال أبو بكرٍ : مكانك يا رسول الله ! حتى أستبريء لك الغارَ ، فدخل فاستبرأه ، حتى إذا كان ، ذكر أنه لم يستبريء الجحرة ، فقال : مكانك يا رسول الله ! حتى أستبريء فدخل فاستبرأ ، ثم قال : انزل يا رسول الله ! فنزل^(٢) .

ولله جنودُ السموات والأرض :

ودخلا الغارَ ، وبينما هما كذلك إذ بعث الله العنكبوتَ ، فنسجت ما بين الغارِ والشجرة التي كانت على وجه الغارِ ، وسترَتْ رسولَ الله ﷺ وأبا بكرٍ ، وأمر الله حمامتين وحشيتين ، فأقبلتا تدفآن حتى وقعتا بين العنكبوت وبين الشجرة^(٣) ، ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الفتح : ٤] .

(١) البداية والنهاية : لابن كثير ؛ ج ٣ ؛ ص ١٨٠ ، نقلاً عن البيهقي برواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٠ .

(٣) رواه الحافظ ابن عساكر بسنده عن جماعة من الصحابة (ابن كثير ؛ ج ٢ ؛ ص ٢٤٠ - ٢٤١) .

أدق لحظة مرّت بها الإنسانية :

واقْتَفَى المشركون أثرَ رسولِ الله ﷺ وكانت أدقَّ لحظة مرّت بها الإنسانية في رحلتها الطويلة ، وكانت لحظة حاسمة ، فإمّا امتدادُ شقاءٍ لا نهايةَ له ، وإمّا افتتاحُ سعادةٍ لا آخرَ لها ، وقد حبستِ الإنسانية أنفاسها ، ووقفت خاشعة حين وصل الباحثون إلى فَمِ الغارِ ، ولم يبقَ بينهم وبين العُثورِ على منشودهم إلا أن ينظرَ أحدهم إلى تحت قدميه .

ولكنَّ اللهَ حالَ بينهم وبينَ ذلك ، فاختلطَ عليهم الأمرُ ، ورأوا على بابِ الغارِ نسجَ العنكبوتِ^(١) ، وإلى ذلك أشارَ الله تعالى بقوله : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْدِيَهُمْ يَجُودُونَ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

لا تحزن إن الله معنا :

وبينما هما في الغارِ ، إذ رأى أبو بكرٍ آثارَ المشركينَ ، فقال : يا رسولَ الله ! لو أن أحدهم رفعَ قدمه ، رأنا . قال : ما ظنُّكَ باثنينِ اللهُ ثالثهما^(٢) ؟ وفي ذلك يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ ثَاقِبَ اثْنَيْنِ إِذْهُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

(١) [أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٨/١) ، وعبد الرزاق في مصنفه (٣٨٩/٥) برقم (٩٧٤٣) ، والطبراني في الكبير برقم (١٢١٥٥) ، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٣٦/٧) وقال : سنده حسنٌ ، وحسنُ إسناده أيضاً ابنُ كثير في السيرة (٢٣٩/٢)] .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : ﴿ ثَاقِبَ اثْنَيْنِ إِذْهُمَا فِي الْغَارِ ﴾ [برقم (٣٦٥٣) ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم ، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، برقم (٢٣٨١) ، وأحمد في المسند (٤/١) من حديث أبي بكر رضي الله عنه] .

ركوبُ سُرَاقَةٍ في أثرِ الرسولِ ﷺ وما وقعَ لَهُ :

وجعلتُ قريشُ في رسولِ الله ﷺ حينَ فقدوه ، مئةَ ناقةٍ ، لمن يردهُ عليهم ، ومكثا في الغارِ ثلاثَ ليالٍ ثمَّ انطلقا ، ومعهما عامرُ بنُ فهيرةٍ ودليلُ منَ المشركين^(١) ، استأجرهُ رسولُ الله ﷺ فأخذَ بهم على طريقِ السواحلِ .

وحملَ سُرَاقَةَ بنُ مالكٍ بنِ جُعشمِ الطمعُ على أن يتبعَ رسولَ الله ﷺ ويردَّهُ على قريشٍ ، فيأخذَ مئةَ ناقةٍ منهم ، فركبَ على أثرِهِ يعدُّو ، وعثرَ بهِ الفرسُ ، فسقطَ عنه فأبى إلا أن يتبعه ، فركبَ في أثرِهِ ، وعثرَ بهِ الفرسُ مرةً ثانيةً ، فسقطَ عنه ، وأبى إلا أن يتبعه ، فركبَ في أثرِهِ ، فلمَّا بدا لَهُ القومُ رآهم ، وعثرَ بهِ الفرسُ مرةً ثالثةً ، وذهبتُ يداه في الأرضِ ، وسقطَ عنه ، وتبعهما دخانُ كالإعصارِ .

وعرفَ سُرَاقَةَ حينَ رأى ذلكَ أن رسولَ الله ﷺ في حمايةِ الله تعالى ، وأنه ظاهرٌ لا محالةً ، فنادى القومَ ، وقالَ : أنا سُرَاقَةُ بنُ جعشمٍ ، أنظروني أكلمكم ، فوالله لا يأتيكم مني شيءٌ تكرهونه ، فقالَ رسولُ الله ﷺ لأبي بكرٍ : « قلْ لَهُ : وما تبتغي منا ؟ » قالَ سُرَاقَةُ : تكتبُ لي كتاباً يكونُ آيةً بيني وبينك ، فكتبَ عامرُ بنُ فهيرةٍ كتاباً في عظمٍ أو رقعةٍ^(٢) .

(١) [هو عبد الله بن أريقط كما ذكره العلامة المؤلف تحت عنوان : « هجرة الرسول إلى المدينة » ، وكما في « السيرة النبوية » لابن هشام : « ... فاستأجر عبد الله بن أريقط - كذا عند ابن هشام - رجلاً بن بني الدليل بن بكر . . . وكان مشركاً يدلُّهما على الطريق ، (ج ١) ، ص ٤١٧ ، طبع دار ابن كثير بدمشق)] .

(٢) سيرة ابن هشام : ج : ١ ؛ ص ٤٨٩ - ٤٩٠ ؛ ورواه البخاري [في كتاب مناقب الأنصار] ، باب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة باختلاف بعض الألفاظ [برقم ٣٩٠٦] .

نُبوءة لا يسيغها العقل المادي :

وفي هذه الحال التي اضطرَّ فيها نبيُّ الله إلى الهجرة ، والخروج من مكة ، والقوم يطاردونه ويتبعون آثاره ، نظرَ رسولُ الله ﷺ إلى اليوم البعيد الذي يطأ فيه أتباعه تاجَ كِسرى وعرشَ قيصر ، ويفتحون خزائن الأرض ، فتنبأ في هذا الظلام الحالِك بهذا النورِ الباهر ، وقال لسراقة : « كيف بك إذا لبستَ سوارِي كِسرى ؟ » .

إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَ نَبِيَّهٖ بِالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ الْمُبِينِ ، وَلَدِينِهِ بِالظُّهُورِ الْعَامِّ وَالْفَتْحِ التَّامِّ ، وَقَالَ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] .

وقد أنكرَ ذلكَ قِصارُ النظرِ وَضِعَافُ العقولِ ، واستبعدته قريشُ ، ولكنَّ عينَ النبوة ترى البعيدَ قريباً ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ٩] .

وكانَ كذلكَ ، فلَمَّا أَتَى عُمَرُ - رضيَ اللهُ عنه - بسوارِي كِسرى ومنطقته وتاجه ، دعا سراقةَ بنَ مالكٍ فألبسه إياها^(١) .

وعرضَ عليه سراقةَ الزادَ والمتاعَ ، فلم يقبلهُ رسولُ الله ﷺ ولم يزدْ أن قال : « أخفِ عَنَّا »^(٢) .

رجلٌ مباركٌ :

ومرًّا في مَسِيرِهِمَا بِأَمِّ مَعْبِدِ الْخَزَاعِيَّةِ ، وكانتَ عندها شاةٌ خلَّفها الجهدُ عن الغنمِ ، فمسحَ رسولُ الله ﷺ بيدهِ ضرعها ، وسمَّى اللهُ ، ودعا ، فدرتْ ،

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب : لابن عبد البر ، ج ٢ ، ص ٥٩٧ .

(٢) أخرجه البخاري [في كتاب مناقب الأنصار] باب هجرة النبي ﷺ [برقم ٣٩٠٦] .

فسقاها ، وسقى أصحابه ، حتى رووا ، ثم شرب ، وحلب فيه ثانياً ، حتى ملأ الإناء ، فلما رجع أبو معبد ، سأل عن القصّة ، فقالت : لا والله إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ، ووصفته له وصفاً جميلاً ، قال : والله إنني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه^(١) .

ولم يزل يسلك بهما الدليل ، حتى قدم بهما « قباء » ، وهي في ضواحي المدينة ، وذلك في الثاني عشر من ربيع الأول ، يوم الإثنين^(٢) . فكان مبدأ التاريخ الإسلامي .

(١) زاد المعاد ، ج ٢ ص ٣٠٩ [وأخرجه الحاكم في « المستدرک » (٩ / ٣ - ١٠) وصحّحه ، ووافقه الذهبي] .

(٢) رواه البخاري ، [في كتاب مناقب الأنصار] باب « هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة » [رقم : ٣٩٠٦] .

الفصل الخامس

العصر المديني

- تصوير المدينة المنورة عند الهجرة
- الرسول ﷺ في المدينة :
- المؤاخاة - الصحيفة - المسجد
- الإذن بالقتال
- معركة بدر الجاسمة
- غزوة أحد
- غزوة بني قريظة
- غزوة بني المصطلق وحديث الإفك
- صلح الحديبية
- دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام
- غزوة خيبر
- غزوة مؤتة
- فتح مكة
- غزوة حنين
- غزوة الطائف
- غزوة تبوك
- عام الوفود
- حجة الوداع
- الوفاة
- أزواجه أمهات المؤمنين وأولاده وأسباطه ﷺ

تَصْوِيرُ الْمَدِينَةِ عِنْدَ الْهِجْرَةِ

اختلافٌ بينَ المجتمعِ المكيِّ والمجتمعِ المدنيِّ :

ولكي نأخذَ صورةً إجماليةً صحيحةً عن مدينةٍ (يثرب) - التي اختارَهَا اللهُ دارَ هجرةٍ للرَّسُولِ ، ومنطلقَ الدعوةِ الإسلاميةِ في العالمِ ، ومهدَ أوَّلِ مجتمعٍ إسلاميٍّ يقومُ بعدَ ظهورِ الإسلامِ - يجبُ أن نعرفَ وضعَهَا المدنيَّ ، والاجتماعيَّ ، والاقتصاديَّ ، وصلةَ القبائلِ المقيمةِ فيها ، بعضها ببعضٍ ، ومركزَ اليهودِ فيها ، الاجتماعيَّ ، والاقتصاديَّ ، والحربيَّ ، والواقعَ الذي كانتَ تعيشُهُ هذهِ المدينةُ الخصبةُ الغنيَّةُ ، التي التقتَ فيها دياناتٌ ، وثقافاتٌ ، ومجتمعاتٌ مختلفةٌ ، بخلافِ مَكَّةَ ذاتِ الطبيعةِ الواحدةِ ، والطابعِ الموحدِ ، والدينِ المشتركِ ، وإلى القاريءِ بعضُ الأضواءِ .

اليهود :

المرجحُ في ضوءِ التاريخِ أنَّ غالبيةَ اليهودِ حلُّوا بالجزيرةِ العربيةِ بصفةٍ عامةٍ ، ومدينةِ يثربَ بصفةٍ خاصَّةٍ ، في القرنِ الأوَّلِ الميلاديِّ ، يقولُ الدكتورُ إسرائيلُ ولفنسون :

« بعدَ حربِ اليهودِ والرُّومانِ سنةَ ٧٠م التي انتهتْ بخرابِ بلادِ فلسطينَ ، وتدميرِ هيكلِ بيتِ المقدسِ ، وتشَّتتِ اليهودُ في أصقاعِ العالمِ ، قصدتْ جموعٌ كثيرةٌ من اليهودِ بلادَ العربِ كما حدَّثنا عن ذلكَ المؤرِّخُ اليهوديُّ

« يوسي فوس » الذي شهد تلك الحروب ، وكان قائداً لبعض وحداتها
وتؤيد المصادر العربية كل هذا ^(١) .

وكانت في المدينة ثلاث قبائل كبيرة رئيسية من اليهود ، بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين ، وهي : « قينقاع » و « النضير » و « قريظة » ، ويقدر أن رجال قينقاع المحاربين ، بلغ عددهم سبعمئة ، كما كان عدد رجال النضير مثل هذا العدد ، وكان الرجال البالغون من قريظة ما بين سبعمئة وتسعمئة ^(٢) .

وكانت العلاقة بين هذه القبائل الثلاث مضطربة متوترة ، وقد يكون بعضهم حرباً على بعض ، يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون :

« قد كانت هناك عداوة بين بني قينقاع وبقية اليهود ، سببها أن بني قينقاع كانوا قد اشتركوا مع بني الخزرج في يوم « بعاث » وقد أئخن بنو النضير وبنو قريظة في بني قينقاع ، ومزقوهم كل ممزق ، مع أنهم دفعوا الفدية عن كل ما وقع في أيديهم من اليهود ، وقد استمرت هذه العداوة بين البطون اليهودية بعد »

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام : للدكتور إسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب) ، ص ٩ ؛ مطبعة الاعتماد القاهرة ١٩٢٧ م .

(٢) استفيد في هذا التقدير مما جاء في سيرة ابن هشام من الأعداد عند الحوادث والحروب ، كجلاء بني النضير ، وقتل الرجال من بني قريظة ، وغير ذلك من القرائن .
و « قينقاع » و « النضير » و « قريظة » هي القبائل اليهودية الأم ، ولها توابع يلتحقون بها ، وينسبون إليها كبنى هذل ، التابعين لبني قريظة ، كان منهم بعض كبار الصحابة الذين أسلموا من أهل الكتاب ، وكنى زنباع وهم فرع من فروع بني قريظة ، وقد جاءت أسماء لجماعات يهودية في العقد الذي تم بين رسول الله ﷺ وبين اليهود ، كيهود بني عوف ، ويهود بني النجار ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني ثعلبة ، وبني جفنة ، وبني الحارث ، وغيرها ، وقد جاء في هذا العقد بعد ذكر هذه الجماعات « إن بطانة يهود كأنفسهم » ؛ وذلك الذي حمل السهمودي صاحب كتاب « وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى » على أن يقول : « إن يهود كانوا نيفاً وعشرين قبيلة » ؛ (وفاء الوفا : ص ١١٦) .

يوم « بُعَاثٍ » ، حتى وقعت الحرب بين الأنصار وبين بني قينقاع ، فلم ينهض معهم أحدٌ من اليهود في محاربة الأنصار .

وقد أشار القرآن إلى عداوة اليهود فيما بينهم بقوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا سَفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ فَسَّهَدُونَ ۚ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْكَرَى تَقُدُّوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ ﴾ ^(١) [البقرة : ٨٤ - ٨٥] .

وكانوا يعيشون في أحياء وقرى مختلفة خاصة بهم ، فكانت بنو قينقاع يسكنون داخل المدينة في محلة خاصة بهم ، بعد أن طردهم إخوانهم بنو النضير وقرية من مساكنهم التي كانت خارج المدينة ، وكانت مساكن بني النضير بالعالية بوادي « بَطْحَانَ » على بعد ميلين أو ثلاثة من المدينة ، وكانت عامرة بالنخيل ، والزروع ، وكانت بنو قرية يسكنون في منطقة (مهزور) التي تقع على بعد بضعة أميال من جنوب المدينة ^(٢) .

وكانت لهم حصون ، وأطام ، وقرى ، يعيشون فيها متكئين ^(٣) مستقلين ، لم يتمكنوا من إنشاء حكومات يحكمها اليهود ، بل كانوا مستقلين في حماية سادات القبائل ورؤسائها ، يؤدون لهم إتاوة في كل عام ، مقابل حمايتهم لهم ، ودفاعهم عنهم ، ومنع الأعراب من التعدي عليهم ، وقد لجؤوا إلى عقد المحالفات معهم ، وكان لكل زعيم يهودي حليف من

(١) اليهود في بلاد العرب : ص ١٢٩ .

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : للدكتور محمد سيد الطنطاوي ، ص ٧٧ .

(٣) [مُتَكَلِّينَ : أي مُتَّحِدِينَ ، وَتَقِينِ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ] .

الأعرابِ ومن رؤساء العرب^(١) .

وكانوا ينعثون أنفسهم بأنهم أهل العلم بالأديان والشرائع ، وكانت لهم مدارس^(٢) يتدارسون فيها أمور دينهم ، وأحكام شريعتهم ، وأيامهم الماضية ، وأخبارهم الخاصة برسُلهم وأنبيائهم ، كما كانت لهم أماكن خاصة يقيمون فيها عباداتهم وشعائر دينهم ، وكانت تُسمَّى « المدارس » وكان المكان الذي يتجمع فيه اليهود لتبادل المشورة في سائر أحوالهم الدينية والدنيوية .

وكانت لهم تشريعاتهم ونظمهم الخاصة بهم ، أخذوا بعضها عن كتبهم ، وبعضها وضعه لهم كهَّانهم وأخبارهم من عند أنفسهم ، وكانت لهم أعيادهم الخاصة بهم ، وأيام خاصة ، يصومون فيها ، كيوم عاشوراء^(٣) .

ويبدو أنه ضعفت صلتهم بدينهم الأصيل والتعليمات التي جاءت في صحفهم ، وأصبحوا على مر الأيام لا يتميزون عن جيرانهم العرب ، إلا بأثارة من عقيدة التوحيد ، وتمييز بين الحلال والحرام ، ولما جاء الإسلام بعقيدة التوحيد النقية الحاسمة كما جاء في القرآن ، زال تميزهم في ذلك أيضاً .

وقد بلغوا غاية الإسفاف والتدني في الأخلاق ، وأصبحوا يستعينون في قضاء مآربهم بأمور خفية مدسوسة كالسحر ، ودس السم في الطعام ، وتسليية النفس بالتنكيت والتوريب^(٤) ، واستعمال الكلمات الموهمة ذات المعنيين شأن المجتمعات الحاقدة المغلوبة على أمرها ، وبراعة اليهود في فنون السحر

(١) ملخص من « تاريخ العرب قبل الإسلام » ج ٧ ، ص ٢٣ للدكتور جواد علي .

(٢) تحقق من المصادر اليهودية أن هذه المدارس كانت مركزاً للتعليم الديني العالي وكانت الكليات والجامعات في عصرنا (راجع دائرة المعارف اليهودية) .

(٣) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ص ٨٠ - ٨١ .

(٤) التوريب : أن تورّي عن الشيء بالمعارضات والمباحات (لسان العرب والقاموس المحيط) .

والكهانة من الحقائق المسلّمة في التاريخ ، وظلّ قادّتهم وعلمائهم يعترفون بذلك بشيء من التيه والافتخار ، وأشار إلى ذلك القرآن بقوله : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ... ﴾ الخ [البقرة : ١٠٢] ، وقد ظلّ هذا الواقع باقياً إلى عهد الرسالة ، يقول المستشرق اليهودي الشهير مارجليوث (Margoliouth) المعروف بتحامله على الإسلام وصاحب رسالته في كتابه عن رسول الله ﷺ :

« كَانَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ بَارِعِينَ فِي فَنِّ السَّحْرِ ، وَكَانُوا يَفْضِلُونَ أَسْلِحَةَ الْفَنِّ الْأَسْوَدِ (السَّحْرِ) عَلَى الْقِتَالِ السَّافِرِ ، وَالْمُبَارَزَةِ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ » ^(١) .

وسياتي في قصّة غزوة خيبر محاولة دسّ السمّ في شاة مشوية قدّمت للنبي ﷺ للتخلّص منه ، وسلم منه النبي ﷺ ومات بشر بن البراء بن معرور ^(٢) .

وأما استخدام الكلمات المعروفة بطريقة خاصة وإرادة معانيها المُستَهْجَنة فقد جاء في القرآن : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٠٤] . أخرج أبو نعيم في (الدلائل) عن ابن عباس رضي الله عنه أنّ اليهود كانوا يقولون : « راعنا » سرّاً لرسول الله ﷺ وهو سبّ قبيح بلسانهم ، كانوا يقولون ذلك ويضحكون فيما بينهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، ونهى المؤمنين سداً للباب وقطعاً للألسنة ، وإبعاداً عن المشابهة ، ومعنى هذه الكلمة عند اليهود اسمع -

(١) D. S. Margoliouth's Muhammad and The Rise of Islam, p. 189.

(٢) رواه البخاري [في كتاب المغازي] ، باب الشاة التي سمّت للنبي ﷺ بخبير [برقم (٤٢٤٩) ، ومسلم في كتاب السلام ، باب السمّ ، برقم (٢١٩٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وأخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب ما يذكر في سمّ النبي ﷺ ، برقم (٥٧٧٧) ، وأحمد : (٤٥١/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] .

لا سمعت - وقيل : أرادوا نسبته ﷺ - وحاشاه - إلى « الرّعن » مشتقاً من الرعونة وهي الجهل والحمق ، والألف حينئذٍ لمدّ الصوت^(١) .

وروى البخاريّ بسنده عن عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ : كَانَ الْيَهُودُ يَسْلُمُونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، يَقُولُونَ : « السَّامُ عَلَيْكَ »^(٢) وَيَعْنُونَ بِهِ الْمَوْتَ ، وَفِي الْحَدِيثِ « لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ ، إِلَّا السَّامُ »^(٣) أَي : الْمَوْتُ ، وَفِي ذَلِكَ نَزَلَتِ الْآيَةُ : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾^(٤) [المجادلة : ٨] .

وَابْتُلُوا كَذَلِكَ بَانْحِطَاطِ خَلْقِيْ جَنْسِيْ ، وَتَوَرُّطِ فِيمَا لَا يَلِيْقُ بِمَجْتَمَعِ فَاضِلٍ مَّتَمَّاسِكٍ يَقُومُ عَلَى شَرِيعَةٍ وَتَعْلِيْمَاتٍ سَمَاوِيَّةٍ ، تَجَلَّى ذَلِكَ فِي قِصَّةِ امْرَأَةٍ مِنَ الْعَرَبِ وَقَعَتْ فِي سَوْقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ ، وَقَدْ جَلَسَتْ إِلَى صَائِغٍ بِهَا ، فَجَعَلُوا يَرِيدُونَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا فَأَبَتْ ، فَعَمَدَ الصَّائِغُ إِلَى طَرَفِ ثَوْبِهَا فَعَقَدَهُ ، إِلَى ظَهْرِهَا ، فَلَمَّا قَامَتْ انْكَشَفَتْ سَوْءُتُهَا فَضَحِكُوا مِنْهَا ، فَصَاحَتْ ، فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصَّائِغِ فَقَتَلَهُ ، وَشَدَّتْ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ^(٥) ، وَيَبْدُو أَنَّ هَذِهِ الْحَادِثَةَ لَمْ تَكُنْ فَرِيدَةً مِنْ نَوْعِهَا ، وَيَتَعَذَّرُ وَقُوعُهَا فِي أَسْوَاقِ الْعَرَبِ غَالِباً .

وَكَانَتْ مَعْظَمُ مَعَامِلَاتِهِمْ مَعَ غَيْرِهِمْ تَقُومُ عَلَى الرِّهَانِ ، وَتَعَاطِي الرِّبَا ، وَكَانَتْ لَهُمْ مِنْ طَبِيعَةِ مَنَاطِقِ الْمَدِينَةِ الزَّرَاعِيَّةِ فُرْصَةٌ إِلَى ذَلِكَ ، لِأَنَّ الزَّرَّاعَ

(١) روح المعاني : للعلامة شهاب الدين محمود الألوسي البغدادى : ج ١ ، ص ٣٤٨-٣٤٩ .

(٢) رواه البخاري ، في كتاب الدعوات [باب الرّفق في الأمر كلّهُ ، برقم (٦٠٢٤)] ، ومسلم في كتاب السلام ، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام . . . ، برقم (٢١٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها] .

(٣) مجمع بحار الأنوار : ج ٣ ، ص ١٥٥ .

(٤) راجع « روح المعاني » ، و« تفسير ابن كثير » .

(٥) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٤٨ .

عادةً يحتاجون إلى اقتراض الأموال لحين الحصاد^(١) .

وكانت الرُّهون لا تقتصرُ على الرهائن المائيّة، بل تَخَطَّتْها إلى رهن النساء والولدان ، وقد جاء في قصّة قتل كعب بن الأشرف النّضري التي رواها الإمام البخاريّ - رحمه الله - في صحيحه ، أنّه قال له محمد بن مسلمة : قد أردنا أن تُسَلِّفَنا وسقاً^(٢) أو وسقين ، فقال : نعم ، ارهنوني ، قالوا : أي شيء تريد؟ قال : ارهنوني نساءكم ، قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجملُ العرب؟ قال : فارهنوني أبناءكم ، قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيسبّ أحدهم فيقال : رهن بوسق أو وسقين؟ هذا عارٌ علينا ، ولكنّا نرهنك اللّامة^(٣) .

ومن طبيعة هذه الرُّهون خصوصاً إذا كانت في الأبناء والنساء : نشوء الحقد والكراهة بين الراهنين والمرتهنين ، لا سيّما وأنّ العرب اشتهرُوا بالغيرة الشديدة على نسائهم وشدة الأنفة .

وقد ترتّب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصادية في المدينة وضواحيها أن قوي نفوذهم الماليّ ، وصاروا يتحكّمون في الأسواق تحكّماً فاحشاً ، ويحتكرونها لمصلحتهم ومنفعتهم ، فكرههم السواد الأعظم من الناس بسبب أنانيّتهم واشتطاطهم في أخذ الرِّبا ، وحصولهم على غنى وثراء بطرق يأنفُ العربيُّ عن سلوكها والتّعامل بها^(٤) .

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ٧٩ .

(٢) [الوسق : مكيال معلوم ، سئون صاعاً ، والصّاع : مكيال تُكال به الحبوب ونحوها ، وهو عند فلاحي الشام : نصف المُدّ الشامي ، أي : يعادل (٩) لترات] .

(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي ، باب « قتل كعب بن الأشرف » [برقم (٤٠٣٧) ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود ، برقم (١٨٠١) ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه] . وقد سرد القصّة ابن هشام باختلاف يسير في « السيرة النبوية » ج ٢ ، ص ٥١ .

(٤) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ص ٧٩ .

ولما طُبِعُوا عليه من الجشع ، ولسياستهم التوسعية ، يقول (De-Lacy O'Leary) في كتابه « العرب قبل محمد » :

« ساءت العلاقات بين أولئك البدو (المدنيين)^(١) واليهود المستعمرين في القرن السابع الميلادي ، فإنهم كانوا قد وسَّعوا مناطقهم المزروعة إلى مراعي هؤلاء البدو »^(٢) .

وكانت علاقة اليهود بالأوس والخزرج - سكان المدينة العرب - خاضعة للمنفعة الشخصية والمكاسب المادية ، فهم يعملون على إثارة الحرب بين الفريقين ، متى وجدوا في إثارتها فائدة لهم ، كما حصل ذلك في كثير من الحروب التي أنهكت الأوس والخزرج ، وكان يهتهم فقط أن تكون لهم السيطرة المالية على المدينة ، وحديثهم عن النبي المرتقب شجع الأوس والخزرج على الدخول في الإسلام^(٣) .

أما لغة اليهود في بلاد العرب ، فقد كانت العربية بطبيعة الحال ، ولكنها لم تكن خالصة ، بل كانت تشوبها الرطانة العبرية ، لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركاً تاماً ، بل كانوا يستعملونها في صلواتهم ودراساتهم^(٤) .

أما الجانب الديني والدعوي فيقول الدكتور إسرائيل ولفنسون :

« لا شك أنه كان في المقدرة اليهودية أن تزيد في بسط نفوذها الديني بين

(١) المراد بهم القبائل العربية ؛ مثل الأوس والخزرج ومن جاورهم من العرب في ضواحي المدينة .

(٢) Arabia Before Mohammad, London 1927 p. 174.

(٣) مستفاد من كتاب « بنو إسرائيل في القرآن والسنة » للدكتور محمد سيد طنطاوي ، ج : ١ ، ص ٧٣ إلى ١٠١ .

(٤) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول : للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف ، ص ٢٠٣ .

العرب ، حتى تبلغ منزلة أرقى مما كانت عليه لو توافرت عند اليهود النية على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة ، ولكن الذي يعلم تاريخ اليهود يشهد بأن الأمة الإسرائيلية لم تمل بوجه عام إلى إرغام الأمم على اعتناق دينها ، وأن نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود ^(١) .

عجز اليهود كمعادتهم أن يكتفوا أنفسهم ومجتمعهم بالحقائق والواقع والتطورات الحديثة ، ويفهموا التحدي الحديث ويتنفعوا بالفرصة المتاحة ويدينوا بالإسلام ، فiaخذوا مكانهم اللائق بثقافتهم وعقليتهم وتجاربهم والقوى المودعة فيهم ، وذلك مصير كل مجتمع يعيش على التاريخ ، والإدلال بالنسب والتمنيات والأحلام المعسولة ، ورواسب الماضي والقيادات المفلسة المنهارة .

إن اليهود لم يستطيعوا أن يُبرزوا وجودهم ، ويثبتوا صلاحيتهم ونفوذهم كأمة ذات رسالة وكتاب سماوي ، وكورثة الأنبياء السابقين وذريتهم ، فلم يُزعجهم ولم يُحرك ساكنهم ما كان عليه العرب من وثنية سخيفة وجاهلية منحطة ، ولم يدعوا - على الأقل - إلى عقيدة التوحيد التي تميّزوا بها عبر العصور والأجيال ، ورغم الانحطاط الخلقي ومواضع الضعف فيهم ، ولعلّ السبب الرئيسي هو عدم ارتياحهم إلى دعوة غير الإسرائيليين إلى دين الأنبياء ، بل امتناعهم عن ذلك عبر التاريخ - كما يقول (إسرائيل ولفنسون) وكما قالت السيدة مريم جميلة اليهودية الأمريكية سابقاً ، والمهتدية إلى الإسلام : ثم الإخلاد إلى الراحة والانغماس في الكسب والمعيشة ، كما هي طبيعة اليهود .

ولكن ممّا لا شك فيه أنّ عدداً من العرب المنتمين إلى الأوس والخزرج وغيرهما من القبائل العربية الأصيلة ، دانوا باليهودية عن رغبة منهم ، أو بتأثير

(١) راجع « اليهود في بلاد العرب » لإسرائيل ولفنسون ، ص ٧٢ .

المُصَاهَرَة والزواج ، أو بحكم النشأة في البيئة اليهودية ، وقد كان في يهود العرب جميع هذه الأنواع ، وقد ثبت أن التاجر اليهودي الكبير والشاعر المشهور كعب بن الأشرف الذي يُعرف بالنضري كان من قبيلة « طيء » تزوج أبوه في « بني النضير » ، فنشأ كعب بن الأشرف يهودياً متحمساً . قال ابن هشام : « وكان رجلاً من طيء ، ثم أحد بني نبهان ، وكانت أمه من بني النضير »^(١) .

وكان بعض من لا يعيش له ولد من العرب يندُر ، إذا ولد له ابن وعاش هوذوه ، وكان في المدينة عدد من العرب الذين دخلوا في اليهودية عن هذا الطريق .

روى الإمام أبو داود السجستاني بسنده عن ابن عباس قال : « كانت المرأة تكون مقلاتاً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد ، أن تهوذه ، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا : لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] . قال أبو داود : المقلات : التي لا يعيش لها ولد »^(٢) .

الأوس والخزرج :

تنتمي بطون الأوس والخزرج - سُكَّان المدينة العرب - إلى القبائل الأزدية اليمنية ، وكانت موجات هذه الهجرة من اليمن إلى يثرب متفرقة في أوقات مختلفة ، وكانت لعوامل متعددة ، منها اضطراب أحوال اليمن وغزو الأحباش ، وإهمال أمر الإرواء ، بخراب سد مأرب .

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ؛ ص ٥١ .

(٢) راجع : سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب « في الأسير يكره على الإسلام » [برقم (٢٦٨٢)] .

وعلى هذا فالأوسُ والخزرجُ أحدثُ عهداً في المدينة من اليهود^(١) .
وقد سكنت بطون الأوس في المنطقة الجنوبية والشرقية ، وهي منطقة
العوالي من يثرب ، بينما سكنت بطون الخزرج المنطقة الوسطى الشمالية ،
وهي سافلة المدينة ، وليس وراءهم شيء في الغرب إلى خلاء حرة الوبرة^(٢) .
وانقسم أمر الخزرج إلى أربعة أبطن ، وهم : مالك ، وعدي ، ومازن ،
ودينار ، كلها من بني النجار المعروف بـ « تيم اللات » ، وقد سكنت بطون
بني النجار في المنطقة الوسطى التي حول مسجد النبي ﷺ .

وقد سكن الأوس المناطق الزراعية الغنية في المدينة ، وجاوروا أهم
قبائل اليهود وجموعهم ، واستوطن الخزرج مناطق أقل خصباً ، وقد جاورهم
قبيلة يهودية كبيرة واحدة ، وهي « القينقاع »^(٣) .

ليس من السهل الحصول الآن على إحصاء دقيق عن عدد رجال الأوس
والخزرج ، ولكن الباحث المتبع للحوادث يستطيع تحديد قوتهم الحربية من
المعارك التي خاضوها بعد الهجرة ، فقد بلغ عدد محاربيهم في يوم فتح مكة
أربعة آلاف مقاتل^(٤) .

وكان العرب في وقت الهجرة النبوية أصحاب الكلمة العليا في يثرب ،
ويبدوهم كان توجيه الأمور بها ، ولم يستطع اليهود مقابل ذلك أن يجمعوا
كلمتهم ، ويقفوا صفاً واحداً في وجه خصومهم ، فتفرقت بطونهم ، ودخل

(١) راجع « مكة والمدينة » ؛ ص ٣١٥-٣١٦ .

(٢) مكة والمدينة : ص ٣١١ .

(٣) المصدر السابق : ص ٣١٣ .

(٤) إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع : لتقي الدين أبي محمد
المقريزي ، ج ١ ، ص ٣٦٤ (طبع القاهرة ١٩٤١ م) .

بعضها في محالفات مع الأوس ، ودخل بعضها في محالفات مع الخزرج ، وكانوا في القتال أقسى على بني جنسهم من العرب ، واستحكم عداؤهم بين بني القينقاع وبني النضير وبني قريظة ، جعل بني قينقاع يتركون أرضهم وزرعهم ، ويقتصرون على الصناعة^(١) .

ووقعت كذلك بين الأوس والخزرج حروب كثيرة ، أولها حرب سمير ، وآخرها بعث قبل الهجرة بخمس سنوات^(٢) . وقد عمل اليهود بجانبهم على الدس بين الأوس والخزرج وتشجيع عوامل الفرقة ، وإذكاء روح التحاسد ، حتى يشغلوهم بأنفسهم عنهم^(٣) ، وقد أدرك العرب منهم ذلك فلقبوهم بـ « الثعالب » .

الوضع الطبيعي :

كانت يثرب عند الهجرة النبوية منقسمة إلى عدة دوائر ، تسكنها بطون عربية ويهودية ، وكل دائرة تابعة لبطن من البطون ، وكانت الدائرة تنقسم إلى قسمين : يشتمل القسم الأول على الأراضي الزراعية بمنازلها وسكانها ، ويشتمل القسم الثاني على الأطم^(٤) أو الآطام^(٥) .

وقد بلغ عدد آطام اليهود في يثرب تسعة وخمسين^(٦) ، ويقول الدكتور ولفنسون في وصف هذه الآطام :

(١) مكة والمدينة : ص ٣٢٢ .

(٢) المصدر السابق : ص ٣٢٢-٣٢٣ .

(٣) راجع القصة التي رواها ابن هشام : ج ١ ، ص ٥٥٥ .

(٤) [الأطم جمعه : الآطام : وهو الحصن ، انظر تفسيره في الصفحة القادمة] .

(٥) مستفاد من كتاب « تاريخ اليهود في بلاد العرب » للدكتور إسرائيل ولفنسون ، ص ١١٦ .

(٦) وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى (ﷺ) : للسهمودي ، ج ١ ، ص ١١٦ .

« كَانَتْ أَهْمِيَّةُ الْآطَامِ عَظِيمَةً فِي يَثْرَبَ ، فَكَانَ يَفْزَعُ إِلَيْهَا أَفْرَادُ الْبَطْنِ عِنْدَ هُجُومِ الْعَدُوِّ ، وَيَأْوِي إِلَيْهَا النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ وَالْعَجْزَةُ ، حِينَ يَذْهَبُ الرِّجَالُ لِمَقَاتِلَةِ الْأَعْدَاءِ ، وَقَدْ كَانَتْ الْآطَامُ تُسْتَعْمَلُ كَالْمَخَازِنِ تُجْمَعُ فِيهَا الْغِلَالُ وَالثَّمَارُ ، ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ مَعْرُضَةً فِي أَمَاكِنِهَا الْمَكْشُوفَةِ لِلنَّهْبِ وَالسَّلْبِ ، وَكَانَ الْأُطْمُ مَرْبَعًا لِكُنْزِ الْأَمْوَالِ وَالسَّلَاحِ ، وَكَانَ لِلْقَوَافِلِ الْمُثْقَلَةِ بِالْبَضَائِعِ أَنْ تَنْزَلَ بِالْقُرْبِ مِنْهُ ، كَمَا كَانَتْ تَقَامُ عَلَى أَبْوَابِهِ الْأَسْوَاقُ .

وَكَانَتْ الْآطَامُ تُشْتَمِلُ - كَمَا نَظَرْتُ - عَلَى الْمَعَابِدِ وَبُيُوتِ « الْمَدْرَاسِ » ، إِذْ كَانَتْ فَاحِرَةً الْأَثَاثِ ، كَثِيرَةً الْأَدَوَاتِ ، مَمْلُوءَةً بِالْأَسْفَارِ ، فَكَانَ يَجْتَمِعُ فِيهَا الزُّعَمَاءُ لِلْبَحْثِ وَالْمَشَاوِرَةِ حَيْثُ يَقْسِمُونَ بِالْكَتَبِ الْمَقْدَسَةِ ، حِينَ يَهْمُّونَ بِإِبْرَامِ الْعُقُودِ وَالْإِتْفَاقَاتِ »^(١) .

ويقول الدكتور (ولفنسون) في تفسير كلمة « أُطْم » : « أَنَّهَا مَأْخُودَةٌ مِنَ اللُّغَةِ الْعِبْرِيَّةِ ، فَيَقَالُ أُطْمَ عَيْنِيهِ : أَغْمَضْتُهُمَا ، وَأُطْمَ أُذُنِيهِ : سَدَّتهما ، وَالْأُطْمُ فِي الْجُدْرَانِ وَالْحِيطَانِ : هِيَ النَوَافِذُ الْمَغْلَقَةُ مِنَ الْخَارِجِ ، وَالْمَفْتُوحَةُ مِنَ الدَّخَالِ ، وَيُسْتَعْمَلُ فِي الشُّورِ أَيْ الْحَائِطِ الضَّخْمِ » .

يقول الدكتور :

« وَعَلَى ذَلِكَ يُمَكِّنُنَا أَنْ نَفْتَرِضَ أَنَّ الْيَهُودَ أَطْلَقُوا عَلَى الْحَصَنِ اسْمَ أُطْمَ ، لِأَنَّهُ كَانَ فِي إِمكَانِهِمْ أَنْ يَغْلِقُوا أَبْوَابَهُ ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُ نَوَافِذُ مِنَ الْخَارِجِ وَتُفْتَحُ مِنَ الدَّخَالِ »^(٢) .

وَمِنْ هَذِهِ الْأَحْيَاءِ وَالذَّوَائِرِ الْمُحَصَّنَةِ كَانَتْ تَتَكَوَّنُ مَدِينَةُ (يَثْرَبَ) ، فَهِيَ

(١) اليهود في بلاد العرب : ص ١١٦ - ١١٧ .

(٢) المصدر السابق : ص ١١٧ .

في الحقيقة مجموعة من القرى تقاربت وتجمعت ، فتكونت منها المدينة ، وإلى ذلك أشار القرآن بقوله :

﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ [الحشر : ٧] . وبقوله :

﴿ لَا يُقَدِّرُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ ^(١) [الحشر : ١٤] .

و(حَرَّةُ واقم) التي تحدُّ المدينة من الشرق ، كانت حرة أكثرَ عمراناً من الوبرة ، وحين هاجر النبي ﷺ إلى يثرب ، كانت حرة واقم مسكونة بأهم قبائل اليهود من بني النضير وقريظة ، وعدد من عشائر اليهود الأخرى ، كما كانت تسكنها أهم البطون الأوسية بنو عبد الأشهل ، وبنو ظفر ، وبنو حارثة ، وبنو معاوية ، وفي منازل بني الأشهل كان يقوم حصنهم واقم ، الذي سُميت الحرة باسمه ^(٢) .

الحالة الدينية والمكانة الاجتماعية :

كان العرب تابعين لقريش وأهل مكة في العقيدة والديانة ، ينظرون إلى قريش كسند للبيت ، وقادة في الدين ، وقُدوة في الاعتقاد والعبادة ، خاضعين للوثنية السائدة على جزيرة العرب ، يعبدون من الأصنام ما تعبدوها قريش وأهل الحجاز ، إلا أن علاقتهم ببعض الأصنام كانت أقوى من علاقتهم ببعضها .

فكانت « مناة » لأهل المدينة ، وكانت أقدم الأصنام ، وكان الأوس والخزرج أشدَّ إعظاماً لها من غيرهم ، وكانوا يهللون لها شركاً بالله تعالى ، وكانت حذو « قديد » الجبل الذي بين مكة والمدينة من ناحية الساحل .

(١) مكة والمدينة : ص ٢٩٤ .

(٢) منزل الوحي : للدكتور محمد حسين هيكل ، ص ٥٧٧ .

كما كانت اللات لأهل الطائف ، و « العزى » لأهل مكة ، وكان أهل هذه المدن أكثر تعصباً وحمية لها من غيرها ، وكان من اتخذ في داره صنماً من أهل المدينة من خشب أو غيره يسميه « مناة » أيضاً ، كما فعل ذلك عمرو بن الجموح سيّد من سادات بني سلمة قبل أن يسلم^(١) .

وقد جاء في حديث رواه الإمام أحمد عن عروة عن عائشة في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة : ١٥٨] . قالت : إنّ الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلّون « لمناة » الطاغية ، التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهل لها يتحرّج أن يطوف بالصفّا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله إنّنا كنّا نتحرّج أن نطوف بالصفّا والمروة في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾^(٢) [البقرة : ١٥٨] .

ولم نطلع على صنم لهم خاص في المدينة اشتهر كاللات ومناة ، والعزى ، أو كهبل ، يعكفون على عبادته ، ويشدّ إليه الرّحال من خارج المدينة ، ويبدو أنّ الأصنام لم تنتشر في المدينة انتشارها في مكة ، فقد كان لكل بيت في مكة صنم خاص ، وكانت الأصنام يطاف بها وتباع ، فكانوا في الوثنية عيالاً على أهل مكة وأتباعاً لهم .

وكان لأهل (المدينة) يومان يلعبون فيهما ، فلما قدم النبي ﷺ المدينة

(١) مستفاد من « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » للعلامة السيد محمود شكري الآلوسي ؛ ج ١ ، ص ٣٤٦ ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب العمرة ، باب يفعل بالعمرة ما يفعل بالحج ، برقم (١٧٩٠) ، ومسلم في كتاب الحج ، باب بيان أنّ السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلّا به ، برقم (١٢٧٧) ، وأبو داود في كتاب المناسك ، باب أمر الصفا والمروة ، برقم (١٩٠١) ، والترمذي في تفسير القرآن ، برقم (٢٩٦٥) ، وأحمد (١٤٤/٦ - ١٦٢)] .

قَالَ لَهُمْ : « قَدْ أَبْدَلَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا ، يَوْمَ الْفَطْرِ وَالْأَضْحَى » (١) ،
وقد ذَكَرَ بَعْضُ شُرَاحِ الْحَدِيثِ أَنََّّهُمَا النَّيْرُوزُ وَالْمِهْرَجَانُ ، وَكَأَنَّهُمَا أَخَذُوهُمَا
مِنَ الْفَرَسِ (٢) .

وَكَانَتْ قَرِيشٌ تَعْتَرِفُ بِشَرَفِ الْأَوْسِ وَالْخَزْجِ ، وَهُمْ بَنُو قَحْطَانَ الْعَرَبِ
الْعَارِبَةِ ، وَكَانُوا يُصَاهِرُونَهُمْ ، وَيَتَزَوَّجُونَ فِيهِمْ ، وَقَدْ تَزَوَّجَ هَاشِمٌ بْنُ
عَبْدِ مَنْفٍ وَهُوَ سَيِّدُ قَرِيشٍ فِي بَنِي النَّجَّارِ ، تَزَوَّجَ سَلْمَى بِنْتَ عَمْرٍو بْنِ زَيْدٍ مِنْ
بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ ، وَهُمْ مِنَ الْخَزْجِ إِلَّا أَنََّّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ لَأَنْفُسِهِمْ فَضْلًا
عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ قَالَ عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بْنُ عَتَبَةَ الَّذِينَ دَعَوْا إِلَى
الْمُبَارَاةِ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِتْنَةً مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالُوا : مَنْ أَنْتُمْ ؟
قَالُوا : رَهْطٌ مِنَ الْأَنْصَارِ .

قَالُوا : مَا لَنَا بِكُمْ مِنْ حَاجَةٍ .

ثُمَّ نَادَى مُنَادِيهِمْ : يَا مُحَمَّدُ ! أَخْرِجْ إِلَيْنَا أَكْفَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : قُمْ يَا عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَقُمْ يَا حَمْزَةُ ، وَقُمْ
يَا عَلِيٌّ ، فَلَمَّا قَامُوا وَدَنُوا مِنْهُمْ ، وَسَمَّوْا أَنْفُسَهُمْ ، قَالُوا : نَعَمْ أَكْفَاءُ كِرَامٍ (٣) .

وَكَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى الْفَلَاحَةِ الَّتِي كَانَ يُمَارِسُهَا أَهْلُ الْمَدِينَةِ بِحُكْمِ طَبِيعَةِ
أَرْضِهِمْ وَلِاعْتِمَادِهِمْ عَلَيْهَا فِي مَعَاشِهِمْ نَظْرَةً فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْإِحْتِقَارِ ، وَقَدْ
تَجَلَّتْ هَذِهِ النُّظْرَةُ فِي الْكَلِمَةِ الَّتِي قَالَهَا أَبُو جَهْلٍ وَهُوَ عَقِيرٌ ، قَدْ قَتَلَهُ ابْنَا عَفْرَاءَ

(١) [أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ ، بَابُ صَلَاةِ الْعِيدَيْنِ ، بِرَقْمِ (١١٣٤) ، وَالنَّسَائِيُّ فِي
كِتَابِ صَلَاةِ الْعِيدِ ، بِرَقْمِ (١٥٥٦) ، وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ فِي السُّنَنِ ، (ج ٣ / ٢٧٧) وَغَيْرُهُمْ مِنْ
حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] .

(٢) بَلُوغُ الْأَرْبِ فِي مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْعَرَبِ .

(٣) ابْنُ هِشَامٍ : ج ، ص ٦٢٥ .

وهما من الأنصار ، وقد أدركه عبد الله بن مسعود وبه رمق « لو غير أكارٍ »^(١) قتلني «^(٢) .

الحالة الاقتصادية والحضارية :

كانت مدينة يثرب بطبيعتها منطقة زراعية ، وكان أكثر اعتماد أهلها على الزراعة والبساتين ، وكان من أهم حاصلاتها التمر والعنب ، فكانت فيها جنات النخيل والأعناب^(٣) ، وجات معروشات وغير معروشات ، وزروع ونخيل صنوان وغير صنوان^(٤) ، ومن الزروع الحبوب والبقول ، وكان التمر وخاصة أيام الجذب ، وتخلف الأمطار ، يسد كثيراً من حاجة السكان الغذائية ، وكان كعملة يتبادل بها أهلها عند الحاجة ، وكانت النخيل مصدر خيرات كثيرة في حياتهم ، فكانوا يستخدمونه في الغذاء ، والبناء ،

(١) قال العلامة محمد طاهر الفتني في « مجمع بحار الأنوار » (١/٦٨) : أي الزراع والفلاح : وهو عند العرب ناقص يُعرض بأن ابني عفراء من الزراع ، فلو غيرهما قتلني لم يكن علي نقص [أراد به احتقاره وانتقاصه ، كيف مثله يقتل مثله] .

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي برقم (٤٠٢٠) ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب قتل أبي جهل ، برقم (١٨٠٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه] .

(٣) اقرأ حديث أبي طلحة في بيرحاء الذي رواه الشيخان : وكانت بساتين ملتفة الأغصان والأوراق حتى يدخل فيها الدبسي - وهو طائر صغير - فلا يكاد يخرج منها ، جاء في قصة أبي طلحة الأنصاري : أنه كان يصلي في حائط له ، فطار دبسي : فطفق يتردد يلتبس مخرجاً فأعجبه ذلك ، فجعل يتبعه بصره ساعة ، إلى قصة تصدقه بهذا الحائط بسبب الفتنة التي فتن بها ، أخرجه مالك في موطئه [في كتاب الصدقة ، باب الترغيب في الصدقة ، برقم (١٩٢٦) ، والبخاري في كتاب الزكاة ، باب الزكاة على الأقارب ، برقم (١٤٦١) ، ومسلم في كتاب الزكاة ، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج ، برقم (٢٣١٢) ، والترمذي في أبواب تفسير القرآن ، في تفسير سورة آل عمران ، برقم (٢٩٩٧) .

(٤) راجع سورة الأنعام وسورة الرعد .

والصناعة ، والوقود ، وعلف الدواب^(١) .

ولتَمَر المدينة أنواع كثيرة ، وتفاصيل دقيقة تصعب الإحاطة بها^(٢) .

ولأهل المدينة تجارب وطرق في تنمية حاصل النخيل وتحسينه استفادوها من طول المراس ، منها تأبير النخل^(٣) .

هذا لا ينفي وجود حركة تجارية في المدينة ، ولكنها لم تكن في القوة والانتشار بمكانة الحركة التجارية في مكة ، إذ كان اعتماد أبناء الوادي - وهي غير ذي زرع ومياه وفيرة - على التجارة ورحلة الشتاء والصيف .

وكانت في المدينة بعض الصناعات يُمارس أكثرها اليهود ، ولعلهم جلبوها من اليمن ، فلم يزلوا فيه إلى أن غادروه في الزمن الأخير ، حاذقين في الصناعات ، وكان عامة بني قينقاع صاغة ، وكانوا أغنى طوائف اليهود في مدينة يثرب ، وكانت بيوتهم تحتوي على الأموال الطائلة ، والحلي الكثيرة من الفضة والذهب ، مع أن عددهم كان غير كثير^(٤) .

وقد منح الله أرض يثرب ، وهي بركانية التربة ، خصباً زائداً ، وهي ذات

(١) اقرأ شرح الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه (في كتاب العلم ، وترجم له : « باب طرح الإمام المسألة على الناس ليختبر ما عندهم من العلم ») [برقم (٦١)] في « فتح الباري » ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ، أو « عمدة القاري » للعيني [وأخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب مثل المؤمن مثل النخلة ، برقم (٢٨١١)] .

(٢) تدل الثروة اللغوية الكبيرة التي تدور حول النخلة والتمر ، على ما كانت تشغله هذه الشجرة وثمرتها من مكان في حياة العرب عامة وأهل المدينة خاصة ، وما كان لهما من أهمية ، راجع على سبيل المثال « أدب الكاتب » لابن قتيبة و « فقه اللغة » للثعالبي ، و « المخصص » لابن سيده ؛ وقد أفرد عدد من العلماء كتباً للنخل .

(٣) التأبير : هو أن يشق طلع النخلة لينذر فيه شيء من طلع ذكر النخل ، (شرح مسلم للنووي) .

(٤) اليهود في بلاد العرب : ص ١٢٨ .

وديان كثيرة ، تفيض بمياه السيول ، فتروي أرضها وتسقي النخل والزروع ،
اشتهر منها وادي العقيق^(١) ، الذي كان مُتَنَزَّه المدينة ، وكان يتدفق بالماء ،
ويزهو بالبساتين ، وكانت الأرض صالحة لحفر الآبار ، وقد كثرت فيها
البساتين ، ومنها ما هو مُسَوَّرٌ ويسميه أهل المدينة « الحائط »^(٢) .

واشتهرت آبار كثيرة بعذوبة الماء ووفرته ، وكانت لهم شراج^(٣) ، وكانوا
يحولون الماء بالمساحي إلى حدائقهم^(٤) .

وكان من الحبوب الرئيسية الشعير ، ثم القمح ، وتكثر الخضراوات
والبقول ، وكانت لهم طرق في المزارعة ، والمؤاجرة ، والمزبنة ، والمحاقلة ،
والمخابرة ، والمعاومة ، منها ما أقره الإسلام ومنها ما منعه أو أصلحه^(٥) .

- (١) اقرأ « معجم البلدان » لياقوت الحموي ؛ و « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني .
(٢) اقرأ قصة ابتلاء كعب بن مالك في الجامع الصحيح للبخاري (كتاب المغازي) وقد جاء
فيه : « حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة ،
وهو ابن عُمي » [انظر تخريجه المفصل في هذا الفصل ، ص ٤٩٢] .
(٣) الشرجة : هي سليل الماء .
(٤) اقرأ حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم ، وجاء فيه : « استقي حديقة فلان » ، وجاء فيه ذكر
الشرج ، وتحويل الماء بالمسحاة [أخرجه مسلم في كتاب الزهد ، باب فضل الإنفاق على
المساكين وابن السبيل ، برقم (٢٩٨٤) ، وابن حبان في الصحيح (١٤٢/٨) برقم
(٣٣٥٦) ، وأحمد في المسند (٢/٢٩٦)] .
(٥) اقرأ أبواب الحرث والمزارعة في الصحاح : و « المزبنة » : بيع التمر في رؤوس النخل
بالتمر كيلاً ، و « المحاقلة » : بيع الزرع في سنبله ، الشعير بشعير كيلاً ، والقمح بقمح
كيلاً ، و « المخابرة » و « المزارعة » متقاربتان ؛ وهما المعاملة على الأرض ببعض
ما يخرج منها من الزرع ؛ كالثلث ، والربع ، لكن في المزارعة يكون البذر من مالك
الأرض ، وفي المخابرة يكون البذر من العامل ، وقال جماعة من أهل اللغة : هما بمعنى ،
وفي صحة المزارعة والمخابرة خلاف مشهور للسلف والخلف (مستفاد من شرح النووي
لمسلم) . « والمعاومة » : هو بيع السنين ، ومعناه : أن يبيع ثمر الشجرة عامين ؛ أو ثلاثة
أو أكثر .

وكانت العُملة في مكة والمدينة واحدة، وقد شرَحناها ص (١٤٢-١٤٣).

وكانت المدينة تعتمد على المكايل، وتحتاج إليها أكثر من مكة، لاعتماد أهلها على الحبوب والثمار^(١)، وكانت الأكيال المستعملة في المدينة هي المد والصاع والفرق والعرق والوسق^(٢).

أما الأوزان المستعملة فهي الدرهم والثقاف والدانق والقيراط والنواة والرطل والقنطار والأوقية^(٣).

ولم تكن المدينة - على خصيها - مكتفية غذائياً، فكان أهلها يستوردون بعض المواد الغذائية من الخارج، وكانوا يجلبون دقيق الحوار والسمن والعسل، من الشام. قد جاء في حديث رواه الترمذي عن قتادة بن النعمان - رضي الله عنه - : « كان الناس إنما طعامهم بالمدينة، التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسارٌ فقدمت ضافطة^(٤)، من الشام من الدرمل^(٥)، ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير^(٥)، والقصبة تلقي ضوءاً على الحالة الغذائية في المدينة - التي لم

(١) لذلك قال النبي ﷺ: « الميزان ميزان أهل مكة، والمكيال مكيال أهل المدينة » (رواه

أبو داود والنسائي من رواية طاووس عن ابن عمر، وصححه ابن حبان، والدارقطني).

(٢) راجع للتفصيل والتقدير شروح كتب الحديث وكتب الخلاف، انظر لمقاديها « التراتيب الإدارية » ج ١، ص ٤١٣-٤١٥.

(٣) الضافطة: قال الفتني: « الضافطة » و « الضفاط » من يجلب الميرة والمتاع إلى المدن؛ وكانوا قوماً من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت وغيرهما، (مجمع بحار الأنوار، ج ٣، ص ٤١٠؛ طبع حيدرآباد - الهند).

(٤) « الدرمل »: الدقيق الحواري؛ واحده: « الدرملكة ».

(٥) انظر تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَدِّلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاتًا أَثِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٧]. الآيات في جامع الترمذي [أبواب تفسير القرآن، تفسير سورة النساء، رقم الحديث (٣٠٣٦)].

تحدثت بعد الهجرة فجأة - وعلى المستويات المختلفة في المعيشة .

وكان اليهود - كما عُرِفَ من طبيعتهم وتاريخهم في كل بلد - أكثر غنى من العرب ، وكان العرب بطبيعتهم العربية البدوية ، لا يفكرُون في المستقبل كثيراً ، فيوفرون له المال ، وكانوا أهل ضيافة وكرم ، يضطرون إلى الاستدانة من اليهود ، وكثيراً ما تكون هذه الاستدانة بالربا والرهن .

وكان لأهل المدينة ثروة من الإبل والبقر والأغنام ، ويستخدمون الإبل في إرواء الأراضي ويسمونها بـ « الإبل النواضح » ، وكانت لهم مراعي اشتهرت منها « زغبة » و « الغابة » ، يحتطب منها الناس ، ويرعون فيها ماشيتهم^(١) وكانت لهم خيلٌ يستخدمونها في الحروب وإن كانت قليلة بالنسبة إلى مكة .

وكان بنو سليم مشهورين باقتناء الخيل ، يجلبونها من الخارج .

وكانت في المدينة عدّة أسواق ، أهمّها « سوق بني قينقاع » مركز بيع الحلي والمصوغات الذهبية ، وكانت سوق للبزازين ، وتوجد في المدينة المنسوجات القطنية والحريية ، والنمازق الملونة والستور المرسومة^(٢) .

وكان عطّارون يبيعون أنواع العطور والمسك ، وكان يوجد من يتجرّ في العنبر والزُّبْق^(٣) .

وكانت أنواع من البيع منها ما أقرّه الإسلام ، ومنها ما منعه ، مثل

(١) راجع « معجم البلدان » لياقوت الحموي ، و « وفاء الوفا » للسَّمهودي .

(٢) اقرأ حديث عائشة الذي [أخرجه مسلم في كتاب اللباس والزينة ، باب تحريم تصوير ... برقم (٢١٠٧) وغيره] وقد جاء فيه ذكر القرام « قال الفتنى : هو ستر رقيق وقيل صفيق من صوف ذي ألوان ، قيل : ضربته مثل حجلة العروس ، وقيل : وكان مزيناً منقشاً ، (مجمع بحار الأنوار : ج ٤ ، ص ٢٥٨) .

(٣) راجع « التراتيب الإدارية » للعلامة عبد الحي الكتاني (القسم التاسع) .

النَّجْشِ^(١) والاحتكار ، وتلقي الرُّكبان^(٢) خارجَ المدينة ، وبيع المُصْرَاةِ^(٣) ، والبيع بالنسيئة^(٤) ، وبيع الحاضر للبادي ، وبيع المُجازفة^(٥) ، وبيع المُزَابنة^(٦) ، والمخاضرة^(٧)^(٨) ، وكان من الأوس والخزرج من يتعامل بالرُّبا ، وإن كان ذلك نادراً بالنسبة إلى اليهود .

وقد توسَّعت الحياة في المدينة بعضَ التوسُّع ، ورقَّت بحكم طبيعة أهلها ، فكانت البيوت ذات طبقات^(٩) ، وكانت لبعض البيوت حدائق ، وكانوا يستعذبون الماء ، وقد يأتون به من بعيد . وكانت توجد كُرَّاس^(١٠) ، وكانت تستعمل أقداح من زجاج وأقداح من الحجارة ، وسُرُج منوعة^(١١) ، وكانوا يستخدمون المكاتل والقفف في أعمال المنزل والزراعة ، وكان للأغنياء شيء كثير من الأثاث لبيوتهم ، خصوصاً اليهود ، وكانت أنواع من

-
- (١) [النَّجْش : الزيادة في ثمن السلعة المعروضة للبيع ، لا ليشتريها بل ليُغَرَّ بذلك غيره] .
 (٢) [الرُّكبان : الذين يجلبون إلى البلد الأرزاق للبيع ، وسواء كانوا رُكباناً أو مشاة ، جماعة أو واحداً] .
 (٣) [المُصْرَاة : الدَّابةُ الحلوبُ حُسَّ لَبَنُها في ضَرْعِها ، ليؤمهم المشتري كثرة اللبن] .
 (٤) [النَّسِيئة : التأخير ، يقال : باعه بنسيئة] .
 (٥) [المُجازفة : هي بيع الشيء لا يُعلم كَيْلُهُ أو وَزْنُهُ] .
 (٦) [المُزَابنة : وهي بيع الرُّطْب في رؤوس النَّخْلِ بالتَّمَر ، وأصله من الزَّيْن ، وهو الدفع ، كأن كلَّ واحدٍ من المتبايعين يَزِينُ صاحبه عن حقِّه بل يَزاد منه ، وإنما نُهي في الحديث عنها لما يقع فيها من الغَبْن والجهالة] .
 (٧) [المخاضرة : هي بيع الثمار والحبوب قبل أن يبدو صلاحها] .
 (٨) انظر أبواب البيع في كتب الحديث والفقه ؛ وأحكامها من الحل والحرمة .
 (٩) انظر حديث الهجرة ، ونزول رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب رضي الله عنه [في صحيح مسلم ، برقم (٢٠٥٣)] .
 (١٠) التراتيب الإدارية : ج ١ ، ص ٩٧ .
 (١١) المصدر السابق : ج ١ ، ص ١٠٤ .

الحلي كالأساور ، والدمالج ، والخلاخيل ، والأقرطة ، والخواتم ، والعقود من الذهب أو من جزع ظفار^(١) ، وكان الغزل والنسيج فاشيين في النساء ، فكانت الخياطة والدباغة وعمل بناء البيوت ، وضرب الطوب ، والنحت ، من الصناعات التي عرفت في المدينة قبل الهجرة .

الوضع المعقد الذي واجهه الرسول ﷺ في مدينة يثرب :

وهكذا لم ينتقل رسول الله ﷺ والمهاجرون من مدينة - مكة - إلى قرية - يثرب - بل انتقل من مدينة إلى مدينة ، وإن كانت هي الأخرى تختلف عن الأولى في مظاهر كثيرة للحياة ، وكانت أصغر منها نسبياً ، ولكن الحياة فيها كانت أكثر تعقداً ، والقضايا التي سيواجهها الرسول أكثر تنوعاً ، لوجود ديانات وبيئات وثقافات مختلفة ، لا يتغلب عليها ولا يصهر المدينة كلها في بوتقة عقيدة واحدة ، ودعوة واحدة إلا الرسول المؤيد من الله ، الذي أعطاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وقوة الجمع بين الأنماط البشرية الكثيرة ، والقوى المتصارعة والأهواء المتعاكسة ، وألقى عليه محبة منه ، وصدق الله العظيم :

﴿ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بَصِيرَةً ۖ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿

[الأنفال : ٦٢ - ٦٣]

(١) اقرأ حديث عائشة في قصة الإفك الذي رواه البخاري في كتاب المغازي [باب حديث الإفك ، برقم (٤١٤١) ، ومسلم في كتاب التوبة ، باب في حديث الإفك ، برقم (٢٧٧٠) ، والنسائي في السنن الكبرى (٢٩٥/٥) ، برقم (٨٩٣١) ، وعبد الرزاق في المصنف (٤١٠/٥) برقم (٩٧٤٨)] . و « الجزع » : خرز فيه سواد وبياض ؛ و « ظفار » : مدينة باليمن .

مساكن القبائل الهامة ومواقع الغزوات الإسلامية



فِي الْمَدِينَةِ

كَيْفَ اسْتَقْبَلَتِ الْمَدِينَةُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؟

سَمِعَ الْأَنْصَارُ بِخُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ ، فَكَانُوا يَخْرُجُونَ كُلَّ يَوْمٍ إِذَا صَلَّوْا الصَّبْحَ إِلَى ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ ، يَنْتَظِرُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَمَا يَبْرَحُونَ حَتَّى تَغْلِبَهُمُ الشَّمْسُ عَلَى الظَّلَالِ ، فَيَدْخُلُونَ بَيْوتَهُمْ ، وَكَانَ الزَّمَنُ زَمَنَ صَيْفٍ وَحَرٍّ .

وَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ دَخَلَ النَّاسُ الْبَيْوتَ ، وَكَانَ الْيَهُودُ يَرَوْنَ مَا يَصْنَعُ الْأَنْصَارُ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ رَأَاهُ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ ، فَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ ، وَأَخْبَرَ الْأَنْصَارَ بِقُدُومِ رَسُولِ اللَّهِ ، فَخَرَجُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي ظِلِّ نَخْلَةٍ ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي مِثْلِ سَنَةٍ - وَأَكْثَرُهُمْ لَمْ يَكُنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَازْدَحَمَ النَّاسُ ، مَا يَمِيزُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ ، وَفُطِنَ لَذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ ، فَقَامَ يُظَلُّهُ بِرِدَائِهِ فَانْكَشَفَ لِلنَّاسِ الْأَمْرُ^(١) .

وَاسْتَقْبَلَهُمَا زُهَاءُ خَمْسُمِئَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَيْهِمَا فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ : انْطَلِقَا آمَنِينَ مَطَاعِينَ .

أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبُهُ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ ، فَخَرَجَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ حَتَّى إِنَّ الْعَوَاتِقَ لَفَوْقَ الْبَيْوتِ يَتَرَاءَيْنَهُ يَقُلْنَ : أَيُّهُمْ هُوَ ؟ أَيُّهُمْ هُوَ ؟ يَقُولُ أَنْسُ

(١) ابن هشام : ج ١ ، ص ٤٩٢ [حديث الهجرة : أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ ، برقم (٣٩٠٦)] .

-رضي الله عنه- : فما رأينا منظرًا شبيهاً به^(١) .

وخرجَ الناسُ حينَ قدِمَا المدينةَ في الطُّرُقِ وعلى البيوتِ والغِلَمانِ والخَدَمِ يقولونَ : اللهُ أَكْبَرُ ! جاءَ رسولُ اللهِ ، اللهُ أَكْبَرُ ! جاءَ مُحَمَّدٌ ، اللهُ أَكْبَرُ ! جاءَ مُحَمَّدٌ ، اللهُ أَكْبَرُ ! جاءَ رسولُ اللهِ^(٢) .

ويقولُ البراءُ بنُ عازِبٍ - وكانَ حديثَ السَّنِّ - : قدِمَ النبيُّ ﷺ فما رأيتُ أهلَ المدينةِ فرحُوا بشيءٍ فرحَهم برسولِ اللهِ ﷺ حتى جعلَ الإمامُ يقلُنَ : قدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ^(٣)

وكَبَّرَ المسلمونَ فرحاً بقدومه ، وما فرحُوا لشيءٍ في حياتهم كفرحهم بقدوم رسولِ اللهِ ﷺ .

وكانتِ المدينةُ باسمَةِ الثَّغْرِ ، ترفُلُ في حُلَلِ الفرحِ والفخرِ ، وكانتِ بناتُ الأنصارِ يُنشدُنَ^(٤) : في سرورٍ ونشوةٍ : [من مجزوء الرمل]

(١) [أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة ، برقم (٣٩٣٢) ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ابتداء مسجد النبي ﷺ ، برقم (٥٢٤) ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب بناء المساجد ، برقم (٤٥٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه] .

(٢) [أخرجه البخاري في مناقب الصحابة ، باب مناقب المهاجرين ، برقم (٣٦٥٢)] .

(٣) رواه البخاري [في كتاب مناقب الأنصار] ، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة [برقم (٣٦٥٢)] .

(٤) ابن كثير ج/٢ ، ص/٢٦٩ ، رواه البيهقي بسنده عن ابن عباس وعائشة ، روى ابن القيم البيتين الأولين عند عودة النبي ﷺ من تبوك إلى المدينة ، وخروج الناس لتلقيه ، قال : « وبعض الرواة يتوهم وهماً ظاهرياً ، لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة ، ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام » (زاد المعاد ج/٢ ص/١٠١) .

ولكنَّ المشهور المستفيض أنَّ هذا النشيد إنما كان عند مقدمه من مكة إلى المدينة ، وعلى ذلك تكاد تتفق كتب السيرة ، وفي الأبيات شواهد داخلية على أنها كانت عند مقدمه الأول =

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوُدَاعِ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا اللَّهُ دَاعِ
أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمُطَاعِ

يقول أنس بن مالك الأنصاري - وهو غلامٌ يومئذٍ - : شهدتُ رسولَ الله ﷺ يومَ دَخَلَ المدينةَ ، فما رأيتُ يوماً قطُّ ، كان أحسنَ ولا أضوأَ من يومِ دَخَلَ المدينةَ علينا^(١) .

مسجدُ قباء وأولُ جمعةٍ في المدينة :

وأقام رسولُ الله ﷺ بـ « قَبَاء » أربعةَ أيامٍ ، وأسَّسَ مسجداً هناك ، وخرجَ يومَ الجمعةِ ، وأدركتهُ الجمعةُ في بني سالمِ بن عوفٍ ، فصلاًها في مسجدهم ، فكانتُ أولُ جمعةٍ صلاها بالمدينة^(٢) .

= إلى المدينة ، فإن روح الفرح والحماس التي تسيطر على هذه الأبيات تنطق بأنها قيلت وأنشدت عند الطلعة الأولى .

وقد تعددت الثنابات في المدينة ، فلا مانع من أن يكون القادم من مكة يمر بثنية الوداع الواقعة في مدخل المدينة ، فكان المدرج الذي ينزل منه إلى بئر عروة بالجنوب الغربي بالمدينة يسمى بثنية الوداع أيضاً .

يقول الشيخ عبد القدوس الأنصاري في كتاب « آثار المدينة المنورة » (ص ١٦٠) :
« وكما أنَّ أهل المدينة كانوا يودَّعون المسافرين إلى جهة مكة من الثنية الواقعة بطريق مكة ، ويحق لكل من الثنيتين بهذا النظر أن تسمَّى ثنية الوداع لقيام معنى الثنية الذي هو الطريق في الجبل والوداع بكل منهما ولاشتراكهما فيه ، فكلتاها مركز لتوديع المسافرين ويقول :
« ويوافقنا العباسي في تاريخه للمدينة على هذا الرأي ، وهي ثنية الوداع التي تُشْرِف على وادي العقيق ، وتحيط به الحرة من كل جانب » .

(١) أخرجه الدارمي [٤١/١] ، وأحمد (١٢٢/٣) ، والحاكم (١٢/٣) عن أنس رضي الله عنه بسندٍ صحيح [.

(٢) ابن هشام : ج ١ ، ص : ٤٩٤ [وأخرجه الطبراني ، وقال الهيثمي في المجمع (٦٢/٦) - (٦٣) : رواه الطبراني ورجاله ثقات] .

في بيت أبي أيوب الأنصاري :

وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة والناس يتلقونه في الطريق أرسالاً ،
ويطلبون منه الإقامة عندهم ، ويقولون : أقم عندنا في العدد والعدد والمنعة ،
ويمسكون بزمام الناقة ، فيقول : « خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة » ووقع ذلك
مراراً .

ولما مرَّ النبي ﷺ بحيٍّ من بني النجار إذا جوارٍ يضربن بالدفوفِ ويقلن :
[من الرجز]

نحن جوارٍ من بني النجار يا حَبْدًا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ
حتى إذا أتى دار بني مالك بن النجار ، بركت على مكان فيه باب المسجد
النبيّ اليوم ، وهو يومئذٍ مرَبْدٌ^(١) لُغْلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ من بني النجار ، وهم أخواله
ﷺ .

ونزل رسول الله ﷺ عن الناقة ، فاحتمل أبو أيوب - خالد بن زيد النجاري
الخزرجي - رحله ، فوضعه في بيته ، ونزل عليه رسول الله ﷺ فبالغ أبو أيوب
في ضيافته وإكرامه ، ونزل في السفلى من البيت ، وكره أبو أيوب وأعظم أن
يكون في العلو ، فطلب منه أن يكون هو ﷺ في العلو ، ويكون هو - رضي الله
عنه - وعياله في السفلى ، فقال : « يا أبا أيوب ! إن أرفق بنا وبمن معنا وبمن
يغشانا أن نكون في سفلى البيت » .

(١) ابن كثير : ج ٢ ، ص ٢٧٤ [وأخرجه ابن ماجه في أبواب النكاح ، باب الغناء والدف ،
برقم (١٨٩٩) ، والطبراني في الصغير (ج ١/ص ٦٥) برقم (٧٨) ، وأبو يعلى في مسنده
(ج ٦/١٣٤) برقم (٣٤٠٩) من حديث أنس رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في المجمع
(٤٢/١٠) : رواه أبو يعلى من طريق رشيد عن ثابت ، ورشيد هذا قال عنه الذهبي :
مجهول] .

ولم يكن أبو أيوب الأنصاري من الموسرين ، لكنه كان عظيم الفرح بنزول رسول الله ﷺ في بيته ، كبير الاعتداد والشكر لهذه الكرامة التي أكرمته الله بها .

والحُبُّ يُلْهِمُ مَنْ أَسَالِبِ الرَّاحَةِ وَطَرَائِقِ الْخِدْمَةِ ، مَا لَا يُلْهِمُهُ شَيْءٌ آخَرُ ، يَقُولُ أَبُو أَيُوبٍ : وَكُنَّا نَصْنَعُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعِشَاءَ ، ثُمَّ نَبْعَثُ إِلَيْهِ ، فَإِذَا رَدَّ عَلَيْنَا فَضْلَهُ تِمَمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُوبٍ مَوْضِعَ يَدِهِ ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ ، نَبْتَغِي بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفْلِ الْبَيْتِ وَكُنَّا فَوْقَهُ فِي الْمَسْكَنِ ، فَلَقَدْ انْكَسَرَ حُبٌّ^(١) لَنَا فِيهِ مَاءٌ ، فَقُمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُوبٍ بِقُطِيفَةٍ لَنَا مَا لَنَا لِحَافٌ غَيْرَهَا ، نَنْشِفُ بِهَا الْمَاءَ ، تَخَوُّفًا أَنْ يَقْطُرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ شَيْءٌ فَيُؤْذِيهِ^(٢) .

بناء المسجد النبوي والمساكن :

ودعا رسول الله ﷺ الغلامين - صاحبي المريد -^(٣) فساومهما بالمِزْبَدِ لِيَتَّخِذَهُمَا مَسْجِدًا ، فَقَالَا : بَلْ نَهَبُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقْبَلَهُمَا مِنْهُمَا هَبَةً ، حَتَّى ابْتَاعَهُمَا مِنْهُمَا ، ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا^(٤) .

(١) الْحُبُّ : الْجَرَّةُ (القاموس : حب) .

(٢) رواه ابن إسحاق بسنده عن أبي أيوب (ابن كثير ج ٢ ، ص ٢٢٧) [وأخرجه مسلم في كتاب الأشربة ، باب إباحة أكل الثوم . . . ، برقم (٢٠٥٣) ، والترمذي في أبواب الأطعمة ، باب ما جاء في كراهية أكل الثوم والبصل ، برقم (١٨٠٧) ، وأحمد في مسنده (٩٤ / ٥) - (٩٥) ، والبيهقي في « الدلائل » (٥٠٩ / ١٠ - ٥١٠) من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه] .

(٣) الْمِزْبَدُ : الْمَوْضِعُ الَّذِي يَجْفَّفُ فِيهِ التَّمْرُ .

(٤) أخرجه البخاري [في كتاب مناقب الأنصار] ، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، [برقم (٣٩٣٢) ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ابتناء مسجد النبي ﷺ ، برقم (٥٢٤) ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب في بناء المساجد ، برقم (٤٥٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه] .

وعمل رسول الله ﷺ في بناء المسجد ، فكان ينقل اللبن ، واقتدى به المسلمون ، وكان رسول الله ﷺ يقول :

اللهمَّ إِنَّ الْأَجَرَ أَجْرُ الْآخِرَةِ فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ^(١)

وكان المسلمون مسرورين سعداء ، يُنشدون الشعر ، ويحمدون الله تعالى .

وأقام رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب سبعة أشهر^(٢) ، حتى بُني له مسجده ومساكنه ، فانتقل إلى مساكنه .

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يبق بمكة منهم أحد ، إلا مفتون ، أو محبوس ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها^(٣) .

كان من الإصلاحات والتطويرات المباركة - وإن كانت لفظية واسمية - تغيير اسم المدينة ، فقد كان اسم المدينة المنورة القديم « يثرب » ومعناه ذميم يُتشاءم به ، لأن الثرب فساد في كلام العرب ، والثريب هو اللوم والتعير^(٤) ، وكان اسماً شائعاً تقصد وتعرف به هذه المدينة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ [الأحزاب : ١٣] .

وقد ورد في حديث صحيح أن رسول الله ﷺ غيّر اسمها من يثرب إلى

(١) ابن كثير : ج ٢ ، ص ٢٥١ [وقد سبق تخريجه في صفحة (٢٧٩) حاشية (٤) من حديث أنس بن مالك وأبي بكر رضي الله عنهما] .

(٢) ابن كثير : ج ٢ ، ص ٢٧٩ ، وهو في رواية الواقدي عند أبي سعد ، وجزم به ابن حجر في الفتح ، وقال ابن إسحاق : أقام رسول الله ﷺ بالمدينة إذ قدمها شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة ، حتى بني له فيها مسجده ومساكنه ، وحينئذ تكون إقامته ﷺ عند أبي أيوب أكثر من عشرة أشهر .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٤٩٩ - ٥٠٠ .

(٤) لسان العرب للعلامة ابن منظور ، مادة « ثرب » .

« المدينة » ، ونهى عن استخدام اسمها القديم ، وقال : « هي طابة »^(١) ،
وورد في صحيح البخاري قوله ﷺ : « هذه طابة »^(٢) .

قال ابن عباس رضي الله عنه : « من قال للمدينة يثرب فليستغفر الله ثلاثاً
إنما هي طيبة »^(٣) .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

وآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، آخى بينهم على
المواساة ، وكان الأنصار يتسابقون في مؤاخاة المهاجرين ، حتى يؤول الأمر
إلى الاقتراع ، وكانوا يحكمونهم في بيوتهم وأثاثهم وأموالهم وأرضهم
وكرامهم ، ويؤثرونهم على أنفسهم .

وقد يقول الأنصاري^(٤) للمهاجر^(٥) : انظر شطر مالي فخذهُ ، وتحتي
امراتان ، فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها ، ويقول المهاجر : بارك الله
لك في أهلِكَ ومالك ، ودلّني على السوق .

فكان من الأنصاريّ الإيثار ، ومن المهاجر التعقّف وعزّة النفس^(٦) .

(١) [أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٥/٤) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه] .

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب الزكاة ، باب خرص التمر ، برقم (١٤٨١) ، وفي كتاب
المغازي ، باب نزول النبي ﷺ الحجر ، برقم (٤٤٢٢) ، ومسلم في كتاب الحج ، باب
فضل أحد ، برقم (١٣٩٢) ، وابن حبان (٢٥٥/١٠) ، والبيهقي في السنن (٣٧٢/٦)
وغيرهم من حديث أبي حميد] .

(٣) مدينة يثرب قبل الإسلام : للدكتور ياسين غضبان ، طبع دار البشير ، ص ١٧ .

(٤) [هو سعد بن الربيع رضي الله عنه] .

(٥) [هو عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه] .

(٦) اقرأ في الجامع الصحيح للبخاري ، « باب » إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار
« وباب » كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه ؛ قصة عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع =

وكانَ هذا الإخاءُ أساساً لإخاءٍ إسلاميٍّ عالميٍّ فريدٍ من نوعه ، ومقدمةٌ
لنهضةِ أمةٍ ذاتِ دعوةٍ ورسالةٍ ، تنطلقُ لصياغةِ عالمٍ جديدٍ ، قائمٍ على عقائدٍ
صحيحةٍ معيّنةٍ وأهدافٍ صالحةٍ مُنفذةٍ للعالمِ من الشَّقَاءِ والتناحرِ والانتحارِ
وعلى علاقاتٍ جديدةٍ من الإيمانِ والإخاءِ المعنويِّ والعملِ المشتركِ ، وكانَ
هذا الإخاءُ المحدودُ بينَ المهاجرينِ والأنصارِ طليعةً وشريطةً لاستئنافِ حياةٍ
جديدةٍ للعالمِ والإنسانيةِ ، لذلكَ خاطَبَ اللهُ هذهَ الحفنةَ البشريةَ في مدينةٍ
صغيرةٍ بقوله : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾
[الأنفال : ٧٣]

كتابُهُ ﷺ بينَ المهاجرينِ والأنصارِ وموادعةِ يهودِ :

وكتبَ رسولُ اللهِ ﷺ كتاباً بينَ المهاجرينِ والأنصارِ ، وادعَ فيه يهوداً ،
وعاهدَهم ، وأقرَّهم على دينهم وأموالهم وشرطَ لهم واشترطَ عليهم^(١) .

= [رقم (٣٩٣٧) ، ومسلم في كتاب النكاح ، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن . . . ، برقم (١٤٢٧) ، وأبو داود في كتاب النكاح ، باب قلّة المهر ، برقم (٢١٠٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه] .

(١) راجع للتفصيل « ابن هشام » : ج ١ ، ص ٥٠١ .

راجع للاطلاع على أهمية هذه الوثيقة السياسية التي يجوز أن تعتبر أقدم دستور دقيق مسجل في العالم بقي بنصّه وفصّه إلى هذا اليوم ، واستعراض ما جاء فيها من موادٍ وبنود عميقة في الحكمة السياسية والمدنية والحربية ، تجلّت فيها الحكمة النبوية ، والهداية الربانية ، والدراسة المتزنة للواقع ، مقالة الدكتور محمد حميد الله أستاذ الحقوق الدولية في الجامعة العثمانية بحيدر آباد الهند ، تعريب مؤلف هذا الكتاب (السيرة النبوية) ، جاءت في مجموعة المباحث العلمية من المقالات السنية ، (طبع إدارة جمعية دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٨هـ) ص/٩٨-١١٧ ، وأقرأ نصّ الوثيقة في سيرة ابن هشام ، ق/١ ، ص/٥٠١-٥٠٤ (طبعة مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر) ، وفي كتاب الأموال لأبي عبيد ، وفي البداية والنهاية لابن كثير ، ج/٣ ، ص/٢٢٤-٢٢٦ ، وفي « مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » للدكتور حميد الله ، (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر =

شَرْعُ الْأَذَانِ :

وَلَمَّا اطمأنَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ بالمدينة ، واستحكم أمرُ الإسلام ، وكان الناسُ يجتمعون إليه للصلاة في مواقيتها بغير دعوة ، وكره رسولُ اللَّهِ ﷺ طرق الإعلان التي اعتادها اليهود والنصارى من بوق وناقوس وناير ، أكرم الله المسلمين بالأذان ، فأراه بعضهم في المنام ، فأقره رسولُ اللَّهِ ﷺ وشرعه للمسلمين ، واختير بلالُ بن رباح الحبشي للأذان ، وكان مؤذن رسولِ اللَّهِ ﷺ فكان إمام المؤذنين إلى يوم القيامة^(١) .

ظهورُ النفاق والمنافقين في المدينة :

لم يكن في مكة نفاق^(٢) ؛ لأنَّ الإسلام كان هناك مغلوباً على أمره ، لا يملك حولاً ولا طولاً ، ولا يملك لأحد نفعاً ولا ضرراً ، وكان كلُّ من يدخل فيه يعرضُ نفسه للخطر والضرر ، ويشير لها العداء ، ويهيجُ الأعداء ، فلا يقبل عليه إلا من صدق عزمه ، وقوي إيمانه ، وجازفَ بحياته ومستقبله ، ولم تكن هنالك قوتان متماثلتان ، إنما كان المشركون الأقوياء القاهرون ، والمؤمنون المضطهدون المستضعفون ، وقد صورهُ القرآنُ بقوله البليغ : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ

= - القاهرة) .

(١) [قصة شرح الأذان أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب كيف الأذان ، برقم (٤٩٩) ، والترمذي في الصلاة ، باب ما جاء في بدء الأذان ، برقم (١٨٩) ، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه في أبواب الأذان والسنة فيها ، باب بدء الأذان ، برقم (٧٠٦) ، والدارمي (٢٦٩/١) ، وأحمد (٤٣/٤) من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه] .

(٢) وهو الذي يرجحه أكثر المفسرين والمؤرخين ، وجميع السور التي ذكر فيها النفاق والمنافقين مدنية ، وقد جاء في سورة براءة ﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ [التوبة : ١٠١] .

أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ ﴿ [الأنفال : ٢٦] .

فلما انتقل الإسلام إلى المدينة واستقرَّ الرسول ﷺ وأصحابه فيها ، وبدأ الإسلام ينتشر ، ويزحف ، ويعلو ، وقام المجتمع الإسلامي بجميع لوازمه ، تغير الوضع ونجم النفاق ورفَعَ رأسه ، وكان ظاهرةً طبعيةً نفسيةً لا بدَّ منها ، فإنما تظهرُ بادرةً « النفاق » في بيئة تجمعُ بينَ دعتين متنافستين ، وقيادتين متقابلتين ، هناك يوجدُ عنصرٌ مضطربٌ يتأرجحُ بينَ هاتينِ الدعتين ، ويترددُ في إثارةِ إحداهما على الأخرى ، وقد ينحازُ إلى دعوةٍ ، فيكونُ في معسكرها ، ويُعطيها ولاءً وحبَّه العاطفي ، إلا أنَّ مصالحه المادية ، وانتشارَ الدعوةِ المقابلةِ وانتصارها ، لا يسمحُ له بإعلانِ موقفه ، والانضواءِ إلى الدعوةِ الأولى ، وقطعه للحيال التي تربطه ببيئته الأولى ، وقد صَوَّرَ القرآنُ هذا الموقفَ المضطربَ تصويراً دقيقاً ، فقال :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] ، وهم الذين وصفهم بقوله : ﴿ مُدْبَذَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ [النساء : ١٤٣] .

وكان على رأسِ هؤلاءِ المنافقين الذين كانوا من الأوسِ والخزرجِ واليهودِ عبدُ الله بنُ أبي ابنِ سلولٍ ، اتفقوا بعدَ حربِ بُعاثٍ على أن يولَّوه الرئاسةَ ويتوجَّوه ، وكان قد تمَّ له كلُّ ذلكِ إذ جاء الإسلامُ ، وصارَ النَّاسُ يدخلون في دينِ الله أفواجا ، فشرقَ به وكرهه كرهاً شديداً ، قال ابنُ هشام : « قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة ، وسيَّدَ أهلها عبدُ الله بنُ أبي ابنِ سلولٍ العوفي . . . لم تجتمع الأوسُ والخزرجُ قبله ولا بعده على رجلٍ غيره من أحدِ الفريقين ، حتى جاء الإسلامُ ، وكان قومه قد نظَّموا له الخزَرَ ليتوجَّوه ، ثم يملكوهُ عليهم ،

فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك ، فلمّا انصرف قومه عنه إلى الإسلام ، ضغن^(١) ، ورأى أنّ رسول الله ﷺ قد استلبه ملُكاً ، فلمّا رأى قومه قد أبوا إلاّ الإسلام دخل فيه كارهاً ، مُصرّاً على نفاقٍ وضغنٍ^(٢) .

وعادى الإسلام كلّ من كان في قلبه مرضٌ ، وفي السيادة طمعٌ ، وضاق ذرعاً بهذا الدّين الزّاحف ، الذي هدم كلّ ما بناه ، ونقض كلّ ما أبرمه ، وجعل للمدينة شأنًا غير الشأن ، ومن المهاجرين والأنصار أمةً جديدةً ، ألفَ بين قلوبها ، وبذلت نفوسها دون الرسول ، وقدمت محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج ، فامتلاّت قلوب هؤلاء المنافقين غيظاً وحسداً ، فصاروا يكيدون له ، ويتربصّون به الدوائر ، ويقلبون له الأمور ، وتكونت في المدينة جبهةٌ معاديةٌ ، متسرّبةٌ في المجتمع الإسلاميّ ، وكان على المسلمين أن يكونوا منها على حذرٍ دائماً ، فقد تكونُ أشدّ خطراً على الإسلام والمسلمين من الأعداء المُجاهرين ، ومن هنا زخر القرآن بذكرهم وإزاحة الستار عنهم ، وكان لهم مع الإسلام وللإسلام معهم شأنٌ ، ويتدّد ذكرهم في كتب السيرة ، وفي هذا الكتاب .

طلائعُ عداءِ اليهود :

وبدّت طلائعُ عداءِ اليهود للإسلام بعدما كان موقفهم موقفَ الحياد من المسلمين والمشركين من أهل مكة والمدينة ، وربّما كانوا أميلَ إلى الإسلام

(١) الضغن : الحقد والعداوة والبغضاء ، وكذلك الضغينة .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ؛ ص ٥٨٤ - ٥٨٥ [وأخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب ﴿ وَلَسَمَعْنَا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ... ﴾ ، برقم (٤٥٦٦) ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب في دعاء النبي ﷺ ، وصبره على أذى المنافقين ، برقم (١٧٩٨) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما] .

والمسلمين ، لأنهم جميعاً يلتقون على الإيمان بالنبوات والإيمان بالبعث ، وإن اختلفوا في بعض التفاصيل ، وهم أقرب الأمم إلى المسلمين في توحيد ذات الله وصفاته - على ما اعترى هذه العقيدة عند اليهود من الوهن بحكم التأثير بالأمم الجاهلية التي جاوروها ، والبلاد الوثنية التي قضوا فيها أيام الجلاء والنفي الطويلة ، وما دخل فيها من الغلو والتقديس لبعض أنبيائهم ، كما شرخناه في كلامنا على الوضع الديني لليهودية في القرن السادس المسيحي^(١) .

فكانت كل القرائن تدل على أنهم يلتزمون هذا الحيد ، إن لم يشايعوا الإسلام الذي جاء مصدقاً لكتابهم ، والنبى الذي دعا إلى الإيمان بأنبياء بني إسرائيل ، وأعلن القرآن على لسان المؤمنين فقال : ﴿ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، ولو كان ذلك لكان للتاريخ البشري - فضلاً عن التاريخ الإسلامي - اتجاه آخر ، ولكفيت الدعوة الإسلامية الشيء الكثير من المشاكل والقضايا التي أثارها الصراع بين الإسلام واليهودية ، والنضال بين المسلمين الذين كانوا في دور النشوء والتكوين وبين اليهود الأقوياء الأغنياء المثقفين .

ولكن ذلك لم يكن لسببين رئيسيين :

أولهما : ما طبع عليه اليهود من حسد ، وضيق صدر ، وجمود .

وثانيهما : ما بدأ القرآن به من نقد لما كان عليه اليهود من عقائد باطلة ، وأخلاق منحطة ، وعادات سيئة ، وذكر لتاريخهم الماضي المليء بالأحداث من محاربة الأنبياء ودعواتهم ، والاجترار على قتلهم ، وعنادهم ، وصد عن

(١) راجع فصل « العصر الجاهلي » في الفصل الأول .

سبيل الله ، وافتراء على الله ، وشره للمال ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وأكلهم الشح ، وتحريفهم للتوراة ، وحبهم الزائد للحياة ، وغير ذلك مما زخر به القرآن .

وإذا كان مكان رسول الله ﷺ زعيم سياسي لحسب للوضع المعقد - الذي كانت تعيشه المدينة - حسابه ، وابتعد عن إثارة سخط اليهود وعدائهم ، إن لم يتملقهم ويتودد إليهم ، ولكنه الرسول المأمور بتبليغ الرسالة ، والصدع بما أمر به ، وتمحيص الحق والباطل ، وعدم مسaire الفساد والضلال ، والمكلف بدعوة الطوائف والأمم جميعاً إلى الإسلام ، وفيهم اليهود والنصارى أهل الكتاب ، مهما كلفه ذلك من ثمن ومشكلات طريفة ، فإنه هو النهج النبوي الذي سار عليه الأنبياء قبله ، وهو النهج القويم ، والفارق بين السياسة والنبوة ، والزعماء القوميين والأنبياء المرسلين .

هذا التعرض لليهود في عقائدهم وحياتهم وأخلاقهم هو الذي أثار اليهود على الإسلام والمسلمين ، فغيروا موقفهم منهم ، وناصروا الإسلام العداء الخفي والسافر ، وبرزوا في الميدان ، وكان الكاتب اليهودي الفاضل « إسرائيل ولفنسون » دقيقاً ومنصفاً^(١) في تحليل أسباب هذا النزاع ، فقال :

« لو وقفت تعاليم الرسول ﷺ عند حد محاربته للديانة الوثنية فحسب ، ولم يكلف اليهود أن يعترفوا برسالته ، لما وقع نزاع بين اليهود والمسلمين ، ولكان اليهود قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول ﷺ ، ولائذوه وساعدوه بأموالهم وأنفسهم ، حتى يحطم الأصنام ، ويقضي على العقائد الوثنية ، لكن بشرط ألا يتعرض لهم ولا لدينهم ، وبشرط ألا يكلفهم الاعتراف بالرسالة الجديدة ، لأن العقلية اليهودية لا تليق أمام شيء يُرَحِّزُها

(١) [لم يُعرف عن اليهود فضل ولا إنصاف ولا أمانة علمية] .

عَنْ دِينِهَا ، وَتَأْبَى أَنْ تَعْتَرِفَ بِأَنْ يَوْجَدَ نَبِيٌّ مِنْ غَيْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ « (١) .

هذا ، وَقَدْ زَادَ الْيَهُودُ غِيظًا وَحِقْدًا عَلَى الْإِسْلَامِ أَنَّهُ أَسْلَمَ بَعْضُ أَحْبَارِ الْيَهُودِ وَعِلْمَائِهِمْ ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ (٢) ، وَكَانَ ذَا مَكَانَةٍ عَالِيَةٍ عِنْدَهُمْ ، وَلَمْ يَكُونُوا يَتَوَقَّعُونَ أَنْ يَدْخَلَ مِثْلُهُ فِي الْإِسْلَامِ ، فَأَثَارَ ذَلِكَ الْحَقْدَ الدَّفِينِ فِيهِمْ (٣) .

وَلَمْ يَقْتَصِرِ الْيَهُودُ عَلَى مَخَالَفَةِ الْإِسْلَامِ ، وَالِابْتِعَادِ عَنْهُ ، بَلْ تَعَدَّوْا ذَلِكَ إِلَى تَفْضِيلِ عِبَادَةِ أَوْثَانِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؛ الَّذِينَ يَلْتَقُونَ مَعَهُمْ عَلَى عِبَادَةِ إِلَهِ الْوَاحِدِ ، وَنَبَذَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامَ ، وَكَانَ مِنَ الْمَعْقُولِ الْمُنْتَظَرِ أَنَّهُمْ إِذَا طَلَبَتْ مِنْهُمْ الْمَفَاضِلَةُ بَيْنَ دِينِ قَرِيشٍ ، وَالِدِينِ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ ، - عَلَى مَا كَانَ مِنْ خِلَافٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ - أَنْ يَشْهَدُوا بِفَضْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْوُثْنِيَّةِ ، وَلَكِنَّ عِدَاءَ الْإِسْلَامِ لَمْ يَسْمَحْ لَهُمْ بِذَلِكَ ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ قَرِيشًا قَالَتْ لِعِلْمَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ زَارَوْهُمْ فِي مَكَّةَ : « يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ ! إِنَّكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ ، وَالْعِلْمُ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ ، نَحْنُ وَمُحَمَّدٌ ، أَفَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُهُ ؟! » ، قَالُوا : بَلْ دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ ، وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ « (٤) .

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب : (ولفنسون - ص ١٢٣) .

(٢) [انظر قصة إسلام عبد الله بن سلام في « الجامع الصحيح » أخرجها البخاري ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، في كتاب التفسير ، باب ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ﴾ برقم (٤٤٨٠)] .

(٣) و يبلغ عدد من أسلم من اليهود وكان له شرف الصحبة ٣٩ رجلاً ، جاءت أسماءهم وتراجمهم في كتب طبقات الصحابة ؛ كتاب « الإصابة » و « الاستيعاب » و « أسد الغابة » وغيرها ، منهم بعض كبار العلماء وأجلة الصحابة ، اعتمدنا في عدد المسلمين من أهل الكتاب على إحصاء مؤلف كتاب « الصحابة والتابعون من أهل الكتاب » للأستاذ مجيب الله الندوي ، طبع دار المصنفين ، أعظم كره (الهند) .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٢١٤ .

ويقول العالم اليهودي الدكتور إسرائيل ولفنسون معلّقاً على هذا الحادث :
 « ولكنّ الذي يُلامون عليه بحقّ ، والذي يؤلم كلّ مؤمنٍ بإلهٍ واحدٍ من
 اليهود والمسلمين على السواء ، إنما هو تلك المحادثة التي جرّت بين نفرٍ من
 اليهود ، وبين بني قريش الوثنيين ، حيثُ فضّل هؤلاء النفر من اليهود أديان
 قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية » .

إلى أن قال : « ثمّ إنّ ضرورات الحروب أبحاث للأُمم استعمال الحيل
 والأكاذيب ، والتوسل بالخدع والأضاليل للتغلّب على العدو ، ولكن مع هذا
 كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورّطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش ، وألاً
 يصرّحوا أمام زعماء قريش ، بأنّ عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي ،
 ولو أدّى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم ، لأنّ بني إسرائيل الذين كانوا مدّة
 قرونٍ حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين ،
 والذين نُكّبوا بنكبات لا تُخصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإلهٍ واحدٍ
 في عصور شتى من الأدوار التاريخية ، كان من واجبهم أن يضّحوا بحياتهم
 وكلّ عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين » (١) .

وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ
 وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٥١] .

تحويل القبلة :

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يصلّون إلى بيت المقدس ، ومضى على
 ذلك ستة عشر شهراً بعدما قدّم المدينة ، وكان رسول الله ﷺ يحبّ أن يُصرفَ

(١) اليهود في بلاد العرب : ص ١٤٢ .

إلى الكعبة ، وكان المسلمون العرب - وقد رضعوا لبان حب الكعبة وتعظيمها ، وامتزج ذلك بلحومهم ودمائهم - لا يعدلون بالكعبة بيتاً ، ولا بقبلة إبراهيم وإسماعيل قبلة ، وكانوا يحبون أن يصرفوا إلى الكعبة ، وكان في جعل القبلة إلى بيت المقدس محنة للمسلمين ، ولكنهم قالوا : « سمعنا وأطعنا » وقالوا : « آمناً به كل من عند ربنا » فلم يكونوا يعرفون إلا الطاعة لرسول الله ﷺ والخضوع لأوامر الله ، وافقت هواهم أم لم توافقها ، واتفقت مع عاداتهم أم لم تتفق .

فلما امتحن الله قلوبهم للتقوى واستسلامهم لأمر الله ، صرف رسول الله والمسلمين إلى الكعبة^(١) ؛ يقول القرآن :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وانصرف المسلمون إلى الكعبة مطيعين لله ولرسوله ، وصارت قبلة المسلمين إلى يوم القيامة أينما كانوا ولوا وجوههم شطرها^(٢) .

(١) وكان تحويل القبلة في سنة اثنتين من الهجرة .

(٢) راجع الصحاح الستة ، وتفسير الآيات في تحويل القبلة في كتب التفسير [انظر الأحاديث في تحويل القبلة ، أخرجها البخاري في كتاب الإيمان ، باب الصلاة من الإيمان ، برقم (٤٠) ، وفي كتاب الصلاة ، باب التوجه نحو القبلة . . . ، برقم (٣٩٩) ، وفي كتاب التفسير ، باب قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ . . . ﴾ برقم (٤٤٨٦) ، وباب ﴿ وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُوَ مُوَلِّيًا ﴾ ، برقم (٤٤٩٢) ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة ، برقم (٥٢٥) ، والترمذي في أبواب تفسير القرآن ، في تفسير سورة البقرة ، برقم (٢٩٦٢) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه في أبواب إقامة الصلوات ، باب القبلة ، برقم (١٠١٠) ، وأحمد (٢٧٤/٤) ، كلهم من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه] .

تَحْرُشُ قَرِيشَ بِالْمُسْلِمِينَ بِالْمَدِينَةِ :

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ بِالْمَدِينَةِ ، وَعَرَفَتْ قَرِيشُ أَنَّهُ فِي نَمُوٍّ وَازْدِهَارٍ ، وَأَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَمْضِي يَزِيدُ فِي قُوَّتِهِ وَانْتِشَارِهِ ، وَأَنَّهُ إِذَا بَقِيَ الْوَضْعُ هَكَذَا ، فَإِنَّهُ يَقِلُّ مِنْهُمْ الزَّمَامُ ، وَيَصِيرُ كَشَابٌ تَرَعْرَعُ وَاسْتَكْمَلَ قُوَّتَهُ وَشَبَابَهُ ، فَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَيْهِ .

هَنَالِكَ شَمَّرُوا لِلْمُسْلِمِينَ عَنْ سَاقِ الْعَدَاوَةِ وَالْمَحَارِبَةِ ، وَصَاحُوا بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَأْمُرُهُمْ بِالصَّبْرِ وَالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ ، وَيَقُولُ لَهُمْ : ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ [النساء : ٧٧] حَتَّى تَهْوَنَ عَلَيْهِمُ الْحَيَاةُ وَاللَّذَاتُ ، وَتَسْهَلَ لَهُمُ الطَّاعَةُ وَمُخَالَفَةُ النَّفْسِ وَالْإِثَارُ .

الإِذْنُ بِالْقِتَالِ

فَلَمَّا قَوَّيْتِ الشُّوْكَةَ ، وَاشْتَدَّ الْجَنَاحُ ، أَذِنَ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ ، وَلَمْ يَفْرَضْهُ عَلَيْهِمْ^(١) ، فَقَالَ : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج : ٣٩] ^(٢) .

وَبَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبْعَثُ سَرَايَا وَبَعُوثًا إِلَىٰ بَعْضِ الْقَبَائِلِ وَالنَّوَاحِي ، وَلَمْ تَكُنْ فِي غَالِبِ الْأَحْيَانِ حَرْبٌ ، وَقَدْ تَكُونُ مَنَاوِشَاتٌ ، وَكَانَتْ تَفِيدُ إِلْقَاءَ الرَّعْبِ فِي قُلُوبِ الْمَشْرِكِينَ ، وَتُظْهِرُ بِهَا شُوكَةَ الْمُسْلِمِينَ وَنَشَاطَهُمْ .

سَرِيَّةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ :

وَنُحْصِ بِالذِّكْرِ مِنْ هَذِهِ السَّرَايَا سَرِيَّةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ ، فَقَدْ نَزَلَتْ فِيهَا آيَةٌ ، وَلِأَنَّهَا تُلْقَى ضَوْءًا عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يُسَايِرُ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنْ تَفْرِيطٍ أَوْ خَطَا ، وَأَنَّهُ الْمِيزَانُ الْعَادِلُ فِي الْحُكْمِ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ وَالطَّوَائِفِ ، وَإِلَى الْقَارِئِ قِصَّةُ هَذِهِ السَّرِيَّةِ بِالِاخْتِصَارِ :

بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ الْأَسَدِيَّ فِي رَجَبِ^(٣) سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَبَعَثَ مَعَهُ ثَمَانِيَةَ رَهْطٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا ، وَأَمَرَهُ أَلَّا يَنْظُرَ فِيهِ ،

(١) راجع « زاد المعاد » ج ١ ، ص ٣١٤ .

(٢) [انظر حادثة الإِذْنِ بِالْقِتَالِ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي أَخْرَجَهَا التِّرْمِذِيُّ فِي أَبْوَابِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَجِّ ، بِرَقْم (٣١٧١) ، وَأَحْمَدُ (٢١٦/١) ، وَالْحَاكِمُ (٦٦/٢) - وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ - مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا] .

(٣) كَانَ الْعَرَبُ يَفْضُلُونَ الْعِمْرَةَ فِي رَجَبٍ .

حتى يسيرَ يومينَ ثمَّ ينظرَ فيه ، فيمضي لِمَا أمرُهُ بِهِ ، ولا يستكرهُ من أصحابِهِ
أحدًا .

ولمَّا سارَ عبدُ اللَّهِ بنُ جحشٍ يومينَ فتحَ الكتابَ ، فنظرَ فيه ، فإذا فيه : إذا
نظرتَ في كتابي هذا فامضِ حتَّى تنزلَ نخلةً بينَ مكةَ والطائفِ ، فترصدَ بها
قريشاً ، وتعلمَ لنا من أخبارِهِمْ ، فلَمَّا نظرَ عبدُ اللَّهِ بنُ جحشٍ في الكتابِ قالَ :
سمِعاً وطاعةً ، ثمَّ قالَ لأصحابِهِ : قد أمرني رسولُ اللَّهِ ﷺ أنْ أمضيَ إلى نخلة
أرصدُ بها قريشاً ، حتَّى آتيَهُ منهمَ بخبرٍ ، وقد نهاني أنْ أستكرهُ أحدًا منكم ،
فمَنْ كَانَ منكم يريدُ الشهادةَ ، ويرغبُ فيها ، فلينطلقْ ، ومن كرهَ ذلكَ
فليرجعْ ، فأَمَّا أنا فماضٍ لأمرِ رسولِ اللَّهِ ﷺ فمضى ومضى معه أصحابُهُ ، لم
يتخلفَ عنه منهمَ أحدٌ .

ومضى عبدُ اللَّهِ بنُ جحشٍ وأصحابُهُ حتَّى نزلوا بنخلةٍ ، فمرَّتْ بهمَ عيرٌ
لقريشٍ ، فيها عمرو بنُ الحضرميِّ ، فلما رآهمُ القومُ ، هابوهم ، وقد نزلوا
قريباً منهم ، فأشرفَ لهمَ عكاشةُ بنُ محصنٍ وكانَ قد حلقَ رأسَهُ ، فلَمَّا رآوه
أمنوا ، وقالَ : عمَّارُ^(١) لا بأسَ عليكمَ منهم ، وتشاورَ القومُ فيهم ، وذلكَ في
آخرِ يومٍ من رجبٍ^(٢) فقالَ المسلمونَ : واللهِ لئن تركتمُ القومَ هذه الليلةَ

(١) كُتِبَ المغازي والسير ، وذهب أكثرُ المفسرينَ إلى أنْ هذه السرية كانت في جمادى الآخرة
وكانَ حادثُ قتلِ عمرو بنِ الحضرمي حدثَ سلخَ هذا الشهر .

(٢) رجب أولُ الأشهر الحرم الأربعة ، وكان القتال ممنوعاً في الشهر الحرام ، درج العرب على
ذلكَ في الجاهلية وفي صدر الإسلام ، وكان القوم يعرفون ذلك ، والأشهر الثلاثة الباقية :
ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم .

ذهب الجمهور إلى أن الآية منسوخة نسختها آية براءة ﴿ فَأَقْبِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾

[التوبة : ٥] وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾

[التوبة : ٣٦] . سئل سعيد بن المسيب : هل يصلح للمسلمين أن يقاتلوا الكفار في الشهر
الحرام ؟ قال : نعم ، ولم نقرأ في كتاب من كتب التاريخ والفتوح أن إعلاناً صدر من =

ليدخلنَّ الحرمَ ، فليمتنعنَّ منكم به ، ولئن قتلتموهن لتقتلنَّهم في الشهرِ الحرامِ ، فتردَّدَ القومُ ، وهابوا الإقدامَ عليهم ، ثمَّ شَجَّعُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهِمْ ، وأجمعُوا على قتلٍ من قدرُوا عليه منهم ، وأخذ ما معهم ، فرمى واقد بنُ عبدِ الله التَّمِيمِيُّ عمرو بنَ الحَضْرَمِيِّ بسهمٍ فقتله ، واستأسَرَ اثْنَيْنِ منهم ، وأقبلَ عبدُ الله بنُ جحشٍ وأصحابُهُ بالغيرِ وبالأسيرين .

فلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ قَالَ : « مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ » وَوَقَفَ الْغَيْرَ وَالْأَسِيرِينَ وَأَبَى أَنْ يَأْخُذَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَقَطَ فِي أَيْدِي الْقَوْمِ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا ، عَنَّفَهُمْ إِخْوَانُهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِيمَا صَنَعُوا وَقَالَتْ قُرَيْشٌ : قَدْ اسْتَحَلَّ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، وَسَفَكُوا فِيهِ الدَّمَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ ^(١) [البقرة : ٢١٧] .

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ قَيْمٍ الْجَوْزِيَّةُ فِي « زَادُ الْمَعَادِ » : « وَالْمَقْصُودُ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ حَكَمَ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ ، وَلَمْ يُبَيِّرْ أَوْلِيَائَهُ مِنْ ارْتِكَابِ الْإِثْمِ بِالْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ بَلْ أَخْبَرَ أَنَّهُ كَبِيرٌ ، وَأَنَّ مَا عَلَيْهِ أَعْدَاؤُهُ الْمَشْرُكُونَ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ مَجْرَدِ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، فَهَمَّ أَحَقُّ بِالذِّمِّ وَالْعَيْبِ وَالْعُقُوبَةِ ، لَا سِيَّمًا وَأَوْلِيَائُهُ كَانُوا مَتَأَوِّلِينَ فِي قِتَالِهِمْ ذَلِكَ ، أَوْ

= مركز الخلافة أو القيادة الإسلامية بوقف الإجراءات الحربية لأجل شهر من الأشهر الحرم ، وعلى ذلك جرى المسلمون في عصورهم في الحروب والفتوح الإسلامية .

(١) سيرة ابن هشام : ج : ١ ، ص : ٦٠١ - ٦٠٥ [أخرجه البيهقي (٩/ ١١ - ١٢) ، والطبري في تفسيره (٢/ ٣٤٩ - ٣٥٠) ، وأبو يعلى في مسنده برقم (١٥٣٤) ، والطبراني في الكبير برقم (١٦٧٠) من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في المجمع (١٩٨/٦) : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح] .

مقصرين نوعَ تقصيرٍ ، يغفرُ لهم الله في جَنبٍ ما فعلوه من التوحيد والطاعات والهجرة مع رسولِهِ وإِثَارِ ما عند الله ^(١) .

غزوة الأبواء :

وغزا رسولُ الله ﷺ بنفسِهِ « غزوةَ الأبواءِ » ^(٢) ، وتسمَّى (بواطاً) كذلك ، وهي أولُ غزوةٍ غزاها بنفسِهِ ، ولم يلقَ كيداً ، فرجعَ ، وتلتها غزواتٌ وسرايا .

فرضُ صومِ رمضان :

وفي السَّنةِ الثانيةِ الهجريةِ فُرضَ الصومُ ، وذلك بعدَ أن رسختِ العقيدةُ في قلوبِ المسلمين ، وألَّفوا الصلاةَ ، وهاموا بها ، وتلقَّوا الأوامرَ والأحكامَ الشرعيةَ بقبولٍ واستعدادٍ ، كأنَّهم كانوا منها على ميعادٍ ، وأنزلَ اللهُ تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

وَقَالَ :

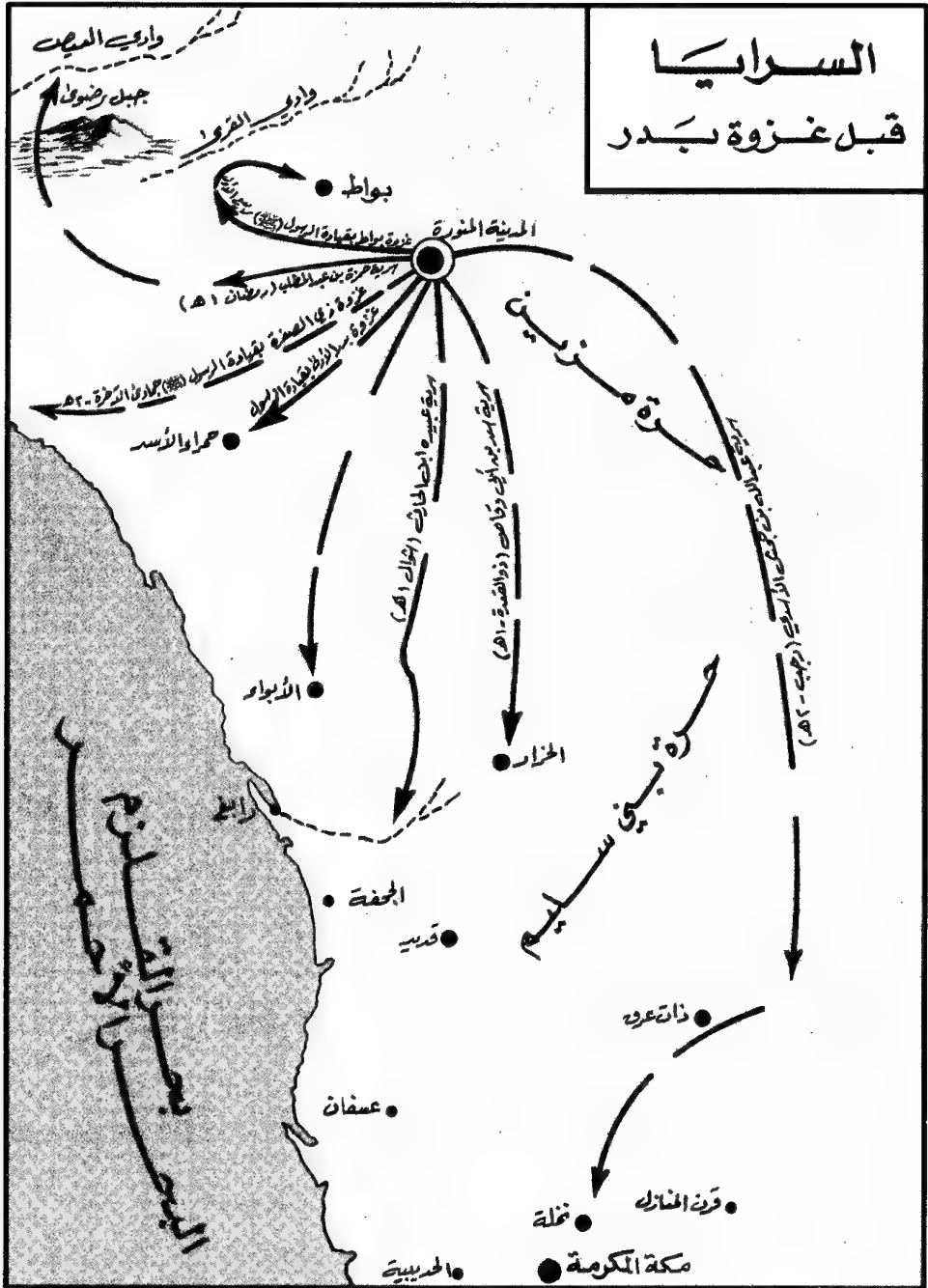
﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ ^(٣) [البقرة : ١٨٥] .

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٤١ .

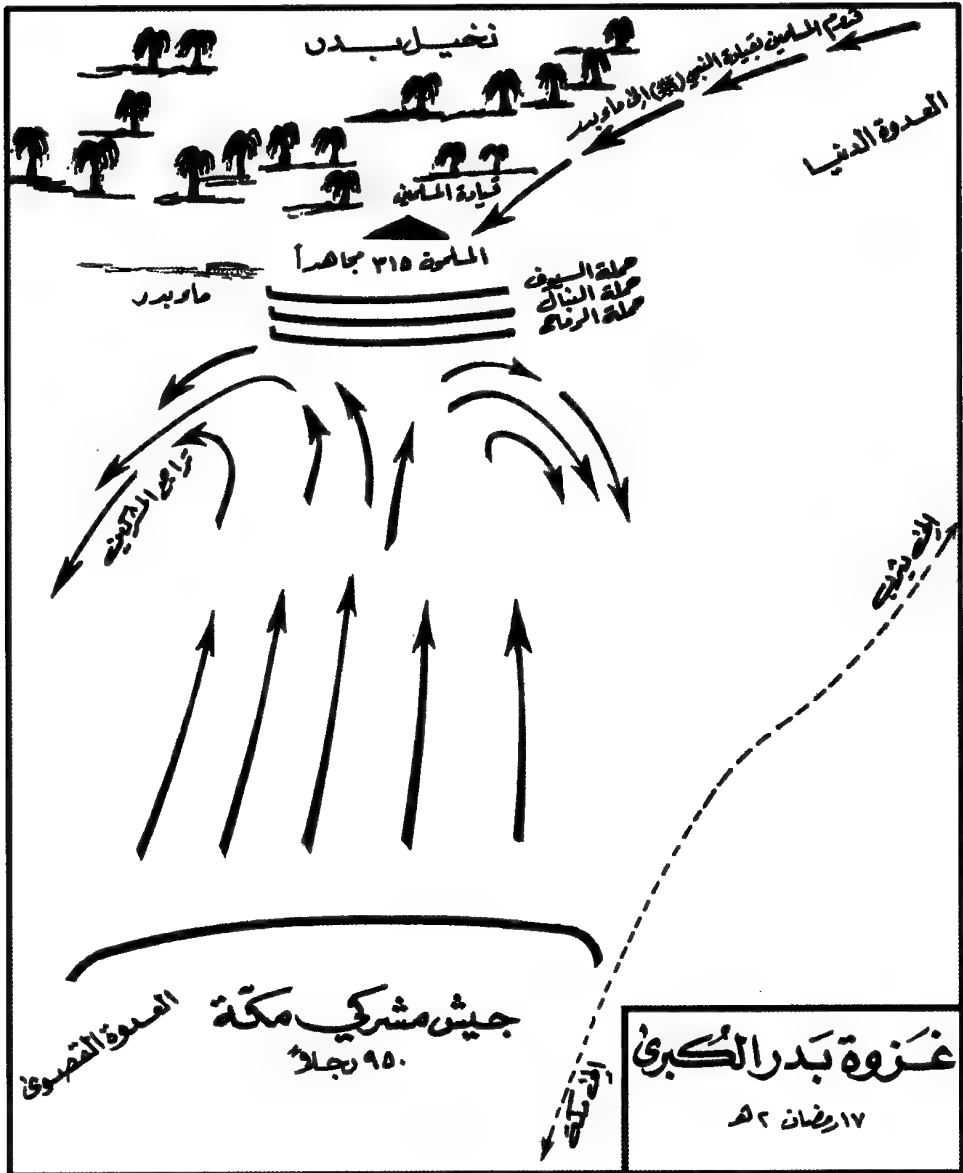
(٢) راجع للتفصيل في « سيرة ابن هشام » ج ١ ، ص ٥٩١ - ٦٠٦ .

(٣) اقرأ للتفصيل وأسرار الصوم وحكمه « الأركان الأربعة » للمؤلف ، ص : ٢٢٠ ، طبعة دار ابن كثير بدمشق (عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م) .

خريطة السرايا قبل غزوة بدر



خريطة غزوة بدر الكبرى ١٧ / رمضان ٢ هـ



مَعْرَكَةُ بَدْرٍ الْحَاسِمَةِ

سَنَةِ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْهَجْرَةِ

أَهْمِيَّةُ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ :

وفي رمضان سنة اثنتين من الهجرة ، كانت غزوة بدر الكبرى^(١) ، وهي المعركة الحاسمة التي تقرر مصير الأمة الإسلامية ومصير الدعوة الإسلامية ، وعليها يتوقف مصير الإنسانية المعنوي .

فكل ما حدث من فتوح وانتصارات ، وكل ما قام من دول وحكومات ، مدين للفتح المبين في ميدان بدر ، ولذلك سمى الله هذه المعركة بـ « يوم الفرقان » فقال :

﴿ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ ﴾

[الأنفال : ٤١] .

وكان من خبر هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في غير عير عظيمة لقريش ، فيها أموالهم وتجارهم ، وكانت الحرب قائمة بين المسلمين وبين قريش المشركين ، لا تألو قريش في محاربة الإسلام ، والصد عن سبيل الله ، وإقامة الصعوبات للمسلمين ، وكانت تبذل أموالها وكل ما تملكه ، من حوّل وطوّل ، ومن سلاح وكراع^(٢) في محاربة

(١) تقع بدر على ١٤٥ كيلو متراً في الجنوب الغربي من المدينة المنورة .

(٢) [الكراع : اسم لجميع الخيل] .

الإسلام ، وإضعاف شأن المسلمين ، وكانت كتائبهم تصل إلى حدود المدينة وإلى مراعيها .

فلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَبِي سَفْيَانَ مَقْبِلًا مِنَ الشَّامِ عَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْعِيرِ ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلْإِسْلَامِ ، نَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ لِلخُرُوجِ إِلَيْهَا ، وَلَمْ يَحْتَفِلْ احْتِفَالًا بَلِيغًا ، لِأَنَّ الْأَمْرَ أَمْرُ عِيرٍ لَا نَفِيرٍ ^(١) .

(١) كما جاء في رواية كعب بن مالك التي جاءت في (صحيح البخاري) باب غزوة بدر . ويبدو من متابعة الأخبار والقرائن الدقيقة أَنَّ هذا الركب التجاري الذي اتجه إلى الشام ، إنما كان من ضمن الاستعداد للهجوم على المدينة ، فقد ثبت تاريخياً أَنَّ أهل مكة (بصفة العموم والإطباق) أسهموا في تمويل هذا الركب بسهامهم ، حتى تستطيع قريش الإغارة على المدينة ، حتى النساء أسهمن بأموالهنَّ في تجهيز هذا الركب ، وكان هذا الركب التجاري عائداً ببضائع تجارية ، قيمتها نحو خمسين ألف دينارٍ ذهبي ، وكان الهدف استخدام هذه الثروة في الإغارة على المدينة .

قال البيهقي في (دلائل النبوة) ١٠٢/٣ : يقال : كانت عيرُهم ألف بعير ، ولم يكن لأحد من قريش أوقية فما فوقها ، إلا بعث بها مع أبي سفيان ، وكذلك جاء في (طبقات ابن سعد) .

وتدلُّ القرائن العقلية والعادات المتبعة ، على أَنَّ الركب كان يحمل كمية كبيرة من الأسلحة الحربية المستوردة من الشام ، لأن مكة والحجاز لم تكن فيها مصانع للأسلحة الحربية ، وإنما كانت تستورد من الخارج ، وكانت هذه الأسلحة مهيأةً ومستوردة للقتال ضد الجالية الإسلامية الصغيرة القاطنة في المدينة .

فكان مما تقتضيه مصلحة الدفاع عن المدينة وعن الكيان الإسلامي الفريد القليل في العدد والعدة ، أَنْ يحالَ بين قريش وبين هدف الهجوم على المدينة ، مستعينةً في ذلك بهذه الثروة الطائلة ، التي حصَّلتها عن طريق التجارة ، وجلب البضائع الثمينة والمال التجاري من سورية الغنية الراقية ، إضافة إلى الأسلحة الحربية السورية ، وكان حملتها من المغيرين الجائرين على الجالية الإسلامية الصغيرة ، والمستحلين لنفوسها وأموالها وأعراضها .

ويبدو من متابعة الأخبار ، واستعراض المحيط الذي أحاط بهذا الإقدام العسكري ، أَنَّ قريشاً لما بلغهم هُمُّ المسلمين بمواجهة الركب التجاري القادم من الشام ، استعدت للدفاع عن هذا الركب ، ولو اقتضى ذلك الهجوم على الجالية الإسلامية اللاجئة في المدينة ، وذلك تحت قيادة أبي جهل أعدى عدوِّ للإسلام .

وَبَلَغَ أَبَا سَفْيَانَ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَصَدَهُ إِيَّاهُ ، فَأَرْسَلَ إِلَى مَكَّةَ مُسْتَصْرِخًا لِقُرَيْشٍ لِيَمْنَعُوهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَبَلَغَ الصَّرِيخُ أَهْلَ مَكَّةَ ، فَجَدَّ جِدُّهُمْ ، وَنَهَضُوا مُسْرِعِينَ وَلَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْ أَشْرَافِهِمْ أَحَدٌ ، وَحَشَدُوا مَنْ حَوْلَهُمْ مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُمْ أَحَدٌ مِنْ بَطُونِ قُرَيْشٍ إِلَّا الْقَلِيلُ النَّادِرُ ، وَجَاؤُوا عَلَى حِمْيَةٍ ، وَغَضَبٍ ، وَحَنَقٍ .

تجارب الأنصار وتفانيهم في الطاعة :

وَلَمَّا بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خُرُوجُ قُرَيْشٍ اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ ، وَكَانَ يَعْنِي الْأَنْصَارَ لِأَنَّهُمْ بَايَعُوهُ عَلَى أَنْ يَمْنَعُوهُ فِي دِيَارِهِمْ ، فَلَمَّا عَزَمَ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ ، أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ مَا عِنْدَهُمْ ، فَتَكَلَّمَ الْمُهَاجِرُونَ ، فَأَحْسَنُوا ، ثُمَّ اسْتَشَارَهُمْ ثَانِيًا فَتَكَلَّمُوا أَيْضًا فَأَحْسَنُوا ، ثُمَّ اسْتَشَارَهُمْ ثَالثًا ، فَفَهِمَتِ الْأَنْصَارُ

= فكان هنالك إمكانان متباينان : إما هجوم المسلمين على الركب التجاري ، وإما مواجهة زحف قريش ، فكان من الطبيعي أن يؤثر العدد الغالب من الخارجين من المدينة مواجهة الركب التجاري فقط بطبيعة الحال ، ومقتضى الفطرة ، ويقضي الله بترجيح الجانب المقابل ، وهو وقوع الضربة الموجهة الحاسمة على أعداء الإسلام المغيرين ، وإشعارهم بما للإسلام والمسلمين من مستقبل زاهر .

وقد سبق ذلك نزول الآية : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَوَدُّوكَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَهَ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ۚ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال : ٧-٨] .

وقد روى الطبري في (التفسير) عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾ قال :

« أَقْبَلْتُ عِيرَ أَهْلِ مَكَّةَ - يريد من الشام - فبلغ أهل المدينة ذلك ، فخرجوا ومعهم رسول الله ﷺ يريدون العير ، فبلغ ذلك أهل مكة ، فسارعوا السير إليها ، لا يغلب عليها النبي ﷺ وأصحابه ، فسبقت العير رسول الله ﷺ ، وكان الله وعدهم إحدى الطائفتين ، فكانوا أن يلقوا العير أحب إليهم ، وأيسر شوكة ، وأحضر مغنماً ، فلما سبقت العير ، وفاتت رسول الله ﷺ ، سار رسول الله ﷺ بالمسلمين يريد القوم ، فكره القوم مسيرهم لشوكة في القوم .

أنه يعنيهم ، فبادر سعد بن معاذ ، فقال : يا رسول الله ! كأنك تعرض بنا ، لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها ألا تنصرَكَ إلا في ديارهم ، إني أقول عن الأنصار ، وأجيب عنهم ، فاطعن حيث شئت ، وصل حبلاً من شئت ، واقطع حبلاً من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر ، فأمرنا تبع لأمرِكَ ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان^(١) ، لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك .

وقال له المقداد : لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ، ومن بين يديك ، ومن خلفك .

فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك أشرق وجهه ، وسرَّ بما سمع من أصحابه ، وقال : « سيرُوا ، وأبشروا »^(٢) .

تنافس الغلمان في الجهاد والشهادة :

ولما توجه المسلمون إلى بدر ، خرج غلام اسمُه عُمَيْرُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، وهو في السادسة عشرة من سنه ، وكان يخاف ألا يقبله النبي ﷺ لأنه صغير ، فكان يجتهد ألا يراه أحد ، وكان يتوارى ، وسأله أخوه الأكبر : سعد بن أبي وقَّاص ، عن ذلك فقال : أخاف أن يردني رسول الله ﷺ وأنا أحب

(١) غمدان بضم أوله ، وسكون ثانيه ، قصر بصنعا باليمن كان منزل الملوك (مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع) . [والذي في صحيح مسلم : برك الغماد] .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٤٢-٣٤٣ ، وسيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٦١٤ ؛ ورواه البخاري مختصراً في [كتاب المغازي] باب قوله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال :

٤٩] [برقم (٣٩٥٢)] ، ومسلم [في كتاب الجهاد] في باب « غزوة بدر » برقم [١٧٧٩] .

الخروج ، لعلَّ الله يرزقني الشهادة ، وكان كذلك ، فأراد رسولُ الله ﷺ أن يرده لأنه لم يبلغ مبلغ الرجال ، فبكى عميرٌ ، ورقَّ له قلبُ رسولِ الله ﷺ فأجازه ، وقُتِلَ شهيداً في الغزوة^(١) .

التفاوت بين المسلمين والكفار في العدد والعدد :

وخرج رسولُ الله ﷺ مُسرِعاً في ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً ، لم يكن معهم من الخيل إلا فرسان ، وسبعون بعيراً ، يعتقبُ الرجلان والثلاثة على البعير الواحد^(٢) ، لا فرق في ذلك بين جندي وقائد ، وتابع ومتبوع ، فكان منهم رسولُ الله ﷺ وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة^(٣) .

ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، وراية المهاجرين إلى علي بن أبي طالب ، وراية الأنصار إلى سعد بن معاذ .

ولما سمع أبو سفيان خروجَ المسلمين ، خفضَ ولحقَ بساحلِ البحر ، ولما رأى أنه قد نجا وسلمتِ العيرُ ، كتبَ إلى قريش أن أرجعوا ، فإنكم إنمَّا خرجتم لتحرزوا عيركم ، وهموا بالرجوع ، فأبى أبو جهل إلا القتال^(٤) ، وكانت قريش بين ألف وزيادة^(٥) ، منهم صناديدُ قريش وسادتها ، وفرسانها

(١) راجع « أسد الغابة » ج : ٤ ، ص : ١٤٨ [وأخرج هذه القصة البزار في « كشف الأستار » برقم (١٧٧٠) ، وقال الهيثمي في المجمع (٦٩/٦) : رواه البزار ، ورجاله ثقات] .

(٢) زاد المعاد : ج : ١ ، ص : ٣٤٢ .

(٣) [أخرجه أحمد في مسنده (٤١١/١) ، وابن حبان في صحيحه برقم (١٦٨٨) ، والحاكم في المستدرک (٢٠/٣) : وصحَّحه الذهبي] .

(٤) زاد المعاد : ج : ١ ، ص ٣٤٣ ، وابن هشام : ج : ١ ، ص ٦١٨-٦١٩ .

(٥) رواه أحمد والبزار والطبراني ، وكذلك أخرجه ابن أبي شيبه والبيهقي ، وفي فتح الباري (ج ٧ ، ص ٢٩١) ، أن هذا هو المشهور عند ابن إسحاق وجماعة من أهل المغازي . وقد جاءت في روايات وكتب السيرة أعداد أخرى ، وهي أرقام متقاربة .

وأبطالها ، فقال رسول الله ﷺ : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها »^(١) .

أمرهم شورى بينهم :

ومضت قريش ، حتى نزلوا بجانب من الوادي ، ونزل المسلمون بجانب بدر ، فجاء الحباب بن المنذر ، وقال : يا رسول الله ! رأيت هذا المنزل ، أمزلاً أنزلك الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟

قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة .

فقال : يا رسول الله ! فإن هذا ليس بمنزل ، وأشار عليه بأرض تصلح للحرب .

فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأي ، ونهض ومن معه من الناس ، فأتى أدنى ماء من القوم ، فنزل عليه^(٢) .

وسبق رسول الله ﷺ وأصحابه إلى الماء شطر الليل ، وصنعوا الحياض وسمح رسول الله ﷺ لمن ردها من الكفار بالشرب^(٣) .

وأنزل الله عز وجل في تلك الليلة مطراً ، كان على المشركين وإبلاً شديداً ، ومنعهم من التقدم ، وكان على المسلمين رحمة ، وطأ الأرض ،

(١) [أخرجه أحمد في المسند (١١٧/١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بسند صحيح ، وأخرجه مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، في كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة بدر ، برقم (١٧٧٩)] .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٦٢٠ [وأخرجه الحاكم في المستدرک (٤٢٦/٣) : وقال الذهبي : حديث منكر] .

(٣) مستفاد من « سيرة ابن هشام » : ج ١ ؛ ص ٦٢٢ .

وَصَلَّبَ الرَّمْلَ ، وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ ، وَرَبَطَ عَلَى قُلُوبِهِمْ^(١) . وهو قوله تعالى : ﴿ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال : ١١] .

الرسولُ القائدُ :

وتَجَلَّتْ عبقرِيَّتُهُ القياديَّةُ العسكريَّةُ - بجوارِ رسالتهِ العُظمى التي هي الأساسُ ومصدرُ الإلهامِ والهدايةِ - في قيادتهِ للجيشِ ، وتعبئتهِ الحكيمَةِ ، وسدِّهِ لِمَنافذِ الخطرِ والهجومِ ، وتقديرهِ الصحيحِ لقوَّةِ العدوِّ الحربيَّةِ وعددهِ ومواضعِ نزولهِ ، جاءتْ تفاصيلُها في كتبِ السيرةِ^(٢) .

استعدادُ للمعركةِ :

وَبَيَّنَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرِيشٌ يَكُونُ فِيهِ ، عَلَى تَلٍّ مُشْرِفٍ عَلَى الْمَعْرَكَةِ ، وَمَشَى فِي مَوْضِعِ الْمَعْرَكَةِ ، وَجَعَلَ يَشِيرُ بِيَدِهِ : « هَذَا مَصْرَعُ فَلَانٍ ، هَذَا مَصْرَعُ فَلَانٍ ، هَذَا مَصْرَعُ فَلَانٍ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، فَمَا تَعَدَّى أَحَدٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَ إِشارَتِهِ^(٣) .

وَلَمَّا طَلَعَ الْمُشْرِكُونَ ، وَتَرَأَى الْجَمْعَانِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اللَّهُمَّ

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٤٣ .

(٢) اقرأ تفاصيل الخطوات الدفاعية والإجراءات العسكرية الحكيمة التي اتخذها رسول الله ﷺ قبل معركة بدر في كتاب « حديث الدفاع » للواء « محمد أكبر خان » القائد الباكستاني في « الأردوية » و « الرسول القائد » للواء الركن المتقاعد محمود شيت خطَّاب القائد العراقي ، في العربية .

(٣) [أخرجه مسلم في كتاب الجهاد ، باب غزوة بدر ، برقم (١٧٧٩) وفي كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب عرض مقعد الميِّت من الجنة أو النار . . . ، برقم (٢٨٧٣) ، وأحمد في مسنده (٢٦/١) : والنسائي في كتاب الجنائز ، باب أرواح المؤمنين (١٠٨/٤) من حديث أنس رضي الله عنه] .

هذه قريشُ جاءتْ بخيلائِها وفخرِها جاءتْ تُحاربُكَ ، وتُكذِّبُ رسولَكَ»^(١) .

وكانتْ ليلةُ الجمعةِ ، السابعِ عشرَ منَ رمضانَ ، فلَمَّا أصبحُوا أقبلتْ قريشُ في كتائبِها ، واصطفَ الفريقانَ^(٢) .

دعاء وتضرُّع ، ومناشدة وشفاعة :

عدَلَ رسولُ اللهِ ﷺ الصفوفَ ، ورجَعَ إلى العريشِ ، فدخله ، ومعه أبو بكرٍ ، ورسولُ اللهِ ﷺ يكثرُ الابتهاالَ ، والتضرُّعَ ، والدعاءَ ، وقد علمَ أنْ لو وُكِّلَ المسلمونَ إلى أنفسهم وقوتهم فالنتيجةُ معلومةٌ واضحةٌ ، نتيجةُ كلِّ قليلٍ ضعيفٍ أمامَ قويٍّ كثيرٍ العددِ ، ولمَّا رأى الكفَّتَيْنِ : كَفَّةَ المسلمينَ وكَفَّةَ المشركينَ ، غيرَ متكافئتينَ ، وضعَ صَنْجَةً^(٣) في كَفَّةِ المسلمينَ ، رجحتْ بها رُجْحَانًا ظاهرًا ، فاستغاثَ باللهِ الذي لا معقَبَ لحكمه ، ولا رادَّ لقضائه ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال : ١٠] .

وشفعَ للكتيبةِ المؤمنةِ القليلةِ العددِ ، الفقيرةِ في العددِ ، فقال : « اللهم ! إنْ تهلكَ هذه العصابةُ لا تُعبدُ بعدها في الأرضِ » .

وجعلَ يهتِفُ برَبِّه عزَّ وجلَّ ويقولُ : « اللهم ! أنجزْ لي ما وعدتني ، اللهمَّ

(١) [أخرجه مسلم في كتاب الجهاد ، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ، برقم (١٧٦٣) ، وأحمد في مسنده (٣٠ / ١ - ٣٢) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأخرجه البخاري أيضاً في كتاب المغازي ، باب قول الله تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ ... برقم (٣٩٥٣) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما] .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٣) [الصَّنَجَةُ : أي سَنْجَة الميزان : ما يوزَنُ به كالرُّطْل والأَوْقِيَّة] .

رسم ساحة القتال في غزوة بدر

رسم ساحة القتال في غزوة بدر الكبرى ويسود في جوانبها الجائط الذي سبي حروطا، وتقع المدرة القصوى في جانب اليسار من الرسم في الجهة الجنوبية من الساحة والتي كان نزول جيش الكفار فيها. أما المدرة الدنيا فإلى أقصى في نهاية الرسم من الجانب الشرقي وكانت حول الجيش الإسلامي وتقع بقربة منها مقابر شهداء بدر التي يبدو جزء من حائطها في الرسم.



نصرَكَ» ويرفعُ يديه إلى السماء ، حتَّى سقطَ الرِّدَاءُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ ، وجعلَ أبو بكرٍ - رضيَ اللهُ عنه - يُسَلِّيه ، ويُشْفِقُ عليه من كثرةِ الابتِهَالِ^(١) .

تعريفٌ دقيقٌ بالأُمَّة وتحديد لمركزها ورسالتها :

لقد شَفَعَ الرسولُ ﷺ لهذه العصابةِ المؤمنةِ في هذه الساعةِ الحاسمةِ الدقيقةِ ، بالكلمةِ الوجيزةِ التي تجلَّتْ فيها الثقةُ والاضطرابُ والسكينةُ والافتقارُ جنباً لجنبٍ ، فكانتْ أدقَّ تعريفٍ بهذه الأمةِ وأدقَّ تحديدٍ لمركزها ومكانتها بينَ الأممِ ، وقيمتها وغنائها في هذا العالمِ ، والثغرِ الذي ترابطُ عليه ، وهو الدعوةُ إلى الله وإخلاصُ الدينِ والعبادةِ لَهُ .

وقد أثبتَ الانتصارُ الرائعُ المُعْجِزُ الذي أبطلَ كلَّ تجربةٍ ، صدقَ هذه الكلمةِ ودقَّتْها ، وأنها كانتْ تصويراً دقيقاً لهذه الأمةِ^(٢) .

(١) راجع « زاد المعاد » ، وكتب السيرة ، ورواه في الصحيح [صحيح مسلم] في كتاب الجهاد والسير [(باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر) (برقم ١٧٦٣) ، وأحمد في مسنده (٣٠/١)] عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : « لما كان يوم بدر نزل رسول الله ﷺ وأصحابه ثلاثمئة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه ، فجعل يهتف بربه : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم آت ما وعدتني ؛ اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض » .

(٢) ولَمَّا أجاب الله دعاء الرسول ﷺ وقضى بانتصار المسلمين على عدوهم - على تفاوت واضح بين العدد والعدد - وبقائهم ، فكان بقاء المسلمين مشروطاً بقيام حياة العبودية بهم والدعوة إلى التوحيد الخالص ، فلو انقطعت الصلة بينهم وبين الدعوة إلى التوحيد الخالص ، وعبادة الله تعالى ورواجها وازدهارها في العالم ، لم يبق على الله لهم حقٌّ وذمَّةٌ ، وأصبحوا كسائر الأمم ، خاضعين لنواميس الحياة وسنن الكون .

فكانت الدعوة إلى الله وحده وعبادته وتنفيذ أحكامه وشرائعه في العالم قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم ودورها في العالم .

هذان خصمان اختصموا في ربّهم :

ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى النَّاسِ ، فحَرَضَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ ، وَخَرَجَ عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَأَخُوهُ شَيْبَةُ وَابْنُهُ الْوَلِيدُ ، فَلَمَّا تَوَسَّطُوا بَيْنَ الصَّفَيْنِ ، طَلَبُوا الْمُبَارَزَةَ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةُ فِتْيَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالُوا : مَنْ أَنْتُمْ ؟ !

قَالُوا : رَهْطٌ مِنَ الْأَنْصَارِ !

قَالُوا : أَكْفَاءُ كِرَامٌ ، وَلَكِنْ أَخْرَجُوا إِلَيْنَا مِنْ بَنِي عَمَّنَا .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « قُمْ يَا عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ (ابْنُ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنْفٍ) وَقُمْ يَا حَمْزَةُ ، وَقُمْ يَا عَلِيٌّ » .

قَالُوا : نَعَمْ أَكْفَاءُ كِرَامٍ .

وَبَارَزَ عُبَيْدَةُ - وَكَانَ أَسَنَ الْقَوْمِ - عَتَبَةَ ، وَبَارَزَ حَمْزَةُ شَيْبَةَ ، وَبَارَزَ عَلِيٌّ الْوَلِيدَ بْنَ عَتَبَةَ ، فَأَمَّا حَمْزَةُ وَعَلِيٌّ فَلَمْ يَمَهْلَا خَصَمَيْهِمَا أَنْ قَتَلَاهُمَا ، وَاخْتَلَفَ عُبَيْدَةُ وَعَتَبَةُ بَيْنَهُمَا ضَرْبَتَيْنِ كِلَاهُمَا أَثْبَتَ صَاحِبُهُ ، وَكَرَّ حَمْزَةُ وَعَلِيٌّ بِأَسْيَافِهِمَا عَلَى عَتَبَةَ ، فَأَجْهَزَا عَلَيْهِ ، وَاحْتَمَلَا عُبَيْدَةَ وَهُوَ جَرِيحٌ ، وَمَاتَ شَهِيداً^(١) .

التحامُ الفريقين ونشوبُ الحرب :

وَتَرَاخَمَ النَّاسُ ، وَدَنَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، وَدَنَا الْمُشْرِكُونَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قَوْمُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ »^(٢) .

(١) سيرة ابن هشام : ج : ١ ، ص : ٦٢٥ [وأخرجه أحمد في مسنده (١١٧/١) ، وأبو داود في كتاب الجهاد ، باب في المبارزة ، برقم (٢٦٦٥) من حديث علي رضي الله عنه] .

(٢) [أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد ، برقم (١٩٠١) ، وأحمد (١٢٦/٣) ، والبيهقي في السنن (٤٣/٩) و(٩٩/٩) ، وأبو عوانة في مسنده (٤٥٩/٤) والحاكم في المستدرک (٤٨١/٣) من حديث أنس رضي الله عنه ، وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجه] .

أول قتيل :

وقام عميرُ بنُ الحُمَامِ الأنصاريُّ ، فقالَ : يا رسولَ الله ! جَنَّةُ عرضِها
السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ؟
قالَ : « نعم » .

قالَ : بَخِ بَخِ^(١) يا رسولَ الله ! .

قالَ : ما يَحْمِلُكَ على قولِكَ بَخِ بَخِ ؟

قالَ : لا واللهِ يا رسولَ الله إلا رجاءُ أنْ أَكونَ منْ أهلِها ، قالَ : فإنكَ منْ
أهلِها ، فأخْرَجَ تمراتٍ منْ قرنِه ، فجعلَ يأكلُ مِنْهُنَّ ، ثمَّ قالَ : لئنْ حيَّيْتُ
حتى آكلُ منْ تمراتي هذه ، إِنَّها لحياةٌ طويلةٌ ، فرمى بما كانَ معه من التمرِ ،
ثمَّ قاتَلَ ، حتَّى قُتِلَ فكانَ أولَ قتيلٍ^(٢) .

والناسُ على مصافِّهم ، صابرونَ ذاكرونَ اللهَ كثيراً ، وقَاتَلَ رسولُ الله ﷺ
قتالاً شديداً ، وكانَ أقربَ الناسِ من العدوِّ ، وكانَ منْ أشدِّ الناسِ يومئذٍ
بأساً^(٣) ، ونَزَلَ اللهُ الملائكةَ بالرحمةِ والنصرِ ، وقَاتَلُوا المشركينَ ، وهو قولُه
تعالى :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْيْ مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ
كَفَرُوا الرَّغْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال : ١٢] .

(١) [بَخِ (بكسر الخاء وإسكانها) : كلمةٌ تُقالُ في موضع الإعجاب] .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٤٥ ، و« سيرة ابن كثير » ج ١ ، ص ٤٢١ ، [وأخرجه مسلم في
كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد ، برقم (١٩٠١) ، والحاكم في المستدرک
(٤٢٦/٣) ؛ وأحمد في المسند (١٣٦/٣ - ١٣٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله
عنه] .

(٣) سيرة ابن كثير : ج ١ ، ص ٤٢٥ .

مسابقةُ الإخوةِ في قتلِ أعداءِ اللهِ ورسوله :

وتسابقَ الشبابُ في الشهادةِ ونيلِ السعادةِ ، وكانت مسابقةً بينَ أخلاءٍ وأصدقاءٍ ، وإخوةٍ أشقاء .

يقولُ عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عوفٍ : « إِنِّي لفي الصفِّ يومَ بدرٍ ، إذ التفتُ فإذا عن يميني وعن يساري فتیانِ حديثا السنِّ ، فكأنِّي لم آمنَ بمكانهما ، إذ قالَ لي أحدهما سرّاً من صاحبه : يا عمُّ أرني أبا جهلٍ فقلتُ : يابنَ أخي ما تصنعُ به ؟ قال : عاهدتُ اللهَ إن رأيتهُ أن أقتلهُ أو أموتَ دونه ، وقالَ لي الآخرُ سرّاً من صاحبه مثلهُ ، قال : فما سرِّي أني بينَ رجلينِ مكانهما ، فأشرتُ لهما إليه ، فشدّا عليه مثلَ الصَّقْرَيْنِ حتّى ضرباهُ ، وهما أبناءُ عفرَاء » (١) .

ولمّا قُتِلَ أبو جهلٍ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « هذا أبو جهلٍ فرعونُ هذه الأمة » (٢) .

الفتحُ المبينُ :

ولمّا أسفرتِ الحربُ عن انتصارِ المسلمينَ وهزيمةِ المشركينَ ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « اللهُ أكبرُ ، الحمدُ لله الذي صدّقَ وعدهُ ، ونصرَ عبدهُ ، وهزمَ الأحزابَ وحدهُ » .
وصدّقَ اللهُ العظيمُ :

(١) أصل الرواية في الصحيحين ، واللفظ للبخاري . (كتاب المغازي باب « غزوة بدر » [برقم (٣٩٨٨) ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب استحقاق القاتل سلب القتل برقم (١٧٥٢) ، وأحمد في المسند (١٩٣/١) من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه] .

(٢) سيرة ابن كثير : ج ١ ، ص ٤٤٤ [وأخرجه الطبراني في الكبير برقم (٨٤٦٨) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢/٢٦١ - ٢٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه] .

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] .

وأمر بالقتلى أن يُطْرَحُوا بِالْقَلْبِ فطَرَحُوا فِيهِ ، ووقفَ عليهم ، فقال :
« يا أهل القليب ! هل وجدْتُم ما وعدَ ربُّكم حقًّا ؟ فإني وجدتُ ما وعدني ربي
حقًّا »^(١) .

وقُتِلَ من سَراةِ الكُفَّارِ يومَ بدر سبعونَ وأَسِرَ سبعونَ^(٢) ، ومنَ المسلمِينَ
من قريشٍ ستَّةٌ ومن الأنصارِ ثمانية^(٣) .

وقع معركة بدر :

وتوجَّهَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى المدينة مؤيِّداً مظفراً ، وقد خافَهُ كلُّ عدوٍّ له
بالمدينة وحولها ، وأسلمَ بشرٌ كثيرٌ من أهل المدينة .

وأرسلَ رسولُ اللهِ ﷺ بشيرين إلى المدينة منهُما عبدُ اللهِ بنُ رَوَاحَةَ ، يُبَشِّرُ
أهلَ المدينة ، ويقولُ : « يا معشرَ الأنصارِ ! أبشروا بسلامةِ رسولِ اللهِ ﷺ وقتلِ
المشركينَ وأسرِهِم ، ويسمِّي مَنْ قُتِلَ في بدرٍ من صناديدِ قريشٍ ، يبشِّرُهُم داراً
داراً ، والصبيانُ يُنشدونَ الأبياتَ معه سروراً وشكراً ، والناسُ بينَ مصدِّقٍ
ومتردِّدٍ ، حتَّى أقبلَ رسولُ اللهِ ﷺ قافلاً إلى المدينة ، وجيءَ بالأسرى وعليهم
« شُقرانُ » مولى رسولِ اللهِ ﷺ^(٤) ، حتَّى إذا كانَ بالروحاء لقيَهُ المسلمونَ

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٦٣٨ - ٦٣٩ ، [وأخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب
قتل أبي جهل ، برقم (٣٩٧٦) ، ومسلم في كتاب الجنة ونعيمها ، باب عرض مقعد الميت
من الجنة والنار عليه . . . ، برقم (٢٨٧٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه] .

(٢) رواه البخاري ، عن البراء بن عازب ، [باب] غزوة بدر من كتاب المغازي [برقم
(٣٩٨٦)] .

(٣) سيرة ابن كثير : ج ١ ، ص ٤٦٣ .

(٤) المصدر السابق : ص ٤٧٠ - ٤٧٣ [وأخرجه البيهقي في الشُّنن (١٤٧/٩) من حديث
أسامة بن زيد رضي الله عنه] .

يَهْتَبُونَهُ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

وَوَقَعَتِ الْبِئَاضَةُ فِي بِيوتِ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ ، وَكَثُرَ الْبُكَاءُ عَلَى الْقَتْلَى (١) ،
وَدَخَلَ الرَّعْبُ فِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ ، وَنَذَرَ أَبُو سَفْيَانَ الْأَيْمَسَّ رَأْسَهُ مَاءً ، حَتَّى
يَغْزَوْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَوَجَدَ الْمُسْلِمُونَ الْمُسْتَخْفُونَ فِي مَكَّةَ فِي
أَنْفُسِهِمْ قُوَّةً وَعِزًّا .

إِخَاءُ الْعَقِيدَةِ فَوْقَ إِخَاءِ الْوَلَادَةِ :

أُسِرَ يَوْمَ بَدْرٍ أَبُو عَزِيزٍ بْنُ عُمَيْرٍ بْنِ هَاشِمٍ أَخُو مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ ،
وَكَانَ مُصْعَبُ صَاحِبُ اللَّوَاءِ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَأَبُو عَزِيزٍ صَاحِبُ لَوَاءِ الْمُشْرِكِينَ ،
وَمَرَّ بِهِ أَخُوهُ مُصْعَبُ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَشُدُّ يَدِيهِ ، فَأَوْصَاهُ بِأَنْ يَشُدَّ الْوِثَاقَ ،
قَالَ : إِنَّ أُمَّهُ ذَاتُ مَتَاعٍ لَعَلَّهَا تَفْدِيهِ مِنْكَ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَزِيزٍ : يَا أَخِي هَذِهِ
وَصَاتُكَ بِي ؟ ! فَقَالَ لَهُ مُصْعَبُ : إِنَّهُ أَخِي مِنْ دُونِكَ (٢) .

كَيْفَ عَامَلَ الْمُسْلِمُونَ الْأَسْرَى ؟

وَأَوْصَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأَسْرَى ، فَقَالَ : « اسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا » يَقُولُ
أَبُو عَزِيزٍ هَذَا : « كُنْتُ فِي رَهْطٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، حِينَ أَقْبَلُوا بِي مِنْ بَدْرٍ ، فَكَانُوا
إِذَا قَدَّمُوا غَدَاءَهُمْ وَعِشَاءَهُمْ خَصُونِي بِالْخُبْزِ ، وَأَكَلُوا التَّمَرَ ، لَوْصِيَّةَ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِيَّاهُمْ بَنَّا ، مَا تَقَعُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ كَسْرَةُ خُبْزٍ إِلَّا نَفَحَنِي بِهَا ،
فَأَسْتَحِي ، فَأَرُدُّهَا ، فِيرُدُّهَا عَلَيَّ ، مَا يَمِسُّهَا (٣) .

وَكَانَ مِنَ الْأَسْرَى الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَابْنُ عَمِّهِ

(١) راجع «سيرة ابن هشام» : ج ١ ؛ ص ٦٤٧-٦٤٨ .

(٢) سيرة ابن كثير : ج ٢ ، ص ٤٧٥ .

(٣) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٤٧٥ .

عقيلُ بنُ أبي طالب^(١) ، وأبو العاصِ بنُ الربيعِ ، زوجُ بنتِ النبي ﷺ وكانَ حكمُ الإسلامِ عاماً ، لا يميّزُ بينَ قريبٍ وبعيدٍ .

تعليمُ غلمانِ المسلمينِ فداءِ الأسرى :

وعفا رسولُ الله ﷺ عن الأسرى ، وقبلَ منهم الفداءَ ، وكانَ يُفاديَ بهم على قدرِ أموالهم ، وكانَ منَ لا شيءَ لَهُ منَ عليه رسولُ الله ﷺ فأطلقَهُ ، وبعثَ قريشُ في فداءِ الأسارى وأطلقَ سراحَهُم .

وكانَ منَ بينِ الأسرى ، مَنْ لم يكنْ لهم فداءٌ ، فجعلَ رسولُ الله ﷺ فداءَهُم أنْ يعلموا أولادَ الأنصارِ الكتابةَ^(٢) ، فيعلمَ كلُّ واحدٍ عشرةً منَ المسلمينِ الكتابةَ^(٣) .

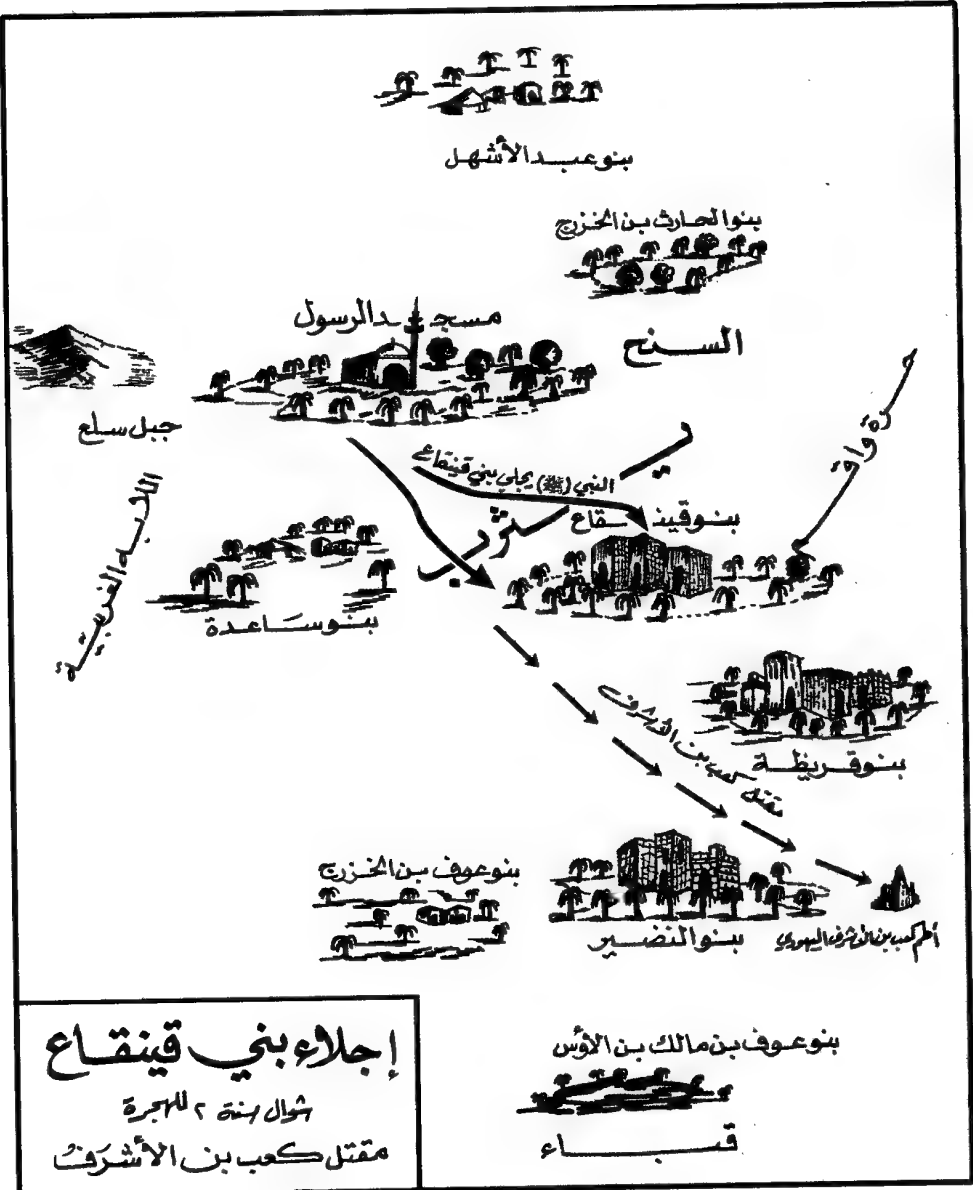
وكانَ زيدُ بنُ ثابتٍ ممَّنْ تعلَّم بهذا الطريقِ ، وكانَ في ذلكَ منَ تقديرِ العلمِ وتشجيعِ القراءةِ والكتابةِ ما لا يحتاجُ إلى توضيحٍ .

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٣ .

(٢) مسند أحمد : ج ١ ، ص ٢٤٧ .

(٣) طبقات ابن سعد : ج ٢ ، ص ١٤ .

خريطة إجلاء بني قينقاع شوال سنة ٢ للهجرة



غزوات وسرايا بين بدر وأحد

غزوة السويق :

كَانَ أَبُو سَفِيَّانُ قَدْ نَذَرَ أَلَّا يَمَسَّ رَأْسُهُ مَاءً ، حَتَّى يَغْزُوا الْمُسْلِمِينَ ، فَخَرَجَ فِي مَتْنِيٍّ رَاكِبٍ مِنْ قَرِيشٍ لِيَبْرَ يَمِينَهُ ، وَاسْتَأْذَنَ عَلَى سَلَامِ بْنِ مِشْكَمٍ سَيِّدِ بَنِي النَّضِيرِ ، فَأْذَنَ لَهُ ، وَقَرَّاهُ ، وَسَقَاهُ ، وَبَطَنَ لَهُ مِنْ خَبَرِ النَّاسِ ، وَبَعَثَ رَجَالًا ، فَقَتَلُوا رَجُلَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ .

وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي طَلَبِهِمْ ، وَرَجَعَ أَبُو سَفِيَّانَ وَأَصْحَابُهُ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُمْ الْمُسْلِمُونَ ، وَأَلْقَوْا أَزْوَادًا كَثِيرَةً ، عَامَّتْهَا سَوِيقٌ ، فَسَمِيَتْ « غَزْوَةُ السَّوِيقِ » ^(١) .

إجلاء بني قينقاع :

وَكَانَ بَنُو قَيْنِقَاعَ أَوَّلَ يَهُودٍ ، نَقَضُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَارَبُوا فِي بَدْرٍ وَأَحَدٍ ، وَأَذَاوُ الْمُسْلِمِينَ ، فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ ، وَشَفَعَ فِيهِمْ حَلِيفُهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَأْسٍ الْمُنَافِقِينَ ، فَأُطْلِقَهُمْ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ^(٢) وَكَانُوا سَبْعِمِئَةَ مُقَاتِلٍ ، وَكَانُوا صَاغَةً وَتُجَّارًا ^(٣) .

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤٧ - ٤٩ .

(٣) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٤٨ .

أصدرَ النبي ﷺ عفواً عاماً عن هؤلاء اليهودِ شريطةَ أن يخرجُوا من المدينةِ إلى أيِّ مكانٍ شاؤُوا ، فَجَلَّوْا عنها إلى الشامِ آمِنِينَ على أنفسهم ، وعلى ما قَدَرُوا من حملِهِ من أموالِهِمْ ، وغادرَ بنو قينقاعِ يثربَ سالمينَ بعد أن كانوا يتوقَّعون الموتَ جزاءَ نكثِهِمْ وتمرُّدِهِمْ^(١) .

يقولُ المستشرقُ إسرائيلُ ولفنسون في كتابهِ « تاريخُ اليهودِ في بلادِ العربِ » :

« كانَ لا بدَّ من عملٍ حاسمٍ إزاءَ بني قينقاعَ وهم يسكنونَ داخلَ المدينةِ في حيٍّ واحدٍ ، من أحياءِ العربِ وتطهيرِ المدينةِ وأحياءِ الأنصارِ من غيرِ المسلمين » .

(١) راجع « سيرة ابن هشام » : ج ٢ ، ص ٤٨ ، وإجلاء بني قينقاع وقع بعد غزوة بدر الكبرى ، وقد حدَّدَ الزهري تاريخه ، وذكر أنه كان في شوال من السنة الثانية من الهجرة .
يقول مونتجمري وات (Montgomery Watt) في كتابه (Muhammad Prophet & Statesman) ص ١٣٠ :

« لقد كان طرد قبيلة بني قينقاع أحد العوامل الهامة التي عملت على تثبيت مركز محمد ودعمه ، وسببُ هذا الطرد كما ترويهِ بعض الروايات نزاع طفيف طرأ بين يهود قينقاع وبعض التجار المسلمين في السوق في المدينة . . . إلخ » .
وينفي مونتجمري وات أن يكون سبب هذا الطرد قصة المرأة المسلمة التي اعتدي عليها في سوق بني قينقاع كما جاءت في كتب السيرة ، وهو يقول :
« أمَّا الأسباب التي أدت بمحمد إلى اتخاذ قرار طرد اليهود فيظهر أنها أكثر عمقاً من هذه الحادثة العابرة ، فاليهود لم يظهروا استعدادهم التام للاندماج في المجتمع الإسلامي » .
ويُضيف قائلاً :

« وقد يكون محمد أيضاً على علم بالعلاقات الودية بين اليهود ومناوئيه من قريش في مكة ، وهذا يعدُّ مخالفة لروح الاتفاقية المبرمة بين المسلمين واليهود ، وتناقضاً لها » .
راجع للتفصيل « غزوة بني قينقاع » للأستاذ محمد أحمد باشميل .

قتل كعب بن الأشرف :

وكان كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ أَحَدُ رُؤَسَاءِ الْيَهُودِ ، شَدِيدَ الْأَذَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ يَشْبُبُ فِي أَشْعَارِهِ بِنِسَاءِ الصَّحَابَةِ ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ ، ذَهَبَ إِلَى مَكَّةَ ، فَجَعَلَ يُؤَلِّبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ لَكَعِبِ بْنِ الْأَشْرَفِ ، فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ » ؟ ، فَانْتَدَبَ لَهُ رِجَالٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَتَلُوهُ ^(١) .

* * *

(١) زاد المعاد : ص ٣٤٨ ، ملخصاً . وقع قتل كعب بن أشرف بعد غزوة بدر ، وقيل : غزوة بني النضير . وحدّد الواقدي ذلك بدقة وذكر أنه وقع في السنة الثالثة لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول . (السيرة النبوية الصحيحة ، للدكتور أكرم ضياء العمري : ص / ٢٠٢ - ٢٠٣) .

غَزْوَةُ أُحُدٍ

شَوَّالِ سَنَةِ ثَلَاثٍ مِنَ الْهِجْرَةِ

الْحِمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةُ وَأَخْذُ الثَّارِ :

لَمَّا أُصِيبَ صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَرَجَعَ فَلَهُمْ إِلَى مَكَّةَ ، عَظُمَ الْمَصَافُ عَلَيْهِمْ ، وَمَشَى رَجَالُ أُصِيبَ آبَاؤُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ ، فَكَلَّمُوا أَبَا سَفِيَّانَ ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ فِي تِلْكَ الْعِيرِ مِنْ قُرَيْشٍ تِجَارَةٌ فَاسْتَعَانُوا بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِ الْمُسْلِمِينَ ، فَفَعَلُوا وَاجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ لِحَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَرَّضَ الشَّعْرَاءُ النَّاسَ بِشَعْرِهِمْ ، وَأَثَارُوا فِيهِمْ الْغِيْرَةَ وَالْحِمِيَّةَ .

وخرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي مُتَنَصِفِ شَوَّالِ سَنَةِ ثَلَاثٍ لِلْهِجْرَةِ بِحَدِّهَا وَحَدِيدِهَا ، بِأَبْنَائِهَا وَمَنْ تَابَعَهَا مِنَ الْقَبَائِلِ ، وَخَرَجُوا مَعَهُم بِالظُّعْنِ ^(١) ، لَثَلَا يَفْرَوُا ^(٢) ، وَخَرَجَ سَادَةُ قُرَيْشٍ بِأَزْوَاجِهِمْ وَأَقْبَلُوا حَتَّى نَزَلُوا مُقَابِلَ الْمَدِينَةِ .

وَكَانَ مِنْ رَأْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُقِيمَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ ، وَيَدْعَهُمْ فَإِنْ يَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ قَاتِلُوهُمْ فِيهَا ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَكْرَهُ الْخُرُوجَ ، وَكَانَ رَأْيُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ فَاتَهُمْ بَدْرٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَخْرِجْ بَنَاءَنَا إِلَى أَعْدَائِنَا لَا يَرُونَا أَنَا جَبْنًا عَنْهُمْ وَضَعْفًا .

فَلَمْ يَزَالُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَهُ فَلَبَسَ لَأَمَتَهُ ، وَنَدِمَ

(١) الظعن : جمع ظعينة ، وهي المرأة ما دامت في الهودج .

(٢) ابن هشام : ج ٢ ، ص ٦٠ - ٦٢ .

الذين اقترحوا الخروج ، فقالوا : استكرهناك يا رسول الله ! ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمنته أن يضعها حتى يقاتل »^(١) .

فخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه^(٢) ، فلما كانوا بالشوط بين المدينة وأحد ، انخزل عنه عبد الله بن أبي بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصاني^(٣) .

في ميدان أحد :

ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشَّعْب من أحد (وهو جبل على نحو ثلاثة كيلو متر من المدينة) وجعل ظهره وعسكره إلى أحد^(٤) ، وقال : لا يقاتلن أحد منكم حتى تأمره بالقتال ، وتعباً رسول الله ﷺ للقتال ، وهو في سبعمئة رجل .

وأمر على الرُّماة عبد الله بن جُبَيْر ، وهم خمسون رجلاً ، فقال : ادفع

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٦٣ [وأخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٣٥١) والدارمي في كتاب الرؤيا ، باب في القمص واللبن . . . ، برقم (٢٠٨٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه] .

(٢) لفظ ابن حزم الرقم الذي ذكرته المصادر الكثيرة عن عدد جند المسلمين في غزوة أحد ، وفق أقيسة قليلة بحتة ، ولكن المشهور المستفيض ما ذكر .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٦٣ [وأخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة أحد ، برقم (٤٠٥٠) ، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، برقم (٢٧٧٦) في أبواب تفسير القرآن ، في تفسير سورة النساء ، برقم (٣٠٢٨) ، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه] .

(٤) راجع لفهم « الوضع الاستراتيجي » في ميدان أحد ، كتاب « ساحات القتال في العهد النبوي » ب (اللغة الأردوية) للدكتور حميد الله .

الخيَلِ عَنَّا بِالنَّبْلِ ، لا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا إِنْ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا^(١) وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَلْزَمُوا مَرْكَزَهُمْ ، وَأَلَّا يَفَارِقُوا وَلَوْ رَأَوْا الطَّيْرَ تَتَخَفُّ الْعَسْكَرَ^(٢) .

وَلَيْسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَرَعًا فَوْقَ دَرَعٍ ، وَدَفَعَ اللِّوَاءَ إِلَى مُضْعَبِ بْنِ عَمِيرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - .

مَسَابَقَةٌ بَيْنَ أَتْرَابٍ :

رَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَمَاعَةً مِنَ الْغُلَمَانِ فِي يَوْمِ أُحُدٍ لَصْغَرِهِمْ ، فَرَدَّ سَمُرَةَ بْنَ جُنْدُبٍ ، وَرَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ ، وَهُمَا ابْنَا خَمْسَةِ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَشَفَعَ أَبُو رَافِعٍ لِابْنِهِ وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنَّ ابْنِي رَافِعًا رَامٍ ، فَأَجَازَهُ النَّبِيُّ ﷺ .

وَعُرِضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ وَهُوَ فِي سَنٍّ رَافِعٍ ، وَرَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَصْغَرِهِ ، فَقَالَ سَمُرَةُ : لَقَدْ أَجَزْتَ رَافِعًا وَرَدَدْتَنِي ، وَلَوْ صَارَعْتُهُ لَصَرَعْتُهُ ، وَوَقَعَتِ الْمَصَارَعَةُ بَيْنَهُمَا ، فَصَرََعَ سَمُرَةُ رَافِعًا فَأُجِيزَ وَخَرَجَ وَقَاتَلَ يَوْمَ أُحُدٍ^(٣) .

المعركة :

وَالْتَقَى النَّاسُ ، وَدَنَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، وَقَامَتْ هِنْدُ بِنْتُ عَتَبَةَ فِي النَّسْوَةِ ، وَأَخَذْنَ الدَّفُوفَ يَضْرِبْنَ بِهَا خَلْفَ الرِّجَالِ يَحْرُضُنَّهُمْ ، وَاقْتَتَلَ النَّاسُ حَتَّى حَمِيَّتِ الْحَرْبُ ، وَقَاتَلَ أَبُو دَجَانَةَ الَّذِي أَخَذَ السِّيفَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٦٦ .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٤٩ ، وراجع « صحيح البخاري » كتاب المغازي ، باب غزوة أحد ، [برقم (٤٠٤٣) و« مسند الإمام أحمد » (٢٩٣/٤) حديث البراء بن عازب رضي الله عنه] .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٦٦ .

رسم ساحة القتال في غزوة أحد

رسم ساحة القتال في غزوة أحد



ووعده بأنَّه يأخذه بحقِّه ، حتى أمعنَ في الناسِ ، وجعلَ لا يلقى أحداً إلا قتلَه^(١) .

شهادة حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير رضي الله عنهما :

وقاتَلَ حمزة بن عبد المطلب قتالاً شديداً ، وقتلَ عدداً من الأبطال ، لا يقفُ أمامه شيءٌ ، وكانَ وحشيُّ غلامٍ جبيرٍ بنِ مُطعمٍ له بالمِزصادِ ، وكانَ يقذفُ بحربةٍ له قلماً يخطيءُ بها شيئاً ، ووعده جبيرٌ بالعتقِ إن قتلَ حمزة ، وقد قتلَ عمَّه طعيمة يوم بدرٍ ، وكانتَ هنذا تحرَّضه كذلك على قتلِ حمزة وشفاءِ نفسها ، وحملَ وحشيُّ على حمزة بحربته ، فدفعها عليه حتَّى خرجت من بينِ رجلَيْه ، فوقعَ شهيداً^(٢) .

وقاتَلَ مصعبُ بن عميرٍ دونَ رسولِ الله ﷺ حتَّى قُتلَ ، وأبلى المسلمون بلاءً حسناً^(٣) .

غلبة المسلمين :

وأنزَلَ اللهُ تعالى نصره عليهم ، وصدقهم وعده ، حتَّى كشفوا المشركين عن العسكرِ ، وكانتِ الهزيمةُ لا شكَّ فيها ، وولَّتِ النساءُ مشمَّراتٍ هواربَ^(٤) .

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٦٧ - ٦٨ .

(٢) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٧٠ - ٧٢ ، وقرأ القصة بلسان وحشيٍّ في « الجامع الصحيح » للبخاري ، [كتاب المغازي] غزوة أحد ، باب « قتل حمزة - رضي الله عنه - » [برقم (٤٠٧٢) وأحمد (٥٠١/٣)] .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٧٣ .

(٤) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٧٧ .

كَيْفَ دَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ؟

وبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ ، وَوَلَّوْا مَدِيرِينَ ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى نَسَائِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَى الرُّمَاءُ ذَلِكَ ، مَالُوا إِلَى الْعَسْكَرِ ، وَهُمْ مُوقِنُونَ بِالْفَتْحِ ، وَقَالُوا : يَا قَوْمُ ! الْغَنِيمَةُ ! الْغَنِيمَةُ ! فَذَكَرَهُمْ أَمِيرُهُمْ عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَسْمَعُوا ، وَظَنُّوا أَنْ لَيْسَ لِلْمُشْرِكِينَ رَجْعَةٌ ، فَأَخْلَوْا الثَّغَرَ ، وَأَخْلَوْا ظُهُورَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْخَيْلِ^(١) ، وَأَصِيبَ أَصْحَابِ لُؤَاءِ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى مَا يَذْنُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ ، فَأَتَاهُمُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ خَلْفِهِمْ ، وَصَرَخَ صَارِخٌ : أَلَا ! إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ . فَتَرَجَعَ الْمُسْلِمُونَ وَكَرَّ الْمُشْرِكُونَ كَرَّةً ، وَانْتَهَزُوا الْفُرْصَةَ ، وَكَانَ يَوْمَ بَلَاءٍ وَتَمَحِيصٍ ، وَخَلَصَ الْعَدُوُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصَابَتْهُ الْحِجَارَةُ ، حَتَّى وَقَعَ لَشَقِّهِ ، وَأَصِيبَتْ رِبَاعِيَّتُهُ ، وَشَجَّ فِي رَأْسِهِ^(٢) ، وَجُرْحَتْ شَفْتُهُ ﷺ وَجَعَلَ الدَّمُ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَيَمْسُحُهُ وَيَقُولُ : « كَيْفَ يَفْلَحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ !؟ »^(٣) .

وَلَا يَعْلَمُ الْمُسْلِمُونَ بِمَكَانِهِ ، فَأَخَذَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَفَعَهُ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ ، حَتَّى اسْتَوَى قَائِمًا ، وَمَصَّ مَالِكُ بْنُ سِنَانٍ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ ﷺ وَابْتَلَعَهُ^(٤) .

وَلَمْ تَكُنْ فَرَّةً ، إِنَّمَا كَانَتْ جَوْلَةً يَضْطَرُّ إِلَيْهَا الْجَيْشُ ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ كَرَّةً^(٥) ،

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٥٠ .

(٢) [الشَّجُّ فِي الرَّأْسِ : هُوَ أَنْ يَضْرِبَهُ بِشَيْءٍ ، فَيَجْرَحُهُ فِيهِ وَيَشْقَهُ] .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٧٨ - ٨٠ .

(٤) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٨٠ .

(٥) يقول المستشرق جيورجيو في كتابه : « نظرة جديدة في سيرة رسول الله ﷺ » (ص ٢٦٧) :

« من وجهة نظر محارب متخصص - محايد - لم يخسر المسلمون في معركة أحد ، إنما وقعوا في تجربة مفاجئة وحسب ، لأن جيش مكة لم يفن جيش المسلمين ، كما لم يحتل =

وما أصابَ المسلمينَ من نكسةٍ ومحنةٍ ، وما أُصيبُوا من خسارةٍ في النفوسِ ، وشهادةٍ مَنْ كَانَ قُوَّةً للإسلامِ والمسلمينَ ، وناصرًا لرسولِ الله ﷺ وللدِّينِ ، إِنَّمَا كَانَ نَتِيجَةً زَلَّةٍ للرِّمَاءِ ، وعدمِ تمسُّكِهِم بتعاليمِ الرسولِ ﷺ وأمرِهِ إلى اللَّحْظَةِ الأخيرةِ ، وإخلائِهِم للجَبْهَةِ التي عَيْنَهُم رسولُ الله ﷺ عليها ، وهو قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ بِمَا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

روائع من الحبِّ والفداء :

نَزَعَ أَبُو عبيدةُ بْنُ الجَرَّاحِ إحدى الحَلَقَتَيْنِ من وَجْهِ رسولِ الله ﷺ فسَقَطَتْ نَيْبَتُهُ ، ونَزَعَ الأخرى ، فكانَ ساقطَ النَيْبَتَيْنِ ^(١) .

وتترسَّ أبو دجانةُ بنفسِهِ دونَ رسولِ الله ﷺ يقعُ النَّبْلُ في ظَهْرِهِ وهو منحنٍ عليه ، حَتَّى كَثُرَ فِيهِ النَّبْلُ .

ورَمَى سعدُ بْنُ أَبِي وقاصٍ دونَ رسولِ الله ﷺ ويُنَاوِلُهُ النَّبِيُّ ﷺ النَّبْلَ ويقولُ : « ازِمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي » ^(٢) .

= المدينة .

(١) [أخرج البخاريُّ حادثةَ جرحِ الرِّسُولِ ﷺ ، في كتابِ المغازي ، باب ما أصابَ النَّبِيَّ ﷺ من الجرحِ يومَ أحدَ ، برقم (٤٠٧٣) ، ومسلم في كتابِ الجهاد ، باب اشتداد غضبِ الله على من قتله رسولُ الله ﷺ ، برقم (١٧٩٣) من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه مسلم من حديثِ أنس رضي الله عنه أيضاً برقم (١٧٩١) في الكتابِ والباب نفسه] .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٨٠ - ٨٢ ، ورواه البخاري [في كتابِ المغازي] في غزوة أحد =

وَأُصِيبَتْ عَيْنُ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ ، حَتَّى وَقَعَتْ عَلَى وَجَّتِهِ^(١) فَرَدَّهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ ، فَكَانَتْ أَحْسَنَ عَيْنِيهِ وَأَحَدَهُمَا^(٢) .

وَقَصَدَهُ الْمُشْرِكُونَ ، يَرِيدُونَ مَا يَأْبَاهُ اللَّهُ ، فَحَالَ دُونَهُ نَفَرٌ نَحْوَ عَشْرَةٍ ، حَتَّى قُتِلُوا عَنْ آخِرِهِمْ ، وَجَالَدَهُمْ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ ، وَتَرَسَ عَلَيْهِ بِيَدِهِ ، يَقِي بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فَأُصِيبَتْ أَنَامِلُهُ وَشُلَّتْ يَدُهُ ، وَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَعْلُو صَخْرَةً هُنَالِكَ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِمَا بِهِ مِنَ الْجَرَاخِ وَالضَّعْفِ ، فَجَلَسَ طَلْحَةُ تَحْتَهُ ، حَتَّى صَعَدَهَا ، وَحَانَتْ الصَّلَاةُ ، فَصَلَّى بِهِمْ جَالِسًا^(٣) .

وَلَمَّا انْهَزَمَ النَّاسُ ، لَمْ يَنْهَزِمِ أَنْسُ بْنُ النَّضْرِ ، عَمُ أَنْسِ بْنِ مَالِكٍ - خَادِمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَتَقَدَّمَ ، فَلَقِيَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ، فَقَالَ : أَيْنَ يَا أَبَا عَمْرُو ؟ فَقَالَ أَنْسُ : وَاهَا لَرِيحِ الْجَنَّةِ ، يَا سَعْدُ إِنِّي أَجِدُهَا دُونَ أَحَدٍ^(٤) .

= في باب قوله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ [آل عمران : ١٧٢] [برقم (٤٠٥٧) و(٤٠٥٨)] ، ومسلم في فضائل الصحابة ؛ باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، برقم (٢٤١١) .

(١) [الْوَجْتَةُ : هِيَ أَعْلَى الْخَدِّ] .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٨٢ .

(٣) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٨٦ ، وزاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٥٠ [وأخرجه الترمذي في أبواب الجهاد ، باب ما جاء في الدرع ، برقم (١٦٩٢)] ، وفي أبواب المناقب ، باب مناقب طلحة ، برقم (٣٧٣٩) وقال : حسنٌ غريب ، وأحمد في المسند (١/١٦٥) ، والحاكم في المستدرک (٣/٣٧٤) ووافقه الذهبي .

(٤) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٥٠ ، وأصل الرواية في الصحيحين [أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة أحد ، برقم (٤٠٤٨)] ، ومسلم في كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد ، برقم (١٩٠٣) ، والترمذي في أبواب تفسير القرآن ، سورة السجدة ، برقم (٣١٩٨) ، وفي سورة الأحزاب ، برقم (٣١٩٩) ، وأحمد في المسند (٣/١٩٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

وانتهى أنسُ بنُ النَّضْرِ إلى رجالٍ من المهاجرين والأنصارِ ، وقد ألقوا بأيديهم ، فقال : ما يجلسُكم ؟
قالوا : قُتِلَ رسولُ الله ﷺ .

قال : فماذا تصنعونَ بالحياةِ بعده ؟ ، قوموا وموتوا على ما ماتَ عليه رسولُ الله ، ثم استقبلَ القومَ ، فقاتلَ حتى قُتِلَ .
يقولُ أنسُ رضيَ الله عنه : لقد وجدنا به يومئذٍ سبعينَ ضربةً ، فما عرفهُ إلا أخته ، عرفته ببَنَانِهِ (١) .

وقاتَلَ زيادُ بنُ السَّكَنِ في خمسةٍ منَ الأنصارِ دونَ رسولِ الله ﷺ يقتلونَ دونه رجلاً ثم رجلاً ، فقاتَلَ زيادٌ حتَّى أثبتته الجراحةُ ، فقال رسولُ الله ﷺ : « أدنوه مِنِّي » فأدنوه ، فوسدته قدمه ، فماتَ وخذه على قدمِ رسولِ الله ﷺ (٢) .

وكانَ عمرو بنُ الجَمُوحِ أعرجَ شديدَ العرجِ ، وكانَ له أربعةُ أبناءٍ شبابٌ ، يغزونَ معَ رسولِ الله ﷺ فلمَّا توجَّهَ إلى أحدٍ أرادَ أن يخرجَ معه ، فقالَ له بنوه : إنَّ اللهَ قد جعلَ لك رخصةً ، فلو قعدتَ ونحنُ نكفيك ، وقد وضعَ اللهُ عنكَ الجهادُ .

وأتى عمرو رسولَ الله ﷺ فقالَ : إنَّ بنيَّ هؤلاءِ يمنعونني أن أخرجَ معكَ ، وواللهِ إنِّي لأرجو أن أستشهدَ ، فأطأ بعرجتي هذه في الجنةِ ، فقالَ له رسولُ الله ﷺ : أمَّا أنتَ فقدَ وضعَ اللهُ عنكَ الجهادُ ، وقالَ لبنيهِ : وما عليكم أن تدعوه ، لعلَّ اللهُ يرزقهُ الشهادةَ ، فخرجَ معَ رسولِ الله ﷺ فقتلَ يومَ أحدٍ شهيداً (٣) .

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٨٢ .

(٢) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٨١ .

(٣) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٥٣ .

يقول زيد بن ثابت - رضي الله عنه - : بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع ، فقال لي : إن رأيته فأقرئه مني السلام وقل له : يقول لك رسول الله ﷺ : كيف تجدك ؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى ، فأتيته وهو بأخر رمي ، وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة سيف ، ورمية سهم فقلت : يا سعد ! إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أخبرني كيف تجدك ؟ فقال : وعلى رسول الله السلام ، وقل له : يا رسول الله ! أجد ريح الجنة ، وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف ، وفاضت نفسه من وقته^(١) .

وقال عبد الله بن جحش في ذلك اليوم : اللهم ! إني أقسم عليك أن ألقى العدو غداً ، فيقتلوني ، ثم يقرؤوا بطني ، ويجدعوا أنفي وأذني ، ثم تسألني : فيم ذاك ؟ فأقول : فيك ! .

عودة المسلمين إلى مركزهم :

ولما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشعب ، وأدركه أبي بن خلف ، وهو يقول : أي محمد لا نجوت إن نجوت ، وقال رسول الله ﷺ : « دعوه » ، فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من أحد أصحابه ، ثم استقبله وطعنه في عنقه طعنة تقلب بها عن فرسه مراراً^(٢) .

(١) زاد المعاد : ج ٢ ، ص ٣٥٣ [أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٠١/٣) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، والبيهقي في « الدلائل » (٢٤٨/٣) ، والطبري في تاريخه (٥٢٨/٢) من طريق ابن إسحاق] .

(٢) سيرة ابن هشام : (٨٤/٢) [أخرجه البيهقي في « السنن » (٢٤/٩) ، والحاكم في المستدرک (١٩٩/٣ - ٢٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » و (١٠٩/١) من حديث سعد بن =

وخرج علي بن أبي طالب ، فملاً دَرَقَتَهُ^(١) ماءً ، وغسل من وجهه الدم ، وكانت فاطمة بنتُ الرسول ﷺ تغسله ، وعلي يسكب الماء بالمِجَنِّ^(٢) ، فلما رأت فاطمة أنَّ الماء لا يزيدُ الدم إلا كثرةً ، أخذت قطعةً من حصير ، فأحرقَتْها ، وألصقتْها ، فاستمسكَ الدمُّ^(٣) .

وكانت عائشة بنتُ أبي بكرٍ وأم سليم تنقلان القربَ على متونهما تفرغانها في أفواه القوم^(٤) ، وكانت أم سَلِيطٍ تزفر^(٥) لهما القرب^(٦) .

ووقعتْ هندُ بنتُ عتبة ، والنسوة اللاتي معها يمثلن بالقتلى من المسلمين ، يجدعن الأذان والأنف ، ويقرتن عن كبِدِ حمزة - رضي الله عنه - فمَضَعَتْها ، فلم تستطع أن تسيغها ، فلفظتها^(٧) .

= وقاص رضي الله عنه ، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي [.

(١) [الدَّرَقَةُ : الثُّرْس من جلد ليس فيه خشب ولا عقب] .

(٢) [المِجَن : قد تكرر في الأحاديث ذكرُ « المِجَنِّ والمِجَانِّ » وهو الثُّرْس والثَّرْسَة ، والميم زائدة لأنه من الجَنَّة] .

(٣) رواه البخاري في « غزوة أحد » باب « ما أصاب النبي من الجراح يوم أحد » [برقم (٤٠٧٥)] ، ومسلم في [كتاب الجهاد والسير] باب « غزوة أحد » [برقم (١٧٩٠)] باختلاف يسير ، [وأحمد في المسند (٣٣٠/٥)] ، وابن ماجه في أبواب الطب ، باب دواء الجراحة ، برقم (٣٤٦٤) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه [وابن هشام : ج ٢ ، ص ٨٥ وزاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٥٢] .

(٤) رواه البخاري [في كتاب المغازي] (غزوة أحد) باب ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ [برقم (٤٠٦٤)] ، ومسلم [في كتاب الجهاد] في باب غزوة النساء مع الرجال [برقم (١٨١١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه] .

(٥) تزفر : تستقي .

(٦) رواه البخاري ، [في كتاب المغازي] باب « أم سَلِيط » [برقم (٤٠٧١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه] .

(٧) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٩١ .

ولمّا أرادَ أبو سفيانَ الانصرافَ ، أشرفَ على الجبلِ ، ثمَّ صرخَ بأعلى صوتهِ : إِنَّ الحربَ سجالٌ ، يومٌ بيومٍ ، أُعلِّ هُبْلُ .

فقالَ النبيُّ ﷺ : « قُمْ يا عمرُ ، فأجبهُ ، فقلْ : اللهُ أعلَى وأجلُّ ، لا سواءٌ ، فقتلانا في الجنةِ وقتلاكُم في النارِ » (١) .

قالَ أبو سفيانَ : لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم .

قالَ النبيُّ ﷺ : « أجيبوه » .

قالُوا : ما نقولُ ؟ .

قالَ : « قولُوا : اللهُ مولانا ولا مولى لكم » (٢) .

ولمّا انصرفَ ، وانصرفَ المسلمونَ ، نادى : إِنَّ موعدكم بدرٌ للعامِ القابلِ ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ لرجلٍ من أصحابِهِ : « قلْ نعم ، هوَ بيننا وبينكم موعدٌ » (٣) .

وفزعَ النَّاسُ لقتلاهم ، وحزنَ رسولُ اللهِ ﷺ على حمزةَ ، وكانَ عمُّه وأخاهُ من الرضاعةِ ، والمقاتلَ دونه .

صبرُ امرأةٍ مؤمنةٍ :

وأقبلتُ صفيَّةُ بنتُ عبدِ المطلبِ لتنظرَ إليه ، وكانَ أخاها لأبيها وأمُّها ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ لابنِها الزُّبيرِ بنِ العوامِ : « القها ، فأرجعها ، لا ترى ما بأخيها » .

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٩٣ .

(٢) رواه البخاري ، [في كتاب المغازي] باب « غزوة أحد » برقم (٤٠٤٣) ، وأبو داود في كتاب الجهاد ، باب في الكمئاء ، برقم (٢٦٦٢) ، وأحمد في المسند (٢٩٣/٤) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه [.

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٩٤ .

فَقَالَ لَهَا : يَا أُمَّة ! إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَرْجِعِي ، قَالَتْ : وَلَمْ ؟
وَقَدْ بَلَغَنِي أَنْ قَدْ مُثِّلَ بِأَخِي ، وَذَلِكَ فِي اللَّهِ لِأَحْسَبَنَّ وَلَا صَبِرَنَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ،
وَأَتَتْهُ ، فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ ، وَصَلَّتْ عَلَيْهِ ، وَاسْتَرْجَعَتْ وَاسْتَغْفَرَتْ لَهُ ، ثُمَّ أَمَرَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدُفِنَ (١) .

كَيْفَ دُفِنَ مَصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ وَشُهَدَاءُ أُحُدٍ ؟

وَقُتِلَ مَصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ صَاحِبُ لَوَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمِنْ أَنْعَمِ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ
قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، فَكُفِّنَ فِي بَرْدَةٍ ، إِنْ غُطِّيَ رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ ، وَإِنْ غُطِّيَتْ
رِجْلَاهُ بَدَا رَأْسُهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ ، وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلِهِ
الْإِذْخِرَ (٢) » (٣) .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مَنْ قَتَلَ أَحَدًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ
يَقُولُ : « أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ ؟ » فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدٍ ، قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ ،
وَقَالَ : « أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ بِدِمَائِهِمْ ، وَلَمْ يَصَلِّ
عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يُغَسَّلُوا (٤) .

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٩٧ [أخرجه أحمد (١/١٦٥) ، والبيهقي (٤/٤٠١) من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه] .

(٢) [الإذخر : حشيشة طيبة الرائحة تُسْقَفُ بِهَا الْبُيُوتُ فَوْقَ الْخَشَبِ] .

(٣) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب إذا لم يجد كفناً إلا ما يُؤاري رأسه . . . ، برقم (١٢٧٦) ، ومسلم في كتاب الجنائز ، باب في كفن الميت ، برقم (٩٤٠) من حديث خباب ابن الأرت رضي الله عنه .

(٤) رواه البخاري [في كتاب الجنائز] ، باب « من قتل من المسلمين يوم أحد » [برقم (١٣٤٣)] ، والترمذي في أبواب الجنائز ، باب ما جاء في ترك الصلاة على الشهيد ، برقم (١٠٣٦) ، وأبو داود في كتاب الجنائز ، باب في الشهيد يغسل ؟ برقم (٣١٣٨) ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه] .

هذا ما جاء في الجامع الصحيح ، وقد وردت الأحاديث في الصلاة عليهم ، وفي المسألة =

إيثارُ النساءِ لرسولِ الله ﷺ :

عادَ المسلمون إلى المدينة ، فمرُّوا بامرأةٍ من بني دینار ، وقد أُصيبَ زوجها وأخوها وأبوها مع رسولِ الله ﷺ فلمَّا نَعُوا لها ، قالَتْ : فما فعلَ رسولُ الله ﷺ ؟ قالُوا : خيراً يا أمَّ فلانٍ ! هو بحمدِ الله كما تُحِبِّين ، قالَتْ : أرؤنيهِ حتَّى أنظرَ إليه ، حتَّى إذا رأيتهُ قالَتْ : كلُّ مصيبةٍ بعدك جَلَلٌ^(١) .

اتِّباعُ المسلمين أثرَ العدوِّ واستماتتهم في نصرةِ الرسول ﷺ :

وتلاوَمَ المشركونَ ، وقالَ بعضهم لبعضٍ : لم تصنعُوا شيئاً ، أصبتم شوكَةَ القومِ وحدَّهم ، ثمَّ تركْتُمُوهم ولم تَبْتَرُوهم^(٢) .

فأمَرَ رسولُ الله ﷺ بطلبِ العدوِّ هذا ، والمسلمون مشخُونٌ بالجراحِ ، فلمَّا كانَ الغدُ من يومِ الأحدِ ، أذَنَ مؤذِنُ رسولِ الله ﷺ في النَّاسِ بالخروجِ في طلبِ العدوِّ ، وأذَنَ ألا يخرجَنَّ معنا أحدٌ إلا من حضَرَ يومنا بالأمسِ ، وما من المسلمينَ إلا جريحٌ ثَقِيلٌ ، فخرجُوا مع رسولِ الله ﷺ لم يتخلفَ منهم أحدٌ ، وانتَهَوْا إلى « حمراءِ الأسدِ » ، وهي من المدينة على ثمانية أميالٍ ، فأقامَ بها رسولُ الله ﷺ والمسلمونُ الإثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، ثمَّ رجَعُوا إلى المدينة^(٣) وقد أثنى اللهُ تعالى على ذلك وخلَّدَ ذكرَهُ ، فقال :

﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ١١٠ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ١١١ ﴾

= تفصيلٌ وخلاف ، راجع شروح الحديث وكتب الخلاف .

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٩٩ [وأخرجه البيهقي في « الدلائل » (٣/٣٠٢) ، والطبري في

تاريخه (٢/٥٣٣) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه] .

(٢) [أي لم يقطعوهم مستأصلين] .

(٣) سيرة ابن كثير : ج ٣ ، ص ٩٧ .

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ
وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا
تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ [آل عمران : ١٧٢ - ١٧٥] .

وقد استشهد من المسلمين يوم أحد سبعون ، أكثرهم من الأنصار ،
رضي الله عنهم ، وقُتل من المشركين اثنان وعشرون رجلاً^(١) .

تربية نفوس المسلمين :

وقد كان ما وقع في أحد من محنة للمسلمين ، تمحيصاً وتربية لهم ، فلا
نفقة بجماعة عاشت على سرور انتصار ، ونشوة الفتح ، وحلاوة الظفر ، ولم
تذق مرارة المصائب والخسائر ، فإنها إذا أصيبت بذلك في يوم من الأيام ، عزَّ
ذلك عليها واضطرب إيمانها ، ولذلك يقول الله تعالى :

﴿ فَأَثْبَكُمْ غَمًّا بِغَيْرِ لِكَيْلٍ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا
أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

وقد هيأ الله نفوس المسلمين في هذه المعركة ، لتلقَى نبأ وفاة رسول الله
ﷺ وشهادته ، وإن تأخر ذلك ، والثبات على العقيدة ، والدعوة إليها
والجهاد في سبيلها والوفاء لها في حياته ، وبعد حياته ، فلا يجبنون ولا
يتخاذلون ، ولا يهنون ولا يستكينون ، فقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ
اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

أَحَبُّ إِلَى النَّفْسِ مِنَ النَّفْسِ :

وفي سنة ثلاث للهجرة طلبت « عَصْلُ » و « القارة » نفرًا من المسلمين ، ليعلموهم ، فبعث معهم رسول الله ﷺ ستة من أصحابه ، معهم عاصمُ بنُ ثابتٍ ، وخُبَيْبُ بنُ عديٍّ ، وزيدُ بنُ الدثنة ، حتَّى إذا كانوا على « الرِّجِيع » وهو موضعُ بين « عَسْفَانَ » ومكة ، غدروا بهم ، قالوا : لَكُمْ عَهْدُ اللَّهِ وميثاقُهُ أَلَّا نقتلكم ، فقال بعضُ المسلمين : لا نقبلُ من مشركٍ عَهْدًا ولا عَقْدًا ، وقاتلوا القومَ حتَّى قُتِلُوا .

وأما زيدُ بنُ الدثنة ، وخُبَيْبُ بنُ عديٍّ ، وعبدُ اللهِ بنُ طارقٍ ، فأعطوا بأيديهم ، فأسرهم المشركون ، وقُتِلَ عبدُ اللهِ بنُ طارقٍ في الطريق ، وأما خُبَيْبُ وزيدُ ، فباعوهما من قريشٍ ، وابتاعَ خبيباً حجيرُ بنُ أبي إهاب ، ليقتله بأبيه إهاب ، وأما زيدُ بنُ الدثنة فابتاعه صفوانُ بنُ أمية ليقتله بأبيه أمية بنِ خلف .

وأخرجوا زيداً من الحرم ليقتلوه ، واجتمعَ رهطٌ من قريشٍ ، فيهم أبو سفيانُ بنُ حربٍ ، فقالَ لَهُ أبو سفيانُ : أشدك اللهُ يا زيدُ ! أتحبُّ أنَّ محمداً عندنا الآنَ في مكانِكَ وأنَّكَ في أهلِكَ ، قالَ : ما أحبُّ أنَّ محمداً الآنَ في مكانِهِ الذي هوَ فيه تصيبُهُ شوكةٌ تؤذيه ، وأنِّي جالسٌ في أهلي^(١) ، قالَ أبو سفيانُ : ما رأيتُ من النَّاسِ أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحابِ محمدٍ محمداً ، ثُمَّ قُتِلَ^(٢) .

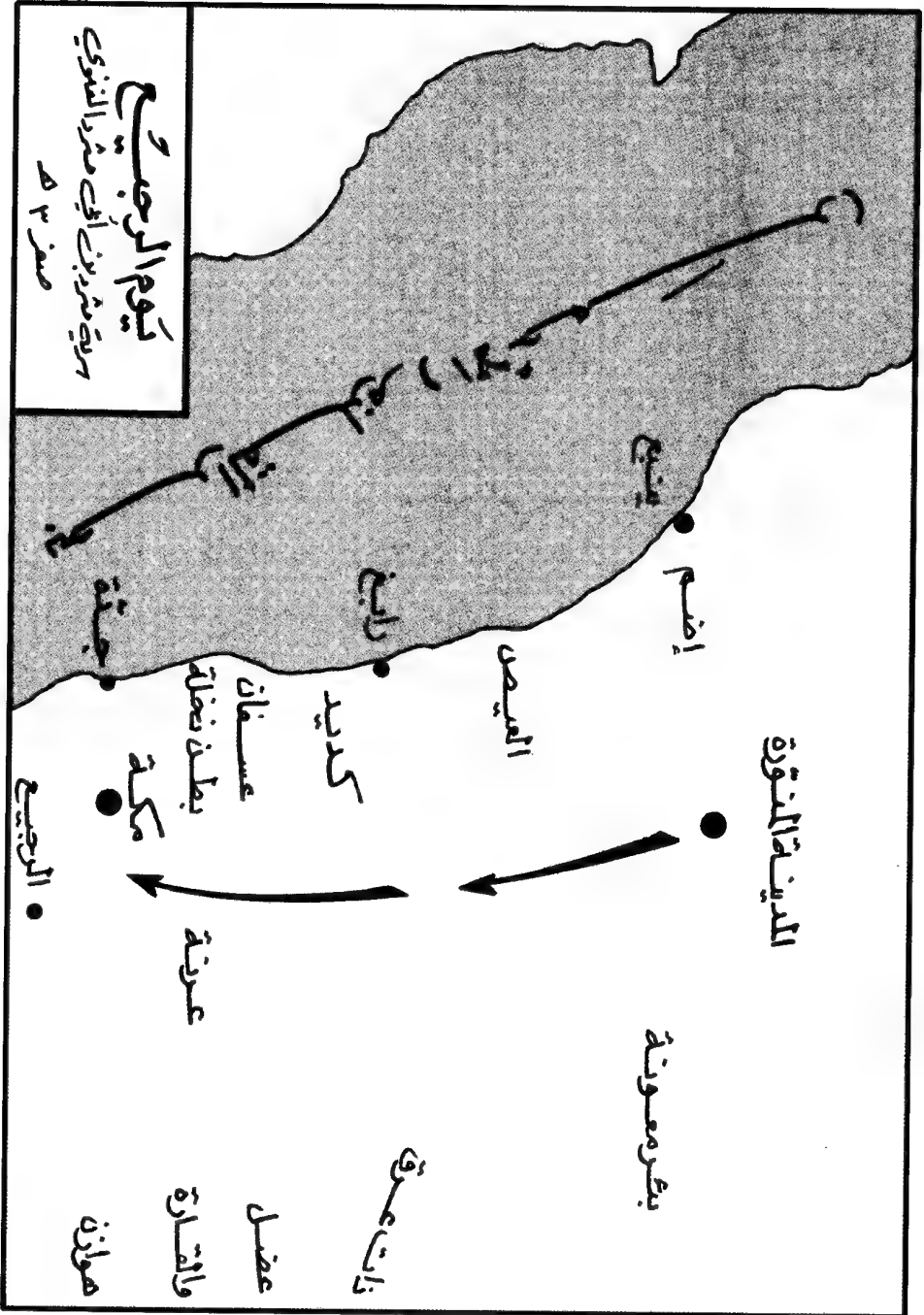
وأما خُبَيْبُ ، فلمَّا جاؤوا به ليصلبوه ، قالَ لهم : إن رأيتُم أن تدعوني

(١) ذكره عروة وموسى بن عقبة في قصة خبيب (ابن كثير : ج ٣ ، ص ١٣١) .

(٢) رواية ابن إسحاق (ابن هشام : ج ٢ ، ص ١٧٢) .

خريطة يوم الرجيع

٣٣٧



حَتَّى أَرْكَعَ رَكَعَتَيْنِ ، فافعلُوا ، قالوا : دونَكَ ، فاركَعْ ، فركَعَ رَكَعَتَيْنِ ،
أَتَمَّهُمَا وَأَحْسَنَهُمَا ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْقَوْمِ ، فَقَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ تَظَنُّوا أَنِّي
إِنَّمَا طَوَّلْتُ جِزْعًا مِنَ الْقَتْلِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الصَّلَاةِ ، وَأَنْشَدَ بَيْتَيْنِ : [من
الطويل]

فَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ شَقٍّ كَانَ فِي اللَّهِ مَضْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعٍ^(١)
بِئْرٍ مَعُونَةٍ :

بعثَ رسولُ اللَّهِ ﷺ نفرًا من أصحابِهِ على طلبِ من عَامِرِ بْنِ مَالِكٍ لِيَدْعُوهُمْ
إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَكَانُوا سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ ، فَسَارُوا حَتَّى نَزَلُوا بِئْرَ
مَعُونَةٍ ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ قِبَائِلُ مَنْ بَنِي سَلِيمَ : « عُصَيَّةُ » وَ « رِغْلُ »
وَ « ذَكْوَانُ » ، فَغَشَوْا الْقَوْمَ ، وَأَحَاطُوا بِهِمْ فِي رِحَالِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ أَخَذُوا
سِوْفَهُمْ ، ثُمَّ قَاتَلُوا حَتَّى قُتِلُوا مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ ، إِلَّا كَعْبَ بْنَ زَيْدٍ ، عَاشَ حَتَّى
قُتِلَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ شَهِيدًا^(٢) .

(١) راجع للتفصيل «سيرة ابن هشام» : ج ٢ ، ص ١٦٩ - ١٧٦ ؛ ورواه البخاري في كتاب
المغازي ، باب التوحيد والجهاد ، [برقم (٣٩٨٩)] ، وأبو داود في كتاب الجهاد ، باب
في الرجل يستأمر ، برقم (٢٦٦٠) و (٢٦٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
باختلاف يسير ، وابن كثير : ج ٣ ، ص ١٢٣ - ١٢٥ .

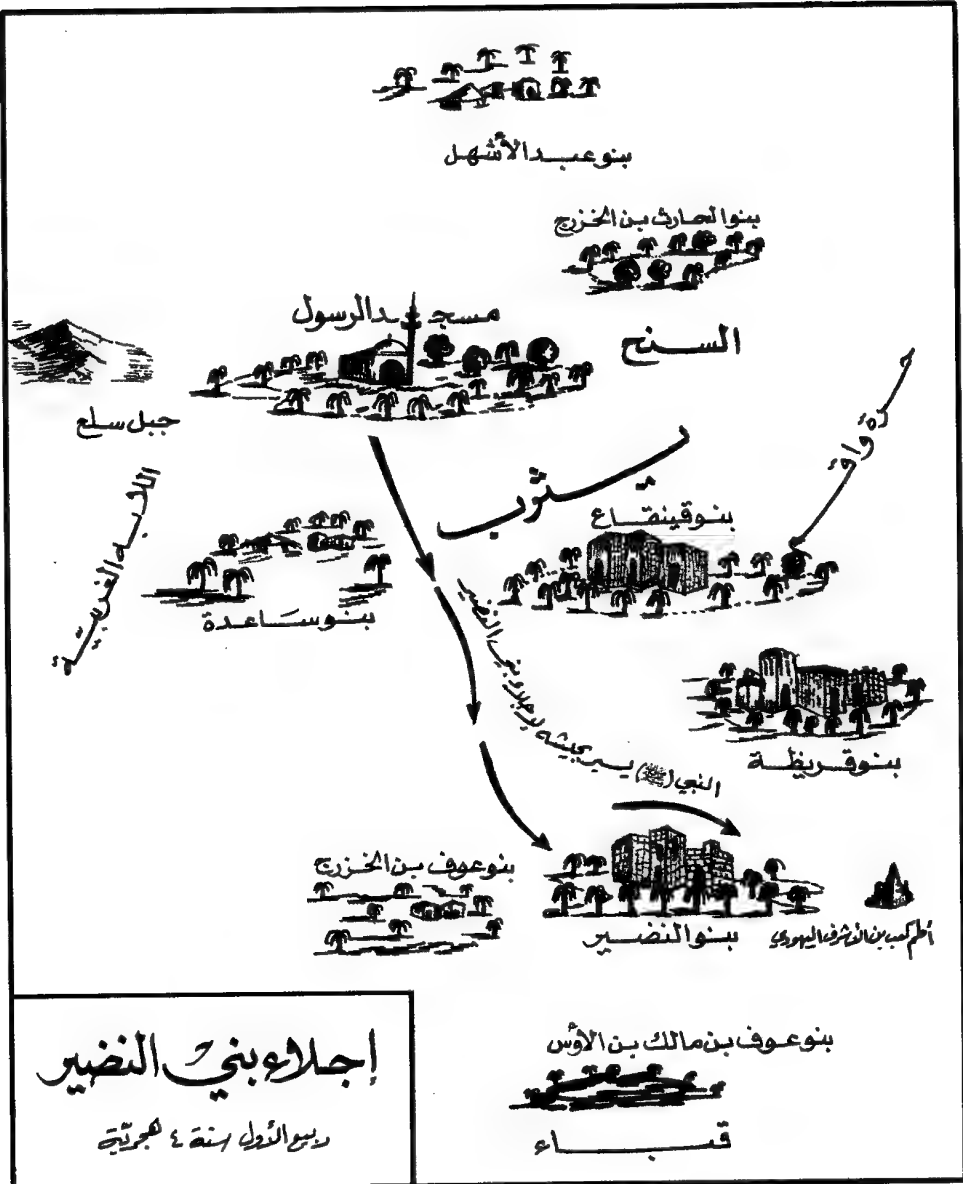
(٢) راجع البخاري [أخرجه في كتاب المغازي ، باب غزوة الرجيع ، ورغل ، وذكوان ، ... ،
برقم (٤٠٩٣)] من حديث عائشة رضي الله عنه [، ومسلم] في كتاب المساجد ومواضع
الصلاة ، باب استحباب القنوت في جميع الصلوات ، ... ، برقم (٦٧٧) ، من حديث
أنس بن مالك رضي الله عنه [، وسيرة ابن هشام] ١٨٣ / ٢ - ١٨٧ .

كلمةٌ قتيلٌ كانتُ سبباً لإسلامِ القاتلِ :

وفي هذه السّرية قُتِلَ حرامٌ بنُ مِلْحَانَ ، قَتَلَهُ جِبَارُ بنُ سلمى ، وكان سببُ إسلامِهِ كلمةٌ قالَهَا حرامٌ ، وهو يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، يقولُ جِبَارٌ : إِنَّ مِمَّا دَعَانِي إِلَى الإسلامِ أَنِّي طَعَنْتُ رجلاً مِنْهُمْ يومئذٍ بِرِمحٍ بَيْنَ كَتْفَيْهِ ، فنَظَرْتُ إِلَى سَنَانِ الرِمحِ حينَ خَرَجَ مِنْ صَدْرِهِ فسمِعْتُهُ يقولُ : فَزْتُ وَرَبَّ الكَعْبَةِ ! فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : مَا فَازَ ؟! أَلَسْتُ قَدْ قَتَلْتُ الرَّجُلَ ؟! حَتَّى سَأَلْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ قَوْلِهِ ، فَقَالُوا : لِلشَّهَادَةِ ، فَقُلْتُ : فَازَ لَعَمْرُ اللَّهِ ، فَكَانَ سَبباً لِإِسْلَامِهِ^(١) .

(١) [أخرج هذه القصةَ مسلمٌ في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب القنوت في جميع الصلوات . . . ، برقم (٦٧٧) ، والبيهقيُّ في « الدلائل » (٣/٣٤٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه] وابن هشام : ج ٢ ، ص ١٨٧ .

خريطة إجلاء بني النضير ربيع الأول سنة ٤ هجرية



إِسْلَامُ بَنِي النَّضِيرِ

خرجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى بني النَّضِيرِ - وهمُ قبيلةٌ عظيمةٌ من اليهودِ - ليستعينَهم في ديةِ قَتِيلَيْنِ من بني عامرٍ ، وكانَ بينَ بني النَّضِيرِ وبني عامرٍ عقدٌ وحلفٌ ، فرقُّوا في الكلامِ ووَعَدُوا بخيرٍ ، ولكنَّهم أضْمَرُوا الغدرَ والاعتِيالَ ، وكانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ قَاعِدًا إلى جنبِ جدارٍ من بيوتِهم ، فَنَاجَى بعضهم بعضاً : إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا الرَّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ هَذِهِ ، فَمَنْ رَجُلٌ يَعْلُو هَذَا الْبَيْتَ ، فَيُلْقِيَ عَلَيْهِ صَخْرَةً ، فَيَرِيحَنَا مِنْهُ ؟ ! وكانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ في نفرٍ من أصحابِهِ ، فيهم أبو بكرٌ وعمرٌ وعليٌّ رضي الله عنهم .

وَأَتَى رسولُ اللَّهِ ﷺ الْخَبْرُ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ ، فَقَامَ وَخَرَجَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَأَمَرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بِالتَّهْيِئِ لِحَرْبِهِمُ وَالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ سَارَ بِالنَّاسِ ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ ربيعِ الأولِ سَنَةِ أَرْبَعٍ ، فَحَاصَرَهُمْ سِتَّ لَيَالٍ ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، وَسَأَلُوا رسولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُجْلِيَهُمْ ، وَيُكَفَّ عَنْ دِمَائِهِمْ عَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا حَمَلَتِ الْإِبِلُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا السِّلَاحُ ، فَقَبِلَ ، وَاحْتَمَلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهَا الْإِبِلُ ، وكانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَهْدِمُ بَيْتَهُ عَنِ الْعَتَبَةِ وَالْأُسْكُفَةِ ، فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ ^(١) ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ :

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِ الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢] .

فَمِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ إِلَى خَيْبَرَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَارَ إِلَى الشَّامِ ، وَتَخَلَّصَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ وَكْرِ مَنْ أَوْكَارِ الْمَكِيدَةِ وَالْمُؤَامَرَةِ وَالنِّفَاقِ وَالْخَدَاعِ ، ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ [الأحزاب: ٢٥] .

وَقَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْوَالَهُمْ إِلَى الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ^(١) .

غزوة ذات الرقاع :

وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَجْدًا فَسَارَ حَتَّى نَزَلَ نَخْلًا ، وَكَانَ سِتُّ رِجَالٍ - مِنْهُمْ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ - بَيْنَهُمْ بَعِيرٌ يَتَعَقَّبُونَهُ ، فَنَقَبَتْ أَقْدَامُهُمْ ، وَسَقَطَتْ أَظْفَارُهَا ، فَكَانُوا يَلْقَوْنَ عَلَى أَرْجُلِهِمُ الْخِرْقَ ، فَسُمِّيَتْ « غَزْوَةُ ذَاتِ الرَّقَاعِ »^(٢) .

وَتَقَارَبَ النَّاسُ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ ، وَقَدْ خَافَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، حَتَّى صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ صَلَاةَ الْخَوْفِ^(٣) .

(١) [أخرج البخاري واقعة إجلاء بني النضير في كتاب المغازي ، باب حديث بني النضير ... ، برقم (٤٠٣١) ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها ، برقم (١٧٤٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما] .

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة ذات الرقاع ، برقم (٤١٢٨) ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب غزوة ذات الرقاع ، برقم (١٨١٦) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وأخرجه البخاري أيضاً ، في الكتاب نفسه ، باب غزوة بني المصطلق ... ، برقم (٤١٣٩) ، ومسلم في كتاب الصلاة المسافرين ، باب صلاة الخوف ، برقم (٨٤٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما] .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢٠٤ .

من يمنعك مني ؟

ولَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْغَزْوَةِ ، وَقَفَلَ مَعَهُ النَّاسُ أَدْرَكَتْهُمْ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاءِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِضَاءِ ^(١) ، يَسْتَظِلُّونَ الشَّجَرَ ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ سَمَرَةٍ ، فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ .

قَالَ جَابِرُ : فَنِمْنَا نَوْمَةً ، ثُمَّ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا ، فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ مِصْلَتًا ، فَقَالَ لِي : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ ، قُلْتُ : « اللَّهُ » فَهَا هُوَ جَالِسٌ ، ثُمَّ لَمْ يَعَايَنَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ^(٢) .

غزواتٌ لم يكن فيها قتال :

وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ أَرْبَعٍ ، إِلَى بَدْرِ ؛ لِمِيعَادِ أَبِي سَفْيَانَ فَنَزَلَهُ ، وَأَقَامَ عَلَيْهِ ثِمَانِيَ لَيَالٍ ، يَنْتَظِرُ أَبَا سَفْيَانَ ، وَخَرَجَ أَبُو سَفْيَانَ ، ثُمَّ بَدَأَ لَهُ الرَّجُوعُ ، وَقَالَ : إِنَّ عَامَكُمْ هَذَا عَامٌ جَدْبٍ ، وَإِنِّي رَاجِعٌ فَارْجِعُوا ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ .

وَعَزَا دُؤْمَةَ الْجَنْدَلِ ^(٣) ، وَلَمْ يَلْقَ كِيدًا ، فَارْجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ ^(٤) .

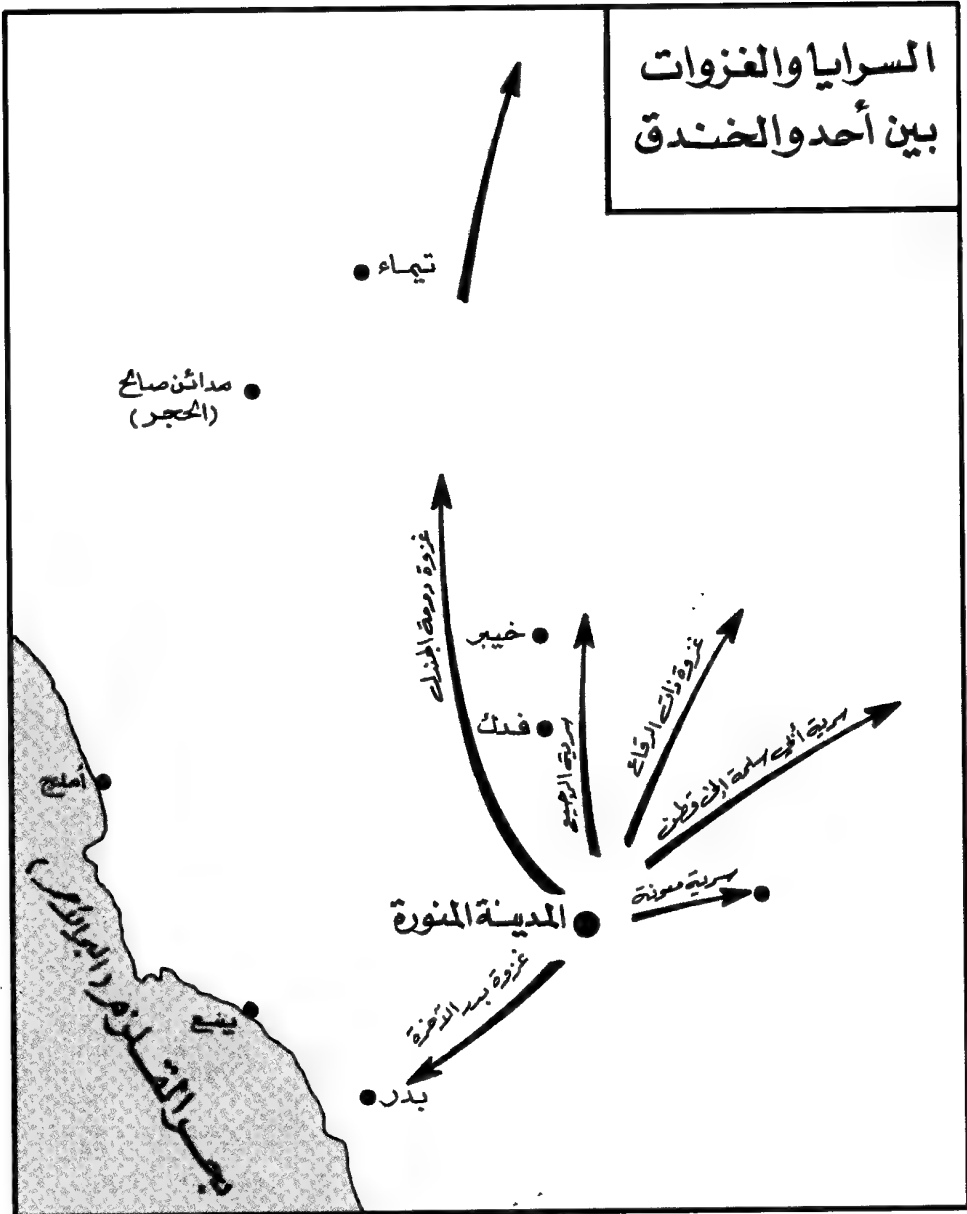
(١) العضاء : شجر كثير الشوك .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة ذات الرقاع ، [برقم (٤١٣٦)] ، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين ، باب صلاة الخوف ، برقم (٨٤٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما [.

(٣) [دُؤْمَةُ الْجَنْدَلِ : وهي موضعٌ ، تُضَمُّ دَالُهَا وتُفْتَحُ] .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٢٠٩ - ٢١٣ .

خريطة السرايا والغزوات بين أحد والخندق



غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب

شَوَّال سَنَةِ خَمْسٍ مِنَ الْهَجْرَةِ

وفي شَوَّال سَنَةِ خَمْسٍ كَانَتْ غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ أَوْ غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ^(١) ، وَكَانَتْ مِنْ الْحَوَادِثِ الَّتِي لَهَا أَثَرٌ بَعِيدٌ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَفِي تَقْرِيرِ مَصِيرِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَفِي الْمَدِّ الْإِسْلَامِيِّ ، وَكَانَتْ مَعْرَكَةً حَاسِمَةً ، وَمَحَنَةً ابْتِلَايَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ ابْتِلَاءً لَمْ يُبْتَلَوْا بِمِثْلِهِ .

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۚ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

[الْأَحْزَاب : ١٠ - ١١] .

وَكَانَ سَبَبُهَا الْيَهُودُ ، فَقَدْ خَرَجَ نَفَرٌ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ ، وَنَفَرٌ مِنْ بَنِي وَائِلٍ ، فَقَدِمُوا عَلَى قَرِيشِ مَكَّةَ ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانُوا قَدْ جَرَّبُوهَا وَاکْتَوَوْا بَنَارَهَا ، فَصَارُوا يَتَهَيَّيُونَهَا ، وَيَزْهَدُونَ فِيهَا ، فَزَيَّنَهَا لَهُمُ الْوَفْدُ الْيَهُودِيُّ وَهُوَ أَمْرُهَا ، وَقَالُوا : إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ ، فَسَرَّ ذَلِكَ

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٢١٤ .

خريطة غزوة الخندق شوال ٥هـ

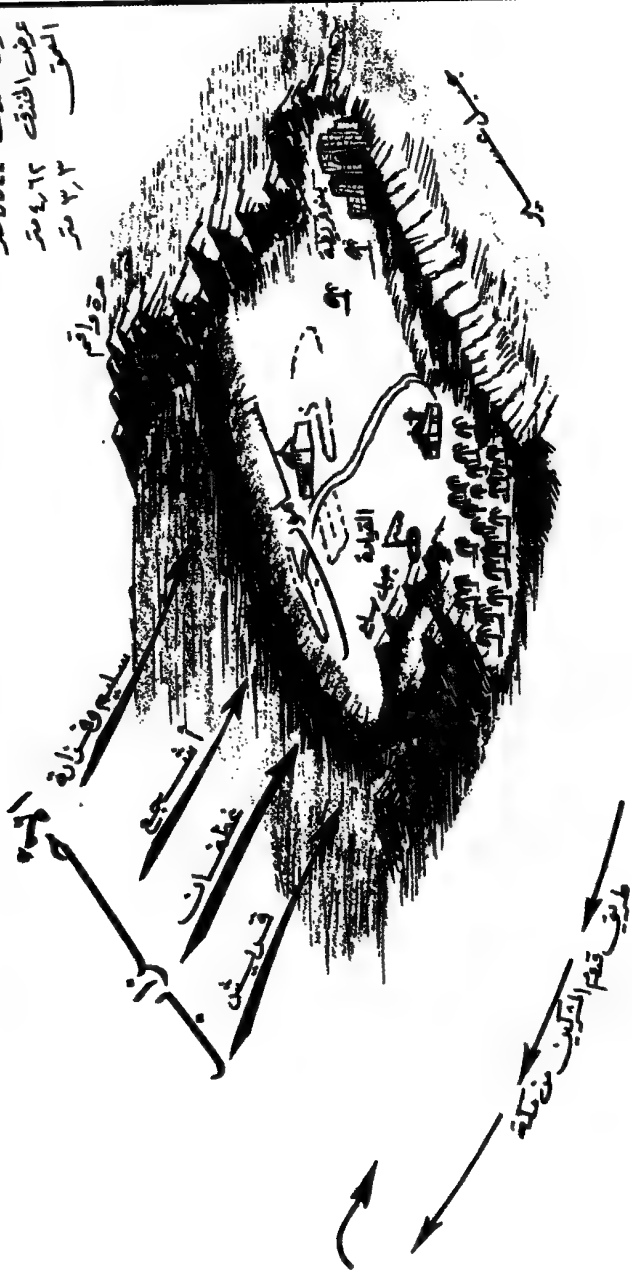
غزوة الخندق

شوال ٥هـ

المسلمون
عبدالمجيد بن
طهارة الخندق
عرض الخندق
العمى



ذوقملى
٣٣



قريشاً ، ونشطوا لما دعوهم إليه ، واجتمعوا لذلك ، واتعدوا له .
ثم خرج الوفد ، فجاء غطفان ، فدعاهم إلى ذلك ، وطاف في القبائل ،
وعرض عليها مشروع غزو المدينة ، وموافقة قريش عليه^(١) .
وتمّت اتفاقية عسكرية ، كان قريش واليهود وغطفان من أهم أعضائها ،
واتفقوا على شروط ، من أهمها أن تشارك غطفان في « جيش الاتحاد » أو
عسكر الحلفاء ، بستة آلاف مقاتل ، وأن يدفع اليهود لقبائل غطفان كل ثمر
نخل خيبر لسنة واحدة ، وحشدت قريش أربعة آلاف مقاتل ، وغطفان ستة
آلاف مقاتل ، فكانوا عشرة آلاف ، وأسندت قيادة الجيش إلى أبي
سفيان^(٢) .

الحكمة ضالة المؤمن :

ولما سمع رسول الله ﷺ بزحفهم إلى المدينة ، وتحزّب الأحزاب لقتال
المسلمين ، وعزمها على استئصال شأفتهم ، أهمّ المسلمين ذلك ، وتهيؤوا
للحرب ، وقرّروا التحصّن في المدينة والدفاع عنها ، وكان جيش المسلمين
لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل .

هنالك أشار سلمان الفارسي بضرب الخندق على المدينة^(٣) ، وكانت
خطّة حريّة متبعة عند الفرس^(٤) ، قال سلمان : يا رسول الله ! إنّنا كنّا بأرض
فارس إذا تخوّفنا الخيل خندقنا علينا ، وقبل رسول الله ﷺ رأيه فأمر بحفر

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٢١٤-٢١٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ص ٢١٩-٢٢٠ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ص ٢٢٤ .

(٤) وكلمة خندق معرب كلمة « كنده » وترد كلمة خندق في الفارسية أيضاً بنفس المعنى . راجع
(فرهنگ عمید) .

الخندق في السهل الواقع شمال غرب المدينة وهو الجانب المكشوف الذي يُخاف منه اقتحام العدو^(١) .

وقسّم رسول الله ﷺ الخندق بين أصحابه ، لكل عشرة منهم أربعون ذراعاً^(٢) ، وقد بلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع ، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة ، والعرض من تسعة إلى ما فوقها^(٣) (٤) .

روح المساواة والمواساة بين المسلمين :

وعمل رسول الله ﷺ في حفر الخندق ، ترغيباً للمسلمين في الأجر ، وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب فيه ودأبوا^(٥) ، وكان البرد شديداً ، ولا

(١) وقد تمّ حفره في شمالي المدينة الشرقي إلى غربيها ، وكان حدّه الشرقي طرف حرة واقم ، وحده الغربي غربي وادي بطحان ، حيث طرف الحرة الغربية ، (حرة الوبرة) . (آثار المدينة المنورة - للأستاذ عبد القدوس الأنصاري) .

أمّا ما جاء من تحقيق العقيد عيسى أمين المجادل ، المنشور في مجلة « الدفاع » الصادرة من إدارة الشؤون العامة للقوات المسلحة بالرياض ، عدد ٧٩ شهر ذي الحجة سنة ١٤١٠هـ : « إن الحفريات دلّت على أن الخندق كان طوله ٨ كيلومترات ، وعرضه ٦ أمتار ، وعمقه ٥ أمتار ، فإن ما قيل عن الطول مستبعد نظراً إلى مساحة المدينة وصعوبة الحفر إلى هذا الحد ، وعدم الحاجة إليه ، أمّا ما قيل عن العرض والعمق فإن الاعتماد عليه ممكن ولا إشكال فيه » .

(٢) سيرة ابن كثير : ج ٣ ، ص ١٩٢ .

(٣) [انظر واقعة غزوة الخندق ، أخرجها البخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ، في كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق ، برقم (٤١٠٦) ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب غزوة الخندق ، برقم (١٨٠٣) ، وأخرجها البخاري أيضاً من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه في الكتاب والباب نفسه ، برقم (٤٠٩٨) ، ومسلم عنه أيضاً في الكتاب والباب نفسه ، برقم (٤٠٩٨)] .

(٤) غزوة الأحزاب : للأستاذ محمد أحمد باشميل .

(٥) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٢١٦ .

يجدّون من القوتِ إلا ما يسدُّ الرمقَ ، وقد لا يجدونه .

يقولُ أبو طلحة : شكّونا إلى رسولِ الله ﷺ الجوعَ ، ورفعنا عن بطوننا عن حجرِ حجرٍ ، فرفعَ رسولُ الله ﷺ عن بطنه حجرين^(١) .

وكانوا مسرورين ، يحمّدون اللهَ ، ويرتجزونَ ، ولا يشكّونَ ولا يتعبّونَ .

يقولُ أنسٌ - رضيَ الله عنه - : خرَجَ رسولُ الله ﷺ إلى الخندقِ ، فإذا المهاجرونَ والأنصارُ يحفرونَ في غداةٍ باردةٍ ، فلم يكنْ لهم عبيدٌ يعملونَ ذلكَ لهم ، فلمّا رأى ما بهم من النَّصبِ والجوعِ ، قالَ :

اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَةِ فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

فقالوا مُجِيبِينَ لَهُ : [من الرجز]

نحنُ الذينَ بايعُوا مُحَمَّدًا على الجهادِ ما بقينا أبداً^(٢)

قالَ : ويؤتون بملءِ كفٍّ من الشَّعِيرِ ، فيصنعُ لهم بإِهَالَةٍ^(٣) سَنَخَةً^(٤) ^(٥) .

نور الفتوح الإسلامية في ظلام الحصارِ والشدةِ :

عَرَضَ للمسلمين في بعضِ الخندقِ صخرةٌ عظيمةٌ شديدةٌ ، لا تأخذُ فيها

(١) أخرجه الترمذي [في أبواب الزهد ، باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ ، برقم (٢٣٧١)] ، قال الطيبي : « عادة من اشتدَّ جوعه وخمص بطنه أن يشد على بطنه حجراً ، ليتقوّم به صلبه » . (مشكاة المصابيح مع هامشها ؛ ج ٢ ، ص ٤٤٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح عن أنس رضي الله عنه في كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق [برقم (٤٠٩٩) و(٤١٠٠)] ، ورواه مسلم عن أنس نحوه [في كتاب الجهاد ، باب غزوة الأحزاب ، برقم (١٨٠٥)] .

(٣) الإهالة : الودكة وكل ما يؤتد به .

(٤) السنخة : المتغيرة الريح ، الفاسدة الطعم .

(٥) سيرة ابن كثير : ج ٣ ، ص ١٨٤ ، نقلاً عن البخاري [قد سبق تخريجه آنفاً] .

المعاول ، فشكّوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فلما رآها أخذ المِعْوَل ، وقال : « باسمِ الله » وضرب ضربةً فكسّر ثلثها ، وقال : « الله أكبر ، أُعْطِيتُ مفاتيحَ الشامِ » فقطعَ ثلثاً آخرَ ، فقال : « الله أكبر ، أُعْطِيتُ مفاتيحَ فارسَ ، واللهِ إني لأبصرُ قصرَ المدائنِ الأبيضَ » ثمَّ ضربَ الثالثةَ ، فقال : « باسمِ الله » فقطعَ بقيةَ الحجرِ ، فقال : « الله أكبر ، أُعْطِيتُ مفاتيحَ اليمنِ ، واللهِ إني لأبصرُ أبوابَ صنعاءَ من مكاني الساعةَ »^(١).

هذا ، والمسلمون في شكٍّ من حياتهم ، يعرضهم الجوعُ ، ويؤذيهم البردُ ، وينذرهم العدوُّ .

المعجزاتُ النبويّةُ في الغزوة :

وظهرتِ المعجزاتُ على يدِ الرسولِ ﷺ فإذا اشتدَّت على المسلمين في بعضِ الخندقِ كُذِيَّةٌ^(٢) ، دعا بإناءٍ من ماءٍ ، فتفلَّ فيه ، ثمَّ دعا بما شاء الله أن يدعوه ، ونضحَ ذلك الماءَ على تلكِ الكُذِيَّةِ فانهاالت وعادت كالكتيبِ^(٣) .

وظهرتِ البركةُ في طعامٍ قليلٍ ، فشبعَ به عددٌ كبيرٌ ، وكفى الجيشُ كلُّهُ . قال جابرُ بنُ عبدِ الله : إننا يومَ الخندقِ نحفرُ ، فعرضتُ كُذِيَّةً شديدةً ، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا : هذه كُذِيَّةٌ عرضتُ في الخندقِ ، فقال : « أنا نازلٌ » ثمَّ قامَ وبطنهُ معصوبٌ بحجرٍ ، ولبثنا ثلاثةَ أيامٍ لا نذوقُ ذواقاً ، فأخذَ النبي ﷺ المِعْوَلَ ، ف ضربَ فعادَ كتيباً أهيلَ أو أهيمَ^(٤) ، فقلتُ : يا رسولَ الله !

(١) أخرجه البيهقي [في « الدلائل » (٣/٤١٧ - ٤١٨)] بسنده عن البراء بن عازب الأنصاري

[وأخرجه أحمد في مسنده (٣٠٣/٤) و [ابن كثير ، ج ٣ ، ص ١٩٤) .

(٢) [الكُذِيَّةُ : قطعة غليظة صلبة لا تعمل فيها الفأس] .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٤) أهيل أو أهيم : أي : رملاً سائلاً .

أُذِنَ لي إلى البيتِ ، فقلتُ لامرأتي : رأيتُ بالنبِيِّ ﷺ شيئاً ما كانَ في ذلكَ صبرٌ ، فعندَكَ شيءٌ؟ قالتُ : عندي شعيرٌ وعناقٌ^(١) ، فذبحتُ العناقَ ، وطحنتُ الشعيرَ ، حتَّى جعلنا اللحمَ في البرمة^(٢) ، ثمَّ جئتُ النبيَّ ﷺ والعجینُ قد انكسرَ ، والبرمةُ بينَ الأثافي^(٣) ، قد كادتُ أن تنضجُ فقلتُ : طعيمٌ لي ، فقمِ أنتِ يا رسولَ الله ورجلٌ أو رجلانِ ، قالَ : « كم هو ؟ » فذكرتُ له ، قالَ : « كثيرٌ طيبٌ . قلْ لها : لا تنزعِ البرمةَ ولا الخبزَ من التَّنَوَّرِ ، حتَّى آتي » فقالَ : « قوموا » فقامَ المهاجرون والأنصارُ .

فلَمَّا دَخَلْتُ على امرأتي ، قلتُ : ويحكِ ! جاءَ النبيُّ ﷺ بالمهاجرين والأنصارِ ومنَ معهم ! قالتُ : هل سألَكَ؟ قلتُ : نعم ، فقالَ : « ادخلوا ولا تضاغطوا » فجعلَ يكسرُ الخبزَ ، ويجعلُ عليه اللحمَ ويخمرُ^(٤) البرمةَ والتَّنَوَّرَ إذا أخذَ منه ، ويقربُ إلى أصحابِهِ ، ثمَّ ينزعُ . فلم يزل يكسرُ الخبزَ ويغرفُ حتى شبَعوا .

وبقيَ بقيةٌ ، قالَ : « كُلِّي هذا وأهدي ، فإنَّ الناسَ قد أصابَتْهم مجاعةٌ »^(٥) .

وفي روايةٍ : قالَ جابرٌ : جئتُهُ ، فسارزتهُ فقلتُ : يا رسولَ الله ! ذبحنا بهيمةً لنا وطحنًا صاعاً من شعيرٍ كانَ عندنا ، فتعالِ أنتِ ونفريْ معكَ ، فصاحَ

(١) العناق : الأنثى من ولد الماعز .

(٢) البرمة : القدر .

(٣) الأثافي : حجارة ثلاثة توضع عليها القدر .

(٤) يخمر : يغطي .

(٥) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح [في كتاب المغازي] باب « غزوة الخندق » [برقم

(٤١٠٢) ، ومسلم في كتاب الأشربة ، باب جواز استباعه غيره إلى دار من يثق برضاه

بذلك ، برقم (٢٠٣٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما] .

النبي ﷺ وقال : « يا أصحاب الخندق ! إن جابراً قد صنع سوراً » (٢)(١) .

إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم :

وأقبلت قريش ، حتى نزلت أمام المدينة ، في عشرة آلاف ، وأقبلت غطفان بتوابعهم ، فنزلوا أمام المدينة أيضاً ، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون في ثلاثة آلاف وبينه وبين قومه الخندق .

وكان بين المسلمين وبين بني قريظة عقدٌ وعهدٌ ، فحملهم حُيُّ بنُ أخطب - سيّد بني النضير - على نقض العهد ، وقد فعل ذلك بنو قريظة بعد امتناع وتردد ، وتحققه رسول الله ﷺ (٣) فعظم عند ذلك البلاء ، واشتدّ الخوف ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، وهم رسول الله ﷺ بعقد الصلح بينه وبين غطفان على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة ، رفقاً بالأنصار ، وتخفيفاً عنهم ، فقد استقلُّوا بأكبر نصيبٍ من أعباء الحرب .

ثم عدل عن ذلك ، بعدما رأى من سعد بن معاذ وسعد بن عباد الثبات والاستقامة ، والصمود أمام العدو ، والإباء ، فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ! قد كنّا نحن وهؤلاء على الشّرك بالله ، وعبادة الأوثان ، لا نعبد

(١) قال الفتني في « مجمع بحار الأنوار » : اللفظة فارسية وهو طعام العرس في لغة الفرس .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه [في كتاب المغازي] في باب « غزوة الخندق » [برقم (٤١٠٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما] .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ [انظر نقض بني قريظة للعهد في حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، أخرجه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب مناقب الزبير بن العوام رضي الله عنه برقم (٣٧٢٠) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما ، برقم (٢٤١٦) ، وأخرجه البخاري أيضاً من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في الكتاب والباب نفسه ، برقم (٣٧١٩) ، ومسلم أيضاً في الكتاب والباب نفسه برقم (٢٤١٦)] .

الله ولا نعرفه ، وهم لا يطعمون منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه ، نعطهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال رسول الله ﷺ : « فَأَنْتَ وَذَاكَ »^(١) .

بين فارس الإسلام وفارس الجاهلية :

وأقام رسول الله ﷺ والمسلمون ، وعدوهم محاصريهم ، ولم يكن بينهم قتالٌ ، إلا أن فوارس من قريش أقبلوا تسرعُ بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لمكيذة ما كانت العرب تكيدها !

ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق ، فضربوا خيلهم ، فافتحمت منه ، فجالت بهم في أرض المدينة ، ومنهم الفارس المشهور : عمرو بن عبد ود ، الذي كان يُقَوِّمُ بألف فارس ، فلما وقف قال : من يُبارز ؟ فبرز علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال : يا عمرو ! إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين ، إلا أخذتها منه .

قال : أجل .

قال له علي : فإنني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام .

قال : لا حاجة لي بذلك .

قال : فإنني أدعوك إلى النزال .

فقال له : لم يابن أخي ؟ فوالله ، ما أحب أن أقتلك .

قال له علي - رضي الله عنه - : لكنني والله أحب أن أقتلك .

(١) راجع للتفصيل سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

فَحَمِيَّ عَمْرُو عِنْدَ ذَلِكَ ، فَاقْتَحَمَ عَنْ فَرَسِهِ ، فَعَقَرَهُ ، وَضَرَبَ وَجْهَهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَتَنَازَلَا وَتَجَاوَلَا فَقَتَلَهُ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ^(١) وَكَانَ مِنْ فَوَارِسِهِمْ نَوْفَلُ بْنُ مَغِيرَةَ قَدْ اقْتَحَمَ الْخَنْدَقَ بِفَرَسِهِ ، فَتَوَرَّطَ فِيهِ ، فَقُتِلَ هُنَاكَ ، وَخَرَجَتْ خَيْلُهُمْ مِنْهُمْزَةً ، حَتَّى اقْتَحَمَتْ مِنَ الْخَنْدَقِ هَارِبَةً .

أَمْ تُحَرِّضُ ابْنَهَا عَلَى الْقِتَالِ وَالشَّهَادَةِ :

تَقُولُ عَائِشَةُ - أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وَكَانَتْ مَعَ نِسْوَةِ مُسْلِمَاتٍ فِي حَصَنِ بَنِي حَارِثَةَ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَضْرِبَ عَلَيْهِنَّ بِالْحِجَابِ : مَرَّ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَعَلَيْهِ دَرْعٌ قَصِيرَةٌ ، قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا ذِرَاعُهُ كُلُّهَا ، وَهُوَ يَرْتَجُزُ ، فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ : الْحَقُّ يَا بُنَيَّ فَقَدْ وَاللَّهِ أَخَرْتَ . قَالَتْ عَائِشَةُ : فَقُلْتُ لَهَا : يَا أُمَّ سَعْدِ ! وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنْ دَرَعَ سَعْدٍ كَانَتْ أَسْبَغَ مِمَّا هِيَ .

وَكَانَ مَا تَخَوَّفَتْهُ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَرُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ بِسَهْمٍ فَقُطِعَ مِنْهُ الْأَكْحَلُ ^(٢) ، وَمَاتَ شَهِيداً فِي غَزْوَةِ بَنِي قَرْيِظَةَ ^(٣) .

وَاللَّهُ جُنُودَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ :

أَحَاطَ الْمُشْرِكُونَ بِالْمُسْلِمِينَ ، حَتَّى جَعَلُوهُمْ فِي مِثْلِ الْحَصَنِ مِنْ كِتَابِهِمْ ، فَحَاصَرُوهُمْ قَرِيباً مِنْ شَهْرٍ ، وَأَخَذُوا بِكُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ ، وَتَجَهَّرَ النِّفَاقُ ، وَاسْتَأْذَنَ بَعْضُ النَّاسِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْمَدِينَةِ

(١) ابن كثير : ج ٣ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣] أخرج الحاكم هذه القصة في « المستدرک » (٣ / ٣٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، صححه الذهبي ووافقه [.

(٢) الأكحل : عرق في الذراع .

(٣) ابن كثير : ج ٣ ، ص ٢٠٧] أخرج هذه القصة أحمد في مسنده (٦ / ١٤١) من حديث عائشة رضي الله عنها ، وذكرها الهيثمي في المجمع (٦ / ١٣٦ - ١٣٨) [.

وقالوا : ﴿ إِنَّ يَبُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب : ١٣] .

وبينما رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله من الخوفِ والشدةِ ، إذ جاءه نعيم بن مسعود الغطفاني ، فقال : يا رسول الله ! إني قد أسلمتُ ، وإنَّ قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمُرني ما شئتُ ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، فَخَذَلْنَا عَنْكَ إِنْ اسْتَطَعْتَ ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدَعَةٌ » .

فخرج نعيم بن مسعود ، فاتى بني قريظة ، وتكلم معهم بكلام جعلهم يشكُّون في صحَّةِ موقفهم وولائهم لقريش وغطفان الذين ليسوا من أهل البلد ، وعدائهم للمهاجرين والأنصار ، الذين هم أهل الدار وجيرانهم الدائمون ، وأشار عليهم بالأبى يقاتلوا مع قريش وغطفان حتَّى يأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونوا بأيديهم ثقةً لهم ، فقالوا له : لقد أشرتُ بالرأي .

ثم خرج حتَّى أتى قريشاً ، فأظهر لهم إخلاصه ونصيحته ، وأخبرهم بأن اليهود قد ندموا على ما فعلوا ، وسيطلبون منهم رجالاً من أشرافهم تأمينا للعهد ، ويسلمونهم إلى النبي ﷺ وأصحابه فيضربون أعناقهم ثم خرج إلى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش ، فكان كلا الفريقين على حذر ، وتوغرت صدورهم على اليهود ، ودبت الفرقة بين الأحزاب ، وتوجس كلُّ منهم خيفةً من صاحبه^(١) .

ولمَّا طلب أبو سفيان ورؤوس غطفان معركة حاسمةً بينهم وبين المسلمين تكاسل اليهود ، وطلبوا منهم رهناً من رجالهم ، فتحقق لقريش وغطفان صدق ما حدَّثهم به نعيم بن مسعود ، وامتنعوا عن تحقيق طلبهم ، وتحقق لليهود صدق حديثه كذلك ، وهكذا تخاذل بعضهم عن بعض وتمزق الشمل وتفرقت الكلمة .

(١) [انظر خدعة نعيم بن مسعود وللأحزاب فيما أخرجه عبد الرزاق في مصنفه مرسلًا برقم (٩٧٣٧)] .

وكان من صنع الله لنبيه أن بعث الله على الأحزاب الريح في ليالٍ شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت قلب قُدورهم وتطرح أبنيتهم ، وقام أبو سفيان ، فقال : يا معشر قريش ! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قُدور ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فإني مرتحل .

وقام أبو سفيان إلى جملة وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربته فما أطلق عقاله إلا وهو قائم .

وسمعت غطفان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم ، ورسول الله ﷺ قائم يصلي ، وأخبره حذيفة بن اليمان الذي أرسله رسول الله ﷺ عيناً إلى الأحزاب ينظر له ما فعل القوم ، ثم يرجع ، فأخبره بما رأى^(١) ، فلما أصبح انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة ، وانصرف المسلمون ووضعوا السلاح^(٢) ، وصدق الله العظيم :

﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٩] .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب : ٢٥] .

ووضعت الحرب أوزارها ، فلم ترجع قريش بعدها إلى حرب

(١) اقرأ القصة بطولها في صحيح مسلم [في كتاب الجهاد] ، باب « غزوة الأحزاب » [برقم (١٧٨٨)] ، وفي مسند أحمد (٣٩٢/٥ - ٣٩٣) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .

(٢) اقرأ للتفصيل ابن كثير : ج ٣ ، ص ٢١٤ - ٢٢١ ، رواية عن ابن إسحاق .

المسلمين ، وقال رسولُ الله ﷺ : « لن تغزوكم قريشٌ بعدَ عامِكُم هذا ، ولكنَّكم تغزونهم »^(١) .

واستشهدَ من المسلمين يوم الخندق سبعةٌ على أكثر تقديرٍ ، وقُتِلَ من المشركين أربعةٌ^(٢) .

(١) سيرة ابن كثير : ج ٣ ، ص ٢٢١ .

(٢) المصدر السابق : ج ٣ ، ص ٢٢٢ [وأخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق . . . ، برقم (٤١١٠) وأحمد في المسند (٢٦٢/٤) و(٣٩٤/٦) والطبراني في الكبير برقم (٦٤٨٤) في حديث سليمان بن صُرد بلفظ : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا » .

غزوة بني قريظة سنة خمس من الهجرة

نقض بني قريظة العهد :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ ، كَتَبَ كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَادَعَ فِيهِ يَهُودَ وَعَاهِدَهُمْ ، وَأَقْرَهُهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَشَرَطَ لَهُمْ ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ ، وَجَاءَ فِيهِ :

« وَأَنْ مَنْ تَبَعَنَا مِنْ يَهُودَ ، فَإِنَّ لَهُ النِّصْرَةَ وَالْأُسُوءَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرِينَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُ لَا يَجِيزُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقَرِيشٍ وَلَا نَفْسًا ، وَلَا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ ، وَأَنْ الْيَهُودَ يَنْفُقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ ، وَأَنْ قِبَائِلَ^(١) يَهُودٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ وَمَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ .
وَجَاءَ فِيهِ : « أَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَا حَارَبَ أَهْلُ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ ، وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ وَالْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ ، وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرَبَ^(٢) .

(١) جاء في العهد : أسماء القبائل اليهودية كبنِي عوف ، وبنِي ساعدة ، وبنِي جشم ، وبنِي الأوس ، وبنِي ثعلبة .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٥٠٣-٥٠٤ .

ولكنَّ حُيَّيَّ بنَ أَخْطَبَ اليهوديَّ - سيِّدَ بني النضير - نجحَ في حَمَلِ بني قريظةَ على نقضِ العهدِ ، وممالةِ قريشٍ ، بعدَ ما قالَ سيِّدُهم كعبُ بنُ أسدٍ القرظيُّ : لم أرَ مِنْ محمدٍ إلا صدقاً ووفاءً ، ونقضَ كعبُ بنُ أسدٍ عهدهُ ، وبريءَ مما كانَ بينَهُ وبينَ رسولِ اللهِ ﷺ .

ولمَّا انتهى إلى رسولِ اللهِ ﷺ خبرُ نقضِهِم للعهدِ ، بعثَ سعدَ بنَ معاذٍ - رضيَ اللهُ عنه - سيِّدَ الأوسِ - وهم حلفاءُ بني قريظةَ - وسعدَ بنَ عبادَةَ - سيِّدَ الخزرجِ - في رجالٍ مِنَ الأنصارِ ، ليتحقَّقُوا الخبرَ ، فوجدوهم على شرٍّ مما بلغَهم عنهم ، ونالوا من رسولِ اللهِ ﷺ وقالوا : من رسولِ اللهِ ؟ لا عهدَ بيننا وبينَ محمدٍ ولا عقدٌ^(١) .

وبَدَّؤُوا بالفعلِ في الاستعدادِ للهجومِ على المسلمينَ ، وهكذا حاولوا طعنَ جيشِ المسلمينَ من الخَلْفِ^(٢) ، وكانَ ذلكَ أشدَّ وأنكى من الهجومِ السافرِ والحربِ في الميدانِ ، وذلكَ قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ [الأحزاب : ١٠] .

واشتدَّ ذلكَ على المسلمينَ ، حتَّى قالَ سعدُ بنُ معاذٍ - وكانَ منَ أولى الناسِ بالحدبِ عليهم ، يحنو عليهم في كلِّ ما يلُمُّ بهم - لما أصابَهُ السهمُ في غزوةِ الخندقِ ، فقطعَ منه الأكحلَ ، وأيقنَ بالموتِ - : « اللهم ! لا تمَتني

(١) راجع «سيرة ابن هشام» ج ٢ ، ص ٢٢٠-٢٢٣ .

(٢) جاء في كتاب Cambridge History of Islam (ج ١ ، ص ٤٩) بقلم الأستاذ الإنجليزي الشهير Montgomery Watt « كانت قد بقيت في المدينة قبيلة عظيمة ، هي قبيلة بني قريظة ، وكانت تتظاهر بالإخلاص عندما حاصر المشركون المدينة ، ولكن ممَّا لا شكَّ فيه أنها كانت قد تمايلات مع المشركين ، وكانت تنتهز أول فرصة للهجوم على المسلمين من خلف » .

حَتَّى تَقَرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قَرِظَةَ» (١) .

المسير إلى بني قريظة :

فَلَمَّا انصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مِنَ الْخَنْدَقِ رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَوَضَعُوا السِّلَاحَ ، أَتَى جَبْرِيلُ ، وَقَالَ : أَوْ قَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » فَقَالَ جَبْرِيلُ : فَمَا وَضَعْتَ الْمَلَائِكَةُ السِّلَاحَ بَعْدُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُكَ بِالْمَسِيرِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَإِنِّي عَامِدٌ إِلَيْهِمْ ، فَمَزِلْهُمْ بِهِمْ ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُؤَدَّنًا ، فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ : « أَنْ مَنْ كَانَ سَامِعًا مَطِيعًا فَلَا يُصَلِّيَنَّ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرِظَةَ » (٢) .

وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَنِي قَرِظَةَ ، فَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعَشْرِينَ لَيْلَةً ، حَتَّى جَهَدَهُمُ الْحَصَارُ ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ (٣) .

ندم أبي لبابة وتوبة الله عليه :

وَبَعَثَتْ بَنُو قَرِظَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ ابْعَثْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ - وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْأَوْسِ - لِنَسْتَشِيرَهُ فِي أَمْرِنَا ، فَأَرْسَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَامَ إِلَيْهِ الرِّجَالُ ، وَجَهَشَ إِلَيْهِ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ ، يَبْكُونَ فِي

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٢٢٧ . وكان سعد قد أصابه سهم قرشي لا قرطي ، وقد جاء اسم الرامي في صحيح البخاري جَبَّانُ بْنُ الْعَرَقَةِ الْقُرَشِيُّ [انظر : كتاب المغازي ، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب . . . ، رقم (٤١٢٢) و « السنن الكبرى » للبيهقي (٩٧/٩) ، ومسنَد الإمام أحمد (٥٦/٦)] ، فلم يكن عند سعد ترة على القرظيين ، ودافعاً له إلى هذا الحكم .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ؛ أخرج البخاري القصة بزيادة وتفصيل في باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ، ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم [برقم (٤١٩٩)] . وأخرجها مسلم في كتاب الجهاد والسير في باب « جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل ، أهل للحكم » [برقم (١٧٧٠)] .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٢٣٥ .

وجهه ، فرق لهم وقالوا له : يا أبا لبابة ! أترى أن نزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح .

قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أنني خنت الله ورسوله ﷺ ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده ، وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ ممّا صنعت ، وعاهدت الله ألا أظأ بني قريظة أبداً ، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً .

ولمّا تاب الله عليه قال :

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٢] .

فثار الناس إليه ليطلقوه ، فقال : لا ، والله ، حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده ، ومرّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح ، فأطلقه وقد أقام مرتبطاً بالجذع نحو عشرين ليلة ، تأتبه امرأته في كل وقت صلاة ، فتحله للصلاة ، ثم يعود فيرتبط بالجذع^(١) .

أنى^(٢) لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم :

ونزل بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس ، وقالوا : يا رسول الله ! إنهم موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت في موالي إخواننا^(٣) بالأمس ما قد علمت ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا ترضون يا معشر الأوس

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٢٣٦-٢٣٨ .

(٢) أنى : أي حان .

(٣) يعنون بني قينقاع .

أَنْ يَحْكَمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ » ؟ قَالُوا : بلى .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فذاك إلى سعد بن معاذ » ، فَأرسلَ إليه ، فلمَّا جاءَ إليه ، قالَ لَهُ بنو قبيلته : يا أبا عمرو ! أحسنُ في مواليكَ ، فإن رسولَ اللَّهِ ﷺ إنما ولَّاكَ ذلكَ لتحسنَ فيهم ، فلمَّا أكثرُوا عليه ، قالَ : لقد أنى لسعدٍ ألا تأخذهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ ، قالَ سعدٌ : فإنني أحكمُ فيهم أن تُقتَلَ الرجالُ ، وتقسمَ الأموالُ ، وتسبى الذراري والنساءُ ، قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « لقد حكمتَ فيهم بحكمِ اللَّهِ »^(١) .

موافقةٌ لشريعةِ بني إسرائيلَ :

وقد وافقَ ذلكَ قانونَ الحربِ في شريعةِ بني إسرائيلَ ، فقد جاءَ في سفرِ التثنية (الإصحاحُ العشرون ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣) :

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، وفي رواية البخاري [في كتاب المغازي ، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ... ، برقم (٤١٢١) و(٤١٢٢)] ، ومسلم [في كتاب الجهاد ، باب جواز قتال من نقض العهد ... ، برقم (١٧٦٨) و(١٧٦٩)] قال : قضيت بحكم الله ؛ وربما قال : بحكم الملك « صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب : مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة » .
وكان عددهم حوالي ثمانمئة (٨٠٠) مقاتل ، كما جاء في « الكامل » لابن الأثير (ج/٢ ، ص/١٢٧) .

وقد شكك في هذا العدد بعض الكتاب المعاصرين في ضوء القياس واستبعاد وقوع ذلك في بلد صغير كالمدينة وبأمر نبي اتسمت سيرته بالرحمة والرفقة ، من غير استناد إلى شهادات تاريخية ، راجع كتاب Muhammad & the jews لمؤلفه D. Barakat Ahmad .
والمراجع اليهودية ساكتة عن التعليق على هذا الحادث الذي كان جديراً باستفزاز شعورهم الديني ، وقد صنف مؤلف يهودي اسمه صموئيل أسبك كتاباً مهماً في القرن السادس عشر المسيحي أسماه « مآثر شهداء اليهود » ولكنه لم يتعرض لجلاء بني قينقاع وبني النضير عن المدينة ، ولا لإعدام مقاتلي بني قريظة .

« حِينَ تَقَرَّبُ مِنْ مَدِينَةٍ لَكَی تَحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا إِلَى الصِّلَحِ ، فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الصِّلَحِ ، وَفَتَحَتْ لَكَ فَكُلُّ الشَّعْبِ الْمَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لَكَ لِلتَّسْخِيرِ ، وَتُسْتَعْبَدُ لَكَ ، وَإِنْ لَمْ تَسَالِمَكَ ، بَلْ عَمِلْتَ مَعَكَ حَرْبًا ، فَحَاصِرُهَا ، وَإِذَا دَفَعَ الرَّبُّ إِلَهُكَ إِلَى يَدِكَ ، فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذَكَوْرَهَا بِحَدِّ السِّيفِ ، وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ وَالبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ كُلِّ غَنِيمَتِهَا فَتَغْنُمُهَا لِنَفْسِكَ ، وَتَأْكُلْ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ الَّتِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ » .

وهذه كانتِ العادة المتبعة في بني إسرائيل في عهد أنبيائهم ، فقد جاء في التوراة :

« فَتَجَنَّدُوا عَلَى مَدْيَانَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ ، وَقَتَلُوا كُلَّ ذَكَرٍ ، وَمَلُوكُ مَدْيَانَ قَتَلُوهُمْ فَوْقَ قَتْلَاهُمْ ، أُوَي ، وَرَاقِم ، وَصُور ، وَحُور ، وَرَابِع ، خَمْسَةَ مَلُوكِ مَدْيَانَ ، وَبِلْعَامُ بْنُ بَاعُورٍ قَتَلُوهُ بِالسِّيفِ ، وَسَبَى بَنُو إِسْرَائِيلَ نِسَاءَ مَدْيَانَ وَأَطْفَالَهُمْ ، وَنَهَبُوا جَمِيعَ بَهَائِمِهِمْ وَجَمِيعَ مَوَاشِيهِمْ وَكُلَّ أَمْلَاقِهِمْ ، أَحْرَقُوا جَمِيعَ مَدَنِيهِمْ بِمَسَاكِنِهِمْ وَجَمِيعَ حَصُونِهِمْ بِالنَّارِ » . (سفر العدد ، الإصحاح الحادي والثلاثون ٧-٨-٩-١٠) .

وذلك في عهد موسى - عليه السلام - وبموافقة منه .

وقد جاء في التوراة :

« فَخَرَجَ مُوسَى وَالْعَازِرُ الْكَاهِنُ وَكُلُّ رُؤَسَاءِ الْجَمَاعَةِ لاسْتِقْبَالِهِمْ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ ، فَسَخَطَ مُوسَى عَلَى وَكَلَاءِ الْجَيْشِ رُؤَسَاءِ الْأُلُوفِ وَرُؤَسَاءِ الْمِائَاتِ الْقَادِمِينَ مِنْ جَنْدِ الْحَرْبِ ، وَقَالَ لَهُمْ مُوسَى : هَلْ أَبْقَيْتُمْ كُلَّ أَنْثَى حَيَّةً » (سفر العدد ، الإصحاح الحادي والثلاثون ١٣-١٦)^(١) .

(١) الكتاب المقدس : مطبعة أوكسفورد ، ١٨٧٩ م .

وَنُفِّذَ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ حُكْمُ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ ، وَخَلَّتِ الْمَدِينَةُ مِنْ جَمِيعِ أَوْكَارِ الْمُؤَامَرَةِ وَالْمُحَارَبَةِ الْيَهُودِيَّةِ ، وَأَمِنَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الطَّعْنِ مِنَ الْخَلْفِ ، وَمِنْ نَشْرِ الْفَوْضَى فِي الدَّخْلِ .

وَقَتَلَتِ الْخَزْرَجُ سَلَامَ بْنَ أَبِي الْحُقَيْقِ ، وَكَانَ مِمَّنْ حَزَبَ الْأَحْزَابِ ، وَكَانَتْ الْأَوْسُ قَدْ قَتَلَتْ مِنْ قَبْلُ كَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ ، وَكَانَ مَقْدَمًا فِي عداوتهِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالتَّحْرِيزِ عَلَيْهِ ، فَنَجَا الْمُسْلِمُونَ مِنَ الرُّؤُوسِ الَّتِي كَانَتْ تَكِيدُ ضِدَّ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَتَقْوُدُ الْحَرَكَاتِ ضِدَّهُمْ ، وَاسْتَرَاخَ الْمُسْلِمُونَ^(١) .

وَكَانَ مَا عَامَلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَنِي قُرَيْظَةَ مِمَّا اقْتَضَتْهُ سِيَاسَةُ الْحَرْبِ وَطَبِيعَةُ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ ، وَكَانَ لَا بَدَّ مِنْ عَقُوبَةٍ صَارِمَةٍ تَكُونُ دَرْسًا لِلْعَابَثِينَ بِالْعَهْدِ وَالْمُحَالَفَاتِ ، وَنِكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ، يَقُولُ R.V.C. Bodley فِي كِتَابِهِ « حَيَاةُ مُحَمَّدٍ الرَّسُولِ » :

« وَكَانَ مُحَمَّدٌ وَحِيدًا فِي بِلَادِ الْعَرَبِ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْبِلَادُ مِنْ حَيْثُ الْمَسَاحَةِ ثَلَاثَ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ ، وَكَانَ عَدَدُ النُّفُوسِ فِيهَا يَبْلُغُ خَمْسَةَ مَلَائِينَ نَفْسٍ . . . وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنَ الْجِيُوشِ الَّتِي تَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى امْتِثَالِ أَمْرِهِ إِلَّا الْجَيْشُ الَّذِي لَا يَزِيدُ عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافٍ جَنْدِيٍّ ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْجَيْشُ مُسَلِّحًا تَسْلِيحًا كَامِلًا ، فَإِذَا وَهَنَ مُحَمَّدٌ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ أَوْ تَرَكَ جَرِيْمَةً غَدَرَ بَنِي قُرَيْظَةَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعَاقِبَهُمْ عَلَيْهَا ، لَمْ يَكُنْ لِلْإِسْلَامِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بَقَاءٌ ، إِنَّهُ لَا شَكَّ أَنَّ عَمَلِيَّةَ قَتْلِ الْيَهُودِ كَانَتْ عَنِيفَةً ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ حَادِثًا فَرِيدًا مِنْ نَوْعِهِ فِي تَارِيخِ الدِّيَانَاتِ ، وَلَقَدْ كَانَ لِهَذَا الْعَمَلِ مَبْرَرٌ مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرِ

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٢٧٣ [انظر خبر قتل سلام بن أبي الحُقَيْقِ فيما أخرجه البخاري ، فِي كِتَابِ الْمَغَازِي ، بَابِ قَتْلِ أَبِي رَافِعِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ . . . ، بِرَقْمِ (٤٠٣٨) و(٤٠٣٩) و(٤٠٤٠) مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا] .

المسلمين ، قد تحتم الآن على القبائل العربية واليهود أن يتأملوا مرة بعد مرة قبل أن يُقدموا على غدر أو نقض عهد ، لأنهم قد عرفوا عواقب الوخيمة وشاهدوا أن محمداً يستطيع أن ينفذ ما يريدُه»^(١) .

وقد كان من فوائد القضاء على آخر حصن من حصون اليهود في المدينة الضعف الذي طرأ على معسكر النفاق ، ونشاط المنافقين ، فقد أثر ذلك في معنوياتهم ، وأفقدتهم الشيء الكثير من الثقة والآمال الواسعة ، فقد كانوا آخر معقل من معاقليهم الكبيرة ، يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون معلقاً على غزوة بني قريظة :

« وأما المنافقون فقد خفت صوته بعد يوم قريظة ، ولم نعد نسمع لهم أعمالاً أو أقوالاً تناقض إرادة النبي وأصحابه ، كما كان يفهم ذلك من قبل»^(٢) .

العفو عمّن ظلم وعطاء من حرم :

بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد ، فجاءت بشمامة بن أثال - سيد بني حنيفة - فربط إلى سارية من سواري المسجد .

(١) The Messenger - The Life Mohammad (London 1946) PP. 202-203.

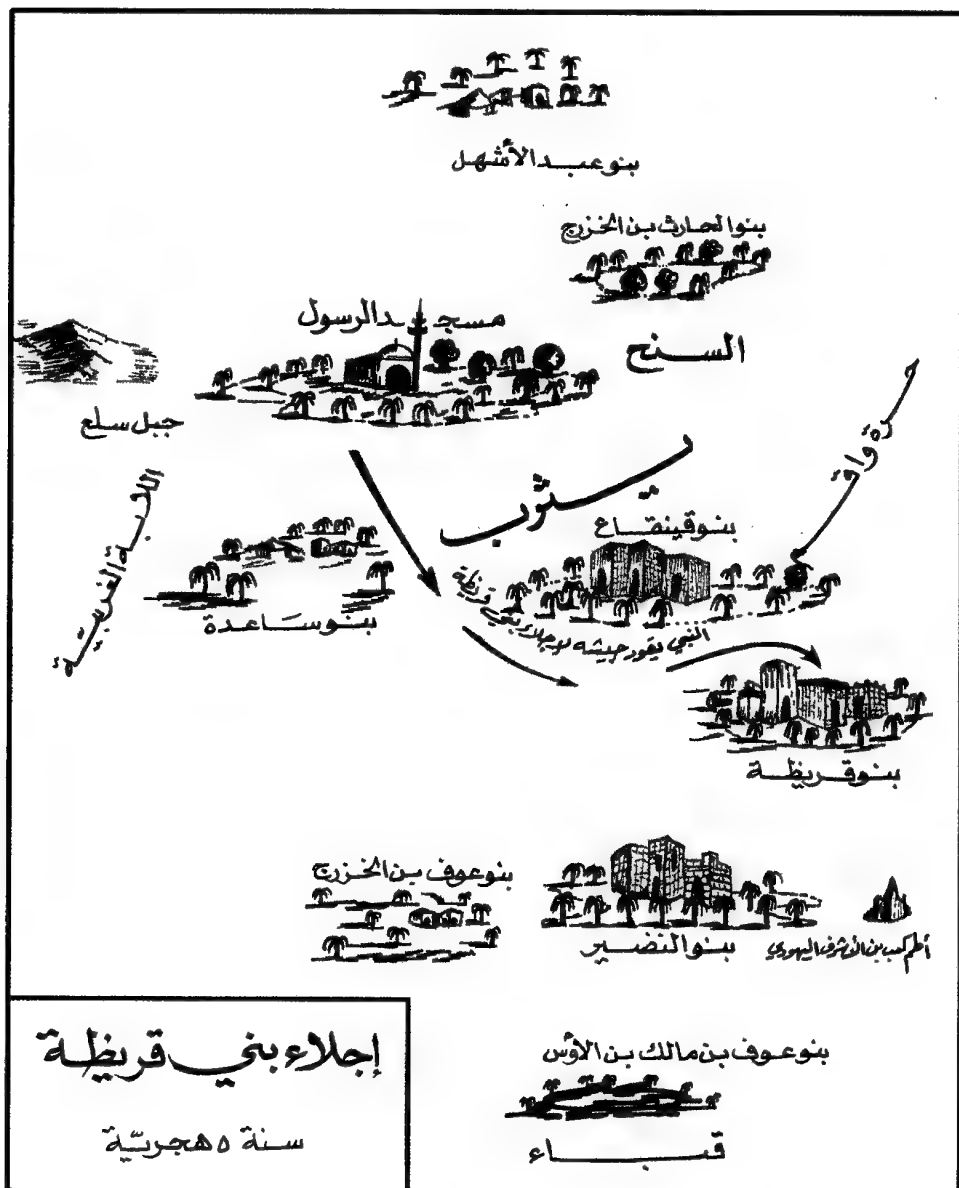
(٢) اليهود في بلاد العرب : ص ١٥٥ .

وقد أصاب الأستاذ محمد أحمد باشميل إذ قال :

« غزوة الأحزاب - بحد ذاتها - ليست إلا غزوة يهودية صرفة خطط لها التفكير الإسرائيلي في خبير ، وقام بتمويلها المال اليهودي ، الذي لا ينفق (إن أنفق) إلا على إثارة الحروب ، وشراء الذمم لبسط النفوذ اليهودي .

وغزوة بني قريظة في حد ذاتها امتداد لمعركة الأحزاب ، فقد كان يهود بني قريظة يمثلون الجناح الثالث للاتحاد العسكري الوثني اليهودي الذي قام لسحق المسلمين وإبادتهم إبادة كاملة» (غزوة بني قريظة : ص ١٤٩-١٥٥) .

خريطة إجلاء بني قريظة سنة ٥ هجرية



وَمَرَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ : مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةَ ؟

قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دِمٍ ، وَإِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَى شَاكِرٍ ، وَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ الْمَالَ ، فَاسْأَلْ تُعْطَ مَا شِئْتَ .

فَتَرَكَهُ ، ثُمَّ مَرَّ بِهِ أُخْرَى ، وَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ كَمَا رَدَّ عَلَيْهِ أَوَّلًا ، ثُمَّ مَرَّةً ثَالِثَةً ، فَقَالَ : « أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ » فَأَطْلَقَهُ .

وَذَهَبَ ثُمَامَةُ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ ، فَاغْتَسَلَ ، ثُمَّ جَاءَهُ فَأَسْلَمَ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَجَةً أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ دِينَ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ ، فَقَدْ أَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الْأَدْيَانِ إِلَيَّ ، وَإِنَّ خِيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ ، فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمَرَ .

فَلَمَّا قَدِمَ ثُمَامَةُ عَلَى قَرِيشٍ ، قَالُوا : صَبَّوْتَ يَا ثُمَامَةَ ! قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لَا وَاللَّهِ مَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حَنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَتِ الْيَمَامَةُ رَيْفَ مَكَّةَ .

فَانْصَرَفَ إِلَى بِلَادِهِ ، وَمَنَعَ الْحَمَلَ إِلَى مَكَّةَ ، حَتَّى جَهَدَتْ قَرِيشٌ ، وَكُتِبُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى ثُمَامَةَ يَخْلِي إِلَيْهِمْ حَمْلَ الطَّعَامِ ، فَفَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (١) .

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٧٧ ؛ وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب « الإمداد بالملائكة يوم بدر » [برقم (١٧٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] .

غزوة بني المصطلق وقصة الإفك

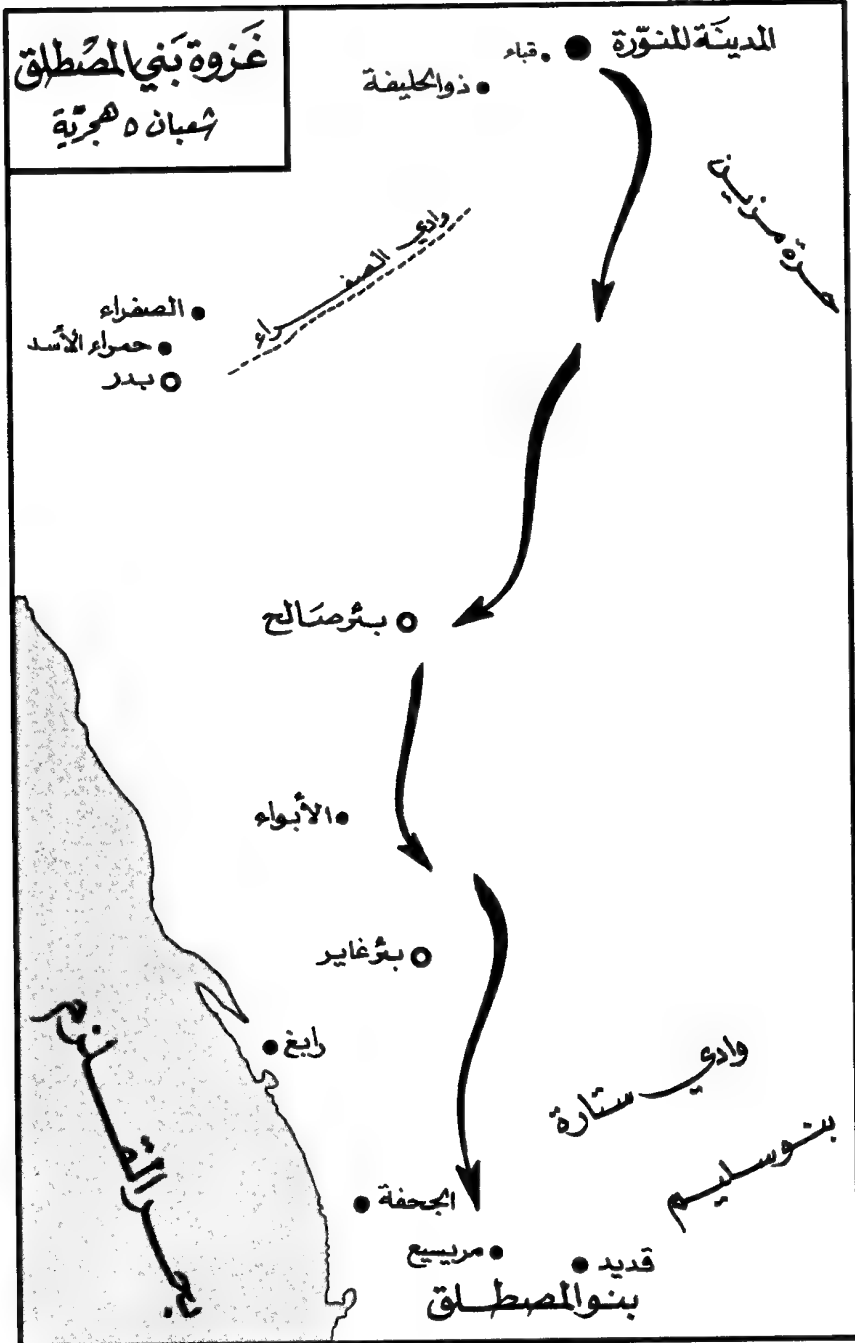
وبلغ رسول الله ﷺ في شعبان سنة ست^(١) أن بني المصطلق وهم فرع من خزاعة ، يجمعون له . . . فلما سمع خرج إليهم ، وقد خرج معه أكبر عدد من المنافقين ، خرج في غزوة^(٢) ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول ، وقد بلغت سطوة المسلمين أوجها بعد انتصارهم في غزوة الأحزاب التي اجتمعت فيها قريش وحزب الأحزاب للقضاء على الإسلام ، اجتماعاً لم تجتمع مثله ، فكانت^(٣) شوكة في حلقوم الكفار في مكة ، واليهود والمنافقين في المدينة وحولها ، وعرفوا أن المسلمين لن يغلّبوا في ساحة القتال بكثرة العدد والعُدِّ ، فاعتمدوا أخيراً على إثارة الفتن الداخلية ، والتحريض بين المسلمين بإحياء النعرة القومية القبلية ، والإساءة إلى مقام الرسول ﷺ وتشكيك المسلمين فيه ، ونشر المقالة حول عرضه وكرامته ، وأحبّ أزواجه إليه ، وبذلك يتزلزل كيان هذا المجتمع المثالي الوليد ، الذي كان كلُّ عضو من أعضائه مرآة أخيه ، إذا سمع عنه ما يريب عاد إلى نفسه ، فرآها نزيهةً ، فنفى

(١) قدّم موسى بن عقبة غزوة بني المصطلق إلى السنة الرابعة مخالفاً معظم كتاب السيرة الذين يجعلونها في السنة السادسة ، وتابعه ابن القيم حيث اشترك سعد بن معاذ بالغزوة ، وقد استشهد في أعقاب غزوة بني قريظة ، (السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري) .

(٢) جاء في « طبقات ابن سعد » : وخرج معه بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قط مثلها (كتاب الطبقات الكبرى ، ٤٥/٢ ، القسم الأول ، طبع ليدن ، ١٣٢٥ هـ) .

(٣) [فكانت : الضمير فيه راجع إلى سطوة] .

غزوة بني المصطلق شعبان ٥ هجرية



هذه التهمة كما ينفيها عن نفسه ، ويفقد بعضهم الثقة ببعض ، فإذا زالت الثقة بأهل بيت النبوة ، زالت عن الجميع ، وكانت أعظم مؤامرة حاكها المنافقون وقد تجلّت هذه السياسة الماكرة في غزوة بني المصطلق أكثر ممّا تجلّت في أيّ غزوة .

خرج رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق ، ولقيهم على ماء لهم ، يقال له « المريسيع »^(١) من ناحية قديد إلى الساحل ، فتزاحف الناس واقتتلوا ، وانهزم بنو المصطلق^(٢) .

واقْتَلَ أُجَيْرٌ لِعَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ مِنْ بَنِي غِفَارٍ ، وَحَلِيفٌ لِلخَزْرَجِ مِنْ جُهَيْنَةَ ، فَصَرَخَ الْجُهَيْنِيُّ : « يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ! » وَصَرَخَ الْأُجَيْرُ : « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ! » فَغَضِبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سَلُولٍ ، وَعِنْدَهُ رَهْطٌ مِنْ قَوْمِهِ فِيهِمْ ، فَقَالَ : أَوْ قَدْ فَعَلُوهَا ؟ قَدْ نَافَرُونَا وَكَاثَرُونَا فِي بِلَادِنَا ، وَاللَّهِ لَيْسَ الْأَمْرُ إِلَّا كَمَا قِيلَ : « سَمَنْ كَلْبَكَ يَأْكُلُكَ » أَمَا وَاللَّهِ لئن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، فَقَالَ لَهُمْ : هَذَا مَا فَعَلْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ ، أَحَلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ ، وَقَاسَمْتُمُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَمْسَكْتُمْ عَنْهُمْ مَا بِأَيْدِيكُمْ ، لَتَحَوَّلُوا إِلَى غَيْرِ دَارِكُمْ »^(٣) .

- (١) ومن هنا سُمّيت هذه الغزوة بغزوة المريسيع أيضاً ، كما في طبقات ابن سعد وغيرها .
 (٢) كانت لغزوة بني المصطلق في المريسيع أهمية سياسية واستراتيجية واقتصادية كبيرة ، وهي الطريق الرئيسي للتجارة المكية ، وكانت طريقاً فرعياً من مكة إلى المدينة كان يمرُّ بها ، إلى غير ذلك من الخصائص (مستفاد من بحث الدكتور حسين مؤنس المقدم إلى مؤتمر السيرة والسنة النبوية المنعقد في الدوحة في شهر محرم عام ١٤٠٠ هـ) .
 (٣) [أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، برقم (٢٧٧٢) ، والترمذي في أبواب تفسير القرآن ، تفسير سورة المنافقين ، برقم (٣٣١٢) ، وأحمد في المسند (٣٦٩/٤) - ٣٧٣) . من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه .]

فلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِالرَّحِيلِ ، لئلا يَنْشَغَلَ النَّاسُ بِهَذِهِ الْفِتْنَةِ ، وَيَجِدَ الشَّيْطَانُ سَبِيلًا إِلَى نَفْسِهِمْ ، وَذَلِكَ فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْتَحِلُ فِيهَا ، فَارْتَحَلَ النَّاسُ .

وَمَشَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى أَمْسَى ، وَلَيْلَتَهُمْ حَتَّى أَصْبَحَ ، وَصَدَرَ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ ، حَتَّى آذَنَهُمُ الشَّمْسُ ، ثُمَّ نَزَلَ بِالنَّاسِ فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ وَجَدُوا مَسَّ الْأَرْضِ ، فَوْقُوا نِيَامًا .

وَقَدَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي النَّاسِ ، حَتَّى وَقَفَ لِأَبِيهِ عَلَى الطَّرِيقِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَنَاخَ بِهِ ، وَقَالَ : لَا أَفَارُقُكَ حَتَّى تَزْعِمَ أَنَّكَ الذَّلِيلُ ، وَمُحَمَّدُ الْعَزِيزُ ، فَمَرَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « دَعُهُ ، فَلَعْمَرِي لِنَحْسَنَنَّ صَحْبَتَهُ مَا دَامَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا » (١) .

قصة الإفك :

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا ، أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ ، فَأَيُّتَهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ ، وَخَرَجَ سَهْمُ عَائِشَةَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ زَوْجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمِصْطَلِقِ ، فَخَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ سَفَرِهِ ذَلِكَ تَوَجَّهَ قَافِلًا ، حَتَّى إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ نَزَلَ مَنْزِلًا ، فَبَاتَ بِهِ بَعْضُ اللَّيْلِ ، ثُمَّ أَذَّنَ بِالرَّحِيلِ ، وَخَرَجَتْ عَائِشَةُ لِبَعْضِ حَاجَتِهَا ، وَفِي عُتُقِهَا عِقْدٌ لَهَا ، فَانْسَلَّ مِنْ

(١) طبقات ابن سعد : ج ٢ ، ق ١ ، ص ٤٦ ، طبع ليدن .

[وقد وردت أخبار محاولة المنافقين في إثارة الفتنة بين المسلمين لما حصل بين الرجل الأنصاري والمهاجرين فيما أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) برقم (٤٩٠٧) والترمذي في أبواب تفسير القرآن ، تفسير سورة المنافقين ، برقم (٣٣١٥) ، وأحمد في المسند (٣٩٢/٢ - ٣٩٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما] .

حيث لا تشعرُ ، فلمَّا رجعتُ إلى الرَّحْلِ فقدتِ العِقدَ فذهبتُ تبحثُ عنه وقد أخذَ الناسُ في الرحيل ، فجاءَ القومُ الذين كانوا يرحّلون لها البعيرَ ، فأخذوا الهودَجَ ، وهم يظنون أنها فيه ، وكانت فتاةً صغيرة السنَّ ، خفيفة اللحم ، فلم ينتبهوا لخفتها ، ولم يشكّوا أنها فيه ، ورجعتُ عائشةُ إلى العسكرِ وما فيه داع ولا موجبٌ ، وقد انطلقَ الناسُ ، فتلففتُ بجلبابها ، واضطجعتُ في مكانها .

وبينما هي كذلك إذ مرَّ بها صفوانُ بنُ المُعَظَّلِ السُّلَمي ، وقد كان تخلفَ عن العسكرِ لبعضِ حاجتهِ ، فلمَّا رآها استرجعَ ، وقال : ظعينةُ رسولِ الله ﷺ ، ثم قرَّبَ البعيرَ واستأخَرَ ، فركبتُ وأخذَ برأسِ البعيرِ ، وانطلقَ سريعاً يطلبُ الناسَ فأدركهم ، وقد نزلوا ، ولحقتُ بالركبِ ، فلم يرعِ الناسُ شيئاً ، فكان مما ألقوه في حياةِ الباديةِ ومسيرِ القوافلِ ، وكانَ حفظُ الذمارِ والتعففِ عن مثلِ هذهِ الخسائسِ ، من الأعرافِ العربيةِ التي كانوا يحافظون عليها في الجاهليةِ والإسلامِ^(١) ، فيقولُ الشاعرُ الجاهليُّ : [من الكامل]

وأغضُّ طرفي إن بدتُ لي جارتِي حتى يُوارِي جارتِي مأواها^(٢)

(١) ومن أمثلته ما حكته أم سلمة ، وقد حال قومها بينها وبين زوجها أبي سلمة ، فلم يدعوها تهاجر معه إلى المدينة ، فكانت تخرج كل غداة إلى الأبطح فما تزال تبكي حتى تمسي ، سنة أو قريباً منها ، حتى رَقُوا لها وقالوا : الحقِّي بزوجك إن شئت ، فارتحلت ببعيرها وما معها أحد ، فلقيها عثمان بن طلحة الداري فرثي لها ، فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معها إلى المدينة ، قالت أم سلمة : والله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه ، ثم قيده في الشجر . . . إلى أن قالت : فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة . (سيرة ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٢١٥ - ٢١٧) وهذا قبل أن يسلم عثمان بن طلحة ، فكان صفوان بن المُعَظَّلِ السُّلَمي أحقُّ بهذا الخلق والنزاهة ، فقد أسلم قديماً وصحب رسول الله ﷺ .

(٢) ديوان الحماسة .

وقد كَانَ الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - مَعَ الرَّسُولِ ﷺ كَالْأَبْنَاءِ لِلْأَبَاءِ ، وَأَزْوَاجُهُ أَمْهَاتُهُمْ ، وَكَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مَنْ وَالِدِهِمْ وَوَلَدِهِمْ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، وَقَدْ عُرِفَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ بِالدِّينِ وَالصَّلَاحِ وَالْعِفَّةِ وَالْحَيَاءِ ، ذُكِرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَرْبٌ فِي النِّسَاءِ .

وكَانَتِ الْقَضِيَّةُ لَا تَسْتَرَعِي انْتِبَاهَهَا ، وَلَكِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي تَبْنَى هَذِهِ الْقَضِيَّةَ ، وَتَحَدَّثَ بِهَا بَعْدَ عَوْدَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَشَايَعَهُ أَصْحَابُهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَاهْتَبَلُوهَا لِإِثَارَةِ الْفِتْنَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَإِضْعَافِ الصِّلَةِ الَّتِي تَرْبِطُهُمْ بِمَقَامِ صَاحِبِ الرِّسَالَةِ الْعُظْمَى وَمَنْ يَتَّصِلُ بِهِ مِنْ أَهْلِ ، وَإِضْعَافِ ثِقَةِ الْمُسْلِمِينَ بَعْضُهُمْ بِأَمَانَةِ بَعْضٍ ، وَتَوَرَّطَ فِي هَذِهِ الْمَكِيدَةِ بَضْعٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ أَصْبَحُوا فَرِيسَةَ التَّشْهِي لِلْحَدِيثِ وَالتَّرِيدِ لِكُلِّ مَا قِيلَ مِنْ غَيْرِ تَمَحِّيصٍ ^(١) .

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِذَلِكَ عَائِشَةُ وَفُوجِئَتْ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ فَرِغَتْ لَهُ ، وَخَزِنَتْ حُزْناً شَدِيداً ، لَا يَرِقُّ لَهَا دَمْعٌ وَلَا تَكْتَحِلُ بَنُومٌ ، وَكَبُرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعُرِفَ مَصْدَرُهُ ، فَقَامَ مِنْ يَوْمِهِ ، فَاسْتَعَذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ، وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ ، فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ! مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْراً ، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ فِيهِ إِلَّا خَيْراً ، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِيَ » ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ خُضَيْرٍ ، فَقَالَ : أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ ، إِنَّ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرِبْتُ عَنْقَهُ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي مِنَ الْخَزْرَجِ ، فَاحْتَمَلَتْ بَعْضُهُمُ الْحَمِيَّةَ ، وَثَارَ الْحَيَّانُ ، وَكَادَ الشَّيْطَانُ أَنْ يَلْعَبَ بِهِمْ لَوْلَا حِكْمَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحِلْمُهُ .

(١) ذَلِكَ مَا أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٥] .

هذا ، والصَّديقةُ بنتُ الصَّديقِ موقنةٌ ببراءتها ، عزيزةُ النفسِ ، مليئةٌ بالثقةِ والاعتزازِ ، شأنُ الأبرياء الذين لا ترتقي إليهم شبهةٌ ، ولا تلتصقُ بهم لوثةٌ ، تعلمُ أنَّ اللهَ سيبرئُها ، ويبعدُ كلَّ ظنَّةٍ وتهمةٍ عن ساحةِ رسولِ الله ﷺ ، ولكنها لم تكن تظنُّ أنَّ اللهَ مُنزلٌ في شأنها وخياً يُتلى ، ويجعله كلمةً باقيةً في أعقابِ هذه الأُمَّةِ ، ولكنها ما تلبَّثت طويلاً أن أنزلَ اللهُ على رسوله في شأنها القرآنَ ، وأنزلَ براءتها من فوقِ سبعِ سمواتٍ ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور : ١١ - ١٢] .

وبذلك انطفأت نارُ الفتنةِ ، وانحسمتْ مادةُ الفسادِ ، وخُزيَ الشيطانُ ، وكأنَّ لم يكنْ شيءٌ ، فتشاغلَ المسلمونَ بما أمرهم اللهُ بهِ ورسولُهُ ، وبما يعوُدُ عليهم وعلى الإنسانيةِ بالخيرِ والسعادةِ^(١) .

(١) القصة مقتبسةٌ من سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٢٨٩ - ٣٠٢ ، وجاءت قصة الإفك من حديث عائشة الذي رواه البخاري [في كتاب المغازي ، باب حديث الإفك ، برقم (٤١٤١) ، ومسلم في كتاب التوبة ، باب في حديث الإفك ... ، برقم (٢٧٧٠) ، والترمذي في أبواب تفسير القرآن ، تفسير سورة النور ، برقم (٣١٨٠) وأحمد في المسند [٥٩/٦] .

صَلَحُ الْحَيَّةِ ذُو الْقَعْدَةِ سَكَّةَ سِتِّ مِنَ الْهِجْرَةِ

رؤيا رسول الله ﷺ وتهيؤ المسلمين لدخول مكة :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ رَأَى فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ دَخَلَ مَكَّةَ ، وَطَافَ بِالْبَيْتِ - وَذَلِكَ فِي غَيْرِ تَحْدِيدٍ لِلزَّمَانِ ، وَتَعْيِينَ لِلشَّهْرِ وَالْعَامِ ^(١) - فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ ، فَاسْتَبَشَرُوا بِهِ ، وَفَرَحُوا فَرَحًا عَظِيمًا ، وَقَدْ طَالَ عَهْدُهُمْ بِمَكَّةَ وَالْكَعْبَةِ الَّتِي رَضَعُوا لَبَانَ حَبَّهَا ، وَدَانُوا بِتَعْظِيمِهَا ، وَمَا زَادَهُمُ الْإِسْلَامُ إِلَّا ارْتِبَاطًا بِهَا وَشَوْقًا إِلَيْهَا ، وَقَدْ تَأَقَّتْ نَفُوسُهُمْ إِلَى الطَّوَافِ حَوْلَهَا ، وَتَطَلَّعَتْ إِلَيْهِ تَطَلُّعًا شَدِيدًا .

وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ أَشَدَّهُمْ حَنِينًا إِلَى مَكَّةَ ، فَقَدْ وُلِدُوا وَنَشُؤُوا فِيهَا وَأَحْبَبُّهَا حَبًّا شَدِيدًا ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ ، لَمْ يَشْكُوا أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا تَتَفَسَّرُ هَذَا الْعَامَ ، وَقَدْ صَادَفَ كُلَّ ذَلِكَ رَغْبَةً شَدِيدَةً فِي نَفْسِهِمْ ، وَأَثَارَ كَامِنِ الشَّوْقِ وَدَفِينِ الْحُبِّ فَتَهَيَّؤُوا لِلخُرُوجِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ إِلَّا نَادِرٌ .

(١) راجع سورة الفتح ٢٧ ، واقرأ تفسيرها في تفسير ابن كثير : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾ [الفتح : ٢٧] . إلخ .

إلى مكة بعد عهد طويل :

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ سِتٍّ مُعْتَمِرًا - لَا يَرِيدُ حَرْبًا - إِلَى الْحَدِيبَةِ وَمَعَهُ أَلْفٌ وَخَمْسُمِئَةٌ ، وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ ، وَأَحْرَمَ بِالْعِمْرَةِ لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ إِنَّمَا خَرَجَ زَائِرًا لِلْبَيْتِ ، مُعَظِّمًا لَهُ^(١) .

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خِرَاشَ الْخُزَاعِيِّ عَيْنًا لَهُ مِنْ خُزَاعَةَ ، يَخْبِرُهُ عَنْ قَرِيشٍ ، حَتَّى إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْ « عُسْفَانَ »^(٢) أَتَاهُ عَيْنُهُ ، فَقَالَ : إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤْيٍ قَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ^(٣) وَجَمَعُوا لَكَ جَمُوعًا ، وَهُمْ مُقَاتِلُونَ وَصَادُونَ عَنْ الْبَيْتِ ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا ، بَرَكْتَ رَاحِلَتُهُ ، فَقَالُوا : خَلَّتِ^(٤) الْقَصْوَاءُ^(٥) ، خَلَّتِ الْقَصْوَاءُ ، فَقَالَ : « مَا خَلَّتِ الْقَصْوَاءُ ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخَلْقٍ ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ »^(٦) ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خَطَةً يَعْظُمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ ، وَيَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَةَ الرَّحِمِ ، إِلَّا أُعْطِيتُهُمْ إِيَّاهَا ، ثُمَّ زَجَرَهَا ، فَوَثِبَتْ بِهِ ، فَعَدَلَ ، حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحَدِيبَةِ ، عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ ، وَشَكُّوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَطَشَ ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ ، فَمَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرَّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ^(٧) .

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٨٠ ، وابن هشام : ج ٢ ، ص ٣٠٨ .

(٢) موضع بين مكة والمدينة .

(٣) الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة .

(٤) خلا : كفتح ، خلوء أي لم يبرح مكانه .

(٥) اسم ناقة رسول الله ﷺ [والقَصْوَاء : الناقة التي قُطِعَ طرفَ أذنها ، ولم تكن ناقة النبي ﷺ قَصْوَاء ، وإنما كان هذا لقباً لها] .

(٦) إشارة إلى فيل أبرهة الذي حبسه الله عن الدخول في مكة .

(٧) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٨١ .

فزِعَ قريش من دخول المسلمين في مكة :

وفزعَ قريش لنزول رسول الله ﷺ عليهم ، فأحبَّ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه ، فدعا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ليعثه إليهم ، فقال : يا رسول الله ! ليس بمكة أحد من بني عدي بن كعب يغضب لي إن أوديت ، فأرسل عثمان بن عفان ، فإنَّ عشيرته بها ، وإنَّه مبلغ ما أردت ، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان وأرسله إلى قريش ، وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال وإنما جئنا عمّاراً ، وادعهم إلى الإسلام ، وأمره أن يأتي رجلاً بمكة مؤمنين ونساءً مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويبشّرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عزَّ وجلَّ مظهر دينه حتى لا يستخفى فيها بالإيمان^(١) .

امتحان الحبِّ والوفاء :

وانطلقَ عثمانُ حتَّى جاء مكة ، وأتى أبا سفيان ، وعظماً قريش ، وبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به .

وقالوا حين فرغَ عن رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطوفَ البيتَ فطُف .

فقال : ما كنتُ لأفعل حتَّى يطوفَ به رسول الله ﷺ^(٢) .

وقال عثمان حين رجع ، وقال له المسلمون : أشتيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ؟ : « بئس ما ظننتم بي والذي نفسي بيده ، لو مكثتُ بها سنة ، ورسول الله ﷺ مقيمٌ بالحديبية ، ما طفتُ بها حتَّى يطوفَ بها

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص : ٣٨١ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٣١٥ .

رسول الله ﷺ ، وَلَقَدْ دَعَتْنِي قُرَيْشٌ إِلَى الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ فَأَبَيْتُ » (١) .

بيعة الرضوان :

بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ عَثْمَانَ قَدْ قُتِلَ ، فَدَعَا إِلَى الْبَيْعَةِ ، فَسَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَبَايَعُوهُ إِلَّا يَفْرُوًا ، وَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِ نَفْسِهِ ، وَقَالَ : هَذِهِ عَنْ عَثْمَانَ (٢) ، فَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ تَحْتَ شَجَرَةِ سَمُرَةٍ (٣) فِي الْحَدِيثِ الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَنْهَا :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨] .

وساطات ومفاوضات :

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيِّ فِي رَجَالٍ مِنْ خَزَاعَةَ ، فَكَلَّمَهُ ، وَسَأَلَهُ مَا الَّذِي جَاءَ بِهِ ؟

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنَّا لَمْ نَجِءْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنْ جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ ، وَأَنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكَتْهُمْ الْحَرْبُ ، وَأَضْرَبَتْ بِهِمْ ، فَإِنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ ، وَيَخْلُؤَ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ ، فَعَلُوا ، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا ، وَإِنْ أَبَوْا إِلَّا الْقِتَالَ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا قَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي حَتَّى تَنْفَرَدَ سَالِفَتِي (٤) ، أَوْ لِيَنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ .

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٨٢ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٣٨٢ ، [انظر حادثة بيعة رضوان فيما أخرجه مسلم من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه ، في كتاب الإمارة ، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عنه إدارة القتال ... ، برقم (١٨٥٨)] .

(٣) اليسمر : الطلح .

(٤) السالفة : صفحة العنق عند معلق القرط .

فلَمَّا بَلَغَهُمْ بُدَيْلٌ مَا قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ : إِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رَشِيدٍ ، فَاقْبَلُوهَا ، وَدَعُونِي آتِهِ ، فَقَالُوا : آتِهِ ، وَجَاءَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ ، فَكَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَعَلَ عُرْوَةُ يَرْمُقُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَا تَنَخَّمَ نُخَامَةً^(١) إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَذَلِكَ بِهَا جِلْدُهُ ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ ، وَإِذَا تَوَضَّأُوا كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ ، وَمَا يَحْدُثُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ : أَيُّ قَوْمٍ ! وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ : عَلَى كَسْرَى وَقَيْصَرَ وَالنَّجَاشِيِّ ، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا يَعِظُّهُ أَصْحَابُهُ مَا يَعِظُّ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا ، وَوَصَفَ لَهُمْ مَا رَأَوْهُ ، وَقَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رَشِيدٍ فَاقْبَلُوهَا^(٢) .

معاهدةُ صلحٍ :

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ ، وَرَجُلٌ اسْمُهُ مِكَرَزُ بْنُ حَفْصٍ ، وَأَخْبَرَا قُرَيْشًا بِمَا رَأَيَا ، ثُمَّ بَعَثَتْ قُرَيْشٌ سَهِيلَ بْنَ عَمْرِو ، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقْبَلًا قَالَ : أَرَادَ الْقَوْمُ الصَّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ ، وَقَالَ : اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا^(٣) .

حكمةٌ وحلمٌ وتنازلٌ :

فَدَعَا الْكَاتِبَ - وَهُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - فَقَالَ : « اكْتُبْ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

(١) [النَّخَامَةُ : الْبَرْقَةُ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ أَقْصَى الْحَلْقِ] .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٨٢ .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٣١٦ ، وأخرجه البخاري في صحيحه باختلاف يسير ؛ راجع كتاب المغازي ، باب عمرة القضاء [برقم (٤١٧٨) و(٤١٧٩)] .

فَقَالَ سَهِيلٌ : أَمَّا « الرَّحْمَنُ » فوالله ما ندري ما هو ، ولكنْ اكتب :
 « بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ » كما كُنْتَ تكتبُ ، فقالَ المسلمونَ : والله لا نكتبُها ، إلَّا
 « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ : « اكتبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ » .

ثُمَّ قَالَ : « اكتبْ هذا ما قاضَى عليه مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » فقالَ سَهِيلٌ : والله
 لو كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ما صدَدْنَاكَ عن البيتِ ، ولا قاتَلْنَاكَ ، ولكنْ
 اكتبْ : مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي ، اكتبْ مُحَمَّدُ بْنُ
 عَبْدِ اللَّهِ » ، فَأَمَرَ عَلِيًّا أَنْ يَمْحُوهَا ، فقالَ عَلِيٌّ : لا والله لا أمحوها ، فقالَ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَرِنِي مكانَها » فَأَرَاهُ مكانَها ، فَمَحَاهَا (١) .

صَلَحُ وَامْتِحَانُ :

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « عَلَى أَنْ تُخْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ ، فنطوفَ بِهِ » .
 فقالَ سَهِيلٌ : والله لا تتحدَّثُ العربُ أَتَا أَخِذْنَا ضَغْطَةً ، ولكنْ ذلك من
 العامِ المقبلِ ، فكتبَ .

قَالَ سَهِيلٌ : وعلى أَلَّا يَأْتِيكَ مَنَّا رَجُلٌ ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ
 إِلَيْنَا ، فقالَ المسلمونَ : سبحانَ الله ! كيفَ يُرَدُّ إلى المشركينَ وقد جاءَ
 مسلماً ؟!

وبينما هم كذلك إذ جاءَ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سَهِيلٍ ، يرسفُ في قيودِهِ ، قدْ

(١) أخرجه مسلم ، في كتاب الجهاد والسير ، باب صلح الحديبية [برقم (١٧٨٣) وابن أبي
 شيبة في المصنّف (٣٨٣/٧) ، وابن حبان في الصحيح (٢١٢/١١) برقم (٤٨٦٩) والبيهقي
 في السنن (٢٢٠/٩) برقم (١٨٥٨٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه] .

خرجَ من أسفل مكة ، حتَّى رمى بنفسه بينَ ظهورِ المسلمين .
 قال سهيلٌ : هذا يا محمَّدُ أولُ ما أقاضيكَ عليه على أن تردَّه .
 قال النَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّا لَمْ نقضِ الكتابَ بعدُ » .
 قالَ : فواللهِ إذا لا أقاضيكَ على شيءٍ أبداً .
 قالَ النَّبِيُّ ﷺ : « فأجزه لي » .
 قالَ : ما أنا بمجيزه لك .
 قالَ : « بلى ، فافعلْ » .
 قالَ : ما أنا بفاعِلٍ .

قالَ أبو جندَل : يا معشرَ المسلمين ! أرَدُّ إلى المشركينَ وقد جئتُ مسلماً ؟ ألا ترونَ ما لقيتُ ؟ وكانَ قد عُدِّبَ في الله عذاباً شديداً^(١) ، وردَّه رسولُ الله ﷺ .

وقدِ اصطلَحَ الفريقانَ على وضعِ الحربِ عن الناسِ عشرَ سنينَ ، يأمنُ فيهنَّ الناسُ ، ويكفُّ بعضهم عن بعضٍ ، وعلى أَنَّهُ من أتى محمَّداً من قريشٍ بغيرِ إذنٍ وليِّه ردَّه عليهم ، ومن جاءَ قريشاً ممنَ معَ محمدٍ ، لم يردوه عليه ، وأنَّهُ من أحبَّ أن يدخلَ في عقدِ محمدٍ وعهدِهِ دخلَ فيه ، ومن أحبَّ أن يدخلَ في عقدِ قريشٍ وعهدِهِم دخلَ فيه^(٢) .

(١) زاد المعاد: ج ١ ، ص ٣٨٣ ، وأخرجه البخاري في الجامع الصحيح في كتاب الشروط ، باب « الشروط في الجهاد » [برقم (٢٧٣١) و(٢٧٣٢) ، وأحمد في المسند (٣٢٨-٣٢٩) ، وعبد الرزاق في المصنَّف برقم (٩٧٣٠) ، وأبو يعلى في المسند برقم (٤٢) من حديث مروان بن حكم ، والمسور بن مخرمة] .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٣١٧-٣١٨ .

ابتلاء المسلمين في الصلح والعودة إلى المدينة :

فلَمَّا رَأَى الْمُسْلِمُونَ مَا رَأَوْهُ مِنَ الصَّلْحِ وَالرَّجُوعِ ، وَمَا تَحَمَّلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَفْسِهِ ، دَخَلَ عَلَى النَّاسِ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، حَتَّى كَادُوا يَهْلِكُونَ ، وَوَقَعَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِمْ كُلِّ مَوْقِعٍ ، حَتَّى جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَقَالَ : أَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحْدُثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ : بَلَى ! فَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمَطُوفٌ بِهِ ^(١) .

فَلَمَّا فَرَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الصَّلْحِ ، قَامَ إِلَى هَدْيِهِ ، فَنَحَرَهُ ، ثُمَّ جَلَسَ فَحَلَقَ رَأْسَهُ ، وَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، لِأَنَّهُمْ خَرَجُوا وَهُمْ لَا يَشْكُونَ فِي دُخُولِ مَكَّةَ وَالْعِمْرَةِ ، وَلَكِنْ لَمَّا رَأَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ نَحَرَ وَحَلَقَ ، تَوَائِبُوا يَنْحَرُونَ وَيَحْلِقُونَ ^(٢) .

صلح مهين أم فتح مبین ؟

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَفِي مَرْجِعِهِ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۚ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ۚ وَبِئْرَ نَعْمَتِهِ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۚ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح : ١ - ٣] .

قَالَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : أَوْ فَتَحَ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، [في كتاب الجزية والموادعة ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، برقم (٣١٨٢) ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب صلح الحديبية ، برقم (١٧٨٥) ، وأحمد (٤٨٦/٣) من حديث سهل بن حنيف] .

(٢) راجع للتفصيل « زاد المعاد » ج ١ ، ص ٣٨٣ .

قَالَ : « نَعَمْ » ! (١) .

عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم :

ولَمَّا رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ اسْمُهُ أَبُو بَصِيرٍ عَتَبَةُ بْنُ أُسَيْدٍ ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلِبِهِ رَجُلَيْنِ ، وَقَالُوا : الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا ، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ ، فَخَرَجَا بِهِ ، فَخَرَجَ هَارِباً مِنْهُمْ ، حَتَّى أَتَى سَيْفَ الْبَحْرِ ، وَتَفَلَّتَ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلُ بْنُ سَهِيلٍ ، فَلَحَقَ بِأَبِي بَصِيرٍ ، فَلَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لِحَقِّ بِأَبِي بَصِيرٍ ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عَصَابَةٌ ، لَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ لِقُرَيْشٍ خَرَجَتْ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا ، فَقَتَلُوهُمْ ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تَنَاشِدُهُ اللَّهَ وَالرَّحِمَ لَمَّا أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ، فَمَنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ فَهُوَ آمِنٌ (٢) .

كَيْفَ تَحَوَّلَ الصَّلْحُ إِلَى الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ ؟

وَدَلَّتِ الْحَوَادِثُ الْأَخِيرَةُ عَلَى أَنَّ صَلْحَ الْحَدِيبَةِ الَّذِي تَنَازَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِقَبُولِ كُلِّ مَا أُلْحِثَ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ ، وَرَأَوْا فِيهِ انْتِصَاراً لَهُمْ وَمَكْسَباً ، وَتَحَمُّلَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي قُوَّةِ إِيْمَانِهِمْ ، وَشِدَّةِ طَاعَتِهِمْ لِلرَّسُولِ ، كَانَ فَتْحُ بَابٍ جَدِيدٍ لانتصار الإسلام ، وانتشاره في جزيرة العربِ بِسُرْعَةٍ لَمْ تُسَبِّقْ ، وَكَانَ بَاباً إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ ، وَدَعْوَةِ مُلُوكِ الْعَالَمِ كَقِيصَرَ وَكُسْرَى وَالْمَقُوقِسِ وَالنَّجَاشِيِّ وَأَمْرَاءِ الْعَرَبِ ، وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ :

(١) راجع صحيح مسلم ، كتاب الجهاد ، باب صلح الحديبية ، [رقم الحديث (١٧٨٦) ، والترمذي ، أبواب تفسير القرآن ، تفسير سورة الفتح ، رقم (٣٢٦٣) حديث أنس بن مالك رضي الله عنه] .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٨٤ .

﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

كان من مكاسب هذا الصلح اعتراف قريش بمكانة المسلمين ، وتسليمهم لهم كفريق قوي كريم ، تبرم معه المعاهدات ، ويتفق معه على مفاوضات ، ثم كان من أفضل ثمار هذا الصلح الهدنة ، التي استراح فيها المسلمون عن الحروب التي لا أول لها ولا آخر ، والتي شغلتهم واستهلكت قوتهم ، فاستطاعوا في هذه الفترة السلمية ، أن يقوموا بدعوة الإسلام ، في ظل الأمن والسلام ، وفي جو من الهدوء والسكينة .

وأتاح هذا الصلح الفرصة للمسلمين والمشركين على السواء لأن يختلطوا بعضهم ببعض ، فطلع المشركون على محاسن الإسلام ، وما صنع من عجائب ومعجزات في تهذيب الأخلاق ، وتزكية النفوس ، وتطهير العقول والقلوب ، من ألوان الشرك والوثنية ، والعداء والخصومة ، والضراوة بالدماء ، والولوع بالحرب في بني جلدتهم الذين لا يختلفون عنهم في نسب وبيئة ولغة .

ولم يخف عليهم - رغم عنادهم وجحودهم - أن تعاليم الإسلام وحدها وصحبة النبي ﷺ هي التي ميزتهم عن أقرانهم وبني أعمامهم ، وجعلت منهم أمة غير أمة ، ونمطاً من أنماط البشرية غير النمط القديم ، فكان في ذلك باعث قوي على تفهم الإسلام والاعتراف بتأثيره .

فلم يمض على هذا الصلح عام كامل حتى دخل في الإسلام من العرب أكثر من الذين دخلوا فيه خلال خمس عشرة سنة - ومكة لم تفتح بعد - .

يقول الإمام ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) :

« فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس ،

وكلّم الناس بعضهم بعضاً ، والتّقوا فتفاوضوا في الحديث ، والمنازعة ، فلم يُكلّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر»^(١) .

قال ابن هشام : « والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ قد خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمئة ، في قول جابر بن عبد الله ، ثم خرج في عام فتح مكة بعد ذلك بستين في عشرة آلاف »^(٢) .

واستفاد بهذه الهدنة المستضعفون في مكة ، وقد أسلم على يد أبي جندل عددٌ كبيرٌ من أبناء قريش في مكة ، وضاق قريش ذرعاً بهذا الداعي إلى الإسلام ، وانتشار الإسلام في مكة .

ولحقوا بأبي بصير ، وصار مركز دعوة وقوة للإسلام ، وتكلّمت في شأنهم قريش ، وسألت رسول الله ﷺ أن يلحقهم به في المدينة ، ففعل ، ونجوا من الضيق الذي كانوا فيه بمكة ، وكان كل ذلك من حسنات هذا الصلح وفوائد هذه الهدنة^(٣) .

وكان من فوائد الموقف المسالم الذي وقفه رسول الله ﷺ وما بدا منه من زهد في الحرب ، ورغبة في الصلح ، وحلم وأناة أن تغيّرت نظرة القبائل العربية التي لم تدخل في الإسلام بعد ، إلى الدين الجديد ، والداعي إليه ، ونشأ في نفوسهم إجلال للإسلام وتقدير له لم يكن من قبل ، وكانت فائدة دعوة لا يُستهان بقيمتها وإن لم تكن مقصودة ، سعى إليها الرسول ﷺ والمسلمون .

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٢) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٣) راجع « زاد المعاد » : ج ١ ، ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

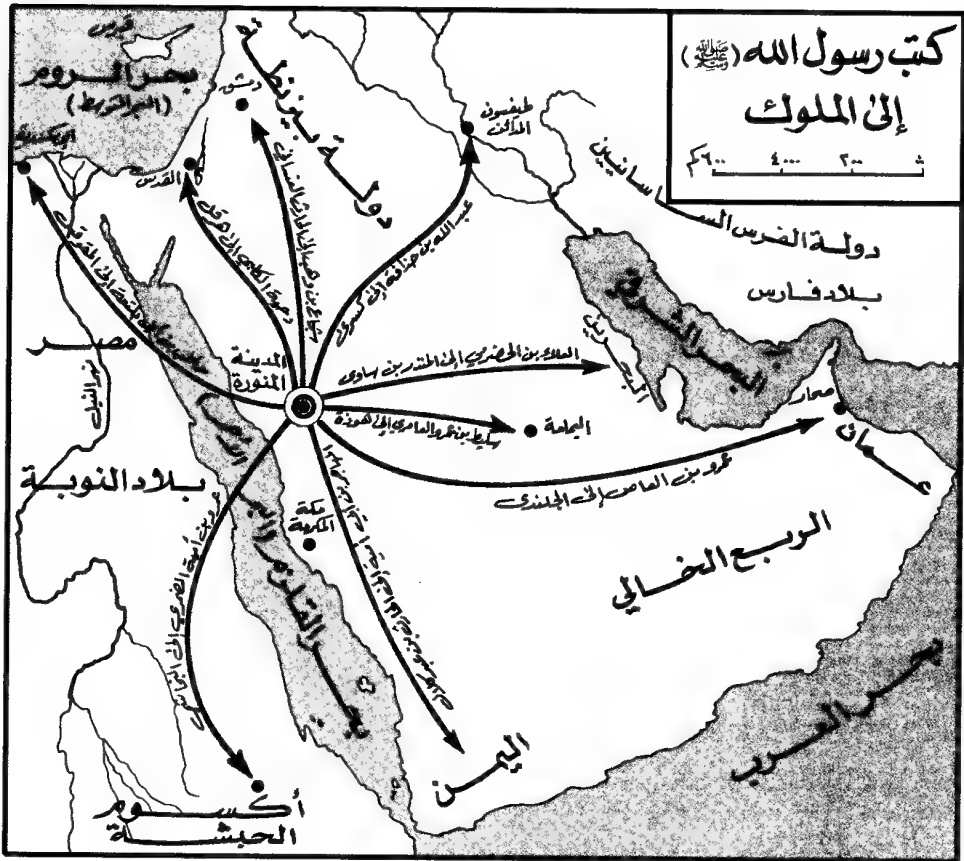
إسلامُ خالدِ بنِ الوليدِ وعمرِ بنِ العاصِ :

وكانَ صلحُ الحديبية فتحاً للقلوبِ ، دخلَ في الإسلامِ خالدُ بنُ الوليدِ الذي كانَ قائدَ الفرسانِ لقُريشٍ ، وبطلَ معاركٍ عظيمةٍ ، وقد سَمَّاهُ رسولُ الله ﷺ « سيف الله » وهو الذي أبلى في الله بلاءً حسناً ، وفتحَ الله على يده الشامَ .

ودخلَ عمرو بنُ العاصِ - أحدُ كبارِ القادةِ والأمراءِ وفتحَ مصرَ من بعدُ - وقد قدِمَا المدينةَ بعد صلحِ الحديبية ، فأسلمَا وحَسَّنَ إسلامُهُما^(١) .

(١) راجع «سيرة ابن هشام» ج ٢ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ [انظر قصة إسلامهما في مسند الإمام أحمد (١٩٨/٤ - ١٩٩) ، وفي «المستدرک» للحاكم (٤٥٦/٣)] .

خريطة كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك



دَعْوَةُ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ إِلَى الْإِسْلَامِ أَوَّلُ سَنَةِ سِتٍّ وَأَوَّلُ سَنَةِ أَرْبَعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ

دعوةُ حكمةٍ :

ولَمَّا تَمَّ الصِّلْحُ ، وَهَدَأَتِ الْأَحْوَالُ ، وَجَدَتِ الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مَتَنَفِّسًا وَمَجَالًا لِلتَّقَدُّمِ ، فَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كُتُبًا إِلَى مُلُوكِ الْعَالَمِ وَأُمَرَاءِ الْعَرَبِ ، يَدْعُوهُمْ فِيهَا إِلَى الْإِسْلَامِ^(١) وَإِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ^(٢) ، وَاهْتَمَّ أَهْتِمَامًا كَبِيرًا ، فَاخْتَارَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رَسُولًا يَلِيقُ بِهِ ، وَيَعْرِفُ لُغَتَهُ وَبِلَادَهُ^(٣) .

(١) [دعوة النبي ﷺ للملوك والأمراء إلى الإسلام ، أخرجه مسلم في كتاب الجهاد ، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الإسلام ، برقم (١٧٧٤) ، والترمذي في أبواب الاستئذان ، باب في مكاتبة المشركين برقم (٢٧١٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه] .

(٢) نَرَجِّحُ أَنَّ هَذِهِ الرِّسَالَتِ وَجَّهَتْ فِي شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ سِتٍّ بَعْدَ صِلْحِ الْحَدِيبِيَّةِ ، كَمَا قَالَ الْوَاقِدِيُّ وَهُوَ يُوَافِقُ ٦٢٧ م ، فَإِنَّ فِي مَقْدَمَةِ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ الْإِمْبَرَاطُورِ الْإِيرَانِيِّ « كَسْرَى أَبَرْوِيز » وَمَنْ الْمَقْرَّرُ أَنَّهُ مَاتَ فِي مَارَسَ سَنَةَ ٦٢٨ م ، وَمَنْ هُنَا يَقَرَّرُ أَنَّ صِلْحَ الْحَدِيبِيَّةِ فِي أَوَّلِ سَنَةِ ٦٢٧ م ، وَكَانَ مِنَ الصَّعْبِ وَصُولَ الرِّسَالَةِ الْمَوْجَّهَةِ إِلَى هِرَقْلَ كَذَلِكَ ، إِذَا كَانَتْ وَجَّهَتْ فِي سَنَةِ ٦٢٨ م ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ تَوَجَّهَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ إِلَى أَرْمِينِيَا . (رَاجِعْ « فَتْحُ الْعَرَبِ لِمِصْرَ » لِأَلْفَرْدُ بَتْلَر ، ص ١٣٩ - ١٤٠) .

(٣) يُشِيرُ كَلَامُ ابْنِ سَعْدٍ فِي « الطَّبَقَاتِ » ج ٢ ، ص ٢٣ ، وَالسِّيُوطِيُّ فِي « الْخَصَائِصِ الْكُبْرَى » =

وَقِيلَ لَهُ : إِنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا بِخَاتَمٍ ، فَصَاغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَاتَمًا حَلَقْتُهُ فَضَةً ، وَنَقَشَ فِيهِ (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) (١) .

وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْكُتُبُ عَلَى أَنَّ هَذَا الدِّينَ لَيْسَ دِينَ الْعَرَبِ ، أَوْ دِينَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ دِينُ الْبَشَرِيَّةِ وَدِينُ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَكَانَ إِنْذَارًا لِلسُّلْطَاتِ الْحَاكِمَةِ خَارِجَ الْجَزِيرَةِ الْمَالِكَةِ لِلْحَوْلِ وَالطَّوْلِ ، وَالْحَاكِمَةِ لِأَوْسَعِ رِقَاعٍ رَاقِيَةٍ مَتَمَدَّنَةٍ ، بِأَنَّهَا مُهَدَّدَةٌ بِالْانْقِرَاضِ وَالزَّوَالِ ، إِذَا لَمْ تَسْتَجِبْ لِلدَّعْوَةِ أَوْ تَسْمَحَ - عَلَى الْأَقْلَى - مِنْ تَمْكِينِ رَعَايَاهَا لِلإِطْلَاعِ عَلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ ، وَالإِسْتِمَاعِ إِلَيْهَا ، وَتَقْرِيرِ مَصِيرِهَا فِي شَأْنِهَا .

= ج ٢ ، ص ١١ : إِلَى أَنَّ ذَلِكَ كَانَ عَلَى سَبِيلِ الْمَعْجِزَةِ ، فَجَاءَ فِيمَا سَاقَاهُ مِنَ الرِّوَايَةِ : « ... فَاصْبَحَ كُلُّ وَاحِدٍ يَتَكَلَّمُ لُغَةَ الْبِلَادِ الَّتِي أُرْسِلَ إِلَيْهَا » . . .
وَالْمُؤَلَّفُ حِينَ لَا يَسْتَبْعَدُ وَقُوعَ الْمَعْجِزَةِ ، فَسِيرَةُ الرَّسُولِ ﷺ وَسِيرَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ مَلِيَّةٌ بِالْمَعْجِزَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، وَإِنْكَارُهَا مِنَ الْمَكَابِرَةِ ، وَلَكِنَّهُ يَرْجِعُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مَبْنِيًّا عَلَى الْحِكْمَةِ وَحُسْنِ الْإِخْتِيَارِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمْ يَكُنْ وَجُودُ مِنْ يُحَسِّنُ اللُّغَةَ الرُّومِيَّةَ وَاللُّغَةَ الْفَارْسِيَّةَ ، وَلُغَةَ الْأَقْبَاطِ فِي مِصْرَ ، وَلُغَةَ أَهْلِ الْحَبَشَةِ ، غَرِيبًا لِكثْرَةِ اخْتِلَاطِ الْعَرَبِ بِهِذِهِ الْأُمَمِ الْأَرْبَعِ وَكَثْرَةِ رِحَالَتِهِمْ التِّجَارِيَّةِ إِلَى هَذِهِ الْأَقْطَارِ وَتَنْقُلَاتِهِمْ فِيهَا ، وَكَانَتِ الْقَضِيَّةُ مَحْدُودَةً فِي هَذِهِ اللُّغَاتِ الْأَرْبَعِ ، إِذْ كَانَ لُغَةُ أَمْرَاءِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَرُؤَسَاءِ الْقَبَائِلِ الَّذِينَ كَتَبَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كُتُبَهُ ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ ، وَفِي اخْتِيَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دِخْلَ الْكَلْبِيِّ لِحَمَلِ رِسَالَتِهِ إِلَى هِرَقْلَ قَيْصَرَ الرُّومِ ، مَعْنَى لَطِيفٍ يُؤَيِّدُ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنْ حَسَنِ الْإِخْتِيَارِ ، وَمِرَاعَاةِ الْحِكْمَةِ ، وَقَدْ كَانَ شَابًا جَمِيلَ الصُّورَةِ ، ذَكِيًّا قَطْنًا ، صَادِقَ الْإِيمَانِ ، وَقَدْ قِيلَ فِي وَصْفِهِ أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يَفْدِي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي صُورَتِهِ ، وَكَانَ أَجْدَرَ بِحَمَلِ هَذَا الْكِتَابِ إِلَى قَيْصَرَ الرُّومِ ، وَإِلَى بِلَادِ الشَّامِ مِنْ غَيْرِهِ ، كَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْبِلَادُ وَأَهْلُهَا أَلْيَقَ بِهِ مِنْ غَيْرِهِمْ .

- (١) [أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْجِهَادِ ، بَابِ دَعْوَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى (٢٩٣٩) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٧١٩) ، وَأَبُو دَاوُدَ فِي أَوَّلِ كِتَابِ الْخَاتَمِ ، بَابِ مَا جَاءَ فِي اتِّخَاذِ الْخَاتَمِ ، بِرَقْمِ (٤٢١٤) وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ فِي « شُعَبِ الْإِيمَانِ » (١٩٦/٥) ، وَابْنُ حَبَانَ فِي صَحِيحِهِ (٣٠٣/١٤) بِرَقْمِ (٦٣٩٢) . وَغَيْرُهُمْ مِنْ حَدِيثِ أَنْسَ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

الكتب التي أرسلت إلى الملوك :

وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ الْإِمْبَرَاطُورُ الرُّومِيُّ « هِرَقْلُ » وَإِمْبَرَاطُورُ فَارِسٍ « كِسْرَى أَبَرْوِيز » ، وَالتَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبْشَةِ ، وَالْمُقَوْقِسُ مَلِكُ مِصْرَ .

وهنا نصوص الكتب التي أرسلت إلى هؤلاء الملوك :

قَدْ أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِتَابَهُ إِلَى « هِرَقْلَ » مَعَ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ ، وَقَدْ دَفَعَهُ إِلَى عَظِيمٍ « بُصْرَى » فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ ، وَهَذَا نَصُّ الْكِتَابِ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، إِلَى « هِرَقْلَ » عَظِيمِ الرُّومِ ،
سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ ، أَسْلَمَ تَسْلَمَ ،
يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ
﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا
نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا
أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ^(١) [آل عمران : ٦٤] .

وجاء في كتابه ﷺ إلى كسرى أبرويز :

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، برقم (٧) ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب : كتب النبي ﷺ إلى هرقل ملك الشام يدعوه إلى الإسلام ، برقم (١٧٧٣) ، والترمذي في أبواب الاستئذان ، باب ما جاء كيف يكتب إلى أهل الشرك ، برقم (٢٧١٧) ، وأبو داود في كتاب الأدب ، باب كيف يكتب إلى الذمي ، برقم (٥١٣٦) ، وأحمد في المسند (١/٢٦٣) من حديث ابن عباس عن أبي سفيان] .

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وأنني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً ، أسلم تسلم ، فإن آيت فعليك إثم المجوس^(١) .

وكتب إلى النجاشي ملك الحبشة :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

من محمد رسول الله ، إلى النجاشي عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع الهدى ، أمّا بعد ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحسنة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإنني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فإنني رسول الله ، وإنني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت فاقبل نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى^(٢) .

وكتب إلى المقوقس عظيم القبط :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

من محمد عبد الله ورسوله إلى « المقوقس » عظيم القبط ،

(١) الطبري: ج ٣، ص ٩٠، [وأخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر ، برقم (٤٤٢٤) ، وأحمد (٣٠٥/١-٢٤٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما] .

(٢) طبقات ابن سعد : ج ٣ ، ص ١٥ .

سلامٌ على من اتبع الهدى .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ ، أَسْلَمْتُ تَسْلَمُ ، وَأَسْلَمْتُ
يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ أَهْلِ الْقَبْطِ ،
﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا
نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا
أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ^(١) [آل عمران : ٦٤] .

(١) « المواهب اللدنية » ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ . وقد اكتشفت حتى الآن خمسة رقوق ،
فقد عثر المستشرق الفرنسي بارتليمي (Barthelemy) في أحد الأديرة بناحية « أخميم » من
صعيد مصر على رق جلدي قديم ، وذلك سنة ١٨٥٠ م اتضح بالدراسة أنه رسالة النبي ﷺ
إلى المقوقس عظيم القبط في مصر . وأسهم المسيو بلين (Belin) في تحقيق الرسالة ،
ومقارنة نصها بما ورد في الأصول ، ثم أعلن بعد ذلك عن الثقة في أصالة المخطوط ،
ونشرت عن ذلك دراسة في المجلة الآسيوية سنة ١٨٥٤ م ، ثم في مجلة الهلال المصرية في
نوفمبر سنة ١٩٠٤ م .

كذلك اكتشف مخطوطٌ جلديٌّ يحتمل أن يكون أصل الرسالة النبوية إلى منذر بن ساوى
حاكم البحرين ، نشر الدكتور بوش (Busch) الألماني حوله مقالاً في مجلة المستشرقين
الألمان .

وفي سنة ١٩٤٠ م ، نشر المستشرق الإنكليزي دنلوب (Dunlop) مقالاً في مجلة الجمعية
الآسيوية الملكية أعلن فيه أنه تحصيل على رقٍ جلديٍّ يملكه تاجرٌ سوريٌّ ، يظنُّ أنه رسالة
النبي ﷺ إلى نجاشي الحبشة ، وذكر أن المالك السوري تحصيل على المخطوط من قسيس
أنثيوبي جاء إلى دمشق وقت الحرب العالمية الثانية .

وفي مايو ١٩٦٣ م نشر الدكتور صلاح الدين المنجد مقالاً في جريدة « الحياة » ببيروت ،
يعلن فيه الكشف عن رسالة النبي ﷺ إلى كسرى ، وذكر أنَّ الأصل الجلدي لهذه الرسالة
محفوظ لدى الأستاذ هنري فرعون أحد الوزراء اللبنانيين السابقين ، وهو مخطوطٌ بين
اللوحيين الزجاجيين ، وفيه تمزيقٌ واضحٌ من أعلى الوسط يتجه إلى يمين الرسالة وإلى
أسفلها ، وقد خيَّط هذا التمزيق بمهارة للمحافظة على مظهر الرسالة .

(ملخصٌ من بحث الدراسات المتعلقة برسائل النبي ﷺ إلى الملوك في عصره » للدكتور
عز الدين إبراهيم) ، المقدم إلى مؤتمر السيرة ، المنعقد في الدوحة شهر محرم ١٤٠٠ هـ) .

اعتباراتٌ حكيمةٌ خاصةً بالملوك الذين وُجِّهَتْ إليهم هذه الرسائلُ :

ويلاحظُ القارئُ الذكيُّ فوارقَ دقيقةً مؤسَّسةً على حكمةِ الدعوةِ والرسالاتِ النبويَّةِ ، رُوِيَ فيها ما يمتازُ به هؤلاء الملوكُ في العقائدِ التي يدينونَ بها ، و « الخلفياتِ » التي يمتازونَ بها .

فلَمَّا كَانَ « هرقلُ » و « المقوقسُ » يدينانِ بالوهيةِ المسيحِ كلياً وجزئياً ، وكونُهُ ابنُ الله ، جاءتْ في الكتابينِ اللذينِ وُجِّها إليهما كلمةُ « عبدُ الله » مع اسمِ النبيِّ الكريمِ ﷺ صاحبِ هاتينِ الرِّسالتينِ ، فيبتدئُ الكتابانِ بعدَ التسميةِ بقوله : « مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ » ، وبقوله : « مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الْمُقَوْسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ » بخلافِ ما جاءَ في كتابهِ ﷺ إلى كسرى أبرويز ، فاكتفى بقوله : « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كَسْرَى عَظِيمِ فَارِسِ » .

وجاءَتْ كذلكِ آيَةُ : ﴿ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ تَعٰلَوْا اِلٰى كَلِمَةٍ سَوٰى بَيْنِنَا وَبَيْنَكُمْ اَلَّا نَعْبُدَ اِلَّا اِلٰهًا وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا اَرْبَابًا مِنْ دُوْنِ اِلٰهٍ فَاِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوْا اَشْهَدُوْا بِاَنَّا مُسْلِمُوْنَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] ، في هذينِ الكتابينِ ، وما

= أمَّا الكتاب الذي وُجِّهَ إلى الإمبراطور الروماني هرقل ، فقد كان محفوظاً في إسبانيا إلى القرن السابع الهجري ، وقد أشار إلى وجوده في عصره المحدث والمؤرخ الشهير العلامة الشَّهيلي من رجال القرن السادس الهجري .

وقد جاءَ في « إرشاد الساري » لشرح صحيح البخاري تأليف أبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني ، المتوفى سنة ٩٢٣ هـ ، (١ / ٨١) :

« وحكي أنَّ ملك الإفرنج في دولة الملك المنصور قلاوون الصالحي أخرج لسيف الدين قبيج صندوقاً مصفحاً بالذهب ، واستخرج منه مقلمةً من ذهب ، فأخرج منها كتاباً زالت أكثر حروفه ، فقال : هذا كتاب نبيكم إلى جدِّي قيصر ، مازلنا نتوارثه إلى الآن ، وأوصانا آبائنا أنَّه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزال الملكُ فينا ، فنحن نحفظه » .

جاءت في كتابه إلى كسرى أبرويز لأن الآية تُخاطب أهل الكتاب الذين دانوا بالوهمية المسيح ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ، وقد كان هرقلُ إمبراطور الدولة البيزنطية والمقوقس حاكم مصر قائدين سياسيين ، وزعيمين دينيين كبيرين للعالم المسيحي ، مع اختلافٍ يسير في الاعتقاد في المسيح هل له طبيعة أم طبيعتان ^(١) .

ولمّا كان كسرى أبرويز وقومُه يعبدون الشمس والنار ، ويدينون بوجود إلهين ، أحدهما يمثل الخير وهو يزدان ، والثاني يمثل الشر وهو أهرمن ، وكانوا بعيدين عن مفهوم النبوة والتصور الصحيح للرسالة السماوية ، جاءت في الكتاب الذي وُجه إلى الإمبراطور الإيراني عبارة : (وإني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً) .

من هم هؤلاء الملوك ؟

ولكي نشعر بأهمية هذه الرسائل التي وُجّهت إلى دُول وبلادٍ مختلفة ، وملوكها ، ومكانتها الصحيحة في التاريخ المعاصر ، ووقعها في القلوب والنفوس ، يجب أن نتعرّف بهؤلاء الأشخاص الأربعة : « هرقل » ، و « كسرى » ، و « النجاشي » ، و « المقوقس » ، وحجم الحكومات التي كانوا يحكمونها . فقد يتصور القارئ الذي لم يتسع وقته لدراسة التاريخ السياسي في القرن السابع المسيحي ، ولم تتوفر عنده معلومات عن هذه الممالك التي كان يحكمها هؤلاء الملوك ، أنها رسائل وُجّهت إلى أمراء ، أو

(١) راجع للتفصيل كتاب المؤلف : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟! » الباب الأول ، الفصل الأول ، ص (٧٨ - ٨٥) طبع دار ابن كثير بدمشق .

أَقْيَالٍ يَكْثُرُ عَدْدُهُمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، أَمَّا مَنْ عَرَفَ مَكَانَةَ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ فِي الْخَرِيطَةِ السِّيَاسِيَةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ ، وَاطَّلَعَ عَلَى تَارِيخِهِمْ وَسِيرَتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ حَوْلٍ وَطُولٍ ، وَسُطُورَةٍ وَرَهْبَةٍ ، عَرَفَ ضَخَامَةَ هَذَا الْعَمَلِ الَّذِي لَا يَقْدُمُ عَلَيْهِ إِلَّا نَبِيٌّ مَأْمُورٌ مِنَ اللَّهِ ، مَكْلَفٌ بِالدَّعْوَةِ ، بَعِيدٌ عَنْ كُلِّ ظُلٍّ مِنْ ظُلَالِ الْخَوْفِ وَالضَّعْفِ تَجَلَّى عَلَيْهِ مَلَكُوتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَتَرَأَى لَهُ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ دُمَى كُسِيَتْ حُلَلًا مَلُوكِيَّةً فَاخِرَةً ، أَوْ تَمَائِيلَ لَا رُوحَ فِيهَا وَلَا حَيَاةَ .

هَرَقْلُ الْأَوَّلُ قَيْصَرُ الرُّومِ (٦١٠ - ٦٤١ م) :

هُوَ هَرَقْلُ قَيْصَرُ الرُّومِ الْإِمْبَرَاطُورُ الْبِيزَنْطِيُّ ، كَانَ يَحْكُمُ إِمْبَرَاطُورِيَّةً وَاسِعَةً ، تَوَزَّعَتْ مَعَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْإِيرَانِيَّةِ الْعَالَمَ الْمَتَمَدِّنَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَحَكَمَتْ نِصْفَ الْعَالَمِ تَقْرِيْبًا ، وَكَانَتْ لَهَا وَلايَاتٌ وَاسِعَةٌ غَنِيَّةٌ مَتَمَدِّنَةٌ رَاقِيَةٌ ، فِي الْقَارَاتِ الثَّلَاثِ : أَوْرَبَةَ ، وَآسِيَا ، وَإِفْرِيْقِيَّةَ ، وَخَلَفَتِ الدَّوْلَةَ الرُّومِيَّةَ الْكُبْرَى الَّتِي خَضَعَ لَهَا الْعَالَمُ الْقَدِيمُ^(١) .

وَكَانَ مِنْ أُسْرَةٍ يُونَانِيَّةٍ الْأَصْلِ ، وُلِدَ فِي « كَيْيُودِيْشِيَّة » وَنَشَأَ فِي قَرْطَاجَنَةِ « كَارْتَهِيْج »^(٢) ، وَكَانَ ابْنُ حَاكِمِ إِفْرِيْقِيَّةِ الرُّومِيِّ Exarch of Africa وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ يَدُلُّ عَلَى عَصَامِيَّتِهِ وَنُبُوغِهِ ، أَوْ عُبْقَرِيَّتِهِ الْقِيَادِيَّةِ ، إِلَى أَنْ قَتَلَ فُوقَاسَ (Phocas) الْمَغْتَصِبَ ، إِمْبَرَاطُورَ الْبِيزَنْطِيَّةِ الشَّرْعِيِّ مُورِيْقِسَ (Maurices) سَنَةَ

(١) قَدْ ذَكَرْنَا حُدُودَ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ ، وَمَا كَانَتْ تَحْكُمُهُ مِنْ وَلايَاتٍ ، وَمَقَاطِعَاتٍ ، فِي أَوْرَبَةَ وَآسِيَا ، وَإِفْرِيْقِيَّةَ ، فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ، تَحْتَ عُنْوَانِ « الدَّوْلَةُ الرُّومِيَّةُ الشَّرْقِيَّة » .

(٢) مَدِينَةُ قَدِيمَةٌ فِي إِفْرِيْقِيَّةَ ، أَسَّسَهَا الْفِينِيقِيُّونَ فِي ٨١٤ ق.م ، وَبِمَقْرَبَةٍ مِنْ أَطْلَالِهَا قَامَتِ مَدِينَةُ تُونِسَ .

٦٠٢م الذي كانَ صاحبَ الفضلِ على كسرى أبرويز ، وانتَهزَ الفرسُ هذه الفرصةَ للزحفِ على الدولةِ البيزنطيةِ فدَوَّخوها واحتلُّوها وأهانوها واحتضرتِ الدولةُ البيزنطيةُ الشهيرةُ تلفظَ آخرَ أنفاسِها^(١) ، فدُعِيَ هرقلُ من قرطاجنة فقتلَ فوقاس ، وتسَلَّمَ زمامَ الحكمِ والقيادةِ في سنة ٦١٠م^(٢) ، والمملكةُ في صراعِ الموتِ والحياةِ ، وفي برائنِ المجاعةِ ، والأمراضِ البوائيةِ ، والفقرِ ، والعجزِ الماليِّ .

وبَقِيَ هِرَقْلُ في سنواتِهِ الأولى لا يبعثُ أملاً ولا يحركُ ساكناً ، ولكن حدثَ فيه انقلابٌ في سنة ٦١٦م (وهي السنة التي نبأ القرآنُ فيها بغلبةِ الرومِ في بضعِ سنينَ)^(٣) ، فتحولَ من مَلِكٍ متخاذلٍ راكِنٍ إلى الدعةِ والترَفِ ، إلى قائدٍ متحمِّسٍ غيورٍ ، قد ملكتُهُ الفكرةُ وثارَتِ فيه الحميَّةُ ، وتوجَّهَ إلى مركزِ الإمبراطوريةِ الإيرانيةِ ، يستعيدُ بلادهُ وكرامةَ أمتهِ ، ويفتحُ مدنَ إيرانَ الشهيرةَ ، ويستولي على مراكزها الكبيرةِ ، حتَّى أوغلَ في قلبِ إيرانَ ، وأهانَ الإمبراطوريةَ الإيرانيةَ العظيمةَ القديمةَ ، وأثخنها قتلاً وجراحاً ، حتَّى أوشكتِ الإمبراطوريةُ السَّاسانيةُ على النهايةِ ، وتزلزلتْ قوائمُ عرشِ آلِ ساسانَ ، ورجعَ القائدُ المنتصرُ ، فدخلَ القسطنطينيةَ دخولَ الفاتحِ العظيمِ سنة ٦٢٥م^(٤) ، وتوجَّهَ إلى بيتِ المَقْدِسِ في سنة ٦٢٩م ، ليعيدَ إليه الصليبَ

(١) اقرأُ القصةَ مفصَّلةً في كتاب « انحطاط دولة روما وسقوطها » لمؤلِّفه « جبون » ، وكتاب « إيران في عهد الساسانيين » لمؤلِّفه « آرتهر كرستن سين » .

(٢) وبعد مضي عامٍ على هذا الحادثِ كانت البعثةُ المحمديةُ في الجزيرة العربية .

(٣) وقرأ مقال « إحدى نبوءات القرآن العظيمة ونبوءة غلبة الروم » في كتاب المؤلف « المدخل إلى الدراسات القرآنية » طبعة دار ابن كثير بدمشق ، وطبعة المجمع الإسلامي العلمي ندوة العلماء لكهنؤ (الهند) .

(٤) وفي سنة ٦٢٦م كانت واقعة بدر الكبرى التي التقى فيها انتصار المسلمين على مشركي مكة بانتصار الروم أهل الكتاب على منافسيهم الفرس عباد النار ، وتحققت نبوءة القرآن عن غلبة=

المقدّس ، الذي أخذهُ الفرسُ ، وليفي بنذرهِ ، فكانَ الناسُ يسيطون له البسطَ ليمشيَ عليها ، وينثرونَ عليه الرياحينَ^(١) ، إبداءً لسرورِهِم وإجلالِهِم ، وأقيمَ احتفالٌ كبيرٌ بمناسبةِ عودةِ الصليبِ المقدّسِ إلى مكانهِ ، وإظهاراً للشُّرورِ بالفتحِ العظيمِ في القدّسِ ، وهنا وصلهُ كتابُ النّبِيِّ ﷺ يدعوهُ فيه إلى الإسلامِ^(٢) .

وعادَ هرقلُ إلى ما كانَ عليه من دعةٍ وترَفٍ ، حتّى واجهَ الزحفَ الإسلاميّ الذي أدّى إلى زوالِ ملكهِ ، وانتهاءِ الحكمِ البيزنطيّ من آسيا وإفريقيةٍ وانحصارِهِ في أوربةٍ وآسيا الصغرى ، وعلى كلّ فإنّه كانَ من كبارِ ملوكِ العالمِ في عصرِهِ ، لا ينافسهُ في اتساعِ المملكةِ ، والقوةِ الحربيّةِ ، وزهوِ المدنيّةِ ، إلا الإمبراطورُ الإيرانيُّ خسرو الثاني ، وماتَ سنة ٦٤١ م في القسطنطينيّة ، ودُفِنَ فيها .

كسرى أبرويز (خسرو أبرويز الثاني) (٩٥٠ - ٦٢٨) :

كانَ ابنُ هُرْمُزِ الرابعِ ، وحفيدُ خسرو الأولِ المعروف بـ « أنوشيروان » العادل ، يسمّيه العربُ « كسرى أبرويز » جرى تتويجُهُ على أثرِ قتلِ والدِهِ في سنة ٥٩٠ م ، وثارَ عليه بهُزَامُ جوبين ، وانهزمَ أبرويزُ فخرَجَ من المملكةِ السَّاسانيّةِ ، والتجأَ إلى الإمبراطورِ البيزنطيِّ موريقس (Maurice) واستعانَ بهِ

= الروم في بضع سنين (والبضع مدة دون العشرة) .

(١) فتح الباري : ج ١ ، ص ٣١ .

(٢) وقد كان سبب تأخّر الكتاب النبوي إلى هرقل - بخلاف كسرى الذي وصله الكتاب قبل ذلك - أولاً : أن الكتاب دفع إلى عظيم « بصرى » ليقدمه إلى قيصر ، ولعله لم يتمكن من تسليمه إياه لانشغال قيصر بالحرب ، وبعده عن عاصمته ، وثانياً : أن المراجع الغربية تذكر أن هرقل قد اضطر إلى التوجه إلى أرمينيا في سنة ٦٢٨ م لقمع ثورة أو غرض آخر ، فلم يتمكن من الوفاء بنذرهِ إلا في سنة ٦٢٩ م .

على استرداد ملكه ، فأمدّه موريقس بجيوش جرّارة ، وبعد حروبٍ داميةٍ انهزم بهرام ، وتربّع خسرو على عرش آبائه .

وفي سنة ٦١٢ م زحف كسرى أبرويز على المملكة البيزنطية ليأخذ بثأر وليّ نعمته وأبيه المعنويّ موريقس ، من قاتله النذل المغتصب لعرش القياصرة فوقاس (Phocas) ولم يكفه قتل فوقاس عن الاستمرار في الزحف الذي ساءت فيه نيّته ، فواصله إلى القسطنطينية ووصل إلى ما لم يصل إليه سلفه من تدويخ المملكة المنافسة القديمة ، وبلغ انتصاره ومجده أوجهما في سنة ٦١٥ م حتى نجح هرقل في دحر الإيرانيين عن بلاده ، والهجوم المنتصر على مركز المملكة الساسانية ، حتى اضطرّ كسرى أبرويز إلى أن يغادر عاصمته ، والالتجاء إلى مكانٍ حريز^(١) ، ولكنه ما لبث أن قتل في ثورة في سنة ٦٢٨ م .

اتفقت كلمة مؤرّخي إيران على أن خسرو الثاني كان أعظم ملوك إيران أبهةً وعظمةً ، فقد بلغت الدولة الساسانية في عهده أوجها في الزينة والمدنية والزهو ، ومظاهر الترف والبذخ ، وقد دخل جزء من الولاية الشمالية الغربية في الهند في حكمه^(٢) ، وكان يُلقب نفسه ويُسمّيه كما يلي :

« في الآلهة إنسانٌ غيرُ فانٍ ، وفي البشر إلهٌ ليس له ثانٍ ، علّت كلمته ، وارتفع مجده ، يطلع مع الشمس بضوئه ، وينير الليالي المظلمة بنوره »^(٣) .

وقد بلغت في عهده المملكة الساسانية إلى ما لم تبلغ إليه في عهد من عهودها من الأبهة ، والفخفة ، وقد وصفه المؤرخ الطبري في تاريخه بقوله :

(١) [مكان حريز : أي ، حصين آمن] .

(٢) إيران في عهد الساسانيين : ص ٦٠٢ .

(٣) المصدر السابق : ص ٦٠٤ ، نقلاً عن تهيو في ليكتس .

« كَانَ مِنْ أَشَدِّ مُلُوكِهِمْ بَطْشاً ، وَأَنْفَذَهُمْ رَأياً ، وَأَبْعَدَهُمْ غَوَراً ، وَبَلَغَ فِيمَا ذَكَرَ مِنَ الْبَأْسِ وَالنَّجْدَةِ ، وَالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَجَمَعَ الْأَمْوَالِ وَالكَنُوزِ ، وَمُسَاعَدَةِ الْقَدْرِ وَمُسَاعَدَةِ الدَّهْرِ إِيَّاهُ ، مَا لَمْ يَتَهَيَّأ لِمَلِكٍ أَكْثَرَ مِنْهُ ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ « أَبْرُويز » وَتَفْسِيرُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ « الْمَظْفَرُ » ^(١) .

وقد تَأَثَّقَ تَأَثُّقاً عَظِيماً فِي مَظَاهِرِ التَّرَفِ وَالْمَدَنِيَّةِ ، وَأَبْدَعَ فِي أَنْوَاعِ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَشْرِبَةِ ^(٢) ، وَبَلَغَ فِي الْأَلْطَافِ وَالْأَدَهَانِ وَالْعُطُورِ شَأوً بَعِيداً ، وَقَدْ نَشَأَ فِي عَهْدِهِ ذَوْقٌ دَقِيقٌ لِلْأَطْعِمَةِ اللَّذِيذَةِ ، وَالْخُمُورِ الرَّاقِيَةِ ، وَالْعُطُورِ اللَّطِيفَةِ ، وَارْتَقَى فِي عَهْدِهِ الْغِنَاءُ وَالْمَوْسِيقَا ، وَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَيْهَا إِقْبَالاً عَظِيماً ، وَكَانَتْ عِنْدَهُ نَهَامَةٌ بِجَمْعِ الْأَمْوَالِ ، وَاكْتِنَازِ الْكُنُوزِ ، وَجَمْعِ الطَّرَفِ وَالنَّفَائِسِ ، وَلَمَّا نُقِلَ كَنْزُهُ فِي سَنَةِ ٦٠٧ - ٦٠٨ م مِنَ الْبِنَاءِ الْقَدِيمِ إِلَى الْبِنَاءِ الْجَدِيدِ فِي طَيْسِيفُونَ ، كَانَ مَا نَقَلَهُ ٤٦٠ مِلْيُوناً وَثَمَانِيَةً مِلايينَ مِثْقَالِ ذَهَبٍ ، وَذَلِكَ مَا يُسَاوِي ٣٧٠ مِلْيُونٍ وَخَمْسَةَ مِلايينَ فَرَنْكٍ ذَهَبِيٍّ ، وَفِي الْعَامِ الثَّالِثِ عَشَرَ مِنْ جُلُوسِهِ عَلَى الْعَرْشِ كَانَ فِي خَزَائِنِهِ ٨٨٠ مِلْيُونٌ مِثْقَالِ ذَهَبٍ ^(٣) ، وَقَدْ حَكَمَ ٣٧ سَنَةً ، وَخَلَفَهُ ابْنُهُ شِيْرُوِيَه .

المُقَوْقِسُ :

هُوَ حَاكِمُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، وَالنَّائِبُ الْعَامُّ لِلدَّوْلَةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ فِي مِصْرَ ، وَقَدْ ذَكَرَهُ الْمُؤَرِّخُونَ الْعَرَبُ غَالِباً بِاسْمِ « الْمُقَوْقِسِ » وَاخْتَلَفُوا فِي تَسْمِيَّتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ وَكُنْيَتِهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ، أَمَّا الْمُؤَرِّخُ أَبُو صَالِحٍ الَّذِي أَلْفَ تَارِيخَهُ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ الْهَجْرِيِّ (١٢٠٠ م) فَسَمَّاهُ بـ « جَرِيحِ بْنِ مِينَا الْمُقَوْقِسِ » وَقَدْ ذَكَرَ

(١) تَارِيخُ الْأُمَمِ وَالْمُلُوكِ لِلطَّبْرِيِّ : ١٣٧/٢ ، الْمَطْبَعَةُ الْحُسَيْنِيَّةُ الطَّبَعَةُ الْأُولَى بِمِصْرَ .

(٢) رَاجِعِ تَارِيخُ الْأُمَمِ وَالْمُلُوكِ : لِلطَّبْرِيِّ ، ص ٩٩٥ .

(٣) إِيرَانَ فِي عَهْدِ السَّاسَانِيِّينَ : ص ٦١١ .

ابنُ خلدون أنه كان من الأقباط ، والمقرزيُّ سمَّاهُ « المقوقسَ الروميَّ » فلما هاجمَ الفرسُ مصرَ فرَّ حاكمُ الإسكندرية من قبل البيزنطيين ، واسمُهُ (John the Almoner) من الإسكندرية إلى قبرصَ وماتَ هناك ، فعَيَّنَ هرقلُ مكانه نائباً آخرَ اسمُهُ « جورج » ، ولعلُّهُ هوَ الذي يسمِّيهِ العربُ بـ « جريج » وولَّاهُ رئاسةَ الكنيسةِ الملكانية ، وقد ذَكَرَ بعضُ المؤرِّخين أنَّ تعيينه كانَ في سنة ٦٢١ م .

وَيُرَجَّحُ « ألفرد بتلر » مؤلِّفُ كتابِ « فتحِ العربِ لمصر » أنَّ العربَ كانوا يعتقدون أنَّ الحاكمَ الذي كانَ يحكمُ مصرَ من قبلِ الدولةِ البيزنطيةِ بعدَ انتصارِها على إيرانَ ، كانَ يلقَّبُ بـ « المقوقس » وكانَ رئيسَ الكنيسةِ وحاكمَ مصرَ في وقتٍ واحدٍ ، فأطلقوا على جورج الذي كانَ نائباً عن الدولةِ بهذا اللقبِ ، وَيُرَجَّحُ أنَّ « المقوقسَ » لقبٌ لا عَلمٌ ، وقد رُدَّ هذا الاسمُ إلى أصولٍ قبطيةٍ ، ويمكنُ أن أسقفاً قبطياً تسلَّمَ زمامَ الحكمِ ، ورئاسةَ الكنيسةِ عندَ استيلاءِ الفرسِ على مصرَ ، وقد انسحبتِ القواتُ الإيرانيةُ عن مصرَ في سنة ٦٢٧ م ، ولكنَّ لم تَوَقَّعْ وثيقةَ الصلحِ إلَّا في سنة ٦٢٨ م ، فيُمكنُ أنَّ كتابَ النَّبِيِّ ﷺ إلى المقوقسِ وصلَ إليه في هذهِ الفترة ، حينَ كانَ الحاكمُ المصريُّ شبهَ مستقلٍّ^(١) ولذلكَ خاطبَهُ النَّبِيُّ ﷺ بـ « عظيمِ القبطِ » .

وقد كانتَ مصرُ من أغنى ولاياتِ الدولةِ البيزنطيةِ ، وأكثرها خصوبةً وإنتاجاً وسكَّاناً ، وكانتَ تموِّنُ العاصمةَ بالموادِ الغذائيةِ ، وقد وصفَها فاتحُ مصرَ عمرو بنُ العاصِ (م ٦٣ هـ) وقد دخلها بعدَ أن مضى على كتابِ رسولِ الله ﷺ إلى المقوقسِ ١٤ عاماً ، في كتابهِ الذي كتبَهُ إلى أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطابِ - رضيَ اللهُ عنه - بقولِهِ : « مصرُ تربةٌ غبراءُ وشجرةٌ

(١) Appendix - C - P. 508-540 راجع « فتح العرب لمصر » لألفرد بتلر ، وقد ورد اسم هذا

الحاكم في بعض الكتب الجزكروس أوكيرس .

خضرَاءُ ، طولُها شهرٌ ، وعرضُها عشرٌ»^(١) .

وَيَدُلُّ عَلَى عَمْرَانِهَا وَكَثْرَةِ نَفْسِهَا أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ لَمَّا تَمَّ لَهُ فَتْحُ مِصْرَ سَنَةِ ٢٠ هـ (٦٤٠ م) أَحْصَى مَنْ تَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ الْجَزْيَةُ يَوْمَئِذٍ ، فَبَلَغُوا أَكْثَرَ مِنْ سِتَّةِ مِلايينَ^(٢) ، وَكَانَ الرُّومَانُ يَبْلُغُونَ مِثْلَهُ أَلْفٌ .

وَقَدْ جَاءَ فِي كِتَابِ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ إِلَى عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :

« أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي فَتَحْتُ مَدِينَةً لَا أَصِفُ مَا فِيهَا غَيْرَ أَنِّي أَحْصَيْتُ فِيهَا أَرْبَعَةَ آلَافٍ مِثْنَةً^(٣) ، بِأَرْبَعَةِ آلَافِ حِمَامٍ ، وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ ، وَأَرْبَعَمِئَةِ مَلْهُيٍّ لِلْمُلُوكِ »^(٤) .

النَجَاشِيُّ :

إِنَّ هَذِهِ الْبِلَادَ لَمْ تَزَلْ تُسَمَّى مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ بِالْحَبَشَةِ (Abyssinia) أَوْ أُثْيُوبِيَا (Ethiopia) ، وَهِيَ بِلَادٌ مِنْ إِفْرِيقِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ ، وَاقِعَةٌ فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ وَلَا يُمْكِنُ تَقْدِيرُ حَدُودِهَا فِي الْعَصْرِ الَّذِي نَتَحَدَّثُ عَنْهُ .

وَحُكُومَتُهَا مِنْ أَقْدَمِ الْحُكُومَاتِ فِي الْعَالَمِ ، وَتَقُولُ الْأَخْبَارُ الْيَهُودِيَّةُ أَنَّ مَلِكَةً « سَبَأَ » كَانَتْ تَسْكُنُ فِي الْحَبَشَةِ ، وَأَنَّ ذُرِّيَّةَ سُلَيْمَانَ مَا زَالَتْ تَحْكُمُ الْحَبَشَةَ ، وَقَدْ بَدَأَ الْيَهُودُ يَسْكُنُونَ فِي الْحَبَشَةِ بَعْدَ خَرَابِ هَيْكَلِ سُلَيْمَانَ ،

(١) النجوم الزاهرة : لابن تغري بردي ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٢) دائرة معارف القرن العشرين : للأستاذ محمد فريد وجدي ، راجع مادة « مصر » والمؤلف يشك في صحة هذا العدد في ضوء تجارب تضخم العمران في البلاد المختلفة ، فإن عدد النفوس في مصر في عصرنا لا يزيد على أربعين مليوناً .

(٣) هو المكان الصلب المرتفع ، كما في القاموس .

(٤) حسن المحاضرة : للسيوطي .

وبدأت النصرانيةُ تنتشرُ في الحبشة منذ القرن الرابع الميلاديّ ، ولمّا بدأ ملكُ اليمنِ يضطهدُ المسيحيّينَ في بلاده طلبَ جستينين الأولُ من ملك الحبشة أن يساعدهُ المسيحيّينَ في اليمنِ ، فاستولّى على اليمنِ في سنة ٥٢٥ م ، ودامتِ السلطةُ الحبشيةُ على اليمنِ العربيّة نحوَ خمسينَ سنةً (وفي هذه الفترة هاجمَ ملكُ اليمنِ من قبل الحبشة أبرهةً مكّة ليخرّب البيت ، ووقعتْ حادثةُ الفيل) .

وكانتْ عاصمةُ الحبشة (Axum) وكانتْ حكومةً مستقلةً لا تخضعُ لحكومةٍ أجنبية ، ولا تؤدّي إليها الخراج ، ولا تتصلُ بالإمبراطورية البيزنطية إلا عن طريقِ الصداقةِ والمشاركةِ في ديانةٍ واحدةٍ (المسيحية) يدلُّ على ذلك دلالةٌ واضحةٌ أنّ الإمبراطورَ البيزنطيَّ « جستينين » عيّنَ في منتصفِ القرنِ الثالثِ المسيحيّ رجلاً اسمه « جوليان » (Julian) سفيراً في بلاطِ الحبشة^(١) .

ويقولُ (De Lacy O'Leary) في كتابه « العرب قبلَ محمدٍ » :

« كانتِ الحبشةُ منذ ٥٢٢ م حتّى ظهورِ الإسلامِ مسيطرةً على تجارةِ شرقِ المحيطِ الأحمرِ وإفريقية ، بل لعلّها كانتْ مسيطرةً على تجارةِ الهندِ أيضاً »^(٢) .

وكانَ ملكُ الحبشة يلقَّبُ دائماً بـ « النجاشي » Nagusa Nagashi .

وقد اضطربتِ الأقوالُ والرواياتُ في تعيين هذا النجاشي الذي كتبَ إليه رسولُ الله ﷺ كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، وممّا لا شكَّ فيه أنّ هنالك شخصيّتين متميّزتين ، الأولُ هو الذي هاجرَ إليه المسلمون من مكّة ، وكانَ

(١) A.H.M. Jones & Elizabeth Monros: A History Of Abyssinia (Oxford, 1935) P. 63

(٢) (Arabia Before Mohammad) (London, 1927) P. 120

فيهم جعفر بن أبي طالب ، وذلك سنة خمس من النبوة ، ويستبعد أنه ﷺ كتب إليه كتاباً يدعوهُ في ذلك الحين ، فإن الأوضاع لم تكن تسمح بذلك ، ولم يكن قد آن وأوانه بعد ، ولا نعرف أنه ﷺ كتب إلى ملك من الملوك قبل الهجرة يدعوهُ إلى الإسلام ، وغاية الأمر أنه طلب منه أن يؤوي المسلمين الذين قست عليهم قريش واضطهدوهم .

ويُستأنس من الأخبار التي رواها ابن هشام وغيره في كتب السيرة أنه دخل الإيمان في قلبه ، وأمن بأن عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام - هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم .

أمّا النجاشي الذي كتب له النبي ﷺ كتاباً يدعوهُ إلى الإسلام ، فهو كما مال إليه الحافظ ابن كثير هو النجاشي الذي وُلِّي بعد المسلم صاحب جعفر بن أبي طالب ، يقول ابن كثير : « وذلك حين كتب إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الله قبل الفتح » ، ونرجح أنه هو الذي أسلم ونعاه رسول الله ﷺ إلى المسلمين ، وصلى عليه ، وقد ذكر الأبي عن الواقدي وغيره من أهل السير : « أنه النجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ وذلك في رجب سنة تسع منصرف تبوك » (١) .

وبذلك يحصل التوفيق بين الروايات المختلفة ، وتدُلُّ عليه القرائن والدراية ، والله أعلم .

كيف تلقى هؤلاء الملوك هذه الرسائل الكريمة ؟

فأما « هرقل » و « النجاشي » و « المُفَوِّس » فتأدَّبوا ، ورقُّوا في جوابهم ،

(١) [أخرجه مسلم في كتاب الجهاد ، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الإسلام ، برقم (١٧٧٤) ، والترمذي في أبواب الاستئذان ، باب مكاتبة المشركين ، برقم (٢٧١٦) من حديث أنس رضي الله عنه] .

وَأَكْرَمَ « النجاشي » و « المقوقس » رُسُلَ رسولِ الله ﷺ وأرسلَ « المقوقس » هدايا منها جاريتان كانت إحداهما مارية أم إبراهيم بن رسولِ الله ﷺ .

وأما كسرى أبرويز ، فلما قرىء عليه الكتاب مزقه ، وقال : يكتب إلي هذا وهو عبدي ؟ ! فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « مزق الله ملكه » ^(١) .

وأمر كسرى باذان وهو حاكمه على اليمن بإحضاره ، فأرسل بابويه يقول له : إن ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثني إليك لتنطلق معي ، فأخبره رسول الله ﷺ بأن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله ^(٢) .

وقد تحقق ما أنبأ به رسول الله ﷺ بكل دقة ، فقد استولى على عرشه ابنه « قباد » الملقب بـ « شيرويه » وقُتل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعاز منه سنة ٦٢٨ م ، وقد تمزق ملكه بعد وفاته ، وأصبح لعبة في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة ، فلم يعيش « شيرويه » إلا ستة أشهر ، وتوالى على عرشه في مدة أربع سنوات عشرة ملوك ، واضطرب حبل الدولة إلى أن اجتمع الناس على « يزدجرد » وتوجوه ، وهو آخر ملوك بني ساسان ، وهو الذي واجه الزحف الإسلامي الذي أدى إلى انقراض الدولة الساسانية التي دامت وازدهرت أكثر من أربعة قرون انقراضاً كلياً ، وكان ذلك في سنة ٦٣٧ م ، وهكذا تحققت هذه النبوءة في ظرف ثمانين سنين ^(٣) ، ولم تعد ذلك الإمبراطورية الساسانية ،

(١) أخرجه البخاري [في كتاب المغازي] ، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر . [برقم (٤٤٢٤)] ، وأحمد في المسند (١/ ٢٤٣ - ٣٠٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) تاريخ الطبري : ج ٣ ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٣) ملخصاً من كتاب « إيران في عهد الساسانيين » ، الباب التاسع ، « عهد الدولة الساسانية الأخير الزاهر » ، ص ٥٩٣ ، والباب العاشر « سقوط المملكة » .

فَتَحَقَّقَتْ بِهِ نَبْوَةً أُخْرَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ قَوْلُهُ : « إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ »^(١).

وَمَلَكَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ إِيرَانَ ، وَهَدَى أَهْلَهَا لِلْإِسْلَامِ ، فَكَانَ مِنْهُمْ أئِمَّةٌ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ ، وَعَبَاقِرَةُ الْإِسْلَامِ ، وَأَعْلَامُ الْمُسْلِمِينَ ، وَصَدَقَ عَلَيْهِمْ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « لَوْ كَانَ الْعِلْمُ بِالثَّرِيَا لَتَنَاوَلَهُ أَنَاسٌ مِنْ أَبْنَاءِ فَارَس »^(٢).

حَوَارِثُ بَيْنَ « هِرَقْلَ » وَأَبِي سَفِيَانَ :

وَقَدْ أَرَادَ « هِرَقْلُ » أَنْ يَتَثَبَّتَ فِي أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَبَحَثَ عَمَّنْ يَسْتَخْبِرُهُ فِي شَأْنِهِ ، وَصَادَفَ ذَلِكَ وَجُودَ أَبِي سَفِيَانَ فِي « غَزَاةٍ » فَأَحْضَرَهُ إِلَيْهِ - وَقَدْ جَاءَ فِي تِجَارَةٍ - وَكَانَتْ اسْتَفْسَارَاتُهُ اسْتَفْسَارَاتُ عَاقِلٍ مُجَرَّبٍ خَبِيرٍ بِتَارِيخِ الدِّيَانَاتِ وَخَصَائِصِ الْأَنْبِيَاءِ وَسِيرِهِمْ وَشَأْنِ الْأُمَمِ مَعَهُمْ وَسُنَّةِ اللَّهِ فِي أَمْرِهِمْ ، وَصَدَقَهُ أَبُو سَفِيَانَ شَأْنَ الْعَرَبِ الْأَوَّلِينَ حَيَاءً مَنْ أَنْ يَأْثُرَ النَّاسُ عَلَيْهِ كَذِباً ، وَجَرَى بَيْنَهُمَا الْحَوَارِثُ الْآتِي :

هَرَقْلُ : كَيْفَ نَسَبُهُ فَيْكُمْ ؟

أَبُو سَفِيَانَ : هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ .

هَرَقْلُ : فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ ؟

أَبُو سَفِيَانَ : لَا .

(١) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ [فِي كِتَابِ الْفِتَنِ ، بَابُ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ . . . ، بِرَقْمِ (٢٩١٨)] عَنْ ابْنِ عِيْنَةَ ، وَرَوَاهُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ بِسَنَدِهِ أَيْضاً ، وَرَاجِعُ ابْنِ كَثِيرٍ ، ج ٣ ، ص ٥١٣ .

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٢/٢٩٦) ، [وَابْنُ حِبَانَ بِرَقْمِ (٧٣٠٩) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] .

هرقل : فهل كَانَ من آبائه مَنْ ملك ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : فأشرفَ الناسِ اتبعوه أَمْ ضعفاؤُهم ؟

أبو سفيان : بل ضعفاؤُهم .

هرقل : أيزيدُونَ أَمْ ينقصُونَ ؟

أبو سفيان : بل يزيدُونَ .

هرقل : فهل يرتدُّ أَحَدٌ سخطَةً لدينه بعدَ أن يدخلَ فيه ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبلَ أن يقولَ ما قال ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : فهل يغدرُ ؟

أبو سفيان : لا ، ونحنُ منه في مدَّةٍ لا ندري ما هوَ فاعلٌ فيها ، (قال :

ولم تمكِنِّي كلمةٌ أدخلُ فيها شيئاً غيرَ هذه الكلمةِ) .

هرقل : فهل قاتلتُموه ؟

أبو سفيان : نَعَمْ .

هرقل : فكيفَ كَانَ قتالُكم إِيَّاهُ ؟

أبو سفيان : الحربُ بيننا وبينه سجالٌ^(١) ، ينالُ مِنَّا وننالُ منه .

هرقل : ماذا يأمرُكم ؟

(١) [أي مَرَّةً لنا ومَرَّةً علينا ، وأصله أَنَّ المُسْتَقِينَ بالسَّجَلِ ، يكون لكل واحدٍ منهم سَجَلٌ] .

أبو سفيان : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تُشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرُّسُلُ تُبعثُ في نسب قومها .

وسألتك هل قال أحدٌ منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، قلت : لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لقلت : رجلٌ يتأسى بقولٍ قيل قبله .

وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت : أن لا ، فقلت : فلو كان من آبائه من ملك ، قلت : رجلٌ يطلبُ ملكَ أبيه .

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت : أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليدر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت : أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل .

وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت : أنهم يزيدون ، وكذلك أمرُ الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحدٌ سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت : أن لا ، وكذلك الإيمان حين تُخالطُ بشاشته القلوب .

وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت : أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك يم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تُشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنني أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو

كُنْتُ عَنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ^(١) . . . وَأُذِنَ لِعِظَمَاءِ الرُّومِ فِي الْقَصْرِ وَأَمَرَ أَبْوَابَهُ فُغِّلَتْ ، ثُمَّ أُطْلِعَ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الرُّومِ ! هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرَّشْدِ أَنْ يَثْبِتَ مَلِكُكُمْ وَتَبَايَعُوا هَذَا النَّبِيَّ ؟ فَفَرَّوْا وَبَادَرُوا إِلَى الْأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفَرَتَهُمْ ، وَأَيَسَ مِنَ الْإِيمَانِ قَالَ : رُدُّوهُمْ عَلَيَّ ، وَقَالَ : إِنِّي قُلْتُ مَقَالَاتِي أَنْفَأَ أُخْتَبَرُ بِهَا شِدَّتْكُمْ عَلَى دِينِكُمْ ، فَقَدْ رَأَيْتُ ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ^(٢) .

وهكذا آثر هِرَقْلُ الْمَلِكُ عَلَى الْهَدَايَةِ ، وَوَقَعَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ حُرُوبٌ وَمَعَارِكٌ ، وَكَانَ فِيهَا ذَهَابٌ مَلِكِهِ وَسُلْطَانِهِ^(٣) .

مَنْ هُمُ الْأَرِيسِيُّونَ ؟

وَرَدَتْ كَلِمَةُ « الْأَرِيسِيِّينَ » أَوْ « الْيَرِيسِيِّينَ » - عَلَى اخْتِلَافِ الرِّوَايَاتِ - فِي الْكِتَابِ الَّذِي وُجِّهَ إِلَى « هِرَقْلَ » وَحَدَّهُ ، وَلَمْ تَرُدَّ فِي كِتَابٍ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي أُرْسِلَتْ إِلَى غَيْرِهِ .

وَاخْتَلَفَ عُلَمَاءُ الْحَدِيثِ وَاللُّغَةِ فِي مَدْلُولِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ، فَالْقَوْلُ الْمَشْهُورُ أَنَّ « الْأَرِيسِيِّينَ » جَمْعُ « أَرِيسِي » وَهُمْ الْخَوْلُ وَالْخُدْمُ وَالْأَكَّارُونَ^(٤) .

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ [فِي كِتَابِ بَدَأِ الْوَحْيِ] ، بَابِ كَيْفَ كَانَ بَدَأَ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، [بِرَقْمِ (٧)] ، وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْجِهَادِ ، بَابِ كُتِبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ مَلِكِ الشَّامِ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ ، بِرَقْمِ (١٧٧٣) ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْإِسْتِثْنَانِ ، بَابِ مَا جَاءَ فِي خَتَمِ الْكِتَابِ ، بِرَقْمِ (٢٧١٨) ، وَأَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الْأَدَبِ ، بَابِ كَيْفَ يَكْتُبُ إِلَى الذَّمِّيِّ ، بِرَقْمِ (٥١٣٦) ، وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٢٦٣/١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [.

(٢) [قَدْ سَبَقَ تَخْرِيجُهُ فِي التَّعْلِيقِ أَنْفَأَ] .

(٣) [قَدْ سَبَقَ تَخْرِيجُهُ فِي التَّعْلِيقِ سَابِقاً] .

(٤) رَاجِعْ شَرْحَ النَّوَوِيِّ لِصَحِيحِ مُسْلِمٍ ، وَ « مَجْمَعُ بَحَارِ الْأَنْوَارِ » لِلْعَلَامَةِ مُحَمَّدِ طَاهِرِ الْفَتْنِيِّ .

وجاءَ في « لسان العرب » لابن منظور : « الأرسُ » : الأصلُ و « الأريسُ » : الأكارُ ، نقله عن ثعلب .

وذكرَ عن ابن الأعرابي : أنه قال أرسَ يَرسُ أرساً إذا صارَ أريساً ، وأرسَ يورسُ تأريساً : إذا صارَ أكاراً .

ونقلَ عن أبي عبيدة أنه قال : الأجودُ عندي أن يقالَ أن « الأريسَ » كبيرُهم الذي يمثلُ أمره ، ويطيعونه إذا طلبَ منهم الطاعة^(١) .

وهنا يتساءلُ القارئُ الفطنُ إذا كانَ المرادُ من « الأريسين » الفلاحين ، كانَ « كسرى أبرويز » إمبراطورُ إيرانَ أحقُّ بأن يحذرَ من وقوعِ إثمهم ومسؤوليتهم عليه ، وبأن ترد هذه الكلمةُ في الكتابِ الذي كُتبَ إليه ، فإنَّ طبقةَ الفلاحينَ كانتَ أعظمَ وأوسعَ وأكثرَ تميزاً في المملكةِ السَّاسانيةِ الإيرانيةِ منها في المملكةِ البيزنطيةِ الرومانيةِ ، وكانَ أكثرُ اعتمادِ إيرانَ في دخلِها ومواردها على الفلاحةِ ، وإلى ذلك نَبَّهَ الأزهرِيُّ ، كما نقلَ عنه ابنُ منظورٍ بقوله : « وكانَ أهلُ السوادِ مَنْ هوَ على دينِ كسرى أهلَ فلاحَةٍ وإثارةٍ للأرضِ ، وكانَ أهلُ الرومِ أهلَ أثاثٍ وصنعةٍ ، فكانوا يقولونَ للمجوسِ « أريسين » نسبوهُم إلى « الأريس » وهو الأكارُ ، وكانتِ العربُ تسميهم « الفلاحين »^(٢) .

ولذلك نرجِّحُ أنَ المرادَ بالأريسينَ هم أتباعُ « أريوس » المصريِّ (Arius 280-336) وهو مؤسسُ فرقةٍ مسيحيةٍ كانَ لها دورٌ كبيرٌ في تاريخِ العقائدِ المسيحيةِ والإصلاحِ الدينيِّ ، وقد شغلتِ الدولةَ البيزنطيةَ والكنيسةَ المسيحيةَ زمناً طويلاً .

(١) راجع « لسان العرب » مادة « أرس » .

(٢) المصدر السابق .

و « أريوس » هو الذي نادى بالتوحيد ، والتمييز بين الخالق والمخلوق والأب والابن - على حدّ تعبير المسيحيين - فأنار نقاشاً حول الموضوع ، وكان الشغل الشاغل في المجتمع المسيحيّ لعدّة قرون ، وآراؤه تُلخصُ في أنّه ليس من شأن الإله الواحد أن يظهر على الأرض ، لذلك هو مَلأ السيد المسيح بالقوة والكلام الإلهي ، وأن من صفات الله الأساسية الوجدانية والأبدية وأنّه لم يخلق أحداً من ذاته رأساً ، وأن الابن ليس هو الإله ، بل هو مظهرٌ لحكمة أمر الرب ، وأن ألوهيته إضافية لا مطلقة^(١) .

ويقول جيمس ماكنون (James Mackinon) في كتابه « من المسيح إلى قسطنطين » :

« كان « أريوس » يُلحّ على أنّ الله وحده القديم ، كان الأزليّ الأبديّ ، وليس له شريك ، وهو الذي خلق الابن من العدم ، لذلك ليس الابن هو الأزليّ ، ولم يكن الله أباً من الأبد ، فقد كان حين من الدهر لم يكن فيه وجودٌ للابن ، وأنّ الابن يحمل حقيقة خاصة لا يشاركه فيها الله وهو خاضعٌ للتطورات ، وليس هو الله بالمعنى الصحيح ، إلا أنّه يصلح لأن يكون كاملاً ، ولكنّه على كلّ حال مخلوقٌ كاملٌ »^(٢) .

بينما كانت كنيسة إسكندرية في أوائل القرن الرابع المسيحيّ تدين بالوهية المسيح إطلاقاً من غير تفريق بين الخالق والمخلوق والأب والابن .

وقد أقصاه رئيس الكنيسة المصرية البطريق ألكساندر (Alexander) في سنة ٣٢١ م من كنيسة الإسكندرية ، وغادر « أريوس » المدينة ، ولكن لم ينته النزاع بخروجه ، وحاول الإمبراطور قسطنطين حسم هذا الخلاف ولكنّه أخفق .

(١) راجع للتفصيل « دائرة معارف الديانات والأخلاق » ج ١ ، مقال .

(٢) (From Christ to Constantine) (London, 1936)

وفي سنة ٣٢٥ م عقدَ مجمعاً في نيقية اجتمع فيه ٢٠٣٠ أسقفًا ، وكان الإمبراطورُ يميلُ إلى ألوهية المسيح فحكمَ ضدَّ « أريوس » رغمَ أن أغلبيةَ الحاضرينَ كانتْ تؤيدُ « أريوس » ، ولم يُوافقْهُ إلا ٣١٨ أسقفًا ، فنفاهُ إلى إيليريا (Illyria) وأحرقتْ كتاباته ، وكانَ مَنْ وُجِدَتْ عندهُ يُعاقبُ .

ولكنَّ هذه المحاولاتِ لم تقللْ من أهميةِ « أريوس » وإقبالِ الناسِ عليه ، وكانَ آخرُ أمرِهِ أنَّ « قسطنطين » لَانَ في موقفِهِ ورفعَ الحظرَ على عقيدتهِ ، وبعدَ موتِ منافسهِ الأكبرِ ألكساندر ونفي خليفتهِ (Athanasius) عادَ « أريوسُ » إلى الإسكندرية ، وكادَ « قسطنطينُ » يوليهِ رئاسةَ الكنيسةِ المصريةِ ، ويدينُ بعقيدتهِ ، ولكنْ باغتتهُ المنيةُ قبلَ ذلكَ^(١) .

وقد جاءَ في كتابِ « الصُّراع بين الدين والعلم » لـ « درابر » أنَّ ثلاثةَ عشرَ مجمعاً مسيحياً حكمتْ ضدَّ « أريوس » في القرنِ الرابعِ المسيحيِّ ، وخمسةَ عشرَ مجمعاً حكمتْ في تأييدهِ ، وسبعةَ عشرَ مجمعاً أدلتْ برأيٍ قريبٍ من رأيِ « أريوس » ، وهكذا عقدتْ خمسةٌ وأربعونَ مجمعاً للتقريرِ في هذهِ القضيةِ .

والحقُّ أنَّ العالمَ المسيحيَّ لم يكنْ لَهُ عهدٌ بعقيدةِ التثليثِ السائدةِ الآنَ قبلَ القرنِ الرابعِ ، وقد جاءَ في دائرةِ المعارفِ الكاثوليكيةِ الجديدةِ : « أنَّه لم يرفعِ الستارُ عن تطوُّرِ عقيدةِ التثليثِ وسرِّها إلا في المنتصفِ الثاني للقرنِ التاسعِ عشرِ الميلاديِّ . . . وكلُّ من يتحدَّثُ عن عقيدةِ التثليثِ المطلقةِ ، إنما ينتقلُ من فجرِ التاريخِ المسيحيِّ إلى ريعِ القرنِ الرابعِ الأخيرِ ، فإنَّ القولَ بأنَّ الإلهَ الواحدَ لَهُ ثلاثةُ مظاهرٍ لم يتعلَّلْ في أحشاءِ العالمِ المسيحيِّ في حياتهِ وفكرهِ إلا في هذهِ الفترةِ الزمنيةِ »^(٢) .

(١) دائرة معارف الديانات والأخلاق : مقال (Arianism) .

(٢) The new catholic Encyclopedia مقال « التثليث المقدس » ، ج ١٤ ، ص ٢٩٥ .

ودَامَتْ عَقِيدَةُ « أَرِيُوس » ودَعْوَتُهُ تُصَارِعَانِ الدَّعْوَةَ الْمَكْشُوفَةَ إِلَى تَأْلِيهِ الْمَسِيحِ وَتَسْوِيَّتِهِ بِالْإِلَهِ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ وَكَانَتْ الْحَرْبُ سِجَالاً ، وَقَدْ دَانَ بِهِذِهِ الْعَقِيدَةِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ النَّصَارَى فِي الْوَلَايَاتِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْمَمْلَكَةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ إِلَى أَنْ عَقَدَ تِيُوسُودُسُ الْكَبِيرُ (Theodosius the Great) مَجْمَعاً مَسِيحِيّاً فِي الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، قَضَى بِالْوَهْيَةِ الْمَسِيحِ وَأَبْنَيْتِهِ ، وَقَضَى هَذَا الْإِعْلَانُ عَلَى الْعَقِيدَةِ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا « أَرِيُوسُ » وَاخْتَفَتْ . وَلَكِنَّهَا عَاشَتْ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَدَانَتْ بِهَا طَائِفَةٌ مِنَ النَّصَارَى ، اِشْتَهَرَتْ بِـ « الْفِرْقَةِ الْأَرِيسِيَّةِ » أَوْ « الْأَرِيسِيِّينَ » .

إِذَا مِنْ الْمُرَجِّحِ الْمَعْقُولِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا عَنِ هَذِهِ الْفِرْقَةِ بِقَوْلِهِ : « فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ » فَإِنَّهَا هِيَ الْقَائِمَةُ بِالتَّوْحِيدِ النَّسَبِيِّ فِي الْعَالَمِ الْمَسِيحِيِّ الَّذِي تَتَزَعَّمُهُ الدَّوْلَةُ الْبِيزَنْطِيَّةُ الْعَظْمَى ، الَّتِي كَانَ عَلَى رَأْسِهَا الْقَيْصَرُ « هِرْقْلُ »^(١) .

وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّ بَعْضَ كِبَارِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ فِي الْعَصْرِ الْأَوَّلِ قَدْ ذَهَبُوا إِلَى هَذَا ، فَجَاءَ فِي « مُشْكِلِ الْآثَارِ » لِلْإِمَامِ أَبِي جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيِّ مُؤَلَّفٌ « شَرَحَ مَعَانِي الْآثَارِ » الْمَشْهُورُ (ت ٣٢١ هـ) مَا نَصَّهُ :

« وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِهَذِهِ الْمَعَانِي أَنَّ فِي رَهْطِ هِرْقْلٍ فِرْقَةً تَعْرِفُ بِالْأَرِيسِيَّةِ تَوْحَّدَ اللَّهُ ، وَتَعْتَرِفُ بِعِبَادِيَّةِ الْمَسِيحِ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلَا تَقُولُ شَيْئاً مِمَّا يَقُولُ النَّصَارَى فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَتَوْمُنُ بِنَبَوَّتِهِ ، فَإِنَّهَا تَمْسُكُ بِدِينِ الْمَسِيحِ مُؤْمِنَةً بِمَا فِي إِنْجِيلِهِ جَا حِدَةً لَمَا يَقُولُهُ النَّصَارَى سِوَى ذَلِكَ ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ،

(١) اطلعتُ بعد صدور الطبعة الثالثة للكتاب على بحث قيم لصديقنا الفاضل الدكتور محمد معروف الدواليبي في الأريسيين يؤيد ما قلناه أن النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا عَنِ بِقَوْلِهِ : « فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْيَرِيسِيِّينَ » أَتْبَاعَ أَرِيُوس (Arius) الْفِرْقَةِ الْمَسِيحِيَّةِ الْوَحِيدَةِ الْقَائِلَةِ بِبَشَرِيَّةِ الْمَسِيحِ النَّافِيَةِ لِلْوَهْيَةِ ، وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْبَحْثُ الْقِيمِ فِي رِسَالَتِهِ « نَظَرَاتُ إِسْلَامِيَّة » بِعَنْوَانِ : « أَرِيسِيُونَ مِنْ جَدِيدٍ » ص ٦٨ - ٨٣ .

جَازَ أَنْ يُقَالَ لِهَذِهِ الْفِرْقَةِ « الْأَرِيسِيُّونَ » فِي الرَّفْعِ وَ « الْأَرِيسِيِّينَ » فِي النَّصْبِ وَالْجَرِّ ، كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ ^(١) .

وقريباً من ذلك قَالَ الْإِمَامُ مُحْيِي الدِّينِ يَحْيَى النَّوَوِيُّ شَارِحُ « صَحِيحِ مُسْلِمٍ » (ت ٦٧٦ هـ) فَقَالَ: « الثَّانِي أَنَّهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَهُمْ أَتْبَاعُ عَبْدِ اللَّهِ ^(٢) بْنِ أَرِيسٍ ، (الَّذِي تَنَسَّبَ إِلَيْهِ الْأُرُوسِيَّةُ) مِنَ النَّصَارَى ، وَلَهُ مَقَالَةٌ فِي كِتَابِ الْمَقَالَاتِ ، وَيُقَالُ لَهُمْ « الْأُرُوسِيُّونَ » ^(٣) .

رسائل إلى أمراء العرب :

وَمِنْ أُمَرَاءِ الْعَرَبِ كَتَبَ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى صَاحِبِ الْبَحْرَيْنِ ^(٤) ، وَإِلَى جَيْفَرِ بْنِ الْجَلَنْدِيِّ ^(٥) وَعَبْدِ بْنِ الْجَلَنْدِيِّ الْأَزْدِيِّينَ صَاحِبَيْ عُمانَ ، وَإِلَى

(١) مشكل الآثار : ج ٣ ، ص ٣٩٩ .

(٢) هذا تسامحٌ من النووي ، فإنه كان قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون ، ولم يكن اسمه اسماً إسلامياً عربياً .

(٣) شرح صحيح مسلم : للنووي ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

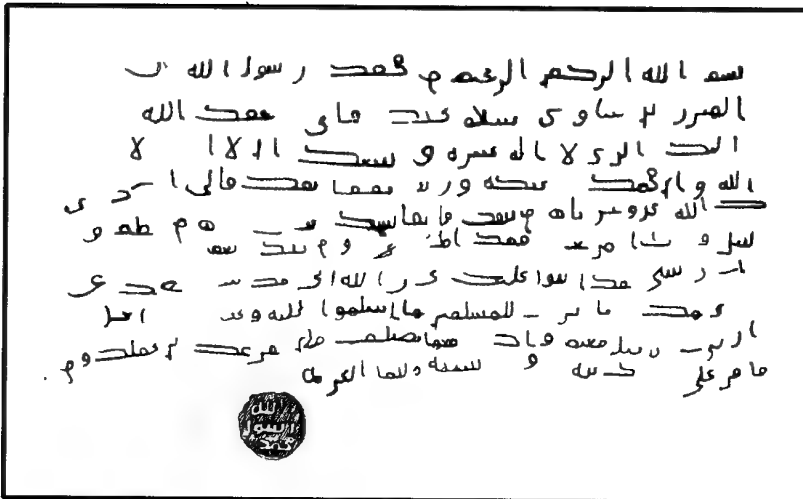
(٤) « البحرين » هي التي تسمى الآن الأحساء ، وكان جل سكانها من بني عبد القيس ، وبكر بن وائل ، وتميم ، أما الوالي عليها في أيام كتابة هذه الرسائل فكان المنذر بن ساوى ، وهو من بني تميم .

وليرجع في الاطلاع على نصوص الكتب التي وُجِّهَتْ إِلَى الْمُلُوكِ وَأُمَرَاءِ الْعَرَبِ ورؤساء القبائل ومعرفة من أرسلت معهم هذه الكتب وأخبار من أرسلت إليهم ، وتراجع من حملها ، كتاب « إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين » ﷺ تأليف الإمام محمد بن طُلولون الدمشقي (٨٨٠ - ٩٥٣ هـ) مؤسسة الرسالة ، بيروت [وطُبِعَ كذلك بتحقيق الأستاذ محمود الأرناؤوط في دار ابن كثير بدمشق] .

(٥) جيفر بن جلندی وعبد بن جلندی ، كانا حاكمين على عمان في هذا الوقت ، وكان جيفر هو الملك منهما ، وكان أسن من أخيه ، (راجع نهاية الأرب ١٨ - ٦٧ وما بعد) . وكلمة الجلندی على ما يظهر من روايات الإخباريين ليست أسماء لشخص ، وإنما هي لقبٌ ، وقد تعني « قليلاً » أو « كاهناً » في لهجات أهل عمان (ج ٤ ، ص ٢٠١) « تاريخ العرب قبل الإسلام » .



كتاب النبي ﷺ إلى هرقل



كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى

هَوْذَةَ بْنِ عَلِيٍّ^(١) صَاحِبِ الْيَمَامَةِ^(٢) ، وَإِلَى حَارِثِ بْنِ شُمَيْرِ الْغَسَّانِيِّ .

وَأَسْلَمَ الْمُنْذَرُ بْنُ سَاوَى وَجَيْفَرُ وَعَبْدُ ابْنِ الْجُلَنْدِيِّ ، وَأَمَّا هَوْذَةُ بْنُ عَلِيٍّ صَاحِبُ الْيَمَامَةِ فَطَلَبَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُجْعَلَ لَهُ بَعْضُ الْأَمْرِ فَأَبَى ، وَمَاتَ هَوْذَةُ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ^(٣) .

غزوة بني لحيان وغزوة ذي قرد :

وَكَانَ بَيْنَ صَلْحِ الْحَدِيثِيَّةِ (سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الْهَجْرَةِ) وَبَيْنَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ غَزْوَةُ بَنِي لَحِيَانَ ، وَغَزْوَةُ ذِي قَرْدٍ^(٤) ، خَرَجَ فِيهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاسْتَعْمَلَ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ عَلَى الْمَدِينَةِ .

وَكَانَ سَبَبَ الْأُولَى طَلَبُ بِأَصْحَابِ الرَّجِيعِ خَيْبِ بْنِ عَدِيِّ وَأَصْحَابِهِ .

وَسَبَبُ الثَّانِيَةِ إِغَارَةُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى لِقَاحٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْغَابَةِ ، وَقَتْلُ رَجُلٍ مِنْ بَنِي غِفَّارٍ ، وَاحْتِمَالُ امْرَأَتِهِ مَعَ اللَّقَاحِ^(٥) .

(١) (هَوْذَةُ بْنُ عَلِيٍّ الْحَنْفِيُّ) كَانَ مُلْكًا عَلَى الْيَمَامَةِ ، وَكَانَ عَلَى دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَإِلَيْهِ أُرْسِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَلِيطُ بْنُ عَمْرٍو ، وَحُدُودُ الْيَمَامَةِ يَوْمَئِذٍ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ ، وَمِنَ الْغَرْبِ تَنْتَهِي إِلَى الْحِجَازِ ، وَمِنَ مَوَاضِعِ الْيَمَامَةِ (مَنْفُوحَةٌ) كَانَ يَسْكُنُهَا الْأَعْشَى ، وَمِنْ أُبْرَزِ قِبَائِلِ الْيَمَامَةِ فِي أَيَّامِ الرَّسُولِ بَنُو حَنْفِيَّةٍ ، وَمِنْهُمْ كَانَ مَسِيلِمَةُ بْنُ حَبِيبٍ الْمَعْرُوفُ بِالْكَذَّابِ لِادِّعَائِهِ النَّبُوَّةَ .

(٢) تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ : ج ٣ ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٣) زَادُ الْمَعَادِ : ج ٢ ، ص ٥٨ .

(٤) عَلَى مَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ [فِي كِتَابِ الْجِهَادِ ، بَابُ غَزْوَةِ ذِي قَرْدٍ وَغَيْرِهَا ، بِرَقْمٍ (١٨٠٧) ، وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٥٢ / ٤ - ٥٤)] ، وَقَدْ رَجَّحَهُ ابْنُ حَجَرٍ فِي فَتْحِ الْبَارِيِّ ، أَمَّا أَصْحَابُ السَّيْرِ فَهُمْ مُتَّفَقُونَ عَلَى أَنَّ غَزْوَةَ ذِي قَرْدٍ كَانَتْ قَبْلَ صَلْحِ الْحَدِيثِيَّةِ .

(٥) [اللَّقَاحُ : وَقَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُهُ فِي الْأَحَادِيثِ مُفْرَدًا وَمَجْمُوعًا : وَهِيَ الْإِبِلُ الْحَوَامِلُ ذَوَاتُ الْأَلْبَانِ] .

(٦) رَاجِعْ « سِيرَةُ ابْنِ هِشَامٍ » ج ٢ ، ص ٢٧٩ - ٢٨٩ .

غزوة خيبر

سنة سبع من الهجرة

جائزة من الله :

إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَشَرُ أَصْحَابِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ - فِي الْحُدَيْبِيَّةِ - الَّذِينَ أَطَاعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَآثَرُوا حُكْمَ اللَّهِ وَأَمْرَهُ عَلَى مَا تَهَوَّاهُ أَنْفُسُهُمْ ، وَتَرَشَّدُوا إِلَيْهِ عَقُولُهُمْ ، بِالْفَتْحِ الْقَرِيبِ وَالْمَغَانِمِ الْكَثِيرَةِ ، فَقَالَ :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح : ١٨ - ١٩] .

وكانت مقدمة هذه الفتوح والمغانم ، غزوة خيبر ، وكانت « خيبر » مستعمرة يهودية تتضمن قلاعاً حصينة^(١) ، وقاعدة حربية لليهود ، وكانت آخر معقل من معاقليهم في جزيرة العرب ، وكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر ، ولا ينسئون ما حلَّ بإخوانهم ، ولا يأمنون أن يحلَّ بهم ، وكانوا يتآمرون مع

(١) وكان من أشهر هذه الحصون ، ناعم ، قموص ، حصن الشق ، حصن نطاة ، حصن السلالم ، حصن الوطيح ، حصن الكتبية ، ويذكر اليعقوبي أنه كان في خيبر عشرون ألف مقاتل نقلاً عن كتاب « الصحابة والتابعون من أهل الكتاب » (ج ٢ ، ص ٥٦ للأستاذ مجيب الله الندوي ، طبع دار المصنفين - الهند) .

غَطَفَانَ لَغْزَوْ الْمَدِينَةِ^(١) ، فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَسْتَرِيحَ مِنْهُمْ وَيَأْمَنَ مِنْ جِهَتِهِمْ ، وَكَانَتْ فِي الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ لِلْمَدِينَةِ عَلَى بَعْدِ سَبْعِينَ مِيلًا مِنْهُ .

جَيْشٌ مُؤْمِنٌ تَحْتَ قِيَادَةِ نَبِيِّ :

فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ حِينَ رَجَعَ مِنَ الْحَدِيثَةِ ذَا الْحِجَّةِ وَبَعْضَ الْمُحَرَّمِ ، ثُمَّ خَرَجَ فِي بَقِيَّةِ الْمُحَرَّمِ سَنَةِ سَبْعٍ إِلَى « خَيْبَرَ » .

وَكَانَ عَامَرُ بْنُ الْأَكْوَعِ يَرْتَجِزُ فِي مَسِيرِهِ إِلَيْهَا ، فَيَقُولُ : [مِنَ الرَّجَزِ] :

وَاللَّهِ لَوْ لَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
إِنَّا إِذَا قَوْمٌ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا^(٢)

وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِجَيْشِهِ وَكَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعَمِئَةٍ ، وَكَانَ مَعَهُمْ مِئَتَا فَرَسٍ ، وَلَمْ يَأْذَنْ لِمَنْ تَخَلَّفَ عَنِ الْحَدِيثَةِ ، وَخَرَجَتْ عَشْرُونَ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ الصَّحَابَةِ ، لِمُدَاوَاةِ الْمَرْضَى وَخِدْمَةِ الْجَرَحَى ، وَالْإِسْعَافِ بِالْمَاءِ وَالطَّعَامِ أَثْنَاءَ الْقِتَالِ .

وَأَقْبَلَ الْجَيْشُ حَتَّى نَزَلَ بِ « الرَّجِيعِ »^(٣) بَيْنَ الْيَهُودِ وَغَطَفَانَ ، لِيَحُولَ

(١) يقول الأستاذ الإنجليزي الشهير W.Montgomery Watt في كتابه (Mohammad Prophet and Statesman) (محمد النبي والسياسي) : « كان يهود خيبر وخاصة رؤساء قبيلة بني النضير التي أجلاها الرسول من المدينة يضمرون الحقد لمحمد ، وهم الذين نجحوا في حمل قبائل العرب المجاورة على حمل السلاح على المسلمين والزحف عليهم ، بما بذلوه من أموال ، وكان ذلك هو السبب الرئيسي في توجُّه محمد إلى خيبر بجيوشه » .

(٢) سيرة ابن كثير : ج ١ ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ [وأخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر ، برقم (٣٩٥٩) ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب غزوة خيبر ، برقم (١٨٠٢) من حديث سلمة بن الأكوع باختلاف يسير في ألفاظه وأبياته] .

(٣) [الرَّجِيعُ : هُوَ مَاءٌ لَهْذِيلٌ] .

بينهم وبين أن يمدّوا أهل خيبر ، فقد كانوا لهم مظاهرين ، فامتنعوا عن ذلك ، وأقاموا في أموالهم وأهليهم ، وخلّوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر^(١) .

ودعا رسول الله ﷺ بالأزواد ، فلم يؤت إلا بالسّويق ، فأمر به ، فثري^(٢) ، فأكل المسلمون^(٣) ، ودعا رسول الله ﷺ لما أشرف على خيبر ، وسأل الخير ، واستعاذ من شرّها وشرّ أهلها ، وكان إذا غزا قوماً لم يغزهم حتّى يصبح ، فإن سمع أذاناً أمسك ، فبات رسول الله ﷺ حتّى إذا أصبح لم يسمع أذاناً ، فركب وركب القوم ، واستقبلوا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم^(٤) وبمكاتلهم^(٥) ، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش ، قالوا : محمدٌ والخميس^(٦) معه ، فأدبروا هرباً ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنذرين »^(٧) .

(١) وكانت غطفان مجموعاً قبلياً متخماً مسرفاً في البداوة ، ينزل شرقي جبل السراة ، جنوبي خيبر ، وتمتد منازلها حتى هضبة نجد ، وكان هؤلاء يهددون هذه الطرق ويجبون من قوافلها أتاوات كبيرة ، وكانت غطفان من القبائل التي سارت لغزو المدينة في غزوة الخندق . « بحث الدكتور حسين مؤنس محاولة وضع أطلس للسيرة النبوية الشريفة والعصر النبوي » .

(٢) ثري : بُلّ .

(٣) [أخرجه البخاري في كتاب الوضوء ، باب من مضمض من السّويق . . . ، برقم (٢٠٩) ، وعبد الرزاق في المصنّف ، برقم (٦٩١) من حديث شريد بن النعمان رضي الله عنه] .

(٤) المساحي : جمع مسحاة ، وهي المجرفة من الحديد .

(٥) مكاتل : جمع مكتل ، وهي قفة كبيرة .

(٦) الخميس : الجيش .

(٧) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ [أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر ، برقم (٤١٩٧) ، ومسلم في كتاب الحج ، باب فضل المدينة ، ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة . . . ، برقم (١٣٦٥) ، والترمذي في أبواب السير ، باب في البيات والغارات ، برقم (١٥٥٠) ، وأحمد في المسند (١٠٢/٣) من حديث أنس رضي الله عنه] .

قائد منصور :

ونازلَ رسولُ الله ﷺ حصونَ خيبرَ ، وبدأَ يفتتحُها حصناً حصناً ، وكانَ أولَ حصنٍ افتتحَ حصنُ ناعم ، ومنها - حصنُ القموصِ - وقد استعصى حصنُ القموصِ على المسلمينَ ، وكانَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَمِداً ، فقالَ رسولُ الله ﷺ : لِيَأْخُذَنَّ الرَّايَةَ غداً رجلٌ يحبُّهُ اللهُ ورسولُهُ ، يفتحُ عليه ، وتطاولَ لَهُ كِبَارُ الصحابةِ - رضيَ اللهُ عنهم - وكلُُّ منهم يرجو أن يكونَ صاحبَ ذلكَ ، ودعاَ علياً ، وهو يشتكي عَيْنَيْهِ ، فَأَتَى فبصقَ رسولُ الله ﷺ في عينيه ، ودعاَ لَهُ ، فبرىءَ ، حتَّى كأنَّ لم يكنْ بِهِ وجعٌ ، فأعطاهُ الرايةَ^(١) ، فقالَ عليٌّ - رضيَ اللهُ عنه - : أَقَاتِلُهُمْ حتَّى يكونوا مثلاًنا .

قالَ رسولُ الله ﷺ : « انفذْ على رِسْلِكَ حتَّى تنزلَ بساحتِهِم ، ثمَّ ادعُهُم إلى الإسلامِ وأخبرْهم بما يجبُ عليهم مِنْ حقِّ اللهِ تعالى فيه ، فواللهِ لأنَّ يهديَ اللهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مِنْ أن يكونَ لك حُمْرُ النَّعَمِ »^{(٢)(٣)} .

بين أسد الإسلام وبطل اليهود :

وَأَتَى عليٌّ - رضيَ اللهُ عنه - حصنَ القموصِ ، فخرجَ « مَرْحَبٌ » وهو

(١) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر ، برقم (٤١٩٧) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، برقم (٢٤٠٦) ،

وأحمد في المسند (٣٣٣/٥) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه] .

(٢) [حُمْرُ النَّعَمِ : الإبل البيض أو الحمراء التي تعني الغنى والعزة والجاه] .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر ، برقم (٤١٩٧) ، ومسلم في فضائل

الصحابة ، باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، برقم (٢٤٠٦) ، وأبو داود في كتاب العلم ، باب فضل نشر العلم ، برقم (٣٦٦١) ، وابن حبان في الصحيح (٣٧٨/١٥)

برقم (٦٩٣٢) وغيرهم من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه] .

الفرس المشهور ، يرتجزُ فاختلفا ضربتَيْن ، فبدره عليٌّ بضربةٍ ، ففلقَ مغفره ورأسه ، ووقعَ في الأضراسِ ، وكانَ الفتحُ^(١) .

وكانتَ لمحمدِ بنِ مسلمةَ مواقفٌ بطوليةٌ في هذهِ المعركةِ ، وأبلى فيها بلاءً حسناً ، وقُتِلَ بعضُ كبارِ الفرسانِ والأبطالِ مِنَ اليهودِ .

عَمِلَ قَلِيلاً وَأَجَرَ كَثِيراً :

وجاءَ عبدُ أسودُ حبشيٌّ من أهلِ خيبرٍ ، كانَ في غنمٍ لسيِّدهِ ، فلمَّا رأى أهلَ خيبرٍ قد أخذوا السلاحَ ، سأَلَهُم : ما تريدون ؟ قالوا : نقاتلُ هذا الذي يزعمُ أَنَّهُ نبيٌّ ، فوقعَ في نفسه ذكْرُ النبيِّ ، فأقبلَ بغنمهِ إلى رسولِ الله ﷺ فقال : ماذا تقول ؟ وما تدعو إليه ؟ قال : أدعو إلى الإسلامِ ، وأنَّ تشهدَ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأنِّي رسولُ اللهِ ، وألا تعبدَ إلا اللهَ ، قالَ العبدُ : فما لي إن شهدتُ وآمنتُ باللهِ عزَّ وجلَّ ، قالَ : « لك الجنةُ إنْ مُتَّ على ذلك » .

فأسلمَ ثم قالَ : يا نبيَّ الله ! إنَّ هذهِ الغنمَ عندي أمانةٌ ، فقال رسولُ الله ﷺ : أخرجها من عندك وارمها بـ « الحَصْبَاءِ »^(٢) فَإِنَّ اللهَ سيؤدِّي عنكَ أمانتكَ ، ففعلَ ، فرجعتِ الغنمُ إلى سيِّدها ، فعلمَ اليهوديُّ أنَّ غلامه قد أسلمَ ، فقامَ رسولُ الله ﷺ في الناسِ ، فوعظَهم ، وحضَّهم على الجهادِ ، فلمَّا التقى المسلمونَ واليهودُ قُتِلَ - فيمن قُتِلَ - العبدُ الأسودُ ، واحتملَهُ

(١) اختلفت الروايات في تعيين هذا الحصن الذي فتحه علي ، والذي يرجح أنه كان حصن القموص ؛ لأن هذا الحصن كان مركز مرحب الفارس اليهودي المشهور ، وقد جاء في سيرة ابن هشام أن الذي قتل « مرحب » هو محمد بن مسلمة (ق ٢ ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤) والمشهور أن الذي قتله هو علي بن أبي طالب (الطبري ص ١٥٧٩) وقد جاء ذلك مصرحاً في رواية مسلم ، وجاءت فيه الأبيات التي ارتجز بها علي ، والذي يرويه مسلم بسنده أولى بالاعتماد والترجيح (راجع صحيح مسلم [رقم (١٨٠٧)] كتاب الجهاد والسير) .

(٢) [الحَصْبَاءُ : هو الحصى الصغيرة] .

المسلمون إلى معسكرهم ، فأدخل في الفسطاط^(١) فزعموا أن رسول الله ﷺ أطلع في الفسطاط ، ثم أقبل على أصحابه ، وقال : « لقد أكرم الله هذا العبد ، وساقه إلى خير ، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ، ولم يصل لله سجدة قط »^(٢) .

ما على هذا اتبعك :

وجاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ فأمن به واتبعه ، فقال : أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر ، غنم رسول الله ﷺ شيئاً فقسّمه له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء دفعوه إليه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : قسمه لك رسول الله ﷺ فأخذه ، فجاء به إلى النبي ﷺ فقال : ما هذا يارسول الله ؟ قال : « قسم قسمته لك » قال : ما على هذا اتبعك ، ولكن اتبعك على أن أرمي هاهنا - وأشار إلى حلقه - بسهم ، فأموت فأدخل الجنة ، فقال : « إن تصدق الله يصدقك » .

ثم نهضوا إلى قتال العدو ، فأتى به إلى رسول الله ﷺ وهو مقتول ، فقال : « أهو هو ؟ » قالوا : نعم ، قال : « صدق الله فصدقه » فكفنه النبي ﷺ في جبته ثم قدّمه ، فصلّى عليه ، وكان من دعائه له : « اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك ، قُتل شهيداً وأنا عليه شهيد »^(٣) .

(١) [الفسطاط : هو ضرب من الأبنية في السفر دون الشراذق] .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٩٣ .

(٣) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٣٩٤ [وأخرجه الحاكم في المستدرک (٦٨٨/٣) برقم

(٦٥٢٧) من حديث شدّاد بن الهاد بسند صحيح ، والنسائي في السنن الكبرى (٦٣٤/١)

برقم (٢٠٨٠) ، والبيهقي في السنن (١٥/٤) برقم (٦٦٠٨) .

شرطُ البقاءِ في خيبر :

وافتتحت الحصون ، حصنٌ بعدَ حصنٍ ، بعدَ قتالٍ وحصارٍ ، دامَ أياماً ، حتى سألوا رسولَ الله ﷺ الصلحَ ، وأرادَ رسولُ الله ﷺ أن يجليهم منها ، فقالوا : يا محمدُ ! دعنا نكونُ في هذه الأرضِ نُصلحُها ، ونقومُ عليها ، فنحنُ أعلمُ بها منكم ، ولم يكنْ لرسولِ الله ﷺ ولا لأصحابِهِ غلمانٌ يقومونَ عليها ، وكانوا لا يفرغونَ يقومونَ عليها ، فأعطاهم خيبرَ على أن لهم الشطرَ من كلِّ زرعٍ وثمرٍ ، ما بدا لرسولِ الله ﷺ أن يقرَّهم^(١) وكان رسولُ الله ﷺ يبعثُ إليهم عبدَ الله بنَ رَواحةٍ ، فيخرصُ عليهم ، ويجعلُ ذلك نصفينَ ، فيخيرُهم أن يأخذوا أيهما شأؤوا ، فيقولون : بهذا قامتِ السمواتُ والأرضُ^(٢) .

روح التسامح الديني :

وكان من بين المغانم التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر صحائفٌ متعدّدة من التوراة ، فلما جاء اليهودُ يطلبونها أمرَ النبي ﷺ بتسليمها لهم^(٣) ، ويقولُ الدكتورُ إسرائيلُ ولفنسون معلقاً على هذه القصة :

« ويدلُّ هذا على ما كان لهذه الصحائفِ في نفسِ الرسولِ من المكانةِ العاليةِ مما جعلَ اليهودَ يُشيرُونَ إلى النبيِّ بالبَنانِ ، ويحفظُونَ له هذه اليدَ حيثُ لم يتعرَّضَ بسوءٍ لصحفِهِم المقدَّسةِ ، ويذكرونَ بإزاءِ ذلك ما فعلَهُ الرُّومانُ حينَ تغلبُوا على أورشليمَ وفتحوها سنة ٧٠ ب.م إذ حرقوا الكتبَ المقدَّسةَ

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ٣٩٤ - ٣٩٥ وراجع للتفصيل سنن أبي داود ، باب المساقاة .

(٢) فتوح البلدان : للبلاذري ، ص ٣٤ [انظر الأحاديث المفصلة في هذا الباب فيما أخرجه أبو داود في كتاب الخراج ، باب ما جاء في حكم أرض خيبر ، برقم (٣٠٠٦) ، وابن حبان في الصحيح برقم (١٦٩٧) وغيرها من حديث ابن عمر رضي الله عنهما] .

(٣) تاريخ الخميس : ج ٢ ، ص ٦٠ .

وداسوها بأرجلهم ، وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حيث أحرقوا أيضاً صُحف التوراة ، وهذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممّن ذكرناهم وبين رسول الإسلام ^(١) .

قُدومُ جعفر بن أبي طالب :

وفي هذه الغزوة قدم على رسول الله ﷺ ابنُ عمّه جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، ففرح به رسول الله ﷺ فرحاً عظيماً ، وتلقاه بالبشر ، وقبل جبهته ، وقال : « والله ما أدري بأيّهما أفرح : بفتح خيبر أم بقُدوم جعفر » ^(٢) .

محاولة أئيمة لليهود :

وفي هذه الغزوة سَمَّ رسول الله ﷺ ، أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية ، امرأة سلام بن مشكم ، شاة مشوية قد سمّتها ، وسألت : أيّ اللحم أحبّ إليه ؟ فقالوا : الذراع ، فأكثرَت السم في الذراع ، فلما انتهش من ذراعها ، أخبره الذراع بأنه مسموم ، فلفظ الأكلة .

وجمع اليهود ، ثم قال : « هل أنتم صادقّي عن شيء إن سألتكم عنه » ؟
قالوا : نعم .

قال : « أجعلتكم في هذه الشاة سمّاً » ؟
قالوا : نعم .

قال : « فما حملكم على ذلك » ؟

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب : ص ١٧٠ .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٩٧ [وأخرجه الحاكم في المستدرک (٢١١/٤) عن الشعبي مرسلًا ، وعن جابر موصولًا] .

قَالُوا : أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرْحُ مِنْكَ ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ .

وَجِيءَ بِالْمَرْأَةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ : أَرَدْتُ قَتْلَكَ .

فَقَالَ : « مَا كَانَ اللَّهُ لِيُسَلِّطَكَ عَلَيَّ » .

قَالُوا : أَلَا نَقْتُلُهَا ؟

قَالَ : « لَا » وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا ، وَلَمْ يَعاقِبْهَا .

وَلَمْ يَقْتُلْهَا ﷺ أَوَّلًا ، فَلَمَّا مَاتَ بَشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ قَتَلَهَا^(١) .

أثرُ غزوة خيبر :

وكان لغزوة خيبر وانتصار المسلمين فيها انتصاراً رائعاً وقع كبيرٌ في قلوب القبائل العربية التي لم تُسلم بعدُ ، فقد كانت تعرف قوة اليهود الحربية في خيبر ، وما كانوا يتمتعون به من غنى ورفاهية ، وثروة زراعية غذائية ، ووفرة السلاح والكراع ، وقوة الحصون والأطام ، واستعصائها على الزاحفين المهاجمين ، ووجود القادة المحنكين ، والأبطال المدربين كمرحب ، والحارث أبي زينب ، وكان له أثرٌ في مجرى الحوادث .

يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون معلقاً على غزوة خيبر وأثرها في تاريخ الإسلام :

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٣٩٨ ، وأخرجه البخاري مختصراً عن أبي هريرة ، [في كتاب الطب] في باب « الشاة التي سمت النبي بخيبر » [برقم (٥٧٧٧) ، وأبو داود في كتاب الديانات ، باب فيمن سقى رجلاً سماً أو أطعمه فمات ... ، برقم (٤٥٠٩) ، وأحمد في المسند (٢/٤٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه البخاري أيضاً في كتاب الهبة ... ، باب قبول الهدية من المشركين برقم (٢٦١٧) ، ومسلم في كتاب السلام ، باب السم ، برقم (٢١٩٠) من حديث أنس رضي الله عنه] .

« ومِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ غَزْوَةَ خَيْبَرَ كَانَتْ ذَاتَ شَأْنٍ عَظِيمٍ فِي تَارِيخِ الْفَتْوحِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، إِذْ كَانَتْ قِبَائِلُ الْحِجَازِ تَرَاقِبُ نَتِيجَتَهَا بِاهْتِمَامٍ وَتَنْظُمٍ شُؤْنَهَا عَلَى حَسَبِ مَا كَانَ يَتَرَاءَى لَهَا مِنْ نَتِيجَةِ صُلَيْلِ السُّيُوفِ بَيْنَ الْأَنْصَارِ وَالْيَهُودِ ، وَقَدْ كَانَ أَعْدَاءُ الرُّسُولِ الْكَثِيرُونَ فِي بَادِيَةِ الْعَرَبِ وَحَاضِرَتِهَا يَعلُقُونَ آمَالاً كَبِيرَةً عَلَى تِلْكَ الْغَزْوَةِ »^(١) .

وَالْأَمْرُ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ (كَمَا لَاحَظَهُ الدُّكْتُورُ حَسِينُ مُؤَنَسٌ) لَمْ يَكُنْ يَقْتَصِرُ عَلَى الْقَضَاءِ عَلَى مَرْكَزِ الْمَقَاوِمَةِ الْيَهُودِيَّةِ ، بَلْ يَتَخَطَّى ذَلِكَ إِلَى مَا لَا يَقِلُّ أَهْمِيَّةً عَنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ الْقَضَاءُ عَلَى مَقَاوِمَةِ أَكْبَرِ الْقِبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الضَّارِبَةِ فِيمَا بَيْنَ الْحِجَازِ وَنَجْدٍ فِي الشَّمَالِ وَسَطَ الْجَزِيرَةِ وَهِيَ غُطْفَانُ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ مَفْرُؤٌ قَبْلَ أَنْ يَنْجَحَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوَاتِهِ كُلِّهَا نَحْوَ مَكَّةَ لِلْفَرَاغِ مِنْ أَمْرِهَا^(٢) .

فَتْوحٌ وَمَغَانِمُ :

وَبَعْدَ مَا انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَمْرِ خَيْبَرَ ، انْصَرَفَ إِلَى فَدَكِ^(٣) ، وَبَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِصَالِحُونَهُ عَلَى النِّصْفِ مِنْ فَدَكِ ، فَقَبِلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُهُ حَيْثُ يَرَى مِنْ مَصَالِحِهِ وَمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ^(٤) .

ثُمَّ جَاءَ إِلَى وَادِي الْقُرَى^(٥) ، وَهِيَ مَجْمُوعَةُ قُرَى بَيْنَ « خَيْبَرَ »

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب : ص ١٦٢ .

(٢) من بحث الدكتور حسين مؤنس قدمه إلى مؤتمر السيرة والسنة النبوية المنعقد في الدوحة في شهر محرم عام ١٤٠٠ هـ .

(٣) كانت فدك حكومة مستقلة كسائر الواحات والقرى في أعالي الحجاز، أهلها من اليهود وبها قوم من بني مرة ، وقوم من بني سعد بن بكر . (نهاية الأرب ، ١٧ / ٣٠٩) .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٣٦٨ .

(٥) وادي القرى : واد كثرت قراه ، لذلك قيل له وادي القرى ، وأهله عرب ويهود ، وهو من المواضع المعروفة بالخصب في جزيرة العرب ، وبه عيون وآبار .

و « تِيْمَاء »^(١) وقد استعمرها اليهودُ قبلَ الإسلامِ ، وأصبحتَ لهم مركزاً ، وانضافَ إليهم جماعةٌ منَ العربِ ، ودعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الإسلامِ ، وأخبرهم أنَّهم إنْ أسلمُوا أحرزُوا أموالهم ، وحقنُوا دماءَهُمْ ، وحسابُهُم على الله^(٢) .

وكانتَ في هذه الغزوةِ مبارزاتٌ ، كانَ الزبيرُ بنُ العوامِ - رضيَ الله عنه - بطلَها ، وكانَ الانتصارُ فيها للمسلمينَ ، وأعطى اليهودُ من غنمٍ ما بأيديهم ، وغنمَ المسلمونَ أموالاً ، وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً ، وقسمَ رسولُ الله ﷺ ما أصابَ على أصحابِهِ بوادي القرى ، وتركَ الأرضَ والنخلَ بيدِ اليهودِ ، وعاملهم عليها .

ولمَّا بلغَ يهودُ تيماءَ ما واطأَ عليه رسولُ الله ﷺ أهلَ خيبرَ ، وفدَكَ ، ووادي القرى ، صالَحُوا رسولَ الله ﷺ وأقامُوا بأموالِهِمْ ، وانصرفَ رسولُ الله ﷺ راجعاً إلى المدينة^(٣) .

تعقُّفُ المهاجرين :

ولمَّا وصلَ المسلمونَ إلى المدينة ، ردَّ المهاجرونَ إلى الأنصارِ منائحَهُم التي كانوا منحوهم إياها من النخيلِ ، حينَ صارَ لهم بخيبرَ مالٌ ونخيلٌ ، وكانتَ أمُّ سليمٍ - وهي أمُّ أنسِ بنِ مالكٍ - أعطتْ رسولَ الله ﷺ عذاقاً فأعطاهن مولاته أم أيمن ، فردَّ رسولُ الله ﷺ على أمِّ سليمٍ عذاقها^(٤) ،

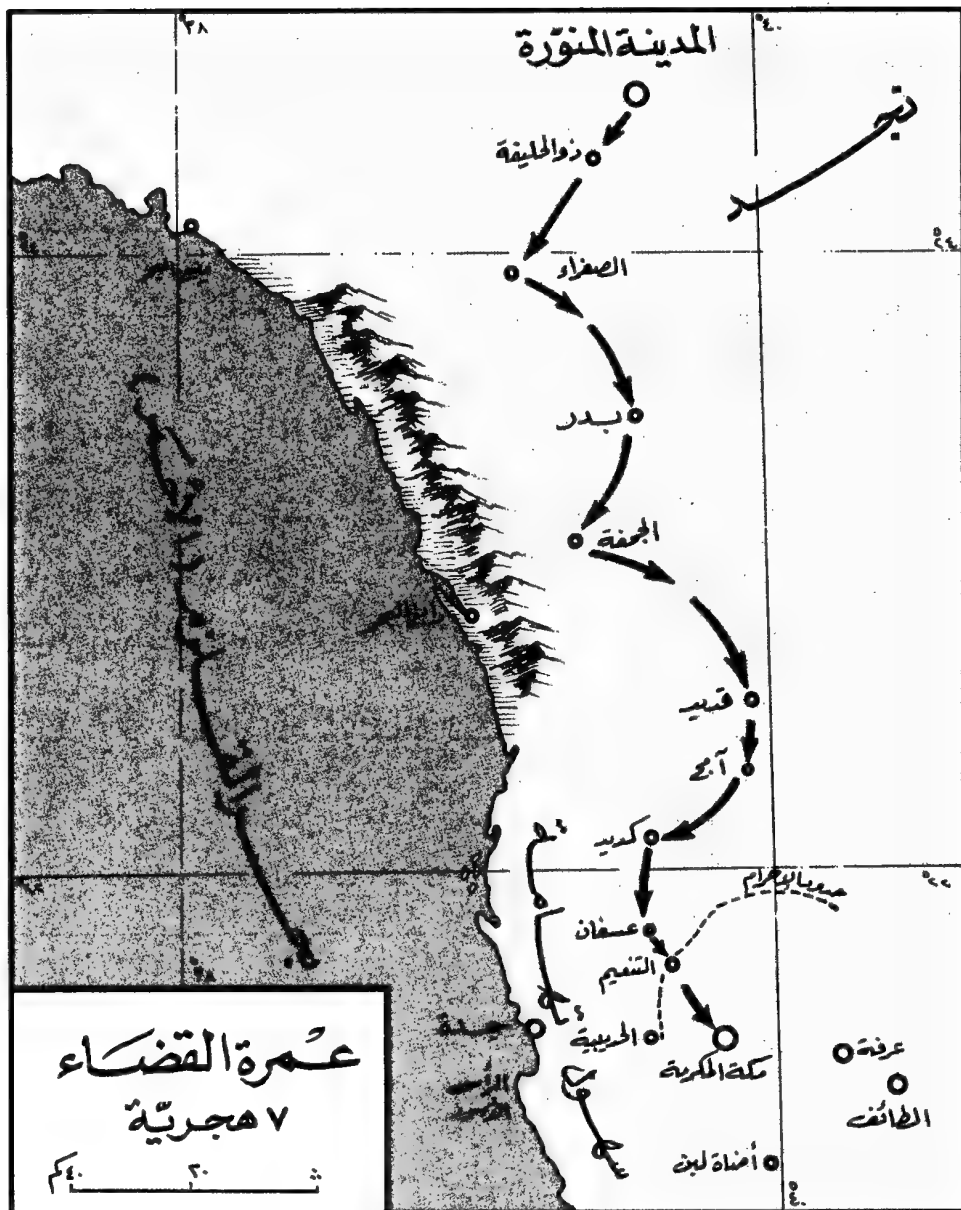
(١) معجم البلدان : ج ٧ .

(٢) [أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، في كتاب الأيمان والنذور ، باب هل يدخل في الأيمان والنذور والأرض والغنم . . . ، برقم (٦٧٠٧)] .

(٣) ملخصاً من « زاد المعاد » : ج ١ ، ص ٤٠٥ .

(٤) [عذاقها : أي نخلاتها ، وواحدتها : عذقٌ] .

خريطة عمرة القضاء ٧ هجرية



وأعطى أم أيمن مكانهن من حائطه مكان كل عذيق عشرة^(١) .

وبعث رسول الله ﷺ بعد خيبر سرايا كثيرة ، وأمر عليها كبار الصحابة ، وكان في بعضها قتال ، ولم يكن في بعضها قتال^(٢) .

عمرة القضاء :

ولما كان العام المقبل ، وذلك في سنة سبع ، قدم رسول الله ﷺ والمسلمون ، وخلت قريش بينه وبين مكة ، وأقبلوا بيوتهم ، وطلعوا على جبل قعيقعان^(٣) ، فأقام بها ثلاثاً ، واعتمر ، وهو قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فِجَعَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحَاقِرِيًّا ﴾ [الفتح : ٢٧] .

التنافس في حضنة البنت وتكافؤ المسلمين في الحقوق :

وقد تغيرت النفوس والعقول بتأثير الإسلام تغيراً عظيماً ، فعادت البنت - التي كان يتعير بها أشراف العرب ، وجرت عادة وأدها في بعض القبائل ،

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٠٦ ، وروى مسلم القصة مفصلة في كتاب الجهاد والسير في باب « رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم من الشجر والتمر حين استغنوا عنها بالفتوح » [برقم (١٧٧١) من حديث أنس رضي الله عنه] وذكر فيها فتح قريظة والنضير .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

(٣) راجع صحيح البخاري [كتاب المغازي] باب عمرة القضاء ، [رقم (٤٢٥٦) ، وأبو داود ، كتاب المناسك ، باب في الرمل ، رقم (١٨٨٥) ، وابن حبان في الصحيح (١٩٩/٩) رقم (٣٨١١) وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقعيقعان : هو جبل بمكة . قيل : سمي به ، لأن جزمهما لما تحاربوا كثرت ففقة السلاح هناك (النهاية : ٨٨/٤) .

فراراً من العارِ ، وزهداً في البناتِ - حبيبةٌ يتنافسُ في كفالِتها وتربيتها المسلمون .

وكانوا سَوَاسِيَّةً ، لا يرجحُ بعضهم على بعضٍ إلا بفضلٍ أو حقٍّ ، ولمَّا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ الخروجَ مِنْ مَكَّةَ ، تَبِعَتْهُ ابْنَةُ حمزةَ تنادي : يا عَمُّ ! يا عَمُّ ! فتناولها عليٌّ ، فأخذ بيدها وقالَ لفاطمةَ - عليها السلام - : دونك ابنةَ عَمِّكَ ، فحملتها ، فاختصمَ فيها عليٌّ وزيدٌ وجعفرٌ ، فقالَ عليٌّ : أنا أخذتها ، وهي بنتُ عمِّي ، وقالَ جعفرٌ : ابنةُ عمِّي وخالتُها تحتي ، وقالَ زيدٌ : ابنةُ أخي ، فقضى فيها النَّبِيُّ ﷺ لخالتِها ، وقالَ : « الخالةُ بمنزلةِ الأمِّ » وقالَ لعلِّي : « أَنْتَ مِنِّي وأنا منك » وقالَ لجعفرٍ : « أشبهتَ خلقي وخلُقي » وقالَ لزيدٍ : « أَنْتَ أَخُونَا ومولانا » (١) .

(١) أخرجه البخاري ، في كتاب المغازي ، باب عمرة القضاء [برقم (٢٦٩٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ، وأبو داود في كتاب الطلاق ، باب من أحق بالولد ، برقم (٢٢٨٠) من حديث علي رضي الله عنه] .

غزوة مؤتة (١)

جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ ثَمَانٍ مِنَ الْهِجْرَةِ

قَاتِلُ سَفِيرِ الْمُسْلِمِينَ وَعَقُوبَتُهُ :

بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَارِثَ بْنَ عَمِيرٍ الْأَزْدِيَّ بِكِتَابِهِ إِلَى شَرْحِبِيلَ بْنِ عَمْرٍو الْغَسَّانِيِّ ، حَاكِمِ « بُصْرَى » التَّابِعِ لِقَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ ، فَأَوْثَقَهُ رِبَاطًا ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَضْرَبَ عُنُقَهُ^(٢) ، وَلَمْ تَجِرِ الْعَادَةُ بِقَتْلِ الرُّسُلِ وَالسُّفَرَاءِ ، عِنْدَ الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ ، مَهْمَا اشْتَدَّ الْخِلَافُ ، وَكُرِهَتْ الرِّسَالَةُ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا ، وَكَانَ حَادِثًا لَا يَجُوزُ التَّغَاضِي عَنْهُ ، فَفِيهِ خَطَرٌ عَظِيمٌ عَلَى الرُّسُلِ وَالسُّفَرَاءِ ، وَإِهَانَةٌ شَدِيدَةٌ لِلْمُرْسَلِ وَالرِّسَالَةِ ، فَكَانَ لَا بَدَّ مِنْ تَأْدِيبِ هَذَا الْمَعْتَدِي وَالْغَضَبِ لِهَذَا الْمَعْتَدِي عَلَيْهِ ، حَتَّى لَا تَهُونَ حَيَاةُ السُّفَرَاءِ ، وَلَا تَتَكَرَّرُ هَذِهِ الْمَأْسَاءُ .

أَوَّلُ جَيْشٍ فِي أَرْضِ الرُّومِ :

فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْخَبَرَ ، أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ بَعْثًا إِلَى « بُصْرَى » وَذَلِكَ

(١) قرية تقع الآن على بعد ١٢ كيلو متراً جنوب الكرك في الأردن ، والمسافة بين المدينة ومؤتة ١١٠٠ كيلو متراً تقريباً ، وقد قطعها المسلمون على ظهور الإبل والخيول ، وانقطع عنهم المدد والميرة والخبر بعد ما خرجوا من بلدهم ، وهم يدخلون في لهوات العدو وفي فكيه ، يفعل بهم ما يشاء . (مقتبس من كتاب المؤلف « من نهر كابل إلى نهر اليرموك ») [انظر « رحلات العلامة أبي الحسن الندوي ، ص (٣٦٤) طبع دار ابن كثير بدمشق] .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤١٤ .

في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة ، فتجهز الناس ، وهم ثلاثة آلاف ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وهو مولى رسول الله ﷺ ، وفي الجيش كبار المهاجرين والأنصار ، وقال : « إن أصيب جعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة » ، فلما حضر خروجهم ، ودع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم^(١) ، وكان أمامهم سفير طويل شاق ، وعدو ذو شوكة ، يتمتع بحماية أعظم مملكة في ذلك العصر .

ومضى الجيش ، حتى نزل بـ « معان » وبلغ المسلمين أن هرقل بـ « البلقاء » في مئة ألف من الروم ، وانضم إليهم جمع كثير من قبائل العرب : لخم ، وجذام ، وبلقين ، وبهراء ، وبلي ، فأقاموا على « معان » ليلتين ينظرون في أمرهم ، وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمر بأمره فمضي له^(٢) .

ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة :

وشجع الناس عبد الله بن رواحة ، فقال : يا قوم ! والله إن الذي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا به الله ، فانطلقوا ، فإنما هي إحدى الحسينين ، إما ظفرو وإما شهادة ، فمضى الناس^(٣) .

(١) زاد المعاد : وابن هشام : ج ٢ ، ص ٢٧٣ [وأخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة مؤتة . . . برقم (٤٢٦١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وأحمد في المسند (٣٩١/٥ - ٣٠٠ - ٣٠١) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه] .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤١٥ .

(٣) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤١٥ .

قتال المستميتين وصوله الأسود :

فلَمَّا كانوا بُتْخُومَ البلقاءِ ، لقيَتَهُمُ الجموعُ من الرومِ والعربِ ، بقريةٍ من قرى البلقاءِ ، يقالُ لها « مشارفُ » ودنا العدوُّ ، وانحازَ المسلمونَ إلى قريةٍ يقالُ لها « مؤتة » والتقى الناسُ ، واقتتلوا^(١) .

وقَاتَلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِرَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى اسْتَشْهَدَ ، وَقَدْ أَخَذَتِ الرَّمَاحُ مِنْهُ كُلَّ مَاخِذٍ ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرُ فَقَاتَلَ بِهَا ، حَتَّى إِذَا أَرَهَقَهُ الْقِتَالُ ، اقْتَحَمَ عَنْ فَرْسِهِ فَعَقَرَهَا ، ثُمَّ قَاتَلَ ، فَقُطِعَتْ يَمِينُهُ ، فَأَخَذَ الرَّايَةَ بِيَسَارِهِ ، فَقُطِعَتْ يَسَارُهُ ، فَاحْتَضَنَ الرَّايَةَ بِعِضْدَيْهِ حَتَّى قُتِلَ ، وَلَهُ ثَلَاثُ وَثَلَاثُونَ سَنَةً^(٢) ، وَوَجَدَ الْمُسْلِمُونَ مَا بَيْنَ صَدْرِهِ وَمَنْكَبِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْهُ تَسْعِينَ جِرَاحَةً ، مَا بَيْنَ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ ، وَطَعْنَةٍ بِالرَّمْحِ كُلُّهَا فِي الْأَمَامِ^(٣) ، وَمَاتَ فَتَى الْفَتَيَانِ وَهُوَ يَحْنُ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَيَتَغَنَّى بِنِعْمَائِهَا ، وَيَسْتَهِينُ بِالْعَدُوِّ وَعُدَدِهِ وَعُدَدِهِ ، وَبِزُخَارِفِ الدُّنْيَا .

فَلَمَّا قُتِلَ جَعْفَرُ ، أَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ الرَّايَةَ وَتَقَدَّمَ بِهَا ، وَنَزَلَ عَنْ فَرْسِهِ ، وَأَتَاهُ ابْنُ عَمِّ لَهُ ، بَعْظَمٍ عَلَيْهِ بَعْضُ لَحْمٍ ، وَقَالَ : شَدَّ بِهَذَا صُلْبَكَ ، فَإِنَّكَ قَدْ لَقِيتَ فِي أَيَّامِكَ هَذِهِ مَا لَقِيتَ ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ وَأَخَذَ مِنْهُ بِفَمِهِ يَسِيرًا ، ثُمَّ أَلْقَاهُ مِنْ يَدِهِ ، وَأَخَذَ سَيْفَهُ فَتَقَدَّمَ وَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ^(٤) .

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤١٥ باختصار .

(٣) ابن كثير : ج ٣ ، ص ٤٧٤ ، وزاد المعاد : ج ١ ، ص ٤١٥ ، وجاء في (الجامع الصحيح) « فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين ما بين طعنة ورمية » [انظر كتاب المغازي ، باب غزوة مؤتة ، رقم الحديث (٤٢٦٠)] .

(٤) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤١٥ ، سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٣٧٩ [وأخرجه أبو داود في كتاب الجهاد ، باب في الدابة تعرقب في الحرب ، برقم (٢٥٧٣) من حديث عبد الله بن =

قيادة خالد الحكيمة :

واضطلح الناس بعده على خالد بن الوليد - رضي الله عنه - فأخذ الراية ، ودافع القوم ، وكان شجاعاً حكيماً ، يعرف سياسة الحرب ، فانحاز بالجيش الإسلامي إلى الجنوب ، وانسحب العدو نحو الشمال^(١) ، وأرخى الليل سدوله ، حتى انصرف الناس ، وكلا الفريقين اغتنم السلامة ، ورأى المصلحة في عدم التحرش ومتابعة القتال .

ومعروف أن عملية الانسحاب - كما يقول الفاضل اللواء الركن محمود شيت خطاب - تعد من أصعب العمليات العسكرية لاحتمال انقلاب الانسحاب إلى هزيمة ، والهزيمة كارثة تؤدي إلى خسائر فادحة بالمنهزمين ، ولا تعد خسائر المسلمين الضئيلة في مؤتة شيئاً يذكر بجانب الفائدة العسكرية التي أفادها الاطلاع على خواص قوات الروم وتنظيمها وتسليحها وأساليب قتالها مما اتضح أثره في المعارك التي خاضها المسلمون فيما بعد^(٢) .

وورع خالد عدداً غير قليل من رجاله في خط مؤخرة جيشه ، أحدثوا حين أصبح الناس ضجة عظيمة ، أدخلت إلى روع العدو أن مدداً جاء من المدينة ، فتهيب الروم المسلمين ، وقالوا : إذا كان صنع ثلاثة آلاف بنا ما قد رأيناه ، فكيف بهم إذا جاءهم المدد ، الذي لا يعرف عدده وقوته ؟!! ، فتعاس الروم عن مهاجمة الجيش الإسلامي ، وكفى الله المؤمنين القتال^(٣) .

= الزبير ، والهيثمي في المجمع (٦/ ١٥٩ - ١٦٠) عن رجل من الصحابة وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٥١١) .

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤١٥ ، وسيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٢) شيت خطاب ، الرسول القائد ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، وعن مؤتة انظر كذلك Encyclopedia of Islam, art, mu'ta .

(٣) راجع «المغازي» للواقدي .

خبرُ عيانٍ لا بيان :

وبينما كان المسلمون يخوضون المعركة ، كان رسولُ الله ﷺ يخبرُ أصحابه في المدينة بما يجري في المعركة ، يقول أنسُ بنُ مالك - رضي الله عنه - : إنَّ رسولَ الله ﷺ نعى زيدا وجعفرَ وابنَ رَواحةَ للناسِ قبلَ أن يأتِيهم الخبرُ ، فقال : « أخذَ الرايةَ زيدٌ ، فأصيبَ ، ثم أخذَها جعفرُ فأصيبَ ، ثم أخذَها ابنُ رَواحةَ فأصيبَ » وعيناهُ تَذْرِفانِ « حتَّى أخذَ الرايةَ سيفٌ من سيوفِ الله ، حتَّى فتحَ اللهُ عليهم »^(١) .

وفي روايةٍ أنَّه قالَ وهوَ على المنبرِ : « وما يسرُّهم أنَّهم عندنا » .

الطيَّارُ ذو الجناحين :

وقالَ في جعفرٍ : « إنَّ اللهَ أبدَلَه بيديهِ جناحينِ يطيرُ بهما في الجنةِ حيثُ شاء »^(٢) « ولذلك لُقِّبَ بـ « جعفرِ الطيَّارِ » و « ذي الجناحينِ » .

حبُّ نبويٍّ وعاطفةٌ إنسانيةٌ :

وقالَ رسولُ الله ﷺ لزوج جعفر : « اثَّينِي ببني جعفر » ، فلمَّا حضروا تشمَّمهم ، وذرفتْ عيناهُ ، وأخبرَ بشهادةِ جعفر ، ولمَّا أتاَهُم النعيُّ ، قالَ لأهله : « اصنعُوا لآلِ جعفر طعاماً ، فقد أتاَهُم أمرٌ يشغلُهُم » وعُرفَ في وجهِ رسولِ الله ﷺ الحزنُ^(٣) .

(١) رواه البخاري [في كتاب المغازي] ، باب غزوة مؤتة [برقم (٤٢٦٢)] ، وأحمد في المسند (١١٣/٣) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) روى البخاري في صحيحه : كان ابن عمر إذا حيا ابن جعفر قال : السلام عليك يا بن ذي الجناحين ، [أخرجه في كتاب المغازي ، باب غزوة مؤتة ، برقم (٣٧٠٩)] ، وزاد المعاد ، ج ١ ، ص ٤١٥ .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٣٨٠ - ٣٨١ باختصار ، والرواية في سنن الترمذي [في أبواب =

كَرَّارُونَ لَا فَرَّارُونَ :

وَلَمَّا دَنَا الْجَيْشُ مِنْ حَوْلِ الْمَدِينَةِ ، تَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ ، وَلَقِيَهُم الصَّبِيَّانِ يَشْتَدُونَ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقْبِلٌ مَعَ الْقَوْمِ عَلَى دَابَّةٍ ، فَقَالَ : « خَذُوا الصَّبِيَّانِ وَاحْمِلُوهُم ، وَأَعْطُونِي ابْنَ جَعْفَرٍ » فَأَتَى بَعْدَ اللَّهِ ، فَأَخَذَهُ ، فَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ .

وَجَعَلَ النَّاسُ يَحْثُونَ عَلَى الْجَيْشِ التَّرَابَ ، وَيَقُولُونَ : يَا فَرَّارُ ! فَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَيْسُوا بِالْفَرَّارِ ، وَلَكِنَّهُمْ الْكَرَّارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى »^(١) .

بَيْنَ مَوْتَةٍ وَفَتْحِ مَكَّةَ :

وَكَانَ بَيْنَ غَزْوَةِ مَوْتَةٍ وَفَتْحِ مَكَّةَ سَرِيَّةٌ ذَاتِ السَّلَاسِلِ ، كَانَتْ فِي جَمَادَى الْآخِرَةِ ، سَنَةَ ثَمَانٍ ، وَهِيَ وَرَاءَ وَادِي الْقَرَى ، وَكَانَتْ فِي بِلَادِ قُضَاعَةَ ، دَوَّخَهَا الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ .

وَسَرِيَّةُ الْخَبَطِ ، وَكَانَ أَمِيرُهَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ، وَكَانَتْ فِي رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانٍ ، فِي ثَلَاثِمِئَةِ رَجُلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، أُرْسِلَهُمْ إِلَى حَيٍّ مِنْ جُهَيْنَةَ ، مِمَّا يَلِي سَاحِلَ الْبَحْرِ ، وَأَصَابَهُمْ فِي الطَّرِيقِ جَوْعٌ شَدِيدٌ ، حَتَّى أَكَلُوا الْخَبَطَ (وَهُوَ وَرَقُ الشَّجَرِ) وَأَلْقَى إِلَيْهِمُ الْبَحْرَ حَوْتًا عَظِيمًا ، يُقَالُ لَهُ « الْعَنْبَرُ »

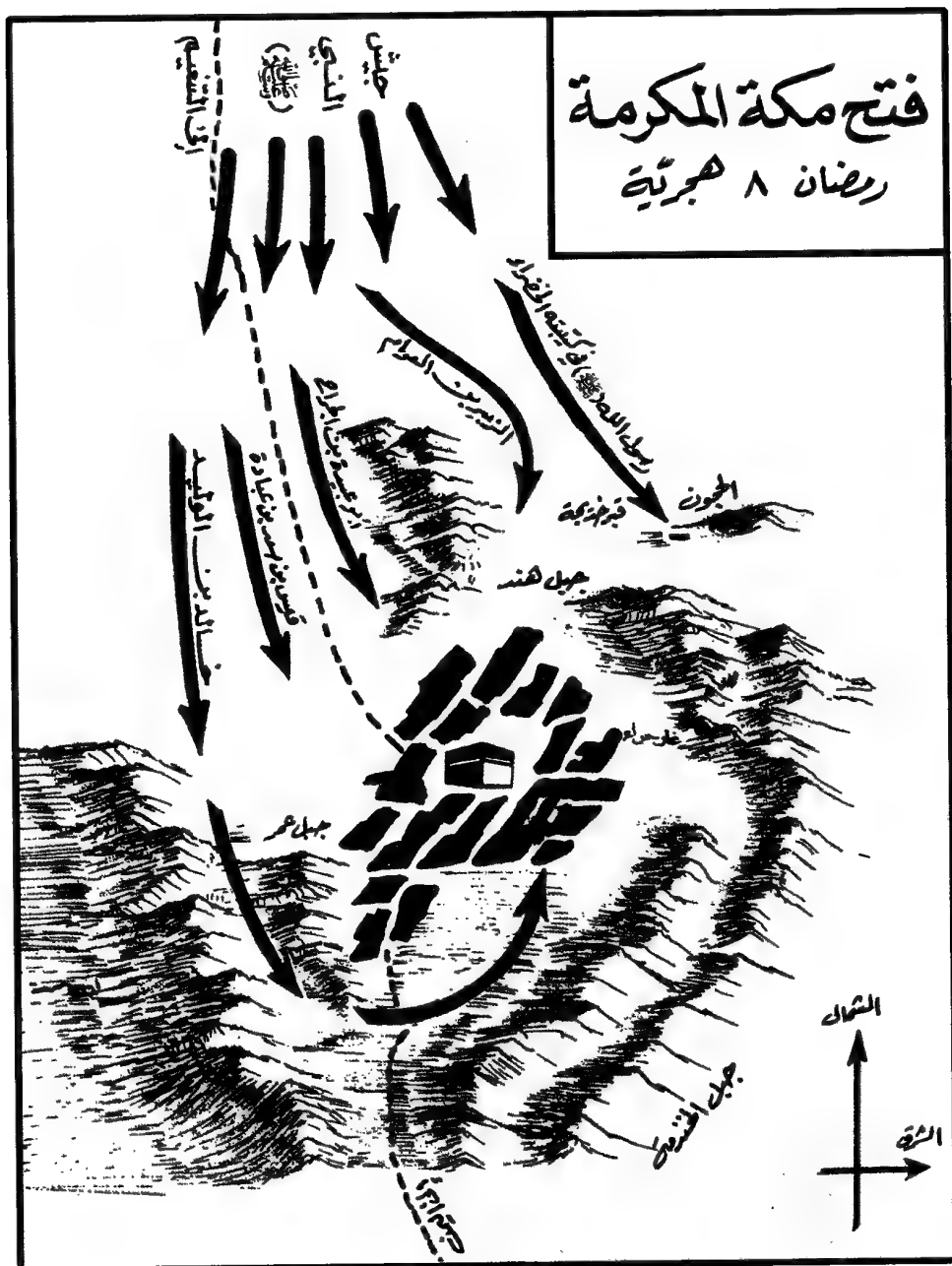
= الجنائز ، باب ما جاء في الطعام يُصْنَعُ لأهل الميت ، برقم (٩٩٨) ، وأبو داود في كتاب الجنائز ، باب صنعة الطعام لأهل الميت ، برقم (٣١٣٢) ، وابن ماجه في أبواب الجنائز ، باب ما جاء في الطعام يبعث إلى أهل الميت ، برقم (١٦١٠) ، وأحمد في المسند (٢٠٥ / ١) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما [.

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل [وأخرجه ابن هشام في السيرة (٤٧٨ / ٣) مرسلاً من طريق ابن إسحاق عن عروة ، وسنده ضعيف] .

فَأَكَلُوا مِنْهُ نِصْفَ شَهْرٍ ، وَادَّهَنُوا مِنْهُ ، حَتَّى صَلَحَتْ مِنْهُ أَجْسَامُهُمْ ، وَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ » فَتَنَاوَلَ مِنْ لَحْمِهِ شَيْئًا^(١) .

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤١٧ ، والرواية في صحيح البخاري ، [في كتاب المغازي] باب « غزوة سيف البحر » [برقم (٤٣٦١)] وفي صحيح مسلم [في كتاب الصيد والذبائح ، باب إباحة ميتات البحر ، برقم (١٩٣٥) ، وأبو داود في كتاب الأطعمة ، باب في دواب البحر ، برقم (٣٨٤٠) ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما] .

خريطة فتح مكة المكرمة رمضان ٨ هجرية



فَتْحُ مَكَّةَ^(١)

رَمَضَانَ سَنَةِ ثَمَانٍ مِّنَ الْهِجْرَةِ

تمهيدٌ لفتح مكة :

ولَمَّا تَمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِي تَرْسِيخِ هَذَا الدِّينِ ، وَتَرْبِيَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَامْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ، وَفَاضَتْ كَأْسُ قُرَيْشٍ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا ، وَجُحُودًا بِالْحَقِّ ، وَصَدَّاءَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَحَارَبَةً لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَدْخَلَ رَسُولُهُ وَالْمُسْلِمُونَ مَكَّةَ فَاتِحِينَ غَالِبِينَ ، يَطْهَرُوا الْكَعْبَةَ مِنَ الرَّجْسِ مِنَ الْأَوْثَانِ وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَيُعِيدُوا مَكَّةَ إِلَى مَكَانَتِهَا الْأُولَى ، فَتَكُونَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَيَجْعَلُونَ الْبَيْتَ كَمَا كَانَ مَبَارَكًا وَهَدًى لِلْعَالَمِينَ .

نقضُ بني بكرٍ وقريشٍ الحلفَ :

وَقَدْ هَيَّأَ اللَّهُ لَذَلِكَ أَسْبَابًا ، وَسَاعَدَتْ عَلَيْهَا قُرَيْشٌ ، بَلْ دَعَتْ إِلَيْهَا مِنْ حَيْثُ لَا تَشْعُرُ ، فَقَدْ وَقَعَ حَادِثٌ لَمْ يَسُوْغْ ذَلِكَ فَحَسْبُ ، بَلْ أَوْجَبَهُ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .

كَانَ قَدْ تَقَرَّرَ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ أَنَّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخَلَ فِي عَقْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَهْدِهِ فَعَلَ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخَلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ فَعَلَ ، وَدَخَلَتْ

(١) الموافق ليناير سنة ٦٣٠ م .

بنو بكرٍ في عقدٍ قريشٍ وعهدِهِمْ ، ودخلتْ خزاعةٌ في عقدِ رسولِ الله ﷺ وعهدِهِ^(١) .

وكانَ بينَ بني بكرٍ وبينَ خزاعةَ تِرةٌ^(٢) قديمةٌ ، وعداءٌ متوارثٌ ، يرجعُ تاريخُهُ إلى ما قبلِ البعثةِ ، وجاءَ الإسلامُ فحجزَ بينهم ، وتشاغلَ الناسُ بشأنِهِ ، فلمَّا كانتِ الهدنةُ ، ودخلتِ القبيلتانِ في معسكرَينِ متحاربَينِ ، أرادَ بنو بكرٍ أنْ ينتهزُوا هذهَ الفرصةَ ، ليصيبُوا من خزاعةَ الثَّارَ القديمَ ، فبيَّتَ نفرٌ من بني بكرٍ لخزاعةَ وهم على ماءٍ لهم فأصابُوا منهم رجالاً ، وتناوشُوا واقتتلُوا .

وأعانت قريشُ بني بكرٍ بالسَّلاحِ ، وقاتلَ معهم أشرافُ من قريشٍ مستخفينَ ليلاً ، حتَّى حازُوا خزاعةَ إلى الحرمِ ، فلمَّا انتهوا إليه قالتْ بنو بكرٍ لبعضِ رجالِهِمْ : إِنَّا قَدْ دَخَلْنَا الحرمَ ، إِلَهَكَ ! إِلَهَكَ ! فقالَ : لا إِلَهَ اليومَ ! يا بني بكرٍ ، أصيبُوا ثأركُم ، فلا تجدونَ هذهَ الفرصةَ بعدَ ذلكَ^(٣) .

الاستغاثةُ برسولِ الله ﷺ :

وخرجَ عمرو بنُ سالمٍ الخُزاعيُّ ، وقدمَ على رسولِ الله ﷺ المدينةَ ، فوقفَ عليه ، وأنشدَ أبياتاً ، ينشدهُ فيها الحلفَ الذي كانَ بينَهُ وبينَ خزاعةَ ، وسألهُ النصرَ والنجدةَ ، ويخبرُهُ بأنَّ قريشاً أخلفُوهُ الموعدَ ، ونقضُوا ميثاقَهُ المؤكَّدَ ، وأنَّهُم يُبَيِّتُوا وهم على ماءٍ لهم وقتلُوا رُكعاً وسجّداً ، فقالَ رسولُ الله ﷺ : « نَصِرْتَ يا عمرو بنُ سالمٍ ! » .

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٣٩٠ .

(٢) [تِرةٌ : أي ثأرٌ] .

(٣) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤١٩ ، وابن هشام : ج ٢ ، ص ٣٩٠ .

براءة الذمة وإقامة الحجة :

وأراد رسول الله ﷺ أن يستوثق منهم الخبر ، ويعذر إلى قريش ، فبعث إليهم رجلاً يخيرهم بين إحدى ثلاث خلال ، بين أن يدفعوا دية قتلى خزاعة ، أو يبرؤوا من حلف من تولى كبر هذا النقض ، وقاد الحملة على خزاعة ، وهم بنو نفاثة من بني بكر ، أو ينبذ إليهم على سواء ، فأجابهُ بعضُ زعمائهم : لكنْ ننبذ إليهم على سواء ، وبذلك برئت ذمَّة قريش ، وقامت عليهم الحجة^(١) .

محاولة قريش لتجديد العهد :

وقال رسول الله ﷺ للنَّاسِ حينَ بلغَهُ الخبرُ : « كَأَنكُم بِأبي سفيانَ قدْ جاءَكُم لِيُشَدَّ العَقْدَ وَيَزِيدَ المَدَّةَ » وهكذا كان ، فرهبت قريش مما صنعت ، ونَدِمَت على الجوابِ القاسي الذي أجاب به بعضُ سفهائهم ، فبعثوا أبا سفيانَ إلى رسولِ الله ﷺ لِيُشَدَّ العَقْدَ وَيَزِيدَ المَدَّةَ^(٢) .

إيثارُ النَّبيِّ على الآباءِ والأبناءِ :

وقَدِمَ أبو سفيانَ على رسولِ الله ﷺ المدينةَ ودخلَ على ابنتِهِ « أُمِّ حَبِيبَةَ » زوجِ النَّبيِّ ﷺ ، فلمَّا ذهبَ ليجلِسَ على فراشِ رسولِ الله ﷺ طَوَّتهُ عَنْهُ ، فقالَ : يا نبيُّ ! ما أدري أَرُغِبْتُ بي عَنْ هذا الفراشِ أَمْ رَغِبْتُ بِهِ عَنِّي ؟

قَالَتْ : بَلْ هُوَ فراشُ رسولِ الله ﷺ وَأَنْتَ مُشْرِكٌ نجسٌ ، وَلَمْ أَحِبَّ أَنْ تجلِسَ على فراشِ رسولِ الله ﷺ .

(١) أخرجه الزرقاني في المواهب (٣٤٩/٢) : عن ابن عائذ عن ابن عمر ، والرجل الذي بعثه رسول الله ﷺ اسمه ضمرة ، والذي أجابه من قريش اسمه قرظة بن عمرو .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٢٠ ، وابن هشام : ج ٢ ، ص ٣٩٥-٣٩٦ .

قال : والله لقد أصابك بعدي شرٌّ^(١).

حيرة أبي سفيان وإخفاؤه :

وأتى أبو سفيان رسول الله ﷺ فكلّمه فلم يردّ عليه شيئاً ، ثمّ ذهب إلى أبي بكرٍ فكلّمه أن يكلم له رسول الله ﷺ فقال : ما أنا بفاعلٍ ، وراودَ عمرَ وعليّاً وفاطمةَ على ذلك ، فلم يجبه أحدٌ إلى ذلك ، وقالوا : إنّ الأمرَ أجلُّ منه ، حتّى احتارَ في أمره ، وقالَ لفاطمةَ : يا بنتَ محمدٍ ! هل لك أن تأمرِي بُنيّك هذا - وأشارَ إلى الحسنِ بنِ عليٍّ ، وهو غلامٌ يدبُّ - أن يجيرَ بينَ الناسِ ، فيكونَ سيّدَ العربِ إلى آخرِ الدهرِ ، قالتَ : والله ما بلغ بُنيّ هذا أن يجيرَ بينَ الناسِ ، وما يجيرُ أحدٌ على رسولِ الله ﷺ ، ولمّا رأى عليٌّ حيرتهُ ، وما فيه من ضيقٍ وكربٍ ، قالَ له : ما أعلمُ لك شيئاً يُغني عنكَ شيئاً ، ولكنّكَ سيّدُ بني كنانةَ ، فقم فأجِرْ بينَ الناسِ ، ثمّ الحقْ بأرضِكَ ، قالَ : أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟ قالَ : والله ما أظنُّه ، ولكنّي لا أجدُ لك غيرَ ذلك ، فقام أبو سفيانَ في المسجدِ ، فقالَ : أيها الناسُ ! إنّي قد أجرتُ بينَ الناسِ ، ثمّ ركبَ بعيرَهُ ، فانطلقَ^(٢) .

ولمّا سمعتْ قريشُ القصّةَ ، قالوا : جئتنا بما لا يُغني عنّا ، ولا يُغني عنكَ شيئاً .

التأهبُ لمكّةَ وكتابُ حاطبِ بنِ أبي بلتعة :

وأمرَ رسولُ الله ﷺ الناسَ بالجهازِ ، واستعانَ على أمره بالكتمانِ ، ثمّ أعلمَ الناسَ أنّه سائرٌ إلى مكّةَ وأمرهم بالجدِّ والتجهُّزِ ، وقالَ : « اللهم ! خذِ

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٢٠ ، وابن هشام : ج ٢ ، ص ٣٩٥-٣٩٦ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٣٩٦-٣٩٧ .

العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها»^(١) .

ولمّا كان المجتمع الإسلامي المدني مجتمعاً بشرياً يعيش في واقع الحياة ، وبين المشاعر الإنسانية ، وخواطر النفس ورغباتها ، كان الأفراد فيه يصيبون ويخطئون ، وقد يكونون متأولين في تصرفاتهم وأحكامهم ، وقد يُجانبهم الصواب في هذا التأويل ، وذلك من خصائص المجتمعات البشرية التي تتمتع بالحرية والثقة ، وكان رسول الله ﷺ حين لا يقرّهم على هذا الخطأ ، يلتمس لهم العذر ، ويتسامح معهم ، وكان من أوسع الناس صدرًا مع هؤلاء المخطئين ، وأكثرهم معرفة بفضلهم وحسن بلائهم في الجهاد ، وسوابقهم في الإسلام ، وقد حفظ لنا الحديث وكتب السيرة النبوية وتاريخ الإسلام مثل هذه الحوادث النادرة في الوقوع ، وهو ممّا يدلّ على أمانتها وشهادتها بالحق .

ومن هذه الحوادث ما وقع لحاطب بن أبي بلتعة ، وهو ممّن هاجر من مكة وشهد بدرًا ، فقد جاء في الروايات أن النبي ﷺ لمّا أعلم الناس أنّه سائر إلى مكة ، وأسرّ الأمر ، فتجهّز الناس كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتاباً ، يُخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم ، ثمّ أعطاه امرأة ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته في قرون رأسها^(٢) ، ثمّ خرجت به ، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علياً والزبير ، فقال : انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ^(٣) ، فإنّ فيها ظعينة معها كتاب إلى قريش .

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٢١ ، وابن هشام : ج ٢ ، ص ٣٩٧ .

(٢) [قرون رأسها : أي ضفائرها] .

(٣) موضع بين المدينة ومكة ، قال الفتني : بمعجمتين موضع باثني عشر ميلاً من المدينة ، وقيل بمهمله وجيم ، وهو تصحيف ، (مجمع بحار الأنوار ، ج ٢ ، ص ١٢٠ ، طبع حيدر آباد ، الهند) .

فانطلقا تُعادي بهما خيلُهما حتَّى وجدا المرأةَ بذلك المكانِ ، فاستنزلاها
وقالا : معك كتابٌ ؟ فقالتُ : ما معي كتابٌ ! ففتشّا رحلَها فلم يجدَا شيئاً ،
فقالَ لها عليٌّ - رضيَ اللهُ عنه - : أحلفُ باللهِ ما كذبَ رسولُ اللهِ ﷺ ولا
كذبنا ، واللهِ لُتُخْرِجَنَّ الكتابَ ، أوْ لُنَجْرِدَنَّكَ ، فلمّا رأتِ الجدَّ منه ، قالتُ :
أعرِضْ ، فأعرِضَ ، فحلَّتْ قرونَ رأسِها فاستخرجتِ الكتابَ منها ، فدفعتهُ
إليهما ، فأتيا به رسولُ اللهِ ﷺ فإذا فيه : مِنْ حاطِبِ بنِ أَبِي بلتعةَ إلى قريشٍ
يخبرُهُم بمسيرِ رسولِ اللهِ ﷺ إليهم .

فَدَعَا رسولُ اللهِ ﷺ حاطِباً ، فقالَ : « يا حاطِبُ ما هذا » فقالَ : لا تعجلُ
عليَّ يا رسولَ اللهِ ، واللهِ إنيَ لمؤمنٌ باللهِ ورسوله ، وما ارتدَدْتُ ، ولا بدَّلْتُ ،
ولكنِّي كنتُ امرأً ملصقاً في قريشٍ ، لستُ من أنفسهم ، ولي فيهم أهلٌ وعشيرةٌ
وولدٌ ، وليس لي فيهم قرابةٌ يحمُونهم ، وكانَ مِنْ معكَ لهم قراباتٌ
يحمونهم ، فأحببتُ إذ فاتني ذلكَ أن أتخذَ عندهم يداً يحمُون بها قرابتي ،
فقالَ عمرُ بنُ الخطابِ : دَعْنِي يا رسولَ اللهِ أَضْرِبُ عُنُقَهُ ، فإنه قَدْ خانَ اللهُ
ورسولَهُ ، وقدْ نافقَ . فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا ، وما يُدْرِيكَ
يا عمرُ ! لعلَّ اللهُ قَدْ أَطْلَعَ على أَهْلِ بَدْرٍ ، فقالَ : اعملُوا ما شِئْتُمْ ، فقدْ غَفَرْتُ
لَكُمْ » ! فَذَرَفَتْ عَيْنَا عَمْرٍ ، وقالَ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ^(١) .

وخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ في رمضانَ سنةَ ثمانٍ من المدينةِ ومعهُ عشرةٌ

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٢١ - وقد وردت القصةُ في الصحاح [انظر هذه القصة فيما أوردها
البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة الفتح ، برقم (٤٢٧٤) ، ومسلم في فضائل
الصحابة ، باب من فضائل حاطب بن أبي بلتعة . . . ، برقم (٢٤٩٤) ، وأبو داود في كتاب
الجهاد ، باب في حكم الجاسوس إذا كان مسلماً ، برقم (٢٦٥٠) و(٢٦٥١) ، والترمذي
في أبواب تفسير القرآن ، في سورة الممتحنة ، برقم (٣٣٠٥) من حديث علي بن أبي طالب
رضي الله عنه] .

آلاف^(١) ، ومضى حتَّى نزل « مرَّ الظهران » ، وعمى الله الأخبارَ عن قريش ، فهم على وجلٍ وارتقابٍ .

عفوٌ عمَّن ظلم :

ولَقِيَ رسولُ الله ﷺ في الطريقِ ابنَ عمِّه أبا سفيانَ بنَ الحارثِ بنِ عبدِ المطلبِ ، فأعرضَ عنه ، لما كانَ يلقاهُ منه مِن شدَّةِ الأذى والهَجْوِ ، فشكا ذلكَ إلى عليٍّ ، فقالَ له : ائتِ رسولَ الله ﷺ من قبلِ وجهِهِ ، فقلْ له ما قالَ إخوةُ يوسفَ ليوسفَ : ﴿ تَأَلَّهَ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : ٩١] ، فإنه لا يرضى أن يكونَ أحدٌ أحسنَ منه قولاً ، ففعلَ ذلكَ فقالَ له رسولُ الله ﷺ : ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْضُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] ، وحسنَ إسلامه بعدَ ذلكَ ، وما رفعَ رأسه إلى رسولِ الله ﷺ منذُ أسلمَ حيَّاءَ منه^(٢) .

أبو سفيانَ بينَ يدي رسولِ الله ﷺ :

وأمرَ رسولُ الله ﷺ الجيشَ ، فأوقدوا النيرانَ ، وخرجَ أبو سفيانُ بنُ حربٍ يتجسَّسُ الأخبارَ ، وهو يقولُ : « ما رأيتُ كالليلةِ نيراناً قطُّ ولا عسكرياً » ، وكانَ العباسُ بنُ عبدِ المطلبِ ، قد خرجَ من مكةَ قبلَ ذلكَ بأهلهِ وعيالهِ مسلماً مهاجراً ولحقَ بالعسكرِ ، فعرفَ صوتَ أبي سفيانَ ، وقالَ : هذا

(١) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة الفتح في رمضان ، برقم (٤٢٧٦) ، ومسلم في كتاب الصيام ، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية ... ، برقم (١١١٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما] .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٢١ [انظر قصة إسلام أبي سفيان فيما أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٣/٣ - ٤٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وصحَّحه ، ووافقه الذهبي] .

رسول الله ﷺ في الناس ، واصباح قريش ! فأركبهُ في عجزِ بغلتهِ ، وخشي عليه أن يُدرِكهُ أحدُ المسلمين فيقتلهُ ، وأتى به رسول الله ﷺ .

فلَمَّا رآهُ رسول الله ﷺ قال : « وَيْحَكَ يا أبا سفيان ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟ » .

قال : بأبي أنت وأُمِّي ، ما أحلمَكَ وأكرمَكَ وأوصلَكَ ! والله لقد ظننتُ أن لو كان مع الله إلهٌ غيرُهُ لقد أغنى عني شيئاً بعدُ .

قال : « وَيْحَكَ يا أبا سفيان ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رسولُ الله ؟ » .

قال : بأبي أنت وأُمِّي ، ما أحلمَكَ وأكرمَكَ وأوصلَكَ ! أمَّا هذه والله فإنَّ في النفس منها حتى الآن شيئاً .

قال العباسُ : ويحك أسلِمَ واشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله ، قبل أن تُضربَ عنقُكَ ، فأسلمَ وشهد شهادة الحق^(١) .

عفوٌ عامٌ وأمنٌ بسيطٌ :

ووسَّعَ رسولُ الله ﷺ في الأمنِ والعفوِ ، حتَّى أصبحَ أهلُ مَكَّةَ لا يهلكُ منهم إلا مَنْ زهدَ في السلامةِ ، وكرهَ الحياةَ ، فقال : « مَنْ دَخَلَ دارَ أبي سفيانَ فهو آمنٌ ، ومن أغلقَ بابَهُ فهو آمنٌ ، ومن دخلَ المسجدَ فهو آمنٌ »^(٢) .

ونَهَى رسولُ الله ﷺ جيشَهُ عن أن يستخدِمُوا السلاحَ عندما يدخلون مَكَّةَ على أيِّ إنسانٍ إلا مَنْ اعترضَهُم وقاومَهُم ، وأمرَ بأن يعفَّ الجيشُ عن أموالِ

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤٠٣ ، وزاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٢٢ .

(٢) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٤٠٣ ، والرواية في البخاري مختصرة ، باب « أين ركَّز النبي ﷺ الراية يوم الفتح » [برقم (٤٢٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما] .

أهل مكة وممتلكاتهم وأن يكفوا أيديهم عنها^(١) .

أبو سفيان أمام موكب الفتح :

وأمر رسول الله ﷺ العباس بن عبد المطلب أن يجلس أبا سفيان حيث تمر به كتائب الإيمان .

وتحركت كتائب الفتح كأنها بحرٌ يموج ، وكانت القبائل تمر على راياتها ، كلما مرت قبيلة سأل عباساً عنها وعن اسم القبائل ، فيقول : ما لي ولبنى فلان ؟ حتى مر الرسول ﷺ في كتيبة خضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، فقال : سبحان الله ! يا عباس من هؤلاء ؟ قال : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً .

قال : يا أبا سفيان ! إنها النبوة .

قال : فنعم إذا^(٢) .

وقام أبو سفيان فصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ! هذا محمد ، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

قالوا : قاتلك الله ، ما تغني عنا دارك ؟

قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ففترق الناس إلى دُورهم وإلى المسجد^(٣) .

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤٠٩ .

(٢) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٤٠٤ [وقد سبق تخريجه آنفاً ، وهو جزء من حديث ابن عباس رضي الله عنه نفسه] .

(٣) المصدر السابق نفسه : ص ٤٠٥ ، وزاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٢٣ ، وهو جزء من حديث =

دخولٌ خاشعٌ متواضعٌ ، لا دخول فاتحٍ متعالٍ :

ودخلَ رسولُ الله ﷺ مَكَّةَ ، وهوَ واضعٌ رأسَهُ تواضعاً لله ، حينَ رأى ما أكرمه اللهُ بهِ منَ الفتحِ ، حتَّى إنَّ ذقنَهُ ليكادُ يمسُّ واسطةَ الرِّحْلِ ، ودخلَ وهو يقرأ سورةَ الفتحِ^(١) .

وفي دخوله مَكَّةَ فاتحاً - وهي قلبُ جزيرةِ العربِ ومركزها الروحيُّ والسياسيُّ - رفعَ كلَّ شعارٍ من شعائرِ العدلِ والمساواةِ ، والتواضعِ والخضوعِ ، فأردفَ أسامةَ بنَ زيدٍ^(٢) ، وهو ابنُ مولى رسولِ الله ﷺ ولم يُردِفْ أحداً من أبناءِ هاشمٍ وأبناءِ أشرافِ قريشٍ ، وهم كثيرٌ .

وكانَ ذلكَ صبحَ يومِ الجمعةِ لعشرينَ ليلةً خلتَ منَ رمضانَ ، سنةَ ثمانٍ منَ الهجرةِ .

أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فكلَّمَهُ ، فجعلَ ترعدُ فرائضُهُ^(٣) ، فقال له رسولُ الله ﷺ : « هُوَنَّ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ، وَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ »^{(٤)(٥)} .

= ابن عباس رضي الله عنهما السابق .

(١) السيرة النبوية : لابن كثير ، ج ٣ ، ص ٥٥٤ ، وجاء في صحيح البخاري رواية عن معاوية بن قرّة [عن عبد الله بن مغفل] : « رأيتُ رسولَ الله ﷺ يومَ فتح مَكَّةَ على ناقته وهو يقرأ سورةَ الفتحِ [وقال : « لولا أن يجتمع الناسُ حولي لرَجَّعتُ كما رجَّعَ » انظر كتاب المغازي ، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ؟ ، برقم (٤٢٨١)] .

(٢) السيرة النبوية : لابن كثير ، ج ٣ ، ص ٥٥٦ .

(٣) [القديد : اللَّحْمُ الْمَمْلُوحُ الْمُجَفَّفُ فِي الشَّمْسِ] .

(٤) [الفرائض ، جمع الفريضة ، وهي عصب الرقبة وعروقتها ، لأنها هي التي تُثَوِّرُ عند الغضب وتزجُّف من الخوف] .

(٥) [أخرجه ابن ماجه في الأطعمة ، باب القديد ، برقم (٣٣١٢) ، والحاكم (٤٦٦/٢) و(٤٨/٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه] .

مرحمة لا ملحمة :

ولمّا مرَّ سعدُ بنُ عبادَةَ بأبي سفيانَ في كتيبةِ الأنصارِ ، قالَ له : اليومَ يومُ الملحمةِ ، اليومَ تستحلُّ الحرمةُ ، اليومَ أذلَّ اللهُ قريشاً ، فلما حاذاهُ رسولُ اللهِ ﷺ في كتيبتِهِ شكَا إليه ذاكَ أبو سفيانَ ، قالَ : يا رسولَ اللهِ ! ألمَ تسمعَ ما قالَ سعدُ ؟ قالَ : « وما قالَ ؟ » قالَ : كذا وكذا .

فاستنكرَ رسولُ اللهِ ﷺ مقالةَ سعدٍ ، وقالَ : « بل اليومَ يومُ المرحمةِ ، اليومَ يعزُّ اللهُ قريشاً ، ويعظُّمُ اللهُ الكعبةَ »^(١) .

وأرسلَ إلى سعدٍ ، فترعَ منه اللواءَ ، ودفعهُ إلى قيسِ ابنِهِ ، ورأى أنَ اللواءَ لم يخرجْ عن سعدٍ إذ صارَ إلى ابنِهِ^(٢) .

ولم يزدِ الرسولُ الملهمُ أنَ أبدلَ حرفاً بحرفٍ ، وأبأ بابنٍ ، فعالجَ نفسَ أبي سفيانَ المكلومةَ - وكانَ في حاجةٍ إلى تأليفِ القلبِ - من غيرِ أنَ يُسيءَ إلى سعدٍ ، صاحبِ سوابقٍ في الإسلامِ .

مناوشاتٌ قليلةٌ :

وكانتَ مناوشاتٌ قليلةٌ بينَ صفوانَ بنِ أميةَ وعكرمةَ بنِ أبي جهلٍ ، وسهيلِ بنِ عمرو ، وبينَ أصحابِ خالدِ بنِ الوليدِ ، وأُصيبَ من المشركينَ ناسٌ قريبٌ من اثني عشرَ رجلاً ، ثم انهزموا^(٣) ، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ قد عهدَ

(١) رواه الأموي في المغازي (فتح الباري : ج ٨ ، ص ٧) وروى البخاري القصة باختلاف بعض الألفاظ ، ومقالة سعد بن عبادَةَ وردَ النبي ﷺ في صحيحه ، والأموي هو يحيى بن سعيد بن أبان ، صدوق ، روى له الستة ، مات سنة ٩٤ هـ (راجع ، ج ٢ ، ص ٦١٣) .

(٢) زاد المعاد ، ج ١ ، ص ٤٢٣ [أخرجه البخاري بلفظ آخر في الحديث الطويل ، في كتاب المغازي ، باب : أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ؟ برقم (٤٢٨٠)] .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ باختصار .

إلى أمرائه من المسلمين ، حين يدخلون مكة ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم^(١) .

تطهير الحرم من الأوثان :

ولمّا نزل رسول الله ﷺ واطمأنّ النَّاسُ ، خرجَ حتّى جاءَ البيتَ ، فطافَ به ، وفي يدهِ قوسٌ ، وحولَ البيتِ وعليه ثلاثُمئةٍ وستونَ صنماً ، فجعلَ يطعنُها بالقوسِ ، ويقولُ : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] ﴿ وَمَا يَبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبا : ٤٩] ، والأصنامُ تتساقطُ على وجوهها^(٢) .

ورأى في الكعبةِ الصُّورَ والتمائيلَ ، فأمرَ بالصُّورِ وبالتماثيلِ فكُسِرَتْ^(٣) .

اليومَ يومَ بَرٍّ ووفاءٍ :

ولمّا قضى طوافَهُ ، دعا (عثمانَ بنَ طلحة) ، فأخذَ منه مفتاحَ الكعبةِ ، ففتحتَ لَهُ ، ودخلَ ، وكانَ قد طلبَ منه المفتاحَ يوماً قبلَ أن يهاجرَ إلى المدينةِ ، فأغلظَ لَهُ القولَ ، ونالَ منه ، فحلمَ عنه ، وقالَ : « يا عثمانُ ! لعلَّكَ ترى هذا المفتاحَ يوماً بيدي ، أضعهُ حيثُ شئتُ » .

فقالَ : لقد هلكَتَ قريشٌ يومئذٍ وذَلَّتْ .

فقالَ : « بل عَمَرَتْ وعَزَّتْ يومئذٍ » .

(١) سيرة ابن هشام : ص ٤٠٩ .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٢٤ ، وراجع القصة في صحيح البخاري [في كتاب المغازي] باب أين ركز رسول الله ﷺ الراية يوم الفتح ؟ [برقم (٤٢٨٧)] ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة ، برقم (١٧٨١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [.

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤١١ ، وزاد المعاد : ج ٢ ، ص ٤٢٤ [وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف برقم (١٨٧٥١) من حديث جابر رضي الله عنه] .

وَوَقَعَتْ كَلِمَتُهُ مِنْ عِثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ مَوْقِعاً ، وَظَنَّ أَنَّ الْأَمْرَ سَيَصِيرُ إِلَى مَا قَالَ^(١) .

فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْكَعْبَةِ ، قَامَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَمِفْتَاحُ الْكَعْبَةِ فِي يَدِهِ ﷺ ، قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : اجْمَعْ لَنَا الْحِجَابَةَ مَعَ السَّقَايَةِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَسَلَّم ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَيْنَ عِثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ ؟ » فَدُعِيَ لَهُ ، فَقَالَ : « هَاكَ مِفْتَاحُكَ يَا عِثْمَانُ ! الْيَوْمَ يَوْمٌ بَرٌّ وَوَفَاءٌ^(٢) ، خَذُوهَا خَالِدَةً تَالِدَةً ، لَا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلَّا ظَالِمٌ^(٣) » .

الإسلام دينٌ توحيدٍ ووحدةٍ :

وَفَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَابَ الْكَعْبَةِ ، وَقَرِيشٌ قَدْ مَلَأَتْ الْمَسْجِدَ صَفُوفاً يَنْتَظِرُونَ مَاذَا يَصْنَعُ ، فَأَخَذَ بَعْضَادَتِي الْبَابَ وَهُمْ تَحْتَهُ ، فَقَالَ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ »

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٢٥ ، وراجع القصة في صحيح البخاري [في كتاب الجهاد والسير ، باب الردف على الحمار ، برقم (٢٩٨٨) ، ومسلم في كتاب الحج ، باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره برقم (١٣٢٩) ، وأبو داود في كتاب المناسك ، باب الصلاة في مكة ، برقم (٢٠٢٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما] .

(٢) السيرة النبوية : لابن هشام ، ج ٢ ، ص ٤١١ - ٤١٢ ملخصاً .

(٣) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٢٥ ، نقلاً عن طبقات ابن سعد [« خذوها خالدةً تالدةً ، لَا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلَّا ظَالِمٌ » هذه الكلمات الموجزة تتضمن ثلاثة تنبؤات :

١ - بقاء نسل أبي طلحة في الدنيا باستمرار .

٢ - ارتباط الحفاظ على مفتاح بيت الله وخدمته بهم .

٣ - تسمية من ينزع منهم المفتاح ظالماً .

وعن الأول والثاني يعلم العالم كله أنَّ المفتاح باقٍ في بني شيبه إلى الآن ، ونسلهم لا يزال باقياً .

وعن الثالث قال المؤرخون إنَّ (يزيد) سلب المفتاح منهم ، وبعد ذلك مضى أربعة عشر قرناً ولم يجترئ أحدٌ على سلبه منهم حتى لا يلقَّب بالظالم ، وهو اللقب الذي ذكره رسول الله ﷺ لمن يسلبه مفتاح الكعبة من نسل أبي طلحة (رحمة للعالمين : ص ٧٥٠) .

وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو مال أو دم ، فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج»^(١) .

« يا معشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾^(٢) [الحجرات : ١٣] .

نبيُّ المحبَّة ورسولُ الرحمة :

ثم قال رسولُ الله ﷺ : « يا معشر قريش ! ما ترون أني فاعلٌ بكم ؟ »

قالوا : خيراً ، أخ كريمٌ وابنُ أخ كريم !

قال : « فإني أقولُ لكم كما قال يوسف لإخوته : لا تثريبَ عليكم اليومَ اذهبوا فأنتم الطلقاء »^(٣) .

وأمرَ بلالاً أن يصعد ، فيؤذنَ على الكعبة ، ورؤساءَ قريش وأشرافهم يسمعون كلمةَ الله تعلو ، ومكَّة ترتجُّ بالأذان .

ودخل رسولُ الله ﷺ دارَ أمِّ هانئ بنتِ أبي طالب ، فاغتسل ، وصلى ثمانِي ركعاتٍ صلاةَ الفتحِ شُكراً لله عليه^(٤) .

(١) [أخرجه أبو داود في كتاب الديات ، باب في دية الخطأ شبه العمد ، برقم (٤٥٤٧) ، وابن ماجه ، في أبواب الديات ، باب في دية شبه العمد مغلظة ، برقم (٢٦٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما] .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٢٤ .

(٣) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤٢٤ .

(٤) رواه البخاري [في كتاب المغازي] في باب منزل النبي ﷺ يوم الفتح [برقم (١١٧٦)] ، =

لا تمييزَ في تنفيذِ حدودِ الله :

وسَرَقَتْ امرأةٌ من بني مَخْزُومٍ - اسمُها فاطمةٌ - في هذه الغزوةِ ، ففزعَ قومُها إلى أسامةَ بنِ زيدٍ ، لمكانتهِ عندَ رسولِ الله ﷺ يستشفعونهُ ، فلمَّا كَلَّمَ رسولَ الله ﷺ تلوَنَ وجهُهُ ، وقالَ : « أَتَكَلِّمُنِي في حَدٍّ من حدودِ الله ؟! » .

قالَ أسامةُ : استغفرُ اللهَ لي يا رسولَ الله !

فلَمَّا كانَ العشيُّ ، قامَ رسولُ الله ﷺ خطيباً ، فأثنى على الله بما هُوَ أهْلُهُ ، ثُمَّ قالَ : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ ، أَنَّهُمْ كانوا إِذا سَرَقَ فيهِمُ الشريفُ تركوهُ ، وَإِذا سَرَقَ فيهِمُ الضعيفُ أَقاموا عليه الحدَّ ، والذي نفسُ محمدٍ بيدهُ ، لو أَنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَها » .

ثُمَّ أَمَرَ رسولُ الله ﷺ بتلكِ المرأةِ ، فَقَطَعَتْ يَدُها ، فَحَسُنَتْ توبَتُها بَعْدَ ذلكَ ، وَتَزَوَّجَتْ (١) .

عفو عن الأعداء الألداء :

ولَمَّا استقرَّ الفتحُ ، وأَمَّنَ رسولُ الله ﷺ النَّاسَ كُلَّهُم ، إِلا تسعةَ نفرٍ ، أَمَرَ بقتلِهِم وَإِنْ وُجِدُوا تحتَ أَسْتارِ الكعبةِ ، منهم من ارتدَّ عن دينِهِ ، ومنهم من قَتَلَ مسلماً غيلةً ، ومنهم من كانَ يَشْتَغِلُ وَيَتَسَلَّى بهِجائِهِ وَيُذِيعُهُ بينَ النَّاسِ ،

= ومسلم في كتاب الحيض ، باب تستر المغتسل بثوب ونحوه ، برقم (٣٣٦) من حديث أم هانئ رضي الله عنها [، وزاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٢٥ .

(١) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب مقام النبي ﷺ يوم الفتح ، برقم (٦٧٨٨) ، ومسلم في كتاب الحدود ، باب قطع السارق الشريف وغيره ... ، برقم (١٦٨٨) ، وأبو داود في كتاب الحدود ، باب في الحد يشفع فيه ، برقم (٤٣٧٣) ، والترمذي في الحدود ، باب ما جاء في كراهية أن يشفع في أبواب الحدود ، برقم (١٤٣٠) وغيرهم من حديث عائشة رضي الله عنها] .

وكان منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان قد ارتد .

ومنهم عكرمة بن أبي جهل ، وكان قد خرج إلى اليمن كارهاً لدولة الإسلام وخائفاً على نفسه ، فاستأمنت له امرأته بعد أن فر ، فأمنه النبي ﷺ وهو ابن أعدى عدو له في الدنيا ، وثب إليه رسول الله ﷺ وما عليه رداء ، فرحاً به وترحيباً ، وأسلم عكرمة ، فسر به رسول الله ﷺ سروراً عظيماً ، وحسن إسلامه ، وكان له مواقف عظيمة في حروب الردة وحروب الشام .

ومنهم وحشي مولى جبير بن مطعم ، وقتل عم الرسول وأسد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب - وكان رسول الله ﷺ قد أهدر دمه - فأسلم ، وقبل رسول الله ﷺ إسلامه .

ومنهم هبار بن الأسود ، وكان قد عرض لزينب بنت الرسول ﷺ حين هاجرت ، فنحس بها حتى سقطت على صخرة ، وأسقطت جنينها ، ففر ، ثم أسلم ، وحسن إسلامه ، واستؤمن لسارة وإحدى القينتين اللتين كانتا تغنيان بهجائه ، فأمنهما فأسلمتا^(١) .

بين هند بنت عتبة وبين رسول الله ﷺ :

واجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام ، فجلس لهم على الصفا ، وأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا .

ولما فرغ من بيعة الرجال ، بايع النساء ، وفيهن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان متنبئة متكررة لما كان من صنيعها بحمزة^(٢) .

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٢٥ .

(٢) [انظر قصة إسلامها في الحديث الذي أخرجه البخاري في كتاب الإيمان والنذور ، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ ، برقم (٦٦٤١) ، ومسلم في كتاب الأقضية ، باب قضية هند ، =

قال رسول الله ﷺ لهنّ : « بايعنني على ألاّ تُشركن بالله شيئاً » .
 فقالت هند : والله إنّك لتأخذ علينا ما لا تأخذ من الرجال .
 قال : « ولا تسرقن » .

فقالت : إنّي كنتُ أصبتُ من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة^(١) ، وما كنتُ
 أدري أكان ذلك حلالاً أم لا ؟ فقال أبو سفيان - وكان شاهداً لما تقول - : أمّا
 ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حلّ .

فقال رسول الله ﷺ : « وإنّك لهند بنت عتبة » ؟
 قالت : نعم ، فاعفُ عمّا سلف ، عفا الله عنك .
 ثم قال : « ولا تزنين » .

فقالت : يا رسول الله ! وهل تزني الحرّة ؟^(٢)
 ثم قال : « ولا تقتلن أولادكُنَّ » .

قالت : ربّينا هم صغاراً ، وقتلتهم كباراً ، فأنت وهم أعلم^(٣) ، فضحك
 عمرُ بن الخطاب - رضي الله عنه - حتى استغرق .

ثم قال : « ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ » .
 فقالت : والله إنّ إتيان البهتان لقبیح ، ولبعض التجاوز أمثل .
 ثم قال : « ولا يعصينني » .

= برقم (١٧١٤) ، وأبو داود كتاب البيوع ، باب في الرجل يأخذ حقّه من تحت يده ، برقم
 (٣٥٣٢) و(٣٥٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنهما [.

(١) [الهنة : أي الحاجة ، ويعبّر بها عن كلّ شيء (والنهاية ٢٧٩/٥)] .

(٢) السيرة النبوية : لابن كثير ، ج ٣ ، ص ٦٠٣ .

(٣) السيرة الحلبية : ج ٣ ، ص ١٠٩ .

فَقَالَتْ : فِي مَعْرُوفٍ ^(١) .

الْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ :

وَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ عَلَى رَسُولِهِ - وَهِيَ بَلَدُهُ وَوَطَنُهُ وَمَوْلَدُهُ - تَحَدَّثَ الْأَنْصَارُ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، فَقَالُوا : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَرْضَهُ وَبَلَدَهُ ، فَهُوَ مُقِيمٌ بِهَا ، لَا يَعُودُ إِلَى الْمَدِينَةِ .

وَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَنْصَارَ عَنْ حَدِيثِهِمْ ، وَلَا يَعْرِفُهُ غَيْرُهُمْ ، فَاسْتَحْيَوْا ثُمَّ أَقْرَأُوهُ بِهِ ، فَقَالَ : « مَعَاذَ اللَّهِ ! الْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ » ^(٢) .

كَيْفَ انْقَلَبَ الْعَدُوُّ مُحِبًّا وَالْمَاجِنُ تَقِيًّا :

هَمَّ فَضَالَةُ بْنُ عَمِيرٍ أَنْ يَقْتَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ قَالَ لَهُ : « فَضَالَةُ ! »

قَالَ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ !

فَقَالَ : « مَاذَا كُنْتَ تَحَدَّثُ بِهِ نَفْسَكَ ؟ » .

قَالَ : لَا شَيْءَ ، كُنْتُ أَذْكَرُ اللَّهَ .

فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ قَالَ : « اسْتَغْفِرِ اللَّهَ » ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ ، فَسَكَنَ قَلْبُهُ ، وَكَانَ فَضَالَةُ يَقُولُ : وَاللَّهِ مَا رَفَعَ يَدَهُ عَنْ صَدْرِي ، حَتَّى مَا خَلَقَ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ .

(١) السيرة النبوية لابن كثير : ج ٣ ، ص ٦٠٢ - ٦٠٣ ، بزيادة يسيرة من غير ابن كثير .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤١٦ [وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد ، باب فتح مكة ، برقم

(١٧٨٠) ، وأبو داود في كتاب الخراج ، باب ما جاء في خبر مكة ، برقم (٣٠٢٤) ،

وأحمد في المسند (٥٣٨/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .]

قَالَ فَضَالَةٌ : فَرَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي ، فَمَرَزْتُ بِامْرَأَةٍ كُنْتُ أَتَحَدَّثُ إِلَيْهَا ،
قَالَتْ : هَلُمَّ إِلَى الْحَدِيثِ ، قَالَ : يَا بِيَّ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالْإِسْلَامُ^(١) .

إزالة آثار الجاهلية وشعائر الوثنية :

وَبَثَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرَايَاهُ إِلَى الْأَوْثَانِ الَّتِي كَانَتْ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ، فَكُسِرَتْ
كُلُّهَا ، مِنْهَا اللَّاتُ وَالْعُزَّى ، وَمَنَاةُ الثَّالِثَةُ الْأُخْرَى ، وَنَادَى مُنَادِيهِ بِمَكَّةَ :

« مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَلَا يَدْعُ فِي بَيْتِهِ صَنَمًا إِلَّا كَسَرَهُ » .

وَبَعَثَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى الْقَبَائِلِ ، فَهَدَمُوا أَصْنَامَهَا^(٢) ، وَقَالَ جَابِرٌ :
كَانَ بَيْتٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُقَالُ لَهُ « ذُو الْخَلْصَةِ » وَ « الْكَعْبَةُ الِيمَانِيَّةُ » وَ « الْكَعْبَةُ
الشَّامِيَّةُ » ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ : « أَلَا تُرِيدُونِي مِنْ ذِي الْخَلْصَةِ » ؟

يَقُولُ جَابِرٌ : فَفَنَرْتُ فِي مِئَةِ وَخَمْسِينَ رَاكِبًا مِنْ أَحْمَسَ ، (وَكَانُوا
أَصْحَابَ خَيْلٍ) فَكُسِرْنَا وَوَقَلْنَا مِنْ وَجَدْنَا عِنْدَهُ ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ ،
فَدَعَا لَنَا وَلِأَحْمَسَ^(٣) (٤) .

وَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَكَّةَ خُطْبِيًّا ، فَأَعْلَنَ حَرَمَةَ مَكَّةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ :
« لَا يَحِلُّ لِمَرِيءٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ فِيهَا دَمًا ، أَوْ يَعْصِدَ^(٥) بِهَا »

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤١٧ ، وزاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٢٦ .

(٢) راجع للتفصيل « زاد المعاد » ج ١ ، ص ٤٢٦ .

(٣) [الْأَحْمَسُ : وَهُمْ قُرَيْشٌ ، وَمَنْ وَلَدَتْ قُرَيْشٌ ، وَكَثَانَةُ جَدِيلَةُ قَيْسٍ ، سَمُّوا أَحْمَسًا لِأَنَّهُمْ
تَحَمَّسُوا فِي دِينِهِمْ : أَيِ تَشَدَّدُوا (النهاية : ١ / ٤٤٠)] .

(٤) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح في كتاب المغازي ، باب غزوة ذي الخلصة [برقم
(٤٣٥٥) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل جرير بن عبد الله رضي الله عنه ،
برقم (٢٤٧٦) ، وأبو داود في كتاب الجهاد ، باب في بعثة البشراء ، برقم (٢٧٧٢) ،
وأحمد في المسند (٤ / ٣٦٢) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه] .

(٥) يعصد : يقطع .

شجرة» ، وقال : « لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي ، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ يَكُونُ بَعْدِي »^(١) ، ثُمَّ انصرفت راجعاً إلى المدينة^(٢) .

أثر فتح مكة :

وكان لفتح مكة أثر عميق في نفوس العرب ، فشرح الله صدر كثير منهم للإسلام ، وصاروا يدخلون فيه أرسالاً .

وكانت عدّة قبائل بينها وبين قريش حلف ، وكانت ممتنعة عن الدخول في الإسلام لمكانة هذا الحلف .

وكانت قبائل ترهب قريشاً وتجلّها ، فلما رأتهم استسلموا للإسلام ورغبوا فيه زال الحاجز .

وكانت قبائل تعتبر مكة لا يفتحها ولا يدخلها ملك جبار أو من يريد لها سوءاً ، ولا يزال فيها من عاصر حادثة الفيل ، وشاهد ما فعل بأبرهة ، فيقولون : اتركوه وقومهم ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق^(٣) .

فلما فتح الله لنبيه مكة ، وخضعت قريش للإسلام طوعاً أو كرهاً ، أقبل العرب على الإسلام إقبالاً لم يُعرف قبل ذلك ، وصاروا يدخلون في دين الله أفواجا^(٤) ، وصدق الله العظيم : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ

(١) [أخرجه البخاري في كتاب اللقطة ، باب كيف تعرّف لقطة أهل مكة ، برقم (٢٤٣٤) ، ومسلم في كتاب الحج ، باب تحريم مكة . . . ، برقم (١٣٥٣) ، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما] .

(٢) راجع « زاد المعاد » ج ١ ، ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .

(٣) أخرجه البخاري [في كتاب المغازي] ، باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح ، [برقم (٤٣٠٢) ، من حديث عمرو بن سلمة رضي الله عنه] .

(٤) مستفاد من كتاب « رحمة للعالمين » لمؤلفه الشهير قاضي محمد سليمان المنصور فوري ، [وقد نقله إلى العربية الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم ، طبع في دار السلام - الرياض ، =

النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿ [النصر : ١ - ٢]

أَمِيرٌ شَابٌّ حَدِيثُ السِّنِّ :

وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَغَادِرَ مَكَّةَ عَتَّابَ بْنَ أُسَيْدٍ^(١) ، يَدِيرُ أُمُورَهَا ، وَيَقِيمُ الْمَوْسِمَ وَالْحَجَّ بِالْمُسْلِمِينَ ، وَهُوَ دُونَ الْعِشْرِينَ سَنَةً ، أَوْ فَوْقَهَا قَلِيلًا ، وَذَلِكَ بِمَحْضَرٍ مِنْ أَهْلِ الْأَسْنَانِ وَالْفَضْلِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمَنَاصِبَ عَلَى الْجِدَارَةِ وَالْقُوَّةِ ، وَأَقْرَهُ أَبُو بَكْرٍ فِي خِلَافَتِهِ^(٢) .

= انظر اقتباس المؤلف من هذا الكتاب في ترجمته العربية ، ص ١١٥ - ١١٦ ، وفيه فوائد أخرى أيضاً [.

(١) ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤٤٠ .

(٢) راجع « الإصابة » و « أسد الغابة » .

غَزْوَةُ حُسَيْنٍ ^(١)

شَوَّالُ سَنَةِ ثَمَانٍ مِنَ الْهِجْرَةِ

محاولةٌ أُخْرَى لِإِطْفَاءِ نَوْرِ اللَّهِ بِالْأَفْوَاهِ :

وَبَعْدَ أَنْ تَمَّ فَتْحُ مَكَّةَ ، وَبَدَأَ النَّاسُ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، أَطْلَقَ الْعَرَبُ السَّهْمَ الْأَخِيرَ فِي كِنَانِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، فَكَانَتْ مُحَاوَلَةً يَائِسَةً لِمُحَارَبَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَوَقَّفَ مَدَّ الْإِسْلَامِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ .

اجتماعُ هِوَاظَنَ ^(٢) :

وَكَانَتْ هِوَاظَنُ قُوَّةً كَبِيرَةً بَعْدَ قَرِيشٍ ، وَكَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ قَرِيشٍ تَنَافُسٌ ، فَلَمْ تَخْضَعْ لِمَا خَضَعَتْ لَهُ قَرِيشٌ ، وَأَرَادَتْ أَنْ يَكُونَ لَهَا الْفَضْلُ وَالصِّيتُ فِي اسْتِئْصَالِ شَافَةِ الْإِسْلَامِ ، فَيَقَالُ : إِنَّ هِوَاظَنَ اسْتَطَاعَتْ مَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ قَرِيشٌ .

قَامَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّصْرِيُّ - سَيِّدُ هِوَاظَنَ - فَنَادَى بِالْحَرْبِ وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مَعَ هِوَاظَنَ ثَقِيفٌ كُلُّهَا ، وَنَصْرٌ وَجُشَمٌ كُلُّهَا ، وَسَعْدُ بْنُ بَكْرِ ، وَتَخَلَّفَ عَنْ هِوَاظَنَ

(١) [انظر أخبار هذه الغزوة في : « سيرة ابن هشام » (٢/٤٣٧ - ٥٠٠) و« طبقات ابن سعد » (٢/١٤٩ - ١٥٨) و« تاريخ الطبري » (٣/١٢٥) و« البداية والنهاية » (٤/٣٢٢)] .

(٢) [واقعة اجتماع هِوَاظَنَ ؛ أخرجها ابن هشام في السيرة ، وأحمد في المسند (٣/٣٧٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه] .

كعبٌ وكلابٌ ، وأجمعَ السيرَ إلى رسولِ الله ﷺ ، وحطَّ مع الناسِ أموالهم ونساءهم وأبنائهم ، ليثبتوا ويدافعوا عن الأهل والعرض .

وشَهِدَ الحربَ دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ ، وكانَ شيخاً كبيرَ السنِّ ، مجرباً ، له رأيٌ وحكمةٌ ، ونزلوا بـ « أوطاس »^(١) ، وللبعير رُغَاءٌ ، وللحمير نُهَاقٌ ، وللشاء ثُغَاءٌ^(٢) ، وللصغار بكاءٌ ، وقالَ مالكٌ للناسِ : « إذا رأيْتُمُ المسلمينَ فاكسِرُوا جُفُونَ سِوْفِكُمْ »^(٣) ، ثُمَّ شَدُّوا شِدَّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ^(٤) .

وخرَجَ رسولُ الله ﷺ ومعه ألفانِ من أَهْلِ مَكَّةَ ، ومنهم من هوَ حديثُ العهدِ بالإسلام ، ومنهم من لَمْ يَسْلَمْ ، وعشرةُ آلافٍ من أصحابِهِ الذينَ خرجوا معه من المدينة فبلغَ عددهم إلى ما لَمْ يَبْلُغْهُ في غزوةٍ قَبْلَ ذَلِكَ ، حتَّى قالَ أناسٌ منَ المسلمينَ : لَنْ نَغْلِبَ اليَوْمَ من قِلَّةٍ ، وأعجبتهم كثرةُ الناسِ^(٥) .

واستعارَ رسولُ الله ﷺ من صفوانَ بنِ أميةٍ أدرعاً وسلاحاً - وهو مشركٌ - ومضى على وجهِهِ يريدُ لقاءَ هوازنَ^(٦) .

لا رجعةَ للوثنيَّةِ :

قَدْ خَرَجَ مَعَ رسولِ الله ﷺ إلى حُنَيْنٍ بعضُ حديثي العهدِ بالجاهليَّةِ ، وكانتْ لبعضِ القبائلِ شجرةٌ عظيمةٌ خضراءُ ، يقالُ لها : « ذاتُ أنواطٍ »

(١) أوطاس : واد في ديار هوازن عند الطائف كانت فيه وقعة حنين .

(٢) [الرُّغَاءُ : صوت الإبل ، والنُّهَاقُ : صوت الحِمَار . والثُّغَاءُ : صياح الغنم] .

(٣) [جفون الشيوف : أي أعماؤها] .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤٣٧ - ٤٣٩ .

(٥) تفسير الطبري : ج ١٠ ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٦) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤٤٠ . [وأخرجه أبو داود في كتاب البيوع ، باب في تضمين

العارية ، برقم (٣٥٦٢) ، وأحمد في المسند (٤٠١/٣) وغيرهما من حديث صفوان بن أمية رضي الله عنه] .

يأتونها كلّ سنة ، فيعلّقون أسلحتهم عليها ، ويدبّحون عندها ، ويعكِفون عليها يوماً .

وبينما هم يسيرون مع رسول الله ﷺ إذ وقع بصرهم على الشجرة ، فتحلبت أفواههم على أعياد الجاهليّة التي هجروها ، ومشاهدتها التي طال عهدهم بها ، فقالوا : يا رسول الله ! اجعل لنا « ذات أنواط » كما لهم « ذات أنواط » ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ! قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿ [الأعراف : ١٣٨] ، لتركبُن سنن من كان قبلكم » (١) .

في وادي حنين :

واستقبل المسلمون وادي حنين ، وذلك في عاشر شوال ، سنة ثمان ، وهم ينحدرون فيه انحذاراً في ظلام الصبح ، وكانت هوازن قد سبقتهم إلى الوادي ، وكمّنوا لهم في شعابه وأحنائه ومضايقه ، فما راع المسلمين إلا أن رشقوهم بالنبال ، وأصلثوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد ، وكانوا قوماً رماةً (٢) .

وانشمر عامة المسلمين راجعين ، لا يلوي منهم أحدٌ على أحد (٣) ، وكانت فترة حاسمة ، يوشك أن تدور الدائرة على المسلمين ، فلا تقوم لهم

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤٤٢ [أخرجه الترمذي في أبواب الفتن ، باب ما جاء « لتركين سنن من كان قبلكم » برقم (٢١٨٠) ، وأحمد في المسند (٢٤٠/٥) ، وقال الهيثمي في المجمع (٢٦١/٧) : رواه أحمد والطبراني ، وفي إسناد أحمد ابن لهيعة وفيه ضعف ، وفي إسناد الطبراني يحيى بن عثمان عن أبي حازم ، ولم أعرفه ، وبقيّة رجالهم ثقات] .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

(٣) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٤٦ .

قائمةً بعد ذلك ، وكانت شبيهةً بما وقع يومَ أحدٍ حينَ طار في الناس أن النبي ﷺ قد قُتِلَ ، وانحسرَ عنه المسلمون .

شماتةُ الأعداءِ وتزلزلُ ضعافِ الإيمانِ :

ولمَّا رَأَى مَنْ كَانَ مع رسولِ الله ﷺ من جُفَاةِ أَهْلِ مَكَّةَ ، والذينَ لَمَّا يَدْخُلُ الإيمانُ في قلوبِهِمْ ، هذه الهزيمةَ ، تكلَّم رجالٌ منهم بما في أنفُسِهِمْ من الضُّغْنِ ، فقالَ بعضهم : « لا تنتهي هزيمَتُهُمْ دونَ البحرِ » ، وقال بعضهم : « ألا بطلَ السحرُ اليومَ »^(١) .

الفتح والسكينة :

ولمَّا تَمَّ ما أَرَادَ اللهُ من تأديبِ المسلمينَ الذينَ أعجبَتَهُم الكثرةُ ، وأذاقَهُم اللهُ مرارةَ الهزيمةِ بعدَ حلاوةِ الفتحِ ، ليقوِّيَ إيمانَهُمْ ، فلا يبطرَهُم الفتحُ ، ولا تؤيسَهُم الهزيمةُ ، ردَّ لَهُم الكُرَّةَ على الأعداءِ ، وأنزلَ السكينةَ على رسولِهِ وعلى المؤمنينَ ، وكانَ رسولُ الله ﷺ واقفاً في موقعِهِ ، على بغلَتِهِ الشهباءِ ، غيرَ وجلٍ ولا هيَّابٍ ، وقد بقيَ معه نفرٌ من المهاجرينَ والأنصارِ وأهلِ بيتهِ ، والعباسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَخَذَ بِحِكْمَةِ بَغْلَتِهِ ، ورسولُ الله ﷺ يقولُ : [من مجزوء الرجز]

أنا النبي لا كذب أنا ابنُ عبدِ المطلب^(٢)

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤٤٢ - ٤٤٤ مختصراً .

(٢) أخرجه البخاري [في كتاب المغازي] باب قول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ [برقم (٤٣١٥)] وفيه أنَّ أبا سفيان بن الحارث أخذ بغلته البيضاء . وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة حنين ، [برقم (١٧٧٦)] ، والترمذي في أبواب الجهاد ، باب ما جاء في الثبات عند القتال ، برقم (١٦٨٨) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما [، وراجع للتفصيل « سيرة ابن هشام » (ج : ٢ / ص ٤٤٤ - ٤٤٥) .

ولمَّا استقبلتهُ كتائبُ المشركينَ ، أخذَ قبضةً من ترابٍ ، ورمى بها إلى عيونِ الأعداءِ إلى البعدِ ، فمَلَأَتْ أعينَ القومِ .

ولمَّا رَأَى انشغالَ الناسِ بأنفسِهِم ، قَالَ : « يا عباسُ ! اصرخْ يا معشرَ الأنصارِ ! يا معشرَ أصحابِ السمرَةِ ! » فَأجابُوا : لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ ، وكانَ رجلاً صَيِّباً ، فيؤمُّ الرجلُ الصوتَ ويقتحمُ عن بعيرِهِ ، ويأخذُ سيفَهُ وتُرْسَهُ ، حتى ينتهيَ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ ، حتَّى إذا اجتمعَ إليه منهم طائفةٌ ، استقبلُوا الناسَ ، فاقتتلوا .

وأشرفَ رسولُ اللَّهِ ﷺ في ركائبِهِ ، فنظرَ إلى القومِ يجتلدونَ ، فقالَ : « الآنَ حميَ الوطيسُ »^(١) ، ثمَّ أخذَ رسولُ اللَّهِ ﷺ حُصَيَّاتٍ فرمى بهنَّ وجوهَ الكفارِ ، يقولُ عباسُ : « فما زِلْتُ أرى حَدَّهم كليلًا وأمرهم مُدْبِرًا »^(٢) .

واجتلدَ الناسُ ، فما رجعتَ راجعةً الناسِ من هزيمَتِهِم ، حتَّى وجدُوا الأسارى مكتفينَ عندَ رسولِ اللَّهِ ﷺ^(٣) ، وأنزلَ اللَّهُ ملائكتَهُ بالنَّصرِ ، فامتلاً بهم الوادي^(٤) ، وتمَّتْ هزيمةُ هوازنَ ، وذلكَ قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ

(١) سيرة ابن هشام : (ج : ٢ ، ص ٤٤٥) : (اسْتَعَرَتِ الْحَرْبُ) هذه من الكلم التي لم يُسبق النبي ﷺ إليها [والوطيسُ : هو حجارةٌ مدورةٌ إذا حَمِيتْ لم يَقْدِرْ أَحَدٌ يَطَّوْها ، (النهاية : ٢٠٤/٥)] .

(٢) أخرجه مسلم [في كتاب الجهاد ، باب غزوة حنين ، برقم (١٧٧٥) ، وأحمد في المسند (٢٠٧/١) ، وعبد الرزاق في المصنَّف ، برقم (٩٧٤١) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه] .

(٣) سيرة ابن هشام : ج : ٢ ، ص ٤٤٥ .

(٤) المصدر السابق : ج : ٢ ، ص ٤٤٩ ، ورواه مسلم مطولاً في كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة حنين [برقم (١٧٧٥)] .

كَثَرْتَكُمْ فَلَمْ تُنْعِنَ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ [التوبة : ٢٥-٢٦] .

آخِرُ غَزْوَةٍ ضَدَّ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ :

وبغزوة حُنين طِفِثَتْ جَمْرَةُ الْعَرَبِ ، فَقَدْ اسْتَفْرَعَتْ قُوَاهُمْ ، وَاسْتَفْدَتْ سِهَامَهُمْ ، وَأَذَلَّتْ جَمْعَهُمْ ، فَانْشَرَحَتْ صُدُورُهُمْ لِلدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ .

فِي أَوْطَاسٍ :

وَلَمَّا تَمَّتِ الْهَزِيمَةُ لِهَوَازِنَ ، ذَهَبَتْ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ - فِيهِمُ الرَّئِيسُ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ - فَلَجَّؤُوا إِلَى الطَّائِفِ ، فَتَحَصَّنُوا بِهَا ، وَسَارَتْ فِرْقَةٌ فَعَسَكُرُوا بِـ « أَوْطَاسٍ » ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً مِنْ أَصْحَابِهِ ، عَلَيْهِمْ أَبُو عَامِرٍ الْأَشْعَرِيُّ ، فَقَاتَلُوهُمْ فَغْلِبُوهُمْ ^(١) .

وَجُمِعَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبَايَا حُنينٍ وَأَمْوَالُهَا ، فَأَمَرَ بِالسَّبَايَا وَالْأَمْوَالِ إِلَى « الْجِعْرَانَةِ » ^(٢) فَحُبِسَتْ بِهَا ^(٣) .

وَكَانَ السَّبْيُ سِتَّةَ آلَافٍ رَأْسٍ ، وَالْإِبِلُ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا ، وَالْغَنَمُ أَكْثَرَ

(١) السيرة النبوية : لابن كثير ، ج ٣ ، ص ٦٤٠ [وأخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة أوطاس ، برقم (٤٣٢٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه برقم (٢٤٩٨) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه] .

(٢) يخفف ويثقل ، تقع على الطريق الشمالي الشرقي من مكة إلى الطائف على مسافة أكثر من ٢٠ كيلو متراً وهي خارج الحرم ، وقد أحرم منها رسول الله ﷺ للعمرة ، وعليها كان يلتقي الطريقان من مكة والمدينة إلى الطائف في العهد النبوي (مقتبس من كتاب « الحج ومقامات الحج » للأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي) .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

مَنْ أَرْبَعِينَ أَلْفَ شَاةٍ ، وَأَرْبَعَةَ آلَافٍ أَوْقِيَّةٍ فِضَّةً ، وَكَانَ أَكْبَرَ مَغْنَمٍ غَنِمَهُ الْمُسْلِمُونَ .

وكان رسول الله ﷺ قد نهى أصحابه يوم حنين ، أن يقتلوا وليداً ، أو امرأةً ، أو أجيراً ، أو عبداً مستعاناً به ، وتأسفَ على امرأةٍ قُتِلَت في حُنينٍ ^(١) .

(١) سيرة ابن كثير : ج ٣ ، ص ٦٣٨ .

غَزْوَةُ الطَّائِفِ

شَوَّالِ سَنَةِ ثَمَانٍ مِنَ الْهِجْرَةِ

فلولُ ثَقِيفٍ :

وَقَدِمَ فَلٌ^(١) ثَقِيفَ الطَّائِفِ ، وَأَغْلَقُوا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ مَدِينَتِهَا ، وَرَمَوْا حَصَنَهُمْ ، وَأَدْخَلُوا فِيهِ مَا يَصْلُحُ لَهُمْ لِسَنَةٍ ، وَأَعَدُّوا لِلْحَرْبِ عِدَّتَهَا ، فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَذَلِكَ فِي شَوَّالِ سَنَةِ ثَمَانٍ إِلَيْهِمْ ، وَمَضَى حَتَّى نَزَلَ قَرِيباً مِنَ الطَّائِفِ ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَدْخُلُوهُ ، فَقَدْ أَغْلَقُوهُ دُونَهُمْ ، وَرَمَتْ ثَقِيفُ الْمُسْلِمِينَ بِالنَّبْلِ رَمِيًّا شَدِيداً ، كَأَنَّهُ رَجُلٌ^(٢) جَرَادٌ ، وَكَانُوا رُمَاةً .

حِصَارُ الطَّائِفِ :

فَنَقَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعُسْكَرَ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ ، وَحَاصَرَهُمْ بَضْعاً وَعِشْرِينَ لَيْلَةً ، وَقَاتَلَهُمْ قِتَالاً شَدِيداً ، وَتَرَامَوْا بِالنَّبْلِ ، وَاسْتَخْدَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَا الْحِصَارِ الْمُنْجَنِّقَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، وَاشْتَدَّ الْحِصَارُ ، وَقُتِلَ رَجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِالنَّبْلِ^(٣) .

(١) [الفلُّ : الْقَوْمُ الْمُنْهَزِمُونَ] .

(٢) [جَمَاعَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْجَرَادِ] .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤٧٨ - ٤٨٣ باختصار ، وزاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٥٧ ملخصاً .

الرحمة في ميدان الحرب :

ولمَّا ضاقَ الحصارُ ، وطالتِ الحربُ ، أمرَ رسولُ الله ﷺ بقطعِ أعنابِ ثقيفٍ وهي مما يعتمدون عليها في معاشِهِم ، ووقعَ الناسُ فيها يقطعونَ ، فسألوه أن يدعها لله ، وللرحمِ ، فقالَ : « فَإِنِّي أدعُها لله والرحمِ » .

ونادى منادي رسولِ الله ﷺ : « أَيُّما عبدٍ نزلَ من الحصنِ وخرجَ إلينا فهو حُرٌّ » ، فخرجَ منهم بضعةَ عشرَ رجلاً ، فيهم أبو بكره ، فأعتقَهُم رسولُ الله ﷺ ودفعَ كلَّ رجلٍ منهم إلى رجلٍ من المسلمينَ يموئهُ ، فشَقَّ ذلكَ على أهلِ الطائفِ مشقةً شديدةً (١) .

رفع الحصار :

ولم يُؤذَنَ لرسولِ الله ﷺ في فتحِ الطائفِ ، فأمرَ عمرَ بنَ الخطَّابِ - رضيَ الله عنه - فأذِنَ في الناسِ بالرحيلِ ، فضجَّ الناسُ من ذلكَ ، وقالوا : نرحلُ ولم يُفتحَ علينا الطائفُ ؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ : « فاغدوا على القتالِ » فغدوا ، فأصابَتِ المسلمينَ جراحاتُ ، فقالَ رسولُ الله ﷺ : « إنا قافلونَ غدًا إن شاء الله » فسروا بذلكَ ، وأظعنوا ، وجعلوا يرحلونَ ، ورسولُ الله ﷺ يضحكُ (٢) .

سبايا حُنينٍ ومغانمُها :

ونزلَ رسولُ الله ﷺ « الجِعْرَانَةَ » فيمنَ معه منَ النَّاسِ ، واستأنى بهوازنَ

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٥٧ ، نقلاً عن ابنِ إسحاق .

(٢) والقصة في صحيح البخاري [في كتاب المغازي] باب « غزوة الطائف » [رقم : ٤٣٢٥] وفي صحيح مسلم [في كتاب الجهاد] ، باب « غزوة الطائف » [رقم (١٧٧٨)] عن ابنِ عمر رضي الله عنهما .

أَنْ يَاقَدُمُوا عَلَيهِ مُسْلِمِينَ بَضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، ثُمَّ بَدَأَ بِالْأَمْوَالِ فَقَسَمَهَا ، وَأَعْطَى الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ أَوَّلَ النَّاسِ ، وَأَجْزَلَ لِأَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَابْنَيْهِ يَزِيدَ وَمَعَاوِيَةَ ، وَأَعْطَى حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ ، وَالنَّضَرَ بْنَ الْحَارِثِ ، وَالْعَلَاءَ بْنَ حَارِثَةَ الثَّقَفِيِّ ، وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ ، فَأَكْثَرَ وَأَجْزَلَ ، ثُمَّ أَمَرَ بِإِحْضَارِ الْغَنَائِمِ وَالنَّاسِ ، ففَرَضَهَا عَلَيْهِمْ ^(١) .

حُبُّ الْأَنْصَارِ وَإِثَارُهُمْ :

وَتَقَاوَلَ شَبَابٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي هَذَا الْفَرَضِ الَّذِي كَانَ لِأَشْرَافِ قُرَيْشٍ ، وَلِمْؤَلَّفَةِ الْقُلُوبِ النَّصِيبُ الْأَكْبَرُ فِيهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْأَنْصَارِ إِلَّا نَصِيبٌ ضَيْلٌ .

فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأَنْصَارِ ، فَجُمِعُوا فِي حَظِيرَةٍ ، فَخُطِبَ خُطْبَةً عَظِيمَةً مَسَّتْ قُلُوبَهُمْ ، فَفَاضَتْ لَهَا عَيُونُهُمْ ، وَثَارَ فِيهِمُ الْحُبُّ وَالْحَنَانُ ، قَالَ فِيهَا :

« أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا ، فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بُيْ ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بُيْ ، وَأَعْدَاءَ فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ !؟ » .

قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ وَأَفْضَلُ .

وَلَمَّا سَكَتُوا قَالَ : « أَلَا تُحِبُّونِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؟ »

قَالُوا : بِمَاذَا نُحِبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! اللَّهُ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ .

قَالَ : « أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ ، فَلِصَدَقْتُمْ ، وَلِصُدَّقْتُمْ : أَتَيْتَنَا مَكْذِبًا فَصَدَّقْنَاكَ ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ ، وَطَرِيدًا فَأَوَيْنَاكَ ، وَعَائِلًا فَأَوَاسَيْنَاكَ » .

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٤٨ ، باختصار [وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام . . . ، برقم (١٠٦٠)] .

ثمَّ انعطَفَ عليهم بكلمةٍ فيها الثقةُ ، وفيها العدالةُ ، وفيها حكمةٌ هذا التفاوتِ في الفرضِ والعطاءِ ، فقال :

« أوجدْتُم عليَّ يا معشرَ الأنصارِ في أنفسِكُم ، في لُعاةٍ ^(١) من الدُّنيا ، تألَّفْتُ بها قومًا لِيُسَلِّمُوا ، ووَكَلْتُكُم إلى إِسلامِكُم » .

ثم قالَ كلمةً لم يتمالكوا أَمامَها ، فانفَجَرَ الإيمانُ والحنانُ في نفوسِهِم ، وتدَفَّقَ ، قالَ :

« أَلَا تَرَضُّونَ يا معشرَ الأنصارِ ! أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ والبَعِيرِ ، وترجعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إلى رِحالِكُم ؟ فوالذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ ، لَمَّا تَنقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ ، ولولا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امرأً مِنَ الأنصارِ ، ولو سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً ووادياً ، وسَلَكَتِ الأنصارُ شِعْباً ووادياً لَسَلَكَتُ شِعْبَ الأنصارِ وواديها ، الأنصارُ شِعَارُ ، والناسُ دِثَارُ ، اللَّهُمَّ ارحمِ الأنصارَ ، وأبناءَ الأنصارِ ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ » .

وبَكَى القَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُم ، وقالوا : « رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قَسْماً وحِظاً » (٢) (٣) .

(١) لُعاة : بقلة خضراء وناعمة ، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها [ومنه « ما بقي في الإناء إلا لُعاة » والمعنى بقية يسيرة] .

(٢) أصل الرواية في الصحيحين ، وساقه ابن القيم في « زاد المعاد » أجمع وأشمل الطرق فاعتمدنا عليه ، راجع الجامع الصحيح للبخاري ، [كتاب المغازي] باب « غزوة الطائف » [رقم الحديث (٤٣٣٠) ، و« صحيح مسلم » كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلف قلوبهم على الإسلام . . . ، برقم (١٠٦١) ، و« مسند الإمام أحمد » (٢٤/٤) ، من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه ، وأخرجه أحمد أيضاً (٧٦/٣) ، وابن هشام في السيرة (٢/٤٩٨-٤٩٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه] .

(٣) [وفي الحقَّ أَنَّ هذه الخطبة فريدةٌ في لغات العالم ، وإنها كما قال مولانا الداعية المجتهد أبو الحسن علي الحسيني الندوي حين أطلع على شرحي لهذه الخطبة فقال : إِنِّي أَحْسِنُ سَتاً=

ردُّ السبايا على هوازن :

وقَدِمَ وفدُ هوازنَ على رسولِ الله ﷺ وهم أربعةَ عشرَ رجلاً ، فسألوهُ أنْ يَمَنَّ عليهم بالسبي والأموالِ ، فقالَ : « إِنَّ مَعِيَ مَنْ تَرَوْنَ ، وَإِنَّ أَحَبَّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ ، فَأَبْنَأُكُمْ وَنَسَأُكُمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَمْ أَمْوَالُكُمْ ؟ » .

قالوا : ما كُنَّا نَعِدُكُمُ بالأبناءِ والنساءِ شيئاً ، فقالَ ﷺ : « إِذَا صَلَّيْتُ الْغَدَاةَ فقومُوا وقولُوا : إِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَنَسْتَشْفَعُ بِالْمُؤْمِنِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْنَا سَبِينَا » فلَمَّا صَلَّى الْغَدَاةَ ، قَامُوا ، فَقَالُوا ذَلِكَ ، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّبِ فَهُوَ لَكُمْ ، وَسَأَسْأَلُ لَكُمْ النَّاسَ » فقالَ المهاجرونَ والأنصارُ : ما كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وأبَى ثَلَاثَةٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ، وَبَنِي فِزَارَةَ ، وَبَنِي سُلَيْمٍ ، أَنْ يَتَنَازَلُوا عَنْ سَبِيهِمْ ، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ قَدْ جَاءُوا مُسْلِمِينَ ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِهِمْ ، وَقَدْ خَيْرْتُهُمْ ، فَلَمْ يَعْدِلُوا بِالْأَبْنَاءِ وَالنِّسَاءِ شَيْئاً ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ ، فَطَابَتْ نَفْسُهُ بِأَنْ يَرُدَّهُ ، فَسَبِيلُ ذَلِكَ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْتَمْسِكَ بِحَقِّهِ ، فَلْيَرُدَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلَهُ بِكُلِّ فَرِيضَةٍ سِتُّ فَرَائِضَ ، مِنْ أَوَّلِ مَا يَفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا » .

فقالَ النَّاسُ : قَدْ طَيَّبْنَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فقالَ : « إِنَّا لَا نَعْرِفُ مَنْ رَضِيَ مِنْكُمْ مَمَّنْ لَمْ يَرْضَ ، فَارْجِعُوا ، حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عِرْفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ » ، فَرَدُّوا

= لغات عالمية ، لا أعرف فيها مثل هذه الخطبة ، وإنها لمن دلائل نبوته ﷺ (الأستاذ الدكتور نور الدين عتر في كتابه « في ظلال الحديث النبوي . . . » ص ٣٣٦) .

عليهم نساءهم وأبنائهم ، ولم يتخلف منهم أحدٌ ، وكسا رسول الله ﷺ السبي قُبْطِيَّةً قُبْطِيَّةً « (١)(٢) .

رُقَّةٌ وكرمٌ :

وكانَ المسلمونَ قد ساقُوا فيمنَ ساقُوهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ الشَّيْمَاءَ بنتَ حلِيمَةَ السَّعْدِيَّةَ ، أختَ رسولِ اللهِ ﷺ منَ الرِّضَاعَةِ ، وعَنَّفُوا عليها في السَّوْقِ ، وهمَ لا يدرونَ ، فقالتُ للمسلمينَ : تعلمونَ واللهِ أَنِّي أختُ صاحبكم من الرضاعة ، فلم يصدقوها حتَّى أتوا بها رسولَ اللهِ ﷺ ، ولما انتهت الشَّيْمَاءُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ قالتُ : يا رسولَ اللهِ ! إِنِّي أختُكَ منَ الرِّضَاعَةِ ، قالَ : ما علامةُ ذلكَ ؟ قالتُ : عَصَةٌ عَضَضْتُهَا في ظهري ، وأنا متورِّكتُكَ (٣) ، وعرفَ رسولُ اللهِ ﷺ العلامةَ ، وبسطَ لها رداءَهُ ، وأجلَسَهَا عليه ، وخيَّرَهَا ، وقالَ : « إِن أَحْبَبْتَ الإقامَةَ فعندي محبةٌ ومكرمةٌ ، وإن أَحْبَبْتَ أَنْ أُمَّتَكَ وترجعِي إلى قومِكَ فعلْتُ » ، فقالتُ : بل تمتَّعني وتردُّني إلى قومي (٤) .

(١) [القُبْطِيَّةُ : الثَّوبُ من ثياب مِصر رقيقة بيضاء ، وكأنَّه منسوبٌ إلى القِبط ، هم أهل مصر وضُمَّ القاف من تغيير النِّسب ، وهذا في الثياب ، فأما في الناسِ قِبطِيٌّ ، بالكسر (النهاية : ٦/٤)] .

(٢) زاد المعاد ، ج ١ ، ص ٤٤٩ ، وروى البخاري القصة [في كتاب المغازي] ، في باب قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ ... إلخ باختلاف بعض الألفاظ [برقم (٤٣١٨) و(٤٣١٩)] ، وأبو داود في كتاب الجهاد ، باب في فداء الأسير بالمال ، برقم (٢٦٩٣) ، وأحمد في المسند (٣٢٦/٤) من حديث عروة بن الزبير [.

(٣) يعني : حاملتك على وركي .

(٤) السيرة النبوية : لابن كثير : ج ٣ ، ص ٦٨٩ .

وَمَتَّعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمْتُ ، وَأَعْطَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَعْبِدٍ وَجَارِيَةً وَنَعْمًا وَشَاءَ^(١) .

عمرَةُ الْجِعْرَانَةِ :

وَلَمَّا انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ حُنَيْنٍ ، وَقُسِّمَتِ السَّبَايَا وَالْمَغَانِمُ فِي الْجِعْرَانَةِ ، وَهِيَ عَلَى مَرَحَلَةٍ مِنْ مَكَّةَ وَمِيقَاتِ أَهْلِ الطَّائِفِ ، أَحْرَمَ مِنْهَا لِلْعُمْرَةِ ، وَاعْتَمَرَ وَانصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ^(٢) ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ^(٣) ، سَنَةِ ثَمَانٍ .

طَائِعُونَ لَا كَارِهُونَ :

وَلَمَّا ارْتَحَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الطَّائِفِ ، وَاسْتَقْبَلُوا الْمَدِينَةَ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قُولُوا آيَبُونَ ، تَائِبُونَ ، عَابِدُونَ ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ » .

قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! ادْعُ اللَّهَ عَلَى ثَقِيفٍ .

قَالَ : « اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا وَائِثْ بِهِمْ » .

وَلَحِقَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ ، وَأَدْرَكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الْمَدِينَةَ ، فَأَسْلَمَ وَرَجَعَ يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَكَانَ مُحِبًّا إِلَيْهِمْ ، صَاحِبَ مَنْزِلَةٍ فِيهِمْ ، فَلَمَّا دَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَظْهَرَ لَهُمْ دِينَهُ ، رَمَوْهُ بِالنَّبْلِ ، فَقُتِلَ شَهِيدًا .

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٤٩ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٥٠٠ .

(٣) أخرجه البخاري ، [في كتاب المغازي] باب « غزوة الحديبية » [برقم (٤١٤٨)] ، ومسلم في كتاب الحج ، باب بيان عدد عمر النبي ﷺ . . . ، برقم (١٢٥٣) ، وأبو داود في كتاب المناسك ، باب العمرة ، برقم (١٩٩٤) من حديث أنس رضي الله عنه [.

وأقامت ثقيفٌ بعدَ قتلِهِ أشهراً ، ثمَّ ائتمروا بينهم ، ورأوا أَنَّهُ لا طاقةَ لهم بحربٍ من حولهم من العربِ ، وقد بايعُوا وأسلمُوا ، فأرسلُوا وفداً إلى رسولِ اللهِ ﷺ .

لا هوادة مع الوثنية :

وقدِمُوا على رسولِ اللهِ ﷺ وضربَ عليهم قبةً في ناحيةِ مسجدهِ ، وأسلمُوا .

وسألُوا رسولَ اللهِ ﷺ أن يدعَ لهم « اللَّاتَ » لا يهدمُها ثلاثَ سنينَ ، فأبى رسولُ اللهِ ﷺ عليهم وما برحُوا يسألونه سنةً سنةً ، ويأبى عليهم رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى سألُوا شهراً واحداً بعدَ قدومهم ، فأبى عليهم إلَّا أن يبعثَ أبا سفيانَ بنَ حربٍ ، والمُغيرةَ بنَ شعبةَ - وهو من قومهم - يهدمانِها .

وسألوه أن يعفيهم من الصلاةِ ، فقالَ : « لا خيرَ في دينٍ لا صلاةَ فيه » .

ولمَّا فرغُوا من أمرهم وتوجَّهُوا إلى بلادهم راجعينَ ، بعثَ معهم أبا سفيانَ بنَ حربٍ والمغيرةَ بنَ شعبةَ ، فهدمَها المغيرةُ ، وانتشرَ الإسلامُ في ثقيفٍ ، حتى أسلمَ أهلُ الطائفِ عن آخرهم^(١) .

إسلامُ كعبِ بنِ زهيرٍ :

لمَّا قدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ من الطائفِ ، جاءهُ كعبُ بنُ زُهيرٍ - الشاعرُ بنُ الشاعرِ - وكانَ قد هجَا رسولَ اللهِ ﷺ ثمَّ ضاقتْ به الأرضُ ، وضاحتْ عليه نفسهُ ، وحنَّ أخوه « بُجَيْرٌ » على أن يأتي رسولَ اللهِ ﷺ تائباً مسلماً ، وحذَّره من سوءِ العاقبةِ إن لم يفعلْ ذلكَ ، فقالَ قصيدتهُ التي يمدحُ فيها رسولَ اللهِ ﷺ والتي اشتهرتْ بـ « قصيدةِ بانَتْ سَعَادُ » .

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٥٨ - ٤٥٩ ملخصاً .

فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ ، وَغَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ ، ثُمَّ جَلَسَ إِلَيْهِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَعْرِفُهُ ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : إِنَّ كَعْبَ بْنَ زَهِيرٍ جَاءَ يَسْتَأْمِنُكَ تَائِبًا مُسْلِمًا ، فَهَلْ أَنْتَ قَابِلٌ مِنْهُ ؟ فَوُثِّبَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي وَعَدَّوْا لِلَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « دَعُهُ عَنْكَ » فَقَدْ جَاءَ تَائِبًا نَازِعًا ، وَأَنْشَدَ كَعْبٌ قَصِيدَتَهُ اللَّامِيَةَ الَّتِي أَوَّلُهَا : [مِنَ الْبَسِيطِ]

بَانَتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ
وَقَالَ مَادِحًا فِيهَا :

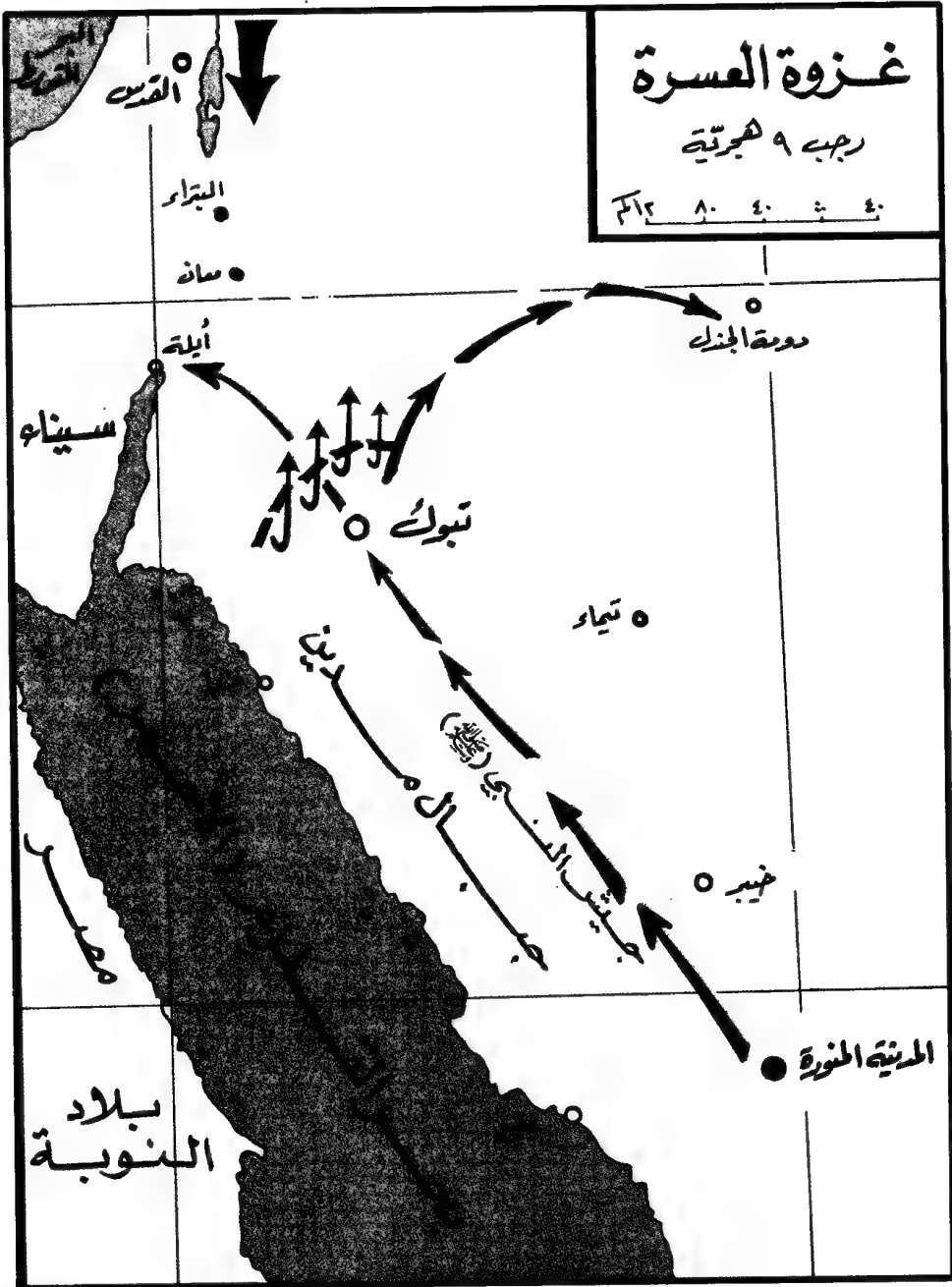
إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنْدٌ مِنْ سَيْوِفِ اللَّهِ مَسْلُولُ
فَخَلَعَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرْدَتَهُ ^(١) .

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٦٦-٤٦٨ .

قال القسطلاني في « المواهب » (: ج ٣ ، ص ٧٠) في رواية أبي بكر بن الأنباري أنه لما وصل إلى قوله : [مِنَ الْبَسِيطِ]

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنْدٌ مِنْ سَيْوِفِ اللَّهِ مَسْلُولُ
رمى عليه الصلاة والسلام بردة كانت عليه ، وأن معاوية بذل فيها عشرة آلاف ، فقال : ما كنت لأؤثر بثوب رسول الله ﷺ أحداً ، فلما مات كعب ، بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفاً فأخذها منهم ، قال : وهي البردة التي عند السلاطين .

خريطة غزوة العسرة رجب ٩ هجرية



غَزْوَةُ تَبُوكَ (١)

رَجَبُ سَنَةِ تِسْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ

أثر غزوة تبوك النفسي وسببها :

كَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ نَظِيرَ فَتْحِ مَكَّةَ فِي قَذْفِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ ، وَرَفَعَ الْغِشَاوَةَ عَنْ عَيُونِ كَثِيرٍ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْإِسْلَامَ سَرَاجٌ يَلْتَهَبُ ثُمَّ يَنْطَفِئُ ، أَوْ سَحَابَةٌ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَنْقَشُ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْغَزْوَةُ احْتِكَاكًا بِأَعْظَمِ قُوَّةٍ وَأَكْبَرِ دَوْلَةٍ فِي الْعَصْرِ ، وَكَانَتْ عَظِيمَةً الشُّوْكَةِ ، مَرْهُوبَةً الْجَانِبِ فِي نَظَرِ الْعَرَبِ .

وَقَدْ قَالَ أَبُو سَفْيَانَ حِينَ رَأَى اهْتِمَامَ هِرَقْلَ - الْإِمْبَرَاطُورِ الرُّومِيِّ - بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ مَعَ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ ، وَحَسَابَةَ لَظْهَوْرِ النَّبِيِّ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ : « لَقَدْ أَمَرَ^(٢) أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ ، فَمَا

(١) موضع من بلاد العرب بين المدينة المنورة ودمشق على نصف الطريق ، واقع إلى الجنوب الشرقي من أيلة ، وفي معجم البلدان لياقوت عن أبي زيد : « تبوك بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر ، ويقال : إن أصحاب الأيكة الذي بعث إليهم شعيب كانوا هناك » انتهى . وتبوك على ست مراحل من بحر القلزم بين جبلي حسمى وشروى ، (ملخصاً من دائرة المعارف للبستاني) وهي الآن ثكنة تابعة لإمارة المدينة في المملكة العربية السعودية ، على بعد ٧٦٠ كيلو متراً تقريباً من المدينة المنورة .

(٢) [أَمَرَ الْأَمْرُ : أَيِ اشْتَدَّ] .

زَلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيُظْهِرُ ، حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ »^(١) .

وكان العرب لا يحلمون بغزو الروم والزحف عليهم ، بل كانوا يخافون أن يغزوهم في عقر دارهم ، بل كانوا يرون أنفسهم أصغر من ذلك ، وكان المسلمون في المدينة إذا حاربهم أمر ، أو دهمهم خطر ، ابتدرت أذهانهم إلى هجوم غسان وغزوهم ، وهم تبع لقيصر ملك الروم وعماله .

جاء في قصة الإيلاء التي وقعت سنة ثمان ، يقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : « كان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتانني بالخبر ، وإذا غاب كنت آتية بالخبر ، ونحن حينئذ نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد امتلأت صدورنا منه ، فأتى صاحبي الأنصاري يدق الباب ، وقال : افتح افتح ، فقلت : جاء الغساني ؟! »^(٢) .

وقد كانت الدولة الرومية في أوجها ، وقد دحرت جيوشها في قيادة هرقل جيوش إيران وأوغلت في ديارها ، وهزمتها هزيمة منكرة ، ومشى هرقل من حمص إلى « إيلياء » في موكب الملك المنتصر ، والقائد المظفر شكراً^(٣) على هذا الانتصار الرائع ، وذلك سنة سبع للهجرة ، يحمل الصليب الذي استرده من الفرس ، وقد بسطت له البسط ، ووزعت عليه الرياحين ، فمشى

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب كيف كان بدء الوحي ، برقم (٧) ، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن أبي سفيان] .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة التحريم ، باب : ﴿ تَبَلَّغِي مَرْصَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ ، برقم (٤٩١٣) ، ومسلم في كتاب الطلاق [باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخيرهن ، برقم (١٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما] .

(٣) صحيح مسلم (كتاب الجهاد والسير) ، باب « كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعو إلى الإسلام » [برقم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي سفيان] .

عليها^(١) ، فما مضى على هذا الانتصار الرائع عامان ، حتى خرج رسول الله ﷺ من المدينة يريد الروم .

وقد مهدَّ الله بهذا الغزو الذي كان له أثرٌ عميقٌ في نفوس العرب ، لغزو المسلمين للشام في عهد الخليفين أبي بكر وعمر ، وكان ذلك سنداً له .

ويقال في سبب هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ اتصل به نبأ تهيب الروم لغزو حدود العرب الشمالية ، قال ابن سعد وشيخه الواقدي : « إن رسول الله ﷺ بلغه من الأنباط أن هرقل رزق أصحابه لسنة وأجلبت معهم لخم وجذام وعاملة وغسان وغيرهم من متنصرة العرب ، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء »^(٢) .

وسواءً صحَّت هذه الرواية أو لم تصحَّ ، فقد كانت الغاية في الحقيقة من هذه الغزوة إرهاب الدولة المجاورة ، التي كانت تخاف معرَّتها على مركز الإسلام والمسلمين ، وعلى الدعوة الإسلامية الزاحفة وقوتها الناشئة ، ومنعها من أن تطمع في غزو المسلمين في عُقر دارهم ، وأن تعتبرهم مالاً سائباً أو لقمة سائغة ، فمن كان هذا شأنه لا يتقدم بجيوشه إلى هذه الإمبراطورية العظيمة ، ويدخل في حدودها متهدداً ، وتلك هي الحكمة التي ذكرها القرآن في سياق الآيات التي نزلت في غزوة تبوك ، وقال : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٣] .

وقد تحققت هذه الغاية ، فلم يقابل الروم هذا الزحف بزحفٍ مقابل ، وبتحرُّكاتٍ عسكرية ، بل كان هنالك نوعٌ انسحابٍ مقابل هذا التحدي السافر ، وضاروا يحسبون لهذه القوة الناشئة حساباً لم يحسبوه من قبل .

(١) فتح الباري : ج ١ ، ص ٣١ .

(٢) الزرقاني على المواهب : ج ٢ ، ص ٦٣ - ٦٤ .

والحكمة الثانية في هذه الغزوة الجريئة ، بل في هذه المغامرة الخطرة ، هي إدخال الرُعْب في قلوب القبائل العربية التي لم تدخل في الإسلام في جزيرة العرب ، والقبائل العربية المنتصرة الخاضعة لنفوذ الإمبراطورية الرومانية ، والتابعة لها ، وإتاحة الفرصة لها للتفكير في أهمية الدين الإسلامي جدياً ، وأنه ليس من الفقايع والنفاخات التي تعلو سطح الماء ثم تغيب ، وأن له مستقبلاً زاهراً ، لعل ذلك يفتح لها الطريق في الدخول في الإسلام ، الذي ظهر في أرضهم وبلادهم ، وذلك ما أشار إليه القرآن بقوله في الذين خرجوا في هذه الغزوة :

﴿ وَلَا يَطْثُوكَ مَوْطِنًا يَغِيْظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُوكَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ [التوبة : ١٢٠] .

وقد كان الروم لا يزالون يذكرون غزوة مؤتة التي لم يقضوا منها حاجة في نفوسهم ولم يشفوها ، وقد أسفرت عن انسحاب كل فريق راضياً من الغنيمة بالإياب ، وقد أضعفت رهبة الدولة البيزنطية وجيوشها الجرارة في نفوس العرب .

وبالجُملة فقد كانت لهذه الغزوة أهمية كبيرة في السيرة النبوية وتاريخ الدعوة الإسلامية ، وتحققت منها غايات كانت بعيدة الأثر في نفوس المسلمين والعرب ، ومجرى الحوادث في تاريخ الإسلام .

زمنُ الغزوة :

وكانت هذه الغزوة في رجب سنة تسع^(١) ، غزاها رسولُ الله ﷺ في حرٍّ

(١) إنّه من الصعب تحديد زمن غزوة تبوك ؛ طبق التقويم الشمسي الميلادي ، وتعيين الشهر الإفرنجي الذي كان فيه الخروج من المدينة إلى تبوك ، وقد جعل بعض مؤلفي السيرة شهر =

شديد حين طابت الثمار والظلال واستقبل سفراً بعيداً ومفازة^(١) وعدواً كثيراً ،
فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد^(٢) ،
وكان الزمنُ زمنَ عُسرةِ الناسِ وجذبِ البلادِ .

وتعلّل المنافقون بعلى ، وكرهوا الخروجَ مع رسولِ الله ﷺ إشفاقاً من
العدوِّ القويِّ القاهرِ ، وفراراً من الحرِّ الشديدِ ، زهادةً في الجهادِ ، وشكاً في
الحقِّ ، في ذلك يقولُ الله تعالى :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

= نوفمبر مقابل رجب سنة ٩هـ ، منهم العلامة شبلي النعماني في كتابه الشهير « سيرة
النبي » ، ولكنَّ الشواهد الداخلية ، والتصريحات التي جاءت في نص الحديث الصحيح
الذي رواه الشيخان وغيرهما من أصحاب الصحاح والسنن ، تحتمُّ أن تكون هذه الغزوة قد
وقعت في زمن الصيف ، لقد جاء في صلب الحديث على لسان كعب بن مالك : « أن
رسول الله ﷺ غزاها في حرٍّ شديد حين طابت الثمار والظلال » فليكن ذلك هو الميزان
والحاكم في تحديد زمن هذه الغزوة ، وكل ما لا يتفق معه لا يعول عليه .
وفي رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب : « في قيط شديد في ليالي الخريف والناس
خارفون في نخيلهم ، وأكثر من ذلك قول المنافقين الذي نقله القرآن في سورة التوبة ، ثم
رده عليهم ، فقال : ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة :
٨١] » [فتح الباري : ١١٨ / ٨] .

وشهر نوفمبر في المدينة والحجاز ، مبدأ الشتاء ، وتطبيق التقويمين الشمسي والميلادي ،
والهلالى الهجري ، من الأمور الصعبة ، وقد كثر فيه الاضطراب لاختلاف أهل السير في
مبدأ التقويم الهجري ، هل كان من ربيع الأول أو من المحرم .

وقد توصّل الأستاذ إسحاق الرافقوري بعد استعراضٍ طويلٍ للحوادث والغزوات ، وتطبيق
بين التقويمين ، أنَّه كان شهر أبريل (نيسان) ولا يبعد عن الصواب ، لأنه مبدأ الصيف في
المدينة ، إلا أنه ذكر أنه كان ذلك في سنة ٦٣٠ م ، والعلامة شبلي النعماني عيَّنها بسنة
٦٣٥ م ، والله أعلم .

(١) مفازة : فلاة لا ماء فيها .

(٢) مقتبسٌ من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه الذي رواه الشيخان [انظر تخريجه في
صفحة ٤٩٢] .

وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿

[التوبة : ٨١] .

تنافسُ الصحابة في الجهادِ والمسير :

وَجَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرِهِ ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالْجَهَازِ ، وَحَضَّ أَهْلَ الْغَنَى عَلَى النِّفْقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْغَنَى ، وَاحْتَسَبُوا ، وَجَهَّزَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ ، وَأَنْفَقَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (١) ، وَاسْتَحْمَلَ (٢) رَجُلًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَكَانُوا أَهْلَ حَاجَةٍ ، فَاعْتَذَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَدَمِ وَجُودِ الظَّهْرِ ، فَاشْتَدَّ حَزْنُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَسْقَطَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْحَرَجَ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ [التوبة : ٩٢] .

وقد كان نفرٌ من المسلمين أبطأت بهم النيَّةُ ، حينَ تخلَّفوا عن هذه الغزوة من غير شكٍّ ولا ارتيابٍ .

مسيرُ الجيشِ إلى تبوك :

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنَ النَّاسِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى تَبُوكَ ، وَكَانَ أَكْبَرَ جَيْشٍ خَرَجَ بِهِ فِي غَزْوَةٍ ، وَضَرَبَ عَسْكَرَهُ عَلَى ثَنِيَّةِ الْوُدَاعِ ، وَاسْتَعْمَلَ

(١) [أخرجه الترمذي في أبواب المناقب ، باب [في عد عثمان تسميته شهيداً ، ... برقم (٣٧٠١) ، وقال : حسن غريب ، وأحمد في المسند (٦٣/٥) بإسناد حسن من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه] .

(٢) [استحمَلَ ، أي : طلب راحلةً تحمله إلى المعركة] .

على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري ، وخلف على أهله علي بن أبي طالب ، وقال له حين شكّا إليه إرجاف المنافقين وقالتهم : « أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبيّ بعدي »^(١) .

ونزل بـ « الحجر » ديار ثمود ، وأخبرهم بأنها ديار المعذّبين ، وقال : « لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم »^(٢) وقال : « لا تشربوا من مائها شيئاً ولا تتوضؤوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئاً » .

وأصبح الناس ولا ماء لهم ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا ، فأرسل الله سبحانه سحابة ، فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء^(٣) .

تخوُّف العرب من الرُّوم :

وكان رهط من المنافقين يُشِرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك ، فيقول بعضهم لبعض : أتَحسبون جِلاَد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنّا بكم غداً مقرّنين بالحبال^(٤) .

(١) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة تبوك ... ، برقم (٤٤١٦) ، وأحمد في المسند (١٨٢/١) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه] .

(٢) زاد المعاد : ج ١ ص ٤٠٣ ، وسيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٥٢٢ ، ومعناه في الصحيحين [أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب قوله « ولقد كذب أصحاب الحجر » ، برقم (٤٧٠٢) ومسلم في الزهد ، باب النهي عن الدخول على أهل الحجر إلا من يدخل باكياً ، برقم (٢٩٨٠) ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما] .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٥٢٢ [أخرج الطبراني هذه الحادثة في « المعجم الأوسط » ، وقال الهيثمي (١٩٤/٦ - ١٩٥) : رواه البزار والطبراني في الأوسط ، ورجال البزار ثقات] .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ١ ، ص ٥٢٤ - ٥٢٦ .

الصلح بين الرسول وأصحاب أيلة :

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة - وهو أحد الأمراء المقيمين بالحدود - فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل « جَزْبَاء » ، و « أَذْرَح »^(١) وكتبَ لهم رسول الله ﷺ كتابَ أمن ، كان فيه كفالة الحدود وتأمين المياه ، والطرق البرية والبحرية ، والضمان لسلامة الفريقين ، وأكرمه رسول الله ﷺ^(٢) .

عودة الرسول إلى المدينة :

وهنا بلغَ خبرُ انسحابِ الرومِ وعُدُولِهِمْ عَنْ فِكْرَةِ الزحفِ واقتحامِ الحدودِ ، فلم يرَ رسولُ الله ﷺ محلاً لتتبعهم داخلَ بلادِهِمْ ، وقد تحقَّقَ الغرضُ .

وكانَ أَكْيَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْكَنْدِيُّ النُّصْرَانِيُّ أَمِيرَ دُومَةِ^(٣) ، وكانَ رِذْءاً لجيوشِ الرومِ ، إذْ جَاءَتْ مِنْ نَاحِيَّتِهِ ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فِي خَمْسِمِئَةِ فَارِسٍ ، وَأَسْرَ خَالِدُ أَكْيَدَ ، وَبَعَثَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَحَقَّنَ لَهُ دَمَهُ ، وَصَالَحَهُ عَلَى الْجَزْيَةِ ، وَخَلَّى سَبِيلَهُ^(٤) .

(١) [جَزْبَاء وَأَذْرَح : هما قريتان بالشَّام] .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٥٢٥ - ٥٢٦ .

(٣) دومة الجندل : كانت قرية عامرة ، يقصدها الأعراب للبيع والشراء ، كانت قد خربت على مر الزمن ، فنزل بها « أكيدر » فأعاد إليها رواءها ، وغرس الزيتون بها ، فتوافد إليها الأعراب ، يحميمها سور قديم ، وفي داخل السور حصن منيع ، اشتهر بين أعراب الشمال ، بذلك اكتسبت المدينة أهمية استراتيجية ، وكان أكثر سكانها من كلب ، وكان « أكيدر » يلقب نفسه بقلب الملك ، على عادة ذلك الوقت ، وكان أهل دومة على النصرانية في ذلك الحين . (راجع « تاريخ العرب قبل الإسلام ») .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٥٢٦ .

وأقام رسول الله ﷺ بـ «تبوك» بضع عشرة ليلة ، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة^(١) .

في جنازة مسلم مسكين :

ومات عبد الله ذو البجادين في «تبوك» ، وكان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ، ويضيئون عليه ، حتى تركوه في بجاد^(٢) ليس عليه غيره ، فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ ، فلما كان قريباً منه ، شق بجاده باثنين ، فاتزرَ بواحد ، واشتمل عليه ، ثم أتى رسول الله ﷺ فقبل له : « ذو البجادين » ، ولما مات في تبوك شيعه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر في ظلام الليل ، وفي يد بعضهم مشعل ، يسرون في ضوئه ، وقد حفروا له ، ونزل رسول الله ﷺ في حفرتيه ، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه ، وهو يقول : « أدنيا إليّ أخاكما » فدلياه إليه ، فلما هيأه لشقه ، قال : « اللهم ! إني أُمسيتُ راضياً عنه ، فارضَ عنه » ، قال عبد الله بن مسعود : يا ليتني كنتُ صاحبَ الحفرة^(٣) .

ابتلاء كعب بن مالك ونجاحه فيه :

وكان من بين من تخلف عن هذه الغزوة من غير شك ولا ارتياب ، كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وكانوا من السابقين الأولين ، ولهم حسن بلاء في الإسلام ، وكان مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ممن شهد بدرًا ، ولم يكن التخلف عن الغزوات من خلقهم وعادتهم ،

(١) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٥٢٧ .

(٢) [البجاد ، وجمعه البُجْد : هو الكساء الغليظ ، ومنه تسمية رسول الله ﷺ عبد الله بن عبد نهم ذا البجادين ، لأنه حين أراد المصير إلى رسول الله ﷺ قطعت أمه بجاداً لها قطعتين فارتدئ بإحدهما واتزر بالأخرى (النهاية : ٩٦/١)] .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٥٢٧-٥٢٨ .

ولم يكن ذلك إلا من حكمة إلهية ، وتمحيصاً لأنفسهم ، وتربيةً للمسلمين ، وإنما هو التسويف ، وضعف الإرادة ، والاعتماد الزائد على الوسائل الموجودة وعدم الجد والإسراع في الأمر ، وكم جنى ذلك على أناس لم يكونوا أقل من إخوانهم إيماناً وحباً لله ولرسوله ، وذلك ما عبر عنه ثالث ثلاثتهم كعب بن مالك بقوله :

« فَطَفِقْتُ أَغْدُو لَكِي أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ ، فَأَرْجِعَ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئاً . . فَأَقُولُ فِي نَفْسِي ، أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَزَلْ يَتِمَادَى بِي ، حَتَّى اشْتَدَّ الْجَدُّ ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئاً ، فَقُلْتُ : أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ، ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ ، فَعَدَوْتُ - بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا - لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئاً ، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ فَلَمْ أَقْضِ شَيْئاً .

فلم يزل بي حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ، ولتيني فعلت ، فلم يُقَدِّرْ لي ذلك « (١) .

وقد امتحن الله إيمان هؤلاء الثلاثة ، ومدى حبهم للرسول ﷺ ووفائهم للإسلام ، والبقاء عليه في السراء والضراء ، وإكرام الناس وجفوتهم ، وفي حال إقبال رسول الله ﷺ وإعراضه امتحاناً قل نظيره في تاريخ المجتمعات

(١) أخرجه البخاري ، في كتاب المغازي [باب حديث كعب بن مالك . . . ، برقم (٤٤١٨) ، ومسلم في كتاب التوبة ، باب حديث توبة كعب بن مالك ، برقم (٢٧٦٩) ، وأبو داود في كتاب الإيمان والنذور ، باب فيمن نذر أن يتصدق بماله ، برقم (٣٣٢١) ، والنسائي في الطلاق ، باب الحقي بأهلك . . . ، برقم (٣٤٥١) و(٣٤٥٢) ، وعبد الرزاق في المصنف ، برقم (٩٧٤٤) ، وابن أبي شبة في المصنف ، برقم (١٨٨٥٣) ، وابن هشام في السيرة (٥٣١/٢) ، وابن جرير في التفسير (٥٨/١١) ، وابن كثير في السيرة (٤٢/٤) - (٤٨) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/٢٧٣ - ٢٧٩) وغيرهم من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه .]

البشريّة التي تقوم على أساس الإيمان والعقيدة والحبّ والعاطفة .

وقد صدّقوا رسول الله ﷺ حين كذب الناس ، وشهدوا على أنفسهم ، حين برأها المنافقون .

يقول كعب بن مالك في حديثه البليغ الطويل :

« جاءه المخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، فجئته وسلّمت عليه ، فلما سلّمت عليه ، تبسّم تبسّم المغضب ، ثم قال : تعال ، فجئت أمشي ، حتّى جلست بين يديه فقال لي : ما خلّفتك ؟ ألم تكن قد ابتغت ظهرك .

فقلت : بلى والله ؟ إنّي والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً ، ولكنّي والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عني ، ليوشكنّ الله أن يسخطك عليّ ، ولئن حدثتك حديث صدقٍ تجد عليّ فيه ، إنّي لأرجو فيه عفو الله ، والله ما كان لي من عذر ، لا والله ما كنت أفوى ولا أيسر منّي حين تخلفت عنك » .

وجاءت الساعةُ الرهيبةُ ، فنهى رسول الله ﷺ عن كلامهم ، وما كان من المسلمين إلا السّمع والطاعة ، فاجتنبهم الناس وتغيّروا لهم ، حتّى تنكرت في نفوسهم الأرض ، فما هي التي يعرفونها ، ولبثوا على ذلك خمسين ليلةً ، فأما مُرارةُ بن الربيع وهلال بن أميّة ، فاستكانا وقعدا في بيوتهما يكيان ، وأما كعب بن مالك ، فكان أشبّ الثلاثة وأجلدهم ، وكان يخرج فيشهد الصلاة مع المسلمين ، ويطوف في الأسواق ، ولا يكلمه أحد^(١) .

(١) مقتبس من حديث كعب بن مالك نصه وهو يصور الحال ويذكر القصة [قد سبق تخريجه قبل =

وكلُّ ذلك لم يؤثّر في رابطة الحبِّ والولاءِ ، التي كانت تربطه برسولِ الله ﷺ ، ولم يؤثّر كذلك في عطفِ رسولِ الله ﷺ عليه ورأفتهِ به ، بل لم يزدْه هذا العتابُ إلّا رسوخاً في المحبةِ ، ولوعةً ، وجوى ، يقولُ :

« وآتي رسولَ الله ﷺ فأسلمُ عليه ، وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقولُ في نفسي : هل حرّك شفتيه بردَّ السّلام أم لا ؟ ثمَّ أصلي قريباً منه ، فأسأله النظرَ ، فإذا أقبلتُ على صلاتي أقبلَ عليّ ، وإذا التفتُ نحوه أعرَضَ عني » .

فتكرّرت له الدُّنيا وأعرَضَ عنه من كانت له دالّةً عليه ، يقولُ : « حتّى إذا طال عليّ ذلك من جفوة النَّاسِ ، مشيتُ حتّى تسوّرتُ جدارَ حائطِ أبي قتادة ، وهو ابنُ عمّي وأحبُّ النَّاسِ إليّ ، فسلمتُ عليه ، فوالله ما ردَّ عليّ السّلامَ ، فقلتُ : يا أبا قتادة ! أنشدك بالله هل تعلمني أحبُّ الله ورسوله ؟ فسكتَ فعدتُ له ، فنشدته ، فسكتَ ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضتُ عيني ، وتولّيتُ حتّى تسوّرتُ الجدارَ » (١) .

ولم يقتصرِ الأمرُ على ذلك ، بل تعدّى إلى أزواجِ هؤلاء الثلاثة ، فأمرُوا أن يعتزلوهُنَّ ، ففعلوا .

وجاءت أدقُّ مرحلةٍ من مراحلِ هذا الامتحانِ للحبِّ والوفاءِ ، والثباتِ والاستقامةِ ، وذلك حينَ خطبَ ودّه ملكُ غسانَ ، الذي كانت منادمتُه وحضورُ مجلسه شرفاً يتنافسُ فيه المتنافسون ، ويتغنّى به شعراءُ العربِ سنينَ طوالاً (٢) ، فجاءه - وهو في ضيقِ النفسِ ، وجفوة النَّاسِ ، وإعراضِ

= قليل [.

(١) حديث كعب بن مالك في صحيح البخاري [قد سبق تخريجه قبل قليل في صفحة (٤٩٢)] .

(٢) اقرأ قصيدة حسان بن ثابت الأنصاري في مدح آل جفنة ، يقول فيها : [من الكامل]

لله درّ عصابة نادمهم يوماً يجلق في الزمان الأول =

رسول الله ﷺ عنه - رسول ملك غسان ، فیدفعُ إليه كتاباً منه يقولُ فيه : « إنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدارِ هوانٍ ، ولا مضیعةٍ فالحق بنا نواسك » ، فتثورُ في كعبِ الغيرة ، ويهيجُ الحنانُ ، فيقصدُ تنوراً ، ويرمي هذا الكتابَ فيه .

ولمّا تمّ ما أرادَهُ الله من تمحيصِ هؤلاءِ الثلاثةِ المؤمنينِ وتخليدِ ذكرِهِم في القرآن ، ودرسِهِم للمسلمينَ إلى آخرِ الأبد ، وإقامةِ برهانٍ على قوةِ إيمانٍ وحسنِ إسلامٍ ، وقد ضاقتُ عليهم أنفسهم ، وضاقتُ عليهم الأرضُ بما رحبتُ ، أفرجَ عنهم ، وأنزلَ توبتهم من فوقِ سبعِ سمواتٍ .

ولم يُفردْهم بالتوبةِ حتّى يشعروا بغريبتهم ويكونهم شامةً بين الناس ، بل مهّدَ لتوبتهم التوبةَ على سيدِ الأنبياءِ والمهاجرينِ والأنصارِ الذين لم يتخلّفوا ، تكريماً لهم ، وجبراً لخواطِرِهِم ، ورفعاً لمكانتهم ، فقال :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ١١٧ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٧ - ١١٨] .

نظرة على الغزوات :

وبغزوةِ تبوك التي كانت في رجب سنة تسع للهجرة انتهت الغزوات النبويّة ، التي بلغَ عددها سبعاً وعشرين غزوة^(١) ، والبعوثُ والسرايا التي بلغَ

= يُسْقَوْنَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ بَرَدَى يَصْفُقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ
(١) على تحقيق ابن القيم في « زاد المعاد » ومن رأي اللّواء الركن محمود شيت خطّاب وتحقيقه =

عددها ستين^(١) ، ولم يكن في كلها قتال .

وقد أريق في جميع هذه الغزوات والسرايا التي بعثها النبي ﷺ أقل دم عُرِف في تاريخ الحروب والغزوات ، فلم تتجاوز القتلى كلها ١٠١٨ قتيلاً من الفريقين ، وكانت حاقنةً لدماء لا يعلم عددها إلا الله ، عاصمةً لنفوس وأعراض لا يحصيها إحصاء ، باسطة الأمن في أرجاء الجزيرة حتى استطاعت الظَّعِينَةُ^(٢) أن ترتحل من الحِجْرَةِ^(٣) حتى تطوف بالكعبة ، ولا تخاف أحداً إلا الله^(٤) ، والمرأة من القادسية على بغيرها حتى تزور البيت لا تخاف^(٥) بعدما كانت الجزيرة كلها كِفَّةً حابل ، وشبكة دقيقة من تراتٍ وثراتٍ ، وحروبٍ وغاراتٍ ، لا تمشي فيها قوافل الحكومات الكبيرة إلا بخفارةٍ ساهرة ، وبذرقية^(٦) ماهرة .

وكانت هذه الحروب مؤسسة على الأصلين القرآنيين الحكيمين : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة : ١٩١] ، و ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولِي

= أن عددها يبلغ ثمانياً وعشرين (٢٨) غزوة (بحث تاريخ جيش النبي ﷺ) .

(١) كما حققها مؤلف السيرة الشهيرة القاضي محمد سليمان المنصور فوري في الجزء الثاني من كتابه : « رحمة للعالمين » ، وهو مبني على استقراء دقيق [انظر هذا التحقيق النفيس في ترجمته العربية بعنوان « نظرة تحليلية على هذه الغزوات والسرايا » ، في صفحة (٤٥٧) - (٤٧٠)] .

(٢) [الظَّعِينَةُ : هي الراحلة التي يُزْحَل ويُظَعَن عليها ، أي يُسار ، وقيل للمرأة ظعينة ، لأنها تَظَعَن مع الزوج حيثما ظَعَن ، أو لأنها تُحْمَل على الرَّاحِلَةِ إذا ظَعَنَت ، وقيل : الظعينة : المرأة في اليهودج ، ثم قيل لليهودج بلا امرأة وللمرأة بلا هودج : ظعينة (النهاية : ١٥٧/٣)] .

(٣) [الحِجْرَةُ : بلد بالعراق خربت (مقدمة فتح الباري : ١٠٩/١)] .

(٤) أخرجه البخاري ، [في كتاب المناقب] باب « علامات النبوة » برقم (٣٥٩٥) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه .

(٥) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٥٨١ .

(٦) البذرقية - بالذال المعجمة والمهملة - : الخفارة (القاموس) .

الْأَلْبَبِ ﴿ [البقرة : ١٧٩] ، موفِّرةً على النوع الإنساني والمجتمع البشريّ قدراً كبيراً من الوقت والجُهد في تغيير الأحوال ودرء الأخطار ، وكانت خاضعةً لأدابٍ خلقيةٍ وتعليماتٍ رحيمةٍ جعلتها أشبه بعمليةِ التأديبِ منها بعمليةِ التعذيب .

أمّا بالنسبةِ إلى نجاحِ العمليةِ وسرعتها فقد استمرَّ التوسُّعُ بنسبةِ ٢٧٤ ميلاً مربعاً في ظرفِ عشرِ سنواتٍ ، ولمْ يخسرِ المسلمونَ فيها إلا بنسبةِ شخصٍ واحدٍ في الشهرِ ، وكانَ أقصَى خسائرِ العدوِّ في النفوسِ ١٥٠ شخصاً ، فلمَّا اكتملتِ السنواتُ العشرُ خضعَ أكثرُ من مليونِ ميلٍ مربعٍ للحكمِ الإسلامي^(١) .

وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا ودَّعَ جيشاً ، قال :

« أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ ، وَبِمَنْ مَعَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْراً ، اغزوا باسمِ اللهِ ، في سبيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ، وَلَا تَغْدُرُوا ، وَلَا تَغْلُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً

(١) مستفادٌ من كتاب « حديث دفاع » للواء محمد أكبر خان ، ص ٢٧٢ .
[انظروا إلى مدى نجاحِ الرسول ﷺ ، فقد ضحى بِثمانيةِ عشرَ وألفَ رجلٍ فقط لتحقيقِ المصالحِ الروحيةِ والخلقيةِ والماديةِ والقوميةِ التي لمْ تحقِّقها أمةٌ ولا دولةٌ حتى اليوم .
دعونا من حروبِ رجالِ الدنيا ، ولنذكر ما يسمَّى بالحروبِ المقدَّسةِ ، فهذه حروب « مَها بَهَارَت » (التي وقعت في الهند في القرنِ السادس قبل المسيح) لا يَقِلُّ عددُ المقتولين فيها عن عشرةِ ملايينِ نسمةٍ ، وكذلك أهلكَت الهيئاتُ الدينيةِ والمقدَّسةِ في أوربةِ نفوساً يربو عددها على مئاتِ الآلاف .

وقد ذكرَ المستر جان وديون بورت في كتابه (Apology For Mohammad and Qur'an) :
أنَّ عددَ مَنْ أعدمته - سيذكره العلامةُ المؤلِّفُ أيضاً - محاكُمُ التفتيشِ بلغَ اثني عشرَ مليونَ نسمةٍ كانوا مسيحيين ، قُتلوا بأيدي مسيحية .

ودولة إسبانية وحدها أهلكَت ثلاثمئةَ ألفَ وأربعين ألفاً من المسيحيين ، واثنتان وثلاثون ألفاً منهم أُحرقوا أحياء (رحمة للعالمين ، للقاضي محمد سليمان سلمان المنصورفوري :
ص ٤٦٩ - ٤٧٥) .

ولا امرأة ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعة ، ولا تَعَقِرُوا نخلاً ، ولا تقطعُوا شجراً ، ولا تهدمُوا بناءً»^(١) .

قَارَنَ ذلكَ بقتلى الحريين العالميتين : الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨ م) والثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥ م) ، فقد ذكرَ الكاتبُ المحقِّقُ في « دائرة المعارفِ البريطانية » في هذا الموضوع ، أنَّ عددَ المقتولين في الحربِ العالمية الأولى بلغ ستة ملايين وأربعمئة ألفِ نفسٍ (٦,٤٠٠,٠٠٠)^(٢) ، وعددُ المقتولين في الحرب العالمية الثانية بين خمسة وثلاثين مليوناً وستين مليونَ نفسٍ (بين ٣٥,٠٠٠,٠٠٠ و ٦٠,٠٠٠,٠٠٠)^(٣) .

ولم تَخذُم هاتانِ الحربانِ - كما يعلمُ الجميعُ - مصلحةً إنسانيةً ، ولم يستفدَ منها العالمُ البشريُّ في قليلٍ أو كثيرٍ .

وقد بلغَ عددُ ضحايا محاكمِ التفتيشِ في أوربة في القرونِ الوسطى ، والاضطهادِ الكنسيِّ إلى اثني عشرَ مليونَ نفسٍ (١٢,٠٠٠,٠٠٠)^(٤) .

(١) رواه الواقدي عن زيد بن أرقم في غزوة مؤتة .

(٢) دائرة المعارف البريطانية : ج ١٩ ، ص ٦٦٩ .

(٣) ص ١٠١٣ ، (طبعة ١٩٧٤ م) .

[نشرت صحيفة « همد » الأردنية الصادرة في ١٧ / من إبريل سنة ١٩١٩ م) تعدادُ قتلى الحرب العالمية المستمرة من سنة ١٨ - ١٩١٤ م حسب مايلي : روسيا (١٧٠) ألف نسمة ، وألمانيا (١٦٠) ألف نسمة ، فرنسا (٢٠٠) ألف نسمة ، وإيطاليا (٤٦٠) ألف نسمة ، والنمسا (٨٠٠) ألف نسمة ، وبريطانيا (٨٠٠) ألف نسمة ، وتركيا (٢٥٠) ألف نسمة ، وبلجيكا (١٠٢) ألف نسمة ، وبلغارية (١٠٠) ألف نسمة ، ورومانية (١٠٠) ألف نسمة ، وأمريكا (٥٠) ألف نسمة . المجموع الكلي أكثر من سبعة ملايين نسمة . ويشكُّ كاتبُ المقالِ ويتساءل : هل دخل عدد قتلى مستعمرات الهند وفرنسا في تعداد إنكليز وفرنسا أم لا ؟ ولكنه يعترف بأنَّ عدد الجرحى والأسرى والضائعين لم يدرج في الأعداد المذكورة . (رحمة للعالمين ، ص : ٤٩٦)] .

(٤) John Davenport: Apology For Muhammad and Qur'an

أَوَّلُ حَجٍّ فِي الْإِسْلَامِ :

وفُرضَ الحجُّ سنةً تسع^(١) ، وبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ أبا بكرٍ أميراً للحجِّ هذه السنة ، ليقيمَ للمسلمينَ حجَّهم ، والناسُ من أهلِ الشُّركِ على منازلهم من حجَّهم^(٢) وخرجَ مع أبي بكرٍ من أرادَ الحجَّ من المسلمينَ في ثلاثِمئةِ رجلٍ من المدينة^(٣) .

ونزلتْ سورةُ (براءة) على رسولِ اللهِ ﷺ فدعا عليُّ بنُ أبي طالبٍ ، فقالَ له : « اخرجْ بهذهِ القصَّةِ من صدرِ براءةِ وأذِّنْ في الناسِ يومَ النحرِ - إذا اجتمعوا بمنى - أنَّه لا يدخلُ الجنةَ كافرٌ ، ولا يحجُّ بعدَ العامِ مشركٌ ، ولا يطوفُ بالبيتِ عُريانٌ ، ومن كانَ له عندَ رسولِ اللهِ ﷺ عهدٌ فهو له إلى مدَّتِهِ » .

فخرجَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ على ناقةِ رسولِ اللهِ ﷺ العُضْبَاءَ ، حتَّى أدركَ أبا بكرٍ بالطريقِ ، فلمَّا رآه أبو بكرٍ قالَ : أميرٌ أم مأمورٌ ؟ فقالَ : بل مأمورٌ ، ثمَّ مضى ، فأقامَ أبو بكرٍ للناسِ الحجَّ ، حتَّى إذا كانَ يومُ النَّحرِ ، قامَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ - رضي اللهُ عنه - فأذَّنَ في الناسِ بالذي أمره به رسولُ اللهِ ﷺ^(٤) .

(١) ذهب بعضُ العلماء إلى أنَّ فرضَ الحجِّ كان في السنة السادسة من الهجرة ، واختاره العلامة الشيخ محمد الخضري في « تاريخ التشريع الإسلامي » ص ٥٢ .

(٢) ابن هشام : ج ٢ ، ص ٥٤٣ .

(٣) زاد المعاد : ج ٢ ، ص ٢٤ .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٥٤٣ - ٥٤٦ [هذا الحديث مرسلٌ ، وله شواهدُ كثيرةٌ ، منها ما جاء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الترمذي في أبواب تفسير القرآن ، سورة التوبة ، برقم (٣٠٩١) ، وقال : حديث حسن غريب ، وعند أحمد في المسند (٩٩/٢) ، وقد ذكر ابن كثير في التفسير (٣٣٢/٢ - ٣٣٤) كثيراً من هذه الشواهد] .

عَامُ الْوُفُودِ سَنَةُ تِسْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ

تقاطُرُ الوفودِ إلى المدينة وأثرها في الحياة :

وبَعْدَ أَنْ فَتَحَ اللهُ مَكَّةَ ، وَعَادَ نَبِيُّهُ مِنْ تَبُوكَ سَالِمًا غَانِمًا ، وَكَانَ قَدْ كَتَبَ قَبْلَ ذَلِكَ إِلَى الْمُلُوكِ وَالْأَمْراءِ كُتُبًا دَعَاهُمْ فِيهَا إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَلَقِيَ مِنْ بَعْضِهِمُ الْإِسْتِجَابَةَ الْكَرِيمَةَ ، وَمِنْ بَعْضِهِمْ رَدًّا رَقِيقًا رَفِيقًا ، وَوَقَفَ بَعْضُهُمْ أَمَامَهَا خَاشِعًا مَرْدَدًا ، وَرَدَّهَا بَعْضُهُمْ رَدًّا قَبِيحًا ، وَتَلَقَّاهَا بِالْإِهَانَةِ وَالْكَبْرِ ، فَلَقِيَ عَقُوبَةً عَاجِلَةً أَطَاحَتْ بِمُلْكِهِ وَنَفْسِهِ ، وَقَدْ تَسَامَعَ ذَلِكَ الْعَرَبُ كُلُّهُمْ وَتَحَدَّثُوا بِهِ .

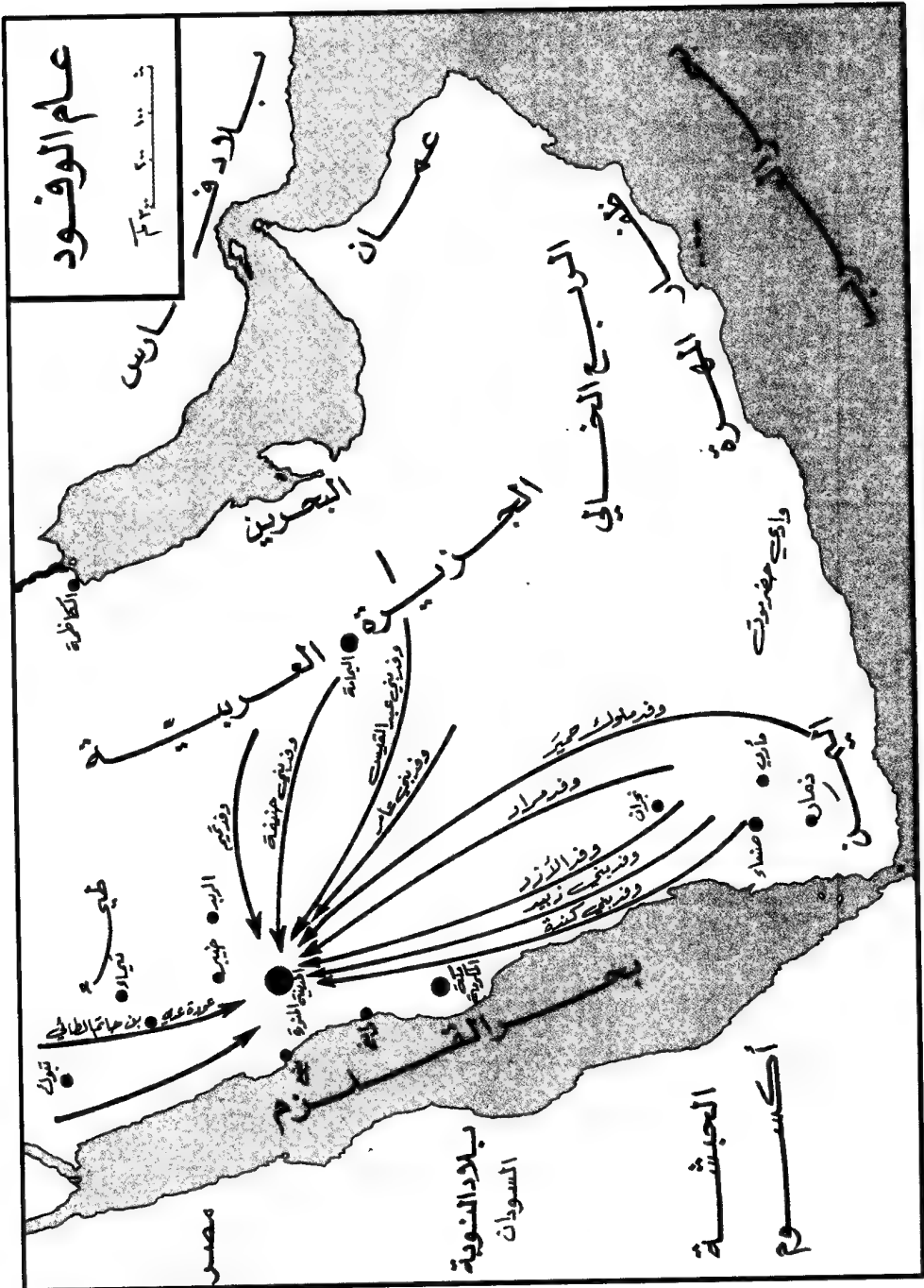
وَكَانَ لِفَتْحِ مَكَّةَ - عَاصِمَةِ الْجَزِيرَةِ الرُّوحِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ - وَدُخُولِ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ فِي الْإِسْلَامِ ، وَسُقُوطِ أَكْبَرِ حَصْنٍ مِنْ حَصُونِ الْمَقَاوِمَةِ أَمَامَ دِينِ اللهِ ، أَثَرٌ عَمِيقٌ فِي نَفُوسِ الْمَتَرَدِّدِينَ وَالْمُتَرَبِّصِينَ مِنَ الْعَرَبِ ، فَزَالَ الْحَاجَزُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِسْلَامِ ، وَطُوِيَتِ الْمَسَافَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَبُولِهِ .

قَالَ الْعَلَامَةُ مُحَمَّدُ طَاهِرُ الْفَتَنِ (ت ٩٨٦ هـ) فِي السِّيَرِ مِنْ كِتَابِهِ « مَجْمَعُ بَحَارِ الْأَنْوَارِ » :

« وَهَذِهِ السَّنَةُ ^(١) سَنَةُ الْوُفُودِ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَرَبَّصُوا بِالْإِسْلَامِ أَمْرَ قُرَيْشٍ ،

(١) يعني سنة تسع للهجرة .

خريطة عام الوفود



لأنَّهم إمامُ الناس ، وأهلُ بيتِ الله ، فلمَّا دانُوا ، وفُتِحَتْ مَكَّةَ ، وأُسْلِمَتْ ثَقِيفٌ ، عَرَفُوا أَنَّهُ لَا طَاقَةَ بِهِمْ ، ووفدَتِ الوفودُ مِنْ كُلِّ وَجِهٍ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ^(١) .

فَكَانَ لِكُلِّ ذَلِكَ أَثَرُهُ الطَّبِيعِيُّ فِي النَّفْسِ ، فَفُتِحَ الطَّرِيقُ لِلدَّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَلِقَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ ، وَتَقَاطَرَتْ وَفُودٌ هَدَايَةً وَاسْتِطْلَاعًا إِلَى مَرْكَزِ الْإِسْلَامِ كَأَنَّهَا عَقْدٌ انْفَرَطَ ، فَتَسَاقَطَتْ لَأَلَّتُهُ فِي حِجْرِ الْإِسْلَامِ .

وَكَانَتْ تَعُودُ إِلَى مَرَاكِزِهَا تَحْمِلُ رُوحًا جَدِيدَةً ، وَشَحْنَةً إِيْمَانِيَّةً ، وَحِمَاسًا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَكَرَاهَةً شَدِيدَةً لِلْوُثْنِيَّةِ وَأَثَارِهَا ، وَالْجَاهَلِيَّةِ وَشَعَائِرِهَا .

كَانَ مِنْ هَذِهِ الْوُفُودِ وَفْدُ بَنِي تَمِيمٍ ، فِيهِ أَشْرَافُ قَوْمِهِمُ الْمَشْهُورُونَ ، جَرَتْ مَسَاجِلَةٌ بَيْنَ خَطِيبِهِمْ وَشَاعِرِهِمْ ، وَبَيْنَ خَطِيبِ الْمُسْلِمِينَ وَشَاعِرِهِمْ ، ظَهَرَ فِيهَا فَضْلُ الْإِسْلَامِ وَتَفُوقُ خَطِيبِهِ وَشَاعِرِهِ ، أَقَرَّ بِذَلِكَ رُؤَسَاؤُهُمْ وَأُسْلَمُوا ، وَأَجَازَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَحْسَنَ جَوَائِزَهُمْ ^(٢) .

وَقَدِمَ وَفْدُ بَنِي عَامِرٍ ، وَقَدِمَ ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ وَافِدًا عَنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرِ ، وَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ دَاعِيًا ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ : بِسْمِ « اللَّاتِ » وَ « الْعُزَّى » .

قَالُوا : مَهْ يَا ضِمَامُ ! اتَّقِ الْبَرَصَ ، اتَّقِ الْجُدَامَ ، اتَّقِ الْجَنُونَ .

وَقَالَ : وَيَلَكُمْ ! إِنَّهُمَا وَاللَّهِ لَا يَضُرَّانِ وَلَا يَنْفَعَانِ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ رَسُولًا ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا اسْتَفْذَكْتُكُمْ بِهِ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ ، وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ

(١) مجمع بحار الأنوار : ج ٥ ، ص ٢٧٢ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٥٦٠ - ٥٦٨ .

لا شريك له ، وأنَّ محمداً عبدهُ ورسولهُ ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ، فما أمسى من ذلك اليوم في حيّه رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلماً^(١) .

وقدّم وفد بني حنيفة ، معهم مُسَيِّلَةُ الكذاب ، وأسلم ، وارتدّ ، وتنبأ ، وتكذّب لهم ، وكان مثيرَ فتنة الرّدة ، وقُتلَ فيها^(٢) .

وقدّم وفد بني طيء ، وفيهم زيد الخيل - الفارسُ المشهور - وسمّاه رسولُ الله ﷺ « زيد الخير » وحسّن إسلامه .

وقدّم عديّ بن حاتم - ابنُ الجوادِ المشهور - وأسلمَ بعدما رأى أخلاقَ رسولِ الله ﷺ وتواضعه ، حتّى قال : والله ما هذا بأمرٍ ملك .

وقدّم وفدٌ من بني زُبَيْد ، وفيهم فارسُ العربِ المشهورُ عمرو بنُ معد يكرب ، ووفدٌ كِنْدَةَ فيهم الأشعثُ بن قيس ، ووفدٌ من الأزد ، ورسولُ ملوكِ حميرَ بكتابهم يُخبرون فيه بإسلامهم .

وبعثَ رسولُ الله ﷺ معاذَ بنَ جبلٍ وأبا موسى إلى اليمن ، للدعوة إلى الإسلام ، وأوصاهما ، وقال : « يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا ، وَبَشِّرَا وَلَا تُنْفِرَا »^(٣) .

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٥٧٤ [أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب ما جاء في العلم ، برقم (٦٣) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب السؤال عن أركان الإسلام ، برقم (١٢) ، والنسائي في كتاب الصيام ، باب وجوب الصيام ، برقم (٢٠٩٣) ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب ما جاء في المشرك يدخل المسجد ، برقم (٤٨٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه] .

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب وفد بني حنيفة . . . ، برقم (٤٣٧٣) ، ومسلم في كتاب الرؤيا ، باب رؤيا النبي ﷺ ، برقم (٢٢٧٣) ، والترمذي في أبواب الرؤيا ، باب ما جاء في رؤيا النبي ﷺ في الميزان والدلو ، برقم (٢٢٩٢) وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما] .

(٣) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ، في كتاب المغازي ، باب : بعث معاذ وأبي موسى إلى اليمن ، [برقم (٤٣٤١) ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب في الأمر بالتيسير وترك =

وَبَعَثَ فِرْوَةُ بْنُ عَمْرِو الْجُدَامِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَسُولًا بِإِسْلَامِهِ ، وَكَانَ عَامِلًا لِلرُّومِ عَلَى الْعَرَبِ فِي « مَعَانَ » وَمَا حَوْلَهَا مِنْ أَرْضِ الشَّامِ .

وَأَسْلَمَ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ بـ « نَجْرَانَ » عَلَى يَدِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، وَأَقَامَ فِيهِمْ خَالِدٌ يَعْلَمُهُمُ الْإِسْلَامَ ، وَأَقْبَلَ خَالِدٌ وَمَعَهُ وَفْدُ بَنِي الْحَارِثِ وَعَادُوا إِلَى بِلَادِهِمْ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عَمْرُو بْنُ حَزْمٍ لِيُفَقِّهَهُمْ فِي الدِّينِ ، وَيَعْلَمَهُمُ السُّنَّةَ وَمَعَالِمَ الْإِسْلَامِ ، وَيَأْخُذَ مِنْهُمْ صَدَقَاتِهِمْ .
وَقَدِمَ وَفْدُ هَمْدَانَ ^(١) .

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ ، فَكَسَرَ « اللَّاتِ ! » ، ثُمَّ عَلَا أَعْلَى سُورِهَا وَعَلَا الرِّجَالَ مَعَهُ ، فَمَا زَالُوا يَهْدُمُونَهَا حَجْرًا حَجْرًا ، حَتَّى سَوَّوْهَا بِالْأَرْضِ ، وَأَقْبَلَ الْوَفْدُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ ، وَحَمْدَهُ ^(٢) .

وَقَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ ، وَرَحَّبَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ عَنِ الْأَوْعِيَةِ الَّتِي يُسْرَعُ فِيهَا الْإِسْكَارُ ، سَدًّا لِلذَّرَائِعِ ، وَلَأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْثُرُونَ مِنْهَا ^(٣) .

وَقَدِمَ وَفْدُ الْأَشْعَرِيِّينَ وَأَهْلِ الْيَمَنِ ، وَكَانُوا يَرْتَجِزُونَ : [مِنْ مَجْزُوءِ الرِّجْزِ]

= التنفير ، برقم (١٧٣٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٥٧٥ - ٥٩٦ .

(٢) سيرة ابن كثير : ج ٤ ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٣) زاد المعاد : ج ٢ ، ص ٢٨ ، الحديث في الصحيحين عن ابن عباس [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب أداء الخمس من الإيمان ، برقم (٥٣) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة . . . برقم (١٣)] .

غداً نلقى الأحبَّ محمدًا وحزبه^(١)

وقال رسول الله ﷺ : « أتاكم أهل اليمن ، هم أرقُّ أفئدةً وألينُ قلوباً ، الإيمانُ يمان ، والحكمةُ يمانية »^(٢) .

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أهل اليمن ، يدعوهم إلى الإسلام في نفرٍ من المسلمين ، فأقاموا ستة أشهر ، يدعوهم خالد إلى الإسلام ، فلم يجيبوه ، ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعاً ، فكتب علي - رضي الله عنه - إلى رسول الله ﷺ يخبره بإسلامهم ، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خَرَّ ساجداً ثم رفع رأسه ، وقال :

« السَّلامُ على همدان ، السَّلامُ على همدان »^(٣) .

وقدِمَ وفدٌ مُزَيَّنَةٌ في أربعمئة رجلٍ .

وقدِمَ وفدٌ نصارى نجران وهم ستون راكباً ، منهم أربعة وعشرون رجلاً من أشرافهم ، فيهم أبو حارثة - أسقفهم وحبرهم - وكانت ملوك الروم قد شرفوه ، ومولوه ، وأخدموه ، وبنوا له الكنائس ، ونزلت فيهم آيات كثيرة من القرآن^(٤) .

(١) زاد المعاد : ص ٣٢ [وأخرجه أحمد في المسند (١٠٥/٣) ، والبيهقي في « الدلائل » (٣٥١/٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه] .

(٢) أخرجه البخاري [في كتاب المغازي] باب قدوم الأشعرين وأهل اليمن ، [برقم (٤٣٨٨) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب تفاضل أهل الإيمان فيه . . . برقم (٥٢) ، وأحمد في المسند (٢٣٥/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] .

(٣) زاد المعاد : ج ٢ ، ص ٣٣ [أخرجه البيهقي في السنن (٣٦٩/٢) برقم (٣٧٤٧) ، والرويان في المسند (٢١٩/١) برقم (٣٠٥) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه] .

(٤) اقرأ للتفصيل « زاد المعاد » ج ٢ ، ص ٣٥ - ٣٦ .

وكتب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران كتاباً ، يدعوهم فيه إلى الإسلام ، فلما قرؤوه بعثوا وفداً إلى رسول الله ﷺ وسألهم وسألوه ، ونزلت في جواب أسئلتهم آيات كثيرة من سورة آل عمران ، وأراد رسول الله ﷺ أن يُباهلهم^(١) ، وأبى شُرَحْبِيلُ ذلك وخاف ، فلما كان من الغد أتوه ، فكتب لهم كتاباً ، وضرب عليهم الخراج^(٢) ، وبعث معهم رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح ، وقال : « هذا أمين هذه الأمة »^(٣) .

وقدّم وفدٌ تجيب ، وسرّ بهم رسول الله ﷺ وأكرم منزلهم ، وسألوا رسول الله ﷺ أشياء ، فكتب لهم بها ، وجعلوا يسألونه عن القرآن والشّنن فازداد بهم رسول الله ﷺ رغبةً ، وأمر بلالاً أن يُحسن ضيافتهم ، وأقاموا أياماً ، ولم يطيلوا اللَّبثَ فقلّ لهم : وما يعجلُكم ؟ قالوا : نرجعُ إلى من وراءنا ، فنخبرهم برؤيتنا رسول الله ﷺ وكلامنا إياه ، وما ردّ علينا ، وانطلقوا راجعين ، ثم وافوا رسول الله ﷺ في الموسم بـ « منى » سنة عشر^(٤) .

وكان من ضمن الوفود وفد بني فزارة ، ووفد بني أسد ، ووفد بهراء ، ووفد عذرة ، وأسلموا ، وبشّرهم رسول الله ﷺ بفتح الشّام ونهاهم عن سؤال الكاهنة ، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها ، وأخبرهم أن ليسَ عليهم إلّا الأضحية .

(١) [بَاهَلَ يُبَاهِلُ مِبَاهِلَةً ، من باب المفاعلة : وهو أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا : لعنة الله على الظالم منّا] .

(٢) زاد المعاد : ص ٣٧ .

(٣) سيرة ابن كثير ، ج ٤ ، ص ١٠٠ ، وأخرجه البخاري مختصراً [في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح ، . . . برقم (٣٧٤٥) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي عبيدة . . . برقم (٢٤٢٠) ، وغيرهما من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه] .

(٤) زاد المعاد : ج ٢ ، ص ٤٣ .

ووفدٌ بلي ، ووفدٌ ذي مرّة ، ووفدٌ خولان ، وسألهم رسولُ الله ﷺ عن صنمٍ لخولان^(١) ، الذي كانوا يعبدونه ، قالوا : أبشِرْ ، بَدَّلْنَا اللهَ بِهِ مَا جِئْتَ بِهِ ، وَقَدْ بَقِيَتْ مَنَا بَقَايَا مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ ، وَعَجُوزٍ كَبِيرَةٍ ، مَتَمَسِّكُونَ بِهِ وَلَوْ قَدِمْنَا عَلَيْهِ لَهَدِمْنَاهُ إِنْ شَاءَ اللهُ^(٢) .

وَقَدِمَ وَفْدٌ مُحَارِبٍ ، وَوَفْدٌ غَسَّانَ ، وَغَامِدَ ، وَوَفْدُ النَّخَعِ^(٣) .

وكَانَتْ الْوُفُودُ تَتَعَلَّمُ الْإِسْلَامَ ، وَتَتَفَقَّهُ فِي الدِّينِ ، وَيَشْهَدُونَ أَخْلَاقَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعِشْرَةَ أَصْحَابِهِ ، وَقَدْ تُضْرَبُ لَهُمْ خِيَامٌ فِي فَنَاءِ الْمَسْجِدِ ، فَيَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ ، وَيَرَوْنَ الْمُسْلِمِينَ يَصَلُّونَ ، وَيَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَمَّا يَجُولُ فِي خَاطِرِهِمْ فِي بَسَاطَةٍ وَصِرَاحَةٍ ، وَيُجِيبُهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَلَاغَةٍ وَحِكْمَةٍ ، وَيَسْتَشْهَدُ بِالْقُرْآنِ ، فَيُؤْمِنُونَ ، وَيَطْمَئِنُّونَ .

بين وثنيٍّ جاهلٍ وبينَ نبيٍّ معلَّمٍ :

وهذا حديثُ دارِ بينَ كنانةَ بنِ عبدِ يالِيلَ وبينَ رسولِ اللهِ ﷺ :

كنانةُ : أفرأيتَ الزُّنَى ، فإنَّا قومٌ نعتزُّ ، ولا بدَّ لنا منه ؟

رسولُ اللهِ ﷺ : « هُوَ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] » .

كنانةُ : أفرأيتَ الرِّبَا فإنه أموالنا كُلُّهَا ؟

رسولُ اللهِ ﷺ : « لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ يَتَأَيَّهَا

(١) زاد المعاد : ص ٤٤ - ٤٧ .

(٢) المصدر السابق : ص ٤٧ .

(٣) المصدر السابق : ص ٤٧ - ٥٥ .

الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ [البقرة : ٢٧٨] .

كنانة : أفرأيت الخمر فإنها عصير أرضنا لا بد لنا منها ؟

رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَهَا : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠] » .

كنانة : أفرأيت الرِّبَّة^(١) ، ما نصنعُ بها ؟

رسول الله ﷺ : « اهدموها » .

كنانة وقومه : لو تعلمُ الرِّبَّةُ أَنَّكَ تريدُ هدمها لقتلت أهلها .

وهنا تدخلَ عمرُ بنُ الخطابِ في الحديثِ ، فقال : ويحك يا بن عبد ياليل ، ما أجهلك ! إنما الرِّبَّةُ حجرٌ .

كنانة وقومه : إنَّا لم نأتِكَ يا بن الخطابِ ، وقالَ لرسولِ الله ﷺ : تولَّ أنتَ هدمها ، فأما نحنُ فإنَّا لا نهدمها أبداً .

رسولُ الله ﷺ : « سأبعثُ إليكم من يكفيكم هدمها » وأذنَ لهم رسولُ الله ﷺ في الرجوع ، وأكرمهم وحياتهم .

وقالوا : يا رسولَ الله ، أمرَ علينا رجلاً يؤمُّنا من قومنا ، فأمرَ عليهم عثمانُ بنَ أبي العاصِ ، وكانَ أصغرَهم سنّاً ، لما رأى من حرصه على الإسلامِ ، وكانَ قد تعلَّم سُوراً من القرآنِ قبلَ أن يخرجَ^(٢) .

وكانَ عامُ الوفودِ عامَ القضاءِ على نفوذِ الوثنيَّةِ ، وتصفيَةِ الوجودِ الوثنيِّ في جزيرة العرب .

(١) الرِّبَّةُ : يعني اللَّات ، وهي الصَّخْرَةُ التي كانت تعبدُها قَبيْضُ الطَّائِفِ [.

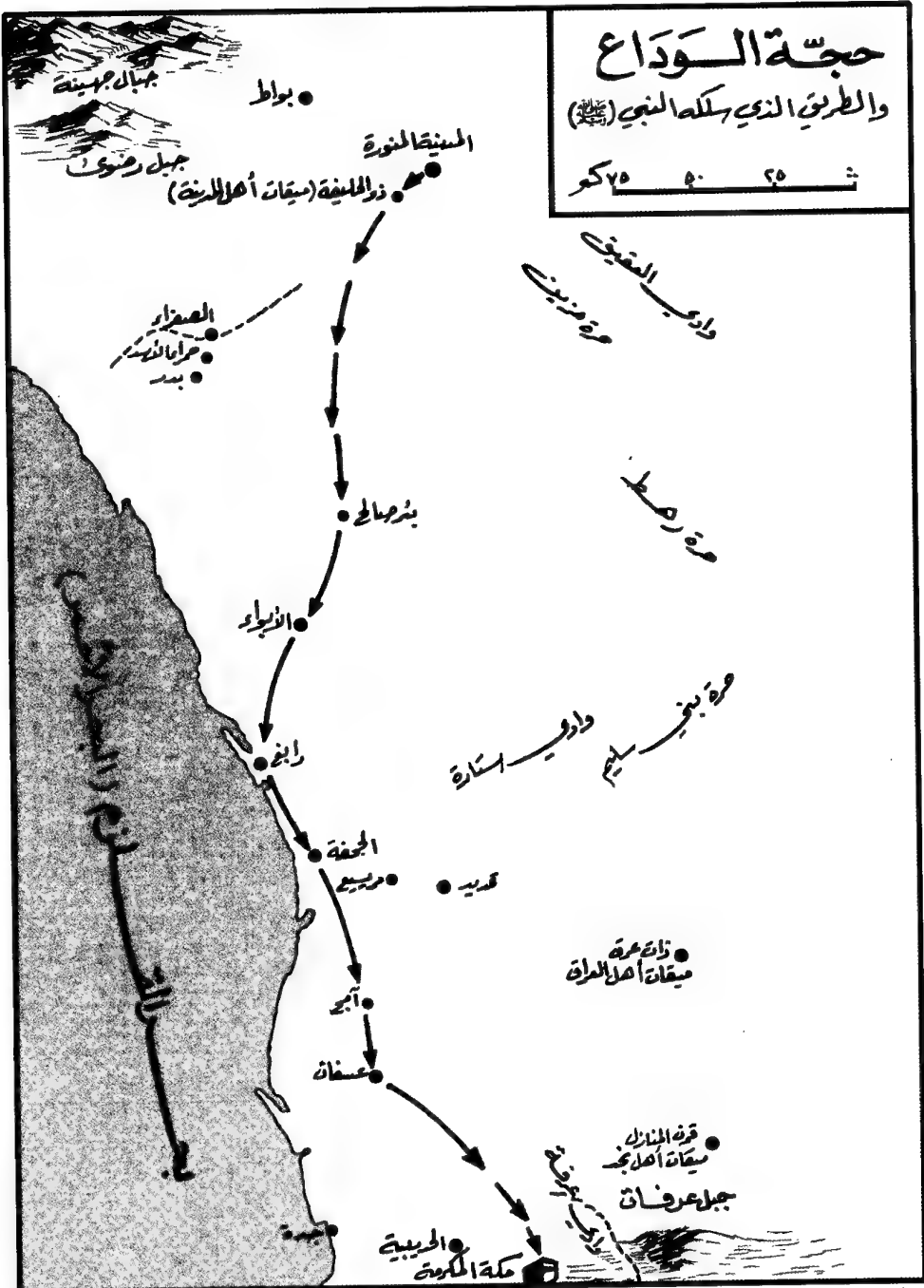
(٢) زاد المعاد : ج ٢ ، ص ٢٥ .

فرضُ الزكاةِ والصدقاتِ :

وفي السنةِ التاسعةِ للهجرةٍ^(١) بعثَ رسولُ الله ﷺ أمراءَهُ وعُمَّالَهُ على الصَّدقاتِ إلى كُلِّ ما دخلَ فيه الإسلامُ مِنَ البلدانِ .

(١) المرجحُ أنَّ فرضَ الزكاةِ كان في السنة الخامسة ، قال الحافظ ابن حجر : « وما يدلُّ على أنَّ فرضَ الزكاةِ كان قبل التاسعة حديثُ النبي ﷺ في قصة ضمام بن ثعلبة ، وكان قدوم ضمام سنة خمس ، وأن الذي وقع في التاسعة هو بعثُ العمال لأخذ الصدقات ، وذلك يستدعي تقدُّمَ فرضية الزكاة قبل ذلك » .

خريطة حجة الوداع والطريق الذي سلكه النبي ﷺ



حجّة الوداع سنة عشر من الهجرة

حجة الوداع وأوانها :

ولَمَّا تَمَّ ما أَرَادَهُ اللهُ من تطهير نفوس الأُمَّة من شوائب الوثنيّة ، وعادات الجاهليّة ، وإنارتها بنور الإيمان ، وإشعال مَجَامِرِها بالحبِّ والحنان ، وتمَّ ما أَرَادَهُ اللهُ ، من تطهير بيته من الرِّجْسِ والأوثان ، وتاقَّتْ نفوسُ المسلمين الذين بَعْدَ عهدِهِم عن حجِّ البيت ، وطَفَحَتْ كأسُ الحبِّ والحنان ، حتَّى فاضَتْ ودنَّتْ ساعةُ الفراق ، وألجأتِ الضَّرورةُ إلى وداعِ الأُمَّة ، آذنَ اللهُ لِنبيِّهِ في الحجِّ ، ولم يكنْ قد حجَّ النَّبيُّ ﷺ في الإسلام .

قيمتها البلاغية والتربوية :

فخرجَ من المدينة ليُحجَّ البيتَ ، ويلقى المسلمين ، ويعلمَهُم دينَهُم ومناسِكَهم ، ويؤدِّي الشهادةَ ، ويبلِّغ الأمانةَ ، ويوصي الوصايا الأخيرةَ ، ويأخذ من المسلمين العهدَ والميثاقَ ، ويمحو آثارَ الجاهليّةِ ، ويطمسها ويضعها تحتَ قَدَميه .

وكانتْ هذه الحَجَّةُ تقومُ مقامَ ألفِ خطبةٍ وألفِ درسٍ ، وكانتْ مدرسةً متنقِّلةً ومسجداً سياراً ، وثُكنةً جوالَةً ، يتعلَّم فيها الجاهلُ ويتنبه الغافلُ ،

وينشط فيها الكسلان ، ويقوى فيها الضعيف ، وكانت سحابة رحمة تغشاهم في الحِلِّ والتَّرحالِ ، وهي سحابة صحبة النبي ﷺ وحبّه وعطفه ، وتربيته وإشرافه .

تسجيل دقائق حجة النبي :

وقد سجّل الرواة العادلون من الصحابة كلّ دقيقة من دقائق هذه الرحلة ، وكلّ حادث من حوادثها الصغيرة ، تسجيلاً لا يوجد له نظير في رحلات الملوك والعظماء ، والعلماء والنبغاء^(١) .

سياق حجّته ﷺ إجمالاً :

ونحن نلخص^(٢) هذه الحجة التي سُميت بـ « حجة الوداع » و « حجة البلاغ » و « حجة التمام » ، وكانت كلّ ذلك أو أكثر ، وحجّ معه أكثر من مئة ألف إنسان^(٣) .

كيف حجّ النبي ﷺ ؟

عزّم رسول الله ﷺ على الحجّ ، وأعلم الناس أنّه حاجّ ، فتجهّزوا وذلك في شهر ذي القعدة سنة عشر للخروج معه ، وسمع بذلك من حول المدينة ، فقدموا يريدون الحجّ مع رسول الله ﷺ ، ووافاه في الطريق خلائق

(١) اقرأ كتاب « حجة الوداع وجزء عمرات النبي ﷺ » للعلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وتقديمه بقلم كاتب هذه السطور (طبع المكتب الإسلامي بيروت) .

(٢) اعتمدنا في هذا التلخيص على كتاب « زاد المعاد » النفيس للعلامة ابن قيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١هـ ، وقد استوعب الموضوع رواية وتاريخاً وفقهاً .

(٣) روي عددهم من مئة وأربعة عشر ألفاً إلى مئة وثلاثين ألفاً .

لا يُحْصَوْنَ ، فكَانُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَمِنْ خَلْفِهِ ، وَعَنْ يَمِينِهِ ، وَعَنْ شِمَالِهِ مَدَّ
البَصَرَ .

وخرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ نَهَاراً بَعْدَ الظَّهِيرِ لْخَمْسِ بَقِيْنَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ يَوْمَ
السَّبْتِ ، بَعْدَ أَنْ صَلَّى الظَّهَرَ بِهَا أَرْبَعاً ، وَخَطَبَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ خُطْبَةً عَلَّمَهُمْ فِيهَا
الْإِحْرَامَ وَوَأَجَابَاتِهِ وَسُنَنَهُ .

ثُمَّ سَارَ وَهُوَ يَلْبِي ، وَيَقُولُ : « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ
لَبَّيْكَ ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ ، لَا شَرِيكَ لَكَ » وَالنَّاسُ مَعَهُ يَزِيدُونَ
وَيَنْقُصُونَ ، وَهُوَ يَقْرَأُهُمْ ، وَلَا يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ ، وَلَزِمَ تَلْبِيَّتَهُ ، ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ
بِ « الْعَرْجِ » ^(١) وَكَانَتْ زَامِلَتُهُ وَزَامِلَةٌ ^(٢) أَبِي بَكْرٍ وَاحِدَةً .

ثُمَّ مَضَى حَتَّى أَتَى « الْأَبْوَاءَ » ^(٣) فَوَادِي « عُسْفَانَ » ^(٤) فِي « سَرَفٍ » ^(٥) ،
ثُمَّ نَهَضَ إِلَى أَنْ نَزَلَ بِ « ذِي الطُّوَى » ^(٦) ، فَبَاتَ بِهَا لَيْلَةَ الْأَحَدِ ، لِأَرْبَعِ خَلُونَ
مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ، وَصَلَّى بِهَا الصُّبْحَ ، ثُمَّ اغْتَسَلَ مِنْ يَوْمِهِ ، وَنَهَضَ إِلَى مَكَّةَ ،
فَدَخَلَهَا نَهَاراً مِنْ أَعْلَاهَا ، ثُمَّ سَارَ ، حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ ، وَذَلِكَ ضَحَى ،
فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى الْبَيْتِ قَالَ : « اللَّهُمَّ زِدْ بَيْتَكَ هَذَا تَشْرِيفاً وَتَعْظِيماً وَتَكْرِيماً
وَمَهَابَةً » وَيَرْفَعُ يَدَيْهِ وَيَكْبِّرُ ، وَيَقُولُ : « اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ ، وَمِنْكَ السَّلَامُ ،
حِينَئِذٍ رَبَّنَا بِالسَّلَامِ » .

(١) [الْعَرْجُ : قَرْيَةٌ جَامِعَةٌ عَلَى طَرِيقِ مَكَّةَ مِنَ الْمَدِينَةِ] .

(٢) [الزَامِلَةُ : هِيَ الْبَعِيرُ الَّذِي يَحْمِلُ عَلَيْهِ الطَّعَامَ وَالْمَتَاعَ ، مِنَ الزَّمَلِ ، وَهُوَ الْحَمَلُ] .

(٣) [الْأَبْوَاءُ : جَبَلٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، وَعِنْدَهُ بَلَدٌ يُسَبُّ إِلَيْهِ] .

(٤) [عُسْفَانُ : قَرْيَةٌ جَامِعَةٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ] .

(٥) [سَرَفٌ : قَرْيَةٌ عَلَى سِتَّةِ أَمْيَالٍ مِنْ مَكَّةَ مِنْ طَرِيقِ مَرٍ ، وَقِيلَ سَبْعَةٌ وَتِسْعَةٌ وَاثْنَا عَشَرَ ، وَلَيْسَ
بِجَامِعِ الْيَوْمِ (مَعْجَمٌ مَا اسْتَعْجَمَ)] .

(٦) [الطُّوَى : مَوْضِعٌ عِنْدَ بَابِ مَكَّةَ يَسْتَحَبُّ لِمَنْ دَخَلَ مَكَّةَ أَنْ يَغْتَسَلَ بِهِ (النهاية : ١٤٧/٣)] .

ولَمَّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ عَمَدَ إِلَى الْبَيْتِ ، فَلَمَّا حَازَى الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ ، اسْتَلَمَهُ ، وَلَمْ يَزَاحَمْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَخَذَ عَنْ يَمِينِهِ ، وَجَعَلَ الْبَيْتَ عَنْ يَسَارِهِ ، وَرَمَلَ فِي طَوَافِهِ هَذَا ثَلَاثَةَ الْأَشْوَاطِ الْأُولَى ، وَكَانَ يَسْرَعُ فِي مَشْيِهِ ، وَيُقَارِبُ بَيْنَ خَطَاةٍ ، وَاضْطَبَعَ بِرِدَائِهِ ، فَجَعَلَهُ عَلَى أَحَدِ كَتِفَيْهِ ، وَأَبْدَى كَتْفَهُ الْآخَرَ وَمَنْكِبَهُ ، وَكَلَّمَا حَازَى الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ أَشَارَ إِلَيْهِ ، وَاسْتَلَمَهُ بِمِخْجَنِهِ^(١) .

فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ طَوَافِهِ ، جَاءَ إِلَى خَلْفِ الْمَقَامِ ، فَقَرَأَ : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ صَلَاتِهِ ، أَقْبَلَ إِلَى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فَاسْتَلَمَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّفا مِنَ الْبَابِ الَّذِي يُقَابِلُهُ ، فَلَمَّا قَرُبَ مِنْهُ قَرَأَ : ﴿ إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٥٨] أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ ، ثُمَّ رَقِيَ عَلَيْهِ ، حَتَّى رَأَى الْبَيْتَ ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ ، فَوَحَّدَ اللَّهَ وَكَبَّرَهُ ، وَقَالَ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ » .

وَأَقَامَ بِمَكَّةَ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ : يَوْمَ الْأَحَدِ ، وَالْإِثْنَيْنِ ، وَالثَّلَاثَاءِ ، وَالْأَرْبَعَاءِ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْخَمِيسِ ضَحَى ، تَوَجَّهَ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَنْى ، فَنَزَلَ بِهَا ، وَصَلَّى بِهَا الظَّهْرَ وَالْعَصْرَ ، وَبَاتَ بِهَا ، وَكَانَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ ، فَلَمَّا طَلَعَتِ الشَّمْسُ ، سَارَ مِنْهَا إِلَى عَرَفَةَ ، وَوَجَدَ الْقَبَّةَ قَدْ ضُرِبَتْ لَهُ بَنِمْرَةً ، فَنَزَلَ بِهَا ، حَتَّى إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ ، أَمَرَ بِنَاقَتِهِ الْقَصْوَاءَ ، فَرُحِّلَتْ ، ثُمَّ سَارَ ، حَتَّى أَتَى بَطْنَ الْوَادِي مِنْ أَرْضِ عَرَفَةَ ، فَخَطَبَ النَّاسَ - وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ - خُطْبَةً عَظِيمَةً قَرَّرَ فِيهَا قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ ، وَهَدَمَ فِيهَا قَوَاعِدَ الشُّرْكِ وَالْجَاهِلِيَّةِ ، وَقَرَّرَ فِيهَا تَحْرِيمَ الْمَحْرَمَاتِ الَّتِي اتَّفَقَتِ الْمِلَلُ عَلَى تَحْرِيمِهَا ، وَهِيَ الدَّمَاءُ وَالْأَمْوَالُ وَالْأَعْرَاضُ ، وَوَضَعَ فِيهَا أُمُورَ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيْهِ ، وَوَضَعَ رَبَا الْجَاهِلِيَّةِ

(١) [الْمِخْجَنُ : عَصَا مُعَقَّفَةُ الرَّأْسِ كَالصَّوْلُجَانِ] .

كلِّه ، وأبطله ، وأوصاهم بالنساء خيراً ، وذكر الحق الذي لهنّ وعليهنّ ، وأنّ الواجب لهنّ الرزق والكسوة بالمعروف .

وأوصى الأُمَّة فيها بالاعتصام بكتاب الله ، وأخبر أنّهم لن يضلُّوا ما داموا معتصمين به ، ثم أخبر أنّهم مسؤولون عنه ، واستنطقهم بماذا يقولون وبماذا يشهدون ؟ قالوا : نشهد أنّك قد بلغت وأدّيت ونصحت ، فرفع إصبعه إلى السَّماء واستشهد الله عليهم ثلاث مرّات ، وأمرهم أن يبلغ شاهدتهم غائبهم ، فلمّا أتمّ الخطبة ، أمر بلاّلاً فأذّن ثم أقام الصلاة ، فصلى الظهر ركعتين ، ثمّ أقام فصلّى العصر ركعتين أيضاً ، وكان يوم الجمعة .

فلما فرغ من صلاته ركب حتّى أتى الموقف ، فوقف وكان على بعيره ، فأخذ في الدعاء والتضرّع والابتهاال إلى غروب الشمس ، وكان في دعائه رافعاً يَدَيْهِ إلى صدره ، كاستطعام المسكين ، يقول فيهم : « اللهم ! إنّك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سرّي وعلايتي ، لا يخفى عليك شيء من أمري ، أنا البائس الفقير ، المُستغيث المُستجير ، والوجلّ المُشفق ، المُقرّر المُعترف بذنوبي ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهاال المُذنب الدليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضّير ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه ، وذللّ جسده ، ورغم أنفه لك ، اللهم ! لا تجعلني بدعائك ربّ شقيّاً ، وكُنْ لي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين ، ويا خير المُعطين » (١) .

وهناك أنزلت عليه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] ، فلمّا غربت الشمس ، أفاض من عرفة ،

(١) [أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٤/١١) برقم (١١٤٠٥) ، والصغير (١٥/٢) ، برقم (٦٩٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي إسناده يحيى بن صالح الأيلي ، روي عنه مناكير] .

وَأَرَدَفَ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ خَلْفَهُ ، وَأَفَاضَ بِالسَّكِينَةِ ، وَضَمَّ إِلَيْهِ زَمَامَ نَاقَتِهِ ، حَتَّى إِنَّ رَأْسَهَا لَيَصِيبُ طَرَفَ رَحْلِهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ » ^(١) .

وَكَانَ يُلَبِّي فِي مَسِيرِهِ ذَلِكَ ، لَا يَقْطَعُ التَّلْبِيَةَ حَتَّى أَتَى الْمَزْدَلِفَةَ ، وَأَمَرَ الْمُؤَدَّنَ بِالْأَذَانِ فَأَذَّنَ ، ثُمَّ أَقَامَ ، فَصَلَّى الْمَغْرِبَ قَبْلَ حَطِّ الرِّحَالِ وَتَبْرِيكِ الْجَمَالِ ، فَلَمَّا حَطُّوا رِحَالَهُمْ أَمَرَ فَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ ، ثُمَّ صَلَّى الْعِشَاءَ ، ثُمَّ نَامَ ، حَتَّى أَصْبَحَ .

فَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ صَلَّاهَا فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ ، ثُمَّ رَكَبَ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ ، وَأَخَذَ فِي الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ ، وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ وَالذِّكْرِ ، حَتَّى أَسْفَرَ جَدًّا ، وَذَلِكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ .

ثُمَّ سَارَ مِنَ الْمَزْدَلِفَةِ ، مُرَدِّفًا لِلْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَهُوَ يَلْبِي فِي مَسِيرِهِ ، وَأَمَرَ ابْنَ عَبَّاسٍ أَنْ يَلْتَقِطَ لَهُ حَصَى الْجِمَارِ سَبْعَ حَصِيَّاتٍ ، فَلَمَّا أَتَى بَطْنَ مُحَسَّرٍ حَرَّكَ نَاقَتَهُ ، وَأَسْرَعَ السَّيْرَ ، فَإِنَّ هُنَالِكَ أَصَابَ أَصْحَابَ الْفِيلِ الْعَذَابُ ، حَتَّى أَتَى مَنًى ، فَأَتَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ ، فَرَمَاهَا رَاكِبًا بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، وَقَطَعَ التَّلْبِيَةَ .

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَنًى ، فَخَطَبَ النَّاسَ خُطْبَةً بَلِيغَةً ، أَعْلَمَهُمْ فِيهَا بِحَرَمَةِ يَوْمِ النُّحْرِ وَتَحْرِيمِهِ ، وَفَضْلِهِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَحَرَمَةِ مَكَّةَ عَلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ ، وَأَمَرَ

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الحج ، باب أمر النبي ﷺ بالسكينة عند الإفاضة ... ، برقم (١٦٧١) ، ومسلم في كتاب الحج ، باب استحباب إقامة الحاج التلبية ... ، برقم (١٢٨٢) ، وأبو داود في كتاب المناسك ، باب الدفعة من عرفة ، برقم (١٩٢٠) ، والنسائي في مناسك الحج ، باب فرض الوقوف بعرفة ، برقم (٣٠٢١) ، وأحمد في المسند (٢٠١/٥) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه .]

بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِمَنْ قَادَهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِأَخْذِ مَنَاسِكِهِمْ عَنْهُ ، وَأَمَرَ النَّاسَ أَلَّا يَرْجِعُوا بَعْدَهُ كُفَّاراً ، يَضْرِبُ بَعْضُهُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ، وَأَمَرَ بِالتَّبْلِيغِ عَنْهُ ، وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ تِلْكَ :

« اعْبُدُوا رَبَّكُمْ ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ » ، وَودَّعَ النَّاسَ حِينَئِذٍ فَقَالُوا : « حَجَّةُ الْوَدَاعِ » .

ثُمَّ انصَرَفَ إِلَى الْمَنْحَرِ بِمَنْىَ ، فَنَحَرَ ثَلَاثًا وَسَتِينَ بَدَنَةً بِيَدِهِ ، وَكَانَ عَدَدُ هَذَا الَّذِي نَحَرَهُ عَدَدَ سِنِي عُمَرِهِ ، ثُمَّ أَمْسَكَ وَأَمَرَ عَلِيًّا أَنْ يَنْحَرَ مَا بَقِيَ مِنَ الْمِئَةِ .

فَلَمَّا أَكْمَلَ ﷺ نَحْرَهُ اسْتَدْعَى بِالْحَلَّاقِ ، فَحَلَقَ رَأْسَهُ ، وَقَسَمَ شَعْرَهُ بَيْنَ مَنْ يَلِيهِ .

ثُمَّ أَفَاضَ إِلَى مَكَّةَ رَاكِباً ، وَطَافَ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ ، وَهُوَ طَوَافُ الزِّيَارَةِ ، ثُمَّ أَتَى زَمْزَمَ ، فَشَرِبَ وَهُوَ قَائِمٌ .

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَنْىَ مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ ، فَبَاتَ بِهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ انْتَظَرَ زَوَالَ الشَّمْسِ ، فَلَمَّا زَالَتْ مَشَى مِنْ رَحْلِهِ إِلَى الْجِمَارِ ، فَبَدَأَ بِالْجَمْرَةِ الْأُولَى ، ثُمَّ الْوُسْطَى ، ثُمَّ الْجَمْرَةِ الثَّالِثَةِ ، وَهِيَ جَمْرَةُ الْعَقَبَةِ .

وخطَبَ النَّاسَ بِمَنْىَ خُطْبَتَيْنِ : خُطْبَةً يَوْمَ النَّحْرِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ، وَالْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ فِي ثَانِي يَوْمِ النَّحْرِ .

وَتَأَخَّرَ حَتَّى أَكْمَلَ رَمِيَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ الثَّلَاثَةِ ، ثُمَّ نَهَضَ إِلَى مَكَّةَ ، فَطَافَ لِلْوَدَاعِ لَيْلاً سَحَرًا ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالرَّحِيلِ ، وَتَوَجَّهَ إِلَى الْمَدِينَةِ ^(١) .

(١) ملخصاً من « زاد المعاد » ومقتبساً منه ، ج ١ ، ص ١٨٠ - ٢٤٩ ، بحذف المباحث التي توسّع فيها المؤلف وأفاض ، ومواضع الخلاف بين الفقهاء والمحدثين .

وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى غَدِيرِ خُمٍّ^(١) ، خَطَبَ ﷺ وَذَكَرَ فِيهَا فَضَلَ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَالَ : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيَّْ مَوْلَاهُ ، اللَّهُمَّ ! وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ »^(٢) .

فَلَمَّا أَتَى « ذَا الْحَلِيفَةِ » بَاتَ بِهَا ، فَلَمَّا رَأَى الْمَدِينَةَ ، كَبَّرَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَقَالَ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، آيُونَ تَائِبُونَ ، عَابِدُونَ ، سَاجِدُونَ ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ ، صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ » ، ثُمَّ دَخَلَهَا نَهَاراً^(٣) .

خطبة النَّبِيِّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ :

وَنَذَكُرُ هُنَا نَصَّ الْخُطْبَةِ الَّتِي خَطَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ عَرَفَةَ ، وَنَصَّ الْخُطْبَةَ الَّتِي خَطَبَهَا فِي أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ، لِلْمَوْعِظَةِ الْبَلِيغَةِ ، وَالْفَوَائِدِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَشْتَمِلَانِ عَلَيْهَا هَاتَانِ الْخُطْبَتَانِ الْعَظِيمَتَانِ .

فَقَالَ فِي خُطْبَةِ عَرَفَةَ :

« إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا .

(١) غدير بين مكة والمدينة ، بينه وبين الجحفة ميلان .

(٢) السيرة النبوية : لابن كثير : ج ٤ ، ص ٤١٥ - ٤١٦ : نقلاً عن الإمام أحمد والنسائي [أخرجه الحاكم في المستدرک (١١٨/٣) برقم (٤٥٧٦) ، وابن حبان في الصحيح (٣٧٦/١٥) برقم (٦٩٣١) ، والنسائي في السنن الكبرى (١٣٠/٥) برقم (٨٤٦٤) ، وأحمد في المسند (٣٦٨/٤) وغيرهم من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه] .

وسبب ذلك أن بعض الناس كانوا قد اشتكوا علياً وعتبوا عليه ، وتكلم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن بسبب ما كان صدر منه إليهم من المعدلة التي ظنها بعضهم جوراً ، وتضييقاً ويخلاً ، والصواب كان مع عليٍّ في ذلك .

(٣) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٢٤٩ .

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ ، ودماءُ الجاهليَّةِ موضوعةٌ ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُهُ مِنْ دَمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرَضِعاً فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلْتُهُ هُذَيْلٌ .

وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ ، وَأَوَّلُ رَبٍّ أَضَعُ مِنْ رَبَانَا رَبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلِبِ ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ .

فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَا يُوطِئَنَّ فَرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ .
وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللَّهِ ، وَأَنْتُمْ تَسْأَلُونَ عَنِّي ، فَمَاذَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ » .

قالوا : نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَيْتَ وَنَصَحْتَ .

فَقَالَ بِإِضْبَاعِهِ السَّبَابَةَ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكِبُهَا إِلَى النَّاسِ : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ » ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ^(١) .

وهذا نصُّ الخطبة التي خَطَبَهَا ﷺ فِي أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! هَلْ تَدْرُونَ فِي أَيِّ شَهْرٍ أَنْتُمْ ؟ وَفِي أَيِّ يَوْمٍ أَنْتُمْ ؟ وَفِي أَيِّ بَلَدٍ أَنْتُمْ ؟ » .

(١) أخرجه مسلم [في كتاب الحج ، باب حجة النبي ﷺ ، برقم (١٢١٨)] وأبو داود [في كتاب المناسك ، باب صفة حجة النبي ﷺ ، برقم (١٩٠٥)] وغيرهما عن جابر رضي الله عنه ، [وأخرجه البخاري في كتاب المغازي . باب حجة الوداع ، برقم (٤٤٠٦)] ، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين ، برقم (١٦٧٩) ، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه ، وأخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن ، سورة التوبة ، برقم (٣٠٨٧) ، وابن ماجه في أبواب المناسك ، باب الخطبة يوم النحر ، برقم (٣٠٥٥) من حديث عمرو بن الأحوص .

فقالوا : في يومٍ حرامٍ ، وبلدٍ حرامٍ ، وشهرٍ حرامٍ .

قال : « فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ ، كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، وَفِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، إِلَى يَوْمٍ تَلْقَوْنَهُ » .

ثُمَّ قَالَ : « اسْمَعُوا مِنِّي تَعِيشُوا ، أَلَا لَا تَظْلِمُوا ، أَلَا لَا تَظْلِمُوا ، أَلَا لَا تَظْلِمُوا ، إِنَّهُ لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطَيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ .

أَلَا ! وَإِنْ كُلُّ دَمٍ وَمَالٍ وَمَأْتَرَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي هَذِهِ ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ يُوضَعُ دَمُ رِبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، كَانَ مُسْتَرَضِعاً فِي بَنِي لَيْثٍ فَقَتَلْتُهُ هَذَا .

أَلَا وَإِنْ كُلُّ رِبَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَضَى أَنْ أَوَّلَ رِبَا يُوضَعُ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ ، لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ .

أَلَا وَإِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾

[التوبة : ٣٦] .

أَلَا لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كَفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ .

أَلَا إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ آيَسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ ، وَلَكِنَّهُ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ لَا يَمْلِكُنَّ لَأَنْفُسِهِنَّ شَيْئاً ، إِنَّ لِهِنَّ عَلَيْكُمْ حَقّاً ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقّاً أَلَّا يُوطِئْنَ فَرْشَكُمْ أَحَدًا غَيْرَكُمْ ، وَلَا يَأْذَنَ فِي بَيْوتِكُمْ لِأَحَدٍ تَكْرَهُونَهُ ، فَإِنْ خِفْتُمْ نُشُوزَهُنَّ ، فَعِظُوهُنَّ ، وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مَبْرُوحٍ ، وَلِهِنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَإِنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ

عزَّ وجلَّ ، أَلَا وَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنْ أُثِمَتْهُ عَلَيْهَا .
 وَبَسَطَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ : « أَلَا هَلْ بَلَغْتُ ؟ ! أَلَا هَلْ بَلَغْتُ ؟ ! » .
 ثُمَّ قَالَ : « لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَإِنَّهُ رَبُّ مُبَلِّغٍ أَسْعَدُ مِنْ سَامِعٍ »^(١) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند [٧٣ / ٥] عن أبي حرة الرقاشي عن عمِّه ، وقال الهيثمي في المجمع (٢٦٦ / ٣) : رواه أحمد ، وأبو حرة الرقاشي وثقه أبو داود وضعفه ابنُ معين ، وفيه علي بن زيد وفيه كلام .

الوفاء

رَبِيعُ الْأَوَّلِ السَّنَةِ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ

كمالُ مهمّةِ التبليغِ والتّشريعِ ودنوُّ ساعةِ اللقاءِ :

ولَمَّا بَلَغَ هَذَا الدِّينُ ذُرْوَةَ الْكَمَالِ ، وَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

وَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرِّسَالَةَ ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَرَبَّى أُمَّةً تَقَلَّدَتْ مِهَامَ النُّبُوَّةِ وَمَسْئُولِيَّاتِهَا ، مِنْ غَيْرِ نُبُوَّةٍ ، وَكُلِّفَتْ النُّهُوضَ بِالدَّعْوَةِ ، وَصِيَانَةَ الدِّينِ مِنَ التَّحْرِيفِ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وَضَمِنَ اللَّهُ لِهَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ هَذَا الدِّينِ ، وَمَصْدَرُ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ ، بِالْبَقَاءِ وَالتَّقَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

وَأَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَ نَبِيِّهِ بِدُخُولِ النَّاسِ فِي هَذَا الدِّينِ أَفْوَاجًا ، وَبَدَتْ طَلَائِعُ انْتِشَارِهِ فِي الْعَالَمِ ، وَظَهْوَرَهُ عَلَى الْأَدْيَانِ كُلِّهَا .

فَقَالَ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ

اللَّهُ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ [النصر : ١ - ٣]

مدارسة القرآن ومضاعفة اعتكاف رمضان :

وكان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين^(١) .

وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن ، ولكنه ﷺ قال ذلك العام : « إِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ ، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجْلِي »^(٢) .

أذن الله لنبيه باللقاء الذي لم يكن أحد أشد شوقاً له منه ، وقد أحب الله لقاءه كما هو أحب لقاءه .

وقد هيأ الله الصحابة - رضي الله عنهم - الذين لم يكن أحد أشد حُباً له منهم ، لسماع نبأ وفاته ، واحتمال فراقه الذي لم يكن بد منه ، مهما تأخرت ساعة الفراق ، ففوجئوا بنباً شهادته في معركة أحد ، ثم تحقق أنه كان إرجافاً من الشيطان ، وأن الله ممتنعهم بحياة نبيهم إلى حين ، ولكن لا بد من وقوع هذا الحادث ، وقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

فكان المسلمون - الذين أحسن رسول الله ﷺ تربيتهم ، وربط قلوبهم بالله تعالى ، وشغلهم بتبليغ رسالة الإسلام إلى أقصى الحدود وأبعد الأمم ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الاعتكاف ، باب « الاعتكاف في العشر الأوسط من رمضان » [برقم (٢٠٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب « علامات النبوة » [رقم الحديث (٣٦٢٤) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل فاطمة رضي الله عنها ، رقم الحديث (٢٤٥٠) من حديث عائشة رضي الله عنها] .

وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده - على يقين بأن رسول الله ﷺ مودّعهم في يوم من الأيام ، ومفارق لهذا العالم الفاني ، وراجع إلى ربه ، ليجزيه الجزاء الأوفى ، فلما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فهم منها الصباحة أنه إيدانٌ بدنو ساعة الفراق ، فقد تمت المهمة ، وجاء نصر الله والفتح^(١) .

وقد استشعر كبار الصحابة وفاته حين نزلت الآية : ﴿ أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾^(٢) .

الشوق إلى لقاء الله وتوديع الدنيا :

وقد ظهر من رسول الله ﷺ بعد ما عاد من حجة الوداع التي أشار فيها إلى دنو أجله^(٣) ، ما يدل على التأهب للسفر ، واللحوق بالرفيق الأعلى ، فصلّى على قتلى أحد ، كأنه مودّع أصحابه عن قريب - بعد ثماني سنين - كالمودّع للأحياء والأموات ، ثم طلع المنبر ، فقال : « إني بين أيديكم فرط^(٤) » ، وأنا عليكم شهيد ، وإن موعدكم الحوض ، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا ، وإني

(١) يقول ابن عباس : « هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له » ، وروى الإمام أحمد . [٤٤٩ / ١] بسند عن ابن عباس ، قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « نعت إلي نفسي » [وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣١٨ / ١١) برقم (٢٠٦٤٦) ، والطبراني في الكبير (٦٧ / ١٠) برقم (٩٩٧٠) ، وأحمد في المسند (٤٤٩ / ١) من حديث عبد الله بن مسعود] . راجع تفسير ابن كثير .

(٢) راجع « السيرة النبوية » لابن كثير : ج ٤ ، ص ٤٢٧ .

(٣) أخرج مسلم في صحيحه [في كتاب الحج ، باب استحباب رمي جمره العقبة . . .] برقم (١٢٩٧) عن جابر أن رسول الله ﷺ وقف عند جمره العقبة وقال لنا : « خذوا عني مناسككم فلعلني لا أحج بعد عامي هذا » .

(٤) [فرط : يقال : فرط يفرط ، فهو فارط وفرط ؛ إذا تقدّم وسبق القوم ليزتاد لهم الماء ، ويهيئ لهم الدلاء والأزنية] .

قد أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا فَتَهْلِكُوا كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» (١) .

شكوى رسول الله ﷺ :

وقَدْ ابْتَدَأْتُ شَكْوَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي آخِرِ شَهْرِ صَفَرٍ (٢) سَنَةِ ١١ لِلْهِجْرَةِ ، وَكَانَ مَبْدَأُ ذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ خَرَجَ إِلَى « بَقِيعِ الْغَرْقَدِ » (٣) مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ابْتَدَىءَ بِوَجَعِهِ مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ (٤) .

قَالَتْ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْبَقِيعِ فَوَجَدَنِي وَأَنَا أَجِدُ صُدَاعاً فِي رَأْسِي ، وَأَنَا أَقُولُ : وَارَأْسَاهُ ، فَقَالَ : « بَلْ أَنَا ، وَاللَّهِ يَا عَائِشَةُ وَارَأْسَاهُ » (٥) « وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ ، وَهُوَ فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَدَعَا نِسَاءَهُ ، فَاسْتَأْذَنَهُنَّ فِي أَنْ يُمَرِّضَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ ، فَأَذِنَ لَهُ ، وَخَرَجَ يَمْشِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِهِ ، أَحَدُهُمَا الْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ ، وَالْآخَرُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، عَاصِباً رَأْسَهُ ، تَخْطُ قَدَمَاهُ ، حَتَّى دَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (٦) .

(١) حديث متفق عليه [أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب الصلاة على الشهيد ، برقم (١٣٤٤) ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته ، برقم (٢٢٩٦) ، والنسائي في كتاب الجنائز ، باب الصلاة على الشهيد ، برقم (١٩٥٦) ، وأحمد في المسند (١٤٩/٤) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه] .

(٢) على القول الراجح وتتبع الأحاديث ، والمرجح أنه كان يوم الإثنين .

(٣) [بَقِيعِ الْغَرْقَدِ : مقبرة أهل المدينة ، سُمِّيَ لِأَنَّهُ كَانَ فِيهِ غَرْقَدٌ وَقُطِعَ ، وَالْغَرْقَدُ : ضَرْبٌ مِنْ شَجَرِ الْعِضَاهِ وَشَجَرِ الشُّوكِ] .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٦٤٢ ، وابن كثير : ج ٤ ، ص ٤٤٣ .

(٥) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٦٣٣ .

(٦) أخرجه البخاري [في كتاب المغازي ، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، برقم (٤٤٤٢)] ، =

تقول عائشة - رضي الله عنها - : وكان يقول في مرضه الذي مات فيه :
 « يا عائشة ! ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بـ « خبير » فهذا أوانُ وجدتُ
 انقطاعَ أبْهري^(١) من ذلك السُّمِّ^(٢) .

آخر البعوث :

وبعث رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام ، وأمره أن يُوطىء
 الخيل تُخومَ البلقاء و « الدَّارُوم »^(٣) من أرض فلسطين .

وانتدب كثير من الكبار من المهاجرين والأنصار في جيشه ، كان من
 أكبرهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بعثه رسول الله ﷺ ، واشتدَّ به
 المرض ، وجيشُ أسامة مُخيَّم بـ « الجُرف »^(٤) وأنفذ أبو بكر جيشَ أسامة بعد
 وفاة الرسول ﷺ تحقيقاً لرغبته وإكمالاً لمراده .

الاهتمامُ ببعثِ أسامة :

واستبطناً رسول الله ﷺ الناسَ في بعثِ أسامة بن زيد وهو في وجعه ،
 فخرج عاصباً رأسه ، حتَّى جلسَ على المنبر ، وقد كان الناسُ قالوا في إمرة

= ومسلم في كتاب الصلاة ، باب استخلاف الإمام من يصلِّي بالناس . . . ، برقم (٤١٨) ،
 وأحمد في المسند (١١٧/٦) .

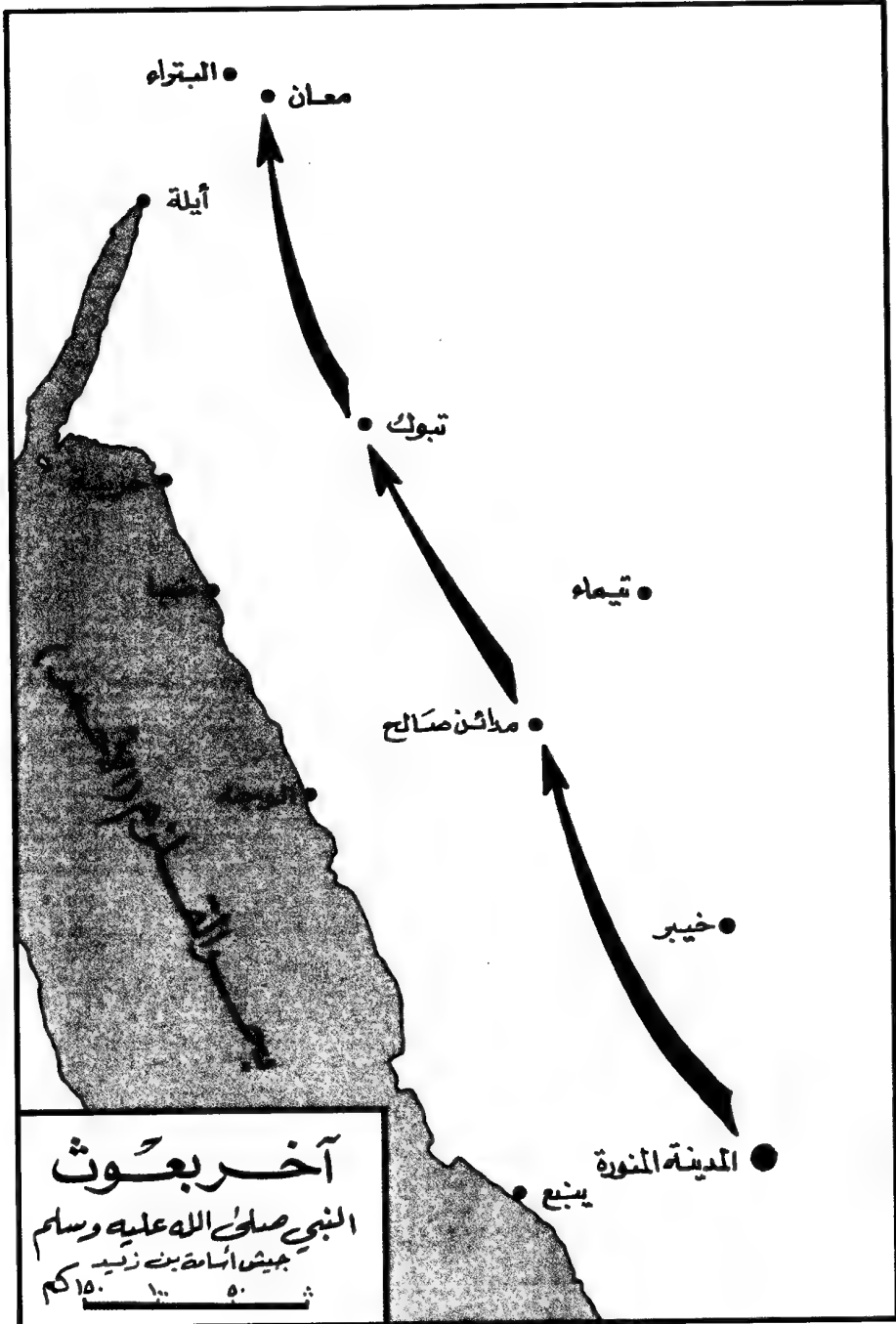
(١) أبهر : عزقُ مستبطنٌ بالصلب يتصل بالقلب ، فإذا انقطع مات صاحبه .

(٢) أخرجه البخاري معلقاً ، في كتاب المغازي باب «مرض النبي ﷺ ووفاته» [برقم (٤٤٢٨)]
 أسنده الحافظ البيهقي عن الحاكم عن الزهري به (راجع ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٤٤٩) .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٦٤٢ .

(٤) السيرة النبوية : لابن كثير : ج ٤ ، ص ٤٤١ [وأخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب
 بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد . . . ، برقم (٤٤٦٨) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب من
 فضائل زيد بن حارثة ، وابنه أسامة رضي الله عنهما ، برقم (٢٤٢٦) ، والترمذي في أبواب
 المناقب ، باب مناقب أسامة بن زيد رضي الله عنه ، برقم (٣٨١٤)] .

خريطة آخر بعوث النبي ﷺ جيش أسامة بن زيد



أسامة : أَمَرَ غلاماً حدثاً على جلة المهاجرين والأنصار ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهلُّ له ، ثمَّ قالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، أَنْفَذُوا بَعَثَ أَسَامَةُ ، فلعمرى لئن قُلْتُمْ في إِمَارَتِهِ لَقَدْ قُلْتُمْ في إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ ، وإِنَّهُ لَخَلِيقٌ لِلإِمَارَةِ ، وَإِنْ كَانَ أَبُوهُ لَخَلِيقاً لَهَا » ثُمَّ نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَسْرَعَ النَّاسُ فِي جِهَازِهِمْ ، وَثَقَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَعُهُ ، خَرَجَ أَسَامَةُ بِجَيْشِهِ حَتَّى نَزَلُوا « الْجُرْفَ » مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى فَرْسَخٍ ، فَضَرَبَ بِهِ عَسْكَرَهُ ، حَتَّى تَنَامَ إِلَيْهِ النَّاسُ .

وَنُقِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَقَامَ أَسَامَةُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ مَا اللَّهُ قَاضٍ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١) .

وَأَوْصَى الْمُسْلِمِينَ فِي مَرَضِهِ أَنْ يُجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مِمَّا كَانَ يُجِيزُهُمْ ، وَأَلَّا يَتْرَكُوا فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ دَيْنِينَ ، قَالَ : « أَخْرِجُوا مِنْهَا الْمُشْرِكِينَ » (٢) .

دعاء للمسلمين وتحذير لهم عن العلو والكبرياء :

وفي يوم من أيام شكواه اجتمع نفرٌ من المسلمين في بيت عائشة ، فرحَّبَ بهم رسولُ الله ﷺ وحيَّاهُم ، ودعا لهم بالهدى والنصر والتوفيق ، وقالَ : « أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَأَوْصِي اللَّهِ بِكُمْ ، وَأَسْتَخْلِفُهُ عَلَيْكُمْ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ، أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِي وَلَكُمْ : ﴿ تِلْكَ

(١) سيرة ابن هشام : ق ٢ ، ص ٦٥٠ ، وأخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة زيد بن حارثة » [برقم (٤٢٥٠)] وفيه : أن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ ، وإيم الله لقد كان خليفاً للإمارة ، وإن كان من أحب الناس إليَّ وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده » [وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل زيد بن حارثة . . . ، برقم (٢٤٢٦) ، وابن حبان في الصحيح (٥٣٥/١٥) برقم (٧٠٥٩) ، وأحمد في المسند (٢٠/٢) ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما] .

(٢) أخرجه البخاري [في كتاب المغازي] ، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، برقم (٤٤٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

الَّذَارُ الْآخِرَةُ بَجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ [القصص : ٨٣] ، وقال : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٠] .

زهدٌ في الدنيا وكرهيةٌ لما فضلَ من المالِ :

قالت عائشةُ : قال رسولُ الله ﷺ في مرضِهِ الذي ماتَ فيه : « يا عائشةُ ما فعلتِ بالذهبِ ؟ » فجاءتُ ما بينَ الخمسةِ إلى السبعةِ أو الثمانيةِ أو التسعةِ ، فجعلَ يقلبُها بيده ، ويقولُ : « ما ظنُّ محمدٍ بالله عزَّ وجلَّ ، لو لقيهُ وهذه عنده ، أنفقيها » (١) .

اهتمام بالصلاة وإمامة أبي بكر :

وثقلَ برسولِ الله ﷺ وجعُهُ ، فقالَ : « أصلى الناسُ ؟ » .

قلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسولَ الله !

فقالَ : « ضَعُوا لي ماءً في المِخْضَبِ » (٢) ، ففعلُوا ، فاغتسلَ ثم ذهبَ لينوءَ (٣) ، فأغميَ عليه ، ثم أفاقَ ، فقالَ : « أصلى الناسُ ؟ » قالُوا : لا ، هم ينتظرونك يا رسولَ الله ! والناسُ عكوفٌ في المسجدِ ينتظرونَ رسولَ الله ﷺ لصلاةِ العشاءِ ، فأرسلَ رسولُ الله ﷺ إلى أبي بكرٍ بأنَّ يصليَ بالناسِ ، وكانَ أبو بكرٍ رجلاً رقيقاً ، فقالَ : يا عمرُ صلِّ بالناسِ ، فقالَ : أنتَ أحقُّ بذلكَ مِنِّي ، فصلَّى بهم تلكَ الأيامَ .

ثم إنَّ رسولَ الله ﷺ وجدَ خِفَةً ، فخرجَ بينَ رجلَينِ ، أحدهما العباسُ ،

(١) [أخرجه ابن حبان في الصحيح (٨/٨) برقم (٣٢١٢) ، وأحمد في المسند (٤٩/٦) و (١٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها] .

(٢) [المِخْضَبُ : شِبْهُ المِرْكَنِ ، وهي إِجَانَةٌ تُغْسَلُ فيها الثياب] .

(٣) [لينوء : أي لينهض بجهد] .

والآخرُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ - رضيَ اللهُ عنهما - لصلاةِ الظهرِ ، فلما رآه أبو بكرٍ ذهبَ ليتأخَّرَ فأومأَ إليه ألا يتأخَّرَ ، وأمرهما ، فأجلساهُ إلى جنبِهِ ، فجعلَ أبو بكرٍ يصلي قائماً ، وهو يأتُم بصلاة النبي ﷺ ، والناس بصلاة أبي بكرٍ ، ورسول الله ﷺ قاعداً^(١) .

وعن أمِّ الفضلِ بنتِ الحارثِ ، قالتُ : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقرأُ في المغربِ بالمرسلاتِ عرفاً ، ثمَّ ما صليَ لنا بعدها ، حتَّى قبضَهُ اللهُ^(٢) .

خطبةُ الوداعِ :

وكانَ فيما تكلمَ^(٣) به رسولُ الله ﷺ وهو جالسٌ على المنبرِ ، عاصباً رأسه : « إِنَّ عبداً من عبادِ الله ، خيَّرَهُ اللهُ بينَ الدُّنيا وبينَ ما عندهُ ، فاخْتارَ ما عندَ اللهِ » ، وفهمَ أبو بكرٍ معنى هذه الكلمةِ ، وعرفَ أنَّ رسولَ الله ﷺ يعني

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الأذان ، باب إنما جُعِلَ الإمام ليؤتمَّ به ، برقم (٦٨٧) ، ومسلم في كتاب الصلاة ، باب استخلاف الإمام ... ، برقم (٤١٨) ، والنسائي في كتاب الإمامة ، باب الائتِمام بالإمام يصلي قاعداً ، برقم (٨٣٤) وغيرهم من حديث عائشة رضي الله عنها] .

(٢) أخرجه البخاري [في كتاب المغازي] باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، برقم (٤٤٢٩) ، و مسلم في كتاب الصلاة ، باب القراءة في الصبح ، برقم (٤٦٢) ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب قدر القراءة في المغرب ، برقم (٨١٠) من حديث أم الفضل بنت الحارث رضي الله عنها] .

(٣) يدلُّ التتبع للأحاديث أنها كانت الخطبة الأخيرة ، وقد ذهب الحافظ ابن حجر إلى أنها كانت يوم الخميس قبل الوفاة بخمسة أيام ، والمرجح أن هذه الصلاة كانت صلاة الظهر ، وكل ما روي من خطب مختلفة في فضل أبي بكر رضي الله عنه ، وسد الأبواب النافذة في المسجد إلا خوخة أبي بكر ، وفضل الأنصار والوصية لهم ، قطع من هذه الخطبة ، رواها الصحابة مفردة ، وكانت هذه الصلاة ، الصلاة الأخيرة التي صلاها النبي ﷺ جماعة وهو إمام ، ولم يحضر صلاة المسلمين في المسجد بعد هذه الصلاة ، وبذلك تجمع الأقوال والروايات المختلفة (مستفاد من « أصح السير » للشيخ عبد الرؤوف الدانا بُوري رحمه الله) .

نفسه ، فبكى ، وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا .

فقال : « على رسلك يا أبا بكر ! إنه ليس من الناس أحدٌ آمنٌ عليّ في نفسه وماله من أبي بكرٍ ، ولو كنتُ متخذاً من الناس خليلاً لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً ، ولكن خلة الإسلام أفضل » (١) .

وقال : « سدّوا عني كلّ خوخة » (٢) في المسجد ، غير خوخة أبي بكرٍ (٣) .

وصية الأنصار :

وكان أبو بكرٍ والعباسُ - رضي الله عنهما - مرّاً بمجلسٍ من مجالس الأنصار وهم يبيكون ، فقال : ما يُبكيكم ؟ قالوا : ذكرنا مجلسَ النبي ﷺ منا ، وأخبرَ النبي ﷺ بذلك ، فخرجَ النبي ﷺ وقد عصبَ على رأسه حاشية بُرْدٍ ، فصعدَ المنبرَ (٤) ولم يصعده بعد ذلك اليوم ، فحمد الله ، ثم أثنى عليه ، ثم قال :

« أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشِي وعيبي » (٥) ، وقد قَضَوْا الذي عليهم ،

(١) أخرجه البخاري [في كتاب الصلاة] باب : الخوخة والممر في الصلاة ، [برقم (٤٦٦)] ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، برقم (٢٣٨٢) ، والترمذي في أبواب المناقب ، باب مناقب أبي بكر رضي الله عنه . . . ، برقم (٣٦٦١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) [الخوخة : بابٌ صغير ، كالنأفة الكبيرة ، وتكون بين بيتين يُنصب عليها بابٌ] .

(٣) صحيح البخاري : كتاب الصلاة ، باب الخوخة والممر في الصلاة [قد سبق تخريجه آنفاً من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه] .

(٤) المرجح أن هذه الخطبة الأخيرة كانت يوم الخميس بعد صلاة الظهر ، لأن راوي الحديث وهو أنس بن مالك قال : « صعد المنبر ، ولم يصعده بعد ذلك اليوم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له » .

(٥) [قوله ﷺ : « الأنصار كرشِي وعيبي » أراد أنهم بطانته وموضع سرّه وأمانته ، والذين يعتمد عليهم في أموره ، واشتعار الكرش والعبيّة لذلك ؛ لأنّ المُجْتَرَّ يجمع علفه في =

وبقي الذي لهم ، فاقبلوا من مُحسِنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم» (١) .

آخر نظرة إلى المسلمين وهم صفوف في الصلاة :

وكان أبو بكر يصلي بالمسلمين ، حتَّى إذا كان يوم الإثنين ، وهم صفوف في صلاة الفجر ، كشف النَّبي ﷺ سترَ الحُجرة ، ينظر إلى المسلمين ، وهم وقوفٌ أمام ربِّهم ، ورأى كيف أثمرَ غرسُ دعوته وجهاده ، وكيف نشأت أُمَّة تحافظُ على الصلاة ، وتواظبُ عليها بحضرة نبيِّها وغيبته ، وقد قرَّت عينُه بهذا المنظر البهيج ، وبهذا النجاح الذي لم يُقدَّر لنبيٍّ أو داع قبله ، واطمأنَّ إلى أنَّ صلة هذه الأُمَّة بهذا الدين وعبادة الله تعالى ، صلةٌ دائمةٌ ، لا تقطعُها وفاة نبيِّها ، فملىء من السرور ما الله به عليمٌ ، واستنارَ وجهُه وهو منيرٌ ، يقول الصحابة - رضي الله عنهم - :

كشَفَ النَّبي ﷺ سترَ حُجرة عائشة ، ينظرُ إلينا وهو قائمٌ ، كأنَّ وجهه ورقةٌ مُصحفٌ ، ثمَّ تبسَّم يضحكُ ، فهَمَمْنَا أن نفَتِّنَ من الفرج ، وظننَّا أنَّ النَّبي ﷺ خارجٌ إلى الصلاة ، فأشارَ إلينا أنْ اتَّمُوا صلاتكم ، وأرْخَى السَّترَ وتوفِّي من يومِهِ ﷺ (٢) .

= كَرَّشِه ، والرجل يَضَع ثِيَابَه في عَيْنَيْهِ . وقيل أيضاً : أراد بالكَرْش الجماعة ، أي : جَمَاعَتِي وَصَحَابَتِي . ويقال : عليه كَرَشٌ من الناس : أي جماعة (النهاية : ١٦٣/٤ - ١٦٤) .

(١) صحيح البخاري (فضائل أصحاب النَّبي ﷺ ، باب قول النَّبي ﷺ : « اقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم ») [برقم (٩٢٧) و(٣٦٢٨) و(٣٨٠٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما] .

(٢) أخرجه البخاري [في كتاب المغازي] باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، [برقم (٦٨٠) ، ومسلم في كتاب الصلاة ، باب استخلاف الإمام . . . ، برقم (٤١٩) ، وابن ماجه في أبواب الجنائز ، باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ ، برقم (١٦٢٤)] .

تحذير من عبادة القبور واتخاذها مساجد :

كَانَ آخِرُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ قَالَ : « قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ، لَا يَبْقَيْنَ دِينَارٌ بِأَرْضِ الْعَرَبِ » (١) .

تَقُولُ عَائِشَةُ وَابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً (٢) لَهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ : « لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، اتَّخَذُوا مِنْ قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » يَحْذَرُ مَا صَنَعُوا (٣) .

الوصية الأخيرة :

كَانَتْ عَامَةً وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ : « الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » ، حَتَّى جَعَلَ يُغْرِغُ بِهَا صَدْرَهُ ، وَمَا يَكَادُ يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ (٤) .

(١) [أخرجه الإمام مالك في الموطأ في كتاب الجامع ، باب ما جاء في إجلاء اليهود من المدينة ، برقم (١٦٩٦) ، والبخاري في كتاب الجنائز ، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، برقم (١٣٣٠) ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المسجد على القبور ، برقم (٥٣٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] .

(٢) [الخَمِيصَةُ : هِيَ ثَوْبٌ خَزٌّ ، أَوْ صُوفٌ مُعْلَمٌ . وَقِيلَ : لَا تُسَمَّى خَمِيصَةً إِلَّا أَنْ تَكُونَ سُودَاءَ مُعْلَمَةً ، وَكَانَتْ مِنْ لِبَاسِ النَّاسِ قَدِيمًا] « النهاية » (٨٠ / ٢ - ٨١) .

(٣) أخرجه البخاري [في كتاب المغازي ، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، برقم (٤٤٤٣) و(٤٤٤٤) ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المسجد ... ، برقم (٥٣١) ، والنسائي في كتاب المساجد ، باب النهي عن اتخاذ القبور مساجد ، برقم (٧٠٤) ، وأحمد في المسند (٢١٨ / ١) و(٣٤ / ٦)] .

(٤) أخرجه البيهقي (١١ / ٨) انظر ابن كثير : « السيرة النبوية » (٤٧٣ / ٤) [وأخرجه أبو داود في كتاب الأدب ، باب في حق المملوك ، برقم (٥١٥٦) ، وابن ماجه في أبواب الوصايا ، باب هل أوصى رسول الله ﷺ ، برقم (٢٦٩٨) ، وأحمد في المسند (٧٨ / ١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه] .

يقول عليّ - رضي الله عنه - : أوصى رسول الله ﷺ بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم^(١) .

وتقول عائشة - رضي الله عنها - : ذهبت أعوده ، فرفع بصره إلى السماء وقال : « في الرفيق الأعلى ، في الرفيق الأعلى »^(٢) .

ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر ، وبنيده جريدة رطبة ، فنظر إليها ، فظننت أن لها بها حاجة ، قالت : فأخذتها ، فنفضتها ، فدفعتها إليه ، فاستن بها أحسن ما كان مستنّاً ، ثم ذهب يناولنيها فسقطت من يده^(٣) .

وقالت : وبين يديه ركوة^(٤) أو غلبة فيها ماء ، فجعل يدخل يده في الماء ، فيمسح بها وجهه ، ثم يقول : « لا إله إلا الله ، إن للموت لسكرات » ، ثم نصب أصبعه اليسرى ، وجعل يقول : « في الرفيق الأعلى ، في الرفيق الأعلى » ، حتى قبض ومالت يده في الماء^(٥) .

وقالت : نزل برسول الله ﷺ ورأسه على فخذي ، غشي عليه ساعة ، ثم

(١) أخرجه أحمد في المسند (٧٨/١) وابن كثير [في « السيرة النبوية »] (٤٧٣/٤) .

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، برقم (٤٤٣٧) من حديث عائشة رضي الله عنها] .

(٣) سيرة ابن كثير : ج ٤ ، ص ٤٧٤ - ٤٧٥ ، والرواية في البخاري [في كتاب المغازي] باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، [برقم (٤٤٣٨)] وأحمد (٤٨/٦) من حديث عائشة رضي الله عنها] .

(٤) [الركوة : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء] .

(٥) أخرجه البخاري [في كتاب المغازي] ، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، [برقم (٤٤٤٩) ، ومسلم في كتاب السلام ، باب رقية المريض بالمعوذات والثفت ، برقم (٢١٩٢) ، والترمذي في أبواب الدعوات ، باب ما جاء في جامع الدعوات عن رسول الله ﷺ ، برقم (٣٤٩٦) ، وابن ماجه في أبواب الجنائز ، باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ ، برقم (١٦٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها] .

أفاق فأشخصَ بصرَهُ إلى سَقَفِ البَيْتِ ، وقالَ : « اللهمَّ الرفيقَ الأعلى » ، وكانتْ آخرَ كلمةٍ تكَلَّمَ بها رسولُ اللهِ ﷺ ^(١) .

كيفَ فارقَ رسولُ اللهِ ﷺ الدنيا :

فارقَ رسولُ اللهِ ﷺ الدنيا ، وهوَ يحكُمُ جزيرةَ العربِ ، ويرهبُهُ ملوكُ الدنيا ، ويفديه أصحابُهُ بنفوسِهِم وأولادِهِم وأموالِهِم ، « وما تَرَكَ عندَ موتهِ ديناراً ولا درهماً ، ولا عبداً ولا أمةً ، ولا شيئاً ، إلّا بَغْلَتُهُ البيضاءً ، وسلاحُهُ وأرضاً جعلَها صدقةً » ^(٢) .

وتُوفِّيَ ودِرْعُهُ مرهونةٌ عندَ يهوديٍّ بثلاثينَ صاعاً من شعيرٍ ، ما وجدَ ما يَفْكَ بِهِ ، حتّى ماتَ ﷺ ^(٣) .

وأعتَقَ رسولُ اللهِ ﷺ في مرضِهِ هذا أربعينَ نفساً ، وكانتْ عندهُ سبعةُ دنانيرٍ أو ستّةُ ، فأمرَ عائشةُ - رضيَ اللهُ عنها - أن تتصدَّقَ بها ^(٤) .

تقولُ عائشةُ - أمُّ المؤمنينَ رضيَ اللهُ عنها - : توفِّيَ رسولُ اللهِ ﷺ وما في بيتي شيءٌ يأكلُهُ ذو كبدٍ ، إلّا شَطَرَ شعيرٍ في رَفٍّ لي ، فأكلْتُ منه حتّى طالَ عليَّ فِكَلْتُهُ فَفَنِي ^(٥) .

(١) [قد سبق تخريجه آنفاً] .

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب مرض النبي ﷺ ، برقم (٤٤٦١) من حديث عمرو بن الحارث رضي الله عنه] .

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل [(٤٩/٤) ، برقم (٦٢٤٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنه ، وأخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب وفاة النبي ﷺ ، برقم (٤٤٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها] .

(٤) السيرة الحلبية : ج٣ ، ص ٣٨١ .

(٥) متفق عليه [أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب الفقر ، برقم (٦٤٥١) ، ومسلم في كتاب الزهد ، باب الدنيا سجنٌ للمؤمن ، وجنةٌ للكافر ، برقم (٢٩٧٣)] .

وكانَ ذلكَ الفِراقَ يومَ الإثنينِ ١٢ ربيعَ الأولِ ، سنةَ ١١ للهجرةِ بعدَ الزوالِ^(١) ، ولَهُ ﷺ ثلاثٌ وستونَ^(٢) ، وكانَ أشدَّ الأيامِ سواداً ووحشةً ومصاباً على المسلمينَ ، ومحنةً للإنسانيةِ ، كما كانَ يومٌ ولادتهِ أسعدَ يومٍ طلعتُ فيه الشمسُ .

يقولُ أنسٌ وأبو سعيدٍ الخدريُّ - رضيَ الله عنهما - : كانَ اليومُ الذي قدِمَ فيه رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ أضواءَ منها كلُّ شيءٍ ، فلمَّا كانَ اليومُ الذي ماتَ فيه أظلمَ منها كلُّ شيءٍ .

وبَكَتْ أُمُّ أَيْمَنَ ، فقِيلَ لها : ما يُبْكِيكَ على النَّبِيِّ ﷺ ؟ قَالَتْ : إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَيَمُوتُ ، وَلَكِنْ إِنَّمَا أَبْكِي على الوحي الذي رُفِعَ عَنَّا^(٣) .

كيف تلقَّى الصحابة نبأ الوفاة ؟

ونزلتْ وفاة رسولِ اللهِ ﷺ على الصحابة كالصَّاعقة ، لشدةِ حُبِّهم لَهُ ، وما تعودُوهُ من العيشِ في كنفِهِ ، عيشِ الأبناءِ في حجرِ الآباءِ ، بلْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، قد قالَ اللهُ تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

وقد كانَ كلُّ واحدٍ منهم يحسبُ أَنَّهُ أَكْرَمُ عَلَيْهِ وَأَحَبُّ لَدِيهِ مِنْ صَاحِبِهِ ،

(١) وقد جاء في بعض الروايات وقت الضحى أو الضحوة كما جاء في «الاستيعاب» ج ١ ، ص ٤٧ .

(٢) على أرجح الأقوال [انظر فيما أخرجه البخاري في هذا الباب ، في كتاب المغازي ، باب وفاة النبي ﷺ ، برقم (٤٤٦٦) من حديث عائشة رضي الله عنها] .

(٣) السيرة النبوية : لابن كثير ، ج ٤ ، ص ٥٥٤-٥٥٦ .

ولم يكذب بعضهم يصدق نبأ وفاته ، وكان في مقدمتهم عمرُ بنُ الخطاب - رضي الله عنه - ، فأنكرَ على مَنْ قالَ : ماتَ رسولُ الله ﷺ ، وخرجَ إلى المسجدِ وخطبَ الناسَ ، وقالَ : إنَّ رسولَ الله ﷺ لا يموتُ حتَّى يُفنيَ اللهُ المنافقين^(١) .

موقف أبي بكر الحاسم :

وكان أبو بكر - رضي الله عنه - وهو الذي هيأه الله لخلافة النبوة والوقوف موقفَ العزيمة والحكمة ، رجلَ الساعةِ المطلوبَ والجبلَ الراسي الذي لا يحول ولا يزول ، فأقبلَ من منزله حينَ بلغه الخبرُ ، حتَّى نزلَ على بابِ المسجدِ ، وعمرُ يكلمُ الناسَ ، فلمْ يلتفتْ إلى شيءٍ ، حتَّى دخلَ على رسولِ الله ﷺ في بيتِ عائشةَ وهو مُسجى^(٢) ، فكشفَ عن وجهه ، ثمَّ أقبلَ عليه فقبله ، ثمَّ قالَ : بأبي أنت وأمي ، أمَّا الموتةُ التي كتبَ اللهُ عليك فقد ذقتها ، ثمَّ لَنَ تصيبك بعدها موتةٌ أبداً ، وردَّ البردَ على وجهه ﷺ .

ثمَّ خرجَ وعمرُ يكلمُ الناسَ ، فقالَ : على رِسلكَ يا عمرُ ! وأنصتْ ، فأبى إلا أن يتكلَّم ، فلما رآه أبو بكرٍ لا يُنصتُ ، أقبلَ على الناسِ ، فلمَّا سمعُوا كلامه أقبلوا عليه ، وتركوا عمرَ ، فحمدَ اللهُ وأثنى عليه ، ثمَّ قالَ :

أيُّها الناسُ ! إنَّه من كانَ يعبدُ محمداً فإنَّ محمداً قد ماتَ ، ومن كانَ يعبدُ اللهَ ، فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾

(١) سيرة ابن كثير : ج ٤ ، ص ٤٧٩ [وأخرجه أحمد في المسند (٢١٩/٦ - ٢٢٠) ، والترمذي في الشمائل باب في وفاة رسول الله ﷺ ، برقم (٣٧٣) ، وأبو يعلى في المسند ، برقم (٤٨) من حديث عائشة رضي الله عنها] .

(٢) - مُسجى : أي مغطى ببرد .

أَعْقَبِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

يقول من شهد هذا الموقف : والله كأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، وأخذها الناس عن أبي بكر ، فإنما هي في أفواههم ، ويقول عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعقرت^(١) حتى وقعت إلى الأرض ، ما تحملني رجلاي ، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات^(٢) .

بيعة أبي بكر بالخلافة :

وبائع المسلمون أبا بكر بالخلافة ، في سقيفة^(٣) بني ساعدة^(٤) ، حتى لا يجد الشيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم ، وتمزيق شملهم ، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم ، وليفارق رسول الله ﷺ هذه الدنيا وكلمة المسلمين واحدة ، وشملهم منتظم ، وعليهم أمير يتولى أمورهم ، ومنها تجهيز رسول الله ﷺ ودفنه .

كيف ودّع المسلمون رسولهم وصلّوا عليه ؟

وهذا الناس ، وانجلي عنهم ما كانوا فيه من خيرة وعمرة ، وتشاغلو بما علمهم رسولهم من عملهم لمن فارق الدنيا .

(١) أي : تحيرت ودهشت .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٦٥٥ - ٦٥٦ ، ورواه البخاري مطولاً [في كتاب المغازي] باب « مرض النبي ﷺ ووفاته » [برقم (٤٤٥٢) و(٤٤٥٣)] ، من حديث ابن عباس رضي الله عنها .

(٣) [السقيفة : صفة لها سقف] .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المظالم ، باب ما جاء في السقائف ، برقم (٢٤٦٢) .

ولَمَّا فُرِغَ مِنْ غَسَلِهِ وَتَكْفِينِهِ ﷺ وَقَدْ تَوَلَّى ذَلِكَ أَهْلُ بَيْتِهِ ، وَضَعَ سَرِيرَهُ فِي بَيْتِهِ ، وَحَدَّثَهُمْ أَبُو بَكْرٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلَّا دُفِنَ حَيْثُ قُبِضَ » فَرَفَعَ فِرَاشَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي تَوَفَّى فِيهِ ، وَحُفِرَ لَهُ تَحْتَهُ ، وَتَوَلَّى ذَلِكَ أَبُو طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيُّ .

ثُمَّ دَخَلُوا يُصَلُّونَ عَلَيْهِ أَرْسَالًا ، دَخَلَ الرِّجَالُ حَتَّى إِذَا فَرَعُوا ، أُدْخِلَ النِّسَاءُ ، حَتَّى إِذَا فَرَعَ النِّسَاءُ ، أُدْخِلَ الصِّبْيَانُ ، وَلَمْ يَوْمَّ النَّاسَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَدٌ^(١) .

وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الثَّلَاثَةِ^(٢) .

وَكَانَ يَوْمًا حَزِينًا فِي الْمَدِينَةِ ، وَأَذَّنَ بِلَالٌ بِالْفَجْرِ ، فَلَمَّا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَكَى وَانْتَحَبَ ، فَزَادَ الْمُسْلِمِينَ حَزْنًا ، وَقَدْ عَاتَدُوا أَنْ يَسْمَعُوا هَذَا الْأَذَانَ وَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيهِمْ .

تَقُولُ أُمُّ سَلَمَةَ - أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ - : يَا لَهَا مِنْ مَصِيبَةٍ ، مَا أَصَبْنَا بَعْدَهَا بِمَصِيبَةٍ إِلَّا هَانَتْ ، إِذَا ذَكَرْنَا مَصِيبَتَنَا بِهِ ﷺ^(٣) .

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَفْسُهُ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَيُّمَا أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ (أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أَصِيبَ بِمَصِيبَةٍ فَلْيَتَعَزَّ بِمَصِيبَتِهِ بِي ، عَنْ الْمَصِيبَةِ الَّتِي تَصِيبُهُ بغيرِهِ ،

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٦٦٣ [وأخرجه الترمذي في الشماثل ، باب وفاة رسول الله ﷺ ، برقم (٣٧٦) ، وابن ماجه في أبواب إقامة الصلوات ، باب ما جاء في صلاة رسول الله ﷺ في مرضه ، برقم (١٢٣٤) ، والطبراني في الكبير برقم (٦٣٦٧) من حديث سالم بن عبيد] .

(٢) طبقات ابن سعد : نقلًا عن « السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٤ ، ص ٥٠٧ رواية عن الأوزاعي ، وابن جريج وأبي جعفر .

(٣) السيرة النبوية : لابن كثير ، ج ٤ ، ص ٥٣٨ - ٥٤٩ .

فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يَصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي» (١) .
 وَقَالَتْ فَاطِمَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - حِينَ دُفِنَ النَّبِيُّ ﷺ : يَا أَنْسُ أَطَابَتْ
 أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَخْتُؤُا (٢) عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التَّرَابَ (٣) ؟!! وَلَكِنْ مَعَ تَعَلُّقِهِمْ بِهِ لَمْ
 يُنَحَّ عَلَيْهِ ، فَقَدْ نَهَى عَنِ النَّيَاحَةِ أَشَدَّ النَّهْيِ .

-
- (١) السيرة النبوية : لابن كثير ، ج ٤ ، ص ٥٤٩ ، نقلًا عن ابن ماجه [أخرجه في الجنائز ، باب
 ما جاء في الصبر على المصيبة ، برقم (١٥٩٩) من حديث عائشة رضي الله عنها] .
 (٢) [يَخْتُؤُ التَّرَابَ : أَي يَرْمِي بِهِ عَنْ نَفْسِهِ] .
 (٣) أخرجه البخاري ، [في كتاب المغازي] ، باب مرض النبي ﷺ ، برقم (٤٤٦٢) ،
 والترمذي في « الشمائل » باب في وفاة رسول الله ﷺ ، برقم (٣٧٩) ، وابن ماجه في
 الجنائز ، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ ، برقم (١٦٢٩) ، وأحمد في المسند (١٤١/٣)
 وغيرهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه] .

أَزْوَاجُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ

وَأَوْلَادُهُ وَأَسْبَاطُهُ ﷺ

أ - أزواجه ﷺ :

أولاهنَّ خديجة بنتُ خُوَيْلِدٍ القرشيَّةُ الأُسدِيَّةُ - رضي الله عنها - : تزوّجها قبلَ النبوةِ ولها أربعون سنةً ، وهي التي أزرنتُ على النبوةِ وجاهدتُ معه ، وواستهُ بنفسها ومالها ، وماتت قبلَ الهجرةِ بثلاثِ سنينَ ، وجميعُ أولادِهِ ﷺ (غيرَ سيدنا إبراهيمَ) منها ، وكانَ دائمَ الذِّكْرِ لَهَا ، والاعترافِ بِفضلِها ، وربّما إذا ذبحَ الشاةَ يقطعُها أعضاءً يبعثُها في صدائِقِ خديجةَ - رضي الله عنها - (١) .

ثمَّ تزوّجَ بعدَ موتِها بأيامٍ سَوْدَةَ بنتَ زَمْعَةَ القرشيَّةَ العامريةَ .

ثمَّ تزوّجَ بعدها عائِشَةَ الصّديقةَ حبيبةَ رسولِ الله ﷺ وهي أفقهُ نساءِ الأُمةِ وأعلمُهنَّ ، وكانَ الأكابرُ من أصحابِ النَّبيِّ ﷺ يرجعونَ إلى قولِها ، ويستفتونها .

(١) متفق عليه ، [أخرجه البخاري في مناقب الأنصار ، باب تزويج النبي ﷺ خديجة ... ، برقم (٣٨١٦) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل خديجة رضي الله عنها ... ، برقم (٢٤٣٥) من حديث عائشة رضي الله عنها] . وممّا جاء في رواية عائشة فيها : « ما غرت على أحد من نساء النَّبيِّ ﷺ ما غرت على خديجة ، وما رأيتها قط » .

ثُمَّ تَزَوَّجَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

ثُمَّ تَزَوَّجَ زَيْنَبَ بِنْتَ خُزَيْمَةَ ، وَتُوفِّيَتْ عِنْدَهُ بَعْدَ شَهْرَيْنِ .

ثُمَّ تَزَوَّجَ أُمَّ سَلَمَةَ هِنْدَ بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ حُذَيْفَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْقُرَشِيَّةَ الْمَخْزُومِيَّةَ وَهِيَ آخِرُ نِسَائِهِ مَوْتًا .

ثُمَّ تَزَوَّجَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ وَهِيَ ابْنَةُ عَمَّتِهِ أُمَيَّةَ .

وَتَزَوَّجَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضَرَّارٍ الْمُصْطَلِقِيَّةَ

ثُمَّ أُمَّ حَبِيبَةَ رَمْلَةَ بِنْتَ أَبِي سَفْيَانَ صَخْرَ بْنِ حَرْبٍ

ثُمَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُمَيٍّ بْنِ أَخْطَبَ سَيِّدِ بَنِي النَّضِيرِ وَمِنْ وَلَدِ هَارُونَ بْنِ عِمْرَانَ أَخِي نَبِيِّ اللَّهِ مُوسَى .

ثُمَّ مَيْمُونَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ الْهَلَالِيَّةَ ، وَهِيَ آخِرُ مَنْ تَزَوَّجَ بِهَا .

وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ ﷺ تُوْفِيَ عَنْ تِسْعِ زَوَاجٍ وَهِنَّ مَن ذَكَرْنَا ، غَيْرَ خَدِيجَةَ وَزَيْنَبَ بِنْتَ خُزَيْمَةَ ، فَقَدْ تُوفِّيَتْ فِي حَيَاتِهِ ﷺ وَكُلُّهُنَّ ثِيَابٌ غَيْرَ عَائِشَةَ ^(١) .

وَتُوْفِيَ عَنْ سُرِّيَّتَيْنِ :

مَارِيَةَ بِنْتَ شَمْعُونِ الْقِبْطِيَّةِ الْمَصْرِيَّةِ أَهْدَاهَا إِلَيْهِ ﷺ الْمُقَوْقِسُ عَظِيمُ مِصْرَ ، وَهِيَ أُمُّ وَلَدِهِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

وَرِيحَانَةَ بِنْتَ زَيْدٍ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ ^(٢) أَسْلَمَتْ فَأَعْتَقَهَا ثُمَّ تَزَوَّجَهَا ^(٣) .

وَحَرَّمَ اللَّهُ زَوَاجَهُنَّ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَنَّهُنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَفِي

(١) ملخصاً من « زاد المعاد » لابن القيم : ج ١ ، ص ٢٦ - ٢٩ .

(٢) ويقال من بني قريظة .

(٣) سيرة ابن كثير : ج ٤ ، ص ٦٠٤ - ٦٠٥ .

ذَلِكَ حِفْظٌ لِلصِّلَةِ الدَّقِيقَةِ الْحَسَّاسَةِ الَّتِي تَرْبِطُ الْأُمَّةَ بِنَبِيِّهَا ﷺ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

قال ابن كثير في تفسير الآية :

« أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ قَاطِبَةً عَلَى أَنَّ مَنْ تُوَفِّيَ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَزْوَاجِهِ أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى غَيْرِهِ تَزْوُجُهَا مِنْ بَعْدِهِ ، لِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَمَهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ »^(١) .

وقفة قصيرة عند تعدد الزوجات :

قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَطْرًا مِنْ عَمْرِهِ فِي الْعَزْوِيَةِ ، مَدَّةَ خَمْسَةِ وَعَشْرِينَ عَامًا ، وَهِيَ فِتْرَةُ الشَّبَابِ الَّتِي اسْتَوْفَتْ أَفْضَلَ شُرُوطِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَكَانَ مَثَلًا لِلْفِتْوَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ السَّلِيمَةِ ، وَالصِّحَّةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا نَصِيبٌ لِلنَّشْأَةِ فِي الْبَادِيَةِ ، وَالْبُعْدِ عَنْ أَدْوَاءِ الْمَدِينَةِ ، وَالتَّحَلِّيِ بِأَفْضَلِ صِفَاتِ الْفُرُوسِيَّةِ وَالرُّجُولَةِ ، وَلَمْ يَجِدْ أَشَدَّ أَعْدَائِهِ لَهُ مَغْمَرًا فِي هَذِهِ الْفِتْرَِةِ الْحَاسِمَةِ الدَّقِيقَةِ فِي حَيَاتِهِ قَبْلَ النَّبَوَّةِ وَبَعْدَ النَّبَوَّةِ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ ، فَكَانَ مَثَلًا لِلطُّهْرِ وَالْعِفَافِ وَالنِّزَاهَةِ وَالْبِرَاءَةِ وَالْعَزُوفِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ .

فَلَمَّا بَلَغَ خَمْسًا وَعَشْرِينَ سَنَةً تَزَوَّجَ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ ، وَهِيَ أَيْمٌ ، قَدْ بَلَغَتْ مِنْ عَمْرِهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَقَدْ تَزَوَّجَتْ قَبْلَهُ بِرَجَلَيْنِ ، وَلَهَا أَوْلَادٌ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مِنَ التَّفَاوُتِ فِي السِّنِّ ١٥ سَنَةً عَلَى الْقَوْلِ الْمَشْهُورِ ، ثُمَّ تَزَوَّجَ بَعْدَهَا - وَقَدْ جَاوَزَ الْخَمْسِينَ - سُودَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ ، وَقَدْ تُوَفِّيَ زَوْجُهَا فِي الْحَبَشَةِ مُسْلِمًا مُهَاجِرًا .

(١) سيرة ابن كثير : ج ٤ ، ص ٤٩٣ ، طبع دار الأندلس .

ولم يتزوّج ﷺ بكراً إلا عائشة بنت أبي بكر .

وما تزوّج زواجاً إلا ولهذا الزواج مصلحة راجحة من مصالح الدعوة الإسلامية ، أو المروءة ومكارم الأخلاق ، أو جلب منفعة عامة ، ودرء خطر اجتماعي كبير ، فقد كان للأرحام والمصاهرة تأثير كبير في حياة العرب القبليّة ، والاجتماعيّة ، وقيمة ليست في أمة أخرى ، فكان لهذه المصاهرة أثرها البعيد في تاريخ الدعوة الإسلامية ، والمجتمع الإسلاميّ المثاليّ ، وحقق الدماء والتوقي من معرة القبائل العربيّة .

ولم تكن حياته معهنّ حياة ترف ورفاهية ، وتوسّع في المطاعم والمشارب وخفض العيش - وتلك غاية الزوجات في نظر كثير من الناس - بل كانت حياة زهد وتقشف ، وإيثار وقناعة ، لا يطيقها أعظم الرجال وكبار الزهاد في القديم والحديث ، وحسب القاريّ المنصف أن يقرأ قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلّاً لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ۚ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : ٢٨ - ٢٩] .

وكان من أثر هذه الغاية المتوخاة ، والنفسيّة السامية ، والتربية العميقة المؤثرة ، أن اخترن كلّهنّ - رضي الله عنهنّ وأرضاهنّ من غير استثناء وتلكؤ - الله ورسوله والدار الآخرة ، ويكفي مثلاً ، ما أجابت به عائشة - رضي الله عنها - فلما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ، وقال لها : « لا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمري أبويك » .

قالت له : أفني هذا أستأمر أبوي ؟ فإنني أريد الله ورسوله والدار الآخرة^(١) ،

(١) وسيمرّ شيء منها بالقاريّ في الفصل السادس « الأخلاق والشماثل » من هذا الكتاب .

قالت : ثم فعلت أزواجُ النبي ﷺ مثل ما فعلتُ^(١) .

ولم يشغل رسول الله ﷺ تعدد الزوجات ، وما يستلزم ذلك نفسياً واقتصادياً واجتماعياً ، عن النهوض بأعباء الدعوة ، والجهد والتشفي ، والحياة المثالية ، والقيام بالأمور الجسام ، برهة من الزمان ، بل زاده ذلك نشاطاً وقوة ، وكن أعواناً له على القيام بما أكرمه الله به ، من تبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، وتعليم المسلمين دينهم ، ذكوراً وإناثاً ، وكن يرافقه في الحروب والغزوات ، فيداوين الجرحى ويمرضن المرضى ، ويشرن بالخير ، ويواسين في الشدة ، وبهن قام نحو ثلث الدين - ممّا يتعلّق بحياته المنزلية والعشرة وكثير من الأحكام - تعلّمها المسلمون منهن ، وحفظوه ونشروه^(٢) .

وناهيك بأُم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - فقد قال إمام علم الرجال والطبقات الحافظ أبو عبد الله شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) في كتابه المشهور « تذكرة الحفاظ » :

« كانت أكبر فقهاء الصحابة ، كان فقهاء أصحاب رسول الله ﷺ يرجعون

(١) [أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . . . ﴾ برقم (٤٧٨٥) و(٤٧٨٦) ، ومسلم في كتاب الطلاق ، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية ، برقم (١٤٧٥) ، والنسائي في السنن الكبرى (٢٦٠/٣) برقم (٥٣٠٩) ، والترمذي في أبواب تفسير القرآن ، سورة الأحزاب ، برقم (٣٢٠٤) وغيرهم من حديث عائشة رضي الله عنها] .

(٢) وقد أحسن الكلام في موضوع تعدد الزوجات وما كان فيه من حكم ومصالح وما يحيط به من أحوال وظروف ، مؤلف السيرة الهندي القاضي محمد سليمان المنصور فوري في كتابه النفيس « رحمة للعالمين » راجع ص ١٤١ - ١٤٤ ، والكاتب المصري الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد ، في كتابه « عبقرية محمد » تحت عنوان « تعدد الأزواج » وعنوان « أسباب تعدد زوجاته » .

إليها ، يُروى عن قَبِيصَةَ بنتِ ذُوَيْبٍ ، قالت : كانت عائشة أعلم الناس ، يسألها أكابرُ الصحابة .

وقال أبو موسى : ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديث قط ، فسألنا عائشة ، إلا وجدنا عندها منه علماً .

وقال حسن : ما رأيتُ أحداً من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال وحرام ولا بشعرٍ ولا بحديث العرب ولا بالنسب من عائشة رضي الله عنها ^(١) .

وأما مكارم الأخلاق ، وعلو الهمة ، والجود ، والمواساة ، فعن البحر حدث ولا حرج ، وحسبك ما رواه هشام عن أبيه : أن معاوية بعث إلى عائشة مئة ألف ، فوالله ما غاب علينا الشهر حتى فرقتها ، فقالت مولاة لها : لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحماً ، فقالت : ألا ذكرتني ^(٢) ، وكانت صائمة ^(٣) .

وقد نشأت « مشكلة تعدد الزوجات » في حياة محمد ﷺ وشغلت عقول كثير من الباحثين الغربيين وأقلام الكتاب المستشرقين ، وكثر التساؤل عنها ، بسبب إخضاعهم الحياة الزوجية في بلاد العرب وفي الشريعة الإسلامية ، وفي العصر الذي ظهر فيه الإسلام ، للقيم والتصورات والأعراف الغربية ، وتسليط الموازين والمقاييس الغربية (التي ما أنزل الله بها من سلطان ، وإنما هي وليدة

(١) تذكرة الحفاظ : ج ١ ، ص ٢٧-٢٨ ، طبعة دار إحياء التراث العربي [وأخرجه البخاري في كتاب الاستئذان ، باب من ناجى بين يدي الناس . . . ، برقم (٦٢٨٥) و(٦٢٨٦) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل فاطمة رضي الله عنها ، برقم (٢٤٥٠) من حديث عائشة رضي الله عنها] .

(٢) تذكرة الحفاظ : ج ١ ، ص ٢٨ .

(٣) زيادة من رواية أم ذر (المصدر السابق) .

حضارة خاصة ومجتمع خاص) على ما تقبله الفطرة السليمة والبيئة العربية ،
وتقتضيه المصالح الخلقية والاجتماعية ، ويأذن به الله .

وتلك نقطة ضعف في التفكير الغربي وفي الكتابات الغربية يجعلون
الغرب هو الميزان ، ثم يُطلقون أحكاماً قاسية على كل ما جانبه أو اختلف
عنه ، فيخلقون مشكلة ثم يعالجونها ، وما هي إلا نتيجة كبريائهم ،
وتقديسهم الزائد للقيم والمثل الغربية .

وقد كان مؤلف السيرة الإنجليزي المستر R.V.C. Bodley منصفاً وجريئاً في
نقد هذا الشعور الغربي نحو تعدد الزوجات في حياة النبي ﷺ ، يقول في كتابه
« حياة محمد الرسول » :

« إنه لا داعي إلى قياس حياة محمد الزوجية بالمقاييس الغربية ، ولا
الحكم عليها من وجهة نظر التقاليد والقوانين التي سنتها المسيحية في
الغرب ، فلم يكن أولئك الرجال - العرب - غربيين ولا مسيحيين ، إنما نشؤوا
في بلاد وفي عصر كان يسود عليه نظامهم الخلقي الخاص ، ورغم كل ذلك
لا مبرر لتفضيل النظام الخلقي الأمريكي أو الأوربي على النظام الخلقي
العربي ، إن الغربيين لا يزالون في حاجة إلى بحث دقيق ، وتمحيص كبير
لتفضيل نظامهم الخلقي وطريقة حياتهم على غيرها ، فعليهم أن يتجنبوا الطعن
في ديانات أخرى ومدنيات أخرى » (١) .

وليسَتْ « شناعة » تعدد الزوجات (التي تخيلها الغرب ، وآمن بها أبناؤه
في تقليد وحماس ، واعتبروها حقيقةً بدئيةً مسلمةً ، وجسمها كتابه
ومشرعوه) ، شناعة دائمة على مرّ العصور والأجيال ، قائمة على أسس علمية

(١) R.V.C. Bodley: The Messenger-The Life Of Mohammad, (London, 1946) pp. 202-203.

ثابتة ، أو الفطرة الإنسانية السليمة ، بل هي شناعةٌ خياليةٌ عاطفيةٌ ، ناتجةٌ عن دعايةٍ قويةٍ متحمسةٍ ، تخفُّ وقد تزولُ معَ الزمانِ بتغيُّرِ الاتجاهاتِ والأوضاعِ الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ والتربويةِ^(١) .

(١) وإلى ذلك أشار الكاتب الغربي العصري (Alwin Toffler) في كتابه الحديث (Future Schock) الذي أحدث دويًا في الأوساط العلمية أخيراً، اقرأ (على سبيل المثال) ص ٢٢٧ - ٢٣٢ ، (طبع لندن ١٩٧٥ م) .

أحوالُ أمّهاتِ المؤمنين رضي الله عنهنَّ التاريخيّة (١)

الرقم المسلسل	أسماء الأزواج	عام النكاح	سنُّ أم المؤمنين وقت النكاح	العمر	المقبرة	مدّة الإقامة عند النبي ﷺ	عمر النبي ﷺ وقت النكاح	عام الوفاة
١	خديجة الكبرى	سنة ٢٥ من مولد النبي	سنة ٤٠	سنة ٦٥ مكة المكرمة	مكة المكرمة	نحو ٢٥ عاماً	٢٥ عاماً	سنة ١٠ من النبوة
٢	سودة رضي الله عنها	سنة ١٠ من البعثة	سنة ٥٠	سنة ٧٢ المدينة المنورة	المدينة المنورة	١٤ عاماً	٥٠ عاماً	سنة ١٩ من الهجرة
٣	عائشة رضي الله عنها	سنة ١١ من البعثة	٦ سنين	سنة ٦٣ المدينة المنورة	المدينة المنورة	٩ أعوام	٥٤ عاماً	سنة ٥٧ هـ في ١٧ رمضان
٤	حفصة رضي الله عنها	شعبان سنة ٣ هـ	سنة ٢٢	سنة ٥٩ المدينة المنورة	المدينة المنورة	٨ أعوام	٥٥ عاماً	سنة ٤١ هـ من جمادى الأولى
٥	زينب بنت خزيمة رضي الله عنها	سنة ٣ هـ	٣٠ عاماً	سنة ٣٠ المدينة تقريباً المنورة	المدينة المنورة	٣ أشهر	٥٥ عاماً	سنة ٣ هـ
٦	أم سلمة رضي الله عنها	سنة ٤ هـ	سنة ٢٩	سنة ٨٠ المدينة المنورة	المدينة المنورة	٧ سنوات	٥٦ عاماً	سنة ٦٠ هـ
٧	زينب بنت جحش رضي الله عنها	سنة ٥ هـ	٣٦ عاماً	سنة ٥١ المدينة المنورة	المدينة المنورة	٦ سنوات	٥٧ عاماً	سنة ٢٠ هـ
٨	جويرية رضي الله عنها	شعبان سنة ٥ هـ	سنة ٢٠	سنة ٧١ المدينة	المدينة	٦ سنوات	٥٧ عاماً	سنة ٥٦ هـ من ربيع الأول
٩	أم حبيبة	سنة ٦ هـ	سنة ٣٦	سنة ٧٢ المدينة	المدينة	٦ سنوات	٥٨ عاماً	سنة ٤٤ هـ
١٠	صفية رضي الله عنها	جمادى الآخر سنة ٧ هـ	سنة ١٧	سنة ٥٠ المدينة	المدينة	٤ سنوات	٥٩ عاماً	سنة ٥٠ هـ
١١	ميمونة رضي الله عنها	ذو القعدة سنة ٧ هـ	سنة ٣٦	سنة ٨٠ سرف بالقرب من مكة	سرف بالقرب من مكة	٤ سنوات	٥٩ عاماً	سنة ٥١ هـ

ب - أولاده وأسباطه ﷺ :

وَلَدَتْ لَهُ خَدِيجَةُ الْقَاسِمَ ، وَبِهِ كَانَ يَكْنَى ، وَمَاتَ طِفْلاً ، ثُمَّ زَيْنَبُ ثُمَّ رَقِيَّةٌ وَأُمُّ كُلثُومٍ وَفَاطِمَةُ ، وَاخْتَلَفُوا فِي عَبْدِ اللَّهِ ، وَالطَّيِّبِ ، وَالطَّاهِرِ ، فَعَدَّاهُمْ بَعْضُهُمْ ثَلَاثَةَ أَوْلَادٍ ، وَالصَّحِيحُ عِنْدَ ابْنِ الْقَيِّمِ أَنَّ الطَّيِّبَ وَالطَّاهِرَ لِقَبَانِ لِعَبْدِ اللَّهِ ، وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مِنْ خَدِيجَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - ^(١) .

أَمَّا فَاطِمَةُ فَهِيَ أَحَبُّ بَنَاتِهِ إِلَيْهِ ، وَأَخْبَرَ بِأَنَّهَا سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ^(٢) ، وَقَالَ : « فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي ، يُرِيئُنِي مَا أَرَابَهَا ، وَيُؤْذِنِي مَا آذَاهَا » ^(٣) ، وَهِيَ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِهِ لِحَقْقِهِ .

وَوَلَدَتْ لَهُ مَارِيَةُ الْقَبْطِيَّةُ إِبْرَاهِيمَ ، فَتَوَفَّى وَقَدْ مَلَأَ الْمَهْدَ ، وَقَدْ قَالَ ﷺ : « تَذْمَعُ الْعَيْنُ ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا ، إِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ ! لَمَحْزُونُونَ » ^(٤) .

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) [أخرجه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها ، في كتاب المناقب ، باب علامات النبوة ... ، برقم (٣٦٢٣) ، وابن حبان في الصحيح (٤٠٢/١٥) برقم (٦٩٥٢) ، والنسائي في السنن الكبرى (١٤٥/٥) برقم (٨٥١٢) و(٨٥١٣) ، وأخرجه الترمذي من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه في أبواب المناقب ، باب مناقب أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب ... ، برقم (٣٧٨١) ، وفي باب ما جاء في فضل فاطمة رضي الله عنها ، برقم (٣٨٧٣) ، وأحمد في المسند (٣٩١/٥)] .

(٣) متفق عليه [أخرجه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ ، برقم (٣٧١٤) ، وفي باب مناقب فاطمة رضي الله عنها ، برقم (٣٧٦٧) ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل فاطمة رضي الله عنها ، برقم (٢٤٤٩) ، والترمذي في أبواب المناقب ، باب ما جاء في فضل فاطمة رضي الله عنها ، برقم (٣٨٦٩) ، والنسائي في السنن الكبرى (٩٧/٥) ، برقم (٨٣٧٠) و(٨٣٧١) وغيرهم من حديث المسور بن مخرمة] .

(٤) [أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب قول النبي ﷺ : « إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ » برقم =

وَكُسِفَتِ الشَّمْسُ يَوْمَ مَوْتِهِ ، فَقَالَ النَّاسُ : كُسِفَتِ الشَّمْسُ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ ، فَخَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ » (١) .

الفرق بين نبيٍّ مرسلٍ وزعيمٍ سياسيٍّ :

لو كان مكانَ رسولِ الله ﷺ في هذه المناسبةِ الحزينةِ أيُّ داعٍ مِنَ الدعاة ، أو زعيمٍ من الزعماء ، أو قائدٍ دعوةٍ أو حركةٍ أو جماعةٍ ، لَسَكَتَ على هذا الكلام - إذ لم يوفق إلى نفيه - ظناً منه أنَّ ذلك الكلامَ إنما هو في صالحِ دعوتِهِ وحركتِهِ ، وظنَّ أنَّه لم يسترِعِ الانتباهَ إلى هذه الناحية ، بل إنَّ الناسَ بأنفسهم فكَّروا في ذلك ، وقالوا : إنَّ الشَّمْسَ إنما انكسفتْ لوفاةِ ابنِ رسولِ الله ﷺ ، إذًا فهو ليس مكلِّفًا بنفي هذا التفكير .

= (١٣٠٣) ، وأبو داود في كتاب الجنائز ، باب في البكاء على الميت ، برقم (٣١٢٦) ، وابن أبي شيبة في المصنَّف (٦٣/٣) برقم (١٢١٢٦) ، وعبد الرزاق في المصنَّف (٥٥٣/٣) برقم (٦٦٧٢) ، وابن حبان في الصحيح (١٦٢/٧) برقم (٢٩٠٢) ، وأحمد في المسند (١٩٤/٣) وغيرهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الكسوف [أخرجه البخاري في كتاب الكسوف ، باب الدعاء في الكسوف ، برقم (١٠٦٠) ، ومسلم في كتاب الكسوف ، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف ، برقم (٩٠٧) ، وأبو داود في كتاب صلاة الاستسقاء ، باب صلاة الكسوف ، برقم (١١٧٧) ، والنسائي في السنن الكبرى (٥٦٧/١) برقم (١٨٤٣) ، وابن ماجه في أبواب إقامة الصلوات ، باب ما جاء في صلاة الكسوف ، برقم (١٢٦٢) ، وأحمد في المسند (١١٨/٢) وغيرهم من حديث عائشة ، وابن عباس ، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهم جميعاً] . يقول المرحوم محمود باشا الفلكي في كتابه « التقويم العربي قبل الإسلام وتاريخ ميلاد الرسول وهجرته ﷺ » ص ١٨ - ١٩ « قد قمت بحساب دقيق بيّن لي أن الشمس قد كسفت حقيقة كسوفاً كلياً تقريباً بالمدينة عند الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين بعد منتصف الليل يوم السابع والعشرين من شهر يناير (كانون الثاني) سنة ٦٣٢ ميلادية ١هـ) » . وذلك يوافق اليوم التاسع والعشرين من شوال سنة عشر للهجرة .

وذلك هو الفرق بعينه بين النبي وغيره ، فإنَّ الأحداث التي يستغلُّها أصحاب التفكير السياسي - وإن كانت حوادث طبيعية - يرى الأنبياء الكرام - عليهم السلام - استغلالها على حساب الدين حراماً ، وأمرأ يرادف الكفر ، ولا أدري أن أحداً سوى محمد ﷺ يكون قد صدق في هذا الامتحان من غير الأنبياء ، ومن مؤسسي الجماعات وزعماء السياسة .

وولدت زينب - وقد تزوجها أبو العاص بن الربيع وهو ابن أخت خديجة - ابناً اسمه علي ، وبتاً اسمها أمانة .

وتزوج رقية عثمان بن عفان ، فولدت له ابنة عبد الله ، وماتت ورسول الله ﷺ بدري ، وكان عثمان قد أقام عندها يمرضها ، وتزوج بعدها بأختها أم كلثوم ، ولهذا كان يقال له « ذو النورين » وتوفيت عنده أيضاً في حياة رسول الله ﷺ .

وتزوجت فاطمة علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله ﷺ فولدت له حسناً ، وبه كان يكنى ، وحسيناً ، وفيهما قال رسول الله ﷺ : « هما ريحانتي من الدنيا »^(١) ، وفيهما قال : « الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة »^(٢) .

(١) مقتبس من هامش « مطلع الأنوار » لابن الربيع ، ص ٦٧ ، [أخرجه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما ، برقم (٣٧٥٣) ، والترمذي في أبواب المناقب ، باب مناقب أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب والحسين بن علي رضي الله عنهما ، برقم (٣٧٧٠) ، والطبراني في الكبير (١٢٧/٣) برقم (٢٨٨٤) ، وأبو يعلى في المسند ، (١٠٦/١٠) برقم (٥٧٣٩) وغيرهم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما] .

(٢) [أخرجه الترمذي في أبواب المناقب ، باب مناقب أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، برقم (٣٧٦٨) ، والنسائي في السنن الكبرى (٥٠/٥) برقم (٨١٦٩) ، =

وقد بارَك اللهُ في ذريَّتِهِما ، ونفعَ بها الإسلامَ والمسلمينَ ، وكانَ منهم سادةٌ وقادةٌ ، وأئمةٌ في العلمِ والدينِ والجهادِ والزهادَةِ .

وولَدَتْ فاطمةُ لعلِيِّ زينبَ وأمِّ كلثومَ ، وتزوَّجَ زينبَ ابنُ عمِّها عبدُ اللهِ بنَ جعفرِ بنِ أبي طالبٍ ، أحدُ أجوادِ العربِ في الإسلامِ ، وولَدَتْ لَهُ عليّاً وعوناً ، وتزوَّجَ أمِّ كلثومَ بنتَ عليٍّ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنه ، فولَدَتْ زيدا وماتَ عنها^(١) .

وكلُّ أولادِهِ ﷺ توفِّيَ قبلَهُ إلا فاطمةُ ، فإنَّها تأخَّرَتْ بعدَهُ بستَةِ أشهرٍ^(٢) .

= وأحمد في المسند (٣/ ٦٤) وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وقد رُوِيَ هذا الحديث عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أيضاً] .

(١) مقتبس من « السيرة النبوية » لابن كثير وغيره : ج ٤ ، ص ٥٨١ - ٥٨٢ .

(٢) زاد المعاد : لابن قيم الجوزية ، ج ١ ، ص ٢٦ .

الفصل السادس

الأخلاق والشَّمايل

- صفة رسول الله ﷺ خُلُقاً وَخُلُقاً
- مع النَّاس
- في منزله ومع أهله وعِياله
- رَقَّةُ الشعور الإنساني ونبيل العاطفة
- كرمه وحلمه
- الحفاظ على أصالة الدين والغيرة على رُوحه وتعاليمه
- تواضعه
- شجاعته وحيَاؤه
- رَأْفَةٌ عَامَّةٌ وَرَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ
- أَسْوَةٌ كَامِلَةٌ وَقُدْوَةٌ عَامَّةٌ

الأخلاق والشَّائِل

صفةُ رسولِ الله ﷺ خُلُقاً وَخُلُقاً :

وَصَفَهُ ﷺ هِنْدُ بْنُ أَبِي هَالَةَ (ابْنُ خَدِيجَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ وَخَالَ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) وَكَانَ رَجُلًا وَصَافًا ، فَقَالَ :

« كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَاصِلًا ^(١) الْأَحْزَانِ ، دَائِمَ الْفِكْرَةِ ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ ، طَوِيلَ السَّكْتِ ، لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ ، يَفْتَتِحُ الْكَلَامَ وَيَخْتِمُهُ بِأَشْدَاقِهِ ^(٢) ، وَيَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ ، كَلَامُهُ فَصْلٌ ^(٣) ، لَا فَضُولَ وَلَا تَقْصِيرَ . لَيْسَ بِالْجَافِي ^(٤) ، وَلَا الْمَهِينِ ^(٥) ، يَعْظُمُ النِّعْمَةَ وَإِنْ دَقَّتْ ^(٦) ، لَا يَذُمُّ مِنْهَا شَيْئًا ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَذُمُّ ذَوَاقًا ^(٧) وَلَا يَمْدَحُهُ .

(١) أي لا ينفك حزن عن حزن يعقبه .

(٢) جمع شذق بالكسر : طرف الفم ، أي إنه يستعمل جميع فمه للتكلم ، ولا يقتصر على تحريك شفثيه كفعل المتكبرين .

(٣) الفاصل بين الحق والباطل .

(٤) الغليظ الطبع السيئ الخلق .

(٥) يروى بضم الميم أو بفتحها ، فالضم على الفاعل من « أهان » أي لا يهين من يصحبه ، والفتح على المفعول من المهانة : أي الحقارة ، والابتذال ، فالمعنى لم يكن غليظ الخلق ولا ضعيفه ، بل كان معتدلاً بين أنواع المهابة والوقار والجلالة .

(٦) صغرت وقلت .

(٧) المأكول والمشروب ، أي : كان ﷺ يمدح جميع نعم الله ، ولا يشتغل بمذمتها قط .

ولا تُغْضِبُهُ الدنيا ولا ما كَانَ لَهَا^(١) ، فإذا تُعَذِّيَ الحقُّ ، لم يَقُمْ لغضبه شيءٌ ، حتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ ، لا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ ولا يَنْتَصِرُ لَهَا .

إذا أَشَارَ أَشَارَ بِكُفِّهِ كُلِّهَا ، وإذا تَعَجَّبَ قَلْبُهَا ، وإذا تَحَدَّثَ اتَّصَلَ بِهَا ، وضربَ بِرَاحَتِهِ اليُمْنَى بطنَ إِبْهَامِهِ اليُسْرَى ، وإذا غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ^(٢) ، وإذا فَرِحَ غَضَّ طَرَفَهُ .

جُلْ^(٣) ضِحْكِهِ التَّبَسُّمُ ، يَفْتَرُّ^(٤) عن مثل حَبِّ الغَمَامِ^(٥) .

ووصَفَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رضيَ اللهُ عَنْهُ - وهوَ مِنْ أَعْرَفِ النَّاسِ بِهِ ، وأَكْثَرُهُمْ عَشْرَةً لَهُ ، وأَقْدَرُهُمْ عَلَى الوَصْفِ والبَيَانِ ، فَقَالَ :

« لم يَكُنْ فَاِحِشًا^(٦) ، متَفَحِّشًا^(٧) ، ولا صَحَّابًا^(٨) في الأسواقِ ، ولا يَجْزِي السَّيِّئَةَ بالسَّيِّئَةِ ، ولكنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ^(٩) » ، ما ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ولا ضَرَبَ خَادِمًا ولا امْرَأَةً ، وما رَأَيْتُهُ مَنْتَصِرًا^(١٠)

(١) أي ولا يغضبه أيضاً ما كان له علاقة بالدنيا .

(٢) جد في الإعراض وبالغ فيه .

(٣) معظمه وأكثره .

(٤) من افتر : ضحك ضحكاً حسناً حتى بدت أسنانه من غير قهقهة .

(٥) بفتحتين : البرد .

(٦) [أخرجه الترمذي في « الشماثل » باب كيف كان كلامُ رسول الله ﷺ ، برقم (٢٢٥) ،

والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٥٥/٢) برقم (١٤٢٥) ، والطبراني في الكبير

(١٥٦/٢٢) برقم (٤١٤) من حديث هند بن أبي هالة رضي الله عنه] .

(٧) أي ذو فحش من القول والفعل ، وإن كان استعماله في القول أكثر منه في الفعل والصفة .

(٨) أي ولا المتكلف به ، أي ولم يكن الفحش له خلقياً ولا كسبياً .

(٩) أي صيحا .

(١٠) صفح عنه : أعرض عنه وتركه ، باباه فتح .

(١١) منتقماً .

من مَظْلَمَةٍ ظَلَمَهَا قَطُّ مَا لَمْ يُتَّهَكْ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْءٌ ، فَإِذَا انْتَهَكَ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، كَانَ مِنْ أَشَدِّهِمْ غَضَبًا ، وَمَا خَيْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا ، وَإِذَا دَخَلَ بَيْتُهُ كَانَ بَشْرًا مِنَ الْبَشَرِ ، يَفْلِي ^(١) ثَوْبُهُ ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ .

كَانَ يَخْزِنُ لِسَانَهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ ، وَيُوَلِّفُهُمْ وَلَا يَنْفَرُهُمْ ، وَيُكْرِمُ كَرِيمَ كُلِّ قَوْمٍ ، وَيُوَلِّيهِ عَلَيْهِمْ ، وَيَحْذَرُ النَّاسَ ، وَيَحْتَرِسُ مِنْهُمْ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْوِيَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ بَشْرَةً ^(٢) ، وَلَا خُلُقَةً .

وَيَتَّقَدُّ ^(٣) أَصْحَابَهُ ، وَيَسْأَلُ النَّاسَ عَمَّا فِي النَّاسِ ، وَيُحَسِّنُ الْحَسَنَ وَيَقْوِيهِ ، وَيَقْبِضُ الْقَبِيحَ وَيُوهِيهِ ^(٤) ، مَعْتَدِلُ الْأَمْرِ غَيْرِ مُخْتَلِفٍ ، وَلَا يَغْفُلُ مَخَافَةً أَنْ يَغْفُلُوا وَيَمِلُّوا ، لِكُلِّ حَالٍ عِنْدَهُ عِتَادٌ ^(٥) وَلَا يَقْصُرُ عَنِ الْحَقِّ ، وَلَا يُجَاوِزُهُ ، الَّذِينَ يَلُونَهُ مِنَ النَّاسِ خِيَارُهُمْ ، وَأَفْضَلُهُمْ عِنْدَهُ أَعْمُهُمْ نَصِيحَةً ، وَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةٌ أَحْسَنُهُمْ مَوَاسَاةً ^(٦) وَمَوَازَرَةً ^(٧) .

وَلَا يَقُومُ وَلَا يَجْلِسُ إِلَّا عَلَى ذِكْرٍ ، وَإِذَا انْتَهَى إِلَى قَوْمٍ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَجْلِسُ ، وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ ، يُعْطِي كُلَّ جَلِيسَاتِهِ نَصِيبَهُ ، وَلَا يَحْسَبُ جَلِيسَهُ أَنْ أَحَدًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ ، مِنْ جَالِسِهِ أَوْ فَاوَضَهُ ^(٨) فِي حَاجَةٍ صَابِرُهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ

(١) فَلَئِي يَفْلِي فَلَئِي رَأْسُهُ أَوْ ثَوْبُهُ : نَقَاهُمَا مِنَ الْقَمَلِ .

(٢) بِالْكَسْرِ : طَلَاةَ الْوَجْهِ وَبِشَاشَتِهِ .

(٣) أَيِ يَتَعَرَفُ وَيَطْلُبُ مِنْ غَابِ عَنْهُمْ .

(٤) بِتَشْدِيدِ الْهَاءِ وَتَخْفِيفِهَا مِنَ التَّوْهِيَةِ وَالْإِيْهَاءِ : يَضْعُفُهُ .

(٥) بِالْفَتْحِ هُوَ الْعِدَّةُ وَالتَّأَهُبُ مِمَّا يَصْلُحُ لِكُلِّ مَا يَقَعُ ، جِ اعْتَدَ ، وَعَتَدَ ، وَأَعْتَدَ .

(٦) الْمُدَارَاةُ ، وَهِيَ إِصْلَاحُ أَحْوَالِ النَّاسِ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ .

(٧) الْمَعَاوَنَةُ .

(٨) عَامِلُهُ فِي حَاجَةٍ أَوْ خَالَطَهُ .

المنصرف ، ومن سأله حاجته لم يرده إلا بها أو بميسور من القول .

وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواءً ، مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة ، ولا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن^(١) فيه الحرم ، ولا تنثى^(٢) فلتاته^(٣) ، متعادلين^(٤) يتفاضلون فيه بالتقوى ، ويؤقرون فيه الكبير ، ويرحمون فيه الصغير ، ويؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب .

وقال : « كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين^(٥) الجانب ، ليس بفظ^(٦) ، ولا غليظ ، ولا صحاب ، ولا عياب ، ولا مشاح^(٧) يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يؤس منه ، ولا يجيب فيه^(٨) .

قد ترك نفسه من ثلاث : المراء^(٩) ، والإكبار ، وما لا يعنيه ، ترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ولا يعيبه ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه ، وإذا تكلم أطرق^(١٠) جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، فإذا

(١) بضم التاء وسكون الهمزة من الأبن وهو العيب والتهمة ؛ أي لا تقذف ولا تعاب .

(٢) بضم التاء وسكون النون وفتح المثلثة أي لا تشاع ولا تذاع .

(٣) أي زلاته ومعائبه على تقدير وجود وقوعها ، جمع فلتة وهي ما يصدر من الرجل من سقطة .

(٤) متساوين .

(٥) أي سريع العطف ، كثير اللطف ، جميل الصفح ، وقليل الخلاف ، وقيل : كناية عن السكون والوقار والخشوع والخضوع .

(٦) الغليظ السيء الخلق ، الخشن الكلام ، ج أفظاظ ، وفي القرآن : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّأَنفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

(٧) اسم فاعل من المفاعلة من الشح ، وهو البخل ، وقيل أشده .

(٨) أي لا يجيب أحداً فيما لا يشتهي بل يسكت عنه عفواً وتكرماً .

(٩) الجدل .

(١٠) أملوا رؤوسهم ، وأقبلوا ببصرهم إلى صدورهم .

سَكَتَ تَكَلَّمُوا ، لَا يَتَنَازَعُونَ عِنْدَهُ الْحَدِيثَ وَمَنْ تَكَلَّمَ عِنْدَهُ أَنْصَتُوا لَهُ حَتَّى يَفْرَغَ ، حَدِيثُهُمْ عِنْدَهُ حَدِيثُ أَوْلَهُمْ^(١) يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ ، وَيَتَعَجَّبُ مِمَّا يَتَعَجَّبُونَ ، وَيَصْبِرُ لِلْغَرِيبِ عَلَى الْجَفْوَةِ فِي مَنْطِقِهِ وَمَسْأَلَتِهِ ، حَتَّى كَانَ أَصْحَابُهُ يَسْتَجْلِبُونَهُمْ ، وَيَقُولُ : إِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ حَاجَةٍ يَطْلُبُهَا فَأَرْفُدُوهُ^(٢) ، وَلَا يَقْبَلُ الشَّاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِيٍّ^(٣) ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يَجُوزَ^(٤) فَيَقْطَعُهُ بِنَهْيٍ أَوْ قِيَامٍ .

أَجَوَدَ النَّاسِ صَدْرًا ، وَأَصْدَقَ النَّاسِ لَهْجَةً^(٥) ، وَأَلْيَنَهُمْ عَرِيكََةً^(٦) ، وَأَكْرَمَهُمْ عَشِيرَةً ، مَنْ رَأَاهُ بِدِيهَةٍ هَابَةٍ ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ ، يَقُولُ نَاعَتُهُ : لَمْ أَرْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ ﷺ^(٧) .

وَقَدْ كَسَا اللَّهُ نَبِيَّهٗ لِبَاسَ الْجَمَالِ ، وَأَلْقَى عَلَيْهِ مَحَبَّةً وَمَهَابَةً مِنْهُ ، وَصَفَهُ هِنْدُ بْنُ أَبِي هَالَةَ ، فَقَالَ :

« كَانَ فَخْمًا^(٨) ، مَفْخَمًا^(٩) ، يَتَلَأَلُ^(١٠) وَجْهُهُ تَلَأُلَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ^(١١) .

(١) أي حديث أفضلهم وكأول تكلمهم ، أي لا عن ملال وسآمة .

(٢) الإرفاد : الإعطاء والإعانة .

(٣) أي مقارب في مدحه ، لا يتجاوز عن حد مثله ، ولا مقصر به عما رفعه الله إليه من علو مقامه .

(٤) أي يتجاوز عن الحد والحق .

(٥) اللسان .

(٦) الطبيعة ؛ ج عرائك .

(٧) ملتقطاً من جزء الشمال للترمذي .

(٨) بفتح الفاء وسكون الخاء : أي عظيماً في نفسه .

(٩) أي المعظم في الصدور والعيون .

(١٠) أي يستنير .

(١١) [أخرجه الترمذي في « الشمال » باب كيف كان كلام رسول الله ﷺ ، برقم (٧) ، وابن

سعد في « الطبقات » (٣١٦/١) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢٨٦/١) من حديث هند بن

أبي هالة] .

وَوَصَفَهُ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرْبُوعًا ^(١) ، وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي حَلَّةٍ حُمْرَاءَ ، مَا رَأَيْتُ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ » ^(٢) .

وَوَصَفَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَ : « كَانَ رَبْعَةً ^(٣) ، وَهُوَ إِلَى الطَّوْلِ أَقْرَبُ ، شَدِيدَ الْبَيَاضِ ، أَسْوَدَ شَعْرِ اللَّحْيَةِ ، حَسَنَ الثَّغْرِ ، أَهْدَبَ ^(٤) أَشْعَارَ الْعَيْنَيْنِ ، بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ (إِلَى أَنْ قَالَ) : لَمْ أَرْ مِثْلَهُ قَبْلُ وَلَا بَعْدُ » ^(٥) .

وَيَقُولُ أَنَسٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : « مَا مَسَسْتُ دِيْبَاجًا وَلَا حَرِيرًا أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا شَمَمْتُ رَائِحَةً قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ » ^(٦) .

مع الله تعالى :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مع ما أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالْخَلَّةِ وَالْإِصْطِفَاءِ وَغُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ أَعْظَمَ النَّاسِ اجْتِهَادًا فِي الْعِبَادَةِ ، وَحِرْصًا عَلَيْهَا ، وَلَوْلَعَابُهَا .

(١) وسط القامة .

(٢) متفق عليه [أخرجه البخاري في كتاب المناقب ، باب صفة النبي ﷺ ، برقم (٣٥٥١) ، ومسلم في الفضائل ، باب في صفة النبي ﷺ . . . ، برقم (٢٣٣٧) ، وأبو داود في كتاب اللباس ، باب في الرخصة في ذلك ، برقم (٤٠٧٢) ، والترمذي في « الشمائل » ، باب صفة النبي ﷺ ، برقم (٣) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه] .

(٣) الوسط القامة .

(٤) الطويل الأشعار .

(٥) [أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » باب : إذا التفت التفت جميعاً ، برقم (١١٥٥)] .

(٦) أخرجه البخاري في كتاب المناقب ، باب صفة النبي ﷺ ، [برقم (٣٥٦٢) ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب طيب ريحه ﷺ برقم (٢٣٣٠)] .

يقول المَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ : « قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! تَفْعَلْ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ قَالَ : أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟ » (١) .

وَقَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : « قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَيْلَةً » (٢) .

وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ : « قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَصْبَحَ بِآيَةٍ ، وَالْآيَةُ : ﴿ إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَا تَهْتِكُوا أَسْمَاءَ آبَائِهِمْ وَلَا إِهْلَافَهُمْ وَإِنْ تُحِبُّوا الْعِلْمَ فَاتَّبِعُوا سَبِيلَهُ وَلَا تُحِبُّوا الْهَيْوَةَ وَالْغَلْبَةَ وَالزُّهْدَ وَمَنْ لَمْ يَرْفَعْ يَدَهُ إِلَى اللَّهِ وَلَا يَخْشَ اللَّهَ لَيْسَ بِالْعَصِيمِ ﴾ » (٣) [المائدة : ١١٨] .

وَعَنْ عَائِشَةَ أَيْضًا : « كَانَ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ : لَا يَفْطِرُ ، وَيَفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ : لَا يَصُومُ » (٤) .

وَقَالَ أَنَسٌ : « كَانَ لَا تَشَاءُ أَنْ تَرَاهُ مِنَ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إِلَّا رَأَيْتَهُ ، وَلَا نَائِمًا إِلَّا رَأَيْتَهُ » (٥) .

(١) [أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، تفسير سورة الفتح ، برقم (١١٣٠) ، ومسلم في صفات المنافقين ، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة ، برقم (٢٨١٩) ، والنسائي في كتاب قيام الليل ، باب الاختلاف على عائشة في إحياء الليل ، برقم (١٦٤٥) ، والترمذي في « الشمائل » باب في عبادة رسول الله ﷺ ، برقم (٢٦١) ، وابن ماجه في إقامة الصلوات ، باب ما جاء في طول القيام في الصلوات ، برقم (١٤١٩)] .

(٢) أخرجه الترمذي [في أبواب الصلاة ، باب ما جاء في القراءة بالليل ، برقم (٤٤٨)] .

(٣) أخرجه النسائي في « السنن الكبرى » (٣٤٦/١) برقم (١٠٨٣) ، وابن ماجه ، [في إقامة الصلوات] ، باب ما جاء في القراءة في الليل [برقم (١٣٥٠)] .

(٤) [أخرجه مسلم في كتاب الصيام ، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان ، برقم (١١٥٦) ، والترمذي في أبواب الصوم ، باب ما جاء في صوم الدهر ، برقم (٧٦٨) ، وفي « الشمائل » في باب ما جاء في صوم رسول الله ﷺ برقم (٢٩٤)] .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب التهجد ، باب قيام النبي ﷺ ونومه ، برقم (١١٤١) ، والترمذي في الصوم ، باب ما جاء في سرد الصوم ، برقم (٧٦٩) ، وأحمد (٣/١٠٤ - ١١٤)] .

وعن عبد الله بن الشَّخِير ، قَالَ : « أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَصَلِّي ، وَلَجَوْفِهِ أَزِيْرٌ كَأَزِيْرِ الْمِرْجَلِ ^(١) ، مِنْ الْبَكَاءِ » ^(٢) .

وَكَانَ لَا يَكَادُ يَتَسَلَّى عَنْ الصَّلَاةِ ، وَيَرْغَبُ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا فَيَقُولُ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » ^(٣) .

ويقول الصحابة - رضي الله عنهم - : كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى ^(٤) .

وعن أبي الدَّرْدَاءِ - رضي الله عنه - : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ لَيْلَةً رِيحٌ شَدِيدَةٌ ، كَانَ مَفْرَعُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ ، حَتَّى تَسْكُنَ الرِّيحُ ، وَإِذَا حَدَّثَ فِي السَّمَاءِ حَدَثٌ مِنْ خُسُوفِ شَمْسٍ أَوْ قَمَرٍ ، كَانَ مَفْرَعُهُ إِلَى الصَّلَاةِ حَتَّى يَنْجَلِيَ ^(٥) .

وَكَانَ يَحِنُّ إِلَى الصَّلَاةِ ، وَيَتَحَيَّنُّهَا ، فَلَا يَهْدُأُ لَهُ بَالٌ ، وَلَا يَقِرُّ لَهُ قَرَارٌ ، حَتَّى يَقْبَلَ عَلَيْهَا ، وَكَانَ يَقُولُ أحياناً لِمُؤَدِّهِ بِلَالٍ : « يَا بِلَالُ ! أَقِمِ الصَّلَاةَ ، أَرَحْنَا بِهَا » ^(٦) .

نَظَرْتُهُ ﷺ إِلَى الْحَيَاةِ وَزَهْدُهُ فِيهَا :

أَمَّا نَظَرْتُهُ إِلَى الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ ، وَالْمَالِ وَالْمَتَاعِ فَأَكْبَرُ مَجْمُوعَةٍ مِنْ

(١) [الْمِرْجَلُ : قِدْرٌ مِنْ نَحَاسٍ ، وَأَزِيْرُهُ : صَوْتُ غُلِيَانِهِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ : مَا كَانَ يُعْرَضُ لَهُ فِي الصَّلَاةِ مِنَ الْخَوْفِ الَّذِي يُوجِبُ ذَلِكَ الصَّوْتُ] .

(٢) [أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي « الشَّمَائِلِ » بَابٍ فِي بَكَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، بِرَقْمٍ (٣١٩) ، وَأَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ ، بَابِ الْبَكَاءِ فِي الصَّلَاةِ ، بِرَقْمٍ (٩٠٤) ، وَالنَّسَائِيُّ فِي « السَّنَنِ الْكُبْرَى » (١٩٥/١) بِرَقْمٍ (٥٤٤) ، وَأَحْمَدُ (٢٥/٤)] .

(٣) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي كِتَابِ عَشْرَةِ نِسَاءٍ ، بَابِ حُبِّ النِّسَاءِ ، [بِرَقْمٍ (٣٩٣٩)] .

(٤) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ التَّطَوُّعِ ، بَابِ وَقْتِ قِيَامِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ ، بِرَقْمٍ (١٣١٩) .

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ [وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي الْمَجْمَعِ (٤١١/٢)] : رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ مِنْ رِوَايَةِ زِيَادِ بْنِ صَخْرٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ، وَلَمْ أَجِدْ مَنْ تَرْجَمَهُ ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ] .

(٦) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الْأَدَبِ ، بَابِ فِي صَلَاةِ الْعَتَمَةِ ، [بِرَقْمٍ (٤٩٨٥) وَ(٤٩٨٦)] .

الألفاظ ، وقدرةً بيانيةً لا تفي بالغرض ، فإنَّ تلاميذَ مدرسته الإيمانيَّة الرَبانيَّة ، وتلاميذَ تلاميذِهِم من العربِ والعجمِ ، في مشارقِ الأرضِ ومغاريبِها ، نظَّروا إلى الدينارِ والدرهمِ كالخزفِ والحصى والرملِ والترابِ ، ورؤيَ عنهم من الزهادةِ في الدُّنيا ، والاستهانةِ بزخارفِ الحياةِ ، والغرامِ بإنفاقِ المالِ على غيرِهِم ، وإيثارِهِم عليهم ، والقناعةِ بالكفافِ وأقلِّ من الكفافِ ، ما يحيرُ الألبابَ^(١) ، فكيفَ بالرسولِ الأعظمِ ﷺ الذي كانَ قدوتَهُم في كلِّ خيرٍ وفضلٍ ، وإمامَهُم ومعلِّمَهُم .

ولكنَّنا نتركُ ما رواه الصحابةُ - رضيَ اللهُ عنهم - في هذا البابِ ، وما جرى على لسانِهِم من الأقوالِ ينطقُ بذلكِ ، فلا كلامَ أبلغُ من الحوادثِ والأخبارِ ، ولا أنطقُ منها .

كان قولُهُ المأثورُ المشهورُ ، وبه كانَ عمله ، وعليهِ تدورُ حياته ﷺ :
« اللهمَّ إِنَّ الأجرَ أجرُ الآخرةِ »^(٢) .

وكانَ ﷺ يقولُ : « ما لي وللدنيا ، وما أنا والدنيا إلاَّ كراكبٍ استظلَّ تحتَ شجرةٍ ، ثمَّ راحَ وتركها »^(٣) .

ورآهُ عمرُ مُضطجعاً على حصيرٍ ، قد أثَّرَ في جنبِهِ ، فهملَتْ عيناهُ عمرَ ،

(١) وليُراجع في ذلك الكتب التي ألفت في هذا الموضوع ، ككتاب الزهد لعبد الله بن المبارك ، وكتاب الزهد للبيهقي ، و « صفة الصفوة » لابن الجوزي ، و « حلية الأولياء » لأبي نعيم .

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب : مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة ، برقم (٣٩٣٢) ، ومسلم في كتاب الصلاة ، باب ابتداء مسجد النبي ﷺ ، برقم (٥٢٤) ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب في بناء المساجد ، برقم (٤٥٣) وغيرهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه] .

(٣) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده [وأخرجه الترمذي في أبواب الزهد ، باب حديث « ما الدنيا إلا كراكب استظلَّ » برقم (٤١٠٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما] .

فَقَالَ : مَا لَكَ ؟ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَنْتَ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ ، وَكِسْرَى وَقِصْرُ فِيمَا هُمَا فِيهِ ؟

فاحمَرَّ وجهُهُ ، وَقَالَ : « أَوْ فِي شَكِّ أَنْتَ يَا بَنَ الْخَطَّابِ ؟ » ثُمَّ قَالَ : « أَوْلَيْكَ قَوْمٌ عَجَّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا » (١) .

وَكَانَ لَا يَحِبُّ هَذَا الطَّرَازَ مِنَ الْمَعِيشَةِ لِنَفْسِهِ فَقَطْ ، بَلْ كَانَ يَحِبُّهُ لِأَهْلِهِ وَعِيَالِهِ ، وَيُؤَثِّرُهُ لَهُمْ ، فَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قَوْنًا » (٢) .

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : « وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ ، مَا شَبِعَ نَبِيُّ اللَّهِ وَأَهْلُهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تَبَاعًا مِنْ خَبِزِ حِنْطَةٍ حَتَّى فَارِقَ الدُّنْيَا » (٣) .

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : « إِنْ كُنَّا آلُ مُحَمَّدٍ لَيَمُرُّ بِنَا الْهَلَالُ مَا نُوقِدُ نَارًا ، إِنَّمَا هُمَا الْأَسْوَدَانِ : التَّمَرُ وَالْمَاءُ » (٤) .

(١) راجع الحديث بطوله في الصحيحين [أخرجه البخاري في كتاب المظالم ، باب الغرفة والعلية المشرفة ... برقم (٢٤٦٨) ، ومسلم في الطلاق ، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخيرهن ... برقم (١٤٧٩) ، والترمذي في تفسير القرآن ، في تفسير سورة التحريم ، برقم (٣٣١٨) ، وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما] .

(٢) متفق عليه [أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه ... برقم (٦٤٦٠) ، ومسلم في كتاب الزكاة ، باب في الكفاف والقناعة ، برقم (١٠٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] .

(٣) أخرجه مسلم [في كتاب الزهد ، باب : الدنيا سجنٌ للمؤمن وجنة للكافر ، برقم (٢٩٧٩) ، والترمذي في أبواب الزهد ، باب ما جاء في معيشة النبي ﷺ وأهله ، برقم (٢٣٥٨) ، وابن ماجه في أبواب الأطعمة ، باب خبز البر ، برقم (٣٣٤٣) ، وأحمد في المسند (٤٣٤/٢)] .

(٤) متفق عليه [أخرجه البخاري في كتاب الهبة ... ، باب فضل الهبة (٢٥٦٧) ، ومسلم في كتاب الزهد ، باب : الدنيا سجنٌ للمؤمن ... ، برقم (٢٩٧٢)] .

وقد كانت له درعٌ مرهونةٌ عندَ يهوديٍّ ، فما وجدَ ما يفكُّها ، حتَّى ماتَ^(١) .

وإنَّه ﷺ حجَّ حجَّةَ الوداعِ ، والمسلمونَ معه مدَّ البصرِ ، والجزيرةُ خاضعةٌ له ، على رجلٍ رثٌ ، عليه قطيفةٌ لا تساوي أربعةَ دراهمٍ ، فقالَ : « اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ حَجًّا لَا رِيَاءَ فِيهِ وَلَا سُمْعَةً »^(٢) .

وقد قال ﷺ لأبي ذرٍّ - رضيَ اللهُ عنه - : « ما يسُرُّني أنْ عندي مثلُ أُحُدٍ هذا ذَهَبًا ، تمضي عليَّ ثلاثةُ أيامٍ وعندي منه دينارٌ ، إلَّا شيءٌ أرصدُهُ لِدِينٍ ، إلَّا أنْ أقولَ به في عبادِ اللهِ هكذا ، وهكذا ، وهكذا ، عن يمينِهِ وعن شمالِهِ وعن خلفِهِ »^(٣) .

ويقولُ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ - رضيَ اللهُ عنه - : « ما سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عن شيءٍ فقالَ : لا »^(٤) .

وعن ابنِ عبَّاسٍ - رضيَ اللهُ عنهما - قالَ : « كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ »^(٥) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب ، برقم (٢٩١٦) ، ومسلم في كتاب المساقاة ، باب الرهن وجوازه ، برقم (١٦٠٣) ، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [.

(٢) أخرجه الترمذي في «الشماثل» [باب تواضع رسول الله ﷺ ، برقم (٣٣٢) ، وابن ماجه في أبواب المناسك ، باب الحج على الرجل ، برقم (٢٨٩٠) من حديث أنس رضي الله عنه] .

(٣) متفق عليه واللفظ للبخاري ، كتاب الرقاق ، باب قول النبي ﷺ : « ما أحبُّ أنْ لي أُحُدًا ذهبًا » برقم (٦٤٤٥) ، ومسلم في كتاب الزكاة ، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدِّي الزكاة ، برقم (٩٩١) ، وابن ماجه في أبواب الزهد ، باب مجالسة الفقراء ، برقم (٤١٣٢) [.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب حُسْن الخلق ، [برقم (٦٠٣٤) ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب في سخائه ﷺ ، برقم (٢٣١١)] .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي ، برقم (٦) ، ومسلم في كتاب =

وعن أنس - رضي الله عنه - « أن رجلاً سألَهُ ، فأعطاهُ غنماً بينَ جبَلَيْنِ ، فرجعَ إلى بلادِهِ ، وقالَ : أسَلِمُوا ، فإنَّ محمداً يُعْطِي عطاءً مَنْ لا يَخْشَى فاقَةً » .

وَحُمِلَ إِلَيْهِ ﷺ تسعون ألفَ درهمٍ ، فوَضِعَتْ على حَصِيرٍ ، ثُمَّ قامَ إِلَيْهَا يَقْسُمُها ، فمَارَدَ سائلاً حتى فرغَ منها » .

مع الناس :

وكانت لا تمنعه هذه العبادة والزهد في الدنيا ، والإقبال على الله بقلبه وقالبه ، والاشتغال به ، ومناجاته ، عن دوام البشر ، وطلاقة الوجه ، وتفقد القلوب ، وملاطفة الناس ، وإيتاء كل ذي حق حقه ، وذلك شيء لا يقوى عليه غيره .

وقد كان يقول : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً »^(١) .

وقد كان أوسع الناس صدراً ، وألينهم عريكةً ، وأكرمهم عشيرةً ، وكان يُمازح أصحابه ، ويُخالطهم ويُحادثهم ، ويُداعِبُ صبيانهم ، ويجلسهم في حجره ، ويُجيب دعوة الحرِّ والعبد ، والأمة والمسكين ، ويعودُ المرضى في أقصى المدينة ، ويقبلُ عُذْرَ المعتذر^(٢) ولم يرَ ماداً رجليه بين أصحابه حتى لا يضيّقَ بهما على أحدٍ .

= الفضائل ، باب جوده ﷺ ، برقم (٢٣٠٨) وغيرهما] .

(١) متفق عليه [أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب قول النبي ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم .. » برقم (٦٤٨٥) ومسلم في كتاب الفضائل ، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله ... ، برقم (٢٣٥٩)]

(٢) من كلام أنس بن مالك رضي الله عنه ، رواه أبو نعيم في الحلية .

يقول عبد الله بن الحارث - رضي الله عنه - : ما رأيتُ أكثرَ تبسُّماً من رسول الله ﷺ^(١) .

وعن جابر بن سمرة - رضي الله عنه - قال : « جالستُ رسولَ الله ﷺ أكثرَ من مئةِ مرَّةٍ ، فكان أصحابُه يتناشدونَ الشعرَ ، ويتذكرونَ أشياءَ من أمرِ الجاهليَّةِ ، وهو ساكتٌ وربَّما تبسَّمَ معهم » .

ويقول الشَّريدُ الثَّقَفِيُّ : « استنشدني نبيُّ الله ﷺ شعرَ أميةَ بنِ أبي الصَّلْتِ فأنشدتهُ »^(٢) .

وكانَ حَنُوناً ودوداً ، تجلَّتْ فيهِ العواطفُ الإنسانيَّةُ ، والمشاعرُ اللطيفةُ في أسمى مظاهرها وأجملها .

يقول أنسُ بنُ مالكٍ - رضي الله عنه - : « كانَ رسولُ الله ﷺ يقولُ لفاطمةَ : ادَّعي لي ابنيَّ (يعني الحسنَ والحسينَ رضي الله عنهما) فيصُتُّهُما ويصُتُّهُما إليه^(٣) ، ودعا سبطَهُ حسنَ بنَ عليٍّ مرَّةً ، فجاءَ يشتدُّ ، فوقعَ في حجرِ رسولِ الله ﷺ ثمَّ أدخلَ يدهُ في لِحيتِهِ ، ثمَّ جعلَ النَّبيُّ ﷺ يفتحُ فاهُ ، فيُدخلُ فاهُ في فيه^(٤) .

وتقول عائشةُ - رضي الله عنها - : « قَدِمَ زيدُ بنُ حارثةَ (وهو مولى رسولِ الله ﷺ) المدينةَ ، ورسولُ الله ﷺ في بيتهِ ، فأناه ، ففرعَ البابَ ، فقامَ

(١) [أخرجه الترمذي في أبواب المناقب ، باب ما جاء في صفة النبي ﷺ ، برقم (٣٦٤١) ، وفي « الشمال » في باب ضحك رسول الله ﷺ ، برقم (٢٣٠)] .

(٢) [أخرجه مسلم في كتاب الشعر ، باب : في إنشاد الأشعار . . . برقم (٢٢٥٥) ، وابن ماجه في أبواب الأدب ، باب الشعر ، برقم (٣٧٥٨) من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه] .

(٣) [أخرجه الترمذي في أبواب المناقب ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما ، برقم (٣٧٧٢)] .

(٤) [أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » في باب الاحتباء ، برقم (١١٨٣)] .

إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ عَزْرِيَّانَ ، يَجْرُ ثَوْبُهُ ، فَاعْتَنَقَهُ وَقَبَّلَهُ^(١) .

وعن أسامة بن زيد - رضي الله عنه - أَنَّ ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِ أَنَّ ابْنِي قَدْ احْتَضَرَ ، فَاشْهَدْنَا ، فَأَرْسَلَ يَقْرَأُ السَّلَامَ ، وَيَقُولُ : « إِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ وَمَا أَعْطَى ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ ، فَقَامَ وَقُمْنَا مَعَهُ ، فَلَمَّا قَعَدَ رَفَعَ إِلَيْهِ ، فَأَقْعَدَهُ فِي حِجْرِهِ ، وَنَفْسُ الصَّبِيِّ تُقْعَقَعُ^(٢) ، فَفَاضَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ سَعْدُ : مَا هَذَا يَارَسُولَ اللَّهِ ؟! قَالَ : « هَذِهِ رَحْمَةٌ يَضَعُهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ »^(٣) .

وَلَمَّا شُدَّ وَثَاقُ الْعَبَاسِ فِي أُسْرَى بَدْرٍ ، فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبْكُ لَمْ يَأْخُذْهُ النَّوْمُ ، فَبَلَغَ الْأَنْصَارَ ، فَأَطْلَقَهُ الْأَنْصَارُ ، وَلَمْ تَحْمَلْهُ تِلْكَ الشَّفَقَةُ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَائِرِ أُسْرَى بَدْرٍ ، فَلَمَّا فَهِمَ الْأَنْصَارُ رِضَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِفِكَ وَثَاقِهِ ، سَأَلُوهُ أَنْ يَتْرَكُوا لَهُ الْفِدَاءَ طَلِبًا لِتَمَامِ رِضَا ، فَلَمْ يَجِبْهُمْ إِلَى ذَلِكَ^(٤) .

وَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : أُنْقَبِلُونَ الصَّبِيَّانَ ؟ فَمَا نَقَبْلُهُمْ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَوْ أَمْلِكُ لَكَ إِذَا نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ ؟ »^(٥) .

- (١) أخرجه الترمذي في أبواب الاستئذان ، باب ما جاء في المعانقة ، [برقم (٢٧٣٢)] .
- (٢) [أي تضطرب وتتحرك] . أراد : كلما صار إلى حالٍ لم يلبث أن ينتقل إلى أخرى تقرّبه من الموت] .
- (٣) أخرجه البخاري في كتاب المرض ، باب عيادة الصبيان ، برقم (٥٦٥٥) ، وفي كتاب الجنائز ، باب قول النبي ﷺ : « يَعْذِبُ الْمَيِّتُ بَعْضُ بَكَاءِ أَهْلِهِ » ، [برقم (١٢٨٤)] ، وأحمد في المسند (٢٤٥/٦) .
- (٤) فتح الباري : ج ٨ ، ص ٣٢٤ (الطبعة المصرية) [وأخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب شهود الملائكة بدرأ ، برقم (٤٠١٨) من حديث أنس رضي الله عنه] .
- (٥) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب : رحمة الوالد ، [برقم (٥٩٩٨)] ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال ، برقم (٢٣١٧) ، وابن ماجه في =

وكانَ عطوفاً على الصبيانِ ، رفيقاً بهم .

رُويَ عن أنسٍ - رضيَ اللهُ عنه - أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ على صبيانٍ يلعبونَ ،
فسلمَ عليهم^(١)

يقولُ أنسُ بنُ مالكٍ : كانَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخَالِطُنَا حتَّى يقولَ لأخٍ لي صغيرٍ :
« يا أبا عُمَيْرٍ ! ما فعلَ الثُّغَيْرُ »^(٢) »^(٣) .

وكانَ شديدَ الرَّأفةِ بالمسلمينَ ، كثيرَ المُرَاعاةِ لاختلافِ أحوالِهِم ، وما
يعتري النفوسَ من فتورٍ ومللٍ .

يقولُ ابنُ مسعودٍ - رضيَ اللهُ عنه - : « كانَ رسولُ الله ﷺ يَتَخَوَّلُنَا^(٤)
بالموعظةِ كراهةَ السَّامةِ علينا^(٥) ، وكانَ مع شدَّةِ ولعِهِ بالصلاةِ يتَجَوَّزُهَا إذا
سمعَ بُكاءَ صبيٍّ ، فقد رُويَ عنه أَنَّهُ قَالَ : « إِنِّي لأَقُومُ في الصلاةِ أُريدُ أَنْ

= أبواب الأدب ، باب برِّ الوالدين والإحسان إلى البنات ، برقم (٣٦٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها] .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان ، [باب التسليم على الصبيان ، برقم (٦٢٤٧) ،
ومسلم في كتاب السلام ، باب استحباب السلام على الصبيان ، برقم (٢١٦٨) ، والترمذي
في أبواب الاستئذان ، باب ما جاء في التسليم على الصبيان ، برقم (٢٦٩٦)] .

(٢) [الثُّغَيْرُ : هو تصغير الثُّغَرِ ، وهو طائرٌ يُشَبِّهُ العُصْفُورَ أحمر المنقار] .

(٣) [أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » في باب المزاح مع الصبي ، برقم (٢٦٩) ، وأخرجه
في الصحيح في كتاب الأدب ، باب الانبساط إلى الناس ، برقم (٦١٢٩) ، ومسلم في
كتاب الآداب ، باب جواز تكتية من لم يُولد له . . . ، برقم (٢١٥٠) ، وأبو داود في كتاب
الأدب ، باب في الرجل يتكنى وليس له ولدٌ ، برقم (٤٩٦٩) ، والترمذي في أبواب
الصلاة ، باب ما جاء في الصلاة على البسط ، برقم (٣٣٣)] .

(٤) [يَتَخَوَّلُنَا : أي يَتَمَهَّدُنَا] .

(٥) [أخرجه البخاري في كتاب الدعوات ، باب الموعظة ساعةً بعد ساعة ، برقم (٦٤١١) ،
ومسلم في كتاب صفات المنافقين ، باب الاقتصاد في الموعظة ، برقم (٢٨٢١) ،
والترمذي في أبواب الأدب ، باب ما جاء في الفصاحة والبيان ، برقم (٢٨٥٥)] .

أَطْوَلَ فِيهَا ، فَاسْمَعُ بَكَاءَ الصَّبِيِّ فَاتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةً أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمِّهِ « (١) .

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أَنَّ رجلاً قَالَ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنِّي لَأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلَانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا ، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْهُ يَوْمئِذٍ ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ مِنْكُمْ مُنْفَرِّينَ ، فَأَيُّكُمْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ » (٢) .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَنْجَشَةَ (٣) كَانَ يَحْدُو بِالنِّسَاءِ ، وَكَانَ حَسَنَ الصَّوْتِ ، وَالْإِبِلُ تَسْرَعُ إِذَا سَمِعَتْ الْحُدَاءَ (٤) ، فَيَشُقُّ ذَلِكَ عَلَى النِّسَاءِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَا أَنْجَشَةُ ! رُوَيْدَكَ سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ » (٥) (٦) .

وَقَدْ بَرَّاهُ اللَّهُ مِنَ الْحَقْدِ ، وَمِنْ أَنْ يَضْمُرَ لِأَحَدٍ سُوءًا .

رُوي عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : « لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئًا ، فَإِنِّي

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة ، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي ، [برقم (٧٠٧) ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب تخفيف الصلاة . برقم (٧٨٩) ، وابن ماجه في أبواب إقامة الصلوات ، باب : مَنْ أَمَّ قَوْمًا فليخفف ، برقم (٩٨٤)] .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأذان ، باب : تخفيف الإمام القراءة ، [برقم (٧٠٢) ، ومسلم في كتاب الصلاة ، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام ، برقم (٤٦٦) ، وابن ماجه في أبواب إقامة الصلوات ، باب : مَنْ أَمَّ قَوْمًا فليخفف ، برقم (٩٨٤)] .

(٣) [هو غلام أسود كان حادياً ، وكان حسن الصوت بالحداء ، يكتئى أبا مارية] .

(٤) [الحداء : سوق الإبل بضرب مخصوص من الغناء ، ويكون بالرجز غالباً] .

(٥) [أراد بالقوارير : النساء ، شَبَّهَنَّ بها من الزجاج ، لأنه يسرع إليها الكسر ، وهو من المجاز] .

(٦) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » [في باب المزاح ، برقم (٢٦٤) وأخرجه في الصحيح في كتاب الأدب ، باب ما يجوز من الشعر والرجز . . . برقم (٦١٤٩) ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب رحمة النبي ﷺ للنساء . . . برقم (٢٣٢٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه] .

أَحَبُّ أَنْ أُخْرَجَ إِلَيْكُمْ ، وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ ^(١) .

وكانَ لَهُمْ أَبَا رَحِيماً ، وَأَصْبَحَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ لَهُ عِيالاً ، يَحْنُو عَلَيْهِمْ حَنَوُ
الْمُرْضِعَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ ، لَا شَأْنَ لَهُ بِمَا مَتَّعَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ مَالٍ ، وَوَسَّعَ لَهُمْ فِي
الرِّزْقِ .

أَمَّا دُيُونُهُمْ ، وَمَا يُثْقَلُ كَوَاهِلَهُمْ ، فَكَانَ يَسْتَقِلُّ بِهِ ، وَيَقُولُ : « مَنْ تَرَكَ
مَالاً فَلِوَرَثَتِهِ ، وَمَنْ تَرَكَ كَلَالاً فَلِإِنَا » ^(٢) .

وَفِي رَوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ : « مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،
اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ أَلَتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ ،
وَتَرَكَ مَالاً فَلِيرِثُهُ عَصْبَتُهُ مِنْ كَانُوا ، وَمَنْ تَرَكَ دِيناً أَوْ ضَيَاعاً ، فَلِيَّاتِ
مَوْلَاهُ » ^(٣) .

اعتدالُ الفطرة وسلامةُ الذوق :

وَقَدْ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي أَتَمِّ خَلْقٍ وَخُلِقَ ، وَإِلَيْهِ الْمُنتَهَى - عِبَرُ الْقُرُونِ وَالْأَجْيَالِ -
فِي اعْتِدَالِ الْفِطْرَةِ ، وَسَلَامَةِ الذَّوْقِ ، وَرَقَّةِ الشُّعُورِ ، وَالسَّدَادِ ، وَالْاِقْتِصَادِ ،
وَالْبَعْدِ عَنِ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ ، تَقُولُ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : « مَا خَيْرَ
رَسُولٍ لِلَّهِ ﷺ فِي أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا ، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْماً ، فَإِنْ كَانَ

(١) كتاب الشفاء : ص ٥٥ ، أخرجه عن طريق أبي داود [وأخرجه في سننه في كتاب الأدب ،
باب في رفع الحديث من المجلس ، برقم (٤٨٦٠) ، والترمذي في أبواب المناقب ، باب
فضل أزواج النبي ﷺ ، برقم (٣٨٩٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما] .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاستقراض ، باب : الصلاة على من ترك ديناً ، [برقم
(٢٢٩٨) ، وأبو داود في كتاب الفرائض ، باب في ميراث ذوي الأرحام ، برقم (٢٨٩٩)
و(٢٩٠٠) ، وابن ماجه في أبواب الصدقات ، باب : من ترك ديناً أو ضياعاً فعلى الله
ورسوله ، برقم (٢٤١٦)] .

(٣) [قد سبق تخريجه في الحديث السابق] .

إثماً ، كان أبعد الناس منه »^(١) .

وكان أبعد الناس عن التكلف ، والمُغَالاة في الزهد ، وحرمان النفس حقوقها .

رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الدِّينَ يَسْرٌ ، وَلَنْ يَشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا ، وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ »^(٢) »^(٣) .

وَقَالَ : « مَهْ ! عَلَيْكُمْ بِمَا تَطِيقُونَ ، فَوَاللَّهِ مَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا » .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ أَيُّ الْأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ ؟ قَالَ : « الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ »^(٤) »^(٥) .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ »^(٦) .

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب : الدين يسرٌ ، برقم (٣٥٦٠) ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب مباحثته ﷺ للأثام ، برقم (٢٣٢٧) ، وأبو داود في كتاب الأدب ، باب في التجاوز في الأمر ، برقم (٤٧٨٥)] .

(٢) [الدَّلْجَةُ ، بالضم والفتح : هو سير الليل] .

(٣) أخرجه البخاري [في كتاب الإيمان ، باب : الدين يسرٌ برقم (٣٩) ، والنسائي في كتاب الإيمان ، باب الدين يسرٌ ، برقم (٥٠٣٧)] .

(٤) [الحنيفية السمحة : هي ملة إبراهيم عليه السلام ، ومعنى السمحة : السهلة] .

(٥) [أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » باب حسن الخلق ، برقم (٢٨٧) ، وأحمد في المسند (٢٣٦/١) والحديث حسنٌ لغيره] .

(٦) المتنطعون : المتشددون المتعمقون ، أخرجه مسلم [في كتاب العلم ، باب : هلك المتنطعون ، برقم (٢٦٧٠) ، وأبو داود في كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ، برقم (٤٦٠٨)] .

وقال لبعض من بعثهم للدعوة والتعليم : « يَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا »^(١) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ »^(٢) .

في منزله ومع أهله وعياله :

وكان في منزله بشراً من البشر ، كما تقول عائشة - رضي الله عنها - :
« كَانَ يُفْلِي ثوبَهُ ، وَيَحْلِبُ شَاتَهُ ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ » .

وقالت : « كَانَ يَرَقَعُ الثَّوبَ ، وَيَخْصِفُ النَّعْلَ » .

ونحو هذا قيل لعائشة - رضي الله عنها - : ما كان رسول الله ﷺ يصنع في أهله ؟ قالت : « كَانَ فِي مَهْنَةِ أَهْلِهِ فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ ، خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ »^(٣) .

وفي رواية : « كَانَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ ، كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ »^(٤) .

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ، باب : ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب ... ، برقم (٣٠٣٨) ، ومسلم في كتاب الجهاد ، باب في الأمر بالتيسير وترك التفسير ، برقم (١٧٣٣) ، وأبو داود في كتاب الأدب ، باب في كراهة المراء ، برقم (٤٨٣٥) وغيرهم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه] .

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب الأدب ، باب : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ » ، [برقم (٢٨١٩) ، والحديث حسن] .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة ، باب « مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَهْلِهِ » [برقم (٦٧٦)] و(٥٣٦٢) و(٦٠٣٩)] .

(٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١١/٢٦٠) برقم (٢٠٤٩٢) .

وقالت عائشة : « كَانَ أَلَيْنَ النَّاسِ ، وَأَكْرَمَ النَّاسِ ، وَكَانَ ضَحَّاكاً بَسَّاماً »^(١) .

وعن أنس - رضي الله عنه - قَالَ : « مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ »^(٢) .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي »^(٣) .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قَالَ : « مَا عَابَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَعَاماً قَطُّ ، إِنْ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ ، وَإِنْ كَرِهَهُ تَرَكَهُ »^(٤) .

تقديمُ الأقربين في المخاوفِ والمغارمِ وتأخيرُهم في الرخاءِ والمغانمِ :

وكانَ شِعَارُهُ الدائمُ في أهل بيته وِعِيَالِهِ ، وَأَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ تَقْدِيمُهُمْ فِي الْمَخَافِ وَالْمَغَارِمِ ، وتأخيرُهم في الرخاءِ والمغانمِ .

طَلَبَ عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بْنُ عَتَبَةَ - وَهُمْ كَانُوا مِنْ أَبْطَالِ الْعَرَبِ الْمَرْمُوقِينَ - مِنْ يُبَارِزُهُمْ مِنْ قَرِيشٍ ، وَمِمَّنْ فَارَقَ دِينَهُمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، وَهَاجَرَ مِنْهَا ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَعْرَفِ النَّاسِ بِمَكَانَتِهِمْ وَبِعَنَائِهِمْ فِي

(١) أخرجه ابن عساكر [في تاريخ دمشق (٣/٣٨٣)] .

(٢) أخرجه مسلم [في كتاب الفضائل ، باب رحمته ﷺ للصبيان والعيال ... ، برقم (٢٣١٦)] .

(٣) [أخرجه الترمذي في أبواب المناقب ، باب فضل أزواج النبي ﷺ ، برقم (٣٨٩٥) ، وابن ماجه في أبواب النكاح ، باب حُسن معاشرَةِ النساء ، برقم (١٩٧٧)] .

(٤) متفق عليه ؛ أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة ، باب : ما عَابَ النَّبِيُّ ﷺ طَعَاماً ، برقم (٣٥٦٣) ، ومسلم في كتاب اللباس والزينة ، باب : لا يَغِيبُ الطَّعَامُ ، برقم (٢٠٦٤) ، وأبو داود كتاب الأطعمة ، باب في كراهية ذمِّ الطَّعَامِ ، برقم (٣٧٦٣) ، والترمذي في أبواب البر والصلة ، باب : ما جاء في ترك العيب للنعمة ، برقم (٢٠٣١)] .

الحرب ، وكان في قريش من ينهضُ لذلك من الأبطالِ والفُرسانِ ، فلم يَزِدْ أنْ قالَ : « قُمْ يا حمزة ! قُمْ يا علي ! قُمْ يا عبيدة ! » وهم من أقربِ الناسِ إليه رَحِمًا ودماً ، وأحبَّهم إليه ، ولم يؤثرْ أحداً عليهم ، ضناً بحياتهم وإبقاءً عليهم ، وكان من صنع الله تعالى أنْ كَتَبَ لهم الغلبةَ والانتصارَ على منافسيهم ، ورجعَ حمزة وعليٌّ سالمينِ مظفرَّينِ ، وحملَ عبيدةُ جريحاً^(١) .

ولمَّا أرادَ أنْ يُحرِّمَ الربَّا ، ويهدرَ دمَ الجاهليةِ القديمةِ ، بدأَ بعمِّه العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ ، وابنِ أخٍ لَهُ من بني هاشمٍ ، ربيعةَ بنِ الحارثِ بنِ عبدِ المطلبِ . فقالَ في خطبتهِ في حَجَّةِ الوداعِ : « وربِّا الجاهليةِ موضوعٌ ، وأوَّلُ ربا أضعُ من ربانا : ربا العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ ، ودماءُ الجاهليةِ موضوعةٌ ، وإنَّ أولَ دمٍ أضعُ من دمائنا دمَ ربيعةَ بنِ الحارثِ »^(٢) .

أمَّا في الرِّخاءِ وعندَ المغانمِ ، فكانَ دائماً يؤخِّرهم ، ويؤثرُ عليهم غيرهم - خلافاً للملوكِ والقادةِ والزعماءِ - يقولُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ - رضيَ الله عنه - : إنَّ فاطمةَ - عليها السلامُ - اشتكتَ ما تلقى من الرِّحَى ممَّا تطحنُ ، فبلغها أنَّ رسولَ الله ﷺ أتى بسبي ، فأتتهُ تسألهُ خادماً ، فلم تُوافقه ، فذكرتْ لعائشةَ ، فجاءَ النَّبيُّ ﷺ فذكرتْ عائشةُ لَهُ ، فأتانا ، وقد دخلنا مضاجعنا ، فذهبنا لنقومَ ، فقالَ : « على مكانكما » ، حتَّى وجدتُ بردَ قدميهِ على صدري ، فقالَ : « ألا أدلكما على خيرٍ ممَّا سألتُماني ، إذا أخذتما مضاجعكما فكَبِّرَا اللهَ أربعاً وثلاثينَ ، واخمدَا ثلاثاً وثلاثينَ ، وسَبِّحَا ثلاثاً وثلاثينَ ، فإنَّ ذلكَ خيرٌ لكما ممَّا سألتُماه »^(٣) .

(١) انظر تخريجه في غزوة بدر في الفصل الخامس ، ص ٣٠٩ .

(٢) خرَّجنا هذا الحديث عن جابر عبد الله رضي الله عنهما في الفصل الخامس في حجة النبي ﷺ ، انظر صفحة (٥٢١) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ، باب « الدليل على أن الخمس لنواب رسول الله ﷺ » =

وفي رواية في هذه القصّة أنّه ﷺ قال : « والله لا أُعْطِيكُمْ وأدْعُ أهل الصُّفّة تَطَوَّى بَطُونُهُمْ مِنَ الجَوْع ، لا أَجِدُ ما أَنْفَقُ عَلَيْهِمْ ، ولكنْ أبيعُهُمْ ، وأنْفَقُ عَلَيْهِمْ أَثْمَانَهُمْ »^(١) .

رقة الشعور الإنساني ونبيل العاطفة :

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَعْبَاءِ النُّبُوَّةِ والدَّعْوَةِ ، وَهُمْ الْإِنْسَانِيَّةُ والأَحْزَانِ والأَثْقَالُ التي لا تَحْمِلُهَا الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ قَدْ تَجَلَّى فِيهِ الشُّعُورُ الْإِنْسَانِي الرَّقِيقُ ، والعاطفةُ الْإِنْسَانِيَّةُ النَّبِيلَةُ ، فِي أَجْمَلِ مَظَاهِرِهَا ، فَمَعَ صَرَامَتِهِ وَقُوَّةَ عَزِيمَتِهِ التي يَمْتَارُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ ، والتي كَانَتْ لَا تَقِيمُ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ وإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ ، وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ لشيءٍ قِيَمَةٌ أَوْ زِنًا ، لَمْ يَنْسَ أَصْحَابُهُ الْأَوْفِيَاءَ الَّذِينَ لَبَّوْا دَعْوَتَهُ ، وَبَذَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَهْجَهُمْ وَأَرْوَاحَهُمْ ، وَاسْتَشْهَدُوا فِي مَعْرَكَةِ أُحُدٍ إِلَى آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ حَيَاتِهِ ، فَكَانَ يَذْكُرُهُمْ ، وَيَدْعُو لَهُمْ ، وَيُزَوِّرُهُمْ ، وَسَرَى هَذَا الْحُبُّ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي قَامَتْ فِيهِ هَذِهِ الْمَعْرَكَةُ ، وَالْجَبَلِ الَّذِي شَاهَدَهَا ، وَالْبَلَدِ الَّذِي احْتَضَنَهُ ، فَرَوَى عَنْهُ الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أَنَّهُ قَالَ : « هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنَحِبُّهُ »^(٢) .

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَلَعَ لَهُ أُحُدٌ ،

= [برقم (٥٣٦١) ، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء ، باب التسبيح أول النهار وعند النوم ، برقم (٢٧٢٧) ، وأبو داود في كتاب الأدب ، باب في التسبيح عند النوم ، برقم (٥٠٦٢)] .

(١) أخرجه أحمد [في المسند (١٠٦/١)] وانظر « فتح الباري » (٢٣/٧ - ٢٤) .

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب : أحد يحبنا ، برقم (٣٣٦٧) ، ومسلم في كتاب الحج ، باب فضل أحد ، برقم (١٣٩٢) و(١٣٩٣)] والترمذي في أبواب المناقب ، باب ما جاء في فضل المدينة ، برقم (٣٩٢٢) وغيرهم] .

فَقَالَ : « هَذَا جَبَلٌ يَحِبُّنَا وَنَحِبُّهُ » ^(١) .

وعن أَبِي حُمَيْدٍ قَالَ : « أَقْبَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ حَتَّى إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ ، قَالَ : « هَذِهِ طَابَةُ ، وَهَذَا جَبَلٌ يَحِبُّنَا وَنَحِبُّهُ » ^(٢) .

وعن عُقْبَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا ، فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ ^(٣) .

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابُ أُحُدٍ : « أَمَّا وَاللَّهِ ، لَوَدِدْتُ أَنَّنِي غَوِزْتُ مَعَ أَصْحَابِ بَنُحَصٍّ ^(٤) الْجَبَلِ » ^(٥) .

وَقَدْ احْتَمَلَ شَهَادَةَ عَمِّهِ وَأَخِيهِ فِي الرِّضَاعَةِ ، وَالَّذِي غَضِبَ لَهُ ، وَدَافَعَ عَنْهُ بِمَكَّةَ ، وَاسْتَشْهَدَ فِي مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ، وَمُثِّلَ بِهِ تَمْثِيلًا لَمْ يُمَثَّلُ بِأَحَدٍ مِنَ الْقَتْلَى ، فَاحْتَمَلَ كُلَّ ذَلِكَ فِي صَبْرِ أُولَى الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا دَخَلَ الْمَدِينَةَ رَاجِعًا مِنْ أُحُدٍ ، وَمَرَّ بِدَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ ، فَسَمِعَ الْبُكَاءَ ، وَنَوَائِحَ عَلَى قَتْلَاهُمْ ، فَحَرَكَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ الشُّعُورَ الْإِنْسَانِيَّ النَّبِيلَ ، فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، ثُمَّ قَالَ : « لَكِنَّ حَمْزَةَ لَا بَوَاكِيَ لَهُ » ^(٦) .

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير ، باب فضل الخدمة في الغزو ، برقم (٢٨٨٩) ، ومسلم في كتاب الحج ، باب فضل المدينة . . . ، برقم (١٣٦٥) ، والترمذي في أبواب المناقب ، باب ما جاء في فضل المدينة ، برقم (٣٩٢٢) ، وأحمد في المسند (٣٨٧/٢) برقم (٩٠١٣) وغيرهم] .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب قصة تبوك ، برقم (٤٤٢٢) ، ومسلم في كتاب الحج ، باب فضل أحد ، برقم (١٣٩٢)] .

(٣) انظر تخريجه في الفصل الرابع في أحاديث وفاة النبي ﷺ ، ص (٥٢٨) حاشية رقم (١)] .

(٤) بنحس الجبل : أي سفح الجبل .

(٥) تفرد به أحمد [وأخرجه في المسند (٣٧٥/٣)] ، ابن كثير ج ٣ ، ص ٨٩ .

(٦) ابن كثير : ج ٣ ، ص ٩٥ [وأخرجه ابن ماجه في أبواب الجنائز ، باب ما جاء في البكاء =

ولكنَّ هذا الشعورَ الإنسانيَّ النبيلَ لم يستطعْ أن يقهرَ الشعورَ بمسؤوليَّةِ النبوةِ والدعوةِ والوقوفِ عندِ حدودِ اللهِ ، فقد روى أصحابُ السَّيرِ أنَّه لَمَّا رجعَ سعدُ بنُ معاذٍ وأُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ - رضي اللهُ عنهما - إلى دارِ بني عبدِ الأشهلِ أمرَ نساءَهم أنْ يحتزِمْنَ ، ثمَّ يذهبنَ ، ويبكينَ على عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ ففعلنَ ، ولَمَّا سمعَ رسولُ اللهِ ﷺ بكاءَهن على حمزة ، خرجَ عليهنَّ ، وهنَّ في بابِ المسجدِ يبكينَ ، فقالَ : « ارجعنَ يرحمَنَّ اللهُ ، فقد آسئتُنَّ بأنفسِكُنَّ » .

وروي أنَّه قالَ : « ما هذا ؟ » فأخبرَ بما فعلتِ الأنصارُ بنسائهم ، فاستغفرَ لهم ، وقالَ لهمْ خيراً ، وقالَ : ما هذا أردتُ ، وما أحبُّ البكاءَ » ونهى عنه^(١) .

وأدقُّ من هذهِ المواقفِ كُلِّها موقفُ وقفه مع وحشيٍّ ، قاتلِ أسدِ اللهِ وأسدِ رسولِهِ حمزة - رضي اللهُ عنه - فلَمَّا فتحَ اللهُ للمسلمينَ مكةَ ، ضاقتْ عليه المذاهبُ ، وفكَّرَ في اللُحوقِ بالشَّامِ واليمنِ وبيعضِ البلادِ ، وأظلمتْ عليه الدُّنيا ، فقيلَ له : ويحكُ إنَّه رسولُ اللهِ ﷺ ما يقتلُ أحداً من النَّاسِ دخلَ في دينهِ ، فتشهدَ شهادةَ الحقِّ ، وقدمَ على رسولِ اللهِ ﷺ فقبلَ منه الإسلامَ ، ولم يفزعه ، وسمعَ منه قصةَ قتلِ حمزة ، فلَمَّا فرغَ من حديثِهِ تحرَّكَ فيه ذلكَ الشعورُ الإنسانيُّ الرقيقُ ، من غيرِ أن يُزاحِمَ طبيعةَ منصبِ النبوةِ الرفيعِ ، فيرفضَ إسلامه أو يثورَ فيه الغضبُ ، فيقتلهُ شفاءً للنفسِ ، ولم يزدْ أن قالَ : « وَيَحْكُ غَيْبٌ عني وجهك ، فلا أريناك » ، قالَ وحشيٌّ : وكنتُ أتنكبُ^(٢) رسولَ اللهِ ﷺ لئلاَّ يراني ، حتَّى قبضَهُ اللهُ ﷻ^(٣) .

= على الميت ، برقم (١٥٩١) ، وأحمد في المسند (٤٠/٢) و(٨٤/٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما [وقال ابن كثير : « وهذا على شرط مسلم » .

(١) ابن كثير : ج ٣ ، ص ٩٦ .

(٢) [أتنكبُ : أي أتنحى وأعرضُ عنه] .

(٣) ابن هشام : ج ٢ ، ص ٧٢ ، وروى البخاري هذه القصة في كتاب المغازي ، باب قتل =

وفي رواية البخاري : فلمَّا رآني قال : « أنت وحشي ؟ » .

قلتُ : نعم .

قال : « أنت قتلت حمزة ؟ »

قلتُ : قد كان من الأمر ما بلغك .

قال : « فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني ؟ »^(١) .

ومن مظاهر هذا الشعور الإنساني الرقيق ، والعاطفة النبيلة أنه ﷺ انتهى إلى رسم قبر فجلس ، وأدركته الرقة ، فبكى ، وقال : « هذا قبر آمنه بنت وهب » ، وذلك حين مضت على وفاتها مدة طويلة^(٢) .

كرمه وحلمه :

وقد كان رسول الله ﷺ إمام الخلق أجمعين ، ومعلمهم في حسن الخلق وكرم النفس ، والتواضع ، لقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] ، وقد قال ﷺ : « أدبني ربي فأحسن تأديبي »^(٣) .

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الله بعثني لتمام مكارم

= حمزة رضي الله عنه [برقم (٤٠٧٢) ، وأحمد في المسند (٥٠١/٣) ، وابن حبان في الصحيح برقم (٧٠١٣) وغيرهم] .

(١) [انظر تخريج الحديث السابق] .

(٢) أخرجه البيهقي عن طريق سفيان الثوري مطولاً ، راجع ابن كثير ، ج ١ ، ص ٢٣٦ [وأخرجه ابن أبي شيبة بمعناه في المصنف (٢٩/٣) برقم (١١٨٠٨) من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه] .

(٣) [حديث ضعيف ؛ أخرجه السيوطي في « الجامع الصغير » برقم (٣١٠) ، وعزاه لابن السمعاني في « أدب الإملاء » عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وقال المناوي في « فيض القدير » (٢٢٥/١) : معناه صحيح لكنه لم يأت من طريق صحيح ، وذكره ابن الجوزي في « الواحيات »] .

الأخلاق ، وكمال محاسن الأفعال «^(١) .

وَسُئِلَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عَنْ خُلُقِهِ ، فَقَالَتْ : « كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ »^(٢) .

وكان في العفو والحلم ورحابة الصدر وقوة الاحتمال ، حيث لا يبلغه ذكاء الأذكياء ، وخيال الشعراء ، ولو لم يرو عن طريق لا يتطرق إليه شك ، ولا ترتقي إليه شبهة ، لما قبلته أذهان الناس ، ولكن روي بإسناد صحيح متصل ، ونقل عادل عن عادل ، وتواتر ، واستفاض ذلك ، فكان أثبت من التاريخ الأمين ، ونحن هنا نكتفي بقليل مما روي في هذا الباب .

فمن كرمه ﷺ وعفوه عن أشد أعدائه ، وإحسانه إليه أنه « أتى عبد الله بن أبي^(٣) - رأس المنافقين - بعد ما أدخل حفرته ، فأمر به رسول الله ﷺ فأخرج ، فوضعه على ركبته ، ونفث فيه من ريقه ، وألبسه قميصه »^(٤) .

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : « كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدُ نَجْرَانِي ، غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي ، فجبذه بردائه جبذة شديدة ، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من

(١) أخرجه البغوي في « مصابيح السنة » ، [في كتاب الفضائل والشماثل ، باب فضائل سيد المرسلين صلوات الله عليه ، برقم (٤٤٩٠) وأخرجه بإسناده في « شرح السنة » كتاب الفضائل ، باب فضائل سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ ، (٢٠٢/١٣) ، برقم (٣٦٢٢) و(٣٦٢٣)] .

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه [في كتاب صلاة المسافرين ، باب جامع صلاة الليل ، برقم (٧٤٦) ، وأحمد في المسند (٩١/٦ - ١٦٣ - ٢١٦)] .

(٣) وهلك سنة تسع في ذي القعدة بعد الانصراف من تبوك ، (الزرقاني : ج ٣ ، ص ١١٢-١١٣) .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، [باب هل يُخرج الميت من القبر واللحد لعلّه ؟ برقم (١٣٥٠) ملخصاً ، ومسلم في صفات المنافقين ، أول الكتاب ، برقم (٢٧٧٣)] .

شدّة جَبَذَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ ، فَالْتَفَتُ إِلَيْهِ ، فَضَحِكَ ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ ^(١) .

وجاءَ زيدُ بنُ سَعْنَةَ قبلَ إسلامِهِ يتقاضاهُ ديناً عليه ، فجبَذَ ثوبَهُ عَنْ مَنْكِبِهِ ، وَأَخَذَ بِمَجَامِعِ ثوبِهِ ، وَأَغْلَظَ لَهُ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّكُمْ بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ مَطْلٌ ، فَانْتَهَرَهُ عَمْرٌ ، وَشَدَّدَ لَهُ فِي الْقَوْلِ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَبْتَسِمُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَنَا وَهُوَ كُنَّا إِلَى غَيْرِ هَذَا أَحْوَجَ مِنْكَ يَا عَمْرُ ! تَأْمُرُنِي بِحُسْنِ الْقَضَاءِ ، وَتَأْمُرُهُ بِحُسْنِ التَّقَاضِي » ، ثُمَّ قَالَ : « لَقَدْ بَقِيَ مِنْ أَجَلِهِ ثَلَاثٌ » ، وَأَمَرَ عَمْرَ أَنْ يَقْضِيَهُ مَالَهُ ، وَيَزِيدَهُ عَشْرِينَ صَاعاً لَمَّا رَوَّعَهُ ، فَكَانَ سَبَبَ إِسْلَامِهِ ^(٢) .

يقول أنسٌ - رضيَ اللهُ عنه - : إِنَّ ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَبُطُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ جَبَلٍ « التَّنْعِيمِ » مُتَسَلِّحِينَ ، يَرِيدُونَ غِرَّةَ النَّبِيِّ ^(٣) ، فَأَخَذَهُمْ سِلَاحاً ^(٤) ، فَاسْتَحْيَاهُمْ ^(٥) .

وعَنْ جَابِرٍ - رضيَ اللهُ عنه - قَالَ : غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَزْوَةَ نَجْدٍ ، فَأَدْرَكْتُهُ الْقَائِلَةُ ، وَهُوَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاءِ ^(٦) ، فَنَزَلَ تَحْتَ سَمُرَةٍ ^(٧) ، وَاسْتَظَلَّ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ، باب : ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفَةَ قلوبهم [برقم (٥٨٠٩) ، ومسلم في كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفَةَ ... ، برقم (١٠٥٧)] وأحمد في المسند (١٥٣/٣) باختلاف في اللفظ .

(٢) [أخرجه البيهقي مفضلاً ، وابن حبان برقم (٢١٠٥) ، والحاكم (٣٧/٢) برقم (٢٢٣٧) ، وقال : حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه] .

(٣) الغرة : الغفلة .

(٤) السلم : الأسر .

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب قول الله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ [برقم (١٠٨٨)] .

(٦) [العضاء : هو كلُّ شجرٍ عظيمٍ له شوْكٌ ، الواحدة عِصَاهُ] .

(٧) [السَّمُرَةُ : ضربٌ من شجرِ الطلح] .

بها ، وعلّق سيفه ، ففرّق الناس في الشجر يستظلّون ، وبينما نحن كذلك ، إذ دعانا رسول الله ﷺ فجئنا ، فإذا أعرابي قاعد بين يديه ، فقال : « إنّ هذا أتاني وأنا نائم ، فاخترط عليّ سيفي ، فاستيقظت ، وهو في يده قائم على رأسي مخترط صلتاً ، قال : مَنْ يمنعك مني ؟ قلت : الله ! فشامه^(١) ، ثم قعد ، فهاهو ذا جالس » ، قال : ولم يعاقبه رسول الله ﷺ^(٢) .

وقد كان حلمه يسع ما لا يسعه حلم الصحابة - وهم أصحاب حلم وأناة - وكان في كلّ ذلك معلماً رفيقاً ، ومُصلحاً رحيماً .

من ذلك ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال : بال أعرابي في المسجد فقام الناس إليه ليقعوا فيه ، فقال النبي ﷺ : « دعوه ، وأريقوا على بوله سجلاً من الماء ، أو ذنوباً من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين »^(٣) .

وعن معاوية بن الحَكَم قال : بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم ، فقلت : يرحمك الله ! فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت : واثكل أمياه ! ما شأنكم تنظرون إليّ ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم يصمّتونني لكنني سكت ، فلما صلى النبي ﷺ فبأبي هو وأمي ، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ، فوالله ما نهرني ، ولا ضربني ، ولا شتمني ، فقال : « إنّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ،

(١) أي رده إلى غمده ، وقيل : هو بمعنى سله ونظر إليه (مجمع بحار الأنوار ، ج ٣) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب : غزوة بني المصطلق [برقم (٢٩١٠) ، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين ، باب صلاة الخوف ، برقم (٨٤٣)] .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء [باب صب الماء على البول في المسجد ، برقم (٢٢٠) ، والترمذي في أبواب الطهارة ، باب ما جاء في البول يصب الأرض ، برقم (١٤٧) ، والنسائي في كتاب الطهارة ، باب ترك التوقيت في الماء ، برقم (٥٦)] .

إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ^(١) .

ويقول أنس بن مالك - رضي الله عنه - : « كَانَ النَّبِيُّ ﷺ رَحِيمًا ، وَكَانَ لَا يَأْتِيهِ أَحَدٌ إِلَّا وَعَدَهُ ، وَأَنْجَزَ لَهُ ، إِنْ كَانَ عِنْدَهُ ، وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ ، وَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَقَالَ : إِنَّمَا بَقِيَ مِنْ حَاجَتِي يَسِيرَةٌ ، وَأَخَافُ أَنْ أَنْسَاهَا ، فَقَامَ مَعَهُ ، حَتَّى فَرَغَ مِنْ حَاجَتِهِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ فَصَلَّى » .

وَمِنْ أَمْثَلَةِ قُوَّةِ احْتِمَالِهِ ، وَسِعَةِ صَدْرِهِ ، وَعِظَمِ صَبْرِهِ ، مَا شَهِدَ بِهِ خَادِمُهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ - رضي الله عنه - وَقَدْ كَانَ حَدِيثَ السَّنِّ ، قَالَ : خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي : أَفٍّ وَلَا لِمَ صَنَعْتُ ، وَلَا أَلَا صَنَعْتُ!^(٢) .

وَرَوَى سَوَادُ بْنُ عَمْرٍ ، قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا مُتَخَلِّقٌ ، فَقَالَ : « وَرَسٌ وَرَسٌ ، حُطَّ حُطٌّ » ، وَغَشِيَنِي بِقُضْبٍ فِي يَدِهِ بِيْطْنِي ، فَأَوْجَعَنِي ، فَقُلْتُ : الْقِصَاصُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَكَشَفَ لِي عَنْ بَطْنِهِ ، فَأَبَيْتُ الْقِصَاصَ^(٣) .

الحفاظ على أصالة الدين والغيرة على روحه وتعاليمه :

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَفِيقِهِ وَلِيْنٍ كَنَفِهِ وَقُوَّةِ احْتِمَالِهِ وَتَغَاضِيهِ عَنْ سَقَطَاتِ النَّاسِ وَزَلَّاتِهِمْ - عَلَى حَدِّ لَا يُتَصَوَّرُ فَوْقَهُ - شَدِيدَ الْحِفَاطِ عَلَى أَصَالَةِ

(١) أخرجه مسلم [في كتاب المساجد] ، باب تحريم الكلام في الصلاة ، [برقم (٥٣٧)] ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب تشميت العاطس في الصلاة ، برقم (٩٣٠) ، والنسائي في كتاب السهو ، باب : الكلام في الصلاة ، برقم (١٢١٩) .

(٢) [أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب حُسن الخلق والسخاء ، برقم (٦٠٣٨)] ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب حسن خلقه ﷺ ، برقم (٢٣٠٩) ، وأبو داود في كتاب الأدب ، باب في الحلم وأخلاقه النبي ﷺ ، برقم (٤٧٧٣) ، والترمذي في أبواب البر والصلة ، باب ما جاء في خلق النبي ﷺ ، برقم (٢٠١٥) .

(٣) كتاب الشفاء [الباب الثاني ، الفصل السابع ، ج ١ / ص ٤٤٤] ، طبع مكتبة الفارابي ، بدمشق ، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف (٥٠ / ٤٥) برقم (١٧٦٧٧) .

الدين ، شديد الغيرة على روحه وتعاليمه وعلى عقيدة التوحيد ، شديد الحذر مما يعرضُ أُمَّتَهُ لخطر التورُّط في الأوهام والمغالاة ، وتقديس الأشخاص ، والعودة إلى الجاهليَّة ، لا تأخذه في ذلك هَوَادَةٌ ، ولا تمنعه من الإنكار عليه مصالحُ قياديَّة أو اعتباراتُ سياسيَّة ، وكان في ذلك يختلفُ عن قادة الجماعات والزعماء السياسيين اختلافًا واضحاً .

وَمِنْ أَوْضَحِ أمثلته ما وَقَعَ عِنْدَ وفاةِ ابنه سيِّدنا إبراهيم^(١) ، فَقَدْ كُسِفَتِ الشَّمْسُ يَوْمَ موْتِهِ ، فَقَالَ النَّاسُ : كُسِفَتِ الشَّمْسُ لِمَوْتِ إبراهيم ، فخطبَ رسولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا اللَّهَ وَكَبِّرُوا ، وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا »^(٢) .

ولو كان مكانَ رسولِ اللَّهِ ﷺ في هذه المناسبةِ الحزينةِ العاطفيةِ أيُّ داعٍ مِنَ الدعاةِ أو زعيمٍ مِنَ الزعماءِ ، أو قائدٍ دعوةٍ وحركةٍ وجماعةٍ كانَ أَقْلَ مواقفه من هذا التعليقِ أو التفسيرِ للحادثِ السكوتُ ، لأنَّه كان في صالحِ دعوتِهِ وحركتِهِ ، ولأنَّه يُضفي على شخصِهِ وأسرَتِهِ ما يستطيعُ أَنْ يستعينَ بِهِ في بَسْطِ نُقُودِهِ على قُلُوبِ النَّاسِ وعُقُولِهِمْ ، وتقويةِ ثقتهم بِهِ ، وإعجابهم لَهُ ، وذلك شيءٌ يَتِمَّنَاهُ قادةُ الشعوبِ والجماعاتِ ، ومنشئُو الدُّوَلِ والحكوماتِ ، ويعملونَ لَهُ أَلْفَ حيلةٍ ، وَقَدْ هَيَّا اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الْغَيْبِ ، فلا عليه إنْ سَكَتَ .

ولكنَّهُ ﷺ لَمْ يَحْتَمِلْ سَمَاعَ هذا الكلامِ ، وَلَمْ يَسْكُتْ عَلَيْهِ لدقيقَةٍ ، بَلْ بَادَرَ إِلَى إِزَالَةِ هذا الوهمِ الذي يَجُرُّ إِلَى إفسادِ العقيدةِ ، وربطِ الحوادثِ الكونيَّةِ ، وسننِ اللَّهِ تعالى في خلقِهِ بما يَقَعُ لأفرادِ البشرِ ، ولو كانوا مِنَ الأنبياءِ

(١) كان ذلك في العام العاشر من الهجرة ، وكان ابن سنة ونصف .

(٢) حديث متفق عليه . [انظر تخريجه في الفصل الخامس ، ص ٥٥٥] .

أو أولادِهِمْ وأفرادِ أسرهم من ولادةٍ وموتٍ وصحّةٍ ومرضٍ ، وذلك مدخلٌ قديمٌ ، دخلَ منه الشُّركُ وتقديسُ العبادِ في الأممِ السابقةِ ، فنفى هذا الأسلوبَ من التفكيرِ الجاهليِّ ، وأوضح الحقيقةَ ، وشرعَ لذلكَ صلاةً مخصوصةً - هي صلاةُ الخسوفِ - لتوثيقِ الصلةِ باللهِ تعالى وعبادتهِ واقتلاعِ هذهِ الجرثومةِ الجاهليّةِ من النفوسِ والعقولِ .

وكذلكَ لم يَسعُه السكوتُ حينَ قالَ رجلٌ : ما شاءَ اللهُ وشئتَ ، فقالَ ﷺ : « أجعلتني لله نداءً » ، وقالَ رجلٌ - وهو يخطبُ - : « من يُطعِ اللهُ ورسولُهُ فقدَ رشدَ ومن يعصِهما فقدَ غوى » ، فقالَ : « بئسَ خطيبُ القومِ أنتَ » (١) .

وفي هذهِ المواقفِ يتجلى « الموقفُ النبويُّ » وما يمتازُ بهِ الأنبياءُ عنِ القادةِ والزعماءِ وعظماءِ البشرِ ، من تجرّدٍ عنِ الأنانيّةِ ، واستغلالِ الحوادثِ وضعفِ العقولِ في صالحهم ، والسماحِ للمدحِ والإطراءِ (٢) ، ولو تخطّى الحدودَ ، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ إمامَ الأنبياءِ في ذلكَ والأسوةَ الكاملةَ ، وقد قالَ : « لا تُطروني كما أطرتِ النصرانيُّ ابنَ مريمَ ، فإنما أنا عبدهُ ، فقولوا : عبدُ اللهِ ورسولُهُ » (٣) .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة ، برقم (٨٧٠) ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب الرجل يخطب على قومه ، برقم (١٠٩٩) ، والنسائي في كتاب النكاح ، باب ما يكره من الخطبة ، برقم (٣٢٨١) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه [.

(٢) [الإطراء : مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه] .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ ، برقم (٣٤٤٥) ، والترمذي في « الشماثل » باب تواضع رسول الله ﷺ ، برقم (٣٢٨) ، والدارمي في كتاب الرقاق ، باب قول النبي ﷺ : « لا تطروني » برقم [(٢٦٨٢)] .

تواضعه ﷺ :

أَمَّا تَوَاضُعُهُ ﷺ فَقَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ فِيهِ ، فَلَمْ يَكُنْ يُحِبُّ التَّمْيِيزَ فِي شَيْءٍ ، وَلَا أَنْ يَقُومَ لَهُ النَّاسَ ، وَأَنْ يُبَالِغُوا فِي مَدْحِهِ ، فَيُطْرُوهُ ، كَمَا أَطْرَتِ الْأُمَمُ السَّابِقَةُ أَنْبِيََاءَهَا ، أَوْ أَنْ يَرْفَعُوهُ مِنْ مَنْزِلَةِ الْعِبُودِيَّةِ وَالرَّسَالَةِ .

قَالَ أَنَسٌ : لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكُنَّا إِذَا رَأَيْنَاهُ لَمْ نَقُمْ لَهُ لِمَا نَعْلَمُ مِنْ كِرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ ^(١) .

وَقِيلَ لَهُ : يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ ! فَقَالَ : « ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - » ^(٢) .

وَرُوي عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، فَقُولُوا : عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ » ^(٣) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَسْتَنكِفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الْعَبْدِ ، وَلَا مَعَ الْأَرْمَلَةِ ، حَتَّى يَفْرَغَ لَهُمْ مِنْ حَاجَتِهِمْ ^(٤) .

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ : كَانَتْ الْأَمَّةُ مِنْ إِمَاءِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ ^(٥) .

(١) [أخرجه الترمذي في أبواب الأدب ، باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل ، برقم (٢٧٥٤)] وأحمد في المسند (١٣٢/٣) .

(٢) [أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب من فضل إبراهيم الخليل ﷺ ، برقم (٢٣٦٩) ، وأبو داود في كتاب السنة ، باب في التخيير بين الأنبياء عليهم السلام ، برقم (٤٦٧٢) ، والترمذي في أبواب تفسير القرآن ، برقم (٣٣٥٢) ، وأحمد (١٧٨/٣)] .

(٣) [قد سبق تخريجه قبل قليل] .

(٤) أخرجه البيهقي [في « دلائل النبوة » (٣٢٩/١) ، والحاكم في المستدرک (٦١٤/٢)] وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

(٥) [أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب الكبير ، برقم (٦٠٧٢)] أخرجه أحمد في =

وَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ الطَّائِي ، دَعَاهُ إِلَى مَنْزِلِهِ فَأَلَقَتْ إِلَيْهِ الْجَارِيَةُ
وَسَادَةً يَجْلِسُ عَلَيْهَا ، فَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدِيِّ ، وَجَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ .

قال عدِيّ : فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَلِكٍ ^(١) .

وعن أنسٍ - رضيَ اللهُ عنه - قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُودُ الْمَرِيضَ ،
وَيَشْهَدُ الْجَنَازَةَ ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْعَبْدِ ^(٢) .

وعن جابرٍ - رضيَ اللهُ عنه - قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَلَّفُ فِي الْمَسِيرِ
فِيَزْجِي ^(٣) الضَّعِيفَ وَيَدْعُو لَهُ ^(٤) .

وعن أنسٍ - رضيَ اللهُ عنه - أَنَّهُ كَانَ ﷺ يُدْعَى إِلَى خَبْرِ الشَّعِيرِ وَالْإِهَالَةِ ^(٥)
السِّنَخَةِ ^(٦) ، فَيُجِيبُ ^(٧) .

= المسند ، (٣/ ١٩٨ - ٢١٥) ، وجمع الفوائد ، ج ٢ ، كتاب المناقب ، باب صفاته وأخلاقه
ﷺ .

(١) زاد المعاد : ج ١ ، ص ٤٣ .

(٢) أخرجه الترمذي في « الشماثل » باب : تواضع النبي ﷺ ، [برقم (٣٢٨) ، وأخرجه في
جامعه في أبواب الجنائز ، باب آخر في سنة عيادة المريض وشهود الجنابة ، برقم
(١٠١٧) ، وابن ماجه في أبواب الزهد ، باب البراءة من الكبر والتواضع ، برقم
(٤١٧٨) ، والحديث ضعيف فيه مسلم الأعور ، قال الدارقطني في علله (١٦٢/٢) :
ضعيف] .

(٣) [أي يسوقه ليلحقه بالرِّفاق] .

(٤) ذكره المنذري في « الترغيب والترهيب » . [وأخرجه أبو داود في كتاب الجهاد ، باب
لزوم الساقة ، برقم (٢٦٣٩)] .

(٥) الإهالة : كل شيء من الأدهان مما يؤتدم به .

(٦) السنخة : المتغيرة الريح .

(٧) أخرجه الترمذي في الشماثل ، في باب « تواضع النبي ﷺ » [برقم (٣٢٨) ، وأخرجه في
جامعه في أبواب الجنائز ، باب في سنة عيادة المريض وشهود الجنابة ، برقم (١٠١٧) ،
وأحمد في المسند (٣/ ١٣٣ - ٢٠٨)] .

وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ » (١) .

ويقول عبدُ الله بنُ عمرو بنِ العاصِ : « دخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ فَأَلْقَيْتُ لَهُ وَسَادَةً مِنْ أَدَمٍ حَشُوهَا لَيْفٌ ، فَجَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ ، وَصَارَتِ الْوَسَادَةُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ » (٢) .

وَكَانَ ﷺ يَقُمُ (٣) الْبَيْتُ ، وَيَعْقِلُ الْبَعِيرَ ، وَيَعْلِفُ نَاضِحَهُ (٤) ، وَيَأْكُلُ مَعَ الْخَادِمِ ، وَيَعِجُنُ مَعَهَا ، وَيَحْمِلُ بَضَاعَتَهُ مِنَ السُّوقِ (٥) .

شجاعته وحيأؤه :

وَقَدْ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الْحَيَاءِ وَالشَّجَاعَةِ ، وَقَدْ اعْتَبَرَهُمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ الْأَضْدَادِ .

أَمَّا الْحَيَاءُ فَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ كَانَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعِذْرَاءِ فِي خَدْرِهَا ، وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ (٦) ، وَكَانَ

(١) كتاب الشفاء : ص ١٠١ .

(٢) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » [باب من ألقى له وسادة ، برقم (١١٧٦)] وأخرجه في الصحيح في كتاب الاستئذان ، باب : مَنْ أَلْقَى لَهُ وَسَادَةً ، برقم (٦٢٧٧) ، ومسلم في كتاب الصيام ، باب النهي عن صوم الدهر . . . ، برقم (٢٧٤١)] .

(٣) يَقُمُ : أَي يَنْظِفُ .

(٤) [النَّاضِحُ : الْبَعِيرُ أَوْ الثَّورُ أَوْ الْحِمَارُ الَّذِي يُسْتَقَى عَلَيْهِ الْمَاءُ (لِسَانُ الْعَرَبِ ، مَادَّةُ : نَضَحَ)] .

(٥) كتاب الشفاء : [القسم الأول ، الباب الثاني (ج ١ / ص ٢٦٦)] .

(٦) [أخرجه البخاري في كتاب المناقب ، باب صفة النبي ﷺ برقم (٣٥٦٢) ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب كثرة حياته ﷺ ، برقم (٢٣٢٠) ، وابن ماجه في أبواب الزهد ، باب الحياء ، برقم (٤١٨٠) ، والترمذي في « الشماثل » في باب حياء رسول الله ﷺ ، برقم (٣٥٦)] .

يمنعُ الحياءُ عن أن يواجهَ أحداً بما يكرهُهُ ، فيكلُ ذلك إلى غيره .

روى أنسٌ - رضيَ اللهُ عنه - أنه كانَ عندهُ ﷺ رجلٌ لَهُ أُنْثَى صُفْرَةٌ ^(١) ، فكانَ ﷺ لا يكادُ يُواجهُ ! أحداً بشيءٍ يكرهُهُ ، فلَمَّا قامَ ، قالَ للقومِ : « لو قُلْتُمُ له : يَدْعُ هذه الصُّفْرَةَ » ^(٢) .

وعن عائشة - رضيَ اللهُ عنها - قالتُ : كانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا بلغَهُ عن أحدٍ ما يكرهُهُ ، لم يقلْ ما بالُ فلانٍ يقولُ كذلك ، ولكن يقولُ : « ما بالُ أقوامٍ يصنعونَ أو يقولونَ كذا » ينهى عنه ، ولا يسمِّي فاعِلَهُ ^(٣) .

أمَّا الشَّجَاعَةُ ، فناهيكَ بشهادةِ عليٍّ فارسِ الفرسانِ ، وفتى الفتیان ، قالَ - رضيَ اللهُ عنه - : إِنَّا كُنَّا إذا اشتدَّ البأسُ ، واحمرَّتِ الحدقُ ، اتقينا رسولَ اللهِ ﷺ فما يكونُ أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه ، ولقد رأيتُني يومَ بدرٍ ، ونحنُ نلوذُ بالنَّبِيِّ ﷺ وهو أقربُنا إلى العدوِّ ^(٤) .

يقولُ أنسٌ - رضيَ اللهُ عنه - : كانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ الناسِ ، وأجودَ الناسِ ، وأشجعَ الناسِ ، ولقد فرغَ أهلُ المدينةِ ذاتَ ليلةٍ ، فانطلقَ الناسُ قبلَ الصَّوْتِ ، فاستقبلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ قد سبقَ الناسَ إلى الصَّوْتِ ، وهو يقولُ : « لَنْ تُراعوا لَنْ تُراعوا » ، وهو على فرسٍ لأبي طلحةَ عريٍّ ، ما عليه سرجٌ ، وفي

(١) [الصفرة : بقية صفرة من الزعفران] .

(٢) أخرجه الترمذي في الشماثل ، باب « خلق رسول الله ﷺ » [برقم (٣٣٩) ، وأبو داود في كتاب الترجل ، باب في الخلق للرجال ، برقم (٤١٨٢) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » برقم (٢٣٦)] .

(٣) [أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب مَنْ لم يواجه الناسَ بالعتاب ، برقم (٦١٠١) ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب علمه بالله تعالى وشدة خشيته ، برقم (٢٣٥٦)] .

(٤) كتاب الشفاء : (ج ١ / ص ٢٣٧) ، وأخرجه أحمد في المسند (٨٦ / ١)] .

عنه السيف ، فقال : « لقد وَجَدْتُهُ بحراً ، أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ »^(١) .

وقد ثَبَتَ في معركةٍ أُحُدٍ ، ويوم حُنَيْنٍ ، حينَ انكشفَ عنه الشجعانُ ،
وَحَلَا الميدانُ ، وهو ثابتٌ على بَغْلَتِهِ ، كأنَّ لم يكنْ شيءٌ ، ويقولُ : [من
مجزوء الرجز]

أنا النبيُّ لا كذب أنا ابنُ عبدِ المطلب

رأفةٌ عامةٌ ورحمةٌ واسعة :

وكانَ مع شجاعتهِ هذه : رقيقَ القلبِ ، سريعَ الدمعةِ ، يرقُّ للضعفاءِ ،
ويرحمُ الحيواناتِ والدوابَّ ، ويوصي بالرفقِ بها .

يروى عنه شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ ، فيقولُ : قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ
الإحسانَ على كُلِّ شيءٍ ، فإذا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وإذا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا
الذَّبْحَةَ ، وَلِيُحَدِّثْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلِيُرِخَ ذَبِيحَتَهُ »^(٢) .

ورَوَى عن ابنِ عباسٍ - رضيَ اللَّهُ عنهما - أَنَّ رجلاً أَضْجَعَ شاةً وهو يَحْدُ
شَفْرَتَهُ ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَيْنِ ؟ هَلَّا حَدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ
أَنْ تُضْجِعَهَا »^(٣) ؟ .

وقَدْ أوصى أصحابُهُ بالإحسانِ في علفِ الدابةِ وسقيها ، وعدمِ إرهاقها

(١) [قد سبق تخريجه في غزوة حنين في الفصل الرابع] .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الذبائح ، باب الأمر بإحسان الذبح ، [برقم (١٩٥٥) ،
وأبو داود في كتاب الضحايا ، باب في النهي أن تصبر البهائم والرفق بالذبيحة ، برقم
(٢٨١٤) ، والنسائي في كتاب الضحايا ، باب الأمر بإحداذ الشفرة ، برقم (٤٤١٠) ، وابن
ماجه في أبواب الذبائح ، باب : إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، برقم (٣١٧٠)] .

(٣) [أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٢٣١/٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٣/٤) :
رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح] .

وتكليفها ما لا تُطيق ، وعدم اتخاذها غرضاً .

ونوّة بما في إزالة الكُرْبَةِ عن الحيوانات وإراحَتهم من الأجرِ والثوابِ والقربِ عند الله .

رُوي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : « بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ اشتدَّ عليه العطشُ ، فوجدَ بئراً فنزلَ فيها ، ثم خرجَ ، فإذا كلبٌ يلهثُ يأكلُ الثرى من العطشِ ، فقالَ الرجلُ : لقد بلغَ هذا الكلبُ من العطشِ مثلُ الذي كانَ بلغَ مني ، فنزلَ البئرَ فملأَ خفَّهُ ماءً ، ثم أمسكهُ بفيه حتّى رقي ، فسقى الكلبَ ، فشكرَ الله له ، فغفرَ له » .

قالوا : يا رسولَ الله ! وإنَّ لنا في البهائمِ أجراً ؟

فقالَ : « في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ »^(١) .

وعن عبدِ الله بنِ عمرَ - رضي الله عنهما - قالَ : قالَ رسولُ الله ﷺ : « عذِّبَت امرأةٌ في هرّةٍ لم تُطعمِها ، ولم تسقيها ، ولم تتركها تأكلُ من خشاشِ^(٢) الأرضِ »^(٣) .

وعن سهلِ بنِ عمرو (وقيل سهل بن الربيع بن عمرو) قالَ : مرَّ رسولُ الله ﷺ ببعيرٍ قد لحقَ ظهرُهُ ببطنه ، فقالَ : « اتَّقُوا اللهَ في هذه البهائمِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب المساقاة ، باب : فضل سقي الماء ، [برقم (٢٣٦٣)] ، ومسلم في كتاب السلام ، باب : فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها ، برقم (٢٢٤٤) ، وأبو داود في كتاب الجهاد ، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم ، برقم [(٢٥٥٠)] .

(٢) هي هوام الأرض وحشراتهما ، ذكره النووي .

(٣) [أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب : إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ... برقم (٣٣١٨)] ، ومسلم في كتاب السلام ، باب تحريم قتل الهرة ، برقم [(٢٢٤٢)] .

المُعْجَمَةُ ! فاركبوها صالحةً وكلوها صالحةً» (١) .

وعن عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - قال : دخل رسول الله ﷺ حائطاً لرجل من الأنصار ، فإذا فيه جملٌ ، فلما رأى رسول الله ﷺ حنَّ وذرفت عيناه ، فأتاه النبي ﷺ فمسحَ سratه (٢) ، وذفراه ، فسكن ، فقال : « مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟ » فجاء فتى من الأنصار ، فقال : هذا لي يا رسول الله ، قال : « أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا ؟ فَإِنَّهُ يَشْكُو إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْبُهُ » (٣) (٤) .

وروى أبو هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا سافَرْتُمْ فِي الْخَصْبِ ؛ أَعْطُوا الْإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الْأَرْضِ ، وَإِذَا سافَرْتُمْ بِالْجَدَبِ ، فَأَسْرِعُوا عَلَيْهَا السَّيْرَ ، وَبَادِرُوا بِهَا نَقِيَهَا ، وَإِذَا عَرَّسْتُمْ فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ ، فَإِنَّهَا طَرِيقُ الدَّوَابِّ وَمَأْوَى الْهُوَامِ بِاللَّيْلِ » (٥) .

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : كنَّا مع رسول الله ﷺ فِي سَفَرٍ ، فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ ، فَأَيْنَا حُمْرَةً مَعَهَا فَرَخَانِ ، فَأَخَذْنَا فَرَخِيهَا ، فَجَعَلَتْ تُعَرَّشُ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : « مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بَوْلِدَهَا ، رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا » .

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد ، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم ، [برقم (٢٥٤٨)] .

(٢) سratه : أي سنامه .

(٣) [تدبُّه : أي تكذُّه وتُتعبه (من : دأَبَ يَذأِبُ ، وَأَذأَبَ يُذْأِبُ)] .

(٤) أخرجه أبو داود [في كتاب الجهاد] ، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم ، [برقم (٢٥٤٩)] ، وأحمد في المسند (٢٠٥/١) .

(٥) أخرجه مسلم [في كتاب الإمارة] ، باب مراعاة مصلحة الدواب في السير . . . ، [برقم (١٩٢٦)] ، وأبو داود في كتاب الجهاد ، باب في سرعة السير والنهي عن التعريس في الطريق ، برقم (٢٥٦٩) ، والترمذي في أبواب الأدب ، باب مراعاة الإبل في الخصب والسنة في السفر ، برقم (٢٨٥٨) ، وغيرهم .

ورَأَى قريةَ نَمْلِ قَدْ حَرَقْنَاهَا ، قَالَ : « مِنْ حَرَقَ هَذِهِ ؟ » فَقُلْنَا : نَحْنُ ، قَالَ : « إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَعَذَّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ »^(١) .

هذا فَضْلاً عَمَّا أَوْصَاهُ لِلخَادِمِ والأَجِيرِ ، وهما بَشَرٌ مِنَ البَشَرِ ، ولَهُمَا فَضْلٌ عَلَى السَّيِّدِ والمستأَجِرِ ، فَقَدْ أَوْصَى ﷺ بِالخَدَمِ والعبيدِ خيراً .

روى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُوصِي بِالمَمْلُوكِينَ خيراً ، وَيَقُولُ : « أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِنْ لِبَاسِكُمْ ، وَلَا تَعَذِّبُوا خَلْقَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوَلَكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيْهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، وَلَا تَكْلَفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ »^(٢) .

وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! كَمْ أَعْفُو عَنْ الخَادِمِ كُلِّ يَوْمٍ ؟ قَالَ : « سَبْعِينَ مَرَّةً »^(٣) .

وعَنْ ابْنِ عَمْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أُعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ »^(٤) .

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد ، باب في كراهية حرق العدو ، [برقم (٢٦٧٥) ، وأحمد في المسند (٤٠٤/١)] .

(٢) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » ص (٣٠) ، [وأخرجه في صحيحه في كتاب الأدب ، باب ما يُنْهَى مِنَ السَّبَابِ واللَّعْنِ ، برقم (٦٠٥٠) ، ومسلم في كتاب الأيمان ، باب إطعام المملوك مما يأكل ، ... برقم (١٦٦١) ، والترمذي في أبواب البر والصلة ، باب ما جاء في الإحسان إلى الخادم ، برقم (١٩٤٥) من حديث المعرور بن سويد رضي الله عنه] .

(٣) [أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ، باب في حق المملوك ، برقم (٥١٦٤) ، والترمذي في أبواب البر والصلة ، باب ما جاء في العفو ، عن الخادم ، برقم (١٩٤٩) ، وأحمد في المسند (٩٠/٢)] .

(٤) أخرجه ابن ماجه في أبواب الرهون ، باب : أجر الأجراء [برقم (٢٤٤٣)] .

أسوة كاملة وقدوة عامة :

وَنَخْتِمُ هَذَا الْفَصْلَ بِقِطْعَةٍ جَمِيلَةٍ نَقَبَسُهَا مِنْ كِتَابِ « الرِّسَالَةِ الْمَحْمَدِيَّةِ »^(١) لِمُؤَلِّفِ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّهِيرِ ، أَسْتَاذِنَا الْعَلَامَةُ سَلِيمَانُ النَّدَوِي^(٢) ، ذَكَرَ فِيهَا كَيْفَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَسْوَةً لِّجَمِيعِ طَبَقَاتِ الْبَشَرِ ، وَيَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ قَدْوَةً لِّجَمِيعِ أَفْرَادِ بَنِي آدَمَ ، عَلَى اخْتِلَافِ صَنَائِعِهِمْ وَمِهَنِهِمْ وَظُرُوفِهِمْ وَبَيِّنَاتِهِمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، يَقُولُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

« لَقَدْ مَثَلْتُ حَيَاةَ النَّبِيِّ ﷺ أَعْمَالًا كَثِيرَةً مُتَنَوِّعَةً ، بَحِثْتُ تَكُونُ فِيهَا الْأَسْوَةُ الصَّالِحَةُ ، وَالْمَنْهَجُ الْأَعْلَى ، لِلْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي جَمِيعِ أَطْوَارِهَا ؛ لِأَنَّهَا جَمَعَتْ بَيْنَ الْأَخْلَاقِ الْعَالِيَةِ وَالْعَادَاتِ الْحَسَنَةِ ، وَالْعَوَاطِفِ النَّبِيلَةِ الْمَعْتَدِلَةِ ، وَالنَّوَازِعِ الْعَظِيمَةِ الْقَوِيْمَةِ .

إِذَا كُنْتَ غَنِيًّا مُثْرِيًّا ، فَاقْتَدِ بِالرَّسُولِ ﷺ عِنْدَمَا كَانَ تَاجِرًا يَسِيرُ بِسَلْعِهِ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ ، وَحِينَ مَلَكَ خَزَائِنَ الْبَحْرَيْنِ .

وَإِنْ كُنْتَ فَقِيرًا مُعْدِمًا فَلْتَكُنْ لَكَ أَسْوَةٌ بِهِ وَهُوَ مُحْصُورٌ فِي شَعْبِ

(١) [هو من أقوى الكتب في السيرة النبوية ، وأروعها في جمال التعبير ، وبثَّ حلاوة الإيمان ، وتوثيق الصلة بذات النبي ﷺ ، وهو عصارَةُ لمكتبة كاملة في السيرة ، وهو هدية ثمينة لغير المسلمين والمثقفين المسلمين ، والباحثين عن الحق للتعريف بالإسلام ، ولعرض سيرة النبي ﷺ بإيجاز ، وأسلوبٍ مقنع مؤثِّر - (العلامة المؤلف في كتابه « شخصيات وكتب » ص ٥٦) وقد طُبِعَ الْكِتَابُ بِعَنَانِيَّتِنَا فِي دَارِ ابْنِ كَثِيرٍ بِدَمَشَقِ عَامِ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م] .

(٢) [توفي رحمه الله - بمدينة كراتشي عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٢م) ، ومن يريد الاستزادة والاطلاع على شخصيته العبقريّة ومكانته العلمية وآثاره التأليفية فليرجع إلى كتاب « السيد سليمان الندوي : أمير علماء الهند في عصره ، وشيخ الندويين » تأليف الدكتور محمد أكرم الندوي ، طبع دار القلم بدمشق] .

أبي طالب ، وحينَ قدَمَ إلى المدينة مهاجِراً إليها من وطنِهِ ، وهو لا يحملُ من حطامِ الدُّنيا شيئاً .

وإنْ كُنْتَ مَلِكاً فاقتدِ بسُنَّهِ وأعمالِهِ حينَ ملكَ أمرَ العربِ ، وغلبَ على آفاقِهِمْ ، ودانَ لطاعتهِ عظماءُهم وذووا أحلامِهِمْ .

وإنْ كُنْتَ رعيةً ضعيفاً ، فلكَ في رسولِ اللهِ ﷺ أسوةٌ حسنةٌ أيامَ كانَ محكوماً بمكةَ في نظامِ المشركينَ .

وإنْ كُنْتَ فاتِحاً غالباً ، فلكَ في حياتِهِ نصيبُ أيامِ ظفرِهِ بعدوِّهِ في بدرٍ وُحُنينٍ ومكةَ .

وإنْ كُنْتَ مُنْهَزِماً - لا قَدَّرَ اللهُ ذلكَ - فاعتبرْ بِهِ في يومِ أُحُدٍ وهو بينَ أصحابِهِ القَتلى ورفقائِهِ المُتَخَنِّينَ بالجراحِ .

وإنْ كُنْتَ معلِّماً ، فانظرْ إليه وهو يعلمُ أصحابَهُ في صحنِ المسجدِ .

وإنْ كُنْتَ تلميذاً متعلِّماً ، فتصوِّرْ مقعدهُ بينَ يدي الروحِ الأمينِ جاثياً مسترشداً .

وإنْ كُنْتَ واعظاً ناصحاً ومُرشِداً أميناً ، فاستمعْ إليه وهو يعظُ الناسَ على أَعوادِ المسجدِ النبويِّ .

وإنْ أَرَدْتَ أَنْ تُقِيمَ الحقَّ وتصدِّعَ بالمعروفِ ، وَأَنْتَ لا ناصرَ لكَ ولا معينَ ، فانظرْ إليه وهو ضعيفٌ بمكةَ ، لا ناصرَ ينصرُهُ ، ولا معينَ يعينه ، ومعَ ذلكَ فهو يدعو إلى الحقِّ ويُعلنُ بِهِ .

وإنْ هَزَمْتَ عدوَّكَ وخضدْتَ شوكتَهُ ، وقهرتَ عنادَهُ ، فظهرَ الحقُّ على يدِكَ ، وزهقَ الباطلُ ، واستتبَّ الأمرُ ، فانظرْ إلى النَّبِيِّ ﷺ يومَ دخلَ مكةَ ، وفتحها .

وإن أردت أن تصلح أمورك ، وتقوم على ضياعك ، فانظر إليه ﷺ وقد ملك ضياع بني النضير وخيبر ، وفدك ، كيف دبر أمورها ، وأصلح شؤونها ، وفوضها إلى من أحسن القيام عليها .

وإن كنت يتيماً ، فانظر إلى فلذة كبد آمنة وزوجها عبد الله ، وقد توفيا وابنهما صغيراً رضيعاً .

وإن كنت صغير السن ، فانظر إلى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته الحنون حليلة السعدية .

وإن كنت شاباً فاقراً سيرة راعي مكة .

وإن كنت تاجراً مسافراً بالبضائع ، فلاحظ شؤون سيد القافلة التي قصدت « بصرى » .

وإن كنت قاضياً أو حكماً فانظر إلى الحكم الذي قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الأسود في محله ، وقد كاد رؤساء مكة يقتتلون ، ثم أرجع البصر إليه مرة أخرى ، وهو في فناء مسجد المدينة يقضي بين الناس بالعدل ، يستوي عنده منهم الفقير المعدم ، والغني المثرى .

وإن كنت زوجاً فاقراً السيرة الطاهرة ، والحياة الزهية لزوج خديجة وعائشة .

وإن كنت أباً أولاد ، فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء ، وجد الحسن والحسين رضي الله عنهما .

وأياً من كنت ، وفي أي شأن كان شأنك ، فإنك مهما أصبحت أو أمسيت ، وعلى أي حال بتت أو أضحيت ، فلك في حياة محمد ﷺ هداية حسنة ، وقدوة صالحة تضيء لك بنورها دياجى الحياة ، وينجلي لك بضوئها

ظلامُ العيشِ ، فتصلحُ ما اضطربَ من أمورِكَ ، وتُثَقِّفُ بهديهِ أودكَ ، وتقومُ بسننهِ عوجَكَ .

وإنَّ السيرةَ الطيبةَ الجامعةَ لشتَّى الأمورِ هي ملاكُ الأخلاقِ ، وجماعُ التعاليمِ ، لشعوبِ الأرضِ ، وللناسِ كافةً ، في أطوارِ الحياةِ كُلِّها ، وأحوالِ الناسِ على اختلافِها وتنوعِها ، فالسيرةُ المحمديةُ نورٌ للمستنيرِ ، وهدىها نبراسٌ للمستهدي ، وإرشادُها ملجأٌ لكلِّ مسترشِدٍ^(١) .

(١) الرسالة المحمدية : المحاضرة الخامسة : « السيرة المحمدية من ناحيتها الجامعة » ص(١١٧-١١٨) طبع دار ابن كثير بدمشق .

الفصل السابع

فَضْلُ الْبَعْثَةِ الْمَحْمُودَةِ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ وَمَنْحُهَا الْعَالَمِيَّةَ الْخَالِدَةَ

أ - فضل البعثة المحمدية على الإنسانية :

- إعلان فريد في تاريخ الرسالات والديانات
- قيمة الرحمة التي اقترنت بالبعثة المحمدية
- البعثة المحمدية أنقذت النوعَ البشريَّ من الشقاء
- مهمة النبوة ودورها في الإنقاذ والإسعاد

ب - العالم الجديد في حساب البعثة المحمدية ومنحها :

- منح البعثة المحمدية
- عقيدة التوحيد النقية الواضحة
- مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية
- إعلان كرامة الإنسان وسموه
- محاربة اليأس والتشاؤم وبعث الأمل والرجاء
- الجمع بين الدين والدنيا
- تعيين الأهداف والغايات وميادين العمل والكفاح

* ولادة عالم جديد وإنسان جديد

فَضْلُ الْبَعْثِ الْمَحْمُودِيِّ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ وَمِنْهَا الْعَالَمِيَّةُ الْخَالِدَةُ ^(١)

أ - فضل البعثة المحمدية على الإنسانية

١ - إعلان فريد في تاريخ الرسالات والديانات :

قَالَ اللهُ تَعَالَى مُخَاطِباً لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، هذا إعلان فريد من نوعه ، جاء في كتاب خالدٍ قَدَّرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ أَنْ يُتْلَى فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ ، وَيَبْلُغُ عَدَدُ قُرَائِهِ مِائَتَيْنِ الْمِائَتَيْنِ ، وَقَالَ عَنْهُ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

إِنَّ سَعَةَ هَذَا الْإِعْلَانِ ، وَإِطَارَهُ الْكَبِيرَ ، وَمَسَاحَتَهُ بِحَسَابِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ، تَجْعَلَانِ هَذَا الْإِعْلَانُ خَارِقاً لِلْعَادَةِ ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَمُرَّ بِهِ الْإِنْسَانُ

(١) محاضرة ألقاها المؤلف في ٢٠ ربيع الآخر ١٣٩٥ هـ (٢/٥/١٩٧٥م) في قاعة المحاضرات الكبرى بمدينة كهنؤ - الهند ، حضرها جمٌ غفيرٌ من المثقفين من جميع طبقات الشعب ، من المسلمين وغير المسلمين ، نقلها إلى العربية الأستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامي » وتناولها المحاضر بالتنقيح والتهذيب وشيء من الحذف والزيادة ، ولما كانت هذه المحاضرة وثيقة الصلة بالسيرة النبوية ، وفضلها على الإنسانية والمدنية ، جعلها المؤلف الفصل الأخير لهذا الكتاب .

الواعي مُروراً عابراً سريعاً ، فإنَّ مساحته الزمنية تحوي جميع الأجيال ، والأدوار التاريخية التي تتلو البعثة المحمدية ، ومساحته المكانية تسع العالم كله ، فإنَّ الله سبحانه وتعالى لم يقل : إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ رَحْمَةً لِّجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، أو للشرق أو الغرب أو لقارةٍ مثل آسيا مثلاً ، بل إِنَّهُ قَالَ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

الحقُّ أنَّ سعة هذا الإعلانِ وشموله ، وعظمته وسموه ، واستمراره وخلوده ، كلُّ ذلك يقتضي أن يقفَ عنده مؤرِّخو العالم وفلاسفته ، ونوابغهُ وأذكياءهُ حيارى مشدوهين ، بل يقفُ أمامهُ الفكرُ الإنسانيُّ كله حائراً مشدوهاً ، وينقطعُ إليه كلياً - ردةً من الزمان - يبحثُ في مدى صدقِ هذا الإعلانِ ، أو صحة هذا الواقعِ ، لأننا لم نجد في تاريخ الأديان والنحل ، وفي تاريخ الحضارات والفلسفات وتاريخ الحركات الإصلاحية والمحاولات الثورية ، بل في تاريخ العالم كله ، وفي المكتبة الإنسانية بأسرها مثل هذا الإعلانِ المحيط بالكون كله ، والأجيال البشرية كلها ، والأدوار التاريخية بأجمعها ، حول أيِّ شخصيّة من شخصيّات العالم ، حتّى إنَّ خلاصة تعاليم الأنبياء السابقين ، ونبذة من أحوالهم وسيرتهم التي وصلت إلينا هي أيضاً مجردة عن مثل هذا الإعلانِ .

أمّا اليهوديّة - وهي ديانة قديمة مشهورة - فإنّها تنظرُ إلى الله كربّ بني إسرائيل ، وإله بني إسرائيل في الغالب . إنَّ صحفَ العهد القديم ، والكتب المقدسة الدينية عند اليهود تخلو عن ذكرِ الله كربّ العالمين ، وربّ الكون بتاتاً ، ولذلك فالبحثُ في سيرة نبيٍّ من أنبيائهم ، مثل موسى وهارون ، أو داود وسليمان ، عن مثل هذا الإعلانِ ، عبثٌ وإضاعة وقتٍ ، فإنَّ هذه الديانة لم تكن - في أيِّ مرحلة من مراحلها - رسالة رحمة ومساواة للجيل الإنسانيّ

كلُّه من غير تمييزٍ عنصريٍّ ولم تشجّع فيها الدعوة إلى هذه الديانة خارج شعب إسرائيل أبداً^(١).

أما المَسيحيَّةُ التي عُرِفَتْ بتسامُحِها وحماسِها للدعوة ، وعطفِها على الإنسانية ، فقد جاء في الإنجيلِ تصرُّيحٌ - والعهدُ على الكتاب - بأنَّ المسيحَ صرَّحَ بأنَّه لم يبعثْ إلا ليرعى خرافَ بني إسرائيل الضالة^(٢) ، وحين لُفِتَ نظره إلى بعضِ المرضى الذين لم تكنْ لهم صلَّةٌ رحمٍ ونسبٍ ببني إسرائيل اعتذر وقال : « إنِّي لستُ ذلكَ الرجلَ الذي يُعطي خبزَ الأولادِ للكلابِ »^(٣).

أما الدِّيناناتُ الشرقيَّةُ والآسيويَّةُ الأخرى ، وخاصةً الهندوكيَّةُ ، فإنَّها لا تختلفُ كثيراً عن النموذجِ السابقِ ، بل إنَّها تسبقُ الدياناتِ السابقةَ أحياناً في تقدِّيسِ النسبِ والسلالةِ ، وتوزيعِ النَّاسِ في طبقاتٍ توزيعاً ظالماً جائراً ، لا يعرفُ اللينَ والمرونةَ .

فقد كانَ المنبوذونَ في المجتمعِ الهنديِّ محرومينَ من كلِّ نوعٍ من التَّكريمِ والشرفِ والمساواةِ ، ومن أولى حقوقِ الإنسانِ ، وأبسطِ مبادئِ الإنسانيَّةِ ، لا يجوزُ لهم تحصيلُ العلمِ ، والتعلُّيمِ ، والتدريسِ ، والتطلُّعُ إلى الهضبةِ الروحيةِ .

فقد خُصَّ دراسةُ « ويدا » وتقديمُ القرابينِ ، والنذرُ لآلهتهم وأوثانهم بالبراهمة فحسب^(٤) ، وكانَ النظرُ في كتبِ « ويدا » ودراسَتُها مقصوراً على

(١) انظر للتوسع والتفصيل في هذا الموضوع كتاب المهتدية الأمريكية الفاضلة مريم جميلة :

(Islam Versus Ahl-El-Kitab, Past & Present 22-23).

(٢) إنجيل متى : باب ١٥ ، آية ٢٤ ، وباب ١٠ ، آية ٦-٧ .

(٣) متى : باب ١٥ - آية ٢٦ .

(٤) منوشاستر : الباب الأول - ٨٨ .

فئة الشترى والويش^(١) ، وقد صرَّح « منوشاستر » أنَّ المنبوذين لم يخلقهم الله إلا لغرض واحد ، وهو خدمة الطبقات الثلاث التي مضى ذكرها^(٢) .

إنَّ أهل الهند القدامى لم يكونوا يعرفون وراء جبال « هملايا » دنيا ، لا صلة لهم بالعالم الخارجي ، وبالشعوب الأخرى ، ولا رغبة لهم في الإطلاع عليها ، لذلك فإنَّ البحث عن مثل هذا الإعلان عن نبيٍّ أو وليٍّ أو مصلح فيهم عبث وإضاعة جهد ووقت .

الحقيقة أنَّ البحث عن نبيٍّ يكون رحمةً للعالمين في ديانة لا تحمل عقيدة « ربِّ العالمين » غير معقول وغير منطقي .

٢ - قيمة الرحمة التي اقترنت بالبعثة المحمدية كما وكيفاً :

إنَّ لتقدير شيء ، ووضعه في محله المناسب ومكانه اللائق مقياسين بصورة عامة :

الأوَّل : مقداره وحجمه الذي يعبرُّ عنه في المصطلح الحديث بالكمية

(Quantity) .

والثاني : جوهره ووصفه الذي يقال له الكيفية (Quality) .

وهذا الإعلان الذي نادى به القرآن يشمل هذين النوعين ، ويجمع بين الناحيتين ، فإنَّ بعثته ﷺ وشخصه العظيم ، وتعاليمه السامية الخالدة أفاضت على الإنسانية مسحة جديدة من الحياة والنشاط ، وكانت السبب المباشر في شفائها من أسقامها وعلاقتها ، وفي حلِّ معضلاتها ، ونهاية آلامها وأحزانها ، وهطول أمطار الرحمة والبركة ، واليمن والسعادة ، والخير

(١) منوشاستر : الباب الأول - آية ٨٩ - ٩٠ .

(٢) المصدر السابق : الباب الأول - ٩١ .

والفلاح على أرضها المجدية القاحلة ، وكانت هذه المعطيات المحمدية الغالية منقطعة النظر بحساب السعة والوفرة ، والحجم والكمية (Quantity) وبحساب النفع والإفادة والجوهر والكيفية (Quality) أيضاً .

(الرحمة) لفظٌ شاع استعمالُهُ في حياتنا اليومية ، وهو يطلقُ على كلِّ شيءٍ ينالُ به الإنسانُ نفعاً وراحةً ، أمّا أنواعُ الرحمةِ وأقسامُها ، ودرجاتُها ومدارجُها ، فلا حصرَ لها ، يقدمُ أحدنا الماءَ الباردَ إلى أخيه العطشانِ ، ويدلُّ المسافرَ والغريبَ على الطريقِ ، ويحرِّكُ له المروحةَ في يومٍ صائفٍ شديدِ الحرِّ ، الأمُّ تحنو على طفلها ، الأبُّ يربِّي ولدهُ ويعلمُهُ ، ويزوِّدهُ بحاجياتِ الحياةِ ، المدرِّسُ يدرِّسُ تلاميذهُ ، ويمنحُهم ما عندهُ من نعمةِ العلمِ ، وهكذا إطعامُ الجائعِ المسكينِ ، وإكرامُ الضيفِ ، وكساءُ العريانِ ، كلُّ ذلكَ من مظاهرِ الرحمةِ العامةِ ، وألوانها المختلفةِ الزاهيةِ ، وهي تستحقُّ منا كلَّ تقديرٍ ، واعترافٍ ، وشكرٍ .

ولكنَّ أكبرَ مظهرٍ من مظاهرِ الرحمةِ ، وأروعَ صورةٍ من صُورِها الجميلةِ أنْ ينقذَ أحدنا أخاهُ من مخالبِ الموتِ ، هناكَ طفلٌ صغيرٌ بريءٌ نراهُ في حالةِ الاحتضارِ ، كادَ يلفظُ نفسهُ الأخيرَ ، الأمُّ تقفُ إلى جوارهِ تبكي ، قد أظلمتِ الدنيا في ناظرَيْها ، وانقطعَ أملُها في فلذةِ كبدها ، وماوى حنانها وحبُّها ، الأبُّ يسعى هُنا وهناكَ هائماً على وجههِ ، فلا يجذُّ راقياً وأنيساً ، هنالكَ يأتي طبيبٌ حاذقٌ ، كما ينزلُ الملكُ من السماءِ ويقولُ مهلاً . . لا داعيَ للقلقِ ، ولا موجبَ لليأسِ ، ولا يُلقي في فمِ الطفلِ قطراتٍ قليلةٍ من الدواءِ حتَّى يفتحَ عينَيْهِ وَيَنشُطَ .

تصوّرُ ماذا يُقالُ لهذا الطبيبِ ؟ ألا يقالُ لَهُ : أَنَّهُ ملكُ الرحمةِ ، أرسلَهُ اللهُ لإنقاذِ هذا الطفلِ ، وإعادةِ الحياةِ إليه ؟ هنالكَ تتلاشى كلُّ هذه الأنواعِ من

الرحمة التي قدمناها أولاً ، وتذوبُ أمامَ هذا المظهر الرائعِ الأخاذِ من الرحمة ، إنها ليستَ منَّةً على الطفلِ فقط ، بل على أسرتهِ كلها .

نرى أعمى يمشي متوكئاً على عصاه ، قد شاربَ هوَّةً عميقةً أو بئراً ، قد تكونُ خطوتهِ التاليةُ خطوةَ الموتِ ، فيهرولُ إليه عبدٌ من عبادِ اللهِ ويأخذُ بحجزه ، ويمنعه عن الوقوعِ في هذه الهوَّةِ ، أفلا نسئيه ملكَ الرحمةِ ؟

هذا شابٌ يافعٌ ، قوَّةُ عينِ أبويه ، وكفيلُ عائلتهِ الفقيرةِ ، قد أشرفَ على الغرقِ في نهرٍ فائضٍ يُحاولُ أن يطفو على الماءِ ، ولكنْ بدونِ جدوى ، فيقفزُ إليه رجلٌ مجازفاً بحياتهِ ، ويأخذُ به إلى ساحلِ النجاةِ ، فيحملُهُ ربُّ الأسرةِ أو إخوةُ هذا الشابِ على أعناقهم ، ويضمُّونه إلى صدورهم بحرارةٍ وحبٍّ ، ولا ينسونَ فضلَهُ على أسرتهِم الصغيرةِ مدى الدهرِ ، ترى هلْ تُساوي مظاهرُ الرحمةِ الأولى هذه الرحمةَ العظيمةَ الغاليةَ ؟!! .

البعثة المحمدية أنقذت الجيل البشري من الشقاء والهلاك :

ولكنَّ آخرَ مظهرٍ من مظاهرِ الرحمةِ وقيمتها وذروةِ سنامها ، هي أن ينقذَ رجلٌ الإنسانَ كلها من الهلاكِ ، وهناك فرقٌ عظيمٌ بينَ هلاكٍ وهلاكٍ ، وبينَ خطرٍ وخطرٍ ، ذلكَ هلاكٌ محدودٌ سطحيٌّ ، وخطرٌ عابرٌ قد يزولُ ، وهذا هلاكٌ أبديٌّ ، وخطرٌ مستمرٌّ لا يزولُ ، لذلكَ فإنَّ رحمةَ الأنبياءِ بالنوعِ البشريِّ لا تقاسُ أبداً على هذه الرحماتِ ، رغمَ أهميَّتها وعظمتها .

إنَّ أمامنا بحراً هائجاً مائجاً من الحياةِ لم يلتقمِ الأفرادُ والآحادَ فحسبُ ، بل إنَّه ابتلعَ الأممِ والبلادَ ، وهضمَ الحضاراتِ والمدنيَّاتِ ، ترتفعُ أمواجهُ العاتيةُ الهائلةُ ، كأفواهِ التماسيحِ الفاغرةِ ، وتنقضُّ على الجماعاتِ البشريَّةِ كالأسدِ الضاري ، والمشكلةُ أنَّه كيفَ نعبُرُ هذا البحرَ الهادرَ الزاخرَ الذي لا يعرفُ الرحمةَ ؟ ، وكيفَ ننزلُ بسفينَةِ الإنسانيةِ على برِّ الأمانِ ؟ .

ولا يكونُ صاحبُ الفضلِ الأكبرِ في هذا المجالِ ، ولا يعتبرُ أكبرُ منقذٍ للإنسانيةِ ، وصاحبُ المنَّةِ عليها ، والإحسانِ إليها ، إلّا مَنْ يجدِّفُ هذه السفينةَ ، التي تلعبُ بها العواصفُ الهوجاءُ والأمواجُ الهائلةُ كالجبالِ ، والتي غاصَّتْ بركايبها ، وغابَ الملاحُ والرُّبَّانُ ، ثمَّ يوصلُها بسلامةٍ إلى ساحلِ النجاةِ !!؟

إنَّ النوعَ البشريَّ شاكراً لهؤلاءِ الذينَ منحوه هديةَ العلمِ ، ويشكر هؤلاءِ الذينَ جمعوا له هذه الأكداَسَ من المعلوماتِ ، ويشكرُ الذينَ هيَّؤوا له كلَّ هذه التسهيلاتِ ، وزوَّدوه بوسائلِ الراحةِ والرخاءِ ، ودلَّلوا صعبَ الحياةِ ، واقتحموا عقباتها وشعابها ، إنَّه لا يبخسُ حقَّ أحدٍ من هؤلاءِ ، ولا ينكرُ فضلهم عليه ، ولكنَّ قضيتَه الكبرى ، ومشكلتهُ الأولى هيَّ أنَّه كيفَ ينقذُ نفسه من أعدائه الذينَ وقفوا له بالمرصادِ ، وأحاطوا به من كلِّ جانبٍ ، وكيفَ يصلُ بسفينتهِ إلى برِّ السلامةِ والأمانِ ؟!

فما هي أمواجُ هذا البحرِ ، وما هي تماسيحُه الضَّاريةُ الشرَّسةُ ؟

إنَّها الجهلُ عن خالقِ هذا الكونِ وربِّ العالمينَ ، وعن صفاته العُليا ، وأسمائه الحُسنَى ، والوقوعُ في حبائلِ الشركِ والوثنيَّةِ ، وعبادةِ الأصنامِ ، والاسترسالُ مع الخرافاتِ والأوهامِ ، إنَّها بلادُ حسِّ الإنسانيةِ ، وذوولها عن نفسها ، وغفلتها عن خالقها وبارئها .

إنَّها عبادةُ المادَّةِ والمعدَّةِ ، وتعدِّي الحدودِ ، وانتهاكُ الحُرُماتِ ، وسوْرَةُ النفسِ الأمارَةِ بالسوءِ ، والتهرُّبُ من أداءِ الواجباتِ والحقوقِ ، والإصرارُ على المنافعِ والحظوظِ .

إنَّ أكبرَ خطرٍ على الإنسانيةِ أنْ يحدثَ في بنائها خللٌ ، وتُحيدَ لبنَتُها الأساسيَّةُ عن مكانها الصحيحِ ، فينسى الإنسانُ قيمتهُ ومداركهُ ، وغايةَ

حياته ، ويطرئ نفسه ذنباً مُفْتَرِساً ، أو أفعى ، أو ثعباناً ، فحين يذهل الإنسان عن هذه الحقائق الكبرى يتحوّل بحر هذه الحياة إلى نارٍ متأجّجة ، ولهبٍ مرتفع ، هنالك يزدرئ الإنسان أخاه ، ويفترسه ، ولا يحتاج إلى الثعابين ، والعقارب ، والذئاب ، والفهود . . . فقد ينقلب الإنسان أكبر ذنب في هذه الغاية الإنسانية . . . تخجل أمامه الذئاب ، ويتحوّل شيطاناً مardاً ، تستحي منه الشياطين ، هنالك يحترق الإنسان ، ويُسوى في نارهِ التي أشعلها بنفسه ، ولا يحتاج إلى أن يستوردها من الخارج .

في هذه الفترة الرهيبة المظلمة تهبّ نفحة من نفحات الرحمة الإلهية ، وتنتعش رفات الإنسانية الخاملة الهامدة ، وتزوّدُها بملاحين يجدفون سفينتها بنجاح ومهارة .

٤ - مهمّة النبوة ودورها في الإنقاذ والإسعاد وطبيعة عمل الأنبياء :

وأضرب - لتوضيح مهمّة النبوة ، وطبيعة عمل الأنبياء - مثلاً سوف نفهم به مهمّة النبوة وموقفها من غير دلائل فلسفية دقيقة .

يُحكى أن فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينة للنزهة في البحر ، أو للوصول إلى البر ، وكان في النفس نشاط وفي الوقت سعة ، وكان الملاحُ المجدّف الأمي خير موضوع للدعابة والتندر ، وخير وسيلة للتلهي ، وترويح النفس ، فخطبته تلميذ ذكي جريء ، وقال : يا عمّ ، ماذا درّست من العلوم ؟ قال الملاح : لا شيء يا عزيزي !

قال : أما درّست العلوم الطبيعية يا عمي ؟

قال : كلا وما سمعتُ بها .

وتكلّم أحد التلاميذ ، فقال : ولكنك لا بدّ درّست الأفلندس والجبر والمقابلة !

قال : وهذا أغرب ، وتصدّقون أنّي أوّل مرّة أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة .

وتكلّم ثالث « شاطر » فقال : ولكنني متأكّد من أنّك درّست الجغرافية والتاريخ ؟

فقال : هل هما اسمان لبلدين ، أو علّمان لشخصين ؟

وهنا لم يملك الشاب نفوسهم المرحّة ، وعلا صوتهم بالقهقهة ، وقالوا : ما سنّك يا عمّ ؟

قال : أنا في الأربعين من سني .

قالوا : ضيّعت نصف عمرك يا عمّنا .

وسكّ الملاح الأمّي على غصص ومضض ، وبقي ينتظر دوره والزمان دوار .

وهاج البحر وماج ، وارتفعت الأمواج ، وبدأت السفينة تضطرب والأمواج فاغرة أفواها لتبتلعها ، واضطرب الشاب في السفينة - وكانت أوّل تجربتهم في البحر - وأشرفت السفينة على الغرق .

وجاء دور الملاح الأمّي ، فقال في هدوء ووقار : ما هي العلوم التي درّستموها يا شباب ؟

وبدأ الشاب يتلون قائمة طويلة للعلوم والآداب التي درّسوها في الكلية ، ويتوسّعون فيها في الجامعة ، من غير أن يفطنوا لغرض الملاح الجاهل ، الحكيم ، ولمّا انتهوا من عدّ العلوم المرعبة أسماؤها ، قال في

وقار تمزجُه نشوة الانتصار : لقد درستم يا أبنائي هذه العلوم الكثيرة ، فهل درستم علم السباحة ؟ وهل تعرفون إذا انقلبَت هذه السفينة - لا قدر الله - كيف تسبحون وتصلون إلى الساحل بسلام ؟

قالوا : لا والله يا عم ، هو العلم الوحيد الذي فاتتنا دراسته والإلمام به .

هنالك ضحك الملاح وقال : إذا كنت ضيعت نصف عمري ، فقد أتلقتم عمركم كله ، لأن هذه العلوم لا تُغني عنكم في هذا الطوفان ، إنما كان يُنجدكم العلم الوحيد ، هو علم السباحة الذي تجهلون^(١) .

هذه مهمة النبوة ودورها في إنقاذ البشرية المشرفة على الغرق ، وهذه طبيعة عمل الأنبياء والرسل ، وامتيازُه عن سائر أصناف التعليم والتربية ، والترويح والتسلية ، يمنحون الجيل البشري « علم النجاة » ويعلمونه فن السباحة ، وتجديف سفينة الحياة .

إن التاريخ الإنساني يدلُّ دلالة واضحة على أنه لما غرقت سفينة الحياة لفساد أخلاق الناس ، وسيئات أعمالهم ، غرقت بكل ما فيها من مجموعة بشرية ، ورصيد حضاري ، ومحتوى فكري ، وإنتاج علمي وفلسفي ، وبكل ما فيها من روائع الشعر والأدب والبيان ، وأن هذه السفينة لم تغرق أبداً من أجل الانحطاط الأدبي ، وقلة المدارس والجامعات ، وفقدان التعليم العالي ، أو من قلة المال وانخفاض مستوى المعيشة ، إنها غرقت لأن الإنسان أعدَّ نفسه للانتحار ، إنه صار معولاً هداماً لذلك البناء الذي فيه متاعه وأهله .

(١) القصة مقتبسة من كتاب المؤلف « النبوة والأنبياء في ضوء القرآن » ص (٢٤) من الطبعة السابعة لدار القلم بدمشق .

إنَّ التاريخَ يدُلُّنا على أنَّ الفكرَ الإنسانيَّ أُصيبَ في كثيرٍ منَ الأحيانِ بنوباتٍ عصبيةٍ دفعتهُ إلى التدميرِ والإبادةِ ، بدلاً منَ التعميرِ والبناءِ ، فقد رأينا مستغربينَ مأخوذِينَ بالحيرةِ والدهشةِ ، ورأينا بأمِّ أعيننا ، ونحنُ لا نكادُ نصدِّقُ هذا الواقعَ لهولِ المنظرِ وبشاعةِ الوضعِ ، أنَّ الإنسانَ قامَ يهدمُ أساسه بكلِّ قوَّةٍ وحماسٍ ، ذلكَ الأساسُ الذي قامَ عليه صرُّهُ الحضاريُّ والفكريُّ العظيمُ ، وظلَّ مشغولاً بهذه العمليةِ المجنونةِ بكلِّ شوقٍ ورغبةٍ ، كأنَّها عمليةُ بِناءٍ ومأثرةٌ إنسانيةٌ رائعةٌ ، وخدمةٌ ممتازةٌ ، وصارَ يلحُّ على الوقوعِ في خندقِ الموتِ ، وقد تملَّكتُهُ السَّامةُ منَ الحياةِ ، واستبدَّ بهِ الشوقُ إلى الهلاكِ ، كأنَّ الحياةَ عذابٌ وجحيمٌ ، والهلاكُ جنةٌ ونعيمٌ .

٥ - تصوير العصر الجاهلي وتهيؤه للانتحار والانتحار :

ذلكَ هوَ الوضعُ الذي سادَ على العالمِ في القرنِ السادسِ المسيحيِّ ، فإننا نجدُ هناكَ استعداداتٍ عامةً للانتحارِ الاجتماعيِّ العامِ ، لم يكنِ النوعُ البشريُّ في ذلكَ الزمانِ راضياً بالانتحارِ فحسبُ ، بل كانَ يتساقطُ عليه ، ويتهاكُّ فيه ، كأنَّه نذرٌ بهِ وحلفٌ ، فيريدُ أن يفي بنذرِهِ ولا يحنثُ في قسمِهِ ، ولقد صوَّرَ القرآنُ العظيمُ هذا المنظرَ وهذا الوضعَ تصويراً دقيقاً ، لا يصوِّره أيُّ رسَّامٍ أو أديبٍ ، أو روائيٍّ أو مؤرِّخٍ :

﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

رَحِمَ اللهُ المؤرِّخينَ ، فإنَّهم لم يصوِّروا الجاهليةَ حينَ سردُوا لنا وقائعَ البعثةِ المحمديةِ تصويراً دقيقاً ، وهم معذورونَ ومأجورونَ ، مثابونَ ومشكورونَ ، فإنَّ ذخيرةَ الأدبِ واللغةِ لا تُسَعِّفُهُمُ كلَّ الإسعافِ ، الحقيقةُ أنَّ هذا الوضعَ في قَمَّةٍ منَ الهيبةِ والفضاعةِ ، وفي منتهى الدِّقَّةِ والتعقيدِ ، لا يمكنُ

وصفه بريشة قلم ، والتعبير عنه بأيّ قدرة بيانيّة ، وصلاحيّة لغويّة .

هَلْ كَانَ الْعَصْرُ الْجَاهِلِيُّ - الَّذِي بُعِثَ فِيهِ مُحَمَّدٌ ﷺ - قَضِيَّةَ انْحِطَاطِ
اجْتِمَاعِيٍّ أَوْ خُلُقِيٍّ ، هَلْ إِنَّهُ كَانَ قَضِيَّةَ وَثْنِيَّةٍ مُجَرَّدَةٍ ، أَوْ قَضِيَّةَ خَمْرِ وَقَمَارٍ ،
وَعِبْثٍ وَاسْتِهْتَارٍ ، أَوْ ظَلَمٍ وَاسْتِدَادٍ ، قَضِيَّةَ قَوَانِينِ اقْتِصَادِيَّةٍ جَائِرَةٍ ، وَتَعَسُفِ
الْحُكَامِ الْغَاشِمِينَ ، هَلْ إِنَّهُ كَانَ قَضِيَّةَ وَأَدِ الْبَنَاتِ ، كَلَّا ، إِنَّهُ كَانَ قَضِيَّةَ وَأَدِ
الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا .

لقد انتهَى هذا الدورُ ، وانقرضَ هذا الجيلُ ، وغابَ هذا التصويرُ البشعُ
عن أعين الناسِ ، فكيفَ نعيدهُ ونمثلهُ ، ونجعلهُ حسيّاً شاخصاً تراه الأبصارُ ،
وتلمسهُ البنانُ ، وجلُّ ما نستطيعُ أنْ نقولَ : إِنَّهُ عَصْرٌ جَاهِلِيٌّ لَا يَفْهَمُهُ حَقٌّ
الفهمِ إِلَّا مَنْ عَاشَ فِيهِ وَاکتَوَى بِنَارِهِ ، وَلَوْ كَانَ لِمَصَوِّرٍ يُحَاوِلُ التَّصْوِيرَ يُمْكِنُ
أَنْ يُمَثِّلَ الْبَشَرِيَّةَ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ فِي غَايَةِ الْجَمَالِ وَالصَّحَّةِ ، وَالْأَنَاقَةِ وَحَسَنِ
الهِندَامِ ، الْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ نُمُودَجٌّ بَدِيعٌ فَرِيدٌ لَصَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ،
وَالَّذِي هُوَ مُحَسَّوْدُ الْمَلَائِكَةِ ، وَغَايَةُ الْخَلْقِ ، الَّذِي كُلُّهُ اللَّهُ بَتَاجِ خِلَافَتِهِ ،
فَصَارَ زِينَةُ الْوُجُودِ ، وَلَبَّ لِبَابِ الْحَقِيقَةِ وَالْعُرْفَانِ ، وَبِهِ تَحَوَّلَتْ هَذِهِ الْأَرْضُ
الْخَرَابُ الْيَبَابُ إِلَى رَوْضَةٍ غَنَاءَ ، وَحَدِيقَةٍ فَيْحَاءَ ، ثُمَّ يَصَوِّرُ هَذَا الْإِنْسَانَ يَرِيدُ
أَنْ يَقْفِزَ فِي خَنْدَقِ عَظِيمٍ هَائِلٍ تَرْتَفِعُ مِنْهُ أَلْسِنَةُ اللَّهَبِ ، وَقَدْ تَحَفَّزَ وَاسْتَجْمَعَ
قَوَاهُ ، وَجَمَعَ ثِيَابَهُ ، وَرَفَعَ رِجْلَهُ فِي الْفَضَاءِ فَعَلَاءَ ، وَكَادَ يَقَعُ فِيهِ ، وَمَا هِيَ إِلَّا
دَقَائِقُ وَثَوَانٍ حَتَّى يَغِيبَ فِي هَذَا الظَّلَامِ الْمَهِيْبِ ، ظَلَامِ الْمَوْتِ ، فَلَعَلَّ هَذَا
التَّصْوِيرَ يَصَوِّرُ بَعْضَ الْجَانِبِ مِنَ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ عِنْدَ بَعَثَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَقَدْ
أَشَارَ الْقُرْآنُ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ ، فَقَالَ فِي إِيْجَازٍ وَفِي إِعْجَازٍ : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا
حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، وَذَلِكَ مَا شَرَحَهُ لِسَانُ النُّبُوَّةِ
بِمَثَالٍ رَّائِعٍ بَلِيغٍ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

« مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وهذه الدوابُّ التي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا ، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ ، فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا ، فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ أَنَا آخِذٌ بِحُجُزِكُمْ عَنِ النَّارِ ، وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا » ، وَقَالَ فِي آخِرِهَا : « فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ ، أَنَا آخِذٌ بِحُجُزِكُمْ عَنِ النَّارِ هَلَمَّ عَنِ النَّارِ ، هَلَمَّ عَنِ النَّارِ ، فَتَغْلِبُونِي وَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا »^(١) .

لَقَدْ كَانَتْ الْقَضِيَّةُ الْكُبْرَى فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ كُلِّهَا أَنْ تَصِلَ سَفِينَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ بِسَلَامَةِ اللَّهِ وَفِي حِفْظِهِ وَرِعَايَتِهِ إِلَى شَاطِئِ النِّجَاةِ ، لِأَنَّهُ حِينَ يَسْتَوِي الْإِنْسَانُ وَيَعْتَدِلُ طَبْعُهُ ، وَتَتَحَلَّى الْحَيَاةُ بِالْاِقْتِصَادِ وَالْاِتِّزَانِ ، تَنْفَعُهُ - إِذَا - كُلُّ هَذِهِ الْمَشْرُوعَاتِ الْبَنَائِيَّةِ وَالْإِنْمَائِيَّةِ ، أَوِ الْأَدْبِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ الَّتِي أُوتِيَ مَوَاهِبُهَا كَثِيرٌ مِنْ أَصْدِقَاءِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَنْصَارِهَا . وَمِنْ هُنَالِكَ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ كُلَّهَا مَدِينَةٌ لِلْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لِأَنَّهُمْ أَنْقَذُوهَا مِنْ تِلْكَ الْأَخْطَارِ الْمَحْدَقَةِ الَّتِي سُلِّطَتْ عَلَى رَأْسِهَا كَالسَّيْفِ الْمُصْلَتِ ، وَلَا يَتَحَرَّرُ مِنْ مِتِّتِهِمْ وَفَضْلِهِمْ مَشْرُوعٌ عِلْمِيٌّ ، وَلَا تَخْطِيطٌ اجْتِمَاعِيٌّ ، وَلَا مَدْرَسَةٌ فِكْرِيَّةٌ ، أَوْ فِلْسَفِيَّةٌ .

كَمَا أَنَّ الْعَالَمَ الْمَعَاصِرَ مَدِينٌ لَهُمْ فِي هَذَا الْبَقَاءِ وَالِاسْتِمْرَارِ ، وَجِدَارَةُ الْحَيَاةِ ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ اعْتَرَفَ - أَحْيَانًا كَثِيرَةً - بِلِسَانِ حَالِهِ ، إِنْ لَمْ يَقُلْ بِلِسَانِ مَقَالِهِ ، أَنَّهُ فَقَدَ حَقَّ الْبَقَاءِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ لَا يَحْمِلُ الْآنَ أَيَّ رَحْمَةٍ وَبَرَكَةٍ ، وَفِيضٍ وَإِفَادَةٍ ، وَدَعْوَةٍ رِسَالَةٍ لِلْإِنْسَانِيَّةِ ، إِنَّهُ رَفَعَ الدَّعْوَى فِي الْمَحْكَمَةِ الْإِلَهِيَّةِ ضِدَّ نَفْسِهِ ، وَشَهِدَ عَلَيْهَا ، لَقَدْ كَانَتْ مَلْفَاتُهُ مَهْيَأَةً لِلْحُكْمِ

(١) متفق عليه [أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب الانتهاء عن المعاصي ، برقم (٦٤٨٣) ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب شفاعته ﷺ على أمته ... ، برقم (٢٢٨٤) ، والترمذي في أبواب الأدب ، باب ما جاء في مثل ابن آدم وأجله وماله ، برقم (٢٨٧٤)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

العادل الأخير ، وقد نصَّب الإنسان نفسه لأَكْبَرِ عقوبة تُتصوَّرُ ، بل لعقوبة الإعدام .

ولَا عَجَبَ في ذلك ، فحينما تتعدَّى المدنيةُ حدودَها الطبيعية وتخرجُ من طورِها ، وتنسى القيمَ الخلقيَّةَ كلياً ، أو تكفرُ بها صراحةً وعلناً ، ويتغافلُ الإنسانُ عن كلِّ غايةٍ نبيلةٍ ، ومقصدٍ شريفٍ ، وعن كلِّ واقعٍ وحقيقةٍ غيرِ الحقائقِ الماديَّةِ ، وتحقيقِ مآربه الجسديَّةِ ، وإرواءِ ظمئه الحيوانيِّ ، وحينما يحلُّ محلَّ القلبِ الإنسانيِّ قلبُ الذئبِ والنمرِ والفهدِ ، وتتكوَّنُ في جسمه معدةٌ خياليَّةٌ أو صناعيَّةٌ ، ونفسٌ أمَّارةٌ بالسوءِ ، لا يقرُّ لها قرارٌ ، ولا يضبطُها وازعٌ أو رادعٌ ، وحينما تُصيبُ الإنسانيَّةَ نوبةٌ شديدةٌ من الجنونِ ، يبعثُ الله لها جماعةً من الجُرَّاحينَ ، أو عصابةً من السفاحينَ ، وتأتي لأورامها المتنفخة سكاكينُ من ظهرِ الغيبِ تقضي عليها ، وتقطعُ دابرَها ، وتستأصلُ شأفتها .

إنَّ فسادَ المدنيَّةِ وهوسَها وجنونَها أشدُّ من جنونِ الملكيَّةِ والحكم الشخصيِّ ، وأوسعُ منه شراً لأنَّه حينَ يجنُّ جنونُ شخصٍ ضعيفٍ نحيلٍ واحدٍ يقضُّ مضاجعَ أهلِ الحارةِ كُلِّها ، وينغصُ عيشهم الهادىءَ . تصوِّرْ ماذا يحدثُ في العالمِ ، إذا جنَّ جنونُ النوعِ البشريِّ أجمعَ ، وتنحَرَّ هيكلُ المدنيَّةِ وتعنَّفَنَ ، وفسدتُ طبيعَةُ الإنسانيَّةِ ؟ هلْ لَهُ من رقيةٍ أو علاجٍ ؟

إلَّا أَنَّهُ لم تفسدِ المدنيَّةُ فحسبَ في العصرِ الجاهليِّ ، بل تفسَّختْ جثتها ، وتعفَّنتْ ، ونشأت فيها ديدانُ قذرةٌ ، وأصبحَ الإنسانُ يقتنصُ الإنسانَ ويصطادهُ ، ويتلذذُ بسكراته وشدائده عندَ الموتِ ، ويتمتعُ بحالةِ الاحتضارِ ، كما يتمتعُ أحدنا بمنظرِ البساتينِ والأشجارِ والورودِ والأزهارِ ، ويطربُ ويهتزُّ لاضطرابِهِ وتقلُّبِهِ على الحجرِ ، ويفرحُ بأنينِ المصابِ والمريضِ والمنكوبِ ،

وصراخه وعويله ، كما يفرح بالشراب الهنيء والطعام الشهيّ أو بالمنظر السارّ الجميل .

سَرَّحَ طرفك في تاريخِ رومة التي تغنّت أوربة - وما تزال - بفتوحها وبطولاتها ، وأمجادها وتشريعها وحضارتها ، تجدُ نموذجاً حياً للقسوة البشرية التي بلغت قِمَّتَها في هذا العصر ، يقول « ليكي » في كتابه « تاريخ أخلاق أوربة » تصوّر جانباً من همجيّة الإنسان وضراوته ، ووحشيته النادرة ، يقول :

« إِنَّ أَكْثَرَ المناظرِ سِحْراً على نفوسِ أهلِ رومة ، وأعظمَ تسليةً ومتعةً لهم ، حينَ كَانَ يسقطُ الجريحُ في مبارزةِ أحدِ الأبطالِ من بني جنسه ، أو مصارعةِ سبعٍ ضارٍ يتشخّطُ في دمه ، هنالكَ كان يفلتُ الزمامُ ، ويُغلبُ الناسُ على أمرهم ، ويفقدون رشدهم ، فيتهاكُّ الحشدُ الحاشدُ - وفيه النساءُ والأطفالُ والشيوخُ العُجْزُ - على الدنوِّ من هذا المنظرِ الرهيبِ ، والإنسانِ البائسِ الشقيِّ ، وهوَ من بني جلدتهم وأبناءِ بلادهم ، لِيُمْتَعُوا نفوسهم بمشاهدةِ احتضاره ، وليرنَّ في آذانهم رنينُ أنينه ، فقدَ كان أجملَ من كلِّ غناءٍ وموسيقا ، وسجعِ الطيورِ ، وكانَ رجالُ الشرِّطةِ الذينَ كانَ من واجبهم المحافظةُ على النظامِ ، يقفونَ مشدوهينَ مكتوفي الأيدي أمامَ هذه الموجهِ العارمةِ من المتعةِ الظالمةِ الآثمةِ ، لا يملكونَ من أمرهم شيئاً »^(١) .

لقد كانت قصّةُ الجاهليةِ الأولى أن حَجَرَهَا الأساسيَّ حادَ عن موضعه ، بل تحطّمَ وتهشّمَ ولم يبقَ أملٌ في إصلاحه ، ووضعَه في محلّه الصحيح ، ووقفَ الإنسانُ أمامَ المحكمةِ الإلهيةِ ينتظرُ الحكمَ النهائيَ الأخيرَ في مصيره ، هنالكَ بُعثَ محمدٌ ﷺ ونادى صوتُ السماءِ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

(١) راجع « تاريخ أخلاق أوربة » للمؤلف الإنجليزي ليكي ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .

ب - العالم الجديد في حساب البعثة المحمدية ومنحها

الحقيقة التي لا مرأى فيها أن هذا الدور الذي نعيشه ، وما يليه من الأدوار التاريخية القادمة ، كلها في حساب البعثة المحمدية ، ودعوته العامة الخالدة ، وجهوده المشكورة المثمرة ، لأنه رفع - أولاً - هذا السيف المصلت على رقاب الإنسانية الذي كاد يقضي عليها ، ثم أغناها بمنح غالية ومعطيات خالدة ، وهدايا طريفة جديدة ، بعث فيها الحيوية والنشاط ، والهمة والطموح ، والعزة والكرامة ، والهدف الصحيح ، والغاية النبيلة ، واستهل - بفضل هذه المنح والمعطيات - عهداً جديداً من السمو الإنساني ، والثقافة والمدنية ، والربانية والإخلاص ، وإنشاء الإنسان وتكوينه الخلقي والاجتماعي .

منح البعثة المحمدية الستة ، وأثرها في تاريخ الإنسان :

ونذكر الآن - على سبيل المثال لا الحصر - ستة من معطياته الهامة ، ومنحه الأساسية الغالية التي كان لها الدور الأكبر في توجيه النوع البشري ، وإصلاحه وإرشاده ، ونهضته وازدهاره والتي خلقت عالماً مشرقاً جديداً لا يشبه العالم الشاحب القديم في شيء .

١ - عقيدة التوحيد النقية الواضحة :

مآثرته الأولى ﷺ أنه منح الإنسانية عقيدة التوحيد الصافية الغالية : فهي عقيدة نائرة معجزة ، متدفقة بالقوة والحياة ، مقلبة للأوضاع ، مدمرة للآلهة الباطلة ، لم تنل ولن تنال الإنسانية مثلاًها إلى يوم القيامة .

هذا الإنسان الذي يحمل دعاوى فارغة ، ومزاعمَ جوفاءَ من الشعرِ والفلسفةِ والسياسةِ والاجتماع ، والذي استعبدَ الأممِ والبلادَ مراراً كثيرةً ، والذي حوّلَ الأحجارَ الصمَّاءَ أزهاراً عابقةً فيحاء ، وفجّرَ الأنهارَ من بطونِ الجبالِ ، والذي ادّعى الرُّبوبيَّةَ أحياناً ، هذا الإنسانُ كانَ يسجدُ لأشياءَ تافهةٍ لا تضرُّ ولا تنفعُ ، ولا تعطي ولا تمنعُ : ﴿ وَإِنْ يَسْأَلُكَ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذْهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ [الحج : ٧٣] .

وكانَ يركعُ أمامَ أشياءَ صنعها بنفسه ، ويخافها ، ويرجو منها الخيرَ ، إنَّه لم يخرَّ ساجداً للجبالِ والأنهارِ ، والأشجارِ والحيواناتِ ، والأرواحِ والشياطينِ ، وسائرِ مظاهرِ الطبيعةِ فحسبَ ، بل سجدَ للحشراتِ والديدانِ أيضاً ، وقضى حياتهَ كلّها بينَ هواجسٍ ووساوسٍ وبينَ أخيلةٍ وأوهامٍ ، وأمانٍ وأحلامٍ ، كانتَ نتيجتُهُ الطبيعِيَّةُ الجبنَ والوهنَ ، والفوضىَّةُ الفكريةُ ، والقلقُ النفسيُّ وفقدانُ الثقةِ ، وعدمُ الاستقرارِ .

فأغنَاهُ ﷺ بعقيدةٍ صافيةٍ نقيَّةٍ سهلةٍ سائغةٍ ، حافزةٍ للهممِ ، باعثةٍ للحياةِ ، فتخلَّصَ من كلّ خوفٍ ووجلٍ ، وصارَ لا يخافُ أحداً إلا اللهَ ، وعلمَ علمَ اليقينِ ، أنَّه وحدَهُ هو الضارُّ والنافعُ ، والمعطي والمانعُ ، وأنَّه وحدَهُ الكفيلُ لحاجاتِ البشرِ .

فتغيَّرَ العالمُ كُلُّه في نظره بهذه المعرفة الجديدة ، والاكتشافِ الجديدِ ، وصارَ مصوناً عن كلّ نوعٍ من العبوديَّةِ والرقِّ ، وعن كلّ رجاءٍ وخوفٍ من المخلوقِ ، وعن كلّ ما يَشْتَتُ ويشوُّشُ الأفكارَ ، فقدَ شعرَ بوحدةٍ في هذه الكثرةِ ، واعتبرَ نفسه أشرفَ خلقِ اللهِ ، وسيدَ هذه الأرضِ ، وخليفةَ اللهِ فيها ، يطيعُ ربَّه وخالقه ، وينفِّذُ أوامره ، ويحقِّقُ بذلكَ هذا الشرفَ الإنسانيَّ العظيمَ ، والعظمةَ الإنسانيَّةَ الخالدةَ التي حُرِّمَتْها الدُّنيا منذُ زمنٍ بعيدٍ .

إنَّها البعثة المحمدية التي أتحفت الإنسانية بهذه التحفة النادرة - عقيدة التوحيد - التي كانت مجهولة مغمورة ، مظلومة مغبونة ، أكثر من أي عقيدة في العالم ، ثم ردد صدأها العالم كله ، وتأثرت بها الفلسفات العالمية والدعوات العالمية كلها في قليل أو كثير .

إنَّ بعض الديانات الكبيرة التي نشأت على الشرك وتعدّد الآلهة وامتزجت به لحماً ودماً ، اضطرت في الأخير إلى أن تعترف - ولو بصوت خافت ، وهمسة في الأذان - أن الله واحد لا شريك له ، وأرغمت على تأويل معتقداتها المشركة تأويلاً فلسفياً يبرئها من تهمة الشرك والبدعة ، وتجعلها متشابهة بعقيدة التوحيد في الإسلام بقدر ما ، وبدأ رجالها وسدنتها يستحون من الاعتراف بالشرك ، ويخجلون من ذكره ، وأصبحت هذه الأنظمة المشركة كلها بمركب النقص ، والشعور بالصغار والهوان (Inferiority Complex) فكانت هذه التحفة أغلى الثحف التي سعدت بها الإنسانية بفضل بعثته ﷺ .

٢ - مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية :

ومآثرته الثانية العظيمة ، ومنتهى الباقيّة السائرة في العالم ، هو تصوّر الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية ، كان الإنسان موزعاً بين قبائل وأمم وطبقات بعضها دون بعض ، وقوميات ضيقة ، وكان التفاوت بين هذه الطبقات تفاوتاً هائلاً كتفاوت ما بين الإنسان والحيوان ، وبين الحر والعبد ، وبين العابد والمعبود ، لم تكن هناك فكرة عن الوحدة والمساواة إطلاقاً ، فأعلن النبي ﷺ بعد قرون طويلة من الصمت المطبق ، والظلام السائد ذلك الإعلان الثائر ، المدهش للعقول ، القالب للأوضاع : « أيّها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلُّكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله

أتفاكم ، وليسَ لعربيٍّ على أعجميٍّ فضلٌ إلا بالتقوى »^(١) .

وهذا الإعلان يتضمَّن إعلانين ، هما الدَّعامتان اللَّتان يقومُ عليهما الأمنُ والسلامُ ، وعليهما قامَ السلامُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وهما : وحدةُ الربوبيةِ والوحدةِ البشريَّةِ ، فالإنسانُ أخو الإنسانِ من جهتينِ ، والإنسانُ أخو الإنسانِ مرتينِ ، مرةً « وهي الأساسُ » لأنَّ الربَّ واحدٌ ، ومرةً ثانيةً لأنَّ الأبَّ واحدٌ ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] ، ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

إنَّها كلماتٌ خالدةٌ جرَّتْ على لسانِ النَّبيِّ ﷺ في حَجَّةِ الوداعِ ، وحينما قامَ النَّبيُّ ﷺ بهذا الإعلانِ التاريخيِّ العظيمِ ، لم يكنِ العالمُ في وضعٍ طبيعيٍّ هادئٍ يسبغُ فيه هذه الكلماتِ الجريئةِ الصريحةِ ، ويُطيقُها .

إنَّ هذا الإعلانَ لم يكنْ أقلَّ منْ زلزالٍ هائلٍ عنيفٍ ، إنَّ هناكَ أشياءَ قدَّ تتحمَّلُها بصورةٍ تدريجيَّةٍ ، أو منْ وراءِ ستارٍ ، مثلَ التيارِ الكهربائيِّ ، فقدَّ نلمسُه إذا كانَ مغطىً ، أو داخلاً في باطنِ الأسلاكِ ، . . . ولكنَّا إذا لمسناه عارياً أصابتنا صدمةٌ عنيفةٌ ، أو قُضيَ علينا بتاتاً .

إنَّ هذهِ الأشواطَ البعيدةَ ، والمسافاتِ الشاسعةَ منَ العلمِ والفهمِ ، والفكرِ الإنسانيِّ التي قطعَها الإنسانِيَّةُ اليومَ بفضلِ الدعوةِ الإسلاميَّةِ ، وظهورِ المجتمعِ الإسلاميِّ ، وبجهودِ الدعاةِ ، والمصلحينَ والمريِّينَ ، جعلتْ هذا الإعلانَ الهائلَ ، الثائرَ الفائرَ ، المزلزلَ لأوكارِ الجاهليةِ ، ومعاقلِ الشركِ

والوثنية والعنصرية في العالم ، منها ميثاق حقوق الإنسان Human Rights Charter الذي حملت لواءه الأمم المتحدة ، وتصريحات تقوم بها كل جمهورية وكل مؤسسة عن الحقوق الإنسانية ، والمساواة الإنسانية ، فلا يستغربها أحد .

ولكن أتى على الإنسان حين من الدهر ، سادت فيه عقيدة أشرفية بعض الأمم والأسر وكونها فوق مستوى البشر ، وكانت بعض الأسر والسلاطات تعزو نسبها إلى الشمس والقمر ، وإلى الله سبحانه : ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٤٣] ، إنَّ القرآن حكى لنا قول اليهود والنصارى ، فقال : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ ﴾ [المائدة : ١٨] ، وكان فراعة مصر يزعمون أنهم تجسيد لاله الشمس « رع » (Ray) ومظهر له .

أمّا في الهند فقد عرفت فيها أسرتان سميتا « سُرَج بُنْسِي » يعني : أبناء الشمس ، و « جُنْدَر بُنْسِي » أبناء القمر .

أمّا في إيران فقد كانت أكاسرتها يزعمون أنه يجري في عروقهم الدم الإلهي ، وكان أهل البلاد ينظرون إليهم نظرة تقديس وتأليه ، وكان من ألقاب كسرى أبرويز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) ووصفه : « في الآلهة إنسان غير فان ، وفي البشر إله ليس له ثاب ، علت كلمته ، وارتفع مجده ، يطلع مع الشمس بضوئه ويُنير الليالي المظلمة بنوره » (١) .

وكذلك كانت القياصرة آلهة ، فكان كل من تملك زمام البلاد كان إلهاً ، وكان لقبهم (August) يعني « المهيب الجليل » (٢) .

(١) إيران في عهد الساسانيين : ص ٦٠٤ .

(٢) راجع العالم الروماني (The Roman World) تأليف Victor Choptart ، ص ٤١٨ .

أَمَّا الصِّينِيُّونَ فَكَانُوا يَعْتَبِرُونَ الْإِمْبْرَاطُورَ ابْنَ السَّمَاءِ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ السَّمَاءَ ذَكَرٌ وَالْأَرْضَ أُنْثَى ، وَبِاتِّصَالِهِمَا خُلِقَ هَذَا الْكَوْنُ ، وَأَنَّ الْإِمْبْرَاطُورَ خَتَا الْأَوَّلَ هُوَ بِكَرُّ هَذَيْنِ الزَّوْجَيْنِ ^(١) .

أَمَّا الْعَرَبُ فَكَانُوا يَعْتَبِرُونَ كُلَّ مَنْ سِوَاهُمْ « الْعَجَمَ » وَكَانَتْ قَبِيلَةُ قُرَيْشٍ تَرَى نَفْسَهَا أَشْرَفَ قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَتُحَافِظُ عَلَى امْتِيَازِهَا فِي الْمَوْسَمِ ، فَلَا تُشَارِكُ النَّاسَ فِي مَوَاقِفِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ ^(٢) ، وَلَمْ تَكُنْ تَدْخُلُ عُرَفَاتٍ ^(٣) مَعَ الْحَجَّاجِ ، بَلْ تَبْقَى فِي الْحَرَمِ وَتَقْفُ بِالْمَزْدَلِفَةِ ، وَتَقُولُ : نَحْنُ أَهْلُ اللَّهِ فِي بِلَدَتِهِ ، وَقَطَّانُ بَيْتِهِ ، وَتَقُولُ : نَحْنُ حُمْسٌ ^{(٤)(٥)} .

٣ - إعلَانُ كَرَامَةِ الْإِنْسَانِ وَسُمُوهُ :

وَالْمِنَّةُ الثَّلَاثَةُ الْعَظِيمَةُ عَلَى النَّوعِ الْبَشَرِيِّ ، هُوَ إِعْلَانُ كَرَامَةِ الْإِنْسَانِ وَسُمُوهُ ، وَشَرَفِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَعُلُوِّ قَدْرِهَا : لَقَدْ بَلَغَ الْإِنْسَانُ قَبْلَ الْبَعْتَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ إِلَى حَضِيضِ الذَّلِّ وَالْهَوَانِ ، فَلَمْ يَكُنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ شَيْءٌ أَصْغَرَ مِنْهُ وَأَحْقَرَ ، وَكَانَتْ بَعْضُ الْحَيَوَانَاتِ « الْمَقْدَسَةِ » وَبَعْضُ الْأَشْجَارِ « الْمَقْدَسَةِ » الَّتِي عَلَقَتْ بِهَا أُسَاطِيرُ وَمَعْتَقَدَاتٌ خَاصَّةٌ أَكْرَمَ وَأَعَزَّ عِنْدَ عَبَادِهَا ، وَأَجْدَرَ بِالصِّيَانَةِ ، وَالْمَحَافَظَةِ عَلَيْهَا مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى حَسَابِ قَتْلِ الْأَبْرِيَاءِ ، وَسَفْكِ الدَّمَاءِ .

(١) انظر « تاريخ الصين » بقلم جيمس كاركون .

(٢) انظر كتب الحديث والسيرة .

(٣) عرفات خارج الحرم .

(٤) [وَالْحُمْسُ : قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ] .

(٥) [أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْحَجِّ ، بَابِ التَّعْجِيلِ إِلَى الْمَوْقِفِ ، بِرَقْمِ (١٦٦٥) ، وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْحَجِّ ، بَابِ فِي الْوُقُوفِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ . بِرَقْمِ (١٢١٩) ، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا] .

وكانت تُقدِّم لها القرايين من دم الإنسان ولحمه من غير وخز ضمير وتأنيب قلب ، وقد رأينا بعض نماذجها وصورها البشعة في بلاد متقدمة راقية ، كالهند في القرن العشرين .

فأعاد سيّدنا محمد ﷺ إلى الإنسانية كرامتها وشرفها ، وردّها إليها اعتبارها وقيمتها ، وأعلن أنّ الإنسان أعزُّ وجود في هذا الكون ، وأعلى جوهر في هذا العالم ، وليس هنا شيء أشرف وأكرم ، وأجدر بالحب ، وأحقّ بالحفاظ عليه من هذا الإنسان ، إنّه رفع مكانته حتى صار الإنسان خليفة الله ونائبه ، خلق له العالم ، وهو خلق الله وحده ، ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] ، وإنّه أشرف خلق الله ، وفي مكان الرئاسة والصدارة : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

وليس أدلّ على كرامته والاعتراف بعظمته من قوله : « الخلق عيال الله ، فأحب الناس إلى الله من أحسن إلى عياله »^(١) .

وليس هنا أبلغ في الدلالة على سمو الإنسانية ، والتقرب إلى الله بخدمتها ، والعطف عليها ، من الحديث الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال :

« إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا بن آدم ، مرّضت فلم تعُدني ! .

قال : يا ربّ كيف أعودك وأنت ربّ العالمين ؟

(١) [أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٥٦/٥) برقم (٥٥٤١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه] .

قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرَضَ فَلَمْ تَعُدَّهُ ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدَّتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ .

يَا بَنَ آدَمَ ، اسْتَطَعْمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي !

قَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ أَطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟

قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعْمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي .

يَا بَنَ آدَمَ ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي .

قَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟

قَالَ : اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي « (١) .

هَلْ يُتَصَوَّرُ إِعْلَانُ أَوْضَحْ وَأَفْصَحُ بِسْمُوِّ إِنْسَانِيَّتِهِ ، وَعِلْوُ مَكَانَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ هَذَا الْإِعْلَانِ ؟

وهل فَازَ الْإِنْسَانُ بِهَذِهِ الْمَكَانَةِ السَّامِقَةِ وَالشَّرَفِ الْعَالِيِّ فِي أَيِّ دِيَانَةٍ وَفَلَسْفَةٍ فِي الْعَالَمِ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ ؟ .

إِنَّهُ ﷺ جَعَلَ الرَّحْمَةَ عَلَى بَنِي آدَمَ الشَّرْطَ الْإِلَازِمَ لَجَلْبِ رَحْمَةِ اللَّهِ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مَّنْ فِي السَّمَاءِ » (٢) .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [في كتاب البر والصلة ، باب فضل عيادة المريض ، برقم (٢٥٦٩)] .
(٢) أخرجه أبو داود [في كتاب الأدب ، باب في الرحمة ، برقم (٤٩٣١)] ، والترمذي في أبواب البر والصلة ، باب ما جاء في رحمة الناس ، برقم (١٩٢٤) من حديث عائشة رضي الله عنها ، وقال : هذا حديث حسن صحيح [.

تُرى ما كان عليه وضعُ العالم ، وحالته الاجتماعيةُ والسياسيةُ ، قبل أن ينهضَ النبي ﷺ بهذه الدعوة ، دعوة الوحدة الإنسانية ، والكرامة الإنسانية ، ويُجاهدُ في سبيلها أبلغَ جهادٍ ؟

لقد كان ثمنُ شهوةٍ فردٍ واحدٍ ، وهوى شخصٍ واحدٍ قبل بعثته ﷺ أكبرَ ، وأعلى من أرواحِ الآلافِ ومئاتِ الآلافِ من البشرِ ، ينهضُ ملكٌ واحدٌ ، وإمبراطورٌ واحدٌ ، يكتسحُ البلادَ ، ويستعبدُ العبادَ ، ويضربُ الرقابَ ، ويهلكُ الحرثَ والنسلَ ، ويأتي على الأخضرِ واليابسِ ، لتحقيقِ مأربٍ حقيرٍ في نفسه .

ويزحفُ الإسكندرُ حتى يبلغَ الهندَ ، ويدمرُ في طريقه حضاراتٍ ومدنٍ ، وينهضُ شرُّه ويقتنصُ الفئاتَ البشريةَ ، كما يقتنصُ أحدنا حيواناتٍ الغاية .

واندلعت في زماننا حربانِ عالميتانِ ذهبَ ضحيتُهُما ملايين ، ولم يكن ذلك إلا نتيجةَ صلفٍ قوميٍّ ، وأنانيةٍ فرديةٍ ، وشهوةٍ الحكمِ ، والسيطرةِ على الأسواقِ التجارية العالمية .

٤ - محاربة اليأس والتشاؤم ، وبعث الأمل والرجاء ، والثقة والاعتزاز في نفس الإنسان :

المأثرة الرابعةُ أن أكثرَ أفرادِ النوعِ الإنساني كانوا مُصابينَ باليأسِ من رحمةِ الله ، وبسوءِ الظنِّ بالفطرة الإنسانية السليمة ، وكان في إيجادِ هذا الجوِّ الخاصِّ ، والحالة العقلية الخاصةِ دورٌ كبيرٌ لبعضِ الدياناتِ الشرقية القديمة ، والمسيحية المحرّفة في أوربة ، وفي الشرق العربي .

فقد دانتِ الدياناتُ القديمةُ في الهندِ بعقيدةِ التناسخِ ، وفلسفتهِ التي

لا مجالَ عندها في إرادة الإنسان وتصرفه مُطلقاً ، وأنَّ كلَّ إنسانٍ مضطربٌ لا محالةً لنيلِ عقوبةٍ ما ، لما قدَّمتْ يداؤه في حياته الأولى ، وذلك بالظهور في شكلٍ سبعٍ مفترسٍ ، أو دابةٍ سائمةٍ ، أو حيوانٍ خسيسٍ ، أو إنسانٍ شقيٍّ معذبٍ .

بينما نادَت المسيحيةُ بأنَّ الإنسانَ عاصٍ ومذنبٌ بالولادة والفطرة ، والمسيحُ صارَ كفَّاراً وفداءً له عن هذه الذنوب ، فأنشأت هذه العقيدة - بطبيعة الحال - في نفوس الملايين في العالمِ المتمدِّنِ المعمورِ الذين اعتنقوا المسيحيةَ سوءَ ظنٍّ بنفوسهم ، ويأساً عن مستقبلهم ، وعن الرحمةِ الإلهيةِ .

هنالك أعلنَ النَّبِيُّ ﷺ بكلِّ قوَّةٍ وصراحةٍ ، أنَّ فطرةَ الإنسانِ هي كاللوحِ الصافي ، الذي لم يُكتبْ عليه بعدُ ، ويمكنُ أن يُنقشَ فيه أروعُ نقشٍ ، ويُحررُ فيه أجملُ تحريرٍ ، وأنَّ الإنسانَ يستهلُّ حياته بنفسه ، ويستحقُّ الثوابَ والعقابَ ، والجنةَ والنارَ بعمله ، وهو غيرُ مسؤولٍ عن عملٍ غيره .

فقد ذَكَرَ القرآنُ في مواضعٍ كثيرةٍ ، أنَّ الإنسانَ مسؤولٌ عن عملِهِ فحسب ، وأنه مثابٌّ ومشكورٌ على سعيهِ : ﴿ أَلَا نُرِزُّ زُرَّةً وَزُرَّةً ۖ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۚ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۚ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ۚ ﴾ [النجم : ٣٨ - ٤١] .

هذا الإعلانُ أعادَ إلى الإنسانِ ثقته المفقودة بفطرته ومواهبه الطبيعية ، وانطلقَ إلى الأمام بعزمٍ قويٍّ ، وحماسٍ زائدٍ ، وعاطفةٍ جياشةٍ ليصنعَ مصيره ومصيرَ الإنسانيةِ ، ويجرِّبَ حظَّهُ وقدرته في تلكِ الإمكاناتِ الهائلةِ ، والفرصِ الغاليةِ .

إنَّ محمداً ﷺ قرَّرَ أنَّ المعاصي والذنوبَ ، والأخطاءَ والزلاتِ فترةٌ عابرةٌ زائلةٌ في حياةِ الإنسانِ ، يقعُ فيها الإنسانُ بجهلهِ وغروره ، وقصَرِ نظره حيناً ، وبإغواءِ الشيطانِ ، وإغراءِ النفسِ بعضَ الأحيان ، وأنَّ الصلاحَ والصلاحيةَ ،

والاعتراف بالذنب ، والندامة أصلٌ من أصولِ فطرته ، وجوهر إنسانيته ، وأنَّ الابتهاالَ إلى الله ، والتضرُّعُ إليه ، والعزمُ الأكيدُ على عدمِ العودةِ إلى الذنبِ دليلٌ على شرفِ الإنسانِ ، وأصالةِ معدنه ، وهو ميراثُ آدمَ عليه السلام .

إنَّ محمداً ﷺ فتحَ أمامَ المُذنبينَ الخَطَّائينَ - الغارقينَ في حمأةِ المعصيةِ والرذيلةِ إلى آذانهم - باباً واسعاً للتوبةِ ، ودعا إليها الناسَ دعوةً عامَّةً ، وشرحَ فضلَ التوبةِ شرحاً وافياً ، وأفاضَ فيه إفاضةً نستطيعُ بها القولَ بأنَّه أحيا هذا الركنَ الخاصَّ العظيمَ من الدينِ ، ولذلك سَمِّيَ « بنبيَّ التوبةِ » من بينِ أسمائه الجميلةِ الأخرى ، لأنَّه ما دَعَا إلى التوبةِ كوسيلةٍ اضطراريةٍ يتداركُ بها الإنسانُ ما فاتهُ فحسبُ ، بل إنَّه رفعَ من شأنها حتَّى صارتَ من أفضلِ العباداتِ ، والقرباتِ عندَ الله ، وصارتَ طريقاً سهلاً للوصولِ - في أقربِ وقتٍ - إلى أقصى درجاتِ القربِ والولايةِ ، يُغبِطُ عليها النَّسَّاكُ والزهادُ ، والأبرياءُ والأطهارُ من عبادِ الله .

إنَّ القرآنَ شرحَ فضلَ التوبةِ وسَعَتَها ، ونقاءَ الإنسانِ من أكبرِ ذنبٍ وأعظمِ معصيةٍ يتصورُها الإنسانُ ، وذلك بأسلوبٍ جميلٍ يستهوي القلوبَ ، ودعا العصاةَ والمذنبينَ ، وصَرَعى النفسِ والشیطانِ إلى اللجوءِ إلى الله سبحانه ، والفرارِ إليه ، والتفتُّؤِ بظلالِ رحمتهِ ، والترامي في أحضانِ رَأْفَتِهِ وعَطْفِهِ ، وصوَّرَ بحارَ رحمتهِ الزاخرةَ ، الواسعةَ الأرجاءِ ، المحيطةَ بالأنفسِ والآفاقِ ، تصويراً رائعاً جميلاً ، شائقاً مثيراً ، يبدؤُ منه أنَّ الله سبحانه وتعالى ليسَ حليماً رحيماً ، وجواداً كريماً فحسبُ ، بل إنَّه - إذا صحَّ هذا التعبيرُ - يحبُّ التوابينَ ، ويشتاقُ إليهم ، ويشكرُ سعيهم البليغَ ، ويقدرُهُ كلَّ التقديرِ ، اقرأ الآياتِ التاليةَ ، وتدوَّقْ أسلوبَ هذا اللطفِ والعطفِ ، وجوَّ الودِّ الذي يغشى هذه الآياتِ :

﴿ قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الدُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

وأكثر من ذلك وأروع ما نجد في الآية التالية ، حيث ذكر الله سبحانه
جماعات مختلفة من عباده الصالحين ، فاستهل هذه القائمة المشرقة النورانية
بالتائبين ، إنها آية من سورة « التوبة » [١١٢] :

﴿ التَّائِبُونَ الْعَمِدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُصْلِحُونَ الرَّكَعُونَ
السَّاجِدُونَ لِلْأَمْرِ وَالْمَعْرُوفُونَ وَالْمُنْكَرُونَ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ
اللَّهِ وَبَشِرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

هذا التكريم وتبرئة العبد التائب من ذنبه ، وإظهار الثقة به تجلّى واضحاً
حين أعلن القرآن قبول توبة ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ الذين تخلفوا عن غزوة
تبوك^(١) من غير عذر صحيح مقبول ، وبقوا في المدينة ، فبدأ القرآن بذكر
النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار ، الذين لم يتخلفوا عن هذه الغزوة ، ثم ثنى
بهؤلاء الثلاثة الذي تخلفوا ، حتى لا يشعر هؤلاء المخلفون بإفرادهم بالتوبة
ويكونوا بمعزل عن الشعور بالهوان ، وما يُسمّى في علم النفس « بمركب
النقص » ، ويتّضح للمؤمنين إلى يوم القيامة أن مكانتهم الطبيعية في الصف
الأول من الصادقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، فلا داعي للاستحياء ،
ولا مكان للعار .

هَلْ هُنَاكَ مِثَالُ أَرْوَعٍ وَأَجْمَلٍ ، وَأَدَقٍّ وَأَعَمَّقٍ ، وَأَحْلَى وَأَزْهَى لِقَبُولِ
التَّوْبَةِ ، وتكريم التائب ، ومسح غاشية الكآبة عنه بلطفٍ ووُدٍّ ، وحبٍّ وحنوٍّ

(١) اقرأ للتفصيل كتب السيرة ، والتفسير ، والحديث ، « غزوة تبوك » وقد مرت القصة في هذا
الكتاب في موضعها في الفصل الخامس ، ص (٤٩٢) .

في تاريخ الأديان ، والأخلاق ، والتربية والإصلاح ، من هذا المثال !؟
اقرأ معي الآيات التالية :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ
الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رُءُوفٌ
رَحِيمٌ ۝ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ
عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٧ - ١١٨] .

ثم أعلن أيضاً كمبدأ عام أن رحمة الله تسع كل شيء ، وتسبق غضبه
وجلاله ، يقول القرآن : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

وجاء في حديث قدسي : « إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي »^(١) إنه جعل اليأس
مرادفاً للكفر والجهل والضلال ، وبين ذلك على لسان يعقوب عليه السلام :
﴿ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] ، وذكر في موضع
آخر قول إبراهيم - عليه السلام - فقال : ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا
الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر : ٥٦] .

وهكذا أسعف النبي ﷺ بهذه الدعوة المفتوحة العامة إلى التوبة وبيان
فضائلها ، وسعها وشمولها الإنسانية المدعورة الخائفة التي كانت تنسج تحت
وطأة اليأس ، والقنوط ، وترتعد فرائضها بإنذارات العقاب والعذاب ،
ومظاهر الغضب والجلال^(٢) ، ومنحها فرصة جديدة جميلة من الحياة ، ونفخ

(١) [أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب « وكان عرشه على الماء ... » برقم (٧٤٢٢) ،
والنسائي في السنن الكبرى (٤١٧/٤ - ٤١٨) برقم (٧٧٥١ - ٧٧٥٧) وأبو يعلى في المسند

(٣١٦/١١) برقم (٦٤٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه] .

(٢) وقد كان في ذلك لعلماء اليهود ، وشراح الكتب المقدسة ، وربهان المسيحية الغلاة =

في قلبها الضعيف المتواني ، وجسدها الهامد البارد روحاً جديدةً ، وحرارةً جديدةً ، وهيئاً لجروحها بلسماً ، ورفعها من حضيض التراب إلى أوج العزة والسيادة ، والثقة والاعتزاز ، والاعتداد بالنفس ، والاعتماد على الله .

٥ - الجمع بين الدين والدنيا ، وتوحيد الصفوف المتنافرة ، والمعسكرات التجارية :

لقد ورَّعت الديانات القديمة - خاصة المسيحية - الحياة الإنسانية في قسمين : قسم للدين ، وقسمٌ للدنيا ، وورَّعت هذا الكوكب الأرضي في معسكرين : معسكر رجال الدين ، ومعسكر رجال الدنيا ، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب ، بل حال بينهما خليجٌ كبيرٌ ، ووقف بينهما حاجزٌ سميكٌ ، وظلاً متشاكسين متحاربين .

وكان كلُّ واحدٍ يعتقد أنَّ هناك خصومةً وعداءً بين الدين والدنيا ، فإذا أراد إنسانٌ أن يتصل بأحدهما ، لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر ، بل أن يعلن الحرب عليه ، فلا يمكنه - على حدِّ قولهم - أن يركب سفينتين في وقتٍ واحدٍ ، وأنه لا سبيلَ إلى الكفاح الاقتصادي ورخائه من غير غفلة عن الدار الآخرة ، وإعراض عن فاطر السموات والأرض ، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينية والخلقية ، والتجرُّد عن خشية الله ، ولا إمكان للتدبُّن من غير رهبانيَّة ، وقطع الصلة عن الدنيا وما فيها .

المعلوم المقرَّر أنَّ الإنسانَ محبٌّ لليسر ، مجبولٌ عليه ، وكلُّ فكرة دينية لا تسمح بالاستمتاع المباح ، والنهضة ، والعزة ، والحصول على القوة والحكم ، لا تصلح للنوع البشري في الغالب ، إنَّه صراعٌ مع الفطرة

السليمة ، وكبتٌ للغرائز الطبيعية البريئة في الإنسان ، وكانت نتيجة هذا الصراع أنَّ العدد الأكبر من أصحاب الفطنة والذكاء ، والكفاءات العلمية ، أثر الدنيا على الدين ، ورضي بها - كحاجة اجتماعية ، وواقع حيٍّ - واطمأن إليها ، وعكف على تحسين هذه الحياة ، والحصول على ملذاتها ، ولم يبقَ له أملٌ في الرقي الديني ، والتقدم الروحي .

وأكثر الذين هجرُوا الدين بصورة عامة ، هجرُوهُ على أساس التناقض الذي حسبوه حقيقةً بديهيةً مسلمةً ، وثارَ البلاط الذي كان يتزعم الحكم الدينيَّ على الكنيسة التي كانت تمثل الدين ، وتجرَّد عن سائر قيوده ، فصارت الحكومات - بطبيعة المنطق - كفيل هائج مائج ، تخلَّص من سلاسله وقيوده ، أو كجمل هائم ، حبله على غاربه ، هذا الانفصال النكد بين الدين والدنيا ، وذلك العداء المشؤوم بين « رجال الدين ورجال الدنيا » فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللا دينية ، وكانت فريسته الغرب أولاً ، والأمم التي دانت له في الفكر والعلم والثقافة ، أو عاشت تحت رايته ثانياً .

وزاد الطين بلةً دعاة المسيحية المتطرِّفون والمفراطون ، الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائق في التزكية الروحية والاتصال بالسماء ، والذين لم يدَّخروا وسعاً في إذلالها وتعذيبها بأنواع من الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة^(١) وقَدَّمُوا صورةً وحشيةً كالحة مفزعةً للدين ، تقشعرُّ منها جلود الذين آمنوا ، وآل الأمر في نهاية الشوط إلى تقلُّص ظلِّ الدين ، وبلغت عبادة النفس والهوى - في أوسع معناها - إلى ذروتها ، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفي نقيص ، ثم سقطت أخيراً بضعف الوازع الديني ، أو فقدان

(١) انظر « تاريخ أخلاق أوربة » ، ج ٢ ، لمؤلفه ليكي .

الحاسّة الدنيّة في هوّة عميقة من اللادينيّة ، والفوضى الخلقيّة العامّة^(١) .

وأعظم هديّة للبعثة المحمديّة ، وممتّها العظيمة نداؤها الذي دوّت به الآفاق أنّ أساس الأعمال والأخلاق ، هو الهدف الذي ينشده المرء ، والذي عبّر عنه الشارع بلفظ مفرد بسيط ، ولكنّه واسع عميق « النية » ، فقال : « إنّما الأعمال بالنيّات ، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى »^(٢) .

وإنّ كلّ عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله ، وبدافع الإخلاص ، وامتنال أمره وطاعته ، هو وسيلة إلى التقرب إلى الله ، والوصول إلى أعلى مراتب اليقين ، ودرجات الإيمان ، وهو دين خالص لا تشوبه شائبة ، ولو كان هذا العمل جهاداً وقتالاً وحكماً وإدارة ، وتمتعاً بطيّبات الأرض ، وتحقيقاً لمطالب النفس ، وسعيّاً لطلب الرزق والوظيفة ، واستمتاعاً بالتسلية البريّة المباحة ، والحياة العائلية والزوجية .

وكُلّ عبادة وخدمة دينية - بالعكس من ذلك - تعتبر دنيا إذا تجرّدت من طلب رضا الله سبحانه ، والخضوع لأوامره ونواهيه ، وغشيته غاشية من الغفلة ، ونسيان الآخرة ، ولو كانت صلوات مكتوبة ، ولو كانت هجرة

(١) اقرأ للتفصيل كتاب « الصراع بين الدين والعلم » (Conflict Between Religion & Science) لدرابر (Draper) أو « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » الباب الرابع « العصر الأوربي » .

(٢) الحديث الصحيح الذي بلغ عند بعض المحدثين حد الاستفاضة والشهرة ، والذي افتتح به الإمام البخاري كتابه « الجامع الصحيح » ، وتمام الحديث : « إنّما الأعمال بالنيّات ، وإنّما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » (حديث متفق عليه [أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ، برقم (١) ، وأبو داود في كتاب الطلاق ، باب في ما عني به الطلاق ، برقم (٢٢٠١) ، وابن ماجه في أبواب الزهد ، باب النية ، برقم (٤٢٢٧)] وغيرهم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه] .

وجهاداً وذكراً وتسييحاً وقتالاً في سبيل الله ، ولا يُثَابُ عليه العاملُ ،
والعالمُ ، والمجاهدُ ، والداعي ، بلْ قَدْ تَعُوذُ تِلْكَ الْأَعْمَالُ وَالْخِدْمَاتُ عَلَيْهِ
وبالْأَ ، وتكونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَاباً^(١) .

إِنَّ الْمَأْثِرَةَ الْخَامِسَةَ مِنْ مَّآثِرِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ مَلَأَ هَذِهِ الْفَجْوَةَ الْوَاسِعَةَ
بَيْنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، وَجَعَلَ هَذَيْنِ الْمُتَنَافِرَيْنِ الْمُتَبَاعِدَيْنِ ، اللَّذَيْنِ عَاشَا فِي
خَصَامٍ دَائِمٍ ، وَعَدَاءٍ سَافِرٍ ، وَحَقْدٍ مُسْتَمِرٍّ ، يَتَعَانِقَانِ فِي إِلْفٍ وَوُدٍّ ،
وَيَتَعَايِشَانِ فِي سَلَامٍ وَوِثَامٍ .

إِنَّهُ ﷺ رَسُولُ الْوَحْدَةِ ، وَبَشِيرٌ وَنَذِيرٌ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ ، إِنَّهُ أَخَذَ النَّوْعَ
الْبَشَرِيَّ مِنَ الْمَعْسُكِرَيْنِ الْمُتَحَارِيَيْنِ إِلَى جِهَةٍ مُوَحَّدَةٍ مِنَ الْإِيمَانِ
وَالْاِحْتِسَابِ ، وَالْعُطْفِ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ ، وَابْتِغَاءِ رِضْوَانِ اللَّهِ ، وَعَلَّمَنَا هَذَا
الدَّعَاءَ الْجَامِعَ ، الْمَعْجَزَ الْوَاسِعَ : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ
حَسَنَةً وَفَنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

إِنَّهُ أَعْلَنَ بِالْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
[الأنعام : ١٦٢] أَنَّ حَيَاةَ الْمُؤْمِنِ لَيْسَتْ مَجْمُوعَ وَحْدَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ مُضَادَّةٍ ، بَلْ هِيَ
وَحْدَةٌ تَسِيطِرُ عَلَيْهَا رُوحُ الْعِبَادَةِ وَالْاِحْتِسَابِ ، وَيَقُودُهَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْإِسْلَامِ
لْأَوَامِرِ ، وَهِيَ تَشْمَلُ شَعَبَ الْحَيَاةِ كُلِّهَا ، وَمِيَادِينَ الْكِفَاحِ كُلِّهَا ، وَأَصْنَافَ
الْعَمَلِ كُلِّهَا ، إِذَا تَحَقَّقَ الْإِخْلَاصُ ، وَصَحَّتِ النِّيَّةُ ، وَأُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ ،
وَكَانَتْ عَلَى الْمَنْهَجِ الصَّحِيحِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ .

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ الْوَحْدَةِ وَالْوِثَامِ وَالْاِنْسِجَامِ بِالْكَمَالِ وَالْتِمَامِ ،
وَأَنَّهُ الْبَشِيرُ وَالنَّذِيرُ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ ، إِنَّهُ قَضَى عَلَى نَظَرِيَةِ الْاِنْفِصَالِ بَيْنَ الدِّينِ

(١) كتب الحديث زاخرة بالآثار الدالة على ذلك . انظر أبواب الإخلاص ، والنية ، والإيمان ،
والاحتساب .

والدنيا ، فجعلَ الحياةَ كُلَّها عبادةً ، وجعلَ الأرضَ كُلَّها مسجداً ، وأخذَ بيدَ الإنسانِ منْ معسكراتِ متحاربةٍ متصارعةٍ ، إلى جبهةٍ واحدةٍ واسعةٍ من العملِ الصالحِ ، وخدمةِ الإنسانيةِ النافعةِ ، وابتغاءِ مرضاةِ اللهِ ، فترى هناكَ ملوكاً في أطمارِ الفقراءِ ، وزهاداً في زِيِّ الملوكِ والأمراءِ ، جبالَ حلمٍ وينايعُ علمٍ ، عبّادُ ليلٍ وأحلاسُ خيلٍ ، منْ غيرِ تناقضٍ أو صعوبةٍ ، واختلالٍ أو تعسفٍ .

٦ - تعيينُ الأهدافِ والغاياتِ وميادينِ العملِ والكفاحِ :

المأثرةُ السادسةُ ، أو الانقلابُ السادسُ الذي أحدثهُ محمدٌ ﷺ في الحياةِ البشريةِ ، أَنَّهُ هَدَى الإنسانَ إلى محلٍّ لائقٍ كريمٍ يصرفُ فيه قواهَ ، ورفعَهُ إلى أجواءٍ فسيحةٍ عاليةٍ يحلُّقُ فيها .

كَانَ الإنسانُ قَبْلَ البعثةِ المحمديَّةِ جاهلاً لهدفِهِ الحقيقيِّ ، لا يدري إلى أينَ يَتَّجِهْ ، وإلى أينَ المصيرُ ؟ وما هوَ المجالُ الأفضلُ والحقيقيُّ لمواهبِهِ وطاقاتِهِ وجهودِهِ ؟

إنَّهُ وَضَعَ لِنَفْسِهِ مقاصدَ وهميةً صناعيةً ، وحصرَ نَفْسَهُ في دوائرٍ ضيقةٍ محدودةٍ ، كَانَتْ تستنفدُ قواهَ وطاقاتِهِ وذكاءَهُ ، وَكَانَ المثلُ الأعلى عندهُ للرجلِ الناجحِ واللامعِ منْ يكونُ أكثرَ جمعاً ومالاً ، وأوسعَ نفوذاً وقوةً ، متحكِّماً في أكبرِ مجموعةٍ من البشرِ ، وأوسعِ بقعةٍ من بقاعِ المعمورةِ .

كَانَ هناكَ ملايينٌ لم يَزِدْ طموحُهُم على التمتعِ بألوانِ زاهيةٍ ، وأصواتِ مطربةٍ ، وأطعمةٍ لذيذةٍ ، وأكثرَ منْ تقليدِ البلبَلِ في صوتِهِ ، أو الطاووسِ في لونهِ ، بلْ أكثرَ منْ مسابرةِ الماشيةِ والغنمِ ، والأنعامِ والدوابِ .

كَانَ هناكَ آلافٌ عاشوا دائماً بينَ بلاطِ الملوكِ ، وحاشيتِهِم ، وبذلُوا نبوغَهُم وذكاءَهُم في الترفُّفِ إلى الأمراءِ ، والتملُّقِ أمامَ الأغنياءِ ، أو الخضوعِ للجبابرةِ

والأقوياء، أو التسليّ بالأدبِ الفارغِ الذي لا قيمةَ لَهُ في الدُّنيا والآخرة .

فجاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ وجعلَ غايَتَهُ الأخيرةَ الحقيقيةَ ، وهدفَهُ الأعلى المنشودَ نصبَ عَيْنِهِ ، وأرسخَ في قلبِ الإنسانِ : أنَّ المجالَ الحقيقيَّ لجهدِهِ واجتهادِهِ ، ومواهبِهِ وأشواقِهِ ، وطموحِهِ وسُموِّهِ ، وطيْرانِهِ وتحليقِهِ ، هوَ معرفةُ فاطرِ السمواتِ والأرضِ ، وإطلاعُ على صفاتِهِ ، وقدرتِهِ وحكمتِهِ ، وسعةِ ملكوتِ السمواتِ والأرضِ وعظمتِها وخلودِها ، والحصولِ على الإيمانِ واليقينِ ، والفوزِ برضوانِ اللهِ وحدهُ ، والرضا بهِ وبقدَرِهِ ، والبحثِ عن وحدةٍ تُولَفُ بينَ الأجزاءِ المتناثرةِ أحياناً ، والمتناقضةِ أحياناً أخرى ، وتنميةِ قواهِ الباطنةِ ، ومداركِهِ الروحيةِ للوصولِ إلى درجاتِ القربِ واليقينِ ، والحثُّ على خدمةِ الإنسانيةِ ، والإيثارِ والتضحيةِ ، والوصولِ بذلكَ إلى مكانٍ لا تصلُ إليهِ الملائكةُ المقربونَ ، وتلكَ هي السعادةُ الحقيقيةُ للإنسانِ ، ونهايةُ كمالِهِ ، ومعراجُ قلبِهِ وروحِهِ .

وِلَادَةُ عَالَمٍ جَدِيدٍ وَإِنْسَانٍ جَدِيدٍ

لَقَدْ تَغَيَّرَتِ الدُّنْيَا بَعْدَ بَعَثَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِفَضْلِ تِلْكَ التَّعَالِيمِ السَّامِيَةِ ، كَمَا يَتَغَيَّرُ الطَّقْسُ ، وَانْتَقَلَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنْ فَصْلِ كُلِّ جَدْبٍ وَخَرِيفٍ ، وَسَمُومٍ وَحَمِيمٍ ، إِلَى فَصْلِ كُلِّ رَبِيعٍ وَأَزْهَارٍ ، وَجَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، تَغَيَّرَتِ طَبَاعُ النَّاسِ ، وَأَشْرَقَتِ الْقُلُوبُ بِنُورِ رَبِّهَا ، وَعَمَّ الْإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ ، وَاطَّلَعَ الْإِنْسَانُ عَلَى طَعْمِ جَدِيدٍ لَمْ يَأْلَفْهُ ، وَذُوقِ لَمْ يُجَرِّبْهُ ، وَهِيَامٍ لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْ قَبْلُ .

انْتَعَشَتِ الْقُلُوبُ الْخَاوِيَةُ الضَّامِرَةُ الْبَارِدَةُ الْهَامِدَةُ ؛ بِحَرَارَةِ الْإِيمَانِ وَقُوَّةِ الْحَنَانِ ، اسْتَضَاءَتِ الْعُقُولُ بِنُورٍ جَدِيدٍ ، وَسَكَرَتِ النُّفُوسُ بِنَشْوَةِ جَدِيدَةٍ ، وَخَرَجَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ أَفْوَاجاً تَطْلُبُ الطَّرِيقَ الصَّحِيحَ وَمَحَلَّهَا الرَّفِيعَ ، وَتَحَنُّ إِلَى مَكَانَتِهَا السَّامِقَةِ الْعَالِيَةِ ، فَلَا تَرَى أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ ، وَبِلَدًا مِنَ الْبِلَادِ ، إِلَّا وَهَوَّ يَرِيدُ السَّبَاقَ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ ، وَيَتَنَافَسُ فِيهِ ، فَمَا تَرَى الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ ، وَمِصْرَ وَالشَّامَ ، وَتُرْكِسْتَانَ وَإِيرَانَ ، وَالْعِرَاقَ وَخِرَاسَانَ ، وَشِمَالِي إفْرِيقِيَّةَ ، وَالْأَنْدَلُسَ وَبِلَادَ الْهِنْدِ ، وَجَزَائِرَ شَرْقِ الْهِنْدِ ، إِلَّا سُكَارَى هَذَا الْحَبِّ الْعُلُويِّ ، وَالْفَيْضِ السَّمَائِيِّ ، وَعُشَّاقَ هَذَا الْهَدَفِ السَّامِيِّ ، وَفُقَرَاءَ عَلَى هَذَا الْبَابِ الْعَالِيِّ .

كَانَ يَبْدُو أَنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ أَفَاقَتْ وَاسْتَيْقَظَتْ ، وَفَتَحَتْ عَيْنُهَا بَعْدَ سُبَاتٍ عَمِيقٍ طَوِيلٍ ، دَامَ قَرُونًا طَوِيلَةً ، فَأَرَادَتْ أَنْ تَتَذَارَكَ مَا فَاتَهَا حَتَّى عَمَرَ كُلُّ جُزْءٍ

من أجزائها ، وكلُّ ركنٍ من أركانها بدعةٍ ربانيّين مُخلصين ، مجاهدين مُصلحين ، مريّين ، عارفين بالله ، متحرّقين لخلق الله ، باذلين أنفسهم ونفيسهم لخير الإنسانية ، وإنقاذها من الخطر المحدق بها من كلّ جانب ، رجالٌ تحسدهم الملائكة ، فأشعلوا مجامر القلوب الباردة ، وأزكّوا شعلة الحبّ الإلهيّ ، وفجّروا أنهار العلوم والآداب ، والحكم والمعارف ، وفتحوا ينبوعاً فياضاً ، متدفّقاً من العلم والعرفان ، والإيمان والحنان ، وأنشؤوا في نفوس البشرٍ مقتاً شديداً للظلم والجور ، والعدوان والبغضاء ، ولقّوا الشعوب المضطّهدة ، المهانة الذليلة ، دروس المساواة ، وضّموا المنبوذين والمهجورين ، والمساكين الذين لفظهم المجتمع ، وطردهم أهلهم وعشيرتهم ؛ إلى صدورهم العامرة بالحب والحنان ، إنك تجد آثارهم ، وتلمس آياتهم على كلّ جزءٍ من أجزاء البسيطة كمواقع القطر ، لا يخلو منها بيتٌ وبر ، ولا مدر .

وانظر في جوهر أعمالهم وكيفيّتها (Quality) فضلاً عن كمّيّتها (Quantity) وشاهد سمو أفكارهم ، وتحليقها في أجواء وآفاق رفيعة ، وانظر شعورهم المرهف ، وروحهم اللطيفة الوداعة الرقيقة ، وذكاءهم الوقاد ، وطبعهم السليم ، وكيف كانوا يتوجّعون للإنسانية ويذوبون لها كالشمعة ، وكيف كانت نفوسهم وأرواحهم تتلوى وتذوب في نار الأسى والإشفاق ، والعطف على الخلق ، والحرص على ما فيه نفعه وصلاحه ، كيف كانوا يقعون في المهالك ، ويرحّبون بالخسائر لإنقاذ الناس ، ودفع البلاء عنهم ، كيف كان حكامهم وولاة أمورهم ، يُصرّفون الأمور ، ويشعرون بالمسؤوليّة ، يعشّون بالليل ويرابطون على الثغر ، وكيف كان الشعب منسجماً معهم ، مُطيعاً لأوامرهم .

واقراً - أيضاً - أخبارَ عبادَتِهِمْ ، وزهدهم ، وحالتِهِمْ في الدعاءِ ، ومكارمِ أخلاقِهِمْ ، وشهادَتِهِمْ على نفوسِهِمْ ، واحتسابِهِمْ لها ، وحبِّهِمْ للصغارِ ، والضعفاءِ ، ولينِ قلوبِهِمْ مع الإخوانِ والأصدقاءِ ، وكرمِهِمْ وسماحِهِمْ ، وعفويهِمْ وصفحِهِمْ عن الأعداءِ ، وسوفَ ترى أنَّ أحلامَ الشعراءِ والأدباءِ ، وخيالَهُم الخصبِ ، وقريحَتَهُم الفياضةَ ، لا تصلُ إلى تلكَ القمَّةِ العاليةِ التي وصلَ إليها هؤلاءُ في عالمِ الحقيقةِ والواقعِ ، ولولا تواترُ ما جاءَ في هذا البابِ واستفاضتُهُ ، ولولا شهاداتُ التاريخِ الموثوقِ بها ، بدتْ هذهُ الأخبارُ كقصصٍ وأساطيرَ نسجها الخيالُ .

إنَّ هذا الانقلابَ العظيمَ ، والدورَ الزاهرَ الجديدَ معجزةٌ من معجزاتِ محمدٍ ﷺ ومأثرةٌ من مآثرِ بعثتهِ ، ونفحةٌ من نفحاتِ الرحمةِ الإلهيةِ التي عمَّتْ الأمكنةَ كلَّها ، والأزمنةَ كلَّها ، وصدقَ اللهُ العظيمُ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .



جداول
الغزوات والسرايا
والأحداث المتعلقة بالسيرة النبوية^(١)

(١) هذه إضافة المحقق إلى الكتاب من « رحمة للعالمين » للقاضي محمد سليمان المنصور فوري .

أ- الغزوات

الملحق رقم (١)

الملاحظة	النتيجة	خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم الغزوة وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		خسارة العدو القتل أو الأسير	خسارة الجريح أو الشهيد						
	عاهد عمرو بن مخشي الضمري على الأيمن قريناً ولا المسلمين.					النبي ﷺ	٧٠	غزوة ودان وهي غزوة الأبواء، وقعت في صفر المظفر سنة ٢هـ	١
رضوي : اسم جبل بالقرب من ينبع.	بلغ إلى بواط من ناحية رضوي ثم رجع إلى المدينة، لقي في الطريق قريناً وأمياً.			أمية بن خلف	١٠٠	النبي ﷺ	٢٠٠	غزوة بواط، وقعت في ربيع الأول سنة ٢هـ	٢
كان كرز بن جابر قد أغار على مواشي لأهل المدينة	خرج في طلب العدو حتى بلغ صفوان فلم يدركه			كرز بن جابر الفهري		النبي ﷺ	٧٠	غزوة صفوان أو غزوة بذر الأولى، وقعت في ربيع الأول سنة ٢هـ	٣

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو القتل	خسارة المسلمين الجهنم أو الأسير	اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم الغزوة وتاريخ وقوعها	الرقم السلسل
فوز العشيرة موضع بين مكة والمدينة من بطن ينبع .	وانع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضيرة .					النبي ﷺ	١٥٠	غزوة ذي العشيرة ، وقعت في جمادى الآخرة سنة ٢ هـ	٤
بين بدار ومكة سبعة منازل ، وبين بدار والمدينة ثلاثة منازل لما علم بخروج قريش إلى المدينة ارتحل دفاعاً عن المسلمين .	انتصر المسلمون على العدو .	٧٠	٧٠	أبو جهل	١٠٠٠	النبي ﷺ	٣١٣	غزوة بدر الكبرى ، وقعت في رمضان سنة ٢ هـ	٥
أتوا بالشر في المدينة حين كان المسلمون في بدار فأجلوا لذلك	تم إجلاؤهم			قبيلة بني قينقاع		النبي ﷺ		غزوة بني قينقاع ، في شوال سنة ٢ هـ	٦
بعث أبو سفيان رجلاً من قريش إلى المدينة فأتوا ناحية منها	خرج النبي ﷺ في طلبه فلم يدر كره .		٢	أبو سفيان الأموي	٢٠٠	النبي ﷺ	٢٠٠	غزوة السويق ، في ذي الحجة سنة ٢ هـ	٧

الرقم المسلسل	اسم الغزوة وتاريخ وقوعها	عدد المسلمين	اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	خسارة المسلمين الجرع أو الأسير	خسارة العدو الجرع أو الأسير	النتيجة	الملاحظة
٨	غزوة قرقرة الكدر، أو غزوة بني سليم، وقعت في محرم الحرام سنة ٢ هـ	٢٠٠	النبي ﷺ		قبيلة بني غطفان وبني سليم		١	خرج العدو يغزو المدينة فانصرف حين رأى جمعاً من المسلمين.	أمر عبد اسمه يسار فأطلق سراحه.
٩	غزوة ذي أمر، أو غزوة غطفان أو غزوة أنمار، وقعت في ربيع الأول سنة ٣ هـ	٤٥٠	النبي ﷺ		بنو ثعلبة وبنو محارب			اجتمعت بنو ثعلبة وبنو محارب للإغارة على المدينة فانصرفوا حين رأوا جمعاً من المسلمين.	خرج النبي ﷺ في أصحابه حتى بلغ نجداً وهنا أسلم الذي كان هم يقتل رسول الله ﷺ.
١٠	غزوة أحد، وقعت في شوال سنة ٣ هـ	٢٥٠ رجلاً		٢٨٠٠ رجلاً ٢٠٠ رجلاً ٣٠٠٠	أبو سفيان الأموي	٤٠ جريحاً ٧٠ شهيداً	٣٠ قتيلًا	لحققت خسارة فادحة بالمسلمين ولكن فشل الكفار نتيجة لرعب أصحابهم.	بين أحد وبين المدينة ثلاثة أميال كان الأعداء زحفوا من مكة إلى أحد.
١١	غزوة حمراء الأسد،	٥٤٠	النبي ﷺ	٢٩٧٠	أبو سفيان		٢ أبو عزة	خرج النبي ﷺ	لما كان الغد من يوم

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم الغزوة وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		الجريح القتل	أو الأسير	الشهيد	الجريح أو الأسير						
أحد خرج المسلمون إلى معسكر العدو لئلا يغير عليهم ثانية ظاناً بهم ضعفاً، أسر رجلاً وقتل أبو عزة الشاعر لأنه كان وعد في بدر بأنه لا يظهر أبداً على المسلمين ثم نقض عهده، وحث المشركين على المسلمين.	مربعاً للعدو.	ومعاوية ابن العنبرة								وقعت في ٧ من شوال المكرم سنة ٣هـ	
كانت بنو النضير في المدينة ولما أرادوا الغزو بالمسلمين. أجلبوا إلى أرض خيبر، وقد وقعت غزوة خيبر جزاء شرهم	تم إجلاؤهم بأنهم هموا بقتل الرسول ﷺ.					النبي ﷺ				غزوة بني النضير، وقعت في ربيع الأول سنة ٤هـ	١٢

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم الغزوة وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		الجريح القتل	أو الأسير	الشهيد	الجريح أو الأسير						
خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل بناحية الظهران أو عسفان، ولما علم النبي ﷺ بقدومه، خرج إليه فرجع أبو سفيان فرجع النبي ﷺ أيضاً.	لم تحدث مواجهة.					أبو سفيان الأموي	٢٠٠٠ راجل، ٥٠ ركباً ٢٠٥٠	النبي ﷺ	١٥٠٠ راجل، ١٠ ركباً ١٥١٠	غزوة بدر الأخرى، وقعت في ذي القعدة سنة ٤ هـ	١٣
كان النبي ﷺ سمع باجتماع حاشد بدومة الجندل للإغارة على المدينة فخرج إليها فعلم بكذبه فرجع وواعد عيينة بن حصين في الطريق.	رجع رسول الله ﷺ قبل أن يصل إليها ولم يلق كيداً.					أهل دومة		النبي ﷺ	١٠٠٠	غزوة دومة الجندل، في ربيع الأول سنة ٥ هـ	١٤
بلغ النبي ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له	انهزم العدو وأطلق الأسرى كلهم.	١٠	١٩			الحارث بن ضرار سيد بني		النبي ﷺ		غزوة بني المصطلق، وقعت أو المريسيع، وقعت	١٥

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم الغزوة وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		الجريح القتيل	أو الأسير	الشهيد	الجريح أو الأسير						
وقادتهم الحارث بن أبي ضرار، فبعث إليهم بريدة الأسلمي يأتيه منها بخبر فعلم بصحته فخرج إليهم فقاتله بنو المصطلق فقط وفر الباقون.	انقلب العدو خائباً خاسئاً.	١٠	٦	أبو سفيان الأموي وغيره	١٠٠٠٠	النبى ﷺ	٣٠٠٠	غزوة الأحزاب أو الخندق، وقعت في شوال المكرم أو في ذي القعدة سنة ٥ هـ	١٦	في شعبان المعظم سنة ٥ هـ	
إن نفراً من اليهود دعوا قريشاً والقبائل الأخرى للحرب ضد المسلمين فضرب المسلمون الخندق على المدينة دفاعاً عن أنفسهم . فعناصرهم الأعداء شهراً ثم انشعروا راجعين إلى بلادهم .											

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو	خسارة المسلمين	اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم الغزوة وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		الجريح القتيل أو الأسير	الجريح الشهيد أو الأسير						
كان لبني قريظة عقد مع المسلمين فلما أرادوا الغدر أسروا فحكم رسول الله رجلاً في بني قريظة ليحكم بما أنزل الله، فحكم بقتل أربعين رجلاً حسب التوراة التي كانوا يؤمنون بها وهذا العدد مسروي عن جابر في الترمذي وفي مسند الإمام أحمد وسنن الدارمي (١).	من الأعداء من قُتل ومنهم من أسر.	٤٠٠	٢٠٠	٤	بنو قريظة	النبي ﷺ		غزوة بني قريظة، وقعت في ذي الحجة سنة ٥ هـ	١٧

(١) أخرجه الترمذي في أبواب السير، باب ما جاء في النزول على الحكم، برقم (١٥٨٢)، وقال: حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد في المسند (٣/٣٥٠)، والدارمي في السنن في كتاب السير، باب نزول أهل بني قريظة على حكم سعد بن معاذ، (٢٣٨/٢) وصححه إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (٤١٤/٧) وقال: «واختلف في عدتهم، فعد ابن إسحاق أنهم كانوا أئمة، وبه جزم أبو عمرو في ترجمة سعد ابن معاذ، وعند ابن عائد من مُرْسَل قتادة وكانوا سبعين»، وقال السهيلي: المكبر يقول إنهم ما بين الثمانين إلى التسعين، وفي حديث جابر عند الترمذي والنسائي وابن حبان بإسناد صحيح أنهم كانوا أربعين =

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم الغزوة وتاريخ وقوعها	الرقم السلسل
		القتيل	الجريح	القتيل	الجريح						
كانت هذه الغزوة لتأديب أهل الرجيع الذين كانوا قتلوا عشرة من الدعاة الأبرياء (انظر رقم ٢٢).	تفرق العدو حين علم بقدم النبي ﷺ إليه.					بنو لحيان من بطون هذيل		النبي ﷺ	٢٠٠	غزوة بني لحيان، وقعت في ربيع الأول سنة ٦هـ.	١٨
عدت هذه العصابة من الثَّهَاب على لقاح لرسول الله ﷺ وقتلوا رجلاً واحتملوا المرأة على اللقاح فخرج رجال من أصحابه في طلبهم ثم لحقهم النبي ﷺ بهم.	أغاروا على لقاح لرسول الله ﷺ فخرج المسلمون في طلبهم فلحقوا بهم.	١		٣	امراة	خيل من غطفان تحت قيادة عيينة واحدة الفزاري		النبي ﷺ مع سلمة بن الأكوع الأسلمي	٥٠٠	غزوة ذي قردة أو الغابة وقعت في ربيع الآخر سنة ٦هـ.	١٩
كان النبي ﷺ خرج معتمراً فصدته قرش	تم الصلح بين المسلمين وبين					سهيل بن عمرو القرشي	أهل مكة	النبي ﷺ	١٤٠٠	غزوة الحديبية في ذي القعدة سنة ٦هـ.	٢٠

مقاتل، فيجتمعت في طريق الجمع أن يقال: إن الباقيين كانوا أتباعاً، وقد حكى ابن إسحاق أنه قيل: إنهم كانوا تسعة ٩.

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم الغزوة وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		القتل	الجريح	الشهيد	الجريح						
عن البيت في الحديبية التي بينها وبين مكة أربعة عشر ميلاً فتم فيها الصلح.	قريش لعشر سنوات ورجع النبي ﷺ.										
سبق لليهود أن قاتلوا المسلمين في أحد والأحزاب، وكانوا يريدون بعدها غزو المدينة فخرج النبي ﷺ إلى خيبر فأفسد عليهم نوابهم العدوانية	فتح الله للمسلمين فتحاً ميباً.	٩٣		١٨	٥٠ جريحاً	يهود خيبر كثانة ابن أبي الحقيق	١٠٠٠٠	النبي ﷺ	١٤٠٠ رجل، ٢٠ امرأة ممرضة ١٤٢٠	غزوة خيبر، وقعت في محرم الحرام سنة ٧هـ	٢١
		١١				اليهود من سكان وادي القرى		النبي ﷺ	١٣٨٢	غزوة وادي القرى، وقعت في محرم الحرام سنة ٧هـ	٢٢
اختلف العلماء هل دخل النبي ﷺ مكة فاتحاً أم مصالحاً؟	انتصر المسلمون.	١٢		٢		قريش مكة		النبي ﷺ	١٠٠٠٠	غزوة فتح مكة، وقعت في رمضان سنة ٨هـ	٢٣

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم الغزوة وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		الخارج القتل	أو الأسير	الشهيد	الجريح أو الأسير						
والمحققة أنه ﷺ كان أمر الجيوش بأن تدخلها ولا تستخدم الأسلحة ما لم تتعرض لها جماعة مسلحة، فدخلت الجيوش مكة بطرق متفرقة ولم تتعرض لها إلا كتيبة من الجنود، فدخل النبي ﷺ مكة وجعل الناس كلهم طلقاء لا ترتب عليهم.	انتصر المسلمون.	٧١	٦٠٠٠	٦		النبي ﷺ	بنو هوازن وبنو قتيقف وبنو معز وبنو أحسم		١٢٠٠٠	غزوة حنين أو أوطاس أو هوازن، وقعت في شوال سنة ٨هـ.	٢٤
أطلق النبي ﷺ جميع الأسرى دون عوض وأعطاهم الكسوة كذلك.											

الرقم المسلسل	اسم الغزوة	عدد المسلمين	اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	خسارة المسلمين الجريح الشهيد	خسارة العدو الجريح القتل	النتيجة	الملاحظة
٢٥	غزوة الطائف، وقعت في شوال سنة ٨هـ	١٢٠٠٠	النبي ﷺ	بنو ثقيف		١٣ جمع كثير	جمع كثير	رجع النبي ﷺ بعد محاصرة دامت شهراً. عليه وأسلموا.	لما رفع النبي ﷺ عنهم الحصار قدموا عليه وأسلموا.
٢٦	غزوة تبوك، وقعت في رجب سنة ٩هـ	٣٠٠٠٠	الرسول ﷺ	هزئيل قيصر الروم				قام النبي ﷺ بالتجمع مع أصحابه وأرهب الأعداء ثم رجع إلى المدينة.	كان بلغ النبي ﷺ أن هزئيل يريد الإغارة على المدينة ليفسل العمار الذي لحقه في وقعة مؤتة، فخرج النبي ﷺ إلى الثغور فأصاب الذعر الأعداء فقعدوا عن الحرب.
٢٧	غزوة ذات الرقاع، وقعت في محرم الحرام سنة ٧هـ	٤٠٠	النبي ﷺ	بنو غطفان وبنو محارب وبنو ثعلبة وبنو أنمار				تفرق العدو.	كانت بنو غطفان قد جمعوا جمعوا من بني محارب وبني ثعلبة وبني أنمار للإغارة على المسلمين، فلما قام المسلمون بجشودهم تفرقوا جميعاً.

ب - السرايا

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو	خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
			الجريح القتل	الجريح الأسير						
بعثت هذه السرية لدراسة أحوال مكة، وجد الأعداء أن المسلمين متتهون فانصرفوا عنهم.	انصرف المسلمون دون قتال.				أبو جهل	٣٠٠	حمزة بن عبد المطلب	٣٠ راكباً	سرية سيف البحر، وقعت في رمضان سنة ١ هـ	١
بعثت هذه السرية لتفقد أحوال أهل مكة فرأت جمعاً عظيماً من قريش بأسفل ثنية المرة	انصرف المسلمون دون قتال.				عكرمة وأبو سفيان	٢٠٠	عبيد بن الحارث ^(١)	٦٠	سرية الربيع، وقعت في شوال سنة ١ هـ	٢
	خرج حتى بلغ الجحفة ثم رجع ولم يلق كيداً.						سعد بن أبي وقاص ^(٢)	٨٠	سرية ضرار، وقعت في ذي القعدة سنة ١ هـ	٣
أرسلوا لاستطلاع	أطلق الأسيران وودى				قافلة تحت		عبد الله بن جعش	١٢	سرية النخلة، وقعت	٤

- (١) يوجد ذكره في شهادة كربلاء .
 (٢) هو أحد المشركين المبشرين بالجنة، وأحد الستة الذين جعلهم عمر رضي الله عنه أهلاً للخلافة، فاتح فارس ومؤسس الكوفة، وخاض وقائع كثيرة في سبيل الله، وسابع الستة الذين أسلموا، توفي سنة ٤ هـ .

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية	تاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		القتل	الجريح القليل	الجريح القليل	الشهيد							
فريش فوق الصدام. قتل عمير أخيه التي كانت تحض قومها على الحرب ضد المسلمين.	القتل	قتلت عصماء				قيادة بني أمية عصماء بنت مروان	١	عمير ^(١)	١	سرية عمير بن العدي الخطمي، وقعت في رمضان سنة ٢ هـ	٥	
كان أبو علفك اليهودي يستفز اليهود على المسلمين. قتلته سالم.	قتل اليهودي	قتل				أبو علفك اليهودي	١ الخطمي	سالم ^(٢)	١	سرية سالم بن عمير الأنصاري، وقعت في شوال سنة ٢ هـ	٦	
بعثت هذه السرية إكمالاً إذ اجتمع الأعداء مرة ثانية.	قتل عدة من الأعداء وفروا بالاقون.				٣	قبيلة بني عطفان وبني سليم		غالب بن عبد الله الليثي		سرية قوقة الكدار، وقعت في سنة ٢ هـ	٧	
كان كعب بن الأشرف يحرص القبائل من		١			١	كعب بن الأشرف اليهودي	١	محمد بن مسلمة الأنصاري ^(٣) الخزرجي		سرية محمد بن مسلمة وقعت في ربيع الأول سنة ٢ هـ	٨	

- (١) هو أول من أسلم من بني خطمة، كان إمام قومه وكانت عيناه ضعيفتين، والده عدي بن خرقة شاعر شهير .
- (٢) شهد بديراً وأحداً والخندق، وكان يبيكي خوفاً من الله . توفي في إمارة معاوية .
- (٣) هو من كبار الصحابة ، استعمله رسول الله ﷺ مرة على المدينة في غيابه عنها ، كان يبعزل عن الناس أيام الفتنة . توفي سنة ٤١ هـ بالمدينة وهو ابن سبع وسبعين سنة .

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		القتيل	الجريح أو الأسير	الشهيد	الجريح أو الأسير						
المسلمين ضد اليهود ودعا قريناً إلى الحرب فوُقت غزوة أحد.											
أسر فورات بن حيان دليل القافلة التجارية فأسلم.	خرج زيد بن حارثة في بحث فتلقى قريناً في طريقهم إلى العراق.	١				أبو سفيان الأموي		زيد بن حارثة رضي الله عنه	١٠٠	سرية قودة، وقعت في جمادى الآخرة سنة ٣هـ	٩
هو رئيس قطاع الطريق أراد الإغارة على المدينة ولكن المسلمين تظاهروا فوصلوا إلى قطن وهو مسكنه فتفرق جميعه.	لم يتمكنوا من الإغارة على المدينة بمظاهرة.					طلحة ، وسلمة		أبو سلمة المخزومي	١٥٠	سرية قطن أو سرية أبي سلمة المخزومي، وقعت في غرة محرم الحرام سنة ٤هـ	١٠
سمع عبد الله بأن سفيان استنفر قوماً ضد المسلمين بعرة فوصل إليها وقتل بها سفيان.	استنفر قوماً ضد المسلمين بعرة فوصل إليها وقتل بها سفيان.	١				سفيان الهذلي	١	عبد الله بن أنيس الجهني الأنصاري	١	سرية عبد الله بن أنيس وقعت في ٥ من محرم الحرام سنة ٤هـ	١١

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو القتل	خسارة المسلمين الشهيد	خسارة المسلمين الجريح أو الأسير	اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
كانت سلامة امرأة طلحة قد جعلت مئة ناقة لمن يقتل عاصمًا، فقدم رهط من قبيلتها على رسول الله ﷺ واستصحبوا عشرة من القراء فقتلوا منهم ثمانية وابعوا منهم اثنين بمكة فصلبهما أهل مكة وبقي جثمانهما على الغنبة أربعين يومًا. وفي كتب السيرة أنهم كانوا سنة وفي البخاري أنهم كانوا عشرة.	استشهد عشرة من القراء.		١٠		عاصم بن ثابت أو مرثد بن الغنوي	١٠٠	قبيلة عضل والقارة	١٠	سرية الرجيع، وقعت في صفر المظفر سنة ٤هـ	١٢

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو	خسارة المسلمين	الجريح أو الأسير	الجريح أو الأسير	القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو	خسارة المسلمين	الجريح أو الأسير	الجريح أو الأسير	القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
قدم عامر بن مالك على رسول الله ﷺ وقال يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعهم إلى أمرك فبعث رسول الله ﷺ سبعين رجلاً من أصحابه، فلما نزلوا ببئر معونة غشيتهم قبائل من بني سليم من رعل وذكوان وقتلهم إلا عمرو بن أمية الضمري فإنه كان في سرح القوم.	استشهد تسع وستون من الدعاة.					منذر بن عمرو	جماعة كبيرة عامر بن مالك	منذر بن عمرو	٧٠	سرية بئر معونة أو سرية طرز، وقعت في صفر سنة ٤هـ.	١٣
وجد عمرو بن أمية الضمري الذي كان	بما أن عمرو بن أمية الضمري كان قتل	٢				من قبيلة بني كلاب	٢	عمرو بن أمية الضمري	١	سرية عمرو بن أمية الضمري، وقعت في	١٤

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		القتل	الجريح أو الأسير	الشهيد	الجريح أو الأسير						
يرجع إلى المدينة من بين السبعين قارئاً رجلين في ظلّ رسول الله ﷺ ودّى رجلاً في ظلّ رسول الله ﷺ. فأمهلهم حتى إذا نأما قتلهم بطن أنهما من جماعة القاتلين.	رجلين من قبيلتين كان معهما عقد من رسول الله ﷺ ودّى رجلاً في ظلّ رسول الله ﷺ. فأمهلهم حتى إذا نأما قتلهم بطن أنهما من جماعة القاتلين.									ربيع الأول سنة ٤ هـ	
هو الذي تولى تحريض القبائل على المسلمين في غزوة الأحزاب وكان يدعو إلى جميع القبائل فقتله عبد الله في مضجعه ليلاً.	قتل العدو.	١				سلام بن أبي الحقيق من يهود خيبر	١	عبد الله بن عتيك ^(١) الأنصاري الخزرجي	٥	سرية عبد الله بن عتيك وقعت في ذي القعدة سنة ٥ هـ	١٥
رأى محمد بن مسلمة أن ثمامة يذهب إلى أسر ثمامة فاطلقه رسول الله ﷺ.	أسر ثمامة فاطلقه رسول الله ﷺ.	١				ثمامة بن أثال	٣٠	محمد بن مسلمة الأنصاري	٣٠	سرية القرطاء، وقعت في محرم الحرام سنة ٦ هـ	١٦

(١) شهد أحداً واستشهد في غزوة اليمامة كانت قد تمهده في انكسرت في السرية المذكورة فمسخ الرسول ﷺ يده عليها فبرأه .

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		الجريح القتل	أو الأسير	الشهيد	الجريح أو الأسير						
المدينة فحال دونه فأسره فجاء به إلى رسول الله ﷺ فأطلقه رسول الله ﷺ فأسلم لحسن خلق النبي ﷺ وكان ثمانية سيد نجد.											
كان بنو أسد قد أجمعوا الإغارة على المدينة فبعث إليهم هذه السرية.	تفرق الأعداء ولم تكن المواجهة. أسرت متان من الإبل لهم.					بنو أسد		عكاشة بن محصن الأسدي ^(١)	٤٠	سرية عكاشة بن محصن أو سرية غفر مرزوق، وقعت في ربيع الآخر سنة ٦هـ	١٧
كان عشرة من القراء ذهبوا يبلغونهم وبينما هم نائمون إذ عمد إليهم بنو ثعلبة فقتلواهم.	استشهد تسعة من الدعاة وأصيب محمد ابن مسلمة بجرح.			٩	١	بنو ثعلبة	١٠٠	محمد بن سلمة	١٠	سرية ذي القصة في ربيع الآخر سنة ٦هـ	١٨

(١) هو من كبار الصحابة قتله المرتدون في خلافة أبي بكر وهو ابن التثني وأربعين سنة، شهد المشاهد كلها من أحد وبندر وغيرها . كان يشبه النبي ﷺ بأنه يدخل الجنة بغير حساب .

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		القتل	أو الأسير	الشهيد	الجريح	أو الأسير					
بعثت هذه السرية لتصيب بنار الذين استشهدوا في ذي القصة.	انصرف العدو وغنم المسلمون ما كان لهم من المتاع.	١				بنو ثعلبة		أبو عبيدة بن الجراح	٤٠	سرية بني ثعلبة، وقعت في ربيع الآخر سنة ٦ هـ	١٩
كانت امرأة يقال لها حليلة قد دلت زيد بن حارثة على محلة من محال بني سليم وقد ذكرنا عدد الأسرى على وجه التقدير.	أسر رجال فأطلقهم النبي ﷺ، وفيهم كان زوج المرأة المخيرة.	١٠ الأسرى				بنو سليم		زيد بن حارثة		سرية الجصوم، وقعت في ربيع الآخر سنة ٦ هـ	٢٠
بعثت هذه السرية لمعاينة المجرمين بذئ القصة . انظر الرقم (١٨).	هرب الأعداء وأصاب المسلمون عشرين بغيراً.					بنو ثعلبة		زيد بن حارثة	١٥	سرية الطرف أو الطرق، وقعت في جمادى الآخرة سنة ٦ هـ	٢١
كان زيد بن حارثة ذهب إليهم للجولة	قتل من المسلمين تسعة رجال وجرح واحد.			٩	١ جريحاً	سكان وادي القرى		زيد بن حارثة	١٢	سرية وادي القرى، وقعت في رجب سنة ٦ هـ	٢٢

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		القائد	اسم الأعداء	عدد القتلى	اسم القائد	عدد المسلمين	عدد السرىة	اسم السرىة	الرقم السلسل
		القتل	الأسير	الجريح	الشهيد								
فعلوا عليه وعلى أصحابه.													
أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانياً وأسلم معه ناس كثير من قومه.	تحقق نجاح ملموس في مجال الدعوة.						قبيلة بني كلب الأصبغ بن عمرو الكلبي		عبد الرحمن بن عوف الزهري (١)			سرىة دومة الجندل، وقعت في شعبان سنة ٦هـ	٢٣
بلغ النبي ﷺ أن لهم جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر فقام علي بن أبي طالب بالمظاهرة.	هرت بنو سعد وأصاب المسلمون مئة بغير وألفي شاة.						بنو سعد بن بكر		علي بن أبي طالب	٢٠٠		سرىة فذك، وقعت في شعبان سنة ٦هـ	٢٤
كانت بنو فزارة قد أغاروا على قافلة زيد ابن حارثة التجارية	انهزم العدو.			٢			بنو فزارة تحت قيادة أم قرفة		أبو بكر الصديق رضي الله عنه			سرىة أم قرفة، وقعت في رمضان سنة ٦هـ	٢٥

(١) هو أحد المشرة البشرين بالجنة، وأحد الستة الذين جعلهم القاروق رضي الله عنه أهلاً للخلافة، وكان تابعاً كبيراً وغنياً زاهداً أميناً في الأرض وأميناً في السماء . وكان يخدم أمهات المؤمنين بالأموال . جرح في غزوة أحد إحدى عشرة جراحة . صلى النبي ﷺ وراءه في سفر . توفي سنة ٣١هـ وهو ابن اثنتين وسبعين سنة .

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو القتل	خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم المسلل
			الجريح أو الأسير	الشهيد						
بإيعاز من أم قرفة وابتها معها وهرب الباقون.										
كان عبد الله بن رواحة ذهب في ثلاثين من أصحابه إلى أسير ليدعوه إلى رسول الله ﷺ فخرج أسير إلى رسول الله ﷺ في ثلاثين رجلاً من اليهود فتحامل المسلمون واليهود ليلاً لسوء فهم.	وقع الاشتباك لسوء فهم الفريقين فقتل اليهود جميعاً.	٣٠		١	أسير بن زرام اليهودي.	٣٠	عبد الله بن رواحة	٣٠	سرية عبد الله بن رواحة وقعت في شوال سنة ٦ هـ	٢٦
استوخمو المدينة فشربوا من آبار الإبل	قتلوا الراعي واستاقوا الإبل فأسروا ومثل بهم.	٨		١	رجال من عكل وعرينة		كرز بن جابر الفهري (١)	٢٠	سرية العرينين، وقعت في شوال سنة ٦ هـ	٢٧

(١) ينتهي نسبة إلى النبي ﷺ من فهو ، كان رئيس الكفار حين وقعت غزوة سفوان ، استشهد يوم الفتح .

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		القتل	أو الأسير	الشهيد	الجريح أو الأسير						
وأبوالها فصحوا ثم قتلوا يساراً راعي النبي ﷺ واستاقوا الذود.											
كان عمرو بن أمية قد جاء إلى مكة ليقتل رسول الله ﷺ فأسلم لما قد رأى من حسن خلقه ﷺ . ثم رجع إلى مكة ودعا الناس بها إلى الإسلام، يقول بعض أعداء الإسلام أن رسول الله ﷺ كان أمره بأن يقتل أبا سفيان ولكن لا توجد أي رواية بهذا المعنى في الكتب الإسلامية.						عمرو بن أمية			١	سرية عمرو بن أمية الضمري، وقعت في شوال سنة ٦ هـ	٢٨

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم السلسل
		القتيل	الجريح	الشهيد	الجريح						
كان أبو جندل قد قرئش فلبث فيهم حينئذ يدعوا الناس إلى الإسلام، فأسلم على يديه عدد كبير منهم ثم فرّ هو وأصحابه ونزلوا في جبل في الطريق بين مكة والشام، وقطعوا الطريق على ركب قرئش الذي كان قريباً محارباً. فرد النبي ﷺ أموال قرئش واستقدم أبا جندل إلى المدينة.	أخذ أموال العدو ثم ردها إليهم بأمر النبي ﷺ.				٩	قافلة قرئش		أبو جندل وأبو بصير.	٧٢	سرية عيص، وقعت في صفر سنة ٧هـ.	٢٩

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم السلسل
		القتل	الجريح	الشهيد	الجريح						
كانت بنو الملوخ قد قتلوا أصحاب بشير ابن سويد فبعث إليهم هذه السرية للتوبيخ.	وقع اشتباك.				١	بنو الملوخ		غالب بن عبد الله الليثي	٦٠	سرية الكديد، وقعت في صفر سنة ٧هـ	٣٠
قتل ناس من العدو.						أهل فذك		غالب بن عبد الله الليثي		سرية فذك، وقعت في صفر سنة ٧هـ	٣١
كان دحية الكلبي يرجع إلى النبي ﷺ من عند قيصر بالهدايا والكسوة فلقبه الهيد وفي ناس فقتلوا عليه الطريق فبعث زيد بن حارثة إلى قطاع الطريق.	انتصر المسلمون وقتل الهيد مع ابنه وأطلق الباقون بعد توبتهم.	٢	١٠٠			الهيد بن عوص الجزري	١٠٢	زيد بن حارثة	٥٠	سرية حسمى، وقعت في جمادى الآخرة سنة ٧هـ	٣٢

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		القتيل	الجريح الأسير	الشهيد	الجريح الأسير						
بين تربة ومكة منزلا ن كان أهل تربة قد اصطالحوا مع بني غطفان فقسام المسلمون بالمظاهرة في محالهم .	تفرق العدو .					أهل تربة		عمر بن الخطاب		سرية تربة، وقعت في شعبان سنة ٧هـ	٣٣
كانوا أجمعوا الهجوم على المسلمين مع بني محارب وبني أنصار .	انتصر المسلمون سبي من الأعداء جماعة وقتل آخرون .					بنو كلاب		أبو بكر الصديق رضي الله عنه		سرية بني كلاب، وقعت في شعبان سنة ٧هـ	٣٤
كانوا حلفاء أهل خيبر .	وقع اشتباك .					أهل الميعة		غالب بن عبد الله الليثي		سرية الميعة، وقعت في رمضان سنة ٧هـ	٣٥

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية	رقم المسلسل
		القتيل	الجريح الأسير	الشهيد	الجريح الأسير						
بينما أسامة وأصحابه يمشون في الطريق إذ هبط إليهم رجل من الجبل قتلته أسامة بعد أن قال: «لا إله إلا الله».						أهل خربة		أسامة بن زيد ^(١)		سرية خربة، وقعت في رمضان سنة ٧هـ	٣٦
كانوا حلفاء أهل خيبر	وقع اشتباك.					بنو مرة بالقرب من فلدك.		بشير بن سعد	٣٠	سرية بن مرة، وقعت في شوال ٧هـ	٣٧
كانت بنو فزارة وبنو عدرة قد ساعدوا اليهود في خيبر فبعث إليهم هذه السرية للثروع وكان الغرض منها حشد القرة فقط.	أصيب المسلمون كلهم بجروح وأسر للعدو رجالان.	٢			٣٠	بنو فزارة وعدرة		بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصاري	٣٠	سرية بشير بن سعد الأنصاري ^(٢) ، وقعت في شوال سنة ٧هـ	٣٨
قام المسلمون بحشد	أصيب ابن أبي العوجاء			٤٩	١	بنو سليم			٥٠	سرية بن أبي العوجاء،	٣٩

- (١) أسامة كان حبيباً لرسول الله ، والدته أم أيمن التي يتادها النبي ﷺ بأبي بعد أمي . والدة زيد بن حارثة الذي يتاديه الناس يزيد بن محمد لشفقة النبي ﷺ عليه . توفي سنة ٥٤هـ .
- (٢) هو العقي البدري ، وأول من بايع أبا بكر الصديق يوم الشفة ، استشهد بعين النمر .

الملاحظات	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم التسلسل
		القتيل	أو الأسير	الجريح	الشهيد	الجريح أو الأسير					
قواهم في محالهم لأنهم كانوا يجمعون للإغارة على المدينة.	جرح واستشهد الباقون.							ابن أبي العوجاء		في ذي الحجة سنة ٧هـ	
كانوا يجمعون في عدد كبير للإغارة على المسلمين فبعث إليهم كتيبة لتخريفهم فاستشهد المسلمون جميعاً لكثرة عدد العدو	استشهد المسلمون جميعاً وبرا واحد منهم.				١٤	أهالي ذات أطلع بنو قضاة		كعب بن عمير الأنصاري الفخاري	١٥	سرية ذات أطلع، وقعت في ربيع الأول سنة ٨هـ	٤٠
كانت بنو موزان قد ملأوا يد المعونة إلى أعداء المسلمين مراراً وكانوا قد اجتمعوا الآن في عدد كبير على بعد خمسة منازل	لم يكن اللقاء أصاب المسلمون لعدوهم إبلاً.					بنو موزان أهالي ذات عرق		شجاع بن وهب الأسدي ^(١)	٢٥	سرية ذات عرق، وقعت في ربيع الأول سنة ٨هـ	٤١

(١) هاجر الهجرتين وشهد المشاهد كلها . بعثه النبي ﷺ رسولاً إلى الحارث النسائي وجيلة النسائي . استشهد في غزوة اليمامة .

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو	خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
			الجريح القتل	الشهيد						
من المدينة فاحشد المسلمون لتخريفهم.										
كان شرحبيل قد قتل الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله ﷺ فوقعت لذلك الحرب. ومع أن الجيش الإسلامي أصيب بخسائر إلا أن ثلاثة آلاف هزموا مئة ألف.	انتصر المسلمون.	لم نعرف عدد المفقودين	١٢		شرحبيل الفسائي	١٠٠٠٠٠	زيد بن حارثة	٣٠٠٠	سرية مؤتة، وقعت في جمادى الأولى سنة ٨هـ	٤٢
كان جمع من قضاة المدينة قد تجمّعوا للإغارة على المدينة. والسبب في جعل عمرو بن العاص أميراً	هرب الأعداء بظاهرة المسلمين.				بنو قضاة ساكنو ذات السلاسل		عمرو بن العاص القرشي السهمي (١)	٥٠٠	سرية ذات السلاسل، وقعت في جمادى الآخرة سنة ٨هـ	٤٣

(١) أسلم في صفة سنة ٨هـ، استعمله النبي ﷺ على عمان، واستعمله عمر على فلسطين ثم فتح مصر.

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		القائد	اسم الأعداء	القائد	اسم المسلمين	عدد المسلمين	عدد السرية وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		القتل	الجريح أو الأسير	الشهيد	الجريح أو الأسير							
أنه كان من سكان وادي هذا القوم وكان خبيراً بهذه المنطقة.												
كان الغرض من هذه السرية تشتيت همم قريش.	أقام المسلمون على الساحل أياماً ثم انصرفوا.					قريش			أبو عبيدة بن الجراح	٣٠٠	سرية سيف البحر، وقعت في رجب سنة ٨هـ	٤٤
بنو غطفان الذين هجموا مراراً على المسلمين كانوا يتجمعون الآن بخضرة فبعت إليهم سرية مكثرة من خمسة عشر رجلاً للاستطلاع.	هرب العدو خائفاً وأصاب المسلمون غنائم.					بنو غطفان ساكنو خضرة الواقعة في نجد			أبو قتادة الأنصاري ^(١)	١٥	سرية محارب، وقعت في شعبان سنة ٨هـ	٤٥
كانت الغزى صنم بني							الصنم العزى	خالد بن الوليد			سرية خالد، وقعت في	٤٦

(١) يلقب بفارس الرسول، شهد المشاهد كلها زمن النبي ﷺ وزمن علي رضي الله عنه. توفي سنة ٢٠هـ بالكوفة، صلى عليه عليٌ بسبع تكبيرات.

الرقم المسلسل	اسم السرية وتاريخ وقوعها	عدد المسلمين	اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	خسارة المسلمين الجريح أو الأسير	خسارة العدو الجريح أو الأسير	النتيجة	الملاحظة
	رمضان سنة ٨هـ								كنانة فحطلها خالد ابن الوليد رضي الله عنه.
٤٧	سرية عمرو بن العاص، وقعت في رمضان سنة ٨هـ		عمرو بن العاص		الصنم سواع				كانت سواع صنم بني هذيل فحطلها عمرو ابن العاص رضي الله عنه.
٤٨	سرية سعد الأشهلي، وقعت في رمضان سنة ٨هـ		سعد بن زيد الأشهلي الأنصاري		الصنم مناة				كانت مناة صنم قبيلتي الأوس والخزرج فهدمها سعد الأشهلي رضي الله عنه.
٤٩	سرية خالد بن الوليد، وقعت في شوال سنة ٨هـ	٣٥٠	خالد بن الوليد		بنو جذيمة		٩٥	قتل خمسة وتسعون رجلاً من بني جذيمة معهم كانوا أسلموا، فكرو رسول الله ﷺ قتلهم وودى بهم الدية. رجالاً.	كان خالد بن الوليد بعث داعياً وكانت بنو جذيمة قد أسلموا من قبل فشاك خالد في إسلامهم وقتل منهم رجالاً.

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		اسم القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		القتل	الجريح أو الأسير	الشهيد	الجريح أو الأسير						
قامت هذه القبيلة بإغراء القبائل التابعة لها ومنعتها عن أداء الجزية ولما خرج إليهم عيينة هربوا فأسر منهم ١١ رجلاً و٢١ امرأة و٢٠ ولداً فأطلقهم النبي ﷺ جميعاً حين قدم عليه سيدهم.	تم القضاء على الثورة.		٦٢			عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر الفزاري ^(١)	١٥٠ راكباً	سرية عيينة بن حصين، وقعت في محرم سنة ٩ هـ	٥٠		
كانوا يدبرون مؤامرة ضد المسلمين فجهاد قطبة ببعضهم أسرى فأطلقهم رسول الله ﷺ.	تفرقوا وانتشروا.		أكثرهم		أكثر من نصف	قطبة بن عامر	٢٠	سرية قطبة بن عامر، وقعت في صفر سنة ٩ هـ	٥١		

(١) هو رئيس بني فزارة جملة النبي ﷺ مطاعاً . كان مجتهداً ولوعاً بالحد ، قال للنبي ﷺ : زوجني جميلة لو شئت تزوجتها فأبى النبي ﷺ متنبهاً .

الملاحظة	النتيجة	خسارة المسلمين		خسارة العدو		خسارة المسلمين		عدد الأعداء	اسم القائد	اسم المسلم	عدد المسلمين	اسم السرية	الرقم المسلسل
		الجريح	الشهيد	الجريح	القتيل	الجريح	الأسير						
بعث المسلمون إلى بني كلاب داعين فاعتزض لهم الكفار فوقع اشتباك ولم نجد عدد أهل السرية في أي كتاب ربما كانوا قليلين .								قبيلة بني كلاب	الضحاك رضي الله عنه			سرية الضحاك بن سفيان الكلابي ، وقعت في ربيع الأول سنة ٩ هـ	٥٢
كانوا قد اجتمعوا في ساحل جدة يريدون الإغارة على مكة ففترقوا حين رأوا هذه السرية .	هربوا							القراصنة من الحثمين	عبد الله بن حذافة ^(١) القرشي السهمي	٣٠٠		سرية عبد الله بن حذافة وقعت في ربيع الأول سنة ٩ هـ	٥٣
	أطلق النبي ﷺ جميع الأسرى وودع سفانة	أسرت سفانة						بنو طيء	علي المرتضى رضي الله عنه	١٥٠		سرية بني طيء سنة ٩ هـ	٥٤

(١) هو رسول الله إلى كسرى ، وهو من المهاجرين الأولين الذين هاجروا إلى الحبشة ، وكان ظريف الطبع . وقع في أيدي التصاري أسيراً بعد خلافة عمر رضي الله عنه وحارل هرقل أن ينصروه فقصمه الله . توفي بمصر .

الملاحظة	النتيجة	خسارة العدو		خسارة المسلمين		القائد	عدد الأعداء	اسم القائد	عدد المسلمين	اسم السرية وتاريخ وقوعها	الرقم المسلسل
		القتيل	الجريح أو الأسير	الشهيد	الجريح أو الأسير						
	بإكرام.		بنت حاتم وغيرها من الناس								
أطلق رسول الله ﷺ أكيدر وعقد الحلف مع حكومات نصرانية أخرى.	أسر أكيدر أمير دومة وقتل أخوه.					أكيدر أمير دومة الجنادل		خالد بن الوليد	٤٢٠	سرية دومة الجنادل	٥٥

الرقم الميلادية	السنة الميلادية الشمسية				السنة الإسلامية القمرية				الحدث	الرقم الميلادية
	السنة	الشهر	التاريخ	عام الهجرة	عام المبعث	عام	الولادة	الشهر	التاريخ	اليوم
٦٣٧	٦١٩	٢٠	ليلة ١٩		١٠	٥٠	رجب	ليلة ٢٧	الاثنين	الإسراء والمعراج وفرض الصلوات
٦٣٧	٦١٩	٧			١٠	٥٠	ذو الحجة			بداية إيمان أهل المدينة
٦٣٩	٦٢١	٧			١٢	٥٢	ذو الحجة			بيعة العقبة الأولى
٦٤٠	٦٢٢	٦ يونيو			١٣/١٤	٥٣/٥٤	ذو الحجة			بيعة العقبة الثانية
٦٤١	٦٢٢	٩١٠	ليلة ١٣	١	١٤	٥٤	صفر	٢٧	ليلة الجمعة	الهجرة من مكة والدخول في الغار
٦٣١	٦٢٢	سبتمبر	٣٠/٢٣	١	١٤	٥٤	ربيع الأول	٨	الاثنين	الدخول في قباء
٦٤١	٦٢٢	أكتوبر	٢٤/٢٧	١	١٤	٥٤	=	=	الجمعة	الدخول في المدينة المنورة
٦٤١	٦٢٢	أكتوبر	٢٤/٢٧	١	١٤	٥٤	=	=	الاثنين	بناء المسجد النبوي
٦٤١	٦٢٢	أكتوبر	١٠	١	١٤	٥٤	ربيع الثاني			الزيادة في صلاة الظهر والعصر والعشاء
٦٤٢	٦٢٤	أكتوبر	١١/١٤	٢	١٥	٥٥	شعبان	١٥	السبت	تحويل القبلة
٦٤٢	٦٢٤	فبراير	٢٠/٢٩	٢	١٥	٥٥	رمضان	١	الأحد	أول الصوم بعد وجوب رمضان
٦٤٢	٦٢٤			٣	١٥	٥٥				وجوب الزكاة
٦٤٢	٦٢٤			٢	١٥	٥٥				وجوب الجهاد

الفهارس العامة

- فهرس المراجع العربية
 فهرس المراجع الأجنبية
 فهرس الآيات القرآنية الكريمة
 فهرس الأحاديث والآثار النبوية الشريفة
 فهرس الأشعار
 فهرس الأعلام
 فهرس القبائل والأقوام
 فهرس الأمكنة والمواضع
 فهرس الصور والنخراط
 فهرس الموضوعات

فهرس المراجع العربية

الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري .	القرآن الكريم :
الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم	مكتب الحديث :
القشيري النيسابوري .	الجامع الصحيح
الإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي .	صحيح مسلم
الإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني .	جامع الترمذي
للقاضي أحمد بن شعيب بن علي النسائي .	سنن أبي داود
للعلامة أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني .	سنن النسائي
للإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي .	سنن ابن ماجه
للإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني .	موطأ الإمام مالك
للعلامة أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي .	مسند أحمد
للعلامة أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي .	السنن الكبرى للبيهقي
للحافظ أبي عبد الله بن محمد بن عبد الله المعروف	سنن الدارمي
بالحاكم النيسابوري .	المستدرک للحاکم
الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري .	الأدب المفرد
الإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي .	شمائل الترمذي
للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة	شرح معاني الآثار
الطحاوي .	
للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة	مشكل الآثار
الطحاوي .	

للمسند أبي داود	للمسند أبي داود
شرح السنة	للعلمة أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي .
المصنف	للمسند أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني .
مشكاة المصابيح	للعلمة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي .
الترغيب والترهيب	والشيخ ولي الدين محمد الخطيب التبريزي .
	للمسند زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري .
زاد المعاد	للعلمة شمس الدين ابن قيم الجوزية .
كنز العمال	للعلمة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين البرهان بوري .
شرح مسلم	للعلمة محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي .
فتح الباري	للعلمة الحافظ أحمد بن علي بن محمد المعروف بابن حجر العسقلاني .
عمدة القاري	للعلمة بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني .
جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد	للعلمة محمد بن محمد بن سليمان الفاسي المغربي .
المعجم الكبير	للعلمة سليمان بن أحمد بن أيوب الشامي الطبراني
المواهب اللدنية	للعلمة الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني .
شرح المواهب اللدنية	للعلمة محمد بن عبد الباقي الزرقاني .
مجمع بحار الأنوار	للعلمة محمد طاهر الفتني .
التراتب الإدارية	للعلمة عبد الحي الكتاني .
حلية الأولياء	للعلمة أبي نعيم الأصبهاني .

مكتب التفسير:

جامع البيان في تفسير

القرآن (تفسير الطبري) للعلامة أبي جعفر محمد بن جرير الطبري .

تفسير القرآن العظيم

(تفسير ابن كثير)

تفسير ماجدي

للعلامة الحافظ عماد الدين بن كثير .
للأستاذ الكبير عبد الماجد الدرايبادي (اللغة
الأردوية والإنجليزية) .

مكتب السيرة النبوية :

السيرة النبوية

كتاب الشفاء

للعلامة أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن هشام .
للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض
اليحصبي .

السيرة النبوية

السيرة الحلبيه

المغازي

الروض الأنف

كتاب الفصول

الخصائص الكبرى

للعلامة الحافظ عماد الدين بن كثير .
للشيخ علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي .
للعلامة محمد بن عمر الواقدي .
للحافظ عبد الرحمن بن عبد الله السهلي المغربي .
للعلامة محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري .
للعلامة جلال الدين محمد بن أحمد السيوطي .

إمتاع الأسماع ، بما للرسول

من الأبناء والأموال والحفدة

والمتاع

الرسالة المحمدية

للعلامة تقي الدين أبي محمد المقرئ .
للعلامة السيد سليمان الندوي (تعريب الأستاذ
محمد ناظم الندوي) .

خاتم النبیین

عبقريه محمد

الرسول القائد

للعلامة محمد أبو زهرة المصري .

للأستاذ عباس محمود العقاد .

للواء الركن المتقاعد محمود شيت خطّاب .

- حجة الوداع وجزء
عمرات النبي
غزوة الأحزاب
سيرة النبي
رحمة للعالمين
- للعلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي .
للأستاذ محمد أحمد باشميل .
للعلامة شبلي النعماني (اللغة الأردوية) .
للقاضي محمد سليمان المنصور فوري (اللغة الأردوية) .
للشيخ عبد الرؤوف الداناوري (اللغة الأردوية) .
- أصح السير
عهد نبوي كي ميدان جنك
ساحات القتال في العهد النبوي
حديث دفاع
محمد رسول الله
- للشيخ عبد الرؤوف الداناوري (اللغة الأردوية) .
بياريس (اللغة الأردوية) .
للواء محمد أكبر خان الباكستاني (اللغة الأردوية) .
للدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي المقيم بياريس ، (اللغة الإنجليزية) .
- مكتب التاريخ والتراجم والأخبار:
طبقات ابن سعد
تاريخ الأمم والملوك
تاريخ الطبري
البداية والنهاية
الكامل
فتوح البلدان
تاريخ ابن خلدون
تاريخ الخميس
- للعلامة محمد بن سعد كاتب الواقدي .
للعلامة أبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
للعلامة الحافظ عماد الدين بن كثير .
للإمام فخر الدين بن الأثير الجزري .
للعلامة أحمد بن يحيى بن جابر الشهير بالبلاذري .
للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون .
للقاضي حسين بن محمد بن الحسن الدياربكري المالكي .
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب
للعلامة الحافظ ابن عبد البر المالكي الأندلسي .

الإصابة في تمييز الصحابة للعلامة الحافظ أحمد بن علي بن محمد المعروف
بابن حجر العسقلاني .

أسد الغابة للعلامة عز الدين أبي الحسن علي بن محمد
الجزري المعروف بابن الأثير .

صفة الصفوة للعلامة الحافظ عبد الرحمن بن علي بن محمد
الجوزي .

تذكرة الحفاظ للعلامة الحافظ شمس الدين أبي عبد الله الذهبي .
كتاب الزهد للإمام عبد الله بن المبارك .

الشعر والشعراء لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري .
أهل كتاب صحابة وتابعين (الصحابة والتابعون من أهل الكتاب) للأستاذ
مجيب الله الندوي (الأردوية) .

الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني .

تاريخ البلاد والأمم:

معجم البلدان للإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي
البغدادى .

النجوم الزاهرة في أخبار
ملوك مصر والقاهرة

المغانم المستطابة في
معالم طابة

وفاء الوفا في أخبار

دار المصطفى للعلامة علي بن عبد الله بن أحمد السهمودي
الشافعي .

بلوغ الأرب في معرفة

أحوال العرب

أخبار مكة

تاريخ مكة

للسيد محمود شكري الألوسي .

للإمام أبي الوليد محمد الأزرقى .

للأستاذ أحمد السباعي .

- منزل الوحي للدكتور محمد حسين هيكل .
 حج ومقامات حج للأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي (اللغة
 الأردوية) .
 آثار المدينة المنورة للأستاذ عبد القدوس الأنصاري .
 مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول
 وللعهد الرسول للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف .
 تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي .
 تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام
 للدكتور إسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب) .
 إيران بعهد ساسانيين ترجمة الدكتور محمد إقبال معلم الكلية الشرقية
 بلاهور .
 (إيران في عهد الساسانيين) (اللغة الأردوية) .
 تاريخ إيران لشاهين مكاربوس .
 نامه تنسر (وثيقة إيرانية تاريخية - طبع مينوى) .
 تاريخ جين (تاريخ الصين) لجيمس كاركن .
 بنو إسرائيل في القرآن والسنة
 للدكتور محمد سيد الطنطاوي .
 هندوستانى تمڈن (الهند القديمة)
 لآشور أتوبا (اللغة الأردوية) .
 مكتب الشريعة الإسلامية والأديان والمذاهب:
 حجة الله البالغة لشيخ الإسلام أحمد ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي .
 تاريخ التشريع الإسلامي للعلامة الشيخ محمد الخضري .
 فقه الزكاة للأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي .
 الكنز المرصود في قواعد التلمود (اليهود على
 حسب التلمود)
 للدكتور يوسف حنا نصر الله .

الكتاب المقدس :

الإنجيل

التوراة

ستيارته بركاش

(في الديانة الهندوكية) لديانندسر سوتي (اللغة الأردوية) .

منوشاستر

المعاجم وكتب الأدب والمجاضرات والموسوعات :

لسان العرب للعلامة أبي الفضل جمال الدين محمد المعروف

بابن منظور المصري .

المخصّص للعلامة أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي

المعروف بابن سيده .

أدب الكاتب لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري .

فقه اللغة للعلامة الشيخ أبي منصور الثعالبي .

فرّهنك عميد للأستاذ عميد (اللغة الفارسية) .

شرح المعلقات السبع للعلامة أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين

الزوزني .

ديوان الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي .

العقد الفريد للعلامة الشيخ شهاب الدين أحمد المعروف بابن

عبد ربه الأندلسي .

حسن المحاضرة للعلامة جلال الدين محمد بن أحمد السيوطي .

دائرة المعارف للبستاني للمعلم بطرس البستاني .

دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ محمد فريد وجدي .

فهرس المراجع الأجنبية

BIBLIOGRAPHY

- Alwin Toffler - **Future Shock**, London. 1975.
- Bodley, R.V.C - **The Messenger: The Life of Mohammed**, London. 1946.
- Bosworth Smith - **Mohammed and Mohammedanism**, London. 1976.
- Briffault Robert - **The Making of Humanity**,
- Butler Alfred j. - **The Arab conquest of Egypt and the Last Thirty Years of the Roman Dominion**, Oxford. 1902.
- Cambridge - **History of Islam**, vol. I, Cambridge. 1970.
- Christensen A. - **L'Iran Sous les Sassanides** (Urdu Trans. Muhammad Iqbal).
- De Lacy O'leary - **Arabia Before Muhammad**, London. 1927.
- Drapper John William - **Conflict Between Religion and Science**, London. 1910.
- Dutt R.C., - **Ancient India**, Vol. 3, 1891.
- Encyclopaedia Britannica**, Vol. XII, Ninth Edition.
- Encyclopaedia of Religions and Ethics**, 1939.
- Georges Roux - **Ancient Iraq**, 1972.
- Gibbon Edward - **The Decline and Fall of Roman Empire**, London. 1911.
- Hamidullah Dr. Muhammad - **Muhammad Rasulullah**, Hyderabad. 1974 (the)
- History of Christianity in the Light of Modern Knowledge**, Glasgow. 1929.
- Hitti P.K - **History of Syria**, London. 1951.
- James Makinon - **From Christ to Constantine**, London. 1936.
- Jewish Encyclopaedia**, Vol. XII, 1916.
- John Davenport - **Apology for Muhammad and the Quran**, London. 1869.
- Jones A.H.M., and Elizabeth Monroe, - **A History of Abyssinia**, Oxford. 1835.
- Lamartine - **Histoire de la Turquie**, vol. II.
- Locky W.E.H - **History of European Morels**, New York. 1855.
- Maryam Jameelah - **Islam Versus Ahl - Kitab past and present**, Lahore 1968.
- Montgomery Watt, W. - **Muhammad, Prophet and Statesman**, London. 1961.
- Muir Sir William - **Life of Mohammed**, Vol. I London 1856.
- Nehru Jawahar Lal - **Discovery of India**, Calcutta. 1948.
- (The) New Catholic Encyclopaedia**. Vol XIV, 1967.

- O'Malley L.S.S - **Popular Hinduism the Religion of tge Masses**, Cambridge. 1935..
- Thilly Prof. Frank - **History of Philosophy**, New York. 1945.
- Vaidya C.V - **History of Medieval Hindu India**, Vol I, Poona. 1921.
- Victor Chaport - **The Roman World**, London. 1928.
- Vidyadhar Mahajan - **Muslim Rule in India**, New Delhi. 1970.
- Wallbank T.Walter and Alastair M.Taylor - **Civilizations Past and Present**, (Scott Froesment & co.) 1954.
- Wells H.G. - **A Short History of the World**, London. 1924.
- Williams Henry Smith - **Historians History of the World**, V Ed. 1926.
- Zaki Ali Dr. - **Islam in the World**, Lahore. 1947.

* * *

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

رقم الآية الصفحة

الآية

(٢) سورة البقرة

٦٢٨	٢٩	﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾
٢٥١	٨٤	﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾
٢٥١	٨٥	﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْسِلُوكُمْ أَنْفُسُكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا ﴾
٢٢٨	٨٩	﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ ﴾
٢٥٣	١٠٢	﴿ وَاتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا السَّيِّطِينَ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ﴾
٢٥٣	١٠٤	﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ يَكْفُرُونَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا ﴾
٥١٦	١٢٥	﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾
١١٩	١٢٧	﴿ وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾
١١٩	١٢٨	﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا ﴾
١١٩ ، ٩٨	١٢٩	﴿ رَبَّنَا وَأَنْبِئْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ﴾
٢٩٠	١٤٣	﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ ﴾
٥١٦ ، ٢٦٣	١٥٨	﴿ إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾
٤٩٦	١٧٩	﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾
٢٩٦	١٨٣	﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كِتَابٌ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ ﴾
٢٩٦	١٨٥	﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾
٤٩٦	١٩١	﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾
٦٣٨	٢٠١	﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ ﴾
١٤٨	٢١٣	﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾	٢١٦	٣٨٦
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾	٢١٧	٢٩٥
﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾	٢٥٦	٢٥٨
﴿إِنَّمَا أَلِيسِغٌ مِثْلُ الرِّبَا﴾	٢٧٥	٨٢
﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا﴾	٢٧٨	٥١٠
﴿كُلُّ ءَامَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَيْكِهِ وَكُتِبَ لَهُ وَرُسُلِهِ﴾	٢٨٥	٢٨٦

(٣) سورة آل عمران

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ ءَلْيَمْعَادَ﴾	٩	٢٤٤
﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ﴾	٦٤	٣٩٦ ، ٣٩٥ ، ٣٩٣
﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾	٩٦	٩٦
﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ﴾	١٠٣	٦١٨ ، ٦١٧ ، ١٠٤
﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ﴾	١١٠	٥٢٥
﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾	١٢٣	٣١٢
﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾	١٤٤	٥٤١ ، ٥٢٦ ، ٣٣٥
﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ مِنْكُمْ﴾		
﴿مَنْ يُرِيدِ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾	١٥٢	٣٢٧
﴿فَأَثْبِكُمْ عَلَيْكُمْ عَمَّا يَفْعَمُ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى﴾		
﴿مَا فَاتَكُمْ﴾	١٥٣	٣٣٥
﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرُّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ﴾	١٧٢	٣٣٤
﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾	١٧٣	٣٣٥ ، ٣٣٤
﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾	١٧٤	٣٣٥
﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾	١٧٥	٣٣٥

الآية رقم الآية الصفحة

(٤) سورة النساء

٦٢٥	١	﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ اتِّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾
١٤١	٣٢	﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ ﴾
٢٨٩	٥١	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾
٢٩١	٧٧	﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾
٢٨٤	١٤٣	﴿ مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾

(٥) سورة المائدة

٥٢٧ ، ٥٢٥ ، ٥١٧	٣	﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾
٦٢٦	١٨	﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ ﴾
٥١٠	٩٠	﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾
٥٦٧	١١٨	﴿ إِن تَعَدَّيْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَعْفِرْ لَهُمْ ﴾

(٦) سورة الأنعام

٢٣٩	٣٣	﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾
١٠٣	١٢٢	﴿ أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا ﴾
١٠٠	١٢٤	﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾
٦٣٨	١٦٢	﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ﴾

(٧) سورة الأعراف

٤٦٨	١٣٨	﴿ أَجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ إِلَهَةٌ قَالِ إِنَّكُمْ ﴾
٦٣٤	١٥٦	﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾
١٧٨	١٥٧	﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي ﴾

(٨) سورة الأنفال

٣٠٦	١٠	﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِن عِندِ اللَّهِ ﴾
-----	----	--

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾	١١	٣٠٥
﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ ﴾	١٢	٣١٠
﴿ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾	٢٦	٢٨٣ - ٢٨٤
﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾	٤١	٢٩٩
﴿ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَيَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾	٦٢	٢٧١
﴿ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾	٦٣	٢٧١
﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ ﴾	٧٣	٢٧١ ، ٢٨٢

(٩) سورة التوبة

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾	٢٥	٤٧٠ - ٤٧١
﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾	٢٦	٤٧١
﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾	٣٣	٢٤٤
﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾	٣٦	٥٢٢
﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُهُ بِجُنُودٍ ﴾	٤٠	٢٤٢
﴿ فَرَحَ الْمُخْلَفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﴾	٨١	٤٨٨
﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ ﴾	٩٢	٤٨٨
﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا ﴾	١٠٢	٣٦٢
﴿ السَّيِّئَاتِ الْمَكِيدَاتِ الْخَمِيدَاتِ السَّيِّئَاتِ ﴾	١١٢	٦٣٣
﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾	١١٧	٤٩٥ ، ٦٣٤
﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ ﴾	١١٨	٤٩٥ ، ٦٣٤
﴿ وَلَا يَطَّوُّنَ مَوَاطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ ﴾	١٢٠	٤٨٦
﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَتَلْؤُوا الَّذِينَ يَلُوفُكُمْ ﴾	١٢٣	٤٨٥
﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ ﴾		
﴿ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾	١٢٨	٥٣٩

الآية رقم الآية الصفحة

(١٢) سورة يوسف

- ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْتِئُشُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ٨٧ ٦٣٤
 ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَفْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴾ ٩١ ٤٤٩
 ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ٩٢ ٤٤٩

(١٤) سورة إبراهيم

- ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ ٣٥ ١٢٠
 ﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ﴾ ٣٦ ١٢٠
 ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكْتُ مِنْ دُرَيْتِي بِوَادٍ ﴾ ٣٧ ١٢٠

(١٥) سورة الحجر

- ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ٩ ٥٢٥ ، ٦٠٧
 ﴿ وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ ٥٦ ٦٣٤
 ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ ٨٩ ١٨٥
 ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ٩٤ ١٨٤

(١٧) سورة الإسراء

- ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ ﴾ ٣٢ ٥٠٨
 ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ٤٣ ٦٢٦
 ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ٧٠ ٦٢٨
 ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ ٨١ ٤٥٤

(٢١) سورة الأنبياء

- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ١٠٧ ٦٢١ ، ٦٠٨ ، ٦٠٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
(٢٢) سورة الحج		
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾	١١	٢٨٤
﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُوا بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾	٣٩	٢٩٣
﴿ وَإِنْ يَسْأَلُكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمَ تُحْذِرُهُمْ أَنْ يَقُولُوا لَهُمْ مَحَلَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾	٧٣	٦٢٣
(٢٤) سورة النور		
﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾	١١	٣٧٥
﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ ﴾	١٢	٣٧٥
(٢٦) سورة الشعراء		
﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾	٢١٤	١٨٤ - ١٨٥
﴿ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾	٢١٥	١٨٥
(٢٨) سورة القصص		
﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾	٨٣	٥٣٢
﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَرْجُونَ أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً ﴾	٨٦	١٧٦
(٢٩) سورة العنكبوت		
﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّونَ بِيَمِينِكُمْ ﴾	٤٨	١٧٦
﴿ يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾	٥٦	٢٤٠
(٣٠) سورة الروم		
﴿ اللَّهُ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾	٢-١	١٦٧
﴿ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَظِلُّونَ ﴾	٣	١٦٧ ، ١٦٨
﴿ فِي يَضِيعِ سَنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾	٤	١٦٧ ، ١٦٨

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ﴾	٥	١٦٧
﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾	٦	١٦٧
﴿ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾	٧	١٦٧
﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ ﴾	٤١	٨٥
(٣٣) سورة الأحزاب		
﴿ الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾	٦	٥٧٧
﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾	٩	٣٥٦
﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾	١٠	٣٦٠ ، ٣٤٥
﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا ﴾	١١	٣٤٥
﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَتَأَهَّلِ يَثْرِبَ ﴾	١٣	٣٥٥ ، ٢٨٠
﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾	٢١	٥٣
﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾	٢٥	٣٥٦ ، ٣٤٢
﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ ﴾	٢٨	٥٤٨
﴿ وَلَئِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُمُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ ﴾	٢٩	٥٤٨
﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾	٥٣	٥٤٧
﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾	٢٥	٣٥٦

(٣٤) سورة سبأ

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ ﴾	٣٤	٢١٢
﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ ﴾	٣٥	٢١٢
﴿ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾	٤٩	٤٥٤

(٣٦) سورة يس

﴿ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا نُنْذِرَ ءَابَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾	٦	٢٢٨ ، ١٤٩
---	---	-----------

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ فَأَغَشَيْنَاهُمْ فَهْمًا لَا يُبْصِرُونَ ﴾	٩	٢٣٦
(٣٩) سورة الزمر		
﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾	٦٠	٥٣٢
﴿ قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾	٥٣	٦٣٣
(٤١) سورة فصلت		
﴿ لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾	٤٢	٩٩
(٤٢) سورة الشورى		
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾	٧	١٣٤
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ ﴾	٥٢	١٧٦
(٤٣) سورة الزخرف		
﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ ﴾	٣١	٢١٥ ، ٢١٣
(٤٦) سورة الأحقاف		
﴿ وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذَا أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾	٢١	١١٦ ، ١١٧
(٤٨) سورة الفتح		
﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾	١	٣٨٤
﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ ﴾	٢	٣٨٤
﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴾	٣	٣٨٤
﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾	٤	٢٤١
﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾	١٨	٣٨٠ ، ٤١٩
﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾	١٩	٤١٩
﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾	٢٧	٤٣٢

الآية رقم الآية الصفحة

(٤٩) سورة الحجرات

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ ١٣ ٤٥٦ ، ٦٢٥

(٥٣) سورة النجم

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ ٣ ٩٩
 ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ ٤ ٩٩
 ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ ١٧ ٢١٧
 ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ ١٨ ٢١٧
 ﴿ أَلَّا نَزِرُ وَزِرَةٌ وَزِرَ آخَرَى ﴾ ٣٨ ٦٣١
 ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ ٣٩ ٦٣١
 ﴿ وَأَنْ سَعِيَهُمْ سَوْفَ يُرى ﴾ ٤٠ ٦٣١
 ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ ٤١ ٦٣١

(٥٨) سورة المجادلة

﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَتَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحِبِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ ٨ ٢٥٤

(٥٩) سورة الحشر

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ ٢ ٣٤٢
 ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ ٧ ٢٦٢
 ﴿ وَالَّذِينَ بَوَّءُوا الدَّارَ وَالْآلِئِمْنَ ﴾ ٩ ٢٢٧
 ﴿ لَا يَقْنِئُ لَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ ﴾ ١٤ ٢٦٢

(٦٢) سورة الجمعة

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ ٢ ١٤٥

الآية	رقم الآية	الصفحة
(٦٨) سورة القلم		
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾	٤	٥٨٥
(٧٤) سورة المدثر		
﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۖ ﴾	١	١٩٢
(٩٠) سورة البلد		
﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾	١	١٣٤
﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾	٢	١٣٤
(٩٥) سورة التين		
﴿ وَالزَّيْتُونَ ﴾	١	١٣٤
﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾	٢	١٣٤
﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾	٣	١٣٤
(٩٦) سورة العلق		
﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾	١	١٨٠
﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾	٢	١٨٠
﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾	٣	١٨٠
﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾	٤	١٨٠
﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾	٥	١٨٠
(٩٨) سورة البينة		
﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾	١	١٠٦
﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾	٢	١٠٦
﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾	٣	١٠٦

الآية رقم الآية الصفحة

(١٠٥) سورة الفيل

- ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ ١ ١٣٠
 ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ ٢ ١٣٠
 ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ ٣ ١٣٠
 ﴿ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ ٤ ١٣٠
 ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ ٥ ١٣٠

(١٠٦) سورة قريش

- ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ ٣ ١٤٦
 ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّن خَوْفٍ ﴾ ٤ ١٤٦

(١١٠) سورة النصر

- ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ١ ٥٢٧ ، ٥٢٥ ، ٤٦٢
 ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ ٢ ٥٢٥ ، ٤٦٣
 ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ ٣ ٥٢٦

فهرس الأحاديث والآثار النبوية الشريفة

الصفحة

طرف الحديث

- أ -

أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم	٢٣٢
أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة	٢٢٧، ٥٠٦
أتسمعون يا معشر قريش ؟	١٩١
اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة	٥٩٧
أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي	٥٦٨
أجعلتني لله نداً	٥٩١
أجود الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة	٥٦٥
أخبرهم أنا لم نأت لقتال وإنما جئنا	٣٧٩
أخذ الراية زيد، فأصيب، ثم أخذها جعفر	٤٣٩
أخف عنا	٢٤٤
أخرجوا منها المشركين	٥٣١
أدبني ربي فأحسن تأديبي	٥٨٥
أدعو إلى الإسلام، وأن نشهد	٤٢٤
ادعي لي ابني، فيشمهما ويضمهما	٥٧٣
أدنوه مني، فأدنوه، فوسده قدمه	٣٢٩
إذا سافرتم بالجذب، فأسرعوا عليها السير	٥٩٨
إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده	٤٠٨
أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل	٣٨١
ارجع إلى قومك، فأخبرهم حتى يأتيك	٢٢١

الصفحة	طرف الحديث
٥٨٤	ارجعن يرحمكن الله، فقد آسيتن بأنفسكم
٣٢٧	ارم فذاك أبي وأمي
٥٧٣	استنشدني نبي الله شعر أمية بن أبي الصلت
٣١٣	استوصوا بهم خيراً
٥٣٢	أصلّى الناس ؟
٤٣٩	اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد أتاهم أمر
٥٩٩	أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم
٥١٩	اعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم
٥٩٩	أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه
٥٩٨	أفلا تتقي الله في هذه البهيمة
٤٨٩	أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون
٤٧٦	ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب
٣٦٢	ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم
٥٨١	ألا أدلكما على خير مما سألتماني
٣٣٢	ألقها، فأرجعها، لا ترى ما بأخيها
٤٧٥	ألم آتكم ضللاً، فهداكم الله بي
٣٨٤	ألم يكن رسول الله ﷺ يحدثنا أنا سنأتي
٢١٣	آمن شعره وكفر قلبه
٣٢٩	أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد
٤٥٧	أما بعد، فإنما أهلك الناس قبلكم
٥٨٣	أما والله، لوددت أنني غودرت
٤٧٨	إن أحببت فعندي محبة ومكرمة
٤٣٦	إن أصيب فجعفر بن أبي طالب
٤٢٥	إن تصدق الله يصدقك
٤٣٦	إن رأيته فأقرئه مني السلام

الصفحة	طرف الحديث
٥٧٠	إِنَّ كُنَّا آلَ مُحَمَّدٍ لَيَمُرُّ بِنَا الْهَلَالُ مَا نُوْقَدُ نَارًا
١٦٢	أَنَا أُعْرِبُكُمْ، أَنَا قَرْشِي وَاسْتَرْضَعْتُ
٩٨	أَنَا دَعَاةُ إِبْرَاهِيمَ وَبَشْرَى عِيسَى
٣٣٣	أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
٥٨٧	أَنَا وَهُوَ كُنَّا إِلَى غَيْرِ هَذَا أَحْجَجُ مِنْكَ يَا عَمْرُ
٥٨٣	أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى
٥٧٥	إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صَبِيَّانِ فَسَلَّمَ
٣٦١	أَنَّ مَنْ كَانَ سَامِعًا مَطِيعًا فَلَا يَصْلِيْنَ الْعَصْرَ إِلَّا
٥٩٩	إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوْلَكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ
٢٦٣	إِنَّ الْأَنْصَارَ قَبْلَ أَنْ يَسْلُمُوا كَانُوا يَهْلُونَ
٥٨٧	إِنَّ ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَبَطُوا
٥٢٠	إِنَّ دِمَائَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ
٦٣٤	إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي
٥٧٨	إِنَّ الدِّينَ يَسِرُ، وَلَنْ يَشَادَ الدِّينَ أَحَدٌ
٥٩٠ ، ٥٥٥	إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
٥٣٣	إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، خَيْرُهُ اللَّهُ
٤٣٩	إِنَّ اللَّهَ أَبْدَلَهُ بِيَدَيْهِ جَنَاحَيْنِ
٥٨٥	إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي لَتَمَامِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ
٢٣٢	إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ إِخْوَانًا
٦٢٨	إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا بَنَ آدَمَ
٢٣٩	إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْهَجْرَةِ
٥٩٦	إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
٥٧٩	إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ
٥٧٤	إِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ وَمَا أُعْطِيَ
٤٧٧	إِنَّ مَعِيَ مِنْ تَرَوْنَ، وَإِنْ أَحَبَّ الْحَدِيثَ

الصفحة	طرف الحديث
٥٧٦	إِنَّ مِنْكُمْ مَنْفَرِينَ، فَأَيْكُمْ صَلَّى بالناس
٥٨٨	إِنَّ هَذَا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ فَاخْتَرْتُ سِيفِي
٣٤٣	إِنَّ هَذَا اخْتَرْتُ سِيفِي وَأَنَا نَائِمٌ
٥٨٨	إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةُ لَا يَصْلَحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ
٤٧٧	إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ قَدْ جَاءُوا مُسْلِمِينَ
٤٧٤	إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ
٥٩٥	إِنَّا كُنَّا إِذَا اشْتَدَّ الْبَأْسُ وَاحْمَرَّتِ الْحُدُقُ
٣٨٠	إِنَّا لَمْ نَجِءْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ
٣٥٠	إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضْتُ كَدِيَّةً شَدِيدَةً
٤٤٧	انْطَلَقَا حَتَّى تَأْتِيَا رَوْضَةَ خَاخَ
٦٣٧	إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ
٥٩٤	إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَكَلْتُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ
٣٥٥	إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ
٥٨٦	أَنَّهُ أَتَى عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَعْدَمَا أَدْخَلَ حَفْرَتَهُ
٤٠٦	أَنَّهُ النَّجَاشِيُّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
٤٤٨	إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يَدْرِيكَ يَا عُمَرُ
٥٢٦	إِنَّهُ عَارِضُنِي الْمَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا حَاضِرَ أَجْلِي
٥٩٩	إِنَّهُ لَا يَتَبَغَى أَنْ يُعَذَّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ
٥٢٧	إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ
٢٢٩	إِنِّي رَأَيْتُ دَارَ هَجْرَتِكُمْ، ذَاتَ نَخْلٍ
٣٨٢	إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَبْتُمُونِي
٥٧٥	إِنِّي لِأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ
٥٧٤	أَوْ أَمْلِكُ لَكَ إِذَا نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ
٥٣٧	أَوْصَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ
٥٣٤	أَوْصِيَكُمْ بِالْأَنْصَارِ فَإِنَّهُمْ كَرَشِي وَعِيتِي

الصفحة	طرف الحديث
٤٩٧	أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم
٣٨٤	أو فتح هو يا رسول الله
٥٧٠	أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم
١٨٢	أو مخرجي هم ؟
٦٢٤	أيها الناس إن ربكم واحد
٥٣١	أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة
٥٤٠	أيها الناس إنه من كان يعبد محمداً

- ب -

٤٥٩	بايعنني على أن لا تشركن بالله شيئاً
٢١٦	بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله
٣٠٤	بل هو الرأي والحرب والمكيدة
٤٥٣	بل اليوم يوم الرحمة، اليوم يعز الله
٥٩١	بئس خطيب القوم أنت
١٩٣	بيننا النبي ﷺ ساجد ذات يوم

- ت -

٥٥٤	تدمع العين، ويحزن القلب
٥٣٨	توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء
٥٣٨	توفي ودرعه مرهونة عند يهودي

- ج -

٤٥٤	جاء الحق وزهق الباطل
٥٧٣	جعل النبي ﷺ يفتح فاه، فيدخل

- ح -

٤٧٥	حتى استطاعت الظعينة أن ترتحل
-----	------------------------------

الصفحة	طرف الحديث
٥٥٦	الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة
٥٧٨	الحنيفية السمحة

- خ -

٤٣٣	الخالة بمنزلة الأم
٥٨٩	خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي : أف
٤٤٨	خرج رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان
٦٢٨	الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله
٢٧٨	خلوا سبيلها، فإنها مأمورة
٥٨٠	خيركم خيركم لأهله

- د -

٤٥٦	دخل رسول الله ﷺ دار أم هانئ
٤٥٢	دخل رسول الله ﷺ مكة وهو واضع
٥٩٤	دخل عليّ رسول الله ﷺ فألقيت له
٤٨١	دعه عنك، فقد جاء تائباً
٣٧٢	دعه فلعمري لنحسنن صحبته
٥٨٨	دعوه وأريقوا على بوله سجلاً

- ذ -

٥٩٢	ذاك إبراهيم عليه السلام
-----	-------------------------

- ر -

٦٢٩	الراحمون يرحمهم الرحمن
٢٣٥	ربح صهيب، ربح صهيب
٥٢٨	رجع رسول الله ﷺ من البقيع

طرف الحديث الصفحة

- س -

- سبعين مرة ٥٩٩
سدوا عني كل خوخة في المسجد ٥٣٤
السلام على همدان ٥٠٦
سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب ٥٣٣
سيروا وأبشروا ٣٠٢

- ش -

- شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ٣٤٩
شهدت رسول الله ﷺ يوم دخل المدينة ٢٧٧

- ص -

- صبراً آل ياسر ! موعدكم الجنة ١٨٩
الصلاة وما ملكت أيمانكم ٥٣٦

- ع -

- عذبت امرأة في هرة لم تطعمها ٥٩٧

- غ -

- غطوا بها رأسه، واجعلوا على رجله ٣٣٣
غزا رسول الله ﷺ نجداً فسار حتى نزل نخلاً . . . ٣٤٢

- ف -

- فأخذني فغطني، حتى بلغ مني الجهد ١٨٠
فأنت وذاك ٣٥٣
فارق رسول الله ﷺ الدنيا وهو يحكم ٥٣٨
فاستن بها أحسن ما كان ٥٣٧

الصفحة	طرف الحديث
٥٥٤	فاطمة بضعة مني
٤٧٤	فإني أدعها لله والرحم
٢١٩	فرض الله عليه وعلى أمته خمسين صلاة
٣٩٢	فصاغ رسول الله ﷺ خاتماً لحلقته
٤٩٢	فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم
٤١٠	فلو أني أعلم أني أخلص إليهم
٥٨٥	فهل تستطيع أن تغيب وجهك
٥٣٧	في الرفيق الأعلى
٥٩٧	في كل ذات كبد رطبة أجر

- ق -

٥٣٦	قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور
٥٦٧	قام رسول الله ﷺ حتى أصبح بآية
٥٦٧	قام النبي ﷺ بآية من القرآن ليلة
٥٦٧	قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه
٢٦٤	قد أبدلكم الله تعالى بهما خيراً منهما
٢٥٥	قد أردنا أن تسلفنا وسقاً
٥٧٣	قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله ﷺ
٢١٢	قريش والأنصار حليفان وبنو أمية وثقيف
٢٤٣	قل له : وما تبغني منا ؟
٣٣٢	قل : نعم ، هو بيننا وبينكم موعد
١٩٥	قل يا أبا الوليد أسمع
٥٨١	قم يا حمزة ! قم يا علي
٣٠٩ ، ٢٦٤	قم يا عبيدة بن الحارث
٣٣٢	قولوا : اللهم مولانا ولا مولى لكم

الصفحة

طرف الحديث

٣٠٩ قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض

- ك -

- ٤٤٥ كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد
- ٥٦٨ كان إذا حزبه أمر صلى
- ٥٩٤ كان أشد حياءً من العذراء في خدرها
- ٥٨٠ كان ألين الناس، وأكرم الناس
- ٥٤٠ كان أوسع الناس صدرأ
- ١٨٠ كان أول ما بُدئ به الرؤيا الصادقة
- ٥٨٦ كان خلقه القرآن
- ٥٤٥ كان دائم الذكر لها والاعتراف بفضلها
- ٥٦٦ كان ربعة وهو إلى الطول أقرب
- ٥٦٨ كان رسول الله ﷺ إذا كان ليلة ريح
- ٥٦١ كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان
- ٥٦٦ كان رسول الله ﷺ مربوعاً وقد رأيت
- ٥٧٥ كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة
- ٥٩٣ كان رسول الله ﷺ يعود المريض ويشهد الجنازة
- ٥٩٢ كان رسول الله ﷺ لا يستنكف أن يمشي مع العبد، ولا مع الأرملة
- ٥٩٣ كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ويدعو له
- ٥٩٣ كان ﷺ يدعى إلى خبز الشعير
- ٥٩٤ كان ﷺ يقيم البيت
- ٥٦٥ كان فحماً، مفخماً، يتلأأ
- ٥٧٩ كان في مهنة أهله
- ٥٦٧ كان لا تشاء أن تراه من الليل
- ٤٨٤ كان لي صاحب من الأنصار إذا

الصفحة	طرف الحديث
٢٦٨	كان الناس إنما طعامهم بالمدينة
٥٧١	كان النبي ﷺ أجود الناس
٥٩٥	كان النبي ﷺ أحسن الناس
٥٢٦	كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان
٥٧٩	كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه
٥٧٩	كان يرقع الثوب، ويخصف النعل
٥٦٧	كان يصوم حتى نقول لا يفطر
٥٧٩	كان يفلي ثوبه، ويحلب شاته
٢٥٤	كان اليهود يسلمون على النبي ﷺ
٢٢٨	كان يوم بعث يوماً قدمه الله تعالى
٥٣٩	كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ
٥٧١	كانت له درع عند يهودي، فما وجد
٢٥٨	كانت المرأة تكون مقلاتاً فتجعل على نفسها
٥٣٥	كشف النبي ﷺ ستر حجرة عائشة ينظر إلينا
١٨٢	كلا ! والله ما يخزيك الله أبداً
٢٧٩	كنا نصنع مع رسول الله ﷺ العشاء ثم نبعث إليه
٥٨٦	كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني
٢٤٤	كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ؟
٣٢٦	كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم ؟

- ل -

٥٣٧	لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات
٥٢٠ - ٤٥٦	لا إله إلا الله وحده لا شريك له
٤٥٦	لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء
٤٨٩	لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم

طرف الحديث	الصفحة
لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم	٥٩٢ ، ٥٩١
لا خير في دين لا صلاة فيه	٤٨٠
لا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري أبويك	٥٤٨
لا يبلغني أحد منكم من أصحابي شيئاً	٥٧٦
لا يحل لامرء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك	٤٦١
ليك اللهم ليك ، ليك لا شريك لك	٥١٥
لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب	١٧٣
لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا من قبور	٥٣٦
لقد أمر ابن أبي كبشة أنه يخافه ملك	٤٨٣
لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان	١٧٤
لقد حكمت فيهم بحكم الله	٣٦٣
لكل داء دواء إلا السام	٢٥٤
لكن حمزة لا بواكي له	٥٨٣
الله أكبر ! أعطيت مفاتيح الشام	٣٥٠
الله أكبر ! الحمد لله الذي صدق وعده	٣١١
الله أكبر ! خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا	٤٢٢
الله أكبر ! قلتم والذي نفس محمد بيده	٤٦٨
اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً	٥٧٠
اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة	٥٧١
اللهم إليك أشكو ضعف قوتي	٢١٥
اللهم إن الأجر أجر الآخرة	٥٦٩ ، ٣٤٩ ، ٢٨٠
اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد	٣٠٦
اللهم أنجز ما وعدتني ، اللهم نصرك	٣٠٦
اللهم إني أمسيت راضياً عنه ، فارض عنه	٤٩١
اللهم اهد ثقيفاً	٤٧٩

الصفحة	طرف الحديث
٢٠٤	اللهم أئد الإسلام بأبي الحكم . . .
٤٤٧ - ٤٤٦	اللهم خذ العيون والأخبار من قريش
٥٣٨	اللهم الرفيق الأعلى
٤٢٥	اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك
٣٠٦	اللهم هذه قريش جاءت بخيلائها
٤٦٢	لم تحلل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد
٥٩٢	لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ
٥٦٢	لم يكن فاحشاً، متفحشاً ولا صخاباً
٣٥٧	لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا
٢٣٦	لن يخلص إليك شيء تكرهه
٥٧٢	لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً
٥٩٥	لو قلت يدع هذه الصفرة
٤٠٨	لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس
٤٢٣	ليأخذن الراية غداً رجل يحبه
٤٤٠	ليسوا الفرار، ولكنهم الكرار

- ٢ -

٢٤٠	ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ ولولا
٢٩٥	ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام
٥٩٥	ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كنا
٢٠٤	ما جاء بك يابن الخطاب ؟
٣٧٨	ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق
٥٧٧	ما خير رسول الله ﷺ في أمرين إلا
٤٦٠	ماذا كانت تحدث به نفسك
٥٨٠	ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ

الصفحة	طرف الحديث
٥٧٣	ما رأيت أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ
١٨٩	ما رأيت بمكة أحسن لمة ولا أرق حلة
٥٧١	ما سئل رسول الله ﷺ عن شيء فقال: لا
٢٤٢	ما ظنك باثنين الله ثالثهما
٥٣٢	ما ظن محمد بالله عز وجل، لو لقيه وهذه عنده. أنفقيها
٥٨٠	ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط
٣٦٨	ما عندك يا ثمامة؟
٥٤٢	ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض
٥٦٩	ما لي وللدنيا، وما أنا والدنيا إلا كراكب
٥٦٦	ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف
٥٧٧	ما من مؤمن إلا وأنا أولى به
١٧١	ما من نبي إلا وقد رعى الغنم
٥٨٤	ما هذا أردت، وما أحب البكاء
٣١٠	ما يحملك على قولك بخ بخ؟!
٥٧١	ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهباً
٣٢٢	ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها
٦١٩	مثلي كمثلي رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت
٤٠٧	مَرَّقَ الله ملكه
٤٦٠	معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم
٥٧٧	من ترك مالاً فلورثته
٤٥٠	من دخل دار أبي سفيان فهو آمن
٤٦١	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر
٥٩٨	من فجع هذه بولدها؟
٥٢٠	من كنت مولاه فعلي مولاه
٣١٩	من لكعب بن الأشرف

الصفحة	طرف الحديث
٣٩٦ ، ٣٩٤	من محمد رسول الله إلى كسرى
٣٩٤	من محمد رسول الله إلى النجاشي
٣٩٦ ، ٣٩٥	من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس
٣٩٦ ، ٣٩٣	من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل
٥٧٨	مه عليكم بما تطيقون، فوالله ما يمل الله

- ن -

٤٤٤	نصرت يا عمرو بن سالم
-----	----------------------

- ه -

٤٥٥	هاك مفتاحك يا عثمان ! اليوم يوم بر
٣١١	هذا أبو جهل فرعون هذه الأمة
٥٠٧	هذا أمين هذه الأمة
٥٨٣ ، ٥٨٢	هذا جبل يحبنا ونحبه
٥٨٥	هذا قبر آمنة بنت وهب
٥٧٤	هذه رحمة يضعها الله في قلوب من يشاء
٥٨٣ ، ٢٨١	هذه طابة، وهذا جبل يحبنا ونحبه
٣٨٠	هذه عن عثمان
٣٠٤	هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ
٤٢٧	هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟
٥٩٦	هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها
٥٧٨	هلك المتنطعون
٥٥٦	هما ريحانتاي من الدنيا
٤٤١	هو رزق أخرجه الله لكم
٥٠٨	هو عليكم حرام
٤٥٢	هوّن عليك فإني لست بملك

الصفحة	طرف الحديث
٢٨١	هي طابة

- و -

٥٢١	وأول ربا أضعه ربا العباس
٥٦٨	وجعلت قرّة عيني في الصلاة
٥٨١	وربا الجاهلية موضوع
٥٨٩	ورس ورس، حط حط
٣٣١	وكانت فاطمة بنت الرسول ﷺ تغسله
٥٧٠	والذي نفس أبي هريرة بيده، ما شبع نبي الله
٥٨٢	والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة
٤٢٧	والله ما أدري بأيهما أفرح
٤٥٠	ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم
٥٨٤	ويحك غيب عني وجهك

- ي -

٢٧٨	يا أبا أيوب ! إن أرفق بنا وبمن معنا
٢٤١	يا أبا بكر ! مالك تمشي ساعة خلفي
٥٧٥	يا أبا عمير ما فعل النُّغير
٣٥٢	يا أصحاب الخندق ! إن جابراً قد صنع
٥٧٦	يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير
٥٤٣	يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله
٣١٢	يا أهل القلب ! هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟
٥٤٢	يا أيها الناس، أيما أحد من الناس أصيب
٥٢١	يا أيها الناس هل تدرون أي شهر أنتم
٥٦٨	يا بلال ! أقم الصلاة أرحنا بها

الصفحة	طرف الحديث
١٨٥	يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني كعب
٢٢٠	يا بني فلان ! إني رسول الله إليكم
٥٢٩	يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام
٤٥٤	يا عثمان لعلك ترى هذا المفتاح يوماً
١٨٨	يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني
٤٧٠	يا معشر الأنصار ! يا معشر أصحاب السمرة
٣٧٤	يا معشر المسلمين ! من يعذرني من رجل
٥٧٩ ، ٥٠٤	يسراً ولا تعسراً، وبشراً ولا تنفراً

فهرس الأشعار

الصفحة	قافية الباء	المطلب
٥٩٦ ، ٤٦٩	-	
	قافية الدال	
٣٤٩	-	أبدا
	قافية الراء	
٨٠	-	ظاهرُ
٨٠	-	نقامرُ
٢٧٨	-	جارِ
	قافية العين	
٩٥	سكاب	تباعُ
٩٥	سكاب	تجاعُ
٩٥	سكاب	الكراعُ
٩٥	سكاب	يُستطاعُ
٢٧٧	-	الوداعِ
٢٧٧	-	داعِ
٢٧٧	-	المطاعِ
٣٣٨	خبيب بن عدي	مصرعي
٣٣٨	خبيب بن عدي	ممنوعِ

قافية الفاء

الصفحة

٢١١ عمر بن أبي ربيعة بالطائف

قافية اللام

٨٠ كعب بن زهير معزالا
 ٤٨١ كعب بن زهير مكبول
 ٤٨١ كعب بن زهير مسلول
 ٧٩ الرقاد بن المنذر بن ضرار الضبي طائل
 ٧٩ الرقاد بن المنذر بن ضرار الضبي القبائل

قافية الميم

٨٠ عمرو بن قميئة اللما
 ٨٠ لييد بن ربيعة مداؤها

قافية النون

٤٢١ عامر بن الأكوع صلينا
 ٤٢١ عامر بن الأكوع أبينا
 ٤٢١ عامر بن الأكوع لاقينا
 ٧٩ عمير التغلبي (القطامي) أحنانا

قافية الهاء

٣٧٣ - مأواها
 ٣٤٩ ، ٢٨٠ - المهاجره
 ٥٠٦ - حزبه

فهرس الأعلام

- أ -

ابن ربيعة بن الحارث ٥٢١، ٥٢٢ .
 ابن سعد ٢١٤، ٤٨٥ .
 ابن شهاب الزهري ٣٨٦، ٣٨٧ .
 ابن عباس ٨٢، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٥٣،
 ٢٥٨، ٢٨١، ٥١٨، ٥٣٦، ٥٧١،
 ٥٩٦، ٥٧٨ .
 ابن قيم الجوزية ٤٥، ١٦٥، ٢٩٥ .
 ابن كثير ٢١٣، ٤٠٦، ٥٤٧ .
 ابن منظور ٤١٢ .
 ابن هشام ١٣، ٤٥، ١٦٤، ٢٥٨،
 ٢٨٤، ٣٨٧، ٤٠٦ .
 ابنة حمزة ٤٣٣ .
 أبو أحيحة بن سعيد بن العاص بن أمية
 ١٤٣ .
 أبو أيوب الأنصاري ٢٣١، ٢٧٨،
 ٢٧٩، ٢٨٠ .
 أبو بصير، عتبة بن أسيد ٣٨٥، ٣٨٧ .
 أبو بكر الصديق ١٣٨، ١٦٥، ١٨٣،
 ١٨٨، ١٩١، ١٩٢، ٢٠٨، ٢١٧،
 ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢،
 ٢٤٣، ٢٧٥، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣٠٨ .

آدم عليه السلام ٤٥٦، ٦٣٢ .
 آرتهر كرسيتين سين ٦٣، ٧٣ .
 آمنة بنت أبي سفيان ٢١٢ .
 آمنة بنت وهب ١٥٧، ١٦٢، ٥٨٥،
 ٦٠٢ .
 إبراهيم عليه السلام ٦٠، ٦٦، ٩٦،
 ٩٧، ٩٨، ١١٧، ١١٨، ١١٩،
 ١٢٢، ١٢٥، ٢٩٠، ٥٩٢ .
 إبراهيم بن محمد رسول الله ﷺ ١٧٢،
 ٥٤٥، ٥٥٤، ٥٩٠ .
 أبرهة الأشرم ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠،
 ٤٠٥، ٤٦٢ .
 أبرويز ٤٠٢ .
 ابن الأثير ٢١٤ .
 ابن إسحاق ٢٢٩ .
 ابن الأعرابي ٤١٢ .
 ابن أم مكتوم ٤١٨ .
 ابن خلدون ٢٣٠، ٤٠٢ .
 ابن خلكان ٢٦ .
 ابن الدغنة ٢٠٨ .

أبو سفيان بن حرب ٩٣، ٢٩٩، ٣٠٠،
 ٣٠١، ٣٠٣، ٣١٣، ٣١٧، ٣٢١،
 ٣٣٢، ٣٣٦، ٣٤٣، ٣٤٧، ٣٥٥،
 ٣٥٦، ٣٧٩، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠،
 ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١،
 ٤٥٣، ٤٥٩، ٤٧٥، ٤٨٠، ٤٨٣.

أبو سلمة ٢٣٣، ٢٣٤.

أبو صالح ٤٠٢.

أبو طالب ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥،
 ١٦٦، ١٧٢، ١٨٣، ١٨٦، ١٨٧،
 ١٨٨، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩.

أبو طلحة الأنصاري ٣٤٩، ٥٤٢،
 ٥٩٥.

أبو العاص بن الربيع ٣١٤، ٥٥٦.

أبو عامر الأشعري ٤٧١.

أبو عبد الله شمس الدين الذهبي ٥٤٩.

أبو عبيدة بن الجراح ١٨٤، ٣٢٧،
 ٤١٢، ٤٤٠، ٥٠٧.

أبو عزيز بن عمير بن هاشم ٣١٣.

أبو عمير ٥٧٥.

أبو الفداء ١١٧.

أبو قتادة ٤٩٤.

أبو ليابة ٣٦١، ٣٦٢.

أبو لهب ١٤٣، ١٥٩، ١٨٦، ٢٠٦،
 ٢٢٠.

أبو معبد ٢٤٥.

أبو موسى الأشعري ٣٤٢، ٥٠٤،
 ٥٥٠.

٣٤١، ٣٨٤، ٤١١، ٤٤٦، ٤٦٣،

٤٨٥، ٤٩١، ٤٩٩، ٥١٥، ٥٢٩،

٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٤٠،

٥٤٢، ٥٤١.

أبو بكر ٤٧٤.

أبو جعفر الطحاوي ٤١٥.

أبو جندل بن سهيل ٣٨٢، ٣٨٣،

٣٨٥، ٣٨٧.

أبو جهل بن هشام ١٩٤، ٢٠٤، ٢٠٧،
 ٢٦٤، ٣٠٣، ٣١١.

أبو حارثة ٥٠٦.

أبو حذيفة ٢٣٥.

أبو الحسن علي الحسيني الندوي ٩، ١٠،

١١، ١٢، ١٤، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٠،

٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٣، ٣٦،

٣٨، ٤١، ٤٣، ٥٥.

أبو حميد ٥٨٣.

أبو داود ٢٨.

أبو داود السجستاني ٢٥٨.

أبو دجانة ٣٢٣، ٣٢٧.

أبو الدرداء ٥٦٨.

أبو ذر الغفاري ٢٢١، ٥٦٧، ٥٧١.

أبو رافع ٣٢٣.

أبو رغال ٢١٢.

أبو سعيد الخدري ٥٣٩، ٥٩٤.

أبو سفيان ١٤٤.

أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب
 ٤٤٩.

- أبو نعيم ٢٥٣ .
 أبو هالة ١٧١ .
 أبو هريرة ٥٦٦ ، ٥٧٠ ، ٥٧٨ ، ٥٨٠ ،
 ٥٨٨ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٢٨ .
 الأبي ٤٠٦ .
 أبي بن خلف ٣٣٠ .
 أحمد بن حنبل ٢٦٣ .
 أحمد بن عرفان الشهيد ٣٠ .
 أحمد حسن الزيات ٣١ .
 أحمد علي اللاهوري ٢٨ .
 أردشير ٧٢ .
 الأرقم بن أبي الأرقم ١٨٤ .
 أركاديوس ١٦٨ .
 أريوس المصري ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ،
 ٤١٥ .
 الأزهري ٤١٢ .
 أسامة بن زيد ٤٥٢ ، ٤٥٧ ، ٥١٨ ،
 ٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٥٧٤ .
 أسد ١٣٨ .
 إسرائيل ولفنسون ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ،
 ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ،
 ٣١٨ ، ٣٦٦ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ .
 أسعد بن زرار ٢٢٦ .
 الإسكندر ٦٣٠ .
 أسماء بنت أبي بكر ٢٤٠ .
 إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ٩٦ ،
 ٩٧ ، ٩٨ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
 ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٥٨ ، ٢٩٠ .
 أسيد بن حضير ٢٣١ ، ٣٧٤ ، ٥٨٤ .
 الأشعث بن قيس ٥٠٤ .
 أكيدر بن عبد الملك الكندي ٤٩٠ .
 ألفرد بتلر ٤٠٣ .
 ألكساندر ٤١٣ ، ٤١٤ .
 أم أيمن (بركة الحبشية) ١٦٣ ، ٤٣٠ ،
 ٤٣٢ ، ٥٣٩ .
 أم أيوب ٢٧٩ .
 أم جميل ١٩٢ .
 أم حبيبة بنت أبي سفيان ٤٤٥ .
 أم سعد ٣٥٤ .
 أم سلمة ٢٣٣ ، ٥٤٢ .
 أم سليط ٣٣١ .
 أم سليم ٣٣١ ، ٤٣٠ .
 أم عبد المطلب بن هاشم ٢٣٠ .
 أم الفضل بن الحارث ٥٣٣ .
 أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ٥٥٧ .
 أم كلثوم بنت محمد رسول الله ﷺ
 ٥٥٤ ، ٥٥٦ .
 أم معبد الخزاعية ٢٤٤ .
 أم هانئ بنت أبي طالب ٤٥٦ .
 أمامة ٥٥٦ .
 أمية ١٣٨ .
 أمية بن أبي الصلت ٢١٣ ، ٥٧٣ .
 أمية بن خلف ١٨٨ ، ٣٣٦ .
 أنجشة ٥٧٦ .
 أنس بن مالك ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٣٢٨ ،
 ٣٢٩ ، ٣٤٩ ، ٤٣٩ ، ٥٣٩ ، ٥٤٣ .

تقي الدين الهلالي المراكشي ٢٧ .

تيم ١٣٨ .

تيوسودس الكبير ٤١٥ .

- ث -

ثمامة بن أثال ٣٦٦ ، ٣٦٨ .

ثوية ١٥٩ .

- ج -

جابر ٣٤٣ ، ٤٦١ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٥٩٣ .

جابر بن سمرة ٥٧٣ .

جابر بن عبد الله ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،

٣٨٧ ، ٥٧١ ، ٥٨٣ ، ٥٩٩ .

جبار بن سلمى ٣٣٩ .

جبون ١٦٨ .

جبير بن مطعم ٣٢٥ .

جريح ٤٠٣ .

جريح بن مينا المقوقس = المقوقس

جيستن الأول ٦٩ ، ٤٠٥ .

جعفر بن أبي طالب ١٤٧ ، ١٦٤ ،

١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،

٤٠٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ،

٤٣٩ .

جمع ١٣٨ .

جورج ٤٠٣ .

جوليان ٤٠٥ .

جيفر بن الجلندي ٤١٦ ، ٤١٨ .

- ح -

حارث بن شمر ٤١٨ .

٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٥ ،

٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ،

٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٥ .

أنس بن النضر ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

إهاب ٣٣٦ .

أوي ٣٦٤ .

- ب -

باذان ٤٠٧ .

بجير بن زهير ٤٨٠ .

بحيرى ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .

البخاري ٢٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٨١ ،

٥٨٥ .

بديل بن ورقاء الخزاعي ٣٨٠ ، ٣٨١ .

البراء بن عازب ٢٧٦ ، ٥٦٦ .

برهان الدين السنبهلي ٥٤ .

بشر بن البراء بن معرور ٢٥٣ ، ٤٢٨ .

بطليموس ١١٥ .

بكر ٧٩ .

البلاذري ٢١١ .

بلال بن رباح الحبشي ١٦٥ ، ١٨٨ ،

٢٨٢ ، ٤٥٦ ، ٥٠٧ ، ٥١٧ ، ٥٦٨ .

بلعام بن باعور ٣٦٤ .

بهرام الأول ٧٢ .

بهرام جوبين ٤٠٠ ، ٤٠١ .

بوذا ٦٤ ، ٦٥ .

البيضاوي ٢٨ .

- ت -

الترمذي ٢٨ ، ١٦٥ ، ٢٦٨ .

الحارث بن عمير الأزدي ٤٣٥ .

الحارث بن قيس ١٣٩ .

الحارث بن كلدة ٢١٣ .

حارثة بن عمرو ٢٣٠ .

حاطب بن أبي بلتعة ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

الحباب بن المنذر ٣٠٤ .

حجير بن أبي إهاب ٣٣٦ .

حذيفة بن اليمان ٣٥٦ .

حرام بن ملحان ٣٣٩ .

حسان ٥٥٠ .

الحسن بن علي بن أبي طالب ٦٢ ، ٤٤٦ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٧٣ .

حسين أحمد المدني ٢٨ .

حسين بن علي بن أبي طالب ٥٥٦ ، ٥٦١ ، ٥٧٣ ، ٦٠٢ .

حسين مؤنس ٤٢٩ .

الحكم بن أبي العاص بن أمية ١٩٠ .

حكيم بن حزام ٤٧٥ .

حليمة السعدية ١٦٠ ، ٦٠٢ .

حمزة بن عبد المطلب ١٧٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٣٥ ، ٢٦٤ ، ٣٠٩ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٤٥٨ ، ٥٨١ .

٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ .

حميد بن زهير ١٣٥ .

الحنظلية أم أبي جهل ١٤١ .

حور ٣٦٤ .

حيدر حسن خان الطونكي ٢٨ .

حيي بن أخطب ٣٥٢ ، ٣٦٠ .

-خ-

خالد بن الوليد ١٣٨ ، ٣٨٨ ، ٤٣٨ ، ٤٥٣ ، ٤٩٠ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ .

خباب بن الارت ١٤٤ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

خبيب بن عدي ٣٣٦ ، ٤١٨ .

ختا الأول ٦٢٧ .

خديجة بنت خويلد ١٤١ ، ١٧١ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٧ ، ٥٤٥ ، ٥٤٧ ، ٥٥٤ ، ٦٠٢ .

خراش الخزاعي ٣٧٨ .

خسرو الأول ٤٠٠ ، ٤٠١ .

خسرو الثاني ٤٠٠ ، ٤٠١ .

خليل بن محمد الأنصاري اليماني ٢٧ .

خيلوس ١١٥ .

-د-

داود بن عروة ٢١٣ .

داود عليه السلام ٩٧ ، ٦٠٨ .

دحية الكلبي ٣٩٣ ، ٤٨٣ .

دريد بن الصمة ٤٦٧ .

ديدوروس الصقلي ١١٥ .

-ذ-

الذهبي ١٦٥ .

-ر-

رابع ٣٦٤ .

رافع بن خديج ٣٢٣ .

ساعة ٤٥٨ .
 سراقه بن مالك بن جعشم ٢٤٣ ،
 ٢٤٤ .
 سعاد ٤٨٠ ، ٤٨١ .
 سعد ٥٧٤ .
 سعد بن أبي وقاص ١٨٤ ، ٣٠٢ ،
 ٣٢٧ .
 سعد بن الربيع ٣٣٠ .
 سعد بن عبادة ٣٥٢ ، ٣٦٠ ، ٤٥٣ .
 سعد بن معاذ ٨٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٢٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ،
 ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٥٨٤ .
 سعيد بن زيد ٢٠٢ ، ٢٠٣ .
 سعيد رمضان المصري ٣١ .
 سلام بن أبي الحقيق ٣٦٥ .
 سلام بن مشكم ٣١٧ ، ٧٢٤ .
 سلمان الفارسي ٣٤٧ .
 سلمة بن أبي سلمة ٢٣٣ .
 سلمى بنت عمرو بن زيد ٢٦٤ .
 سليمان عليه السلام ٤٠٤ ، ٦٠٨ .
 سليمان الندوي ٦٠٠ .
 سمرة بن جندب ٣٢٣ .
 سهل بن الربيع بن عمرو ٥٩٧ .
 سهيل بن عمرو ٨٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،
 ٣٨٣ ، ٤٥٣ .
 سهم ١٣٨ .
 سواد بن عمر ٥٨٩ .
 سودة بنت زمعة ٥٤٥ ، ٥٤٧ .

راقم ٣٦٤ .
 ربيعة بن الحارث ٥٨١ .
 رستم ٩٦ ، ١١٣ .
 رشيد رضا ٣٠ .
 الرقاد بن المنذر بن ضرار الضبي ٧٩ .
 رقية بنت محمد ﷺ ١٩٦ ، ٥٥٤ ، ٥٥٦ .
 روبرت بريفولت ٧٨ .
 - ز -
 الزبيدي ١٧٤ .
 الزبير بن العوام ١٨٤ ، ٢٣٥ ، ٣٣٢ ،
 ٤٤٧ ، ٤٣٠ .
 زرادشت ٧٢ .
 زهرة ١٣٨ .
 زهير بن أبي أمية ٢٠٦ .
 زياد بن السكن ٣٢٩ .
 زيد ٤٣٣ .
 زيد بن ثابت ٣١٤ ، ٣٣٠ .
 زيد بن حارثة ١٨٣ ، ٢١٤ ، ٢٥٣ ،
 ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٥٧٣ .
 زيد بن الدثنة ٣٣٦ .
 زيد بن سعة ٥٨٧ .
 زينب بنت الحارث اليهودية ٤٢٧ .
 زينب بنت علي بن أبي طالب ٥٥٧ .
 زينب بنت محمد ﷺ ٤٥٨ ، ٥٥٤ ،
 ٥٥٦ .
 زيد الخيل (الخير) ٥٠٤ .
 - س -
 س . وي . ويد ٦٥ .

سيزر ١٦٨ .

سيف بن ذي يزن ١٣١ .

- ش -

شاه بور ٧٢ .

شبلبي النعماني ١٦٤ ، ١٦٥ .

شداد بن أوس ٥٩٦ .

شرحبيل بن عمرو الغساني ٤٣٥ ،

٥٠٧ .

الشريد الثقفي ٥٧٣ .

شقرات مولى رسول الله ﷺ ٣١٢ .

شبية بن ربيعة ٢١٦ ، ٢٦٤ ، ٣٠٩ ،

٥٨٠ .

شبرويه ٤٠٢ ، ٤٠٧ .

الشيمااء بنت حليلة السعدية ٤٧٨ .

- ص -

صالح ١١٧ .

صعصعة بن ناجية ٨٣ .

صفوان بن أمية ١٣٩ ، ٣٣٦ ، ٤٥٣ ،

٤٦٧ .

صفوان بن المعطل السلمي ٣٧٣ ،

٣٧٤ .

صفية بنت عبد المطلب ٣٣٢ .

صهيب ١٨٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ .

صور ٣٦٤ .

- ط -

الطاهر بن رسول الله ﷺ ٥٥٤ .

الطبري ٨١ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ٤٠١ .

طعيمة ٣٢٥ .

الطفيل بن عمرو الدوسي ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

طلحة بن عبيد الله ١٨٤ ، ٢٣٥ ، ٣٢٦ ،

٣٢٨ .

الطيب بن رسول الله ﷺ ٥٥٤ .

- ع -

عاتكة بنت عبد المطلب ٢٠٦ .

العاص بن وائل ١٧٤ .

عاصم بن ثابت ٣٣٦ .

عامر بن الأكوع ٤٢١ .

عامر بن صعصعة ٥٠٣ .

عامر بن فهيرة ٢٤٠ ، ٢٤٣ .

عامر بن مالك ٣٣٨ .

عائشة بنت أبي بكر (رضي الله عنها)

٢٢٨ ، ٢٥٤ ، ٢٦٣ ، ٣٣١ ، ٣٥٤ ،

٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ،

٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ،

٥٣٨ ، ٥٤٠ ، ٥٤٥ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ،

٥٥٠ ، ٥٦٧ ، ٥٧٠ ، ٥٧٣ ، ٥٧٧ ،

٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٦ ، ٥٩٥ ،

٦٠٢ .

العباس بن عبادة الخزرجي ٨٨ .

العباس بن عبد المطلب ١٤٤ ، ٢١١ ،

٢٢٢ ، ٢٣٢ ، ٣١٣ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ،

٤٥١ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ،

٥٣٢ ، ٥٣٤ ، ٥٧٤ ، ٥٨١ .

عبد بن أبي ربيعة المخزومي ١٤٤ .

عبد بن الجلندي ٤١٦ ، ٤١٨ .

- عبد الله بن سلام ٢٨٨ .
عبد الله بن الشيخير ٥٦٨ .
عبد الله بن طارق ٣٣٦ .
عبد الله بن عبد الله بن أبي ٣٧٢ .
عبد الله بن عبد المطلب ١٥٧ ، ١٦٢ ،
١٦٣ ، ٦٠٢ .
عبد الله بن عثمان ٥٥٦ .
عبد الله بن عمر ٥٩٧ ، ٥٩٩ .
عبد الله بن عمرو بن العاص ٥٧٩ ،
٥٩٤ .
عبد الله بن مسعود ١٨٤ ، ٢٦٥ ، ٤٩١ ،
٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٨ ، ٥٩٨ .
عبد الله ذو الجادين ٤٩١ .
عبد الماجد الغوري ٨ .
عبد المطلب ٨٣ ، ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
١٤٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ،
١٦٣ ، ٢٣٠ .
عبد مناف ١٢١ .
عبدة بن الحارث بن المطلب ١٨٤ ،
٢٦٤ ، ٣٠٩ ، ٥٨١ .
عتاب بن أسيد ٤٦٣ .
عتبة بن ربيعة ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،
١٩٦ ، ٢١٦ ، ٢٦٤ ، ٣٠٩ ، ٥٨٠ .
عثمان بن أبي العاص ٥١٠ .
عثمان بن طلحة ١٨٩ ، ٢٣٤ ، ٤٥٤ ،
٤٥٥ .
عثمان بن عفان ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ،
٢٣٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٤٨٨ ، ٥٥٦ .
- عبد الحي الحسني ٢٦ .
عبد الرحمن بن أبي بكر ٥٣٧ .
عبد الرحمن بن عوف ١٨٤ ، ٢٣٥ ،
٣١١ .
عبد الرحمن بن غزوان ١٦٥ .
عبد العزى = أبو لهب .
عبد العلي الحسني ٢٧ ، ٤٤ .
عبد القادر الرأي فوري ٢٩ .
عبد الله الأشتر بن محمد ٢٦ .
عبد الله بن أبي ابن سلول ٢٨٤ ، ٣١٧ ،
٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ ،
٥٨٦ .
عبد الله بن أبي أوفى ٥٩٢ .
عبد الله بن أبي ربيعة ١٩٨ .
عبد الله بن أبي بكر ٢٤٠ .
عبد الله بن أريقط ٢٣٩ .
عبد الله بن جبير ٣٢٢ .
عبد الله بن جدعان التيمي ١٤٤ ،
١٧٤ ، ١٩٤ .
عبد الله بن جحش ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،
٣٣٠ .
عبد الله بن جعفر ٤٤٠ ، ٥٩٨ .
عبد الله بن الحارث ٥٧٣ .
عبد الله بن ربيعة ١٤١ .
عبد الله بن رسول الله ﷺ ٥٥٤ .
عبد الله بن رواحة ٣١٢ ، ٤٢٦ ، ٤٣٦ ،
٤٣٧ ، ٤٣٩ .
عبد الله بن سعد بن أبي سرح ٤٥٨ .

- عثمان بن مظعون ١٨٤، ١٩٠، ١٩٦ .
 عدّاس ٢١٦ .
 عدنان ١٢٠، ١٢١، ١٥٨ .
 عدي بن حاتم ١٣٨، ٥٠٤، ٥٩٣ .
 عروة ٢٥٤، ٢٦٣ .
 عروة بن مسعود الثقفي ٢١٢، ٣٨١، ٤٧٩ .
 عفراء ٢٦٤، ٣١١ .
 عقبة ٥٨٣ .
 عقبة بن أبي معيط ١٩٣ .
 عقبة بن نافع ٨٩ .
 عقيل بن أبي طالب ١٦٤، ٣١٤ .
 عكاشة بن محصن ٢٩٤ .
 عكرمة بن أبي جهل ٨٨، ٤٥٣، ٤٥٨ .
 العلاء بن الحارث ٤٧٥ .
 علي أحمد الكجراتي الهندي ٥٥ .
 علي بن أبي طالب ٣١، ٣٦، ١٦٤، ١٨٣، ٢٢١، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٦٤، ٣٠٣، ٣٠٩، ٣٢٦، ٣٣١، ٣٤١، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٨١، ٣٨٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٣٣، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٤، ٤٨٩، ٤٩٩، ٥٠٦، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢٨، ٥٣٣، ٥٣٧، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٦٢، ٥٨١، ٥٩٥ .
 علي بن أبي العاص ٥٥٦ .
 عماد الدين خليل ٧، ٩، ٢٣ .
 عمّار ٢٩٤ .
 عمار بن مسعود ١٨٤ .
 عمار بن ياسر ١٨٩ .
 عمر بن الخطاب ١٣٨، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٣٥، ٢٤٤، ٣٠٣، ٣٣٢، ٣٤١، ٣٧١، ٣٧٩، ٣٨٤، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤١١، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥٩، ٤٧٤، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٩١، ٥١٠، ٥٢٩، ٥٣٢، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٥٧، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٨٧، ٥٩٢ .
 عمرو بن الجموح ٢٦٣، ٣٢٩ .
 عمرو بن حزم ٥٠٥ .
 عمرو بن الحضرمي ٢٩٤ .
 عمرو بن سالم الخزاعي ٤٤٤ .
 عمرو بن العاص ١٤١، ١٩٨، ٢٠١، ٣٨٨، ٤٠٣، ٤٠٤ .
 عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي ١٢٢ .
 عمرو بن عبدود ٣٥٣، ٣٥٤ .
 عمرو بن قميث ٨٠ .
 عمرو بن كلثوم ٩٥، ٩٦ .
 عمرو بن معديكرب ٥٠٤ .
 عمرو بن هند ٩٥، ٩٦ .
 عمير بن أبي وقاص ٣٠٢، ٣٠٣ .
 عمير بن الحمام الأنصاري ٣١٠ .
 عمير التغلبي (القطامي) ٧٩ .
 عيسى ابن مريم عليه السلام (المسيح) ٦٢، ٩٨، ١٢٤، ٢٠٠، ٣٩٤، ٣٩٧، ٣٩٧، ٤٠٦، ٤١٣، ٤١٤ .

٣٨٥، ٣٩٤، ٣٩٧، ٤٠٧، ٤٠٨،
٥٧٠.

كسرى أبرويز ٣٩٣، ٣٩٦، ٣٩٧،
٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٧، ٤١٢،
٦٢٦.

كسرى أنوشروان ٩١، ٩٢، ٩٣.

كعب بن أسد القرظي ٣٦٠.

كعب بن الأشرف ٢٥٨، ٣١٩، ٣٦٥.

كعب بن زهير ٤٨٠، ٤٨١.

كعب بن زيد ٣٣٨.

كعب بن لؤي ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣،
٤٩٥.

كعب بن مالك ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣،
٤٩٥.

كنانة بن عبد ياليل ٥٠٨، ٥١٠.

-ل-

لامارتين ١٠٤.

لبيد بن ربيعة العامري ٨٠، ١٤٤.

ليكي ٦٢١.

ليلي ٩٥، ٩٦.

-م-

مارجليوث ٢٥٣.

مارية القبطية ٤٠٧، ٥٥٤.

مالك بن سنان ٣٢٦.

مالك بن عوف النصري ٤٦٥، ٤٦٧،
٤٧١.

ماني ٧٢.

المجسطي ١١٥.

٤١٥، ٥٩١، ٥٩٢، ٦٠٢.

-ف-

فاطمة بنت الخطاب ٢٠٢، ٢٠٣.

فاطمة بنت رسول الله ﷺ ١٩٤، ٣٣١،

٤٣٣، ٤٤٦، ٤٥٧، ٥٤٣، ٥٥٤،

٥٥٦، ٥٥٧، ٥٨١، ٦٠٢.

فاطمة المخزومية ٤٥٧.

فرعون ٣١١.

فروة بن عمرو الجذامي ٥٠٥.

فضالة بن عمير ٤٦٠، ٤٦١.

الفضل بن عباس ٥١٨، ٥٢٨.

فهر بن مالك ١٢١.

فوقس ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠١.

فيصل ٣٢.

فيليب حتي ١٢٤.

-ق-

القاسم بن رسول الله ﷺ ٥٥٤.

قباذ ٤٠٧.

قباذ بن فيروز ٩٢.

قتادة بن النعمان ٨٠، ٢٦٨، ٣٢٨.

قسطنطين ٤١٣، ٤١٤.

قصي بن كلاب ١٢١، ١٣٤، ١٣٦.

قطب الدين المدني ٢٦.

قيس بن سعد ٤٥٣.

قيصر ٢٤٤، ٣٨١، ٣٨٥، ٤٨٤،
٥٧٠.

-ك-

كسرى ٧٤، ١٣١، ١٥٩، ٣٨١،

- محب الدين الخطيب ٣١.
 محمد إلياس الكاندهلوي ٢٩، ٣٦.
 محمد بن راشد المكتوم ٣٣.
 محمد بن مسلمة ٢٥٥، ٤٢٤، ٤٨٩.
 محمد حسن الأنصاري ٥٥.
 محمد سليمان المنصورفوري ٧.
 محمد شفيع ٥٥.
 محمد طاهر الفتني ٥٠١.
 محمد معاذ الإندوري الندوي ٥٥.
 محمود شيت الخطاب ٤٣٨.
 محسن أحمد باروم ٤٣.
 محيي الدين أحمد ٥٥.
 محيي الدين يحيى النوي ٤١٦.
 مخزوم ١٣٨.
 مرارة بن الربيع ٤٩١، ٤٩٣.
 مرحب ٤٢٢.
 مريم جميلة ٢٥٧.
 مريم العذراء ٢٠١.
 مزدك ٧٢.
 مسلم ٢٨، ٤١٦.
 المسيح = عيسى ابن مريم
 مسيلمة الكذاب ٥٠٤.
 مصطفى السباعي ٣١.
 مصعب بن عمير ١٨٩، ٢٢٦، ٢٣١،
 ٣٠٣، ٣١٣، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٣٣.
 المطعم بن عدي ٢٠٧.
 المطلب بن عبد مناف ١٢١، ٢٣١.
 معاذ بن جبل ٥٠٤.
 معاوية ٥٥٠.
 معاوية بن أبي سفيان ٤٧٥.
 معاوية بن الحكم ٥٨٨.
 معد بن عدنان ١٢١.
 المغيرة بن شعبة ٩٦، ١١٣، ٤٠٨،
 ٥٠٥، ٥٦٧.
 المقداد ٣٠٢.
 المقرزي ٢١٤، ٤٠٣.
 المقوقس ٣٨٥، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥،
 ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٦،
 ٤٠٧.
 مكرز بن حفص ٣٨١.
 المنذر بن ساوى ٤١٦، ٤١٨.
 منوشاستر ٦١٠.
 موريقس ٣٩٨، ٤٠٠، ٤٠١.
 موسى عليه السلام ٩٨، ٩٩، ١١٧،
 ١٨٢، ٣٠٢، ٣٦٤، ٤٦٨، ٤٨٩،
 ٦٠٨.
 الميداني ٨٢، ١٨٨.
 ميمونة ٥٢٨.
 -ن-
 النجاشي ١٢٨، ١٤١، ١٤٧، ١٩٨،
 ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٣٨١، ٣٨٥،
 ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٧، ٤٠٤، ٤٠٥،
 ٤٠٦، ٤٠٧.
 الندوي = أبو الحسن علي الحسيني
 الندوي
 النضر بن الحارث ٢١٣، ٤٧٥.

نعيم بن عبد الله ٢٠٢.

نعيم بن مسعود ٣٥٥.

نورعالم الأميني الندوي ٥٥.

نوفل ١٣٨.

نوفل بن مغيرة ٣٥٤.

-ه-

هـ. ج. ولز ٨٤.

هارون عليه السلام ٤٨٩، ٦٠٨.

هاشم ١٣٨، ٢٣٠، ٤٥٢.

هاشم بن عبد مناف ١٢١، ٢٦٤.

هبار بن الأسود ٤٥٨.

هرثس ٦٥.

هرقل ٩٣، ٩٤، ١٦٧، ١٦٨، ٣٩٣،

٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠،

٤٠١، ٤٠٣، ٤٠٦، ٤٠٨، ٤٠٩،

٤١١، ٤١٥، ٤٣٦، ٤٨٣، ٤٨٤،

٤٨٥.

هشام ٥٥٠.

هشام بن عمرو بن ربيعة ٢٠٦.

هلال بن أمية ٤٩١، ٤٩٣.

هند ٩٥، ٩٦.

هند بن أبي هالة ٥٦١، ٥٦٥.

هند بنت عتبة ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٣١،

٤٥٨، ٤٥٩.

هود عليه السلام ١١٦، ١١٧.

هوذة بن علي ٤١٨.

الهيثم بن عدي ٨٢.

هيرودوتس ١١٥، ١١٦.

-و-

واقد بن عبد الله التميمي ٢٩٥.

الواقدي ١٦٣، ٤٠٦، ٤٨٥.

وحشي بن حرب ٣٢٥، ٤٥٨، ٥٨٤،

٥٨٥.

ورقة بن نوفل ١٨١، ١٨٢.

ولفسون = إسرائيل ولفسون

الوليد بن عتبة ٢٦٤، ٣٠٩، ٥٨٠.

الوليد بن المغيرة ١٤٣، ١٩٠، ١٩٣.

وليم ميور ١٠١.

وهرز ١٣١.

ويدا ٦٠٩.

-ي-

ياقوت ٢١٢.

يزدجرد ٦٣، ٧٤، ٤٠٧.

يزيد بن أبي سفيان ٤٧٥.

يعقوب عليه السلام ٦٠، ٦٣٤.

يوحنا بن رؤبة ٤٩٠.

يوسف عليه السلام ٤٤٩، ٤٥٦.

يوسفوس فلافيوس ١١٥.

يوسي قوس ٢٥٠.

Carra de Vaux ١٦٦.

De lacy o'leary ١٢٤، ٢٥٦، ٤٠٥.

Georges Roux ١٢٥.

James Mackinon ٤١٣.

John the Almoner ٤٠٣.

R.V.C. Bodley ٣٦٥، ٥٥١.

Victor chopart ٩٣.

فهرس القبائل والأقوام

٤٧٠ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨١ ،
٤٨٤ ، ٤٩٥ ، ٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ،
٥٧٤ ، ٥٩٨ ، ٦٣٣
الأوس ٨٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ،
٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،
٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ ،
٢٨٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ،
٣٧٤
الإيرانيون ٨٥ ، ٩٣ ، ١٦٨ ، ٤٠١

- ب -

بلقين ٤٣٦
بلي ٤٣٦ ، ٥٠٨
بنو أسد ١٣٨ ، ٥٠٧
بنو إسرائيل ٦٠ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٢٤ ،
٢٥٧ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٦٣ ،
٣٦٤ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩
بنو إسماعيل ٩٨
بنو الأصفر ٤٨٣ ، ٤٨٩
بنو أمية ١٣٨ ، ١٤٣ ، ٢١٢
بنو بكر ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥
بنو تغلب ٩٥ ، ٩٦

- أ -

الآريين ٧٦
آل جعفر ٤٣٩
آل أبي سلمة ٢٣٤
آل ساسان ٣٩٩
آل ياسر ١٨٩
الأحاييش (الحبش) ١٣١ ، ١٤٦ ،
٣٧٨
إرم ٢٢٨
الآزد ٢٣٠ ، ٥٠٤
الإسرائيليون = بني إسرائيل
الأنباط ١١٥ ، ١٢٣ ، ٤٨٥
الأنصار ٢١٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ،
٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ،
٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ ،
٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،
٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ،
٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ،
٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ ،
٣٦٠ ، ٣٧١ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٦ ،
٤٤٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٦٠ ، ٤٦٩

بنو غفار ٣٧١، ٤١٨	بنو تميم ٩٥، ٤٧٧، ٥٠٣
بنو فزاة ٤٧٧، ٥٠٧	بنو تيم ١٣٨، ١٩٢
بنو فهد ١٨٥	بنو جمح ١٣٩
بنو قحطان ١٢٠، ٢٣١، ٢٦٤	بنو الحارث بن كعب ٥٠٥
بنو قريظة ٢٥٠، ٢٥١، ٢٦٠، ٢٦٢،	بنو حارثة ٢٦٢، ٣٥٤
٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٩،	بنو حنيفة ٣٦٦، ٥٠٤
٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٥، ٣٦٦	بنو دينار ٢٥٩، ٣٣٤
بنو قصي ١٣٨	بنو زبيد ٥٠٤
بنو قينقاع ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٩،	بنو زهرة ١٥٧
٢٦٠، ٢٦٦، ٢٦٩، ٣١٧، ٣١٨	بنو ساسان ٤٠٧
بنو كعب ١٨٥	بنو سالم بن عوف ٢٧٧
بنو كنانة ٣٨١، ٤٤٦	بنو سعد ١٦٠، ١٦٢، ١٧١، ٢٠٩،
بنو لحيان ٤١٨	٥٢١، ٥٠٣
بنو مالك بن النجار ٢٧٨	بنو سلمة ٢٦٣
بنو مخزوم ١٣٨، ١٤٣، ١٨٩، ٤٥٧،	بنو سليم ٢٦٩، ٣٣٨، ٤٧٧
بنو المصطلق ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٢	بنو طيء ٥٠٤
بنو المطلب ٢٠٥	بنو ظفر ٢٦٢
بنو معاوية ٢٦٢	بنو عامر ٣٤١، ٥٠٣
بنو المغيرة ٢٣٣	بنو عبد الأسد ٢٣٣، ٢٣٤
بنو نبهان ٢٥٨	بنو عبد الأشهل ٢٣١، ٢٦٢، ٥٨٣،
بنو النجار ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٧٨	٥٨٤
بنو النضير ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٨، ٢٦٠،	بنو عبد الدار ١٣٨، ١٧٣، ٢٣٤
٢٦٢، ٣١٧، ٣٤١، ٣٤٥، ٣٥٢،	بنو عبد مناف ٢٣٦
٣٦٠، ٣٦٢	بنو عبد المطلب ١٨٥، ٤٧٧، ٥٨٧
بنو نوفل ١٣٨	بنو عدي ١٣٨، ١٧٣، ٢٠٢، ٢٣٠
بنو هاشم ١٢٢، ١٣٨، ٢٠٠، ٢٠٥،	بنو عدي بن كعب ٣٧٩
٢٠٦، ٥٨١	بنو عدي بن النجار ١٦٢، ٢٦٤
بنو وائل ٣٤٥	بنو عمرو بن عوف ٢٣٤، ٣٦١

ذو مرة ٥٠٨	بهاء ٤٣٦، ٥٠٧
- ر -	البيزنطيون ٧٠، ٨٥، ١٦٧، ٤٠٣
ربيعه ١١٣	- ت -
رعل ٣٣٨	تجيب ٥٠٧
الروم ٧١، ٨٧، ٩٣، ١١٣، ١٤٥،	ثقيف (الثقيفون) ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٣،
١٦٧، ١٦٨، ٣٩٣، ٣٩٦، ٣٩٨،	٢١٤، ٢١٥، ٤٦٥، ٤٧٣، ٤٧٤،
٣٩٩، ٤١١، ٤١٢، ٤٣٥، ٤٣٦،	٤٧٩، ٤٨٠
٤٣٧، ٤٣٨، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦،	ثمود ١١٧، ٤٨٩
٤٨٩، ٤٩٠، ٥٠٥، ٥٠٦	جدام ٤٣٦، ٤٨٥
الرومان ٦١، ٩٠، ٩٣، ١١٥، ١١٨،	جرهم ١٢٠، ١٢١
١٢٣، ٢٤٩، ٤٠٤، ٤٢٦	جشم ٤٦٥
- س -	جندر بنسي ٦٢٦
الساسانيون ٦٣	جهينة ٣٧١، ٤٤٠
سعد بن بكر ٤٦٥	- ح -
سورج بنسي ٦٢٦	حمير ١٣١، ٥٠٤
السوريون ٧١	- خ -
- ص -	خزاعة ١٢١، ٣٦٩، ٣٧٨، ٣٨٠،
الصينيون ٦٢٧	٤٤٤، ٤٤٥
طيء ٢٥٨	الخزرج ٨٨، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٨،
- ع -	٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٥٠، ٢٥٦،
عاد ١١٦، ١١٧، ٢٢٨	٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٢،
عاملة ٤٨٥	٢٦٤، ٢٧٠، ٢٨٤، ٣٦٠، ٣٦٢،
عبد القيس ٥٠٥	٣٦٥، ٣٧١، ٣٧٤
العدنانية ١١٣، ٢٣١	خولان ٥٠٨
عدي ٢٥٩	دوس ٢٠٨
عذرة ٥٠٧	- ذ -
العرب ٢٩، ٣٠، ٣٧، ٦٦، ٧٨،	ذكوان ٣٣٨

غفار ٢٢٢

-ف-

الفرس ٨٧، ١١٣، ١٤٥، ١٤٧،
١٦٧، ٣٤٧، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠٣،
٤٨٤

-ق-

القارة ٣٣٦

القبط (الأقباط) ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٠٣،
قريش ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥،
١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٥،
١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢،
١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨،
١٥٧، ١٦٦، ١٦٨، ١٧٠، ١٧١،
١٧٣، ١٧٤، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤،
١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٠، ١٩١،
١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٨،
٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٦،
٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢،
٢١٤، ٢١٥، ٢١٧، ٢٢٦، ٢٢٧،
٢٢٨، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٤٣،
٢٤٤، ٢٤٥، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٨٨،
٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٩،
٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣١٢،
٣١٤، ٣١٧، ٣٢١، ٣٣٣، ٣٣٦،
٣٤٥، ٣٤٧، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٥،
٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٨،
٣٦٩، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١،
٣٨٣، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨

٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٧، ٩٠، ٩٤، ٩٥،
٩٦، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣،
١٠٩، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥،
١١٦، ١١٧، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢،
١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩،
١٣٠، ١٣٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٨،
١٦٠، ١٧٤، ١٨٥، ١٩٣، ٢٠٠،
٢١٢، ٢١٣، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٢٨،
٢٣١، ٢٣٤، ٢٤٩، ٢٥٢، ٢٥٤،
٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩،
٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٩، ٢٩٠، ٣٠١،
٣١٨، ٣٥٣، ٣٨٢، ٣٨٥، ٣٨٦،
٣٩١، ٣٩٢، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٠٣،
٤٠٥، ٤٠٨، ٤١٢، ٤٣٠، ٤٣٢،
٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٦، ٤٦٢، ٤٦٥،
٤٧١، ٤٨٠، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥،
٤٨٦، ٤٨٩، ٤٩٤، ٥٠١، ٥٠٤،
٥٠٥، ٥٣٦، ٥٤٨، ٥٥١، ٥٦٩،
٥٨٠، ٦٠١، ٦٢٧، ٦٤١

العرب العاربة ٢٦٤

عصية ٣٣٨

عضل ٣٣٦

-غ-

غامد ٥٠٨

غسان ١٤٧، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٩٤،
٤٩٥، ٥٠٨،
غطفان ٣٤٧، ٣٥٢، ٣٥٥، ٣٥٦،
٤٢١، ٤٢٩

٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٧ ،
٤٣٠ ، ٤٣٦ ، ٤٤٠ ، ٤٥١ ، ٤٦٩ ،
٤٧٧ ، ٤٩٥ ، ٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٦٣٣

-ن-

النخع ٥٠٨

نصر ٤٦٥

-ه-

هذيل ٥٢١

همدان ٥٠٥ ، ٥٠٦

هوازن ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ،
٤٧٤ ، ٤٧٧

-ي-

اليهود ٦٠ ، ٨١ ، ٩٧ ، ١١٨ ، ١٦٤ ،
٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،
٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ،
٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ،
٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،
٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ،
٢٨٩ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ،
٣٤٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ،
٣٦٨ ، ٤٠٤ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ،
٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ،
٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٥٣٥ ، ٦٠٨ ، ٦٢٦

اليونانيون ١١٥

٤٠٦ ، ٤٣٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ،
٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ،
٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ،
٤٥٦ ، ٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٤٧٥ ، ٥٠١ ،
٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٦٢١

قضاة ٤٤٠

قيس ١٧٠

-ك-

كعب ٤٦٧

كلاب ٤٦٧

كنوة ٥٠٤

-ل-

لخم ٤٣٦ ، ٤٨٥

-م-

مازن ٢٥٩

مالك ٢٥٩

محارب ٥٠٨

مزينة ٥٠٦

مضر ١١٣ ، ١٢١ ، ٢٣٠

المغول ٨٥

المكيون ١٤١

المهاجرون ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٣٣ ،

٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ ،

٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٢٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٩ ،

فهرس الأمكنة والمواضع

إفريقية الشمالية ٤٠٤
إليريا ٤١٤
الإمارات العربية المتحدة ٣٣
إنجلترا ٣٣
الأندلس ٤٢٧، ٦٤١
أوربة ٧٧، ٧٨، ٨٥، ١٠٠، ٣٩٨،
٤٠٠، ٤٩٨، ٦٢١، ٦٣٠
أوربة الغربية ٨٥
أوربة الوسطى ١١٣
أورشليم ٤٢٦
أوطاس ٤٦٧، ٤٧١
إيران ٦٣، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٩٠،
٩١، ١٦٧، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٣،
٤٠٨، ٤١٢، ٤٨٤، ٦٢٦، ٦٤١
إيطاليا ٧٨
أيلة ١١٠، ٤٩٠
إيلياء ٤٨٤
إيوان كسرى ٧٤
-ب-
بابل ٦٠

-أ-

آسيا ٨٥، ٩٩، ١٠٩، ١٤١، ٣٩٨،
٤٠٠، ٦٠٨
آسيا الصغرى ٤٠٠
آسيا الوسطى ٦٤
الأبطح ٢٣٣
الأبواء ١٦٣، ٢٩٦، ٥١٥
أترابرديش ٢٧، ٢٩، ٣٤
أثيوبيا ٤٠٤
أثينا ٨٤
أحد ٢٣، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣،
٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٣، ٣٣٥، ٥٢٦،
٥٢٧، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٩٦، ٦٠١
أذرح ٤٩٠
الأردن = المملكة الأردنية الهاشمية
إستانبول ٣٣
الإسكندرية ٤٠٢، ٤٠٣، ٤١٤
إسلام آباد ٣٤
إفريقية ١٠٠، ١١٢، ٣٩٨، ٤٠٠،
٤٠٥، ٦٤١

٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٥ ، ٥٠٠ ،

٦٣٣

ترکستان ٦٤

ترکيا ٣٣

تکية علان ٢٧

تيماء ٤٣٠

-ث-

ثنية الوداع ٣٧٨ ، ٤٨٨

-ج-

جامعة دمشق ٣٠

جامعة علي كره ٥٥

جامعة کشمير ٣٢

جبل أبي قبيس ١٣٤ ، ١٣٥

الجبل الأحمر ١٣٤

جبل التنعيم ٥٨٧

جبل غزوان ٢١١

جبل قعيقعان ١٣٤ ، ٢٣٢

جدة ٧ ، ٤٢

جرباء ٤٩٠

الجرف ٥٢٩ ، ٥٣٠

الجزيرة العربية (جزيرة العرب) ٦٥ ،

٨٧ ، ٩١ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،

١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،

١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٤ ،

١٢٥ ، ١٣١ ، ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،

١٤٧ ، ١٧٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ،

٢٤٩ ، ٢٦٢ ، ٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٤١٩ ،

٤٢٩ ، ٤٦٥ ، ٤٨٣ ، ٤٨٦ ،

باكستان ٣٠ ، ٣٤

بتراء ١٢٣ ، ١٢٤

البحر الأحمر ١١٠ ، ٤٠٥

البحر الأطلسي ٦٥ ، ٨٩

البحر المتوسط ١١٥ ، ١٢٤

البحرين ١١٠ ، ٤١٦ ، ٦٠٠

بحيرة ساوا ١٥٩

بحيرة لوط ١١٧

بدر ٨٩ ، ١٤٢ ، ٢١٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ،

٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ،

٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٤٤٧ ، ٤٩١ ،

٥٥٦ ، ٥٧٤ ، ٥٩٥ ، ٦٠١

برك الغماد ٨٩

برونائي ٣٣

بصري ١٦٤ ، ٣٩٣ ، ٤٣٥ ، ٦٠٢

بطن محسر ٥١٨

بقيع الغرقده ٥٢٨

البلاد العربية ٧ ، ٢٩ ، ١١٥ ، ٣١٨ ،

٣٦٥ ، ٥٥٠

البلقاء ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٨٥ ، ٥٢٩

البيت (بيت الله الحرام) ٦٦ ، ١٣٤ ،

١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ٢٠٥ ، ٢١٨ ،

٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٤٥٤ ، ٤٦٠ ،

٤٩٦ ، ٥١٣ ، ٥١٦

بيت المقدس ٢٤٩ ، ٢٩٠ ، ٣٩٩

بئر معونة ٣٣٨

-ت-

تبوك ١١٧ ، ٤٠٦ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ،

الحيرة ٩٥، ١١٢، ١٤٧

-خ-

خراسان ٦٤١

الخليج العربي ١٠٩، ١١٠

الخنديق ٢٢٩، ٣٣٨، ٣٤٥، ٣٤٧

٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٢، ٣٥٣

٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦١

خيبر ٢٠١، ٢٥٣، ٣٤٢، ٣٤٧

٤١٨، ٤١٩، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤

٤٢٦، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٢

٥٢٩

دار الأرقم ١٨٩

دار العلوم ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٣، ٣٤

٥٤

دار الندوة ١٣٦، ١٣٨، ٢٣٥

الداروم ٥٢٩

دمشق ٨، ٣١، ٣٢، ٣٤

دومة ٤٩٠

دومة الجندل ٣٤٣

ديوبند ٢٨، ٣٤

-ذ-

ذو الحليفة ٥٢٠

ذو طوى ٥١٥

ذو قرد ٤١٨

-ر-

رائي بريلي ٢٧، ٣٥، ٥٥

الرباط ٣٤

٤٩٦، ٥٠٠، ٥١٠، ٥٣٠، ٥٣٨

٦٠٨

الجعرانة ٤٧١، ٤٧٤، ٤٧٩

جمرة العقبة ٥١٨، ٥١٩

-ح-

الحبشة ١٢٨، ١٣٠، ١٤١، ١٤٧

١٩٦، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٣٩٣

٣٩٤، ٤٠٤، ٤٠٥، ٥٤٧

الحجاز ٨١، ١١٠، ١١٣، ١١٧

١٢٣، ١٢٤، ٢١٤، ٢٦٢، ٤٢٩

٦٠٠

الحجر ١٩١، ٤٨٩

الحجر الأسود ٥١٦، ٦٠٢

الحديثة ٨٨، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩

٣٨٠، ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٨٨، ٤١٨

٤١٩، ٤٢١، ٤٤٣

الحرم ١٢٥، ١٣٩، ٢٩٥، ٤٤٤

٦٢٧

الحرمين ٣٥

حرة واقم ٢٢٩، ٢٦٢

حرة الوبرة ٢٢٩، ٢٥٩

حصن القموص ٤٢٣

حصن ناعم ٤٢٣

حضر موت ١١٦

حمراء الأسد ٣٣٤

حمص ٤٨٤

حنين ٤٦٥، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٧١

٤٧٢، ٤٧٤، ٤٧٩، ٥٩٦، ٦٠١

صنعاء ١٢٨، ١٣٠، ١٤٦، ٣٥٠
-ط-
الطائف ١٤١، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢،
٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢٦٣،
٢٩٤، ٤٧١، ٤٧٣، ٤٧٩، ٤٨٠

طيسيفيون ٧٤

-ع-

العالية ٢٥١
العراق ٦٢، ١١٢، ١٢٥، ١٤١، ٦٤١
العرج ٥١٥
عرفات (عرفة) ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٠،
٦٢٧
العروض = اليمامة
عسفان ٣٣٦، ٣٧٨، ٥١٥
العقبـة ٨٨، ١٠٩، ١١٠، ٢٢٥،
٢٣٢، ٢٣١، ٢٢٦

عُمان ٤١٦

عُمان الأردن ٣٢

-غ-

الغابة ٤١٨
غار ثور ٢٤٠
غار حراء ١٨٠
غدير خم ٥٢٠
غزة ٤٠٨
فارس ١٣١، ١٥٩، ٢١٣، ٣٥٠،
٣٥٣، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٦، ٤٠٨
فذك ٤٢٩، ٤٣٠

الربع الخالي ١١٦

الرجيع ٤٢١

روما ١٢٣، ١٦٨، ٦٢١

الروحاء ٣١٢

الرياض ٣٢، ٣٣

-ز-

زبيد ١٧٤

زمزم ١١٨، ١٢١، ٥١٩

-س-

سبأ ٤٠٤

سد مأرب ٢٥٨

سرف ٥١٥

سقيفة بني ساعدة ٥٤١

سورية ٧١، ١٢٤، ١٢٥

سوق بني قينقاع ٢٦٩

-ش-

الشام ٦٢، ١٠٢، ١١٢، ١١٧،

١٢٢، ١٢٣، ١٣٩، ١٤١، ١٦٢،

١٦٤، ١٧٢، ٢٢٢، ٢٦٨، ٢٩٩،

٣٠٠، ٣١٨، ٣٤٢، ٣٥٠، ٣٨٥،

٤٥٨، ٤٨٥، ٥٠٥، ٥٠٧، ٥٢٩،

٥٨٤، ٦٠٠، ٦٤١

شبه القارة الهندية ٣٠، ١١٣

شط العرب ١١٠

شعب أبي طالب ٢٠٥، ٦٠٠

-ص-

الصفاء ١٣٤، ١٨٥، ١٩٤، ٢٠٢

المدائن ٧٤، ٣٥٠
 المدينة المنورة ١٠، ٣٢، ٣٤، ٣٦،
 ٤٥، ٤٩، ٨٨، ١٦٣، ٢٢٥،
 ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١،
 ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٩،
 ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٦،
 ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤،
 ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧١،
 ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠،
 ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٩١،
 ٢٩٥، ٣٠٠، ٣٠١، ٣١٢، ٣١٨،
 ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٣٤، ٣٤١،
 ٣٤٣، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥٢، ٣٥٣،
 ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٦٥،
 ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٤، ٣٧٨، ٣٨٤،
 ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٨٨، ٤١٨، ٤٢١،
 ٤٣٠، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٤،
 ٤٤٥، ٤٤٨، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٧٩،
 ٤٨١، ٤٨٤، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠،
 ٤٩١، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠٣، ٥١٣،
 ٥١٤، ٥١٥، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٣٠،
 ٥٣٩، ٥٤٢، ٥٧٣، ٥٨٣، ٥٩٢،
 ٦٠١، ٦٣٣
 مر الظهران ٤٤٩
 المريسيع ٣٧١
 مزدلفة ٥١٨، ٦٢٧
 المسجد الأقصى ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩
 المسجد الحرام ١٣٥، ١٣٦، ٢١٧

الفرات ٩٥، ١٢٣، ١٢٥
 فرنسا ٧٨
 فلسطين ٣٧، ٥٢٩
 -ق-
 القاهرة ٣٢، ٣٤
 قباء ٢٣٤، ٢٤٥، ٢٧٧
 القدس ٢١٨
 قديد ٢٦٢، ٣٧١
 قرطاجنة ٣٩٨، ٣٩٩
 القسطنطينية ٦٩، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١،
 ٤١٥
 القليس ١٢٨
 -ك-
 كارتيج ٣٩٨
 الكعبة ٦٦، ٩٦، ٩٧، ١٠٢، ١٢٦،
 ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٥، ١٣٦،
 ١٤٤، ١٤٨، ١٥٨، ١٧٢، ٢٠٥،
 ٢٠٧، ٢١٢، ٢٤٠، ٢٩٠، ٣٧٧،
 ٤٤٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧،
 ٤٦١، ٤٩٦، ٦٢٠
 كنيسة الإسكندرية ٤١٣
 -ل-
 لاهور ٢٨
 لكهنؤ ٦، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٣، ٤١، ٤٣
 لندن ٣٢
 -م-
 المحيط الهادي ٦٥

٥١٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ،

٦٠١ ، ٦٠٢

المملكة الأردنية الهاشمية ٣٢ ، ٣٤ ،

١٢٣ ، ١٢٤

منى ٥١٦ ، ٥١٨ ، ٥١٩

مهزور ٢٥١

مؤتة ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠ ، ٤٨٦

-ن-

نجد ١١٠ ، ٣٤٢ ، ٣٦٦ ، ٤٢٩ ، ٥٨٧

نجران ١١٨ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧

نخل ٣٤٢

نمرة ٥١٦

نيقية ٤١٤

-ه-

هملايا ٦١٠

الهند ٦ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ،

٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٢ ،

٤٣ ، ٤٤ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٥ ،

٧٦ ، ٧٧ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٤ ، ١١٤ ،

١١٦ ، ١٤١ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ ، ٦١٠ ،

٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠ ، ٦٤١

الهند الوسطى ٦٥

-و-

وادي بطحان ٢٥١

وادي بكة ٩٧

وادي القرى ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٤٠

وج ٢١١

المسجد النبوي ٦٠١

مصر ٣١ ، ٦٢ ، ٧١ ، ١٠٢ ، ١٢٣ ،

١٤١ ، ٣٨٨ ، ٣٩٣ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ ،

٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٦٢٦ ، ٦٤١

معان ٤٣٦ ، ٥٠٥

المغرب ٣٤

مكة المكرمة ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ،

١١٢ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ،

١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،

١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ،

١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،

١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،

١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ،

١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،

٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،

٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،

٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ،

٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ،

٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ،

٢٩٤ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣١٣ ، ٣١٩ ،

٣٢١ ، ٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ،

٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ،

٤٢٩ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ ،

٤٤٧ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ،

٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ،

٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧٩ ، ٤٨٣ ،

٥٠٠ ، ٥٠٣ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٨ ،

اليمامة ١١٠، ١٣٩، ٣٦٨، ٤١٨
 اليمن ١١٠، ١١٢، ١١٨، ١٢٨،
 ١٢٩، ١٣١، ١٣٩، ١٤١، ١٤٦،
 ١٤٧، ٢٢٧، ٢٥٨، ٢٦٦، ٣٥٠،
 ٤٠٥، ٤٠٧، ٤٥٨، ٥٠٤، ٥٠٥،
 ٥٨٤، ٥٠٦
 اليونان ٩٠، ١٠٩، ١١٥، ١١٦، ١٢٣،

الولايات المتحدة الأمريكية ٣٦٥

-ي-

يثرب ٤٨، ١١٢، ١١٨، ١٦٢،
 ١٦٣، ٢٠٩، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٩،
 ٢٣٠، ٢٣١، ٢٤٩، ٢٥٨، ٢٥٩،
 ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٧١،
 ٢٨٠، ٢٨١
 اليرموك ٨٨

فهرس الصور والنخراط

٥٦	خريطة الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية
٦٨	خريطة الوضع السياسي للجزيرة العربية قبل الإسلام
١٠٧	خريطة توزيع القبائل العربية في جزيرة العرب
١٠٨	خريطة بعض الأوثان التي عبدها العرب في الجاهلية
١٢٧	خريطة أصحاب الفيل
١٣٧	خريطة مكة المكرمة
١٤٠	مكة المكرمة في زمن الرسول ﷺ
١٥٣	شجرة النبي ﷺ
١٦١	خريطة ديار بني سعد
١٩٧	خريطة الهجرة إلى الحبشة
٢١٠	خريطة طريق رسول الله ﷺ
٢٣٧	خريطة هجرة الرسول ﷺ
٢٧٢	خريطة أثرية تقريبيه للمدينة المنورة
٢٧٣	مساكن القبائل الهامة ومواقع الغزوات الإسلامية
٢٩٧	خريطة السرايا قبل غزوة بدر
٢٩٨	خريطة غزوة بدر الكبرى ١٧ رمضان ٢هـ
٣٠٧	رسم ساحة القتال في غزوة بدر
٣١٥	خريطة السرايا والغزوات بين بدر وأحد
٣١٦	خريطة إجلاء بني قينقاع شوال سنة ٢ للهجرة
٣٢٠	خريطة غزوة أحد ١٥ شوال ٣ هجرية

- ٣٢٤ رسم ساحة القتال في غزوة أحد
- ٣٣٧ خريطة يوم الرجيع
- ٣٤٠ خريطة إجلاء بني النضير ربيع الأول سنة ٤ هجرية
- ٣٤٤ خريطة السرايا والغزوات بين أحد والخندق
- ٣٤٦ خريطة غزوة الخندق شوال ٥ هـ
- ٣٦٧ خريطة إجلاء بني قريظة سنة ٥ هجرية
- ٣٧٠ غزوة بني المصطلق شعبان ٥ هجرية
- ٣٨٩ خريطة غزوة الحديبية ذي القعدة ٦ هجرية
- ٣٩٠ خريطة كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك
- ٤١٧ كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى
- ٤٢٠ خريطة غزوة خيبر محرم ٧ هجرية
- ٤٣١ خريطة عمرة القضاء ٧ هجرية
- ٤٣٤ خريطة غزوة مؤتة جمادى الأولى ٨ هجرية
- ٤٤٢ خريطة مكة المكرمة رمضان ٨ هجرية
- ٤٦٤ خريطة السرايا والغزوات بعد فتح مكة رمضان ٨ هـ - ٣ ربيع ٢ - ٩ هجرية
- ٤٦٦ خريطة غزوة حنين شوال ٨ هجرية
- ٤٨٢ خريطة غزوة العسرة رجب ٩ هجرية
- ٥٠٠ خريطة السرايا والغزوات بعد فتح مكة رجب ٨ هـ - صفر ١١ هـ
- ٥٠٢ خريطة عام الوفود
- ٥٠٩ خريطة سرايا تكسير الأصنام
- ٥١٢ خريطة حجة الوداع والطريق الذي سلكه النبي ﷺ
- ٥٣٠ خريطة آخر بعوث النبي ﷺ جيش أسامة بن زيد

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
بين يدي الكتاب	٥
الشيخ أبو الحسن الندوي و « السيرة النبوية »	٩
ترجمة العلامة المؤلف - رحمه الله تعالى -	٢٥
اسمه ونسبه وأسرته	٢٦
ميلاده ونشأته	٢٧
دراسته الجامعية	٢٨
في سلك التدريس	٢٨
نشاطاته الدعوية والإصلاحية	٢٩
رحلته مع الكتابة والتأليف	٣٠
رئاسة تحرير للمجلات والجرائد الإسلامية والإشراف عليها	٣١
رحلاته	٣١
تقدير وتكريم	٣٢
رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع	٣٣
وفاته	٣٤
خُلِقَهُ وَخُلِقَ لَهُ	٣٥
مؤلفاته	٣٦
الموضوع	٣٩
مقدمة الطبعة الحادية عشرة	٤١
تقديم الطبعة السابعة	٤٢

٤٤ مقدمة الكتاب في طبعته الأولى

٥٧ الفصل الأول : مدخل إلى السيرة النبوية

العصر الجاهلي :

١٠٦ - ٥٩

٥٩ نظرة إجمالية على الوضع الديني في القرن السادس المسيحي

٥٩ ١ - اليهودية

٦٠ ٢ - المسيحية

٦٢ ٣ - المجوس

٦٤ ٤ - البوذية

٦٤ ٥ - البرهمية

٦٦ ٦ - الجاهلية العربية

٦٩ إطلالة على البلاد والأمم في القرن السادس المسيحي

٦٩ ١ - الإمبراطورية الرومانية الشرقية

٧١ ٢ - الإمبراطورية الإيرانية الساسانية

٧٥ ٣ - الهند

٧٧ ٤ - أوربة

٧٨ ٥ - الجزيرة العربية في العصر الجاهلي

٨٣ ظلام مطبق ويأس قاتل

٨٤ نظرة عامة على العصر الجاهلي

٨٥ ظهر الفساد في البر والبحر

٨٧ لماذا بُعث النبي ﷺ في جزيرة العرب؟

١٠٠ فترة حالكة مؤيَّسة

١٠٣ الحاجة إلى نبيٍّ مرسل

جزيرة العرب قبل البعثة :

١٣١ - ١٠٩

١٠٩ تحديد جزيرة العرب

١١٠	طبيعة الجزيرة وأهلها
١١٢	مراكز عمران وحضارة
١١٢	طبقات العرب
١١٣	وحدة اللغة
١١٤	جزيرة العرب في تاريخ الأمم والديانات
١١٦	صلة الجزيرة بالنبوءات والأديان السماوية
١١٨	إسماعيل عليه السلام في مكة
١٢٠	قبيلة قريش
١٢١	قصي بن كلاب وأولاده
١٢٢	بنو هاشم
١٢٢	الوثنية في مكة، تاريخها ومصادرها
١٢٦	حادثة الفيل
١٢٨	إيمان قريش بمكانة البيت عند الله
١٣٠	وقع حادثة الفيل ودلالاتها

مكة زمن البعثة وعند ظهور الإسلام

١٣٣ - ١٤٩

١٣٣	مكة مدينة لا قرية
١٣٦	نشأة مكة الجديدة وصاحبها
١٣٦	تنظيم حياة وتوزيع مناصب ومسؤوليات
١٣٩	النشاط التجاري؛ وحركة التصدير والاستيراد
١٤٢	الحالة الاقتصادية والعملية والمكايل
١٤٣	أثرياء قريش ومترفوها
١٤٤	الصناعات والثقافة والآداب في مكة
١٤٥	القوة الحربية
١٤٦	كبرى مدن الجزيرة وعاصمتها الروحية والاجتماعية
١٤٧	الناحية الخلقية

١٤٨ الناحية الدينية

١٥١ الفصل الثاني : من الولادة الكريمة إلى البعثة العظيمة

١٥٧ - ١٧٦

١٥٣ شجرة النبي ﷺ

١٥٧ من الولادة الكريمة إلى البعثة العظيمة

١٥٧ عبد الله وآمنة

١٥٧ ولادته الكريمة ونسبه الزكي

١٥٨ إمارات خارقة للعادة لولادة عالم جديد ، وبعث للإنسانية جديد

١٥٩ رضاعته - ﷺ -

١٦٢ وفاة عبد الله وآمنة وعبد المطلب وكفالة أبي طالب

١٦٤ قصة الراهب بحيرى

١٦٦ مثال غريب من التعصب الديني والإمعان في الافتراض والتخمين

١٧٠ التربية الإلهية

١٧١ زواجه - ﷺ - من خديجة

١٧٢ قصة بنيان الكعبة ودرء فتنة عظيمة

١٧٤ حلف الفضول

١٧٥ قلق غامض وعدم ترقب لنبوة أو رسالة

١٧٧ الفصل الثالث : العهد المكي من البعثة إلى الهجرة

١٧٩ - ٢٤٨

١٧٩ العهد المكي من البعثة إلى الهجرة

١٧٩ تبشير الصبح وطلائع السعادة

١٨٠ في غار حراء

١٨٠ مبعثه - ﷺ -

١٨١ في بيت خديجة رضي الله عنها

١٨٢ بين يدي ورقة بن نوفل

- ١٨٣ إسلام خديجة رضي الله عنها وأخلاقها
- ١٨٣ إسلام علي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة رضي الله عنهما
- ١٨٣ إسلام أبي بكر بن قحافة وفضله في الدعوة إلى الإسلام
- ١٨٤ إسلام أشراف من قريش
- ١٨٤ الدعوة جهاراً على جبل الصفا
- ١٨٤ الحكمة البليغة في الدعوة والتعليم
- ١٨٦ إظهار قومه العداوة وحذب أبي طالب عليه
- ١٨٧ بين رسول الله - ﷺ - وأبي طالب
- ١٨٧ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري
- ١٨٨ تعذيب قريش للمسلمين
- ١٩١ محاربة قريش لرسول الله ﷺ وتفننهم في الإيذاء
- ١٩٢ ما فعل كفار قريش بأبي بكر
- ١٩٣ خيرة قريش في وصف رسول الله ﷺ
- ١٩٣ قسوة قريش في إيذاء رسول الله ﷺ ومبالغتهم في ذلك
- ١٩٤ إسلام حمزة بن عبد المطلب
- ١٩٤ ما دار بين عتبة وبين رسول الله ﷺ
- ١٩٦ هجرة المسلمين إلى الحبشة
- ١٩٨ تعقب قريش للمسلمين
- ١٩٨ تصوير جعفر بن أبي طالب للجاهلية وتعريفه بالإسلام
- ٢٠٠ خيبة وفد قريش
- ٢٠٢ إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه
- ٢٠٥ مقاطعة قريش لبني هاشم والإضراب عنهم
- ٢٠٥ في شعب أبي طالب
- ٢٠٦ نقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة
- ٢٠٧ وفاة أبي طالب وخديجة
- ٢٠٧ وقع القرآن في القلوب السليمة

٢٠٩	الخروج إلى الطائف وما لقي فيها من الأذى
٢٠٩	أضواء على الطائف
٢١٥	في الطائف
٢١٧	الإسراء والمعراج
٢١٨	معاني الإسراء والمعراج العميقة ومراميها البعيدة
٢١٩	فرض الصلوات
٢٢٠	عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل
٢٢٠	الطريق إلى الإسلام
٢٢٣	الفصل الرابع : الهجرة إلى المدينة المنورة
٢٢٥	إسلام الأنصار
٢٢٦	بيعة العقبة الأولى
٢٢٦	سبب تهيؤ الأنصار للإسلام
٢٢٩	خصائص المدينة المنورة (يثرب)
٢٣١	انتشار الإسلام في المدينة
٢٣١	بيعة العقبة الثانية
٢٣٢	إذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة
٢٣٥	تأمر قريش على رسول الله ﷺ الأخير وخيبتهم فيما أرادوا
٢٣٩	هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة
٢٣٩	تناقض غريب
٢٣٩	درس من الهجرة
٢٤٠	إلى غار ثور
٢٤١	من روائع الحب
٢٤١	ولله جنود السموات والأرض
٢٤٢	أدق لحظة مرت بها الإنسانية
٢٤٢	لا تحزن إن الله معنا
٢٤٣	ركوب سراقه في أثر الرسول ﷺ وما وقع له

٢٤٤	نبوة لا يسغها العقل المادي
٢٤٤	رجل مبارك
٢٤٧	الفصل الخامس : العهد المدني
	تصوير المدينة عند الهجرة :
	٢٤٩ - ٢٧١
٢٤٩	اختلاف بين المجتمع المكي والمجتمع المدني
٢٤٩	اليهود
٢٥٨	الأوس والخزرج
٢٦٠	الوضع الطبيعي
٢٦٢	الحالة الدينية والمكانة الاجتماعية
٢٦٥	الحالة الاقتصادية والحضارية
٢٧١	الوضع المعقد الذي واجهه الرسول ﷺ في مدينة يثرب
	في المدينة :
	٢٧٥ - ٢٩٦
٢٧٥	كيف استقبلت المدينة رسول الله ﷺ
٢٧٧	مسجد قباء وأول جمعة في المدينة
٢٧٨	في بيت أبي أيوب الأنصاري
٢٧٩	بناء المسجد النبوي والمساكن
٢٨١	المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
٢٨٢	كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار وموادعة اليهود
٢٨٣	شرع الأذان
٢٨٣	ظهور النفاق والمنافقين في المدينة
٢٨٥	طلائع عداء اليهود
٢٨٩	تحول القبلة
٢٩١	تحرش قريش بالمسلمين بالمدينة
٢٩٣	الإذن بالقتال

٢٩٣	سرية عبد الله بن جحش
٢٩٦	غزوة الأبواء
٢٩٦	فرض صوم رمضان
٢٩٩	معركة بدر الحاسمة : سنة اثنتين من الهجرة

٢٩٩ - ٣١٤

٢٩٩	أهمية معركة بدر
٣٠١	تجاوب الأنصار وتفانيهم في الطاعة
٣٠٢	تنافس الغلمان في الجهاد والشهادة
٣٠٣	التفاوت بين المسلمين والكفار في العدد والعدد
٣٠٤	أمرهم شورى بينهم
٣٠٥	الرسول القائد
٣٠٥	استعداد للمعركة
٣٠٦	دعاء وتضرع ومناشدة وشفاعة
٣٠٨	تعريف دقيق بالامة وتحديد لمركزها ورسالتها
٣٠٩	هذان خصمان اختصموا في ربهم
٣٠٩	التحام الفريقين ونشوب الحرب
٣١٠	أول قتيل
٣١١	مسابقة الإخوة الأشقاء في قتل أعداء الله ورسوله
٣١١	الفتح المبين
٣١٢	وقع معركة بدر
٣١٣	إخاء العقيدة فوق إخاء الولادة
٣١٣	كيف عامل المسلمون الأسرى
٣١٤	تعليم غلمان المسلمين فداء الأسرى
٣١٧	غزوات وسرايا بين بدر وأحد
٣١٧	غزوة السويق

٣١٧	إجلاء بني قينقاع
٣١٩	قتل كعب بن الأشرف

غزوة أحد :

٣٢١ - ٣٤٣

٣٢١	الحمية الجاهلية و أخذ الثأر
٣٢٢	في ميدان أحد
٣٢٣	مسابقة بين أتراب
٣٢٣	المعركة
٣٢٥	شهادة حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير رضي الله عنهما
٣٢٥	غلبة المسلمين
٣٢٦	كيف دارت الدائرة على المسلمين
٣٢٧	روائع من الحب والفداء
٣٣٠	عودة المسلمين إلى مركزهم
٣٣٢	صبر امرأة مؤمنة
٣٣٣	كيف دفن مصعب بن عمير وشهداء أحد ؟
٣٣٤	إيثار النساء لرسول الله ﷺ
٣٣٤	اتباع المسلمين أثر العدو واستماتتهم في نصره الرسول ﷺ
٣٣٥	تربية نفوس المسلمين
٣٣٦	أحب إلى النفس من النفس
٣٣٨	بئر معونة
٣٣٩	كلمة قتيل كانت سبباً لإسلام القاتل
٣٤١	إجلاء بني النضير
٣٤٢	غزوة ذات الرقاع
٣٤٣	من يمنعك مني ؟
٣٤٣	غزوات لم يكن فيها قتال

غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب : شوال سنة خمس من الهجرة

٢٤٧ - ٢٥٧

- ٣٤٧الحكمة ضالة المؤمن
- ٣٤٨روح المساواة والمواساة بين المسلمين
- ٣٤٩نور الفتوح الإسلامية في ظلام الحصار والشدة
- ٣٥٠المعجزات النبوية في الغزوة
- ٣٥٢إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم
- ٣٥٣بين فارس الإسلام وفارس الجاهلية
- ٣٥٤أم تحرض ابنها على القتال والشهادة
- ٣٥٤ولله جنود السموات والأرض
- ٣٥٩غزوة بني قريظة : سنة خمس من الهجرة

٣٥٩ - ٣٧٥

- ٣٥٩نقض بني قريظة العهد
- ٣٦١المسير إلى بني قريظة
- ٣٦١ندم أبي لبابة وتوبة الله عليه
- ٣٦٢آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم
- ٣٦٣موافقة لشريعة بني إسرائيل
- ٣٦٦العفو عمن ظلم وعطاء من حرم
- ٣٦٩غزو بني المصطلق وقصة الإفك
- ٣٧٢قصة الإفك
- ٣٧٧صلح الحديبية : ذو القعدة سنة ست من الهجرة

٣٧٧ - ٣٨٨

- ٣٧٧رؤيا رسول الله ﷺ وتهيب المسلمين لدخول مكة
- ٣٧٨إلى مكة بعد عهد طويل
- ٣٧٩فزع قريش من دخول المسلمين في مكة

٣٧٩	امتحان الحب والوفاء
٣٨٠	بيعة الرضوان
٣٨٠	وساطات ومفاوضات
٣٨١	معاهدة و صلح
٣٨١	حكمة وحلم وتنازل
٣٨٢	صلح وامتحان
٣٨٤	بلاء المسلمين في الصلح والعودة إلى المدينة
٣٨٤	صلح مهين أم فتح مبین؟
٣٨٥	عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم
٣٨٥	كيف تحول الصلح إلى الفتح والنصر؟
٣٨٨	إسلام خالد بن الوليد وعمر بن العاص

دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام : أواخر سنة ست وأوائل سبع

٣٩١	من الهجرة
-----	-----------

٤١٨ - ٣٩١

٣٩١	دعوة وحكمة
٣٩٣	الكتب التي أرسلت إلى الملوك
٣٩٣	وجاء في كتابه ﷺ إلى كسرى أبرويز
٣٩٤	وكتب إلى النجاشي ملك الحبشة
٣٩٤	وكتب إلى المقوقس عظيم القبط
٣٩٦	اعتبارات حكيمة خاصة بالملوك الذين وجهت إليهم هذه الرسائل
٣٩٧	من هم هؤلاء الملوك؟
٣٩٨	هرقل الأول قيصر الروم (٦١٠ - ٦٤١م)
٤٠٠	كسرى أبرويز (خسرو أبرويز الثاني ٥٩٠ - ٦٢٨م)
٤٠٢	المقوقس
٤٠٤	النجاشي

- ٤٠٦ كيف تلقى هؤلاء الملوك هذه الرسائل الكريمة ؟
- ٤٠٨ حوار بين هرقل وأبي سفيان
- ٤١١ من هم الأريسيون ؟
- ٤١٦ رسائل إلى أمراء العرب
- ٤١٨ غزوة بني لحيان وغزوة ذي قرد

٤١٩ غزوة خيبر : سنة سبع من الهجرة

٤١٩ - ٤٣٣

- ٤١٩ جائزة من الله
- ٤٢١ جيش مؤمن تحت قيادة نبي
- ٤٢٣ قائد منصور
- ٤٢٣ بين أسد الله وبطل اليهود
- ٤٢٤ عمل قليلاً وأجر كثيراً !
- ٤٢٥ ما على هذا اتبعتك !
- ٤٢٦ شرط البقاء في خيبر
- ٤٢٦ روح التسامح الديني
- ٤٢٧ قدوم جعفر بن أبي طالب
- ٤٢٧ محاولة أئمة لليهود
- ٤٢٨ أثر غزوة خيبر
- ٤٢٩ فتوح ومغانم
- ٤٣٠ تعفف المهاجرين
- ٤٣٢ عمرة القضاء
- ٤٣٢ التنافس في حضانة البنت وتكافؤ المسلمين في الحقوق
- ٤٣٥ غزوة مؤتة : جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة

٤٣٥ - ٤٤١

- ٤٣٥ قتل سفير المسلمين وعقوبته

٤٣٥	أول جيش في أرض الروم
٤٣٦	ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة
٤٣٧	قتال المستميتين وصوله الأسود
٤٣٨	قيادة خالد الحكمة
٤٣٩	خبر عيان لا بيان
٤٣٩	الطيار ذو الجناحين
٤٣٩	حب نبوي وعاطفة إنسانية
٤٤٠	كرارون لا فرارون
٤٤٠	بين مؤتة وفتح مكة
٤٤٣	فتح مكة : رمضان سنة ثمان من الهجرة

٤٤٣ - ٤٦٣

٤٤٣	تمهيد لفتح مكة
٤٤٣	نقض بني بكر وقريش الحلف
٤٤٤	الاستغاثة برسول الله ﷺ
٤٤٥	براءة الذمة وإقامة الحجة
٤٤٥	محاولة قريش لتجديد العهد
٤٤٥	إيثار النبي على الآباء والأبناء
٤٤٦	حيرة أبي سفيان وإخفاقه
٤٤٦	التأهب لمكة وكتاب حاطب بن أبي بلتعة
٤٤٩	عفو عمن ظلم
٤٤٩	أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ
٤٥٠	عفو عام وأمن بسيط
٤٥١	أبو سفيان أمام موكب الفتح
٤٥٢	دخول خاشع متواضع لا دخول فاتح متعال
٤٥٣	مرحمة لا ملحمة

٤٥٣	مناوشات قليلة
٤٥٤	تطهير الحرم من الأوثان
٤٥٤	اليوم يوم بر ووفاء
٤٥٥	الإسلام دين توحيد ووحدية
٤٥٦	نبي المحبة ورسول الرحمة
٤٥٧	لا تمييز في تنفيذ حدود الله
٤٥٧	عفو عن الأعداء الألداء
٤٥٨	بين هند بنت عتبة وبين رسول الله ﷺ
٤٦٠	المحيا محياكم والممات مماتكم
٤٦٠	كيف انقلب العدو محباً والماجن تقياً
٤٦١	إزالة آثار الجاهلية وشعائر الوثنية
٤٦٢	أثر فتح مكة
٤٦٣	أمير شاب حديث السن
٤٦٥	غزوة حنين : شوال سنة ثمان من الهجرة

٤٦٥ - ٤٧٢

٤٦٥	محاولة أخرى لإطفاء نور الله بالأفواه
٤٦٥	اجتماع هوازن
٤٦٧	لا رجعة للوثنية
٤٦٨	في وادي حنين
٤٦٩	شماتة الأعداء وتزلزل ضعاف الإيمان
٤٦٩	الفتح والسكينة
٤٧١	آخر غزوة ضد الإسلام والمسلمين
٤٧١	في أوطاس

٤٧٣	غزوة الطائف : شوال سنة ثمان من الهجرة
-----	---------------------------------------

٤٧٣ - ٤٨١

٤٧٣	فلول ثقيف
٤٧٣	حصار الطائف
٤٧٤	الرحمة في ميدان الحرب
٤٧٤	رفع الحصار
٤٧٤	سبايا حنين ومغانمها
٤٧٥	حب الأنصار وإيثارهم
٤٧٧	رد السبايا على هوازن
٤٧٨	رقة وكرم
٤٧٩	عمرة الجعرانة
٤٧٩	طائعون لا كارهون
٤٨٠	لا هوادة مع الوثنية
٤٨٠	إسلام كعب بن زهير
٤٨٣	غزوة تبوك : رجب سنة تسع من الهجرة
	٤٨٣ - ٤٩٩
٤٨٣	أثر غزوة تبوك النفسي وسببها
٤٨٦	زمن الغزوة
٤٨٨	تنافس الصحابة في الجهاد والمسير
٤٨٨	مسير الجيش إلى تبوك
٤٨٩	تخوف العرب من الروم
٤٩٠	الصلح بين الرسول وأصحاب أيلة
٤٩٠	عودة الرسول إلى المدينة
٤٩١	في جنازة مسلم مسكين
٤٩١	ابتلاء كعب بن مالك ونجاحه فيه
٤٩٥	نظرة على الغزوات
٤٩٩	أول حج في الإسلام

- ٥٠١ عام الوفود : سنة تسع من الهجرة
٥٠١ - ٥١١
- ٥٠١ تقاطر الوفود إلى المدينة وأثرها في الحياة
- ٥٠٨ بين وثني جاهل وبين نبي معلم
- ٥١١ فرض الزكاة والصدقات
- ٥١٣ حجة الوداع : سنة عشر من الهجرة
٥١٣ - ٥٢٣
- ٥١٣ حجة الوداع وأوانها
- ٥١٣ قيمتها البلاغية والتربوية
- ٥١٤ تسجيل دقائق حجة النبي
- ٥١٤ سياق حجته - ﷺ - إجمالاً
- ٥١٤ كيف حج النبي - ﷺ - ؟
- ٥٢٠ خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع
- ٥٢٥ الوفاة : ربيع الأول السنة الحادية عشرة للهجرة
٥٢٥ - ٥٤٣
- ٥٢٥ كمال مهمة التبليغ والتشريع ودنو ساعة اللقاء
- ٥٢٦ مدارس القرآن ومضاعفة اعتكاف رمضان
- ٥٢٧ الشوق إلى لقاء الله وتوديع الدنيا
- ٥٢٨ شكوى رسول الله ﷺ
- ٥٢٩ آخر البعوث
- ٥٢٩ الاهتمام ببعث أسامة
- ٥٣١ دعاء للمسلمين وتحذير لهم عن العلو والكبرياء
- ٥٣٢ زهد في الدنيا وكراهة لما فضل من المال
- ٥٣٢ اهتمام بالصلاة وإمامة أبي بكر
- ٥٣٣ خطبة الوداع

- ٥٣٤ وصية الأنصار
- ٥٣٥ آخر نظرة إلى المسلمين وهم صفوف في الصلاة
- ٥٣٦ تحذير من عبادة القبور واتخاذها مساجد
- ٥٣٦ الوصية الأخيرة
- ٥٣٨ كيف فارق رسول الله ﷺ الدنيا ؟
- ٥٣٩ كيف تلقى الصحابة نبأ الوفاة ؟
- ٥٤٠ موقف أبي بكر الحاسم
- ٥٤١ بيعة أبي بكر بالخلافة
- ٥٤١ كيف ودع المسلمون رسولهم وصلوا عليه ؟
- ٥٤٥ أزواجه أمهات المؤمنين ، وأولاده وأسباطه ﷺ

٥٤٥ - ٥٥٧

- ٥٤٥ أزواجه ﷺ
- ٥٤٧ وقفة قصيرة عند تعدد الزوجات
- ٥٥٤ أولاده وأسباطه ﷺ
- ٥٥٥ الفرق بين نبي مرسل وزعيم سياسي
- ٥٥٩ الفصل السادس : الأخلاق والشمائل

٥٦١ - ٦٠٣

- ٥٦١ الأخلاق والشمائل
- ٥٦١ صفة رسول الله ﷺ خلقاً وخلُقاً
- ٥٦٦ مع الله تعالى
- ٥٦٨ نظرتة - ﷺ - إلى الحياة وزهده فيها
- ٥٧٢ مع الناس
- ٥٧٧ اعتدال الفطرة وسلامة الذوق
- ٥٧٩ في منزله ومع أهله وعياله
- ٥٨٠ تقديم الأقربين في المخاوف والمغارم وتأخيرهم في الرخاء والمغانم

- ٥٨٢ رقة الشعور الإنساني ونبيل العاطفة
- ٥٨٥ كرمه وحلمه
- ٥٨٩ الحفاظ على أصالة الدين والغيرة على روحه وتعاليمه
- ٥٩٢ تواضعه ﷺ
- ٥٩٤ شجاعته وحيأؤه
- ٥٩٦ رأفة عامة ورحمة واسعة
- ٦٠٠ أسوة كاملة وقدوة عامة

الفصل السابع : فضل البعثة المحمدية على الإنسانية ومنحها العالمية

- ٦٠٥ الخالدة :

٦٠٧ - ٦٩٣

- ٦٠٧ فضل البعثة المحمدية على الإنسانية ومنحها العالمية الخالدة
- ٦٠٧ أ - فضل البعثة المحمدية على الإنسانية
- ٦٠٧ ١ - إعلان فريد في تاريخ الرسالات والديانات
- ٦١٠ ٢ - قيمة الرحمة التي اقترنت بالبعثة المحمدية كمأ وكيفاً
- ٦١٢ ٣ - البعثة المحمدية أنقذت الجيل البشري من الشقاء والهلاك
- ٦١٤ ٤ - مهمة النبوة ودورها في الإنقاذ والإسعاد، وطبيعة عمل الأنبياء
- ٦١٧ ٥ - تصوير العصر الجاهلي وتهيؤه للانهيأر والانتحار
- ٦٢٢ ب - العالم الجديد في حساب البعثة المحمدية ومنحها
- ٦٢٢ منح البعثة المحمدية الست، وأثرها في تاريخ الإنسان
- ٦٢٢ ١ - عقيدة التوحيد النقية الواضحة
- ٦٢٤ ٢ - مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية
- ٦٢٧ ٣ - إعلان كرامة الإنسان وسموه
- ٦٢٧ ٤ - محاربة اليأس والتشاؤم، وبعث الأمل والرجاء والثقة والاعتزاز في
- ٦٣٠ نفس الإنسانية

٥ - الجمع بين الدين والدنيا وتوحيد الصفوف المتنافرة، والمعسكرات	
التجارية	٦٣٥
٦ - تعيين الأهداف والغايات، وميادين العمل والكفاح	٦٣٩
ولادة عالم جديد، وإنسان جديد	٦٤١
جداول الغزوات والسرايا	٦٤٥
أ - الغزوات	٦٤٦
ب - السرايا	٦٥٧
جدول الأحداث المتعلقة بالسيرة النبوية	٦٧٩
الفهارس العامة	٦٨٣
فهرس المراجع العربية	٦٨٥
فهرس المراجع الأجنبية	٦٩٢
فهرس الآيات القرآنية الكريمة	٦٩٤
فهرس الأحاديث والآثار النبوية الشريفة	٧٠٥
فهرس الأشعار	٧٢١
فهرس الأعلام	٧٢٣
فهرس القبائل والأقوام	٧٣٥
فهرس الأمكنة والمواضع	٧٤٠
فهرس الصور والخرائط	٧٤٧
فهرس الموضوعات	٧٤٩

PROPHETIC BIOGRAPHY

By:

Sayyid Abul Hasan Ali Nadwi

Edited and Revised By:

Sayyid Abdul Majid Ghouri

هذا الكتاب

إنَّ هذا الكتاب كتبه رجلٌ استقى عِرْضَهُ من منبع النُّبُوَّةِ ،
وَرَبَّيَ منذ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ على التَّعَلُّقِ بالسَّيْرَةِ ، وَحُبِّ صَاحِبِهَا
- عليه ألف ألف سلام - والاهتداء بهديه في الأمور كُلِّهَا ،
فَعَاشَ في السَّيْرَةِ ، وَعَاشَتْ فِيهِ السَّيْرَةُ وَشَكَّلَتْ عُنْصُرًا أَساسِيًّا
في ثقافته وحياته . جَمَعَ في قراءتها بين ما كُتِبَ قديمًا وحديثًا
بالعربية والفارسية والأردوية والإنكليزية .

هذا الكتابُ شاملٌ لأَكْبَرِ مقدار من القِطْعِ النابضة الدافقة
بالحيوية والتأثير ، الأَسْرَةَ للقلوب والنفوس ، فيتجلَّى في
الكتابُ العَقْلُ والعاطفة جواراً بجوار ، مع جمال العرض ،
وَحُسْنِ الترتيب ، وجودة التلخيص .

هذا الكتابُ يغْذِي عاطفة الحب والحنان ، ويفتقُ القرائعَ ،
ويشعل المواهبَ ، ويعطي القوَّةَ في البيان ، والتأثيرَ في العقول
والقلوب ، والدلائلَ القوية ، والأمثلةَ البليغة في مجال الدعوة
والتربية .

هذا الكتابُ مؤسَّسٌ على مصادر السيرة الأولى الأصلية ،
مطابقاً لما جاء في القرآن والسنة الصحيحة .

أسلوبُ هذا الكتابِ عصريٌّ عمليٌّ فريدٌ ، استفيد فيه من خير
ما كُتِبَ في القديم والحديث .

إنَّه هديةٌ قيِّمةٌ لقارئ السيرة النبوية .

□ □ □



دمشق - ص . ب ٣١١

بيروت - ص . ب ١١٣ / ٦٣١٨

Info@ibn-Katheer.Com
www.ibn-Katheer.Com